مؤتمر تعظيم حرمات الإسلام

مجلة البيان

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م

ح مجلة البيان ، ١٤٢٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
مؤتمر تعظيم حرمات الإسلام/ مجلة البيان-
الرياض ١٤٢٨هـ
ص ٨٠٩؛ ١٧× ٢٤ سم
ردمك: ٦ - ٣ - ٩٨٣٥ - ٩٩٦٠

١ـ الحلال والحرام أ ـ العنوان

ديوي ٢٥٩ ١٤٢٨/٢٦٢٨

رقم الإيداع : ١٤٢٨/٢٦٢٨

ردمك: ٦ ـ ٣ ـ ٩٨٣٥ ـ ٩٩٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، ونشهد أن لا إله إلى الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، عَلَمُ الهداية وتمام الرسالة وختم النبوة، نبينا وحبيبنا محمد ﷺ الذي جعل القرآن الإيمان به وتوقيره وتعزيره ومحبته والذود عنه وعن رسالته من أعظم القربات، أما بعد:

فقد تزايدت في الآونة الأخيرة ظاهرة التطاول على حرمات الدين الإسلامي ومقدساته، من أصناف متعددة من المعادين للدين، وعلى رأسهم جهات متنفذة من كفار أهل الكتاب، حيث يقومون منذ مدة بما يشبه (تبادل الأدوار) في التعدي على المسلمين، فبينما تقوم قوى غربية بالتهييج ضد المسلمين والتحرش بهم من خلال مواجهات عسكرية وتضييقات أمنية، يتربص آخرون بالمسلمين فكرياً وحضارياً، لتتكامل معالم هجمة صليبية معاصرة، تتنوع فيها الساحات، وتبتكر فيها الوسائل، وتتخير الأوقات والمناسبات التي تثار فيها في كل مرة فتنة استغضاب عالمي للمسلمين.

وقد صارت حملة الاستغضاب والاستفزاز شاملة، من غالب دول العالم الغربي على اختلاف أنظمته السياسية ومذاهبه الدينية، فمن أمريكا البروتستانتية التي أشعلت نار الحرب العالمية على الإسلام منذ سنوات، صدرت سلسلة من أعمال الإهانة المتعمدة، مثل إلقاء أوراق

المصحف أو استعمالها في المراحيض، والتبول عليها أمام المعتقلين المسلمين في معتقل جوانتانامو، وكذلك التطاول شبه الرسمي على القرآن الكريم من خلال السماح بطباعة آلاف من النسخ من كتاب شاذ ومنكر في العداوة والهزء بالإسلام عقيدة وشريعة وقيماً، أطلقوا عليه اسم (الفرقان). وإضافة إلى ذلك التعدي الفاضح، فقد تعاطفت أوروبا مع بروتستانت الدنمرك، خلال أزمة الرسوم المسيئة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث تكررت بشكل متعمد إعادة نشر الرسوم في العديد من الصحف والدوريات الأوروبية. أما الكاثوليك، فقد بدأت الإساءة من فرنسا، خلال أحداث أزمة الحجاب، التي منعت الحكومة الفرنسية فيها الطالبات المسلمات من ارتداء الحجاب في المدارس ضاربة عرض الحائط بقيم الحرية والعدالة والمساواة المدعاة.

ثم جاءت الإساءة الكبرى على لسان كبيرهم وحبرهم الأعظم (بابا الفاتيكان) من خلال تصريحاته المجحفة بالإسلام ورسول الإسلام ﷺ، دون أن يصرح بالتراجع أو الاعتذار عما قال، متأسياً بحكومة الدانمرك التي امتنعت عن الاعتذار خلال أزمة الرسوم المسيئة وبعدها.

وفي الوقت نفسه فإن جماعة من أهل الأهواء من بني جلدتنا تجرؤوا على حدود الشريعة، وتطاولوا على ثوابت الدين، وراحت أقلامهم الملوثة تعبث في نصوص الكتاب والسنة، تارة باسم حرية الفكر، وتارة أخرى تحت عنوان النقد العلمي، وتارة ثالثة تحت مظلة الرواية والقصيدة والمسلسلات التلفزيونية..وهكذا، وصدق المولى جلَّ وعلا: ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٢].

لهذه الأسباب؛ عقد مؤتمر إسلامي في الكويت بتنظيم مجلة البيان ومبرة الأعمال الخيرية، يضم نخبة من العلماء والدعاة والمثقفين من أنحاء مختلفة من العالم الإسلامي، لتوعية الأمة بفداحة الخطر من استمرار تلك الظاهرة، وضرورة إدراك أبعادها، ووجوب التصدي لها.

أهداف المؤتمر:

١- دراسة هذه الظاهرة المتكررة والمتصاعدة، للوصول إلى أسبابها ودوافعها.

٢- محاولة التعرف على خلفيات تدبير هذه التصرفات.

٣- تحديد التوصيف الشرعي لهذه الأفعال، وبلورة موقف علمي وعملي منها.

٤- توجيه الأدوار المقترحة لفعاليات الأمة ونخبها العلمية والفكرية، تواصلاً مع جماهير الأمة، واقتراح التوصيات في ذلك.

ونظراً لما تتسم به بحوث المؤتمر من أهمية، وما احتوت عليه من نتاج علمي مشكور، وطلباً لنشر الفائدة وتعميمها، فإن القائمين على المؤتمر رأوا طباعتها في كتاب واحد يَسْهُل على المهتمين اقتناؤه.

وقد تم ترتيب هذه البحوث حسب تقديمها خلال أنشطة المؤتمر، وقد نُسقت حسب ما وردت إلينا من الباحثين دون أي تعديل، وهي تمثل اجتهاداتهم ووجهات نظرهم، فنسأل الله تعالى أن يستعملنا جميعاً في طاعته، وأن يجعلنا مفاتيح للخير، مغاليق للشر.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله على محمد وآله وسلم.

اللجنة العلمية

مجلة البيان

الورقة الافتتاحية

تعظيم حرمات الله

د. عبد الرحمن بن صالح المحمود

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبة أجمعين، وبعد:

لقد جاء تعظيم حرمات الله وتعظيم شعائره في سياق الحديث عن الحج وشعائره؛ حيث قال -تعالى-: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩- ٣٣].

وقد يفهم من هذا السياق أن الحرمات مختصة بالحج وما يتعلق به كما ورد عن السلف في التفسير، مثل: قول زيد بن أسلم: إن المراد بها: الكعبة الحرام، والمسجد الحرام، والبلد الحرام، والشهر الحرام، والمحرم حتى يحلّ.

ولكن من تأمّل سياق هذه الآيات وجدها لا تقتصر على حرمات الله في الحج والعمرة، بل هي أعم وأشمل؛ حيث يدخل فيها:

١- مكان البيت، وتطهيره، وأيام الحج المعلومات، وبهيمة الأنعام وذكر الله عليها.

٢- اجتناب الرجس من الأوثان وكل ما يعبد من دون الله تعالى.

٣- اجتناب قول الزور، وكل قول فيه كذب على الله وعلى رسوله ﷺ وعلى شرعه ودينه.

٤- اجتناب الشرك بجميع أنواعه وصوره.

٥- وجوب تقوى الله -تعالى- التي هي مفاتيح تعظيم الحرمات وتعظيم شعائر الله تعالى.

وهذا الذي فهمه كثير من أئمة التفسير. قال مجاهد: حرمات الله المراد بها: مكة، والحج، والعمرة، وما نهى الله عنه من معاصيه كلها. وقال أبو جعفر النحاس في (معاني القرآن، ص ٤): قال مجاهد: الحرمات: الحج والعمرة، وقال عطاء: المعاصي. والقولان يرجعان إلى شيء واحد؛ لأن حرمات الله- عز وجل- تشمل ما فرضه وأمر به، وتشمل ما نهى عنه فلا ينبغي أن يُتجاوز، وقال ابن كثير: تعظيم الحرمات: اجتناب المعاصي والمحارم بحيث يكون ارتكابها عظيماً في نفسه.

وينبغي أن يُعلم أن هناك تلازماً بين تعظيم حرمات الله وتعظيم شعائره، بحيث يشمل أمرين أساسيين:

أحدهما: تعظيم ما أمر الله بتعظيمه، مثل: البيت الحرام، ومشاعر الحج، والهدي، والقرآن الكريم، والرسول محمد ﷺ وسنته، والصلاة، والصيام، والحج، والزكاة، والمسلم في دمه وماله وعرضه.. إلخ.

فهذه تعظّم بأمرين:

١- تعظيمها واحترامها وطاعة الله فيها.

٢- عدم انتهاك حرمتها بأي نوع من أنواع الانتهاك بقول أو فعل.

الآخر: تعظيم ما حرّمه الله ونهى عنه مثل: الشرك بالله، والظلم، وقتل النفس بغير حق، والزنا، والربا، والسحر، والعقوق...إلخ.

وهذه أيضاً تعظّم بأمرين:

١- تعظيم وتأكيد هذه الحرمة في القلوب وفي الألسنة؛ لأن الله هو الذي حرّمها.

٢- أن لا تنتهك باقتراف شيء منها قولاً أو فعلاً.

وقد جاءت السُّنة والآثار في ذلك؛ فتكلم العلماء كثيراً عن البيت الحرام، وما يجب تجاهه، وتكلموا عن القرآن الكريم والمصحف وما يجب تجاهه، وتكلموا عن حرمة رسول الله ﷺ وما يجب علينا نحوه، وعن حرمة المؤمن... وهكذا.

أسس وشروط تعظيم الحرمات:

هذا مهمٌّ حتى يُفهم الأصل الذي يجب أن ننطلق منه في هذا الباب العظيم الذي كثر فيه التجاوز من جانب كثير من الكفار وأعداء الإسلام؛ بل ومن جانب بعض المنتسبين إلى الإسلام.

١- **الأساس الأول لها تعظيم الله تعالى**، الذي له الخَلْق والأمر، وهو المعبود المطاع وحده لا شريك له، وإن تعظيم أحكامه وشرعه أمراً ونهياً هو تعظيم وعبودية لله سبحانه.

٢- **تعظيم الأمر والنهي** وهو مقتضى الخضوع لحكمه تعالى، وتحكيم شرعه في جميع شؤون الحياة. ومدار العبادة وتحقيق معنى (لا إله إلا الله) على هذا الأصل.

٣- **عدم معارضة الأمر والنهي**، سواءً كان ذلك بما يناقضهما من أهواء وأحكام وموازين البشر، أو بالعدول عن منهجهما الوسطي ترخصاً إلى جافٍ، أو تشدد غالٍ، أو كان بتأويل فاسد يخرج الأمر والنهي والأحكام عن مواردها التي أرادها الله وأرادها رسوله ﷺ.

٤- **عدم المعارضة بين حكمه القدري وحكمه الشرعي**؛ فما اقتضت حكمته أن يكون معظّماً فهو المعظّم، من الأماكن والأوقات والأشخاص، وهو مقتضى حكمه الشرعي. وكل ذلك مستقيم لا عوج له؛ لأنه صادر عن عين الحكمة، ومن عارضَ القدر بالشرع أو عارضَ الشرع بالقدر فهو على ضلالةَ، والخلق والأمر كله لله تعالى.

تعظيم الحرمات في عصرنا:

تعظيم الحرمات من ثوابت عقيدتنا الإسلامية وشريعتنا الحنيفة، التي لا تتغير مع تغّير الزمان والمكان. وقد ربطت الشريعة كثيراً من هذه الأحكام بعلامات كونية لا تدخّل للبشر فيها، وهي إحدى علامات ثبات هذا الدين وبقائه إلى يوم القيامة:

١- فالصلاة والصيام والحج مرتبطة بعلامات كونية، هي: الشمس والقمر، والليل، والنهار.

٢- والحج ومكة مربوطان بعلامات زمنية ومكانية لا تتغير ولا تتبدل.

٣- حفظ الله القرآن، كما هيأ -تعالى- من حفظ السُّنة؛ فصار هذان المصدران ثابتين، لا يملك أحد لهما تغييراً ولا تبديلاً.

٤- إذاً ثوابت هذا الدين راسخة، وهي إحدى دلائل بقاء هذا الدين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ على الرغم من هذا الهجوم الكبير المتنوع من كافة الأعداء على دين الإسلام وشعائره وحرماته.

وتتابعُ الهجوم في الفترة الأخيرة على الإسلام هو جزء من سلسلة طويلة من العِداء له منذ أن بعث الله نبينا محمد ﷺ واصطفاه ليكون خاتم المرسلين، ولتكون شريعته ناسخة لما سبقها من الشرائع.

وفي مقابل ذلك هيّأ الله من يواجه ذلك العداء في كل زمان ومكان، من العلماء والدعاة والمصلحين، معظمين لشريعة الله ولدينه، ولشعائره وحرماته، مظهرين ذلك من خلال الوسائل المتوفرة لديهم.

وفي عصرنا هذا -عصر الإعلام والعولمة بأذرعها السياسية والعسكرية والاقتصادية والتقنية والعقدية والثقافية- نحتاج إلى مواجهة ذلك بما يليق به من خلال القيام بالأسباب الشرعية والمادية.

ومن ذلك ما يتعلق بموضوعنا وهو(تعظيم حرمات الله). ويمكن أن نعرض لذلك من خلال الأمور التالية:

أولاً: مسؤوليتنا الخاصة، أي: واجبنا من الداخل:

ونعني بذلك: مسؤوليتنا كمسلمين منتسبين إلى هذا الدين، كأفراد ومجتمعات وكأمة مسلمة عرفت بذلك، وهذا مبني على مسألتين مهمتين:

إحداهما: أن المسلم إذا لم يدافع عن دينه فليس له أن ينتظر غيره أن يدافع عنه. وإذا كان هو البادئ بانتهاك حرماته فلن ينتظر من غيره إلا أن يكون أشد انتهاكاً له.

الأخرى: أن احترام الآخرين لك ولدينك ميزانه مدى احترامك لعقيدتك ولمبادئك. وهذا مشاهد حتى في بلاد الغرب؛ فالذي يحترم دينه يحترمونه، والذي ينتهك دينه يحتقرونه وإن أظهروا له المودة والإعجاب بأفعاله. وأكبر دليل على ذلك هذه المسيرة الضخمة لكثير من بلاد المسلمين في ركب الغرب وتغريبه وعلمانيته، ولم ينتج ذلك إلا مزيداً من احتقار الغرب لهذه الدول، بل ولقادتها وأهل الرأي والفكر فيها؛ فهم على الهامش عند هذه الدول سياسياً وثقافياً، بل ولا تكاد توجد لهم قيمة عندهم إلا إذا أرادوهم أدواتٍ لتنفيذ مخططاتهم الإجرامية في بلاد المسلمين.

وبناء على ذلك فإن تعظيم حرمات هذا الدين –داخل بلاد المسلمين– لا بدّ فيه مما يلي:

١- الاحترام الحقيقي للإسلام وشعائره وحرماته من جانب الدول الإسلامية قولاً وفعلاً، وتشريعاً وحكماً، امتثالاً لما أمر الله به وأمر به

رسوله ﷺ، وتطبيقاً لأحكام الشريعة على كافة المستويات؛ بدءاً من أنظـمة الدولة وتشريعـاتها، وانتـهاء بالأفـراد، ووجوب تقواهم ربهم -تعالى- في امتثال أحكام دينه، وفي ما بين ذلك من: الإعلام، والتعليم، والقضاء، والمؤسسات الثقافية والتوجيهية، والنظم المالية والصحية، وغيرها، فيجب أن تراعى أحكام الله وحدوده وحرماته.

٢- هناك وسيلتان مهمتان لهما دور كبير في الأمة تجاه هذا الواجب، وهما:

أ- الإعلام.

ب- التعليم.

يجب أن يقوما بدورهما في تحقيق احترام دين الله وتعظيم حرماته، وأن تكون مناهج التعليم ووسائله التربوية، ووسائل الإعلام في بلاد المسلمين قائمة على أسس متينة من التأصيل الصحيح والمنهج السليم؛ حتى تتربّى الأجيال على تعظيم دينها واحترامه.

٣- الوقوف أمام كل من ينتهك حرمات الله في بلاد المسلمين، وجعل ذلك من المسلّمات التي يلتزم بها الجميع، وأن لا يسمح لأحد بانتهاكها تحت شعار (الحرية والليبرالية)، ولا تحت شعار (إنه غير مسلم) ما دام يقيم في بلاد المسلمين.

إن من المؤسف أننا نطالب من ينتهك حرمات الله في غير بلاد المسلمين الكفَّ عن ذلك والاعتذار للمسلمين، ونحن ساكتون عمن ينتهكها في بلادنا نحن المسلمين من بني جلدتنا وينتسبون إلى ديننا باسم الحرية،

والحوار، والرأي والرأي الآخر!

ولا أظن أن هناك حاجة إلى ضرب الأمثلة على ذلك مما يدور في بعض وسائل الإعلام، أو في كتابات ذات اتجاهات معروفة، أعلنت تحدّيها للأمة وخروجها عن ثوابتها، والاستهزاء بأحكام شريعتها، ولا شك أن العلمانية في بلاد المسلمين أصبحت مفتاح كل شر وفساد وطعن لهذا الدين بثوابته ومحظوراته.

٤- لا ننسى الوقوف أمام ما يقوم به بعض أهل البدع من نقض لمسلّمات وحرمات أجمعت الأمة على احترامها وعدم المساس بها؛ كالصحابة -رضي الله عنهم-؛ فإن الطعن فيهم وسبّهم هو مفتاح لكل إلحاد وزندقة ومروق من هذا الدين؛ ولهذا نجد مسارعة أهل البدع والعلمنة على تجاوز هذا المحظور -وهو الصحابة-؛ لأن ذلك يهوّن من تجاوز باقي مسلّمات الأمة والطعن في أئمة السلف على مدار التاريخ، ويفتح باب الشكوك في ثبوت القرآن، وفي السّنة كلها، بل يفتح باب الطعن في المصطفى ﷺ؛ حيث اتخذ هؤلاء الصحابة أصحاباً ووزراء وأمناء له على نقل دين الله وتبليغه الأمة.

٥- المدرسة العصرانية العقلانية (أهل الأهواء) - التي تصف نفسها أحياناً بأنها تنويرية تدعو إلى الإسلام المستنير- فتحت الباب لتجاوز الكثير من مسلّمات الأمة وثوابتها؛ فحاولت أن تتخذ لها منهاجاً غريباً يجمع بين الانتساب إلى الإسلام والأخذ بأصول أهل البدع وطعونهم،

وممالأة الكفار والحرص على رضاهم وعدم إغضابهم؛ فقام منهجهم على عدة أسس أهمها:

- فتح باب التأويل لنصوص الكتاب والسُّنة، دون قواعد أو ضوابط؛ حتى صحح بعضهم تأويلات المعتزلة والباطنية والفلاسفة.

- الطعن في السُّنة أو في كثير مما ثبت منها، وردّها عن طريق العقول، أو عن طريق الطعن في رُواتها؛ بدءاً بالأئمة الكبار، وانتهاء بالصحابة رضي الله عنهم.

- محاولة إلغاء قواعد مصطلح الحديث.

- محاولة إلغاء كثير من قواعد أصول الفقه.

- فتح باب الاجتهاد -غير المنضبط- وإلغاء الترجيح، والقول بنسبية الحق.

- تحوّل هذا إلى الطعن وانتهاك مسائل معروفة في دين الإسلام متعلقة بسدّ الذرائع، والولاء والبراء، والمرأة، وغيرها.

- اتهام عقيدة المسلمين -عقيدة السلف الصالح- بشتى التهم، والإعظام من شأن الغرب، وإعلاء ما هم عليه من إلحاد وإباحية، ومدحها والثناء عليها.

- الالتقاء مع العلمانية الصريحة، وتعاون الطائفتين فيما بينهما على كل ما يلتقيان عليه؛ من إعلاء لشأن الغرب، والتهوين من شأن المسلمين وعقيدتهم وشريعتهم.

وتفصيل حال هذه المدرسة مما يطول، ولكن أردت أن أبيّن خطورة مثل هذا التوجه على زرع انتهاك حرمات الله في بلاد المسلمين، وفي ناشئتهم وأُسرهم، بل وفي كثير من مثقّفيهم.

فالواجب الوقوف أمام هذه المدرسة وكشف عوارها كما فعل سلفنا تجاه تجاربها السابقة على مدار التاريخ الإسلامي؛ إذ إن المدرسة العصرانية تكررت سابقاً، وكانت نتيجة فكرها أنها لا للإسلام نصروا ولا للكفار كسرت.

٦- الإعلام اليوم سلاح ذو حدين، وكما أنه يشيع انتهاك حرمات الله بأوسع نطاق وبأسرع وقت؛ فهو كذلك ينبغي أن يكون وسيلة للدعوة إلى الإسلام، وتأصيل أسس العقيدة الصحيحة والشريعة التي تغرس في نفوس المتلقّين احترام الثوابت وتعظيم الحرمات.

فالمحطات الفضائية، والشبكة المعلوماتية، والإذاعة، والصحافة ودور النشر.. وغيرها، وسائل عظيمة لنشر هذه الأسس العظيمة في بلاد المسلمين وفي غيرها.

٧- أخيراً: إنني أدعو -كما دعا الكثيرون من العلماء والدعاة في مناسبات مختلفة- إلى تبنّي جملة من الوسائل في الأمة لغرس المنهج الصحيح والعبودية الحقّة لرب العالمين، مما يغرس في النفوس تعظيم ما عظمه الله وحرّمه، ومن ذلك:

- خطيب الجمعة وإمام المسجد، فلهما دور كبير في ذلك، ومعلوم أن المسجد ومنبر الجمعة وسيلتان من أعظم الوسائل، ولذلك ينبغي التواصي في ذلك.

- الأسرة داخل البيت يجب أن يكون لها، من خلال وسائل وأساليب متنوعة، دور كبير في نشر الوعي والفهم الصحيح لهذه المسلّمات والحرمات.

- التعليم؛ المدرّس مع طلابه ينبغي أن يرسخ فيهم هذه الأسس والمبادئ.

- العناية بسيرة الرسول ﷺ، ونشرها، ونشر ما لم ينشر من مخطوطات، مع الضبط والتحقيق والبعد عن الخرافات والروايات الموضوعة والضعيفة.

- إعادة طباعة ونشر الكتيبات والمطويات التي تتحدث عن نصرة الرسول ﷺ، وألا يقتصر توزيعها على وقت معين.

- بناء المواقع الإلكترونية والمحطات الفضائية التي تعنى بهذا الجانب العظيم والتشجيع على ذلك، وبأن ينبري التجار والمحسنون إلى بذل الأموال في ذلك.

ثانياً: مسؤوليتنا تجاه انتهاك حرمات الله من خارج بلاد المسلمين:

وهذه قد كتب عنها الكثير، خاصة مع الأحداث التي تكررت أخيراً في الإساءة إلى الإسلام وإلى الرسول ﷺ.

وتعظيم حرمات الله تجاه من ينتهكونها من الكفار يقوم على أسس ثلاثة:

أولها: سَبَقَ بيانه، وأساس ذلك أنه يجب أن نكون أقوياء تجاه من ينتهك هذه الحرمات داخل بلاد المسلمين، وإذا فعلنا ذلك عرف الأعداء من الخارج جدّيتنا في الدفاع عن ديننا، وأنه لا مساومة في ذلك.

أما أن يُحارب البعيد ويُترك القريب الذي قد يكون انتهاكه أشد وأعظم؛ فهذا تناقض ومفتاح لكل الطاعنين أن يتجرّؤوا علينا وعلى ديننا وثوابتنا وحرماتنا.

ثانيها: يجب على الدول أن تأخذ الأمر مأخذ الجِدّ، وأن تتدخل -حسب وسائلها السياسية وغيرها- تجاه هذه الانتهاكات، وأن تجعل من ثوابت الدين ومسلّماته ما لا يسمح لأي أحد تحت أي ظرف أو ادعاء أن ينتهكها. وكما قال أحد المفكرين الفضلاء: ينبغي أن نخاطب الغرب باللغة التي يفهمها؛ فنبين له أن مثل هذه الانتهاكات هي عندنا بمثابة إعلان حرب.

ثالثها: الغزو الإعلامي لكافة بلاد العالم وبكافة اللغات؛ لنشر دين الإسلام، وصحة عقيدته، وسماحة شريعته، وكمال أحكامه؛ وأساس ذلك حق الله بالتوحيد والعبودية، وحق رسوله محمد ﷺ -الذي هو خاتم النبيين- بالاتباع، وشرح سيرة هذا النبي الكريم لهم حتى يعرفوه.

ولا شك أن الأمة حين تتمسك حقيقةً بدينها، وتلتزم بأحكامه، وتحترم حدوده، وتجعل ذلك منهاجها القائم على عبودية الله- تعالى- وإخلاص الدين له، واتِّباع سنة رسوله ﷺ- فستكون عزيزة منصورة. قال -تعالى-:

﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧]، وحينئذٍ سيحترمها الآخرون ويحترمون دينها ولن يجرؤوا على انتهاك ذلك.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

المحور الأول

إرث الصراع التاريخي

والتفوق العنصري

مواجهة الرسالة الخاتمة بالرسالات المنسوخة

د. عبد الحي يوسف

الاستعمار الحديث: فهم طبيعة العداء وخلفياته

د. همام سعيد

المواجهات مع أهل الكتاب في عصر الرسالة وعصور الصحابة - رضي الله عنهم - والتابعين

أ. د. سليمان بن حمد العودة

مواجهة الرسالة الخاتمة

بالرسالات المنسوخة

د. عبد الحي يوسف

رئيس قسم الثقافة الإسلامية بجامعة الخرطوم سابقاً

مواجهة الرسالة الخاتمة بالرسالات المنسوخة

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على خاتَمِ النبيِّين وسيِّدِ الأوَّلين والآخِرين ورحمةِ الله للعالَمِين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبِعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، وبعد:

فقد تنامَت في السنواتِ الأخيرة ظاهرةُ (التطاوُل على الإسلام) من كُفارِ أهلِ الكتاب؛ وترافَقتْ هذه الحملةُ الإعلاميةُ الشَّرسة مع حَملةٍ عسكريةٍ مُتلاحِقةٍ تُشَنُّ على العالَم الإسلامي في العراق وأفغانستان... وحِصارٍ لحكومة حماس الفلسطينية، وتحالُفٍ مع اليهودِ في فلسطين وأعداءِ الأمة في السودان والصومال.

وتحاول هذه الورقة -مُواجَهة الرسالةِ الخاتِمة بالرسالاتِ المنسُوخة- بيانَ أسبابِ هذا الصراعِ وفَهمَ طبيعةِ عداءِ أهلِ الكتابِ لهذا الدينِ الناسِخِ ورسولِه الخاتِم وكتابه الْمُهَيْمِن، كما قال الله -عزَّ وجل-: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨]. وقال -جلَّ جلاله-: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ

ٱلۡحَقُّۖ﴾ [البقرة: ١٠٩]. وقال –تعالى-: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥]. وقال -عزَّ وجل-: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ﴾ [المائدة: ١٣]. وقال –جلَّ جلاله-: ﴿إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾ [الممتحنة: ٢].

وتتضمنُ هذه الورقة مَبحثَيْن:

أولهما: المحور السياسي والإعلامي: ويشتملُ على المطالب التالية:

المطلب الأول: طبيعة الصراع.

المطلب الثاني: تحالُفُ القساوسة مع أهل السياسة.

المطلب الثالث: حركة القساوسة الحاقدين.

المطلب الرابع: أثر الصهيونية العالمية في مُعاداةِ الإسلام.

المطلب الخامس: المعالَجة.

وأما المبحث الثاني: فهو مُلحَقٌ في الرسالات، يتضمن المطالب التالية:

المطلب الأول: اتفاقُ الرسالاتِ في العقائدِ واختلافُها في الشرائع.

المطلب الثاني: تكامُل الرسالات.

المطلب الثالث: الرسالة الخاتمة.

المطلب الرابع: الإيمان بالكتب السماوية.

المطلب الخامس: تحريف أهل الكتاب.

الأول: المحور السياسي والإعلامي

المطلب الأول: طبيعة الصراع

لا ريب أنَّ هذه الحملةَ الغربيةَ الظالِمة على العالَم الإسلامي -في المحورَين العسكري والعقائدي- قد بَيَّنَتْ طبيعةَ الصراعِ الدِّينِي وحقيقةَ عِداءِ اليهودِ والنصارى للمسلمين، الذين ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة: ١٠]. فهي حَملةٌ إعلاميةٌ تحالَفَ فيها القساوسة الصليبيُّون واليهودُ الصهاينة مع السياسيِّين في الغرب؛ لِمُحارَبةِ الإسلامِ وتَشويهِ رُموزِه، كما قال الله -عزَّ وجل-: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢]. وقال -جلَّ جلاله-: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ﴾ [البقرة: ٢١٧].

ومن أعظمِ ما يُبيِّنُ الطبيعة الدينية للحربِ على الإسلام ما اقتبسَه بابا الفاتيكان (بنديكت السادس عشر) خلال محاضرةٍ له في ألمانيا من كلامٍ لأحدِ الصَّليبيِّين جاء فيه: «محمدٌ لم يأتِ إلا بما هو سيِّءٌ وغير إنساني».

إنَّ تصريحاتِ بابا الفاتيكان -التي لم يعتذرْ عنها؛ بل ادّعى إساءةَ فَهمِها- تؤكِّدُ بلا ريبٍ العقليةَ الصليبية الجديدة التي تهدم كل دعاوى

حوار الأديان[١]. وقد عُرِفَ عن بابا الفاتيكان تعصُّبُه للصَّليبية؛ حتى إنه أعْـرَبَ عـن رَفْضِه لِدُخـولِ تركيا لِمنظومة الاتحـادِ الأوروبـي! لأنـه لا يزالُ يرى فيها دولةَ الخلافة العثمانية.

المطلب الثاني: تحالُف القساوسة مع أهل السياسة

السِّياسةُ الغَربِيةُ - في أوروبا وأمريكا - أصـبَحَتْ تكشِـفُ تحالُفَهـا مع القساوِسة الحاقِدين؛ بعد أنْ تشبَّعَتْ بالعداءِ للإسلام؛ حتـى صـارت المؤسَّستان الدينية والسياسية في الغربِ مُتَّفِقَتَـيْن علـى حـربِ الإسـلام. وقد صدَرتْ تصريحاتٌ مُعادِيةٌ للإسلام من كبارِ السَّاسةِ الغـربِيِّين، كمـا قال الرئيس الأمريكي بـوش بعـد أحـداث ١١ سـبتمبر: «اليـومَ بـدأت الحروبُ الصليبية»! وقال بعد ذلك: «إنَّ هـذه الأُمـة [أمريكـا] في حالـةِ حربٍ مع الفاشِيِّين الإسلاميين»!

ولعلَّ أحـدثَ مـا سَـمِعْناه مـن مسـؤولٍ سياسـي غربـي كـبيرٍ عـن الإسلام كان من رئيس الوزراء الإسباني السابق (خوسـيه ماريـا أثنـار) في تعقيبه على موجةِ الغضـبِ الـتي اجتاحَـت العـالَمَ الإسـلامي، علـى خلفية تصريحات بابا الفاتيكـان (بنـديكت السـادس عشـر) والـدعوات الموجَّهة إليه بتقديمِ اعتذارٍ رَسْمِي للمسلمين؛ فقد قال (أثنار): «إذا كـان على البابا أنْ يُقدِّمَ اعتـذارًا؛ فالعـالَمُ الإسـلامي مُطالَـبٌ أيضًـا بتقـديم اعتِذارٍ لنا عن الفترةِ التي قضَوْها في الأندلس والـتي تقـتربُ مـن ثمانيـة

---

(١) راجع في مفكرة الإسلام: (بابا الفاتيكان يتجه نحو العقلية الصليبية)، طريـف السـيد عيسى .

قرون»! وقبل عامين، قال (أثنار) في محاضرةٍ بجامعة (جورج تاون) الأمريكية: «يجب أنْ نعودَ إلى الوراءِ لنبدأ من القرنِ الثامن الميلادي، عندما تعرَّضَت إسبانيا للغزوِ من المغاربة ورفضَتْ أنْ تكونَ جزءاً آخر من العالم الإسلامي؛ فخاضت معركةً طويلةً لاستعادةِ هَوِيَّتِها، إننا لا خيارَ لدينا سِوى مُواجَهةِ الحركاتِ الإسلامية؛ فقد باتت تُمثِّلُ خطرًا كبيرًا على الغرب»! ولم يَدَعْ (سيلْفِيُو بَرْلَسْكُوني) رئيس وزراء إيطاليا السابق، الفرصةَ تفوته واشترك في هذه الحملة اللئيمة بقوله: «الإسلامُ دِينٌ لا يحترمُ حُقوقَ الإنسانِ ومبادىءَ التعددية والتسامحِ والحرية الدينية. والحضارةُ الغربية تعلو على حضارةِ الإسلام، وعلى الغربيِّين أنْ يُدرِكُوا تفوُّقَ حضارتِنا! وأنَّ هذه الحضارةَ تَكفُلُ الرخاءَ لِشُعُوبها، وحريةَ الحقوقِ الإنسانية والدينية، واحترامَ الحقوقِ السياسية غير الموجودة في الدول الإسلامية؛ فالحضارةُ الغربية تكفُلُ التسامُحَ وتعترفُ بقِيَمِ الاختِلافِ! ولقد كانت -ولا تزالُ- بَوتَقَةً للثقافةِ والتاريخِ والحريةِ والديمقراطية! وهي قِيَمٌ تجعلُنا نفخرُ بهذه الحضارة. إنَّ حريةَ الأفرادِ والشعوبِ لا توجدُ في حضارةٍ أخرى مثل الحضارةِ المسيحية؛ مِن ثَمَّ يتعينُ أنْ نُدْرِكَ هذا التفوُّق! إنَّ الغربَ مُرَشَّحٌ للاستِمرارِ في تغريبِ الشعوبِ والتأثيرِ فيها، وقد قام بذلك مع العالَم الشيوعي، كما قام به مع العالَمِ الإسلامي»! كما عَبَّرَ الرئيس الأمريكي الأسبق (ريتشارد نيكسون) عن قَلَقِه من الإسلام والمسلمين من خلال كتابَيْن نشرَهما منذ سنواتٍ قريبةٍ مضت، أولهما بعنوان: (نَصرٌ بلا حرب)، وثانيهما: (انتَهِزُوا الفرصة)، يقول (نيكسون) في هذين الكتابين: إنه بعد سُقوطِ

الاتحادِ السوفييتِي ومعه سُقوط الاشـتراكية كحركـةٍ ومنظومـةٍ سياسـيةٍ، سـيواجه الغـربُ والولايـات المتـحدةُ خاصـة (مـارداً آخـر)، هـو الإسلام؛ فينبـغي على الولايـاتِ المتحـدة أنْ تعـملَ وبسـرعةٍ علـى الإمـساكِ [بما أسْماه] بالرِّيادة الرُّوحية في العالَم، وأنْ تعمَلَ علـى عَـدمِ السماحِ لنماذج (التشدد الإسلامي) أن تجدَ فُرصتَها في هذا المجال»[١].

المطلب الثالث: حركة القساوسة الحاقدين

فقد أسـفرَ قَساوسـةُ السُّـوء عـن أحقـادِهم، ونشَـطَت هـذه الحملـة لتشويهِ الإسلامِ والإساءةِ إلى نبيِّنا محمدٍ ﷺ في أمريكا؛ حتى قامت إدارةُ بوش في ١٦ أكتوبر ٢٠٠٢م بتكريم كِبارِ المتعصِّبين مـن أمثـال: (جـيري فالويـل) و(بـات روبرتسـون). أمـا جـيري فالويـل[٢] Jerry Falwell فهـو

(١) راجع: مقالة: (حينما يوفر البابا الغطاء الديني لمشروع بوش الاستعماري)، للـدكتور علي عبد الباقي: (مفكرة الإسلام).

(٢) قسيس إنجيلي معروف، يعيش في منطقة لينشبرج بولاية فرجينيا، له برنامج أسبوعي إذاعي وتلفزيوني يصل لأكثر مـن ١٠ ملايـين منـزل، ولـه جامعـة أصـولية تسـمى جامعة الحرية، عرف بسبه وشتمه لنبينـا محمـد ﷺ. وجـدير بالـذكر أن الإسـرائيليّين أهدوا طائرة خاصة لِفالويل من نوع (ويندستريم) ثمنها ٥,٢-٥,٣ مليون مع قطع غيار بقيمة نصف مليون دولار. وفالويل يُباهي بأنّه يقطع بطائرتـه النّفاثـة ١٠ آلاف ميل في الأسبوع للدّعاية الانتخابيّة لمرشّحيه. وظهر فالويـل كـأوّل سياسـي أمريكـي مرموق يقول: على أمريكا دعم إسرائيل ليس من أجل مصلحة إسرائيل فقط ولكـن من أجل المحافظة علـى أمريكـا نفسـها. ومـع اقـتراب انتخابـات ١٩٨٠م زاد بـروز فالويل وسلّطت الصّحافة أضواء على منظّمته المعروفة باسم الأكثرية الوطنيّة. وقـرّر ريغان مكافأته؛ فمنحه ميداليّة تحمل اسم فلاديمير زيـف جابوتنسـكي الأيـديولوجي الصّهيوني اليميني وأستاذ بيغن. عن ورقـة: (ظـاهرة الإسـاءة للـنبي ﷺ وشـريعته في الغرب)، للشيخ ناصر العمر، المؤتمر العالمي للنصرة.

صاحب كتاب (فَلْنَتَقَدَّمْ إلى معركةِ هرمجدون)[١]؛ لِمُساهمتِه في دَعمِ التيارِ اليمينِي المحافِظ والحزبِ الجمهوري. وقد صرَّحَ (جيري فالويل) في حديثٍ له بُثَّ يومَ الأحد ٦ أكتوبر ٢٠٠٢م في برنامج (٦٠ دقيقية) بقولِه: «أنا أعتقد أن محمداً كان إرهابياً، لقد قرأتُ ما يكفي من المسلمين وغيرِ المسلمين أنه كان رجلَ عُنفٍ، ورجلَ حُرُوب»!

المطلب الرابع: أثر الصهيونية العالمية في مُعاداةِ الإسلام

لا شك أنَّ اليهودَ أشدُّ الناسِ عَداوةً وحِقداً وكَراهيةً للمسلمين وإيقاداً لنارِ الحروبِ ضِدَّهم، كما قال الله -عزَّ وجل-: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ [المائدة: ٨٢]، وقال -جلَّ جلاله-: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]. فالصُّهيونية العالَمِية لا تزالُ منذ احتلالِها لفلسطين في ١٩٤٨م تُحاربُ كلَّ المقدَّسات الإسلامية، وتسعى إلى تَشويهِ المسلِمِين وتضخِيمِ خَطَرِهم للغرب. وقد ساعَدَهم على ذلك تأثيرُهم على وسائل الإعلامِ الغربي وامتِلاكِهم لكثيرٍ منها؛ مما حقَّقَ نُفُوذهم البالِغَ على أوروبا وأمريكا، وسيطرتَهم على مراكز صُنعِ القرارِ فيها[٢].

---

(١) وهي معركة نهاية التاريخ التي يرى البروتستانت حتميتها مع المسلمين عند سفح هرمجدون.

(٢) من أمثلة ذلك أنَّ (بات رُوبَرْتسُون) يمتلك عدداً من المؤسسات الإعلامية من بينها نادي الـ٧٠٠، وله برنامج تلفزيوني يصل إلى عشرات الملايين في الولايات المتحدة الأمريكية، بالإضافة إلى امتلاكه محطة فضائية تصل إلى ٩٠ دولة بأكثر من ٥٠ لغة وهي محطة (البث النصراني) وغيرها، كما أنه يقف خلف أكبر تحالفٍ سياسي ديني في الحزب الجمهوري وهو (التحالف النصراني)، فقد كان يقود الائتلاف اليميني المسيحي مؤيداً له، وقد كشف عن هذا منافس بوش جون ماكين.

وحَسبُك في بيانِ خُطورةِ هذا الأخطبوطِ الصهيوني في أمريكا ما تناوَلَتْه وكالاتُ الأنباءِ هذه الأيام في انتخاباتِ الكونجرس الديمقراطي الجديد أنَّ (مناصِبَ الكونجرس الهامة بأيدي النوابِ اليهود)؛ فقد «دخلَ عددٌ غيرُ مَسبُوقٍ من اليهود إلى الكونجرس الأمريكي خلال دورته الجديدة الـ١١٠؛ مُحتَلِّين أهمَّ المناصب، وهو ما اعتبَرَه مُحلِّلُون ضمانةً أكيدةً لتأييدٍ أمريكيٍّ مِثالِيٍّ لإسرائيل»(١).

فقد استطاعَ اليهودُ الصهاينة أنْ يَخْتَرِقُوا المؤسَّسَتَيْن: الكَنَسِية والسِّياسِيةَ في أمريكا؛ حتى صارت شخصيةٌ مثل (بات رُوبَرْتسُون Pat Robertson) ـ وهو قسِّيس إنْجِيلِيٌّ مِن أعظمِ الداعِمِين لدولةِ الكيانِ الصهيونية ـ أحَدَ مُؤيِّدِي (بوش)، وقد كان له أثرُه الكبيرُ في فوزِ (بوش) برئاسة الحزب الجمهوري في مارس ٢٠٠٠م؛ فقد كان يقود الائتلاف اليميني المسيحي المؤيِّد له، وقد كشفَ عن هذا منافِسُ

---

(١) وقال دوج بلومفيلد، المدير القانوني السابق للجنة الشؤون العامة الإسرائيلية الأمريكية في تصريحات لصحيفة (جيروزاليم بوست) الأمريكية: «هناك عدد غير مسبوق منهم (اليهود) في الكونجرس، سيتولون عدة مناصب قيادية في كل من المجلسين (مجلس النواب والشيوخ)». وانضم ٦ نواب جدد من اليهود والتابعين للحزب الديمقراطي المسيطر حالياً على مجلس الكونجرس إلى المجلسين، وذلك بالإضافة إلى ٣٧ نائباً يهودياً كانوا متواجدين بالفعل في الدورة الماضية، مسجلين أكبر عدد من النواب اليهود بالكونجرس في تاريخه. راجع بالتفصيل: مقالة: (مناصب الكونجرس الهامة بأيدي النواب اليهود) واشنطن- وكالات، أمير شبانة، إسلام أون لاين، نت.

(بوش): جون ماكين، كما أنَّ (بوش) يدعمه أعظم الدعم[١]، وقد أشير إلى تكريم الحزب الجمهوري له مع (جيري)، وقد تصدر (نشيد المسيح) افتتاح أعمال المؤتمر القومي للحزب الجمهوري من أجلِ اختيارِ (بوش) مُرشَّحاً رَسْمِياً في مارس ٢٠٠٠م، وأعلن فيه تبنِّيه لأفكارِ تيارِ اليمينِ المسيحي. وقد قال (بات روبرتسون) في قناة فوكس الإخبارية Fox News: «أنا أقولُ: هذا القرآنُ ماهو إلاّ سَرِقةٌ من المعتقداتِ اليهودية، ثم استدارَ محمدٌ بعد ذلك ليقتلَ اليهودَ والنصارى في المدينة. أنا أقصدُ أنَّ هذا الرجلَ كان قاتِلاً سفاك دماء»! وقال: «أظنُّ أنَّ الإرهابَ قد غدا تياراً، وليس فقط عند حفنة من المتطرفين. إذا اشتريتَ مُصحَفاً اقْرأْهُ بنفسِك؛ فستجدُ عُنفاً يُبشِّرُ به»[٢].

المطلب الخامس: المعالجة

أؤكِّدُ في مُعالَجةِ هذا العداءِ للإسلامِ على التوصياتِ التالية:

١) الاستِعدادُ للدفاعِ عن هذه الأُمة؛ ومُواجَهةِ هذه الحملةِ الصَّليبية المتحالِفة مع الصُّهيونية؛ فإنَّ خطرَها داهِمٌ، وقد يتوسَّعُ ليشملَ مزيداً من دُوَلِ العالَمِ الإسلامي.

---

(١) قام البيت الأبيض في يوم الجمعة ٤ أكتوبر ٢٠٠٢م بالإعلان عن منحة دينية قدرها نصف مليون دولار أمريكي للقسيس (بات روبتسون) والجدير بالذكر أنها المنحة الأولى التي يمنحها البيت الأبيض لأي مؤسسة أو شخصية دينية.

(٢) ورقة: (ظاهرة الإساءة للنبي ﷺ وشريعته في الغرب)، للشيخ ناصر العمر، المؤتمر العالمي للنصرة.

٢) نُوصِي بالاجتِماعِ ونَبذِ الفُرقة والتنازعِ بين كافةِ قُوَى الأمة؛ لاستنهاضِ الْحُكامِ والمحكومِين. وتعاوُن أهلِ العِلمِ والْحُكْم والمقاوَمة في صدِّ هذه الحملة التي لا تستثنِي أحداً.

٣) تخصِيصُ قناةٍ فضائية (islam) ناطِقةٍ بمجموعةٍ من اللغاتِ العالمية؛ للتعريفِ بالعقيدةِ الإسلامية والرسولِ الكريم صلى الله عليه وسلم.

٤) عَقدُ مؤتَمَرٍ جامعٍ ـ تُوَفَّرُ له التغطِيةُ الإعلامية في الغرب ـ لدراسةِ (أسباب انتِشارِ الإسلام في العالَم) وبيان أنَّ ذلك كان بقُوةِ الفِكرِ والاعتقادِ والإقناعِ والبَيان، قبلَ قوةِ الجهادِ للدفاعِ عن حقِّ تبليغِ الدعوة.

٥) عَقدُ مُؤتَمَرٍ جامعٍ حول (آداب الحربِ في الإسلام)؛ للردِّ على حَملاتِ التضليلِ وتشويهِ الجهادِ في وسائل الإعلام الغربي. وبيان الصفحاتِ المشرقة للبلادِ المفتوحة مقارنة بجرائم محاكم التفتيش ومذابح اليهود في فلسطين ولبنان.

٦) تأسِيسُ دارِ (كلمةٍ سَواء) تكونُ مؤسَّسةً وَقْفِيةً للنشرِ، تقومُ بطباعةِ الكُتبِ النافعة وترجَمتِها إلى اللغاتِ العالمية، مثل: (إظهار الحق) للشيخ رحمة الله بن خليل الرحمان الهندي، وهو مِن أحسَنِ الكُتُبِ في بيانِ تحريفِ أهلِ الكتابِ وإبطالِ التثليث. وكتاب (القرآن والإنجيل والتوراة والعلم) للجرّاح الفرنسي المسلم موريس بُوكاي الذي أثبتَ فيه بأسلوبٍ علميٍّ بديعٍ مُوافقةَ القرآنِ ومُعارضةَ التوراةِ والإنجيلِ للعِلم. ومنه نسخة إنجليزية في موقعِ صيدِ الفوائد www. saaid.net.

٧) إعـداد (موسـوعةِ العظمـاء المهتـدين) في قُـرصٍ واحـدٍ جـامِع، يشتملُ على توثيقٍ لتجارب كبارِ العُلماءِ الغربيِّين المهتَدِين إلى الإسـلام. وهذا مِن أحسَنِ أساليب الدعوةِ للغربيِّين بلِسـانِ قـومِهم، ومِـن أكثَرهـا نفعاً وتأثيراً إن شاء الله.

٨) إنشاءُ مؤسَّسةِ (ديدات) للإنتـاج الإعلامـي، تقـوم بمهمـةِ جَمـعِ الأعمـالِ الكاملـة للعلامـة (ديـدات)، بمـا في ذلـك مُناظراتـه القيِّمـة وذكرياته مع التنصير، مع ترجمتها وفهرستها موضوعيّاً، وإهـدائها لأهـلِ الفكرِ على أوسَعِ نطاقٍ في الغرب.

والله الموفّقُ والْمُعين، وهو حَسبُنا ونِعمَ الوكيل، والحمد لله رب العـالمين، والصلاة والسلام على رسولِ الله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

المبحث الثاني: ملحقٌ في الرسالات

المطلب الأول: اتفاق الرسالات في العقائد واختلافها في الشرائع

لا يخفى أن الله -عزَّ وجلَّ- قد أرْسَلَ رُسُلَه الكرامَ -عليهم الصلاةُ والسلام- للدعوةِ إلى التوحيدِ الخالصِ، وعبادةِ الله وحدَه، وهدايةِ الناسِ إلى الصراطِ المستقيم، وإخراجِهم من الظُّلماتِ إلى النُّور، كما قال الله -عزَّ وجل-: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ﴾ [الشورى: ١٣]. وقال -جلَّ جلاله-: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ﴾ [النحل: ٣٦] ، وقال -عزَّ وجل-: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وقال -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [إبراهيم: ٥].

فقد اتفقَ المفسِّرون -رَحِمَهم الله- على أنَّ الرسالاتِ مُتفِقةٌ في العقائد وإن اختلفت في الشرائع، قال ابنُ كثير -رحمه الله-: «يقول -تعالى- لهذه الأمة: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾؛ فذكرَ أولَ الرُّسلِ بعد آدم -عليه السلام- وهو نُوحٌ -عليه السلام- وآخرَهم وهو محمدٌ ﷺ، ثم ذكرَ مَن بين ذلك من أُولي العَزمِ: وهم إبراهيم وموسى وعيسى بن مريم. وهذه الآية انتظمَت ذكرَ الخمسة كما

اشتمَلَت آيةُ الأحزابِ عليهم في قولِه -تبارك وتعالى-: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ... ﴾ الآية [الأحزاب: ٧]. والدِّينُ الذي جاءت به الرُّسلُ كلُّهم هو عِبادةُ الله وحدَه لا شريك له، كما قال -عزَّ وجلَّ-: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وفي الحديث: «**نحن مَعْشَرَ الأنبياءِ أولادُ علات؛ دينُنا واحِدٌ**» أي: القَدْرُ المشتَرَك بينَهم هو عِبادةُ الله وحدَه لا شريك له وإن اختلفَتْ شرائعُهم ومناهِجُهم؛ كقولِه -جلَّ جلالُه-: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨]؛ ولهذا قال -تعالى- هاهنا: ﴿ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣] أي: وَصَّى الله -تعالى- جَمِيعَ الأنبياءِ -عليهم الصلاةُ والسلام- بالائتلافِ والجماعةِ، ونَهاهُم عن الافتِراقِ والاختِلاف»(١).

المطلب الثاني: تكامُلُ الرسالات

الرِّسالاتُ دَعوةٌ واحِدةٌ يقودُها مَوكِبُ النبيِّين عليهم الصلاةُ والسلام، وإنْ تعدَّدَت شَرائعُهم وكُتُبُهم فهم (أبناءُ علات)(٢) كما قال الله -عزَّ وجل-: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ١١٠.

(٢) هم أبناء الرجل من نسوة شتى (مختار الصحاح للرازي): ص ٣٩٦.

قَبۡلُ﴾[الحج: ٧٨]. وقال -جلَّ جلاله-: ﴿وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦]، وقال -تعالى-: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ [الصف: ٦]، وقال -عزَّ وجل-: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾ [المائدة: ٤٨].

وقال القرطبي -رحمه الله-: «(شَرَعَ): بيَّنَ، وأظهرَ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ﴾ [الشورى: ١٢]: أيْ شَرَعَ لكم مِن الدِّينِ دينَ نُوحٍ ومحمدٍ وما بينَهما مِن الأنبياءِ عليهم السلام، ثم فسَّرَ المشروعَ الذى اشترك هؤلاء الأعلام مِن رُسُلِه فيه بقوله: ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾، والمرادُ: إقامةُ دينِ الإسلامِ الذي هو توحِيدُ الله، وطاعَتُه، والإيمانُ بِرُسُلِه وكُتبِه وبيومِ الجزاءِ وسائرِ ما يكون الْمَرءُ بإقامَتِه مُسْلِماً، ولم يُرِدْ به الشرائعَ؛ فإنها مُختَلِفةٌ. قال الله -تعالى-: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ [المائدة: ٤٨]»[1].

---

(١) تفسير النسفي: ٤/ ٩٨.

وكذلك قال الزمخشـري -رحمـه الله-: «وذلـك أنَّ الله -تعـالى- إنـما أورَدَها لِوَصفِ دينِ الإسلامِ بالأصـالةِ والاسـتِقامة؛ فكأنـه قـال: شـرعَ لكم الدِّينَ الأصِيلَ الذي بُعِثَ عليه نوحٌ في العهدِ القديم، وبُعِـثَ عليـه محمدٌ خاتَمُ الأنبياءِ في العهدِ الحديث، وبُعِثَ عليه من توسَّط بينَهمـا مِـن الأنبياء المشاهير»[1]. وقال السعدي -رحمه الله-: «هـذه أكـبرُ مِنَّـةٍ أنعَـمَ الله بها علـى عبـادِه: أنْ شـرعَ لهـم مـن الـدِّينِ خـيرَ الأديـانِ وأفضـلَها وأزْكاها وأطْهَرَها؛ دينَ الإسلامِ الذي شرَعَه الله للمُصْـطَفِينَ المختـارِين من عِبادِه، بل شَرَعَه الله لِخِيار الْخِيارِ وصفوة الصَّفوةِ؛ وهم أولُو العَـزمِ من المرسَلِين، المذكورُون في هذه الآيةِ، أعلَى الخلقِ دَرجةً وأكمَلُهـم مِـن كلِّ وَجهٍ؛ فالدِّينُ الذي شرَعَه الله لهم لا بُدَّ أنْ يكونَ مُناسِـباً لأحـوالِهم وموافِقاً لِكَمالِهم، بل إنما كمَّلَهـم الله واصْـطَفاهم بـِسبَبِ قِيـامِهم بـه؛ فلولا الدينُ الإسلامي مـا ارتفَـعَ أحـدٌ مـن الخلـقِ؛ فهـو رُوحُ السـعادةِ وقُطبُ رَحَى الكمالِ، وهو ما تضمَّنَه هذا الكتابُ الكريم ودعا إليه مـن التوحِيدِ والأعمالِ والأخـلاقِ والآدابِ وقـال: (أنْ أقيمُـوا الـدِّين) أيْ: أمَـرَكم أنْ تقيمُـوا جَميـعَ شـرائعِ الـدِّينِ: أُصُـولَه وفُرُوعَـه، تُقِيمُونَـه بأنفُسِكم، وتجتهدُون في إقامَتِه على غيرِكم»[2].

---

(١) الكشاف للزمخشري: ٣/ ٥٣٣.

(٢) تفسير السعدي: ١/ ٧٥٤.

المطلب الثالث: الرسالة الخاتمة

فقد كان نبيُّنا محمدٌ ﷺ النبي الخاتَم[1]؛ فيه خُتِمَتْ الرِّسالاتُ والنُّبوَّاتُ كما خُتِمَتْ الكُتبُ السماويةُ بالقرآن، وخُتِمَتْ الأديانُ بالإسلامِ؛ كما قال الله -عز وجل-: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣] ، وقال -جلَّ جلالُه-: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال -تعالى-: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقد نصَّ القرآنُ على أنَّ رسولَنا محمداً ﷺ خاتَمُ[2] النبيِّين؛ فقال

---

(١) وقد ذكرَ العلماءُ أنَّ مِن رَحْمةِ الله لإسماعيلَ -عليه السلام- وجزائه على صَبرِه أنْ جعلَ مِن وَلَدِه خاتَمَ النبيِّين ﷺ؛ فقد قال الله -عزَّ وجل-: ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥]. قال الرازي -رحمه الله-: «اعلَمْ أنه -تعالى- لما ذكرَ صبرَ أيوبَ -عليه السلام- وانقِطاعَه إليه أتْبَعَه بذِكْرِ هؤلاء؛ فإنهم كانوا أيضاً من الصابرين على الشدائدِ والمحنِ والعِبادةِ. أما إسماعيلُ -عليه السلام- فلأنه صَبرَ على الانقيادِ لِلذَّبحِ، وصَبرَ على المقامِ بِبَلدٍ لا زَرعَ فيه ولا ضَرْعَ ولا بِناءَ، وصَبرَ في بناءِ البيت؛ فلا جَرَمَ أكْرَمَه الله -تعالى- وأخْرَجَ مِن صُلبه خاتَمَ النبيِّين». التفسير الكبير للرازي: ٢٢/ ١٨٢.

(٢) وقد بيَّنَ علماؤنا -رحِمَهم الله- أنَّ لفظَ (خاتَم) يُقرأ بفتحِ التاءِ كما يقرأ عاصم، وكسرِها كما يقرأ الجمهور، قال أبو شامة -رحمه الله-: «وأما (وخاتَم النبيِّين) فوجهُ الفتحِ فيه أنَّ الذي يُختَم به يقال بفتحِ التاء وكسرها؛ فكأنه ﷺ جُعِلَ كخاتَمٍ لَمَّا خُتِمَ به الأنبياء. قال أبو عُبَيد: وبالكسر نقرأ؛ لأنَّ التأويلَ أنه ﷺ خَتَمَهم فهو خاتِمُهم...=

الله -عزَّ وجل-: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[الأحزاب: ٤٠]. ووردَ ذلك في السنة النبوية، وقد روى البخاري -رحمه الله- في كتاب (المناقب) باب (خاتم النبيِّين ﷺ) عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- قال: قال النبيُّ ﷺ: «**مَثَلي ومثلُ الأنبياءِ كرجلٍ بنَى داراً؛ فأكملَها وأحسَنَها إلا موضِعَ لَبِنة**[1]؛ **فجعلَ الناسُ يدخلونَها ويتعجبُون، ويقولون: لولا موضِعُ اللَّبنة!**»[2]. ورواه البخاري كذلك عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**إنَّ مَثَلي ومَثَلَ الأنبياءِ مِن قبلِي كمَثَلِ رجلٍ بنَى بيتاً فأحْسَنَه وأجْمَلَه إلا موضِعَ لَبِنة من زاويةٍ؛ فجعلَ الناسُ يطوفون به ويعجبون**

=قال الزجاج: مَن كَسَرَ فمعناه خَتَمَ النبيِّين، ومن فَتَحَ فمعناه آخِرُ النبيِّين لا نبيَّ بعدَه». إبراز المعاني من حرز الأماني في القراءات السبع لأبي شامة الدمشقي: ٢/ ٦٥٠. وقال القرطبي -رحمه الله-: «(وخاتَم) قرأ عاصمٌ وحدَه بفتحِ التاء بمعنى أنهم به خُتِموا؛ فهو كالخاتَم والطابَع لهم، وقرأ الجمهور بكسرِ التاء بمعنى: أنه ختَمَهم: أي جاء آخرَهم، وقيل: الخاتَم والخاتِم لُغتان مثل طابَع وطابِع، ودائَق ودانِق، وطابَق من اللحم وطابِق». تفسير القرطبي: ١٤/ ١٩-١٩٧.

(١) قال ابن حجر:«قوله: (لولا موضع اللَّبِنة) بفتح اللام وكسر الموحدة بعدها نون، وبكسر اللام وسكون الموحدة أيضاً، هي: القطعة من الطين تعجن وتجبل وتعد للبناء، ويقال لها ما لم تحرق: لبنة؛ فإذا أحرقت فهي آجرة». فتح الباري: ٦/ ٥٥٩.

(٢) صحيح البخاري (٣/ ١٣٠٠)، حديث (٣٣٤١). قال ابن حجر -رحمه الله-: «قوله: (موضع اللبنة) بالرفع على أنه مبتدأ وخبره محذوف أي لولا موضع اللبنة يوهم النقص؛ لكان بناء الدار كاملاً. ويحتمل أن تكون (لولا) تحضيضية وفعلها محذوف تقديره: لولا أكمل موضع اللبنة، ووقع في رواية همام عند أحمد: «ألا وضعت ههنا لبنة؛ فيتم بنيانك!»». فتح الباري: ٦/ ٥٥٩.

له ويقولون: هلا وُضِعَتْ هذه اللَّبِنة! قال: فأنا اللَّبِنةُ وأنا خاتَمُ النبيِّين»[١].

وروى مسلم - رحمه الله - عن أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب (الفضائل) باب (ذكر كونِه خاتَمَ النبيِّين) عن النبيِّ ﷺ قال: «**مَثلي ومَثَلُ الأنبياءِ كمَثلِ رجلٍ بنَى بُنياناً فأحسَنَه وأجْمَلَه؛ فجعلَ الناسُ يطيفون به يقولون: ما رأينا بُنياناً أحسنَ من هذا؛ إلا هذه اللَّبِنة! فكنتُ أنا تلك اللَّبِنة**»[٢] وفي رواية: «**مَثَلي ومَثلُ الأنبياءِ مِن قبلي كمَثلِ رجلٍ ابتنَى بُيوتاً فأحسَنَها وأجْمَلَها وأكمَلَها؛ إلا موضِعَ لَبِنة من زاويةٍ من زواياها؛ فجعل الناسُ يَطوفون ويُعجِبهم البنيان؛ فيقولون: ألا وَضَعْتَ ههنا لَبِنةٌ؛ فيتم بُنيانُك! فقال محمد ﷺ: فكنتُ أنا اللَّبِنة**»[٣]. وفي روايةٍ: «**مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثلِ رجلٍ بنَى بنياناً فأحسَنه وأجْملَه إلا موضعَ لَبِنة من زاويةٍ من زواياه؛ فجعل الناسُ يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وُضِعَت هذه اللَّبِنة! قال: فأنا اللَّبِنة وأنا خاتَمُ النبيِّين**»[٤]. فالبعثةُ النبوية تتمَّةٌ للرسالاتِ السابقة، وهي اللَّبِنةُ المكمِّلة لصَرحِ النُّبوةِ المبارَك؛ قال ابنُ حجر - رحمه الله -: «في الحديثِ ضَربُ

(١) صحيح البخاري ٣/ ١٣٠٠، حديث ٣٣٤٢، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين.

(٢) صحيح مسلم ٤/ ١٧٩٠، حديث ٢٢٨٦.

(٣) صحيح مسلم ٤/ ١٧٩٠، حديث ٢٢٨٦. كتاب الفضائل، باب ذكر كونه خاتم النبيين.

(٤) صحيح مسلم ٤/ ١٧٩١، حديث ٢٢٨٦. كتاب الفضائل، باب ذكر كونه خاتم النبيين.

الأمثالِ؛ للتقريبِ للأفهام، وفضلُ النبي ﷺ على سائرِ النبيِّين، وأنَّ الله ختَمَ به المرسَلِين وأكمَلَ به شرائعَ الدِّين»[١].

وقد نصَّ النبي ﷺ على فَضلِ أُمةِ الإسلام على غيرِها وإنْ تأخَّرَ زمانُها، كما روى البخاري -رحمه الله-: «**نحن الآخِرُون السابقُون يومَ القيامة؛ أُوتُوا الكتابَ مِن قبلِنا وأوتِيناه من بعدِهم**»[٢]. وفي روايةٍ: «**نحن الآخِرُون السابقُون يومَ القيامة؛ بيدَ أنَّ كلَّ أُمةٍ أوتُوا الكتابَ مِن قَبلِنا وأوتِيناه من بَعدِهم**»[٣]، وفي روايةِ مسلم: «**نحن الآخرون السابقون يومَ القيامة بيدَ أنهم أوتُوا الكتابَ من قبلِنا وأُوتِيناه مِن بعدِهم**»[٤]، وفي رواية أخرى لمسلم: «**نحن الآخِرُون مِن أهلِ الدنيا والأوَّلُون يومَ القيامة المقضِي لهم قبلَ الخلائق**»[٥]. قال ابنُ حجر -رحمه الله-: «(**نحن الآخِرُون ونحن السابِقُون**): أي: الآخرون زماناً الأوَّلُون منزلةً. والمرادُ أنَّ هذه الأمةَ، وإنْ تأخَّرَ وُجُودُها في الدنيا عن الأممِ الماضية، فهي سابقةٌ لهم في الآخرة بأنَّهم أولُ من يُحشَرُ، وأولُ مَن يُحاسَبُ، وأولُ من يُقضَى

(١) فتح الباري ٦/ ٥٥٩.

(٢) صحيح البخاري ١/ ٣٠٥، حديث ٨٥٦، كتاب الجمعة، باب هل على من لم يشهد الجمعة غسل من النساء؟

(٣) صحيح البخاري ٣/ ١٢٨٥، حديث ٣٢٩٨، كتاب الأنبياء، باب (أم حسبتَ أن أصحاب الكهف والرقيم).

(٤) صحيح مسلم ٢/ ٥٨٦، حديث ٨٥٥، كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة.

(٥) صحيح مسلم ٢/ ٥٨٦، حديث ٨٥٦، كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة.

بينهم، وأولُ من يدخلُ الجنة»، وفي حديث حذيفة عند مسلم: «**نحن الآخِرُون من أهلِ الدنيا، والأوَّلُون يومَ القيامة المقضِي لهم قبل الخلائق**»، وقيل: المراد بالسبق هنا إحرازُ فضيلةِ اليوم السابق بالفضل؛ وهو يوم الجمعة... وهو من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم والمعنى: نحن السابقون للفضل؛ غير أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا. ووجهُ التأكيد فيه ما أدمج فيه من معنى النسخ؛ لأنَّ الناسِخَ هو السابقُ في الفَضلِ وإنْ كان مُتأخِّراً في الوُجود»(١).

المطلب الرابع: الإيمان بالكتب السماوية

إنّ إنزال الكُتبِ من عند الله عقيدةٌ يجب الإيمانُ بها، كما قال -عزَّ وجل-: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾[البقرة: ٢٨٥]، وقال ﷺ: «**الإيمانُ: أنْ تؤمِنَ بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وأن تؤمن بالقدر خيره وشره**»(٢). فنحن نؤمنُ بتنزيلِ الكُتبِ من عند الله -عزَّ وجلَّ- على الرُّسلِ -عليهم الصلاة والسلام- إيماناً إجمالياًّ؛ كما يفيدُه توجيهُ القرآن: ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖ﴾[الشورى: ١٥]، ونؤمن إيماناً تفصيليّاً بما نَصَّ عليه القرآن: فنؤمن بصُحفِ إبراهيمَ وموسى وزبورِ داود -عليهم السلام-؛ لقوله -عزَّ وجل-: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ

---

(١) فتح الباري: ٢/ ٣٥٤-٣٥٥.

(٢) متفق عليه.

وَمُوسَىٰ﴾[الأعلى: ١٨- ١٩] وقوله -جلَّ جلاله-: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾[النساء: ١٦٣]، ونؤمنُ بتوراةِ موسى وإنجيلِ عيسى -عليهما الصلاةُ والسلام-؛ لقوله -تعالى-: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقولِه -عزَّ وجل-: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾[النساء: ٤٦].

ولكنَّنا نَجزِمُ بأنّه ليس في الكُتبِ التي بين أيدي الناسِ اليومَ كِتابٌ سالِمٌ من التحريفِ غير القرآن الذي تكفَّلَ الله بحِفظِه؛ فقال -عزَّ وجل-: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾[الحجر: ٩]. وأمّا ما عند أهلِ الكتابِ من التوراة والإنجيل فقد ذكرَ الله -سبحانه- أنهم ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾[المائدة: ١٣]، وقال -عزَّ وجل-: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩]. وأبان القرآنُ كَذِبَهم على ربِّهم، وافتراءَهم على أنبيائهم، واشتراءهم بآياتِ الله ثمناً قليلاً: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[آل عمران: ٧٨].

وأخبرَنا أنّهم ضيَّعُوا أمانةَ هذه الكُتبِ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

المطلب الخامس: تحريف أهل الكتاب

فقد قرَّرَ القرآنُ الكريمُ جنايةَ التحريفِ التي اقترَفَها أحبارُ السُّوءِ من اليهودِ والنصارى؛ فقال -عز وجل-: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٥-٤٦]. وقال -جلَّ جلاله-: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ﴾ [المائدة: ١٣]، وقال -تعالى-: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ﴾ [المائدة: ٤١]. وقال -عزَّ وجل-: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]. وقال -تعالى-: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ

ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائدة: ١٥- ١٦].

قال الشنقيطي -رحمه الله-: «إنَّ الله -جلَّ وعلا- صرَّحَ في هذا القرآنِ العظيم؛ الذي لا يأتيه الباطِلُ مِن بين يدَيه ولا مِن خَلفِه تنْزيلٌ من حكيمٍ حَميدٍ؛ بأنهم بدَّلُوا وحرَّفُوا وغيَّرُوا في كُتبهم؛ كقولِه: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾، وقوله: ﴿تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ﴾ [الأنعام: ٩١]، وقوله: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩]، وقوله -تعالى-: ﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨] إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ بخلافِ هذا القرآنِ العظيم؛ فقد تولَّى الله -جلَّ وعلا- حِفظَه بنفسِه... كما قال -تعالى-: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ١٢]، وقال: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦- ١٧]، وقال: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ

تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢]، وقال في النبيِّ ﷺ: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣- ٤]»[1].

وقد بيَّنَ لنا القرآن الكريم بعضَ صُوَرِ الانحرافِ والتحريفِ التي أحدثَها أحبارُ اليهودِ ورُهبانُ النصارى؛ فقال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١]. وقال الله -جلَّ جلاله-: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾[البقرة: ٧٩].

والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

---

(١) أضواء البيان للشنقيطي: ٣/ ٣٤٥-٣٤٦.

مؤتمر تعظيم حرمات الإسلام

الاستعمار الحديث

فهم طبيعة العداء وخلفياته

د. همام سعيد

الاستعمار الحديث

فهم طبيعة العداء وخلفياته

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم صل وسلم وبارك على هذا النبي الكريم، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، وبعد:

يخطئ من يتوهم أن العداء بين الغرب الصليبي، أو الاستعمار الحديث، وبين المسلمين إنما يرجع إلى مرحلة قريبة من الزمان، أو ناتج أحداث الحادي عشر من سبتمبر، أو سببَّته أطماع الغربيين في ثروات المسلمين بعد اكتشاف النفط بذلك المخزون الهائل، أو رغبة في تقاسم النفوذ بين الكبار؛ ليأخذ كل منهم حصته من هذه الكعكة الملقاة على قارعة الطريق الدولي.

ولما كان القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ هما المرجع في تصور المسلم للأحداث وفهمه لمجرياتها؛ فإنه لا بد من الأخذ من هذا المعِين الذي يحدد العلاقات بين المسلمين وغيرهم في سياق واحد لا يختلف؛ فقد بين لنا القرآن الكريم أن موقف الصليبيين من أمة الإسلام لن يتغير. ونقصد هنا الأنظمة والحكومات أكثر مما نقصد الشعوب والأفراد؛ فالله -تبارك وتعالى- يقول لنبيه ﷺ: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ

تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْۗ﴾ [البقرة: ١٢٠]، ويقول: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْۚ﴾ [البقرة: ٢١٧]، ويقول: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ﴾ [المائدة: ٨٢]. ويقول: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢]. ويقول: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

هذه الآيات تؤكد أن العلاقة من جهة اليهود والنصارى هي علاقة عداء دائم للمسلمين، ونؤكد على عبارة: من جهتهم؛ لأن النص القرآني يؤكد هذه الجهة بقوله: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ﴾، وبقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾، وبقوله: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً﴾، وبقوله: ﴿وَمَا نَقَمُواْ﴾، وبقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ﴾؛ وهذا يؤكد أن العلاقة من جهة المسلمين هي في الأصل علاقة دعوة ورغبة في تقديم الخير لهؤلاء. وهذا الفهم لا يحمّل المسلمين مسؤولية هذا العداء، بل يتحمله الطرف الآخر، وأكبر دليل على صدق هذا الفهم سلوك المسلمين نحو هؤلاء وسلوكهم نحو المسلمين؛ حيث لم يذكر التاريخ أن المسلمين سفكوا دماء هؤلاء، أو ارتكبوا مجازر مع هذه الشعوب، أو استعمروا بلادهم للاستحواذ على خيراتها والاستبداد في شؤونها، وحرمانهم من حقوقهم الإنسانية. بينما نجد التاريخ حافلاً بمجازر الصليبيين ضد المسلمين، الذين لم يكونوا يفرِّقون بين الصغير

والكبير، ولا بين الرجل والمرأة، وكانوا -وما زالوا- يمارسون أسوأ أنواع الطغيان والاستبداد مع المسلمين، وقد شهد بهذا مؤرخو الغرب وكتابه، أمثال: غوستاف لوبون، وتوماس آرنولد، والمؤرخ اليهودي روث.

ويجدر بنا، ونحن نتحدث عن علاقة العداء بين العالم الغربي والمسلمين في العصور الحديثة، أن نحدِّد الأطراف المحركة لهذا العداء؛ فكثيراً ما يقال: إن اليهودية والصهيونية هي المحرك لهذه الحملات العدائية وهذا الظلم الصارخ. وإن اليهود؛ بما لهم من ثقل اقتصادي وسياسي؛ هم وراء جميع المصائب التي حلّت بالمسلمين، وهم الذين يسخِّرون الشعوب الغربية والأمريكان لمصالحهم؛ وينبني على هذه الفكرة أن الصراع لا يتوقف إلا بانتهاء الدور اليهودي المسيطر على الغرب ومؤسساته. لقد أصبحت هذه الفكرة ثابتاً من ثوابت الفكر العربي في هذا الزمان، وكثيراً ما تطرح فكرة تعظيم النفوذ العربي في الغرب مقابل النفوذ اليهودي؛ حتى يكون للعرب تجمع (لوبي) يتغلب في السياسة الأمريكية بخاصة، والغربية بعامّة، على اللوبي اليهودي. ويلزم من هذه الفكرة أن يكون العداء مع الصليبية عداءً طارئاً، أو ما يسمى عداءً لغيره وليس عداءً لذاته.

ومع أنه لا يُنكر الدور اليهودي الحاقد في هذه المعركة إلا أن الدور الصليبي الغربي هو الأطول والأعنف. والحقائق التاريخية تؤكد أن الحقد الصليبي على المسلمين هو حقد ذاتي، وهو المحرك الرئيس لغيره من الأحقاد، وأن اليهود، برغم عداوتهم الأشد، إنما هم مخلب من مخالب هذا الحقد ووسيلة من وسائله وأداة من أدواته؛ إذ إن عداوة الصليبيين

للمسلمين بدأت منذ عهد الرسالة واستمرت على مدى التاريخ، وكان لها جولات كثيرة وطويلة من الحروب وسفك الدماء، سواء في أطراف الدولة الإسلامية أو في قلبها؛ حيث وصل الأمر إلى احتلال فلسطين وبلاد الشام وأجزاء من مصر، وتهديد المدينة ومكة، لمدة قاربت مئتي عام خلال الحروب الصليبية التي سبقت الغزو المغولي والتتري لبلاد المسلمين. وكانت ممارسات الصليبيين مع المسلمين استئصالية؛ كما حدث في الأندلس.

وأما في القرون الحديثة فما زلنا نعيش حالة الهجمة الاستعمارية الطاغية، ونرى بعيوننا شلاّل الدم المتصبب من أمة الإسلام، كما نرى استحواذ هؤلاء الغربيين على كثير من بلاد المسلمين؛ وما هذه الجيوش الغربية المترسة في بحارنا وبلادنا وأجوائنا إلا دليل صارخ على أحقاد لا حدّ لها ولا نهاية.

وليس احتلال اليهود لجزء عزيز من أرض المسلمين؛ وجعل هذا الجزء خنجراً في قلب العالم الإسلامي يمنع الاتصال بين مشرقه ومغربه؛ إلا جزءاً من تدبير خبيث دام عدة قرون من الكيد الصليبي للعالم الإسلامي. ويخطئ من يظن أن أهداف هذا الاحتلال في نظر المخططين له إنما هي إعطاء أرض بلا شعب لشعب بلا أرض، أو حل المشكلة اليهودية المزمنة التي صنع الغربيون منها مشكلة منذ سنة سبعين ق.م وحتى أوائل القرن التاسع عشر، أو أن يكون هدفهم من زرع هذا الكيان الاستعانةَ به لتثبيت وجودهم على هذه الأرض، وكذلك فالهدف

من هذا الاحتلال لم يكن فلسطين وشعبها على وجه الخصوص. وكذلك ما نراه من كون القضية الإسلامية هي الأكثر إلحاحاً في الذهن الغربي؛ لتلك الأسباب وغيرها جاء اختيار هذا العدو الأشدّ ليغتصب هذا الموقع الجغرافي الأعز في هذا الزمن التاريخي، وزرع هذا الجسم الغريب الذي يفصل جسم العالم الإسلامي شرقيّه عن غربيّه، ويفتح فيه جراحات دامية تستنزف قدراته وتشغله عن المحتل الآخر، ثم لا يجد هذا العالم الإسلامي المسكين مناصاً من اللجوء إلى الغربيين الذين هم سبب دائه بالبكاء والعويل، والاستعانة بهم، والاعتماد عليهم، وطلب الإنصاف منهم!

إن تاريخ الاستعمار الحديث يحمل في طيّاته الكثيرَ من الشواهد على أن زرع دولة يهودية في بلاد المسلمين هو أحد وجوه الاستعمار وجوانبه؛ فإذا أخذ هذا الاستعمار شكل الاحتلال المباشر في المغرب العربي وسورية ولبنان من الفرنسيين، وفي ليبيا من الطليان، وفي مصر والأردن والعراق وفلسطين من الإنجليز، وأخذ شكل السيطرة على منابع البترول والمعابر المائية والشواطئ البحرية، واستخدم أسلوب التغريب الثقافي ونشر القيم الغربية في بلاد المسلمين، وإحياء الحضارات السابقة؛ كالفرعونية والفينيقية والآشورية والبابلية؛ فقد كان احتلال اليهود لفلسطين أحد هذه الجوانب الاستعمارية، بل هو أخطرها وأعظمها أثراً؛ حيث لم ينتج العقل الغربي الحاقد أسوأ من هذه الفكرة الاستعمارية.

لقد بدأت فكرة زرع الكيان اليهودي في فلسطين تلوح في الأفق بعد ظهور حركة الإصلاح الديني على يد مارتن لوثر في أوروبا؛ حيث بدأ

أصحاب المذهب البروتستانتي الجديد بترويج فكرة تقضي بأن اليهود ليسوا جزءاً من النسيج الحضاري الغربي لهم ما لهم من الحقوق وعليهم ما عليهم من الواجبات؛ وإنما هم شعب الله المختار، وطنهم المقدس فلسطين، يجب أن يعودوا إليه. وكانت أُولى الدعوات لتحقيق هذه الفكرة ما قام به التاجر الدنماركي (أوليغر بولي Oliger poulli) عام ١٦٩٥م، الذي أعدّ خطة لتوطين اليهود في فلسطين، وقام بتسليمها إلى ملوك أوروبا في ذلك الوقت[١]. وفي عام ١٧٩٩م كان الإمبراطور الفرنسي نابليون بونابرت أول زعيم دولة يقترح إنشاء دولة يهودية في فلسطين أثناء حملته الشهيرة على مصر وسوريا؛ حيث وجّه نابليون خطاباً إلى اليهود أثناء حصاره لمدينة عكا سنة ١٧٩٩م، قائلاً:

«من نابليون بونابرت، القائد الأعلى للقوات المسلحة للجمهورية الفرنسية في أفريقيا وآسيا، إلى ورثة فلسطين الشرعيين:

أيها الإسرائيليون، أيها الشعب الفريد، الذي لم تستطع قوى الفتح والطغيان أن تسلبه نسبه ووجوده القومي، وإن كانت قد سلبته أرض الأجداد فقط: إن مراقبي مصائر الشعوب الواعين المحايدين -وإن لم تكن لهم مقدرة الأنبياء مثل أشعياء ويوئيل- قد أدركوا ما تنبّأ به هؤلاء بإيمانهم الرفيع أن عبيد الله (كلمة إسرائيل في اللغة العبرية تعني أسر الله أو عبد الله) سيعودون إلى صهيون وهم ينشدون، وسوف تعُمُّهم السعادة

---

(١) انظر: خالد عابد، التوسعية الصهيونية (إسرائيل الكبرى)، ص٥٤٣.

حين يستعيدون مملكتهم دون خوف. انهضوا بقوة أيها المشردون في التيه! إن أمامكم حرباً مهولة يخوضها شعبكم، بعد أن اعتبر أعداؤه أن أرضه التي ورثها عن الأجداد غنيمة تقسم بينهم حسب أهوائهم... لا بد من نسيان ذلك العار الذي أوقعكم تحت نير العبودية، وذلك الخزي الذي شلّ إرادتكم لألفَي سنة. إن الظروف لم تكن تسمح بإعلان مطالبكم أو التعبير عنها؛ بل إن هذه الظروف أرغمتكم بالقسر على التخلي عن حقكم. ولهذا فإن فرنسا تقدم لكم يدها الآن حاملة إرث إسرائيل، وهي تفعل ذلك في هذا الوقت بالذات وبالرغم من شواهد اليأس والعجز. إن الجيش الذي أرسلتني العناية الإلهية به، ويمشي بالنصر أمامه وبالعدل وراءه، قد اختار القدس مقرّاً لقيادته، وخلال بضعة أيام سينتقل إلى دمشق المجاورة التي لم تعد تُرهب مدينة داود.

يا ورثة فلسطين الشرعيين:

إن الأمة الفرنسية؛ التي لا تتاجر بالرجال والأوطان كما فعل غيرها، تدعوكم إلى إرثكم بضمانها وتأييدها ضد كل الدخلاء. انهضوا وأظهروا أن قوة الطغاة القاهرة لم تُخمِد شجاعة أحفاد هؤلاء الأبطال الذين كان تحالفهم الأخوي شرفاً لأسبارطة وروما، وأن معاملة العبيد التي طالت ألفي سنة لم تفلح في قتل هذه الشجاعة. سارعوا! إن هذه هي اللحظة المناسبة – التي قد لا تتكرر لآلاف السنين – للمطالبة باستعادة

حقوقكم ومكانتكم بين شعوب العالم، تلك الحقوق التي سلبت منكم لآلاف السنين وهي وجودكم السياسي كأمة بين الأمم»[١].

ثم استلمت هذه المهمة الدولة البريطانية ابتداءً من محاولة إقناع السلطان العثماني بالسماح بهجرة اليهود إلى فلسطين في منتصف القرن التاسع عشر إلى أن أصدر (بلفور) وعده المشؤوم بإقامة وطن قومي لليهود على أرض فلسطين، وما تبع ذلك من تواطؤ الولايات المتحدة وفرنسا وإيطاليا لتنفيذ هذا الوعد على أرض الواقع؛ حيث بدأت الإجراءات الفعلية من خلال ما يسمى بالانتداب البريطاني على فلسطين والأردن، والانتداب الفرنسي على سورية ولبنان، ثم فُتح باب الهجرة على مصراعيه، وتمَّ تأييده بالدعم الدولي والاعتراف الأممي. وفي الوقت الذي لم يكن بيد اليهود ما لا يزيد عن ٦٪ من أرض فلسطين كان قرار هيئة الأمم عام ١٩٤٧م بتقسيم فلسطين لتكون حصة اليهود منها ٥٤٪. يضاف إلى ذلك حرمان الشعب الفلسطيني من حقوقه السياسية، وتحويله إلى مجموعة من الطوائف التي لا يعترف لها بشيء سوى بعض الحقوق الدينية والمدنية، لتصبح البقية الباقية من أهل فلسطين سكاناً لا مواطنين على أرضهم.

---

(١) انظر: محمد حسنين هيكل: المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل، القاهرة، ١٩٩٦م، ج ١، ص ٣١-٣٢.

ثم استلمت زعامة هذا الإفك والطغيان الولايات المتحدة الأمريكية التي حرصت على دعم هذا الكيان بالمال والسلاح والرجال، والقرارات الدولية، وحق النقض (الفيتو)؛ حيث لم يُستعمَل هذا الحق كما استُعمِل لصالح اليهود.

إن هذا التنوع في خدمة المشروع اليهودي على أرض فلسطين، سواء بالدول الداعمة أو بالمشاريع المقدمة على امتداد هذه السنوات الطويلة، يؤكد أمراً واحداً وهو أن المشروع اليهودي لا يعدو أن يكون أداة من أدوات الاستعمار الصليبي لبلاد المسلمين.

إن معركة هذه الأمة اليوم مع اليهودية والصليبية إنما هي حلقة من حلقات المعركة الطويلة مع الروم؛ فليس الروم أمة بادت وغادرت التاريخ ولم يبقَ لها ذكر بين الإمبراطوريات والدول، ولا يعني تغيُّر أسماء الدول والمجتمعات الغربية من الدولة الرومانية إلى بريطانيا أو فرنسا أو إسبانيا، ولا تسميتها بالاتحاد الأوروبي أو الولايات المتحدة- أنها خرجت عن حقيقة الدولة الرومانية ووظيفتها.

لقد بيَّن لنا نبينا ﷺ نوعية الصراع الطويل مع الروم؛ فقد أخرج مسلم (حديث ٢٩٠٠) عن نافع بن عتبة، عن النبي ﷺ، قال: «**تغزون جزيرة العرب؛ فيفتحها الله، ثم فارس؛ فيفتحها الله، ثم تغزون الروم؛ فيفتحها الله، ثم تغزون الدّجال؛ فيفتحه الله. قال: فقال نافع: يا جابر! لا نرى الدّجال يخرج حتى تُفتح الروم**».

إن هذا الحديث يكشف عن مجمل الصراع بين الأمة الإسلامية وأعدائها، ابتداءً من المشركين في جزيرة العرب إلى أن يُقتل الدجال، ويكشف الحديث عن طول فترات الصراع مع كل عدو من هؤلاء الأعداء. ويبين الحديث -كما هو الواقع- أن ثلاثة من هؤلاء الأعداء ينتهون بجولة أو جولتين، وأن الروم من بين هؤلاء الأعداء وحدهم تميزوا بطول زمان حربهم مع المسلمين، وكثرة المعارك معهم، والواقع التاريخي يشهد على هذا؛ إذ لم يعرف التاريخ البشري صراعاً مضى عليه ألف وأربعمئة عام، ما يزال هذا الصراع جذعاً، تزداد ناره اشتعالاً، سوى هذه الحرب. ولهذا الحديث شواهد أخرى منها ما رواه ابن أبي شيبة في مصنفه برقم (١٩٣٤٢)، والحارث في مسنده برقم (٧٠٢)، عن ابن محيريز، قال: قال رسول الله ﷺ: «**فارس نطحة أو نطحتان، ثم لا فارس بعدها أبداً**، والروم ذات القرون؛ كلما **هلك قرن خَلَفَ مكانه قرن، أهل صخر وأهل بحر، هيهات لآخر الدهر، هم أصحابكم ما كان في العيش خير**».

إن هذا العدو القديم الجديد الذي يقف في وجه الأمة اليوم، ويحتل أعز بقاعها، ويأخذ بخناقها من كل جانب، ويرتكب بحقها أبشع المجازر والجرائم، وينتهك حرمة ربها ونبيها وقرآنها ومقدساتها -هو العدو نفسه الذي خاض المعارك المتواصلة؛ ابتداءً من غزوة مؤتة، مروراً بمعركة اليرموك ومعارك الشام الأخرى والمعارك مع الدولة البيزنطية، ثم الحروب الصليبية، ثم فتح القسطنطينية، ثم الحروب داخل أوروبا، ثم الغزو الاستعماري

الحديث لبلاد المسلمين، بما في ذلك احتلال فلسطين والعراق وأفغانستان. ولم تتوقف هذه الحروب الاستعمارية عند حدود الاحتلال العسكري والسيطرة على الثروات، وإنما شملت جميع شؤون الحياة في البلاد الإسلامية، بما في ذلك أنظمة الحكم، ومناهج التعليم، ونظام الأسرة، وحقوق المرأة، وتعميم طرائق الحياة الغربية، ونشرِ الفلسفة المادية القائمة على الـمُتَعِ والشهوات، والبعد عن الحياة الإسلامية بما فيها من نظام للعقيدة والعبادة والمجتمع، حتى أصبح الإسلام مطارداً في بلاده من خلال شبهة الحرب على الإرهاب!

ويستفاد من هذه الأحاديث وغيرها أن أمة الإسلام تبقى في مواجهة الروم الذين يواصلون معاركهم معها حتى تأتي الملحمة الكبرى التي تكون فاصلة بين المسلمين وبين الروم. والجدير بالذكر أن هذه الملحمة معلومة عند المسلمين واليهود والنصارى وإن كان كل فريق يقرأ هذه الملحمة بمقتضى عقيدته. والمسلم يعتقد أن الحق ما جاء به رسول الله ﷺ. وقد جاء ذكر هذه الملحمة في الحديث الصحيح الذي أخرجه الإمام مسلم برقم (٢٨٩٩): عن يسير بن جابر، قال: هاجت ريح حمراء بالكوفة؛ فجاء رجل ليس له هجيرى (أي: صوت عال): ألا يا عبد الله بن مسعود! جاءت الساعة، قال: فقعد، وكان متكئاً، فقال: إن الساعة لا تقوم حتى لا يُقسم ميراث ولا يفرح بغنيمة، ثم قال بيده هكذا (ونحاها نحو الشام) فقال: عدو يجمعون لأهل الإسلام، ويجمع لهم أهل الإسلام، قلت: الروم تعني؟ قال نعم! وتكون عند ذاكم القتال ردة شديدة؛ فيشترط

المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة؛ فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل؛ فيفيء هؤلاء وهؤلاء، كلٌّ غير غالب، وتفنى الشرطة، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلاّ غالبة؛ فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل، فيفيء هؤلاء وهؤلاء، كل غير غالب، وتفنى الشرطة، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة؛ فيقتتلون حتى يمسوا؛ فيفيء هؤلاء وهؤلاء، كل غير غالب، وتفنى الشرطة. فإذا كان يوم الرابع نهد إليهم بقية أهل الإسلام؛ فيجعل الله الدبرة عليهم، فيقتلون مقتلة -إما قال: لا يرى مثلها، وإما قال: لم يُرَ مثلها- حتى إن الطائر ليمرّ بجنباتهم فما يخلفهم حتى يخرّ ميتاً؛ فيتعادّ بنو الأب كانوا مئة فلا يجدونه بقي منهم إلا الرجل الواحد؛ فبأي غنيمة يفرح؟ أو أي ميراث يقاسم؟ فبينما هم كذلك إذ سمعوا ببأس هو أكبر من ذلك؛ فجاءهم الصريخ: إن الدجال قد خلفهم في ذراريهم! فيرفضون ما في أيديهم، ويقبلون؛ فيبعثون عشرة فوارس طليعة، قال رسول الله ﷺ: «**إني لأعرف أسماءهم وأسماء آبائهم وألوان خيولهم، هم خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ، أو من خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ**».

وأخرج مسلم (حديث ٢٨٩٧) عن أبي هريرة، أنّ رسول الله ﷺ، قال: «**لا تقوم الساعة حتى يَنزل الروم بالأعماق، أو بدابق؛ فيَخرج إليهم جيشٌ من المدينة، من خِيار أهل الأرض يومئذٍ؛ فإذا تصافّوا قالت الروم: خلّوا بيننا وبين الذين سَبَوا منّا نقاتلهم، فيقول المسلمون: لا والله! لا نخلّي بينكم وبين إخواننا؛ فيقاتلونهم؛ فيَنهزم ثلثٌ لا يتوب الله عليهم أبداً،**

ويُقتَل ثلثهم، أفضل الشهداء عند الله، ويَفتتح الثلث، لا يُفتَنون أبداً؛ فيَفتتحون قسطنطينيّة؛ فبينما هم يَقتسمون الغنائم، قد علّقوا سيوفهم بالزيتون؛ إذ صاح فيهم الشيطان: إنّ المسيح قد خلفكم في أهليكم؛ فيَخرجون، وذلك باطلٌ. فإذا جاؤوا الشّأم خرج؛ فبينما هم يُعِدّون للقتال يُسَوّون الصّفوف إذ أُقيمت الصلاة؛ فينزل عيسى ابن مريم ﷺ؛ فأمَّهم؛ فإذا رآه عدوّ الله ذاب كما يذوب الملح في الماء؛ فلو تركه لانْذاب حتى يهلِك؛ ولكن يقتله الله بيده؛ فيُريهم دمه في حربته».

وأخرج أبو داود (حديث٤٢٩٢) عن ذي مِخْبَر رجُل من أصحاب النبيّ ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «**ستُصالحون الرومَ صُلحاً آمِناً؛ فتغزون أنتم وهم عدوّاً من ورائكم؛ فتُنصرون وتغنمون وتسلمون، ثم ترجعون حتى تنزلوا بمرج ذي تلولٍ؛ فيرفع رجُلٌ من أهل النصرانية الصليب، فيقول: غلب الصليبُ؛ فيغضب رجُل من المسلمين فيدقّه؛ فعند ذلك تَغدر الرومُ، وتجمع للملحمة**».

إن الفكر الصليبي الاستعماري يدور منذ ما يزيد على أربعة قرون على أن شرط مجيء المسيح مرة أخرى، وفق التصور النصراني، لا يمكن أن يتحقق إلا إذا قامت دولة يهودية على أرض فلسطين، وتم بناء الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى، وعندئذٍ تكون معركة (هِرْمجدون) التي يقتل فيها ملايين البشر، ولا يبقى من اليهود إلا فئة قليلة؛ حيث يعتنقون النصرانية. وليس هذا الفكر فكر جماعة قليلة لا شأن لها في صناعة الأحداث؛ بل هو فكر الإنجيليين الجدد الذين يزيد عددهم في

الولايات المتحدة وحدها على ٤٠ مليوناً، ولهم إعلام مسيطر على الرأي العام الأمريكي؛ حيث تعمل في خدمتهم ألوف المحطات التلفزيونية والإذاعية، التي تبشر ليلَ نهار بقرب معركة هرمجدون.

(... يعتقدون أن كارثة نووية فقط يمكن أن تعيد المسيح إلى الأرض. إن هذه الرسالة تبث عبر ١٤٠٠ محطة دينية في أمريكا، ومن بين ٨٠٠٠٠ قسيس إنجيلي يذيعون يومياً من خلال ٤٠٠ محطة راديو؛ فإن الأكثرية الساحقة منهم من التدبيريين، أي الذين يعتقدون هذه العقيدة وينتظرون حدوثها، ويجدون في دعم دولة اليهود بكل ما تحتاج إليه من أسباب القوة هو الطريق الموصل إلى هذه النبوءة)[(١)].

يقول د. سفر الحوالي في محاضرة له بعنوان: القدس بين الوعد الحق والوعد المفترى: «اسمعوا ماذا يقول دعاة الأصولية الإنجيلية! يقول بات روبرتسون: «كنت أتمنى أن أستطيع القول: إننا سنحصل على السلام؛ ولكني أؤمن بأن معركة هرمجدون مقبلة. إن هرمجدون قادمة وسيصب غمارها في وادي فريدون، إنها قائمة. إنهم يستطيعون أن يوقعوا على اتفاقيات السلام التي يريدون، إن ذلك لن يحقق شيئًا، هناك أيام سوداء قائمة» ويضيف: «إنني لا أخطط لولوج جهنم قادمة. إن الله سوف يهبط من عليائه، يا إلهي إنني سعيد من أجل ذلك! إنه قادم ثانية»[(٢)].

---

(١) انظر: النبوءة والسياسة، ص٣١.

(٢) نقلاً عن النبوءة والسياسة: ٣٧.

وتقول مؤلفة كتاب (النبوءة والسياسة): «إن الأربعين مليون إنجيلي أصولي يؤمنون بقوة أن الله نفسه يريد أن تحصل (إسرائيل) على أي جزء من الأراضي العربية، وعلى كل الأراضي العربية التي تتمكن من مصادرتها» وكما يقولون: «إننا نحن المسيحيين نؤخر وصول المسيح من خلال عدم مساعدة اليهود على مصادرة مزيد من الأراضي». ولهذا يفتتح اليهود مزيداً من المستوطنات الجديدة في الضفة والجولان حتى إبّان انعقاد المؤتمر، ومن ورائهم الأصوليون الإنجيليون في أمريكا الذين يقولون: «إن أي أحـد يعترض على شيء من ذلك -أي على استحداث المستوطنات- إنما يؤخر عودة المسيح أو يساهم في هذا التأخير». من محاضرة الكترونية.

ويقول د. خالد بن محمد الغيث في مقال له بموقع (altareekh.com):

«إن قيام الدولة اليهودية في نظر الأمم البروتستانتية يعد تحقيقاً لأهم وأخطر نبوءة في كتبهم المحرفة؛ ألا وهي نبوءة (الألفية السعيدة). ومختصر تلك النبوءة يدور حول عودة المسيح -عليه السلام- إلى الأرض ليحكم العالم مدة (ألف سنة) تعم فيها السعادة وينتشر فيها الخير، لكن تلك العودة مشروطة بقيام الدولة اليهودية في فلسطين وعاصمتها القدس، وبناء الهيكل مكان المسجد الأقصى، وبقيام معركة (مجدّو) أو (هرمجدّو) والتي سيتم فيها القضاء على كل الأشرار الذين سوف يحاولون عرقلة العد التنازلي للألفية السعيدة؛ لذا فإن من يحاول عرقلة العد التنازلي لهذه النبوءة سيدخل تلقائياً في نادي الأشرار. وهذا يعني أن الأمة المسلمة، في نظر عشاق تلك النبوءة، تعد عضواً مؤسساً في ذلك النادي.

وعن تلك النبوءة تقول الكاتبة الأمريكية (جريس هالسل) في كتابها: (النبوءة والسياسة): «إننا نؤمن كمسيحيين أن تاريخ الإنسانية سوف ينتهي بمعركة تدعى (هرمجدون)، وأن هذه المعركة سوف تُتوّج بعودة المسيح، الذي سيحكم بعودته على الجميع. وأن اليهود هم شعب الله المختار، وأن الله أعطى الأرض المقدسة إلى شعبه المختار اليهود؛ ولأن اليهود هم شعبه المختار؛ فإن الله يبارك الذين يباركون اليهود، ويلعن لاعنيهم»(١).

ويقول القس الأمريكي (جورج أوتيس): «نحن نؤمن بأرض إسرائيل، كما نؤمن بأن كل الأرض المقدسة، هي ميراث الشعب اليهودي، غير القابل للنقل أو التصرف، وهو الوعد الذي أُعطي إلى إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ولم يُلغَ قط. كما أن إنشاء إسرائيل الحديثة هو إيفاء لا ينازع للنبوءة التوراتية، ورؤى النذير بمقدم المسيح. إننا نعتقد أن اليهود في أي مكان ما زالوا هم شعب الله المختار». وعن قيام الدولة اليهودية يقول الرئيس الأمريكي السابق (جيمي كارتر): «إن إنشاء دولة إسرائيل هي إنجاز النبوءة التوراتية وجوهره». وقال أيضاً مخاطباً اليهود حين زار فلسطين في عام١٩٧٩م: «إننا نتقاسم معكم تراث التوراة». أما الرئيس الأمريكي السابق (ريغان) فقد كان مشغوفاً بتسريع خطوات العد التنازلي للألفية السعيدة؛ حيث قال: «إن إسرائيل هي الديمقراطية الثابتة الوحيدة التي يمكن أن نعتمد عليها كموقع لحدوث (هرمجدو)» وقال أيضاً: إن جميع النبوءات التي يجب أن تتحقق قبل (هرمجدو) قد مرّت.

---

(١) نقلاً عن النبوءة والسياسة: ١٣.

إن هذه النصوص تظهر أن حمل اليهود إلى أرض فلسطين ليس حُباً فيهم، ولا شفقة عليهم؛ بل لكونهم شرط حصول هذه التنبؤات؛ وبهذا نرجع إلى ما كنا قررناه ابتداء أن إقامة الدولة اليهودية على أرض فلسطين إنما هو وسيلة صليبية غربية لإعنات المسلمين، وتبديد طاقاتهم، وتمزيق بلادهم وإشغالهم عن رسالتهم العظمى التي هي حمل الإسلام ونشره بين الناس.

أما العلاقة المستقبلية بين المسلمين والعالم الصليبي فهي مرشحة لمزيد من التوتر والحروب، وقد بيّنت السنة النبوية الكثير من جوانبها. وفي هذه العلاقة محطات كبرى أخبرت السنة عنها؛ منها حصار يفرضه الروم على الشام وعلى مصر وعلى العراق؛ فقد أخرج مسلم (حديث ٢٩١٣) عن أبي نضرة، قال: كنّا عند جابر بن عبد الله، فقال: يوشِك أهل العراق أن لا يُجبَى إليهم قَفيزٌ ولا درهمٌ، قلنا: من أين ذاك؟ قال: من قِبَل العجم، يَمنعون ذاك. ثم قال: يوشِك أهل الشّأم أن لا يُجبَى إليهم دينارٌ ولا مُدْيٌ. قلنا: من أين ذاك؟ قال: من قِبَل الروم. ثم سكتَ هُنَيّةً، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «**يكون في آخر أمّتي خليفةٌ يَحثِي المال حَثْياً، لا يَعُدّه عدداً**».

كما تحدثتْ عن انحسار الفرات عن جبل من ذهب، وما يكون عنده من القتال، كما تحدثت السنة عن صلح يكون بين المسلمين والروم، ثم عن غدر الروم بالمسلمين، ثم مجيئهم تحت ثمانين راية؛ تحت كل راية منها مئة وعشرون ألفًا، وبذلك يكون الحشد العسكري ما يقارب مليوناً

من الجنود الصليبيين، وتكون الملحمة الكبرى التي جاء ذكرها في الحديث الصحيح الذي أخرجه الإمام مسلم وغيره.

إن نهاية الصـراع مع الروم يكون مع نزول المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، والأخبار في نزوله متواترة عن رسول الله ﷺ، وعندئذٍ يُقتل الدجال؛ فقد جاء في البخاري (٢٢٢٢) عن أبي هريرة: «**ليوشكنّ أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً؛ فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية**».

وبالرغم من هذا العداء المستحكم بين المسلمين والصليبين إلا أن الواقع التاريخي يثبت فشو الإسلام فيهم؛ فقد تحولت بلاد كثيرة من النصرانية إلى الإسلام، أو أسلم أكثر أهلها، وكان لهؤلاء المسلمين الجدد دور عظيم في حمل الإسلام ونشره. ومن هذا ما نشاهده اليوم من إقبال الغربيين على الإسلام، وسيكون الإقبال أعظم، أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة: «أن النبي ﷺ قال: **سمعتم بمدينة جانب منها في البر وجانب منها في البحر؟** قالوا نعم يا رسول الله! قال: **لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفًا من بني إسحاق؛ فإذا جاؤوها نزلوا فلم يقاتلوا بسلاح، ولم يرموا بسهم، قالوا: لا إله إلا الله والله أكبر؛ فيسقط أحد جانبيها.** قال ثور: لا أعلمه إلا قال: **الذي في البحر،** ثم يقولوا الثانية: **لا إله إلا الله والله أكبر؛ فيسقط جانبها الآخر، ثم يقولوا الثالثة: لا إله إلا الله والله أكبر؛ فيفرج لهم، فيدخلوها فيغنموا؛ فبينما هم يقتسمون**

المغانم إذ جاءهم الصريخ؛ فقال: إن الدجال قد خرج؛ فيتركون كل شيء ويرجعون». (حديث رقم٢٩٢٠).

إن هؤلاء السبعين ألفاً المذكورين في الحديث ما هم إلا ممن سيسلم من جيوش الروم الذين سيغزون بلاد المسلمين، ثم يشاء الله -تعالى- لهم الهداية، ونأخذ هذا الفهم من حديث آخر أخرجه الإمام مسلم برقم (٢٨٩٧) عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق؛ فيخرج إليهم جيش من المدينة، من خيار أهل الأرض يومئذٍ؛ فإذا تصادفوا قالت الروم: خلّوا بيننا وبين الذين سَبوا منا نقاتلهم، فيقول المسلمون: لا والله، لا نخلِي بينكم وبين إخواننا؛ فيقاتلونهم؛ فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبداً، ويُقتل ثلثهم؛ أفضل الشهداء عند الله، ويفتتح الثلث؛ لا يفتنون أبداً؛ فيفتتحون قسطنطينية؛ فبينما هم يقتسمون الغنائم، قد عَلّقوا سيوفهم بالزيتون؛ إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم في أهليكم؛ فيخرجون، وذلك باطل. فإذا جاؤوا الشأم خرج؛ فبينما هم يُعِّدون للقتال يُسوون الصفوف، إذ أقيمت الصلاة؛ فينزل عيسى ابن مريم ﷺ؛ فأمَّهم، فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء؛ فلو تركه لانذاب حتى يهلك؛ ولكن يقتله الله بيده؛ فيريهم دمه في حربته**».

إن المعركة المذكورة في هذا الحديث هي الملحمة الكبرى، وهي من جهة الصليبين معركة هرمجدون، ويكون سبب هذه المعركة من يسلم من الروم ويخوضون معركة القسطنطيبية؛ فيقول الروم للمسلمين: خلوا

بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم. وفي هذا التوفيق بين الحديثين نخرج من الخلاف بين شُرّاح الحديث الذين قالوا بشذوذ رواية مسلم، وأن فيها خطأ من بعض الرواة، وقولهم: إن الصواب: (بني إسماعيل).

التوصيات

تأكيد الدعوة إلى الإسلام في الغرب بمختلف الوسائل، ومن ذلك:

١- تكوين لجنة من كبار العلماء والدعاة من مختلف بلاد المسلمين تشرف على أعمال التبشير بالإسلام في الغرب.

٢- عقد مؤتمر متخصص لدراسة أولويات الدعوة الإسلامية في الغرب والسبل الناجعة في نشر الدعوة.

٣- تخصيص قنوات فضائية لدعوة الغربيين إلى الإسلام، أو على الأقل تخصيص ساعات بثٍّ للدعوة.

٤- إعداد الدعاة القادرين على مخاطبة الغرب وفق خطة يتوافر لها الدعم المالي والفني.

٥- تأليف كتب إسلامية تيّسر فهم الإسلام بلغات الغربيين.

٦- استقطاب عدد من الشباب المسلم الغربي لإعدادهم الإعداد الجيد، وإعادتهم إلى بلادهم.

٧- توطين بعض الدعاة في بلاد الغرب، ولاسيما أساتذة الجامعات.

٨- العناية الخاصة بترجمة القرآن الكريم وكتب السنة على أيدي لجانٍ علمية شرعية.

٩- تقديم الحلول الإسلامية لمشكلات الغرب.

المواجهات مع أهل الكتاب

في عصر الرسالة وعصور الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ والتابعين

أ.د.سليمان بن حمد العودة

ظاهرة التطاول على الإسلام قديمة تتجدد، ومشهد الصراع بين الحق والباطل لم يغب عن الوجود منذ حسد إبليس آدم وأُهبطا من الجنة، ومن حينها أقسم إبليس على البشرية: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩- ٤٠].

والعلاقة مع أهل الكتاب – عبر مسيرة التاريخ – وإن حفلت باستجابات نفرٍ من أهل الكتاب لنداء الحق؛ فقد كانت السمة البارزة فيها باتجاه المواجهات والعدوان والمكائد. ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وحين تبرز هذه الظاهرة العدوانية من أهل الكتاب في زمن النبوة؛ حيث النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، وحيث ينزل القرآن المصدق لما قبله من الكتب والمهيمن عليها، وهو الذي لأجله فاضت عيون أهل العلم منهم مما عرفوا من الحق، ويقولون وهم يخرون للأذقان يبكون: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٨].

حين تبرز ظاهرة عدوان أهل الكتاب على المسلمين في تلك الفترة، فلا غرو أن عدوانهم ومواجهاتهم في الأزمنة التالية من باب أولى.

على أن الناظر في مواجهات أهل الكتاب في زمن الرسالة وغيرها يلفت نظره تعدد جبهات المعركة، وكثرة وسائل أهل الكتاب في

المواجهة؛ ظناً منهم أن هذه الوسيلة إن لم تفلح فعسى أن يكون المقتل في غيرها. إنها وسائل ظاهرة وخفية، ومواجهات سلمية وحربية: سحر وسمم، وافتراءات وتهم، فردية وجماعية، شاملة للرجال والنساء، محاورات فكرية، وأسئلة تعجيزية، واستعانة بالخصوم، وتزكية للوثنيين على حساب أصحاب الكتاب المبين: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥٠].

عدوان مبكر:

على أن المتأمل في السيرة النبوية يقف على مرويات تؤكد أسبقية عدوان اليهود بالذات للنبي ﷺ في مكة وقبل البعثة، وهنا أسوق روايتين تؤكد ذلك.

الأولى:

أخرجها ابن سعد بسنده إلى إسحاق بن عبد الله: أن أم النبي ﷺ لما دفعته إلى السعدية التي أرضعته قالت لها: احفظي ابني! وأخبرتها بما رأت، فمرّ بها (حليمة) اليهودُ، فقالت: ألا تحدثوني عن ابني هذا؟! فإني حملته كذا، ووضعته كذا، ورأيت كذا - كما وصفت أمه (آمنة) - قال (الراوي): فقال بعضهم لبعض: اقتلوه، فقالوا: أيتيم هو؟ فقالت: لا، هذا أبوه وأنا أمه، فقالوا: لو كان يتيماً لقتلناه! قال فذهبت به حليمة

وقالت: كدت أخرب أمانتي[١].

لماذا يسأل اليهود عن يُتْمِ النبي ﷺ؟ ليتأكدوا أنه النبي الذي يجدونه وصفاته في كتبهم، ولماذا (لو كان يتيماً لقتلناه)؟ إنه الحسد والكبر والكفر ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩]، إنه عدوان مبكر على النبي ﷺ تشير إليه هذه الرواية، وكان حفظ الله أولاً، وتنبُّه (حليمة) لمقصد اليهود من السؤال - ثانياً - حائلاً دون تحقيق هذا العدوان.

الثانية:

ثمة رواية أخرى وقعت في مكة حين وُلد النبي ﷺ ساقها ابن سعد بسنده إلى عائشة رضي الله عنها، قالت: سكن يهودي بمكة يبيع بها تجارات، فلما كان ليلة ولد رسول الله ﷺ قال في مجلس من مجالس قريش: هل كان فيكم من مولود هذه الليلة؟ قالوا: لا نعلمه، قال: أخطأت -والله- من حيث كنت أكره، انظروا يا معشر قريش وأحصوا ما أقول لكم: وُلِد الليلةَ نبي هذه الأمة أحمد الآخر، فإن أخطأكم فبفلسطين، به شامة بين كتفيه..؛ فتصدع القوم من مجالسهم وهم يعجبون من حديثه؛ فلما صاروا في منازلهم ذكروا لأهليهم، فقيل لبعضهم: وُلد لعبد الله بن عبد المطلب الليلة غلام فسمّاه: محمداً؛ فأتوا اليهودي فأخبروه، فذهبوا وذهب اليهودي معهم حتى دخلوا على أمه فأخرجته إليهم؛ فرأى الشامة في ظهره؛ فغشي على اليهودي ثم أفاق،

---

(١) الطبقات الكبرى (١/١١٣).

فقالوا: مالك؟! قال: ذهبت النبوة من بني إسرائيل وخرج الكتاب من أيديهم، وهذا مكتوب يقتلهم ويبزّ أخبارهم، فازت العرب بالنبوة، أفرحتم يا معشر قريش؟ أما والله ليسطون بكم سطوة يخرج نبؤها من المشرق إلى المغرب(١).

والسؤال مرة أخرى: لماذا غُشي على اليهودي حين رأى النبي ﷺ، وبه علائم النبوة، وهو بعد رضيع في حجر أمه؟ لقد قالها بكل صراحة: «ذهبت النبوة من بني إسرائيل وخرج الكتاب من أيديهم، مكتوب يقتلهم ويبز أخبارهم».

ويصل الأمر باليهود في كتمان الحق الذي يعرفونه أن يُغيَّب الأبناء بوصية الآباء عن معرفة الحقيقة الكافية في كتبهم، وفي قصة إسلام كعب الأحبار وإخباره عن سبب تأخره في الإسلام ما يؤكد هذه الحقيقة(٢).

على أن العدوان والمكابرة تجاوزت اليهود إلى النصارى؛ مع اتّفاقهم على معرفته. قال ابن سعد: أخبرنا علي بن محمد، عن أبي معشر، عن محمد بن جعفر بن الزبير، ومحمد بن عمارة بن غزيه وغيرهما قالوا: قدم وفد نجران وفيهم أبو الحارث بن علقمة بن ربيعة، له علم بدينهم ورئاسة، وكان أسقفهم وإمامهم وصاحب مدراسهم، وله فيهم قدر؛ فعثرت به بغلته فقال أخوه (كُرزْ): تعس الأبعد، يريد رسول الله ﷺ،

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى (١/ ١٦٢، ١٦٣)، ونقل ابن حجر الرواية في الفتح (٦/ ٥٨٣) مع اختلاف يسير، وعزاها إلى يعقوب الغوي وحسّن إسنادها.

(٢) انظر الخبر: عند ابن حجر في الإصابة في ترجمة كعب (٨/ ٣٣٥) وحسّنه ابن حجر.

فقال أبو الحارث: بل تعِست أنتَ، أتشتم رجلاً من المرسلين؟! إنه الذي يشريه عيسى وإنه لفي التوراة. قال: فما يمنعك من دينه؟ قال: شرّفنا هؤلاء القوم [(١)] وأكرمونا وموّلونا، وقد أبوا إلا خلافه، ولو تبعته لانتزعوا منا كل ما ترى؛ فحلف أخوه ألا يثني له صَعَراً حتى يقدم المدينة فيؤمن به.. ومضى يضرب راحلته ويقول:

إليك يغدوا قلقاً وضِينها
معترضاً في بطنها جنينُها
مخالفاً دين النصارى دينُها[(٢)]

وواضح من الرواية معرفة النصارى بمحمد ﷺ ورسالته، ومع ذلك يشتمه بعضهم، ويعتذر علماؤهم عن الدخول في دينه مجاملة للقوم الذين أكرموهم! وأخيراً يُسلم الشاتم كما في بقية هذه الرواية، وكما ذكره ابن حجر في الإصابة (٨/ ٢٨٢، ٢٨٣).

أما أبو الحارث (عالمهم) فلا تذكر له الرواية إسلاماً هنا، وفي رواية أخرى حين كتب النبي ﷺ إلى نصارى نجران، فجاءه وفدهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم نصارى، وفيهم (أبو الحارث) وفي الرواية أن النبي ﷺ دعاهم إلى الإسلام فأبوا.

---

(١) القوم: هم ملوك الروم، فعند ابن حجر: وكان ملوك الروم قد شرّفوه وموّلوه وبنوا له الكنائس لما بلغهم من علمه واجتهاده في دينهم. (الإصابة (٨/ ٢٨٣) ترجمة (٧٣٩٢).

(٢) انظر: الطبقات (١/ ١٦٤، ١٦٥)، الإصابة لابن حجر (٨/ ٢٨٢).

ولَئنْ أسلم منهم السيد والعاقب فما ذكر إسلام لعددٍ من الوفد ومنهم (أبو الحارث)(١).

قراءة في مواجهة يهود المدينة:

ومن العدوان الظاهر مقولة يهود (بني قينقاع) للنبي ﷺ إثر انتصاره على المشركين ببدر: «إن قريشاً لا يعرفون القتال، ولو قاتلتنا لعرفت أنَّا الرجال!» ، كذا أخرجه ابن إسحاق، وحسّن إسناده الحافظ ابن حجر في الفتح (٧/ ٣٣٢).

وكان هذا من اليهود إيذاناً بنقض العهد والتحرف للقتال؛ فكانت غزوة بني قينقاع (وهم رهط عبيد الله بن سلام) وكان جلاؤهم عن المدينة بشفاعة صاحبهم عبد الله بن أُبي، وإلاَّ فقد كانت رغبة النبي ﷺ قتلهم.

وحيث جرّب اليهود المواجهة العلنية كما صنع بنو قينقاع (وهم أشجع يهود) فقد جرب إخوانهم (بنو النضير) أسلوب الغدر والخيانة، فلم يفلحوا كذلك. وتتحدث مرويات صحاح أن قريشاً كتبت لعبد الله بن أُبي، وغيره ممن يعبد الأوثان قبل بدر، يهددونهم بإيوائهم النبي ﷺ.

فلما كانت وقعة بدر كتبت كفار قريش بعدها إلى (اليهود): إنكم أهل الحلقة و الحصون (يتهددونهم)؛ فأجمع بنو النضير على الغدر، فأرسلوا إلى النبي ﷺ: اخرج إلينا في ثلاثة من أصحابك ويلقاك ثلاثة

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى (١/ ٣٥٧، ٣٥٨)، ولم أجد له إسلاماً عند ابن حجر وقد ذكر إسلام أخيه. وكذلك ينظمُّ رهبان النصارى وأساقفتهم إلى أحبار اليهود وعلمائهم في العدوان والمكابرة ورفض الحق.

من علمائنا؛ فإن آمنوا بك اتّبعناك، ففعل؛ فاشتمل اليهود الثلاثة على الخناجر، فأرسلت امرأة من بني النضير إلى أخٍ لها[١] من الأنصار مسلم تُخبره بأمر بني النضير؛ فأخبر أخوها النبي ﷺ قبل أن يصل إليهم، فرجع، وصبَّحهم بالكتائب فحصرهم يومه[٢].

وزاد ابن حجر: وكذا أخرجه عبد بن حميد في تفسيره عن عبد الرزاق، وفي ذلك رد على ابن التين في زعمه أنه ليس في هذه القصة حديث بإسناد، قلت (ابن حجر): فهذا أقوى مما ذكر ابن إسحاق من أن سبب غزوة بني النضير طلبه ﷺ أن يعينوه في دية الرجلين، لكن وافق ابن إسحاق جُلَّ أهل المغازي، فالله أعلم[٣].

على أنه لا تعارض بين السببين، فيمكن أن يكون غدر بني النضير هذا وقع حين ذهب إليهم ليستعين بهم في دية قتيلي عمرو بن أمية، وهو ما لم ينكره ابن حجر.

وفي صحيح البخاري: باب حديث بني النضير: ومخرج رسول الله ﷺ في دية الرجلين وما أرادوا من الغدر برسول الله ﷺ (كتاب المغازي باب حديث بني النضير)، والبخاري؛ وإن اكتفى بذلك ولم يُسقْ في

---

(١) وفي رواية عند عبد الرزاق: فأرسلت امرأة ناصحة من بني النضير إلى ابن أخيها وهو رجل مسلم.. المصنف (٥/ ٣٥٨).

(٢) هكذا أخرج القصة ابن مردويه بإسناده إلى معمر عن الزهري، وصحح الإسناد ابن حجر (الفتح/٧ ٣٣١).

(٣) الفتح (٧/ ٣٣٢).

الباب حديثاً يشير إلى سبب حصار بني النضير؛ ففيه إشارة إلى الغدر، وإلى ذهاب النبي ﷺ إليهم في دية الرجلين.

على أن الجمع بين الخيانة (الغدر) والمواجهة أسلوبٌ ثالث مارسه اليهود مع النبي ﷺ والمسلمين، كما حصل من يهود بني قريظة في غزوة الأحزاب، وهم أحط يهود المدينة كما قال أسيد بن حضير -في حواره مع كعب بن أسد القرظي-: كان النضير أعز منك وأعظم بهذه البلدة، ديتك بنصف ديتهم[(١)].

فما زال زعيم يهود بني النضير (حييّ بن أخطب النضري) يُلِّح على بني قريظة بنقض العهد مع محمد والانضمام للأحزاب المحيطين بالمدينة، حتى أقنعهم، وفي صحيح البخاري ومسلم: أن النبي ﷺ قال يوم الأحزاب: من يأتينا بخبر القوم؟ فقال الزبير: أنا، ثم قال: من يأتينا بخبر القوم؟ فقال الزبير: أنا، ثم قال: من يأتينا بخبر القوم؟ فقال الزبير: أنا، ثم قال: إن لكل نبي حوارياً وإن حواريّ الزبير[(٢)].

قال الحافظ ابن حجر: كانت قصة الزبير هذه لكشف خبر بني قريظة: هل نقضوا العهد بينهم وبين المسلمين ووافقوا قريشاً على محاربة المسلمين؟ وهي غير القصة التي ذهب حذيفة لكشفها، فإن هذه كانت لما اشتد الحصار على المسلمين في الخندق؛ فانتدب من يأتيه بخبر قريش،

(١) المغازي، (٢/ ٤٥٨).

(٢) صحيح البخاري ح (٤١١٣)، واللفظ له، ومسلم ح (٢٤١٥).

وكان المندوب حذيفة [١].

وقصة الزبير مع بني قريظة أوردها الواقدي بشيء من التفصيل، وفيها التصريح ببعث (الزبير) لبني قريظة حين بلغ النبي ﷺ نقضهم للعهد وحربهم، وأن الزبير جاء إلى النبي ﷺ يقول: رأيتهم يصلحون حصونهم، ويدربون طرقهم، وقد جمعوا ماشيتهم.

وفي الرواية زيادة: بعث سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وأسيد بن حضير، بعثاً آخر لبني قريظة، وكان الرسول ﷺ أراد من جيرانهم ومواليهم من قِبل (الأنصار) أن يتأكدوا من خبرهم، وأن يحاوروهم وأن يذكّروهم بالعهد، وأن يكونوا شهوداً على غدرهم وحربهم؛ ولكن اليهود قوم بهت؛ فقد أساؤوا لسادة الأوس والخزرج وشتموهم، ونالوا من رسول الله ﷺ والمسلمين بأقبح الكلام -كما تقول الرواية-؛ بل جاء في الرواية: إنهم أعادوا مقولة إخوانهم (بني قينقاع)؛ حيث قال (بنو قريظة) لوفد الأنصار الثلاثة[٢] المبعوث إليهم: «إنكم والله ما لقيتم أحداً يحسن القتال ولا يعرفه، نحن والله نحسن قتالكم»[٣].

---

(١) الفتح (٧/ ٤٠٧).

(٢) في رواية أخرى عند الواقدي: إنهم كانوا أربعة: سعد بن عبادة، وسعد بن معاذ، وعبد الله بن رواحة، وخوات بن حبير، لكن قال الواقدي: والأول أثبت عندنا (يعني رواية الثلاثة)، المغازي (٢/ ٤٥٩).

(٣) المغازي للواقدي (٢/ ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٥٩).

وهكذا تشتمل قصةُ آخرِ فصيلٍ لليهود في المدينة (بني قريظة) على أنواع الغدر باطناً وظاهراً، وعلى المواجهة والتدبير الخفي والمعلن.

فهم أحكموا الغدر سراً - في البداية - مع زعامات بني النضير، ثم أعلنوا المواجهة والغدر والحرب مع البعث الأخير للنبي ﷺ لبني قريظة.

ولم تهدأ نيران الحرب مع اليهود حتى وإن خلت المدينة منهم؛ فقد جعلوا من (خيبر) ونحوها من الأماكن التي أُجلوا إليها مرتكزاً للتخطيط والتأليب والتعاون مع خصوم الدعوة في الداخل (قريش) وفي الخارج (الروم). وحين انتهت الحرب مع قريش بعقد الحديبية، ثم بفتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجاً، بقي جيش اليهود بخيبر هدفاً رئيساً للنبي ﷺ؛ حيث تفرغ المسلمون له بعد الحديبية، وكانت غزوة خيبر من أواخر اللقاءات الحربية مع اليهود في الجزيرة، وبها كُسرت شوكتهم وتفرق جمعهم، وفتحت خيبر عنوة، وكانت غنيمة للمسلمين عاجلة.

على أن المواجهة مع أهل الكتاب لم تتوقف لكنها اختلفت في الأداء، فالدور هذه المرة للنساء والعدوان على هيئة إكرام. وفي قصة المرأة التي حاولت قتل الرسول ﷺ بالسم -بعد الفراغ من غزوة خيبر- ما يكشف لؤم اليهود، وتعدد أساليبهم في العدوان، وشمولية العدوان للرجل والمرأة، ولئنْ كانت المرأة (زينب بنت الحارث) زوجة سلاّم بن

مشكم هي التي قامت بالسم، فقد شاورت اليهود وشـاركوها في اختيـار السم[١].

المواجهة مع النصارى:

وحين غاب أو غُيب اليهود عن مشهد الصراع - ولو بشـكلٍ ظـاهر على الأقل - حمل راية العداء النصارى، وكانـت غـزوة مؤتـة أول لقـاءٍ حربي مع النصارى في حياة النبي ﷺ وكان مـن أسـباب الغـزوة - كمـا يذكر أهل السير والتاريخ -: أن شرحبيل بن عمرو الغساني، وهـو مـن أمـراء قيصـر علـى الشـام، قتـل رسـولاً أرسـله الـنبي ﷺ إلى صـاحب بصرى، فاشتد ذلك على النبي ﷺ وندب الناس للخروج فخرجوا[٢].

ويظهر - لأحد الباحثين - أن عداء هؤلاء النصارى العرب للإسلام كان بوحي من هرقل والروم؛ لإيقـاع العـداوة والبغضـاء بـين صـفوف العرب (المسلمين والنصارى)؛ خوفاً من أن تجرف العصبية العربيـة هـذه القبائل فيكونوا عوناً للمسلمين على الروم[٣].

وإذا كـان النصـارى يمثلـون خطـراً آخـر علـى الإسـلام ويكرهـون

---

(١) انظر: تفصيل القصة في صحيح البخاري ح (٣١٦٩)، زاد المعاد (٣/ ٣٣٥)، فتح الباري (٧/ ٤٩٧)، المغازي للواقدي (٢/ ٦٧٧).

(٢) انظر: المغازي للواقدي (٢/ ٧٥٥، ٧٥٦)، الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ١٢٨)، فتح الباري (٧/ ٥١١).

(٣) أثر أهل الكتاب في الفتن والحروب الأهلية في القرن الأول الهجري، د. جميل المصري، ص ١٤٤.

المسلمين، فلعل ما يفسر تأخرهم في المواجهة مع المسلمين أنه لم يكن لهم تجمعات نصرانية في مكة أو في المدينة كما هو الحال بالنسبة لليهود، ولعلهم كذلك اكتفوا بمواجهات اليهود، حتى إذا خضدت شوكة اليهود في آخر معقل لهم (خيبر) بدأ النصارى يتحركون؛ فالخطر بات يحدق بهم؛ فقد صار الإسلام يهدد مصالح الروم في الجزيرة وأطرافها، فعزمت على وقف زحفه داخل الجزيرة وخارجها، والقضاء على الدولة الإسلامية، فأصبح الصدام العسكري بين الدولتين (الإسلامية والرومانية) أمراً محتوماً، واتُّخِذ من (مؤتة) ثم (تبوك) مسرحاً له، وتُمثِّل غزوة (تبوك) مرحلة من مراحل المواجهة مع النصارى لم تكن سلبية بمجملها؛ بل كان في ثنايا المحن منح.

فقد كان سببها عند الواقدي وغيره: أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام، وأن هرقل رزق أصحابه لسنة، وأجلبت معهم لخمٌ وجذام وغسان، وعامله، وزحفوا وقدَّموا مقدماتهم إلى البلقاء وعسكروا بها[١].

وغزوة تبوك هي التي جاء تسميتها في القرآن بـ (العُسرة) في سورة التوبة؛ وذلك لبعد الشّقة وشدة الزمان، ولم يورِّ النبي ﷺ فيها كما فعل بغيرها؛ بل أعلنها للمسلمين.

كما أن الروم النصارى كانوا محل تخوّف المسلمين؛ إذ لم يكن عدو أخوف عند المسلمين منهم، وذلك لما عاينوا منهم -إذ كانوا يقدمون

(١) المغازي (٣/ ٩٩٠)، الطبقات لابن سعد (٢/ ١٦٥).

عليهم تجاراً- من العُدد والعُدّة والكراع[١].

وحيث انسحب الروم إلى داخل بلاد الشام حين بلغهم قوة المسلمين، ولم يرَ النبي ﷺ مصلحة في تتبعهم؛ فقد صالح أهل تبوك على دفع الجزية[٢].

كما عهد لأمير أيلة النصراني يوحنا (يوحنا بن رؤية) إذ صالحه على الجزية، كما ذكره ابن إسحاق[٣].

أما أُكيدر دومة الجندل (أكيدر بن عبد الملك) النصراني، فقد بعث إليه النبي ﷺ سرية بقيادة خالد بن الوليد، وتمكن خالد من أسره، وقتل أخاه حساناً، وقدم به على النبي ﷺ فصالحه على الجزية، وقد جَزَمَ ابن الأثير أن (أُكيدر) لم يُسلم؛ بل كان نصرانياً، وخطّأ من قال بغير ذلك، بل قال ابن الأثير: إن خالداً قتله كافراً في أيام أبي بكر - رضي الله عنه - وكذلك قال أخوه أبو السعادات ابن الأثير[٤].

أما ابن حجر فقد تردد في القطع بنهاية أكيدر، فقال في موضع: أكيدر دومة اختلف فيه والأكثرون على أنه قُتل كافراً[٥].

وقال في موضع آخر، ويحتمل أن يكون أسلم بعد مصالحته على

---

(١) المغازي للواقدي (٣/ ٩٩٠).

(٢) فتوح البلدان للبلاذردي: ص ٧١؛ أثر أهل الكتاب في الفتن والحروب الأهلية: د. جميل المصري، ص ١٥٨.

(٣) انظر: السيرة لابن هشام (٤/ ٢٣٠).

(٤) انظر: الإصابة (١/ ٢٠٥، ٢٠٧).

(٥) الإصابة (١/ ٩٧).

الجزية كما قال الواقدي، ثم ارتد بعد النبي ﷺ مع من ارتد كما ذكر البلاذردي ومات على ذلك[١].

وممن أسلم من نصارى تبوك مالك بن أحمر، فقد ذكر ابن حجر أنه حين بلغه مقدم النبي ﷺ بتبوك وفد إليه فأسلم، وكتب له كتاب أمان[٢].

وكذلك كانت غزوة تبوك سبباً في إسلام بعض النصارى، وإعجاب بعضهم بالإسلام، وإرجافاً لهرقل وتهيأة لفتح بلادهم فيما بعد.

مواجهات أخرى مع النصارى:

على أن المتأمل يرى أن مواجهة النصارى للمسلمين لم تكن (مؤتة) البداية لها، بل بدأت قبل ذلك لكن بشكل فردي؛ فأبو عامر الراهب الذي تنصّر وسُمي (بالفاسق) كان يقوم بدوره في الإثارة والبلبلة في المدينة منذ السنة الأولى للهجرة حتى فرَّ إلى مكة، وقدم مع قريش مشاركاً في غزوة (أحد) و (الأحزاب) وكان يتطلع إلى استمالة قومه وانشقاقهم على محمد ﷺ، فلما خذلوه وأزرَوا به، ظل يعمل على محاولات شق صف المسلمين، ووجد في (المنافقين) ضالته، وبمشورتهم ودعمهم بُني مسجد (الضرار) الذي هدمه النبي ﷺ بوحي السماء بعد عودته من تبوك. ولئن بقي (أبو عامر) شريداً طريداً في أرض الشام حتى مات بها؛ فمن المرجح أنه كان يقوم بأدوار تضاف إلى مواقف النصارى ومواجهات النصرانية ضد الإسلام والمسلمين.

---

(١) الإصابة (١/ ٢٠٨).

(٢) الإصابة (٩/ ٣٣).

وموقف للنصارى آخر يتمثل في محاولة إغراء (كعب بن مالك) أحد الثلاثة الذين خُلِّفوا في غزة تبوك للحاق بأرضهم، والانتقال إلى دينهم، فقد جاء في صحيح البخاري في قصة كعب: ... إذا بنبطي من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له، حتى إذا جائني دفع إليَّ كتاباً من ملك غسان فإذا فيه: أما بعد؛ فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعه؛ فالحق بنا نواسك[(١)].

وفي رواية معمر: «إذ نصراني جاء بطعام يبيعه»[(٢)].

وفي رواية لابن أبي شيبة، وابن مردويه: «فقلت (كعب): إنّا لله! قد طمع فيَّ أهل الكفر»[(٣)].

وعند ابن عائد أن مالكاً قال للنبي ﷺ: «ما زال إعراضك عني حتى رغب فيَّ أهل الشرك»[(٤)].

إنها محاولات النصارى لتفريق المؤمنين، وهي أساليب أهل الكتاب في استغلال كل فرصة تتاح لهم؛ لكنه الإيمان والصدق من كعب أفشل خطتهم وأبطل مكرهم.

---

(١) البخاري: ح (٤٤١٨).

(٢) الفتح (٨/ ١٢٠).

(٣) الفتح (٨/ ١٢١).

(٤) الفتح (٨/ ١٢١).

والسؤال المهم: لماذا هذه المواجهة من أهل الكتاب عامة، ومن اليهود خاصة مع النبي والمسلمين؟

والإجابة عن هذا تسير بأكثر من اتجاه: فالحسد ظاهر (حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق)؛ لأنهم كانوا يتوقعون النبي من بني إسرائيل، فلما خرج من ولد إسماعيل شرقوا به. وهذا أحدُ اليهود (أبو رافع سلام بن أبي الحقيق) يقول: «إنا نحسد محمداً على النبوة؛ حيث خرجتْ من بني هارون، وهو نبي مرسل، واليهود لا تطاوعني على هذا» - إلى أن يقول - : «والتوراة التي أنزلت على موسى أنه (محمد) سيملك الأرض جميعاً، وما أحب أن تعلم اليهود بقولي»[1].

وأمر آخر يكمن في تهديد الإسلام لمصالح اليهود والنصارى وزعامتهم ورئاستهم، وقد مرَّ معنا تعبير (أبي الحارث) من وفد النصارى بنجران عن ارتباطه بمصالحه مع الروم. واليهود كانت لهم مكانة وسلطان في مجتمع الأوس والخزرج؛ فلما أسلم الخزرج قلَّ سلطانهم. كما أن الإسلام يحرم كثيراً مما اعتاده اليهود من تعاملات تقوم على الربا والاحتكار، وفي ذلك تهديد لمصالحهم الاقتصادية.

وثمة سبب ينبع من أصول عقيدتهم، وهو مدوّن في كتبهم المحرفة، فقد جاء في سفر التثنية: «إذا قام في وسطك نبي أو حالم حلماً، وأعطاك آية أو أعجوبة، ولو حدثت الآية أو الأعجوبة التي كلمك عنها؛

(١) المغازي للواقدي (٢/ ٦٧٧).

فلا تسمع كلام ذلك النبي أو الحالم. وذلك النبي أو الحالم يقتل؛ لأنه تكلم بالزيغ من وراء الرب»[١].

المواجهة في زمن الراشدين:

تولى أبو بكر - رضي الله عنه - الخلافة، وكان من أوائل الأعمال التي قام بها حرب المرتدين، ومهما كانت الدوافع للردة، وأصناف المرتدين؛ فهل كان أهل الكتاب بمنأى عن هذه الردة؟

يرى أحد الباحثين أن اليهود شجعوا حركة الردة، كما شجع النصارى المتنبئين[٢].

ويزيد (الباحث) أن حركة الردة اشتدت حيث تكثر العناصر اليهودية والنصرانية؛ حيث تكونت أحلاف بدوية من عبس وغطفان وذبيان[٣].

والباحث يرى أن هذه القبائل (أسد، غطفان، طيئاً) والتي اجتمعت على طليحة الأسدي معروفة بكثرة النصارى واليهود بين أفرادها[٤].

ويري ابن الأثير أن هذه القوى اليهودية والنصرانية أضحت حرباً على من بقي على إسلامه في هذه القبائل[٥].

---

(١) الإصحاح (١٣/ ٣٠٠)، عن أثر أهل الكتاب في الفتن والحروب الأهلية في القرن الأول، د. جميل المصري، ص ٦٧.

(٢) أثر أهل الكتاب في الفتن والحروب الأهلية، د. جميل المصري، ص ١٧٥.

(٣) المرجع السابق، ص ١٧٨.

(٤) المرجع السابق، ص ١٧٦.

(٥) الكامل (٢/ ٢٣١)، د. جميل، ص ١٧٦.

ويروي الطبري عن سيف: أن سجاح بنت الحارث بن سويد - وهي في عداد المتنبئين، وممن خرج في الردة - كانت راسخة في النصرانية، قد علمت من علم نصارى تغلب[1]، ولم تكن (سجاح) هي الوحيدة من المتنبئين التي تدين بالنصرانية؛ فقد ذكر عن (مسيلمة) شيء من ذلك؛ فقد أشارت بعض المصادر إلى نصرانية مسيلمة ووالده (هوذة)، ومسيلمة كان من أعتى المرتدين[2].

وشهدت حروب الردة وجوداً فاعلاً لأهل الكتاب؛ إذ كانوا يتعاونون مع المرتدين. وفي معركة (الولجة) سنة ١٢هـ أصاب خالد - رضي الله عنه - من نصارى بكر بن وائل حيث أعانوا أهل فارس.[3] وفي معركة (أليس) تحركت حمِيَّة النصارى لقومهم واجتمعوا مع الفرس؛ فقصدهم خالد، وقد ذكر الطبري بعضاً من أسماء هؤلاء النصارى[4].

وفي معركة (المذار) سنة ١٢هـ؛ كان من بين السبي -لِما يقول الطبري- حبيب أبو الحسن -يعني: أبا الحسن البصري- وكان نصرانياً، ومافنّه مولى عثمان، وأبو زياد مولى المغيرة بن شعبة[5]. بل تجاوز دور أهل الكتاب المرتدين إلى المواجهة مع الخلفاء الراشدين أنفسهم، وقد سجلت المصادر التاريخية قتل بعض الخلفاء على أيديهم؛ فالطبري

(١) الطبري (٣/ ٢٧٢).

(٢) أثر أهل الكتاب، د. جميل المصري، ص ١٨٤، ١٨٥.

(٣) الطبري (٣/ ٣٥٥).

(٤) تاريخ الطبري (٣/ ٣٥٥).

(٥) تاريخ الطبري (٣/ ٣٥٢).

يقول: مرضُ أبي بكر ووفاته، قال الرواة: وكان سبب وفاته أن اليهود سمّته في أرزة، ويقال: في حذيذة، وتناول معه الحارث بن كلدة منها، ثم كفّ وقال لأبي بكر: أكلت طعاماً مسموماً. سمٌّ منه فمات بعد سنة، قال أبو جعفر (الطبري): ومات عتاب بن أسيد بمكة في اليوم الذي مات فيه أبو بكر، وكانا سُمّا جميعاً(١).

من قتل عمر رضي الله عنه؟

حين نذكر استشهاد عمر يتبادر للأذهان مباشرة دور المجوس في هذه الجريمة، وربما غاب أو خفي على بعضنا دور النصارى وهو أظهر.

والمتتبع لجريمة قتل عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- يرى أن استشهاده بمؤامرة حُبكت خيوطها ونُفذت من أطرافٍ عدة في الغالب، ويرى وجوداً فاعلاً لأهل الكتاب، وبالذات (النصارى)؛ فالذي ثبت في صحيح البخاري أن الذي تولى طعن عمر غلام المغيرة(٢).

وغلام المغيرة هذا هو أبو لؤلؤة فيروز، المجوسي الأصل، الرومي الدار على حد تعبير ابن كثير(٣).

ويقول ابن سعد: كان أبو لؤلؤة، واسمه فيروز، من سبي نهاوند(٤). ولم يكن أبو لؤلؤة مسلماً، بدليل ما جاء في بقية رواية

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٤١٩).

(٢) صحيح البخاري (٥/ ١٩،٢٠).

(٣) البداية والنهاية (٧/ ١٥١).

(٤) الطبقات (٣/ ٣٤٧).

البخاري من قول عمر -رضي الله عنه-: «الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل يدّعي الإسلام»[١].

وإذا تكاثرت نسبة أبي لؤلؤة إلى (المجوسية) مما قد يُفهم أنه مجوسي الديانة؛ فالطبري ينص على نصرانيته ويقول: «وكان أبو لؤلؤة غلام المغيرة نصرانياً»[٢]، كما نص على نصرانيته ابن الأثير[٣].

ولعل ابن كثير يؤكد ذلك حين قال: الرومي الدار، كما سبق[٤].

وتفسير ذلك ما جاء في بعض الروايات: أن البيزنطيين أسروا (أبا لؤلؤة) في صغره فأصبح نصرانياً[٥].

وإذا ثبت مباشرة قتل عمر على يد أبي لؤلؤة؛ فهل كان وحده؟ أم شاركه غيره في المؤامرة؟ ومن يكون هؤلاء الشركاء؟

جاء في رواية عند الطبري رواها سعيد بن المسيب عن عبد الرحمن ابن أبي بكر قال: غداة طعن عمر مررت على أبي لؤلؤة عشيّ أمس، ومعه جُفينة، والهرمزان وهم نجي، فلما رهقتهم ثاروا وسقط منهم خنجر، له رأسان، نصابه في وسطه؛ فانظروا بأي شيء قُتل؟! حتى جيء بالخنجر كما وصفه ابن أبي بكر[٦].

---

(١) (٥/ ٢٠).

(٢) تاريخ الطبري (٤/ ١٩٠).

(٣) الكامل (٣/ ٤٩).

(٤) (٧/ ١٥١).

(٥) انظر: أثر أهل الكتاب، د. جميل المصري، ص ٢٣٨.

(٦) تاريخ الطبري (٤/ ٢٤٠).

وإذا كان (جفينة) أحد المشاركين في القتل - على حسب هـذه الروايـة-؛ فجفينة هذا كان نصرانياً من أهل الحيرة، كما في بقية الرواية السابقة(١).

أمـا الهـرمزان فهـو أحـد قادة الفرس، وقد أُسِر فطلـب اللقيـا بعمـر -رضي الله عنه- في المدينة، فأمّنه، ثم أسلم نتيجة حوار جرى بينه وبـين عمر(٢). والله أعلم بحقيقة إسلامه، ولا سيما قد جـاء عنـد الطـبري: أن عـمر لما حاوره قال: خدعتني، وللمخـدوع في الحـرب حُكمـه، لا والله! لا أؤمّنك حتى تسلم؛ فأيقن (الهرمزان) أنه القتل أو الإسلام؛ فأسلم(٣).

وبكل حال فـإن نصـرانيَيْن (أبـا لؤلـؤة، وجفينـة) وثالـث الله أعلـم بإسلامه، هم عناصر المؤامرة في قتل عمر. ولذا عَمَد عبيد الله بـن عمـر إلى قتـل (الهرمـزان) و (جفينـة) و (ابنـة أبـي لؤلـؤة) ولم يـرَ عـدد مـن الصحابة القصاص من عبيد الله لقتله لهؤلاء(٤).

أما شراكة (كعب الأحبار) في قتل عمر -فـرغم انتصـار د. المصـري لها، وتعظيمه من شـأن كعـبٍ ودوره فيهـا، حتـى اعتـبره بطـل المـؤامرة والروح الفعالة في حبكها(٥)-؛ فإن في النفس مـن ذلـك شـيئاً، والقطـع بذلك يحتاج إلى أدلة أصح وأصرح مما ذكره الباحث في نظري.

---

(١) الطبري (٤/ ٢٤٠).

(٢) ابن سعد الطبقات (٥/ ٩٠)، الطبري (٤/ ٨٨).

(٣) (٤/ ٨٨).

(٤) الطبقات (٣/ ٣٥٦).

(٥) أثر أهل الكتاب في الفتن والحروب الأهلية، ص ٢٣٧، ٢٤٠.

ويكفي أن يشترك (أبو لؤلؤة، وجفينة) في قتـل عمـر، للتأكيـد علـى دور أهل الكتاب في جرائم قتل الخلفاء الراشدين.

وحين يختار (النصارى) عمر للاستهداف؛ فلأنهـم يعلمـون مـن هـو عمر، السـدُّ المنيـع، والبـاب العظـيم الـذي بكسـره أقبلـت الفـتن علـى المسلمين؛ فلم يكن عمر النهاية بل كان البدايـة لمـؤامرات وفـتن أخـرى ساهم أهل الكتاب في فتحها على المسـلمين، وكـان منهـا وعلـى أثرهـا استشهاد عثمان رضي الله عنه.

استشهاد عثمان رضي الله عنه :

وهنا يلفت النظر تبادل الأدوار بين اليهود والنصارى؛ فإذا استشهد الخليفة عمر على أيدي (النصارى)؛ فالخليفة عثمان - رضي الله عنه - يستشهد على أثر تخطيط أصحاب الفتنة، وأبرزهم عبد الله بن سبأ اليهودي الأصل، واليمني المنشأ، ولئن كان البحث يطول في استشهاد عثمان وكيف قتل، فيكفي أن يُعلم دور عبد الله بن سبأ اليهودي في هذه القصة التي انتهت باستشهاد الخليفة عثمان، حتى وإن لم يكن (ابن سبأ) من المباشرين للقتل[(١)].

وكما تتبع د. المصري دور ابن سبأ، وأثر السبئية في قتل عثمان - رضي الله عنه -[(٢)]، لكنه يعود مرة أخرى إلى إشراك (كعب الأحبار) في فتنة قتل عثمان، ويرى أن ابن سبأ أكمل دور كعب[(٣)]، وهو كذلك يحتاج إلى مزيد نظر وقوة دليل في نظري.

وإذا تضافرت جهود اليهود والنصارى في قتل خليفتين من الخلفاء الراشدين، ثم فتح باب الفتن فيما بعد - كما سترى -، أمكن تشخيص نوع وطبيعة مواجهة أهل الكتاب للإسلام و المسلمين، وأثرهم على مسيرة الحضارة الإسلامية.

---

(١) انظر تفصيل ذلك في كتابي: عبد الله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة في صدر الإسلام.

(٢) أثر أهل الكتاب في الفتن والحروب الأهلية، ص ٢٤٧، ٢٦٧.

(٣) ص ٢٤٨.

أهل الكتاب والفرق:

المتتبع لنشأة بعض الفرق يجد أصولاً يهودية أو نصرانية لهما، كما يجد تأثيرات لأهل الكتاب في بعضها، وهذه الفرق شق لاجتماع المسلمين، وشرخ في تاريخهم منذ نشأت وإلى يومنا هذا.

ولعل دورهم الإفسادي من خلال هذه الفرق من أعظم ما منيت به أمة الإسلام في تاريخها حيث ابتدأ عهد الفتن، وامتدت مساحة الفرقة، ووجد أعداء الأمة مدخلاً واسعاً.

وهذه نماذج لتأثيرات أهل الكتاب في الفرق:

١- الشيعة وأصولها اليهودية:

المؤرخون لنشأة الشيعة يكادون يتفقون على أن عبد الله بن سبأ هو أصل التشيع، أمثال: الطبري، وابن كثير، ابن تيمية، أبو الحسن الأشعري، المطلي، البغدادي، ابن حزم، والشهرستاني وغيرهم(١). على أن اعتبار (ابن سبأ) أصل الرفض أمرٌ لا يتفرد به السنة بل يشاركهم أصحاب المقالات والفرق من الشيعة؛ فالقُمي (ت: ٣٠١هـ) يعتبر ابن سبأ أول من أظهر الطعن على أبي بكر وعمر وعثمان والصحابة وتبرأ منهم، وادّعى أن علياً أمره بذلك (٢).

ويوافق (القميَّ) (النوبختي) على ذكر ابن سبأ وأصول الشيعة(٣).

كما يتفق مع الاثنين (الكشي) وهو من علماء الشيعة، وكتابه (رجال الكشي) من أقدم كتبهم المعتمدة في الرجال، وقد ذكر ابن سبأ، بل ساق عدداً من الروايات المثبتة له، ثم قال: فمن هنا قال من خالف الشيعة: أصل التشيع والرفض مأخوذ من اليهودية(٤).

وهذا القول بأصول يهودية العقيدة الشيعية هو الرأي الذي اختاره د. ناصر القفاري في دراسته المعمقة والموثقة من كتب الشيعة أنفسهم؛

---

(١) انظر: عبد الله بن سبأ، ص ٥٣ – ٥٨.

(٢) المقالات والفرق، ص ٢٠.

(٣) فرق الشيعة، ص ٢٢، ٢٣.

(٤) رجال الكشي، ص ١٠٨، ١٠٩.

حيث يقول: «طلائع العقيدة الشيعية وأصل أصولها ظهرت على يد السبئية (أصحاب عبد الله بن سبأ اليهودي) باعتراف كتب الشيعة التي قالت بأن ابن سبأ أول من شهد بالقول بفرض إمامة علي، وأن علياً وصيٌّ محمد، وهذه عقيدة النص على علي بالإمامة، وهي أساس التشيع كما يراه شيوخ الشيعة» [(١)].

٢- الجهمية وأصولهم اليهودية:

قال ابن كثير: الجعد بن درهم أول من قال بخلق القرآن، وهو الذي ينسب إليه مروان الجعدي وهو مروان الحمار آخر خلفاء بني أمية، كان شيخه الجعد بن درهم.

قال ابن عساكر وغيره: وقد أخذ بدعته عن بيان بن سمعان، وأخذها بيان عن طالوت بن أخت لبيد بن الأعصم وزوج ابنته، عن لبيد بن الأعصم الساحر -لعنه الله-، وقد أخذ عن الجعد الجهمُ بن صفوان الخزري، وقيل: الترمذي[(٢)].

وقال في موطن آخر عن الجعد بن درهم: إنه شيخ الجهم بن صفوان، الذي تنسب إليه الطائفة الجهمية..، ثم ذكر تسلسل أخذِ المذهب الجهمي، حتى وصل إلى لبيد بن أعصم اليهودي الذي سحر النبي ﷺ[(٣)].

---

(١) أصول مذهب الشيعة الإمامية الإثني عشرية (١/ ٧٨).

(٢) البداية والنهاية (١٣/ ١٤٧).

(٣) المصدر السابق (١٣/ ١٩٩).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: ثم أصل هذه المقالة - مقالة التعطيل للصفات - إنما هو مأخوذ عن تلامذة اليهود والمشركين وضلال الصابئين؛ فإن أول من حُفظ عنه أنه قال هذه المقالة في الإسلام -أعني: أن الله -سبحانه وتعالى- ليس على العرش حقيقة، وأن معنى استوى بمعنى: استولى، ونحو ذلك - هو الجعد بن درهم، وأخذها عنه الجهم بن صفوان، وأظهرها فنسب مقالة الجهمية إليه.

وقد قيل: إن الجعد أخذ مقالته عن أبان بن سمعان، وأخذها أبان عن طالوت بن أخت لبيد بن الأعصم، وأخذها طالوت من لبيد بن الأعصم اليهودي الساحر الذي سحر النبي ﷺ(١).

---

(١) الفتاوى (٥/ ٢٠).

ملخص البحث

يظهر للمتأمل -بعد الدراسة- في طبيعة المواجهات مع أهل الكتاب في زمن النبوة والخلافة الراشدة، أنها اتخذت أنماطاً ووسائل شتى، وتعددت جبهات العدوان، وتنقلت بين الدسائس الخفية إلى المواجهات المعلنة، وتعاقب اليهود والنصارى على هذه المواجهة، ولئن مارس أهل الكتاب هذه المواجهات والنبي ﷺ حيٌّ، والوحي ينزل، فإن استمرارهم بعد وفاته وانقطاع الوحي من باب أولى.

لقد كانت المواجهة داخل المدينة وخارجها، وفي عصر النبوة، وزمن الراشدين، ومن بعدهم وإلى يومنا هذا؛ تختلف الوسائل بحسب اختلاف الأزمنة، ويبقى الكيد والعدوان مؤكداً لقوله -تعالى-: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[البقرة: ١٢٠] شارك في المواجهة يهود المدينة بفصائلهم المتعددة (بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة).

وشارك آحاد اليهود بجهودهم الفردية وبعلاقاتهم مع القوى الوثنية، كما صنع (كعب بن الأشرف) حين تعاون مع كفار قريش على المواجهة، وحين بدأ العدّ التنازلي لليهود في المدينة كان التحرك النصراني، وكانت غزوتا مؤتة وتبوك نموذجين لمواجهة النصارى للمسلمين في زمن النبوة، وكما كانت هناك جهود فردية لليهود في المواجهة؛ فقد كان للنصارى كذلك، وإذا كان أبرز عناصر اليهود

كعب بن الأشرف، فأبرز عناصر النصارى أبو عامر الراهب (الفاسق).

وفي زمن الراشدين كانت المواجهة على أشدها، وقُتِل الخليفة الصديق بمكر اليهود، واستشهد الفاروق عمر - رضي الله عنه - على أيدي النصارى (أبي لؤلؤة، وجفينة) النصرانيَيْن، وكان استشهاد عثمان -رضي الله عنه- نتيجة الفتن التي أثارها اليهودي (عبد الله بن سبأ).

ويرصد بعض الباحثين أثر أهل الكتاب في حركة الردة حيث تتكاثر اليهودية والنصرانية؛ وإذ شجع اليهود حركة الردة فقد شجع النصارى المتنبئين.

وبلغت المواجهة مساحة الفكر، ونشأت بعض الفرق الإسلامية بأصول كتابية، فالسبئية (أصل الرافضة) تعود نسبتها إلى عبد الله بن سبأ اليهودي، وكذا الجهمية، والمعطلة للصفات تعود أصولها إلى لبيد بن الأعصم اليهودي، وهكذا تتكاثر طرائق المواجهة من حروب دامية، إلى استهداف للقتال، إلى تنشيط حركة الردة، إلى قتل الخلفاء، ومن ثم إلى نشأة جسم غريب في الأمة لا تزال آثاره يكتوي بنارها المسلمون (إنها الفرق المنحرفة عن منهج السلفِ وطريقتهم).

وصدق الله القائل: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

مؤتمر تعظيم حرمات الإسلام

ل ا لأ السسس

النظريات الغربية الحديثة

وأثرها في تغذية الصراع

عناصر الشرك والاستكبار والفحش في القيم الغربية

أ. د. جعفر شيخ إدريس

كتاب نهاية التاريخ وخاتم البشر (دراسة وتحليل)

د. سامي محمد صالح الدلال

عناصر الشرك

والاستكبار والفحش في القيم الغربية

أ. د. جعفر شيخ إدريس

أصبح من البدهيات أن القادة السياسيين في الغرب يعتقدون أن الإسلام -الذي يصفونه بالرادكالي- هو الآن العدو الأول والخطر الأكبر على الحضارة الغربية بعد سقوط الشيوعية. لقد كان الاتحاد السوفييتي مضاهياً للغرب في تقدمه العلمي والتقني وما ترتب على ذلك من قوة مادية، وكان في مبادئه وأيديولوجياته ومؤسسيه امتداداً للفكر الغربي نفسه. أما المسلمون؛ فما الخطر الذي يمثِلونه على الحضارة الغربية وهم اليوم أكثر ما يكونون تخلفاً في تلك العلوم والتقنيات بالنسبة للغرب؛ إذ إنهم لا يكادون يملكون من القوة المادية شيئاً بينما تملك دولة كالولايات المتحدة من أسلحة الدمار الشامل ما يمكِّنها -حسب زعمها- من تحطيم الكرة الأرضية كلها عدة مرات؟

فما الخطر الذي يمثله الإسلام إذن؟ أهو الإرهاب؟ لكن الجماعات الإسلامية التي تسمى بالإرهابية مهما ألحقت بالبلاد الغربية من أضرار فإنها أضرار محدودة؛ لأنها لا تملك هي الأخرى من القوة ما يمكنها من هزيمة الدول الغربية أو حتى إضعافها!

إن تصرفات الساسة الغربيين، ولا سيما الأمريكان منهم والبريطانيين، تدل على أنهم لا يحصرون الخطر الإسلامي على حضارتهم في ما يسمونه بالإرهاب، بل يجعلونه في الدين الإسلامي نفسه. ولهذا صاروا يصِفون حربهم على الإسلام بأنها حرب قيم وأنها معركة لكسب القلوب والعقول. إنها معركة لأن الإسلام، رغم ضعف أهله المادي، هو -كما يقولون- أكثرُ الأديان انتشاراً في بلادهم. لكننا

مرة أخرى نتساءل: ما الخطر في هذا على الحضـارة الغربيـة؟ إذا كانـت هذه الحضارة قد قبِلت النصرانية واليهودية وهمـا دينـان شـرقيان، وإذا كانت قد استفادت في تاريخها مـن نتـاج الفكـر الإسـلامي في مجـالات الدين والفلسفة والعلوم، وإذا كانت قـد قبلـت العلمانيـة بـل والإلحـاد وغير ذلك من أنـواع الأيـديولوجيات؛ فمـا الـذي يمنعهـا مـن أن تقبـل الإسـلام إذا كـان هـذا هـو ما اختـاره بعـض أهــلها لأنفــسهم طوعـاً لا كرهاً؟

إنه لا إجابة عن هذا السؤال الصعب إلا القـول بـأن الأمـم الغربيـة رغم تعددها وتفاوتها ورغم تعدد مكونات حضـارتها وتنافرهـا؛ إلا أن فيها فكراً يمثِّل غالبيتها ويشيع بينها، ويؤثر في تصرفاتها، وأنه هـو الـذي يحدد موقفها من غيرها من المعتقدات والقيم ولا سيما الإسلامي منها.

لكن هذا ليس بالشيء الغريب ولا الخاص بالحضارة الغربية وأممهـا، بل هو سنة اجتماعية عامة قررها كتاب ربنا الذي نقرأ فيه:

﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٠٨].

فكل أمة، صغيرة كانت أم كبيرة؛ لها أعمال تراها حسنة سواء كانت هذه الأعمال في نفسها صالحة أو كانت فاسدة. لا حظ أن الآية الكريمـة تحدثت عن تزيين العمل لا عن الاعتقاد مـع أن العمـل تـابع للاعتقـاد!

ربما لأن المقصود هو الاعتقاد الذي يؤثر في العمل ويوجهه لا الذي يدّعيه الناس بألسنتهم.

في القرآن الكريم تفاصيل أخرى عن هذه السنة الاجتماعية:

منها أن ذلك العمل المزيَّن هو الذي يجمع الأفراد وينشئ بينهم وداً يجعل منهم أمة معينة:

﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

قال ابن كثير:

إنما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عبادتها في الدنيا صداقة وألفة منكم بعضكم لبعض في الحياة الدنيا؛ وهذا على قراءة من نصب: ﴿مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ﴾ على أنه مفعول له. وأما على قراءة الرفع فمعناه: إنما اتخاذكم هذا يحصل لكم المودة في الدنيا فقط، ثم يوم القيامة ينعكس الأمر فتبقى هذه الصداقة والمودة بغضة وشنآناً.

ومنها أن الأمة إنما تتخذ مواقفها من غيرها بحسب قربه أو بعده من هذا العمل المزين الذي يجمع بينها؛ فهي لا تتحمل ولا تتسامح مع من يخالفها فيه مخالفة كاملة ويعترض عليها، وإن كان من أبناء وطنها.

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: ١٢٠].

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٨].

﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٨٢].

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

ومنها أنه قد تشذ جماعة من الأمة فترى ما لا ترى غالبيتها:

﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٧].

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر: ٢٨].

ومنها أن العاقبة تكون لمن كان على الحق إما بغلبتهم على أعـدائهم، وإما بانتقام الله -تعالى- من أولئك الأعداء، كما نـرى ذلـك في قصـص كل الأنبياء مع أقوامهم المعادين لهم.

ما العمل الذي زُيِّن للغربيين؟

نعود بعد تقريرنا لهذه السنن الاجتماعية التي فصّـلها لنـا كتـاب ربنـا إلى سؤالنا الذي بدأنا به: ما العمل الذي زينه الله -تعالى- للأمم الغربية والذي هو سبب عدائها للإسلام وأهله؟ إنك لا تجد جواباً واضحاً لهـذا السؤال في ما يسمى بالنظريات أو الفلسـفات أو الأيـديولوجيات السياسـية الغربـية؛ فالغـرب ليـس من حـيث هــذه النـظريــات أو الفـلســفات أو الأيديولوجيات أمة واحدةً؛ وإنما هو أمم مختلفـة ودول حـدثت بينهـا حروب وتفرقت أحزاباً وجماعات.

لعل الإجابة هي في ما يسمى بالقيم الغربية التي صار الغربيـون الآن يكثرون من ذكرها ولا سيما حين يريـدون بيـان مـوقفهم مـن الإسـلام وأهله سواء في بلادهم أو في غيرها؛ فما القيم الغربية هذه التي تجعل من الغرب كله أمة واحدة في مقابل الأمم الأخرى ومنها الأمـة الإسـلامية؟ إن الذي يكادون يجمعون عليه هو ما يعدونه من مصادر ثقافتهم العامـة أو مكوناتهـا؛ وهـو الفكـر اليونـاني، والـديانتان اليهوديـة والنصـرانية، والحضارة الرومانية، وحركات التنوير والإصـلاح والنهضـة، والفلسـفة الليبرالية، والديمقراطية. لم أذكر الإسلام؛ لأنه ليس من المصادر المعـترف بها عند عامتهم، وإن كان مما يعترف بـه قلـة مـن علمـائهم. فهـذا أحـد

مؤرخيهم الكبار المعاصرين يقول: «إن أوروبا كانت في القرون الوسطى مدينة بالشيء الكثير للإسلام، وأنها لم تكن مدينة لأية مدنيّة أخرى مثلما ما كانت مدينة للإسلام»[١].

إذا تأملنا في هذه الثقافة المعترف بها تاريخياً وجدنا فيها، أو في فهمهم وتصورهم لها، عناصرَ مشتركة لعلها هي التي تمثل قيمهم أو عملهم الذي زُين لهم؛ إنها عناصر الشرك والاستكبار والفحش في القول والسلوك. وإليك أمثلة على ذلك:

الفكر اليوناني: يعتقد عامة الغربيين أن الفكر اليوناني هو أساس فكرهم، حتى قال أحد فلاسفتهم: إن الفلسفة الغربية كلها إنما هي حواشٍ على كتابات أفلاطون. هذا الفكر اليوناني هو أول ما لا يزالون يرجعون إليه في تأريخهم لقضية من القضايا العلمية أو الأدبية أو الفنية. لكنهم يعتقدون فوق ذلك أن الفكر اليوناني هذا هو الذي وضع أسس الفكر العقلاني المعتمد على المنطق (أليس أرسطاليس هو واضع علم المنطق؟)، وأن الأمم الأخرى -ومنها العرب- لا تعرف هذا التفكير العقلاني المنطقي. حتى قال أحد كبار المستشرقين عن العرب: إنهم لا ينكرون التناقض، بل يعدونه مما يزيد العبارة غنى. هذا مع أن العرب عندما اطّلعوا على علم المنطق لم يروا فيه شيئاً جديداً، حتى قال قائلهم: إنني كنت أعلم دائماً أن المنطق اليوناني لا يحتاج إليه الذكي ولا ينتفع به

---

(1) J.M. Roberts, History of the World, Penguin Books, 1980, p. 511.

البليد[١]. ذلك لأن الأسس التي يقوم عليها هذا العلم هي من المعايير العقلية التي فطر الله عليها البشر أيّاً كانوا وخاطبهم بها في رسالاته، والعرب كغيرهم من البشر يعلمون بطلان الكلام المتناقض؛ ولذلك فإنهم يحتملون في لغتهم كل شيء إلا التناقض. قال سيبويه عن العرب:

ويحتملون قبح الكلام حتى يضعوه في غير موضعه؛ لأنه مستقيم ليس فيه نقض[٢].

والحضارة اليونانية كانت، رغم إنجازاتها الفكرية الكبيرة، حضارة شرك وفحش. لم يكن شركها كما كان شرك العرب محصوراً في الألوهية، بل كان شركاً في الربوبية أيضاً؛ فلم يكونوا يعتقدون أن آلهتهم مجرد وسائل تقرب صاحبها إلى الله تعالى، بل كانت تحل محله سبحانه، فهذا رب للحب، وذاك رب للجمال، وثالث رب للحرب... وهكذا.

وكانت حضارة فحش لا ترى بأساً بالعري كما تدل على ذلك تماثيلهم المنحوتة، وصورهم المرسومة، و قصصهم وأشعارهم التي يشيع فيها قصص البغاء والشذوذ الجنسي؛ الذي كان معروفاً حتى بين كبار مفكريهم وفلاسفتهم! وقد اهتم مؤرخو هذا الفكر حديثاً بهذه القضية

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، المجلد التاسع، كتاب المنطق، ص ٨٢.

(٢) كتاب سيبويه : أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، المجلد الأول، عالم الكتب، بيروت، ص٣١.

وكتبوا فيها كتباً يقال: إن أهمها كتابٌ نشر في عام ١٩٨٧[(١)]؛ ثم تبعه سيل من الكتب التي تتحدث عن هذا الموضوع.

الديانة اليهودية: إن الله -تعالى- يفضل الناس ويكرمهم بأعمالهم الصالحة الاختيارية، وقد فضّل الله بني إسرائيل على غيرهم عندما كانوا آخذين برسالة موسى؛ لكن تحريف الدين والفهم السيء له حوّل هذا التفضيل إلى مسألة عرقية؛ فصاروا يعتقدون أنهم -باعتبارهم عنصراً- هم شعب الله المختار، ثم انتقلت هذه الفكرة إلى الديانة البروتستانتية، ثم صارت عن طريقها -كما يذكر لنا صاحب كتاب الثيوغراطية الأمريكية- جزءاً من التفكير القومي للشعب الأمريكي، ومن قبله للشعب البريطاني وللأفركان الذين حكموا جنوب أفريقيا. فاعتقاد الشعب الأمريكي بأهميته القومية الذاتية ليس سراً لا في داخل أمريكا ولا في خارجها كما يقول.

لقد ظل الأمريكان منذ قرون يعتقدون أنهم شيء خاص؛ شعب وأمة اختارها الله لتقوم بمهمة فريدة بل خيّرة في العالم، والرؤساء المنتخبون يجنحون إلى الدعوة إلى هذه الخصوصية ويؤكدونها[(٢)].

وما يسمونه بالكتاب المقدس مليء بقصص من الفحش منسوبة إلى أنبياء الله؛ أكرم خلق الله. وقد استغل بعض الملحدين هذه الحقيقة فنشروا كتباً أحصوا فيها كل النصوص التي فيها ما اعتبروه نوعاً من

(1) K.J. Dover, Greek Homosexuality, 1978.
(2) Kevin Philips, American Theocracy, Viking Penguin, 2006, p.125.

الفحش، ثم طالبوا بأن يكون هذا الكتاب من الكتب التي تسمى بالفاحشة والتي يمنع وضعها بين يدي الأطفال!

الديانة النصرانية: أما الديانة النصرانية فأخذت عنصر الاستكبار من العهد القديم الذي تعده جزءاً من دينها؛ كما رأينا في ما نقلنا قبل قليل. ثم زادت عليه أنه لا نجاة لأحد من الأولين والآخرين لم يتشرف بالإيمان بربوبية عيسى -عليه السلام- واعتبار موته تكفيراً عنه، وأن هذا تكفير حاصل لا محالة لكل من اعتقد ذلك الاعتقاد مهما كانت سيئاته وجرائمه. هذا مما يزين الفحش لمن كان شخصاً عادياً ضعيفاً، لكن النصرانية زادت هذا الإغراء به في طلبها من قساوستها أمراً مخالفاً للفطرة كانت نتيجته الوقوع في الفواحش سراً والتستر عليها. وقد استغل هذا خصومهم من الملحدين والمنكرين للدين أسوأ استغلال، حتى عده الفيلسوف البريطاني الشهير من أسباب كونه ليس مسيحياً.

هاتان الديانتان اللتان كانتا في الأصل ديانتي توحيد مبنيتين على وحي الله -تعالى- إلى موسى ثم إلى عيسى -عليهما السلام- صارتا بعد التحريف ديانتي شرك؛ فاليهود أشركوا بتحريفهم لكلام الله وبرفضهم لنبي الله عيسى ثم لنبيه محمد ﷺ مع أنهم مأمورون في كتبهم بالاعتراف بهما بل باتِّباعهما عند ظهورهما؛ وكان الاستكبار من أسباب هذا الرفض.

الحضارة الرومانية: ورث الغرب من الحضارة الرومانية فكرة الجمهورية وفكرة الإمبراطورية التي توسعت بغزو إمبريالي فيه كثير من

القسوة وإخضاع للشعوب كما يحدثنا المؤرخون الغربيون، وكانت قبل أن يجعل الإمبراطور... النصرانية ديانة رسمية لها تعج بديانات كلها وثنية.

حركة التنوير: توصف الحركة التي ظهرت في القرن الثامن عشر في أوروبا بحركة التنوير، وبكونها كانت حركة عقلانية؛ لكنها هي الأخرى لم تنسَ نصيبها من الدعوة إلى الفحش وتزيينه.

حركتا الإصلاح والبعث: من أوضح مظاهر الغرور في الثقافة الغربية أنهم يرون أن هنالك نقصاً في كل حضارة أو ثقافة أو ديانة لم تمر بالتاريخ الذي مرت به حضارتهم وثقافتهم وديانتهم. فمما يأخذونه على الإسلام -مثلاً- أنه لم تحدث فيه حركة إصلاح كحركتهم تعيد تفسير الدين وتفهمه فهماً جديداً يتناسب مع أهواء الثقافة الشائعة. وهم ما يزالون يأملون أن يحدث شيء من هذا؛ حتى يقترب الإسلام من ثقافة الغرب وقيمه. وما زال بعض المغفلين في بلاد الإسلام يغرونهم بأن هذا سيحصل، وأن الإسلام سيكون -قريباً- ديناً معاصراً لا خلاف بينه وبين متطلبات الحضارة الغربية.

الليبرالية: تقوم الليبرالية على فكرة هي في جوهرها صحيحة؛ فكرة تقول: إن لكل فرد حقوقاً لا يجوز لأحد أن يتغول عليها حاكماً كان أو أغلبية مواطنين. هذه الحقوق هي في الأصل حقوق أعطاها الله -تعالى- لعباده كما نجد ذلك في القرآن الكريم، فلما غلب الشرك وغلبت العلمانية على الحضارة الغربية فصلوا مفهوم هذه الحقوق عن أصله، ثم لم يجدوا لها أصلاً آخر يتفقون عليه إلا كونها وثيقة أجازتها الأمم

المتحدة، أو وُضعت في دستور بلد من البلاد، وبهذا صارت هذه الحقوق نفسها هي مما أعطاه بعض الناس لآخرين. ولـمَّا كان من أعطوها من المتأثرين بقيم الشرك والاستكبار والفحش؛ فقد فسّروا كثيراً من هذه الحقوق بحسب أهوائهم تلك فجعلوها، أو أكثرها، انحرافاً عن الفطرة السوية؛ فسّروها بحرِّية الكسب الذي لا قيود عليه؛ فكان أن أدى إلى الرأسمالية، وكان مثلهم كمثل مدين -قوم شعيب- الذين اعترضوا على أوامر الله في الكسب.

﴿قَالُواْ يَـٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].

ثم زعم بعضهم، تمشياً مع فكرة الغرور تلك، أن هذه الليبرالية مع أختها الديمقراطية (التي هي في الحقيقة متناقضة معها) هي نهاية التاريخ في مجال النظم السياسية والاقتصادية، وأن العالم كله سائر في الطريق الذي رسمته له وسارت فيه الحضارة الغربية. لكن يشكر للرجل أنه استثنى في كتابه المسلمين الذين قال عنهم: إنهم ما يزالون يتصورون أن لهم بديلاً هو خير من الليبرالية ومن الديمقراطية. ويشكر له ثانياً أنه تنازل عن تلك الفكرة السخيفة حين تبيّن له عوارها.

وكما فسروا الليبرالية تفسيراً جعلها تؤدي إلى الرأسمالية فقد غلوا في تفسير ما تدعو إليه من حرية، وجعلوا أكبر همهم فيها حرية الفحش الجنسي الذي أدى في ما أدى إليه من إضعاف للأسرة، وانحدار عظيم في

معدلات الإنجاب، حتى قال قائل منهم: إننا لم نعد نحتاج إلى عدو خارجي يهزمنا؛ بل نحن الذين نهزم أنفسنا بهذا النوع من الانتحار. وحتى قال كبير من كرادلتهم: «هل تحتاج الديمقراطية إلى صناعة فحش مقدارها بليون دولار لتكون ديمقراطية حقاً؟ وهل تحتاج إلى معدل إجهاض يبلغ عشرات الملايين؟».

قال الكاردينال الأسترالي جورج بل هذا الكلام، في محاضرة ألقاها بالولايات المتحدة، يحذر فيها الغرب من أن الإسلام قد يكون هو البديل إذا لم يعدّل الغرب من ديمقراطيّته التي وصفها بالفارغة والأنانية(١). بيد أنه رغم وجود أصوات معارضة كهذه فقد صارت الحرية الجنسية من أهم الحريات التي يتحدث عنها الغرب إن لم تكن أهمها.

الديمقراطية: في النظام الديمقراطي، كما هو مطبّق في الدول الغربية ودول أخرى كالهند، محاسن كثيرة؛ ولا سيما إذا ما قورن بنظم أخرى؛ كالنظام الذي كان سائداً في الاتحاد السوفييتي، وككثير من النظم الدكتاتورية أو شبه الدكتاتورية التي ما تزال سائدة في بعض البلاد.

أعمت هذه المحاسن كثيراً من الناس عن أن أصل الديمقراطية أصل شركي يعطي بعض البشر حق التشريع لبشر آخرين؛ مع أن هذا الحق

---

(1)http://www.theage.com.au/articles/2004/11/11/110013113631.html?oneclick=true.
http://www.theage.com.au/articles/2004/11/11/1100131136231.html?oneclick=true.

إنما هو حق لله تعالى! ونسوا أن ما فيها من محاسن ليس بخاص بهـا، وأن كثيراً منه ليس من لوازمها، ونسوا أنـه لـيس فيهـا محتـوى خلقـي وأنهـا لذلك لم تمنع المستمسكين بها من الإقدام باسمها على استعمار الشعوب واحتلالها، واسترقاق أناسٍ ولدتهم أمهاتهم أحراراً .

العلوم الطبيعية: من المعلوم أن أحسـن مـا في الحضـارة الغربيـة هـو تقدمها الهائل في مجال العلوم الطبيعية وما بني عليها من تقنية، كانت هي سبب قوتهم الاقتصادية والعسكرية، ووسـيلتهم إلى اسـتعمار كـثير مـن بلدان العالم واحتلالها.

ليس في هذه العلوم نفسها ما يجعلها متناقضة مع عقيدة التوحيد أو يـدعو إلى فحش أو استكبار، لكن الغربيين ربطوا بينها وبين كـل ذلـك بسـبب قيمهم تلك المنحرفة:

١- غرتهم معرفتهم بالسنن التي أودعها الله -تعـالى- في مـا أسمـوه بالطبيعة، ومعرفتهم بأسباب كثير من المسببات؛ فصـار الغالـب علـيهم فصل هذا العلم عن الدين، واعتبار الطبيعـة كونـاً مكتفيـاً بنفسـه تُفسّـر ظواهره الطبيعيـة بظـواهر أخـرى طبيعيـة ولا يجـوز تفسـيرها بأسـباب خارجة عن هذا الكون، حتى صـار هـذا التفسـير الإلحـادي جـزءاً مـن مفهوم العلم؛ كما قلت ذلك في عدة مناسبات وكتابات.

٢- وغلا بعضهم فصار يعتقد أنه لا حق إلا ذلـك الـذي يـأتي عـن طريق منهج هذه العلوم؛ فأغراهم هذا بإنكار كل ما جـاءت بـه الأديـان اعتماداً على الوحي الإلهي.

٣- بل إن بعضهم صار يستغل هذه العلوم لتأييد الميل إلى الفـواحش التي منها فاحشة الشذود، وقالوا: إنها عنـد بعـض النـاس شـيء فطـري موجود في (جيناتهم).

٤- ثم ارتبط هذا التطـور العلمـي بـالغرور الأوروبـي؛ إذ اعتقـدوا أنهم إنما سبقوا غيرهم فيه بسبب عقلانيتهم الـتي ورثوهـا عـن اليونـان، وأن غيرهم لم ينجز ما أنجزوا؛ لأنهم ذوو تفكير خرافي.

٥- وقد زاد من فتنتهم بهذا تخلف المسلمين في هـذه المجـالات تخلفـاً بدؤوا يعزونه إلى الدين الإسلامي، ويقول بمثل قولهم فيه بعض المرتـدين من المنتسبين إليه.

طبيعة القيم الغربية

كيف صارت تلك المصادر والمكونات المتنافرة شيئاً واحداً يسمى بالقيم أو الثقافة الغربية؟

١- صارت كذلك أولاً لسبب ذكرناه سابقاً؛ وهو لكونها كلها جزءاً من تاريخهم الذي ما يزالون يدرسونه في مدارسهم وجامعاتهم، والذي ما يزالون يكتبون عنه ويتأثرون به.

٢- وصارت كذلك لأنه ما من مكوِّن من مكوناتها إلا وله أنصار كبار من المفكرين أو من الجماعات أو الأحزاب.

وصارت كذلك لأن العلمانية، وهي امتداد للشرك الموجود في كل تلك العناصر التي ذكرناها، قد صارت هي الثقافة الطاغية التي يعاد تفسير العناصر الأخرى ـ بما فيها العناصر الدينية ـ لموافقتها، وصارت هذه الأديان تمدح ويتسامح معها بقدر تصالحها مع العلمانية وخدمتها لها. فها هو الفيلسوف الألماني الشهير (هابرماس) المعروف بعلمانيته، يقول: إن النصرانية لا غيرها هي الأساس النهائي للحرية والضمير وحقوق الإنسان والديمقراطية - وهذه هي أهم معايير الحضارة الغربية[1].

وقبل قرن كتب عالم الاجتماع الألماني (ماكس فبر) كتابه الشهير عن الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية.

---

(1) http://www.cathnews.com/news/411/131.php.

والنصارى بدورهم بدؤوا يفسِّرون الدين تفسيراً يتوافـق مـع أهـواء عصرهم؛ فأكثر كُتّابهم اليوم لا ينكرون الشـذوذ، ويفسـرون قصـة قـوم لوط وما حصل لمـدينتهم سـدوم إمَّـا بأنهـا قصـة مجازيـة، أو أن الـذين أنكروا هذا الفعل من كُتّاب البايبل كانوا متأثرين بثقافة عصرهم.

٣- ولأن الفكر العلماني وما يستتبعه من قيم صار هـو الفكـر الطـاغي الـذي يمـثل الإطـار العـام للثـقافة الغـربيـة وقيـمها؛ أضـحت الخلافات خلافات في داخل هذا الإطار فلـم تعـد ذات خطـر؛ ولـذلك نجد الملحد والنصراني أستاذين في كلية واحدة، ونجد الشاذ وغـير الشـاذ جنديين في جيش واحد، وصارت النساء كلهن يتبعن مظهـراً واحـداً...، وهكذا.

٤- قد يقول قائل: إننا نجد أمثلة لما عزوته إلى الحضـارة الغربيـة في كـل الأمم بما في ذلك الأمم الإسلامية؛ فما الذي يميّز القـيم الغربيـة في هـذا عن غيرها؟

نقول: إنه مما لا شك فيـه أنـه لا تكـاد تخلـو أمـة حتـى مـن فاحشـة الشذوذ بعد أن سنّها قوم لوط، وأن الشعور بالكبر قد يكون أيضاً طابعاً لأمـة لا تنتمـي إلى الحضـارة الغربيـة، وأن الشـرك موجـود حتـى بـين المنتسبين إلى الإسلام؛ لكننا نقول أيضاً: إن هنالـك فرقـاً بـين أن يكـون الزنا أو الشذوذ أو الجهر بالسوء من القول في نظر الأمـة جريمـة أو ذنبـاً يستـنكره مجتـمعها ويعـاقب علـيه قانونـها، وأن يكون أمـراً مـقبـولاً لا يستنكره مجتمع ولا يعاقب عليه قانون وإنْ استنكره بعض الأفـراد..

هذا الأخير هو ما تمتاز به القيم الغربية الآن متأثرة بتاريخها ذلك. لقد أصبح المستنكَر فيها، وربما كان المعاقب عليه فيها، هو استنكار الفحش ولا سيما فاحشة الشذوذ؛ فهذا الكاردينال (راتزنجر) الذي صار البابا الحالي يشكو من أن أحد القساوسة البروتستانت سُجن لمدة شهر في السويد؛ لأنه أنكر الشذوذ الجنسي استناداً إلى حُجج من كتابهم المقدس!

٥- هذه العناصر -ولا سيما عنصر الكِبْر- هي التي زيّنت للغربيين احتلال الشعوب الأخرى واستعمارها واسترقاق بعض أهلها. لقد كانت الحركة الاستعمارية الاحتلالية حركة اشترك فيها، أو شجعها أو وافق عليها، قادة الثقافة الغربية كلهم إلا ما ندر؛ لم تكن حركة سياسية فحسب وإنما كانت حركة اشترك فيها الكتاب والشعراء والفلاسفة ورجال الدين كما بيّن بعض ذلك إدوارد سعيد في كتابه عن الثقافة والاستعمار.

ما العمل؟

إننا إزاء تحدٍّ كبير تجاه ديننا وأمتنا؛ فماذا نحن فاعلون؟

ليس هذا بالسؤال الذي يختص بالإجابة عنه فرد واحد؛ لأنه سؤال للأمة كلها: علمائها، وزعمائها، وعامتها. فالإجابة التي أقترحها إنما هي جهد فرد مُقِلٍّ من أفراد هذه الأمة.

أرى:

أولاً: أن ننأى بأنفسنا عن مشاعر الحزن والضيق والأسى فإنها مشاعر سلبية لا تحل مشكلة خارجية، وإنما تنشئ مشكلات نفسية. وما أكثر ما يحذرنا كتاب ربنا من أمثال هذه المشاعر السلبية، وما أكثر ما يذكّرنا علماؤنا الأفاضل بهذه المعاني القرآنية! فهذا شيخ الإسلام ابن تيمية يقول في معرض تعليقه على حديث «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ»:

«... وكثير من الناس إذا رأى المنكر أو تغيُّرَ كثيرٍ من أحوال الإسلام جزع وكلّ وناح كما ينوح أهل المصائب. وهو منهي عن هذا؛ بل هو مأمور بالصبر والتوكل والثبات على دين الإسلام، وأن يؤمن بالله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأن العاقبة للتقوى».

ثانياً: أن نكون على يقين بأن مداهنة أعداء الحق ومحاولة إرضائهم بالاستجابة لمطالبهم ـ وهي مطالب قديمة ـ بتغيير هذا الدين وإعادة تفسيره بما يتناسب مع أهوائهم المعاصرة، أن هذا فوق كونه خيانة علمية فإنه لن يجدي شيئاً في حل المشكلة. نعم! إن الأعداء سيرضون عن كل محرِّف للدين بمقدار تحريفه؛ لكن هذا التحريف لن يزيدهم إلا شراً؛ إذ يرون أن المسلم المحرِّف يقترب منهم مع أنهم ثابتون في مكانهم؛ فيطمعون منه ثم من غيره في قرب أكثر، ويحاولون أن يجعلوا منه وسيلة للكيد من غيره من إخوانه المسلمين. لكن القاعدة هي ما قال الله –تعالى– عن كل من زُيِّن له عمله أنه لن يرضى عنك رضى كاملاً إلا إذا اتبعت ملته:

﴿ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء:٨٩].

ثالثاً: إن الرؤساء الغربيين يصرّحون بأن الحرب على ما يسمونه بالإسلام الراديكالي حربان: حرب أيديولوجية؛ يقولون: إنها لكسب العقول والقلوب. وحرب سنانية تساعد على تحقيق أهداف الحرب الأيديولوجية. أما نحن فما نزال منتصرين في ما أسموه بالحرب الأيديولوجية.

إن ديننا هو الذي يزحف نحوهم ويكسب كل يوم من عقولهم وقلوبهم، وإن أديانهم وقيمهم وأيديولوجياتهم هي التي تولّيه الأدبار. وهذا أمر يدعونا إلى المضيّ لا إلى التواني في نصرة ديننا بالحجج العقلية والعلمية والمعايير الخلقية. إن مشكلتنا هي في الحرب السِنانية؛ لقد فرّطت أمتنا في الأخذ بالأسباب العصرية لاكتساب القوة التي دعاها ربها إلى إعدادها. لقد آن الأوان لأنْ نبذلَ جهوداً كبيرة في اكتساب العلوم الطبيعية المرتبطة بالتقنية والمساعدة على اكتساب القوة الاقتصادية والعسكرية، ويجب أن تكون هذه الجهود على مستويين: مستوى شعبي عام؛ ينشر مبادئ هذه العلوم بين الناس ويجعلها جزءاً من ثقافتهم الشعبية. ومستوى تخصصي؛ تتعاون فيه الدول العربية على

الأقل؛ حتى يكون لنا علماء مبرزون مكتشفون ومخترعون ومنظـرون في كل المجالات المرتبطة بالتقدم التقني.

إننا لا نريد أن نكون أقوياء لنعتدي على غيرنا، وإنما لنرهـب ونـردع من تحدثه نفسه بالاعتداء علينا. إننا نعلم أن السِّـلم في مصـلحتنا، نعلـم هذا من ديننا ومن تجاربنا؛ فنحن حريصـون عليـه، واثقـون بـأن عاقبتـه خير إن شاء الله.

رابعاً: بما أن الغرب ليس كله كتلة واحدة صماء معادية للإسلام، بل فيه جاهلون بهذا الدين، وفيه مغـررون، وفيـه منصـفون مـدافعون عـن حقوق الناس، وفيه عقلاء يرون أنه ليس مـن مصـلحتهم شـنُّ حـروب شاملة دعائية كانت أم قتالية على الثقافات الأخرى، وفيه ... وفيـه ...؛ فيجب عند المعاملة أن لا نشمل الجميع بخطاب واحـد لا يميّـز بـين محـق ومبطل، ومعتدٍ ومنصف. إن التفرقة بـين هـذه الأصـناف ومعاملـة كـلٍّ بحسب موقفه أمر يتطلبه العدل الذي يقوم عليه بنيان الدين الحق، ثم إنه سياسة مربحة تؤدي إلى نتائج أفضل.

خامساً: التقدم الحقيقي لأمتنا لا يكتمل إلا بتقدم آخر لا يحتـاج منـا إلى جهد كبير؛ فكمـا نأخـذ بوسـائل عصـرنا في التقـدم العلمـي الـتقني فكذلك يجب أن نعتبر مقتضياته في الإصلاح السياسـي. إننـا لا نريـد أن نكون أمة تابعة تترك الأصالة لغيرها، ثم تقلده في كل مـا رآه مناسـباً لـه من مؤسسات ومبادئ وأسماء. نريـد أن نكـون أمـة أصـيلة تـؤمن بـأن كتاب ربها هو دستورها الأعلى، ثم تأخذ منه المبادئ السياسـية العامـة،

ثم تنشئ لنفسها من المؤسسات ما يناسب تلك المبادئ من مؤسسات تتناسب مع عصرها. إن كل من له أدنى معرفة بالإسلام يعلم أن مبادئَ مثل: حكم القانون، والشورى، واختيار الحكام، وحرية الرأي، وحقوق الإنسان -التي صار الناس يربطونها بالديمقراطية- هي مبادئ إسلامية بيّنتها النصوص وطبّقها النبي ﷺ وخلفاؤه الراشدون.

وإذا كان مثل هذا الإصلاح أمراً يستوجبه ديننا وتستدعيه ظروفنا؛ فإنه أيضاً أمر لازم لتحسين صورتنا العالمية التي صارت ترتبط في أذهان الكثيرين، ولا سيما في الغرب، بالدكتاتورية والفيودلية والثيوغراطية ويقال عن جهل أو سوء قصد: إنها من تعاليم ديننا.

كتاب

نهاية التاريخ وخاتم البشر

دراسة وتحليل

د. سامي محمد صالح الدلال

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد.

في هذه الأوارق نقدم دراسة نقدية لكتاب نهاية التاريخ وخاتم البشر.

تعريف عام بالكتاب: كتاب (نهاية التاريخ وخاتم البشر) يقع في ٣٨٠ صفحة من القطع الكبير وبخط صغير، منها ٨٥ صفحة أفردت للحواشي والفهارس. مؤلفه هو فرانسيس فوكوياما، نشره عام ١٩٩٢م وترجمه للعربية الأستاذ حسين أحمد أمين ونشره مركز الأهرام للترجمة والنشر في طبعته الأولى عام ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م. الكتاب مؤلف من خمسة أجزاء وقعت في ٣١ فصلاً.

فبعد الشكر والعرفان والمقدمة جاءت عناوين الأجزاء كما يلي: **الجزء الأول**: إعادة طرح سؤال قديم، في أربعة فصول. **الجزء الثاني**: شيخوخة الجنس البشري، في ثمانية فصول. **الجزء الثالث**: الصراع من أجل نيل الاعتراف والتقدير، في سبعة فصول، **الجزء الرابع**: القفز فوق رودس، في سبعة فصول، **الجزء الخامس**: خاتم البشر، في خمسة فصول.

وأصل الكتاب محاضرة بعنوان (نهاية التاريخ) ألقاها المؤلف خلال السنة الدراسية ٨٨ - ١٩٨٩م ثم تحولت إلى مقال ثم إلى كتاب. أخذ الكتاب مكانته العالمية من خلال مؤلفه؛ وهو نائب سابق لمدير مجموعة تخطيط السياسة بوزارة الخارجية الأمريكية ثم مستشاراً لمؤسسة راند كوربوريشن في واشنطن، ثم من خلال ما طرحه المؤلف في كتابه من أفكار ومناقشات وتحليلات ونتائج. وقد أحدث كتابه فرقعة جدلية على

المستوى الدولي. يقول ناشر الكتاب: «لم يثر كتاب آخر مثلما أثاره كتاب فوكوياما (نهاية التاريخ وخاتم البشر) من جدل صاخب على النطاق العالمي». ولا شك أن الكتاب أبدى اطلاعاً ثقافياً واسعاً لمؤلفه في مجالات شتى، من أبرزها السياسة والاقتصاد والاجتماع والفلسفة، وقد بذل جهداً كبيراً في محاولة مزجها في بوتقة تحليلية تصب في اتجاه واحد هو طبيعة ما سينتهي إليه التاريخ البشري من وجهة نظره.

إن دراستنا المقتضبة هذه تتضمن مبحثين رئيسين، الأول: هو ذكر نبذة مختصرة لأهم الأفكار التي ذكرها المؤلف. الثاني: تسليط ضوء نقدي على هذه الأفكار من وجهة نظر إسلامية.

أفكار وآراء المؤلف:

لقد طرح المؤلف أفكاره وآراءه من خلال استعراض لآراء وأفكار ونظريات وفلسفات عدد من المؤثرين على النهج الحياتي لبعض البشر من نافذة ما دونوه من دراسات وكتب أو مارسوه من تنفيذ وتطبيق، ومن أبرز هؤلاء: ماركس، وهيجل، ونيتشه، وكيركيباتريك، وكيسنجر، وجين فرانسوا ريفيل، وصامويل هنتينجتون، وأوغسطين، وباسكال، وجاليلو، وبيكون، وديكارت، وفرانسيس بيكون، وفونتيل، ونيكولو ميكيافيللي، وفولتير، وتيرجو، وكوندوريسه، وإيمانويل كانط، وأوجبست كونت، وهربرت سبنسر، وأوزوالد ستبنجلر، وأرنولد توينبي، وخوم شتاين، وشارنهورت، وجنيسيناو، وجان جاك روسو، ودانييل بيل، وريمون آرون، وراؤول، وهاملتون، وفكلاف هافيل،

و س س لـويس، وزرادشـت، وليكورجـوس، ومـاروموليوس، وفيـبر، وميترنيخ، ومورجنتاو، وكينان، ونيبور، وكوجيف توكفيل، وغيرهم. إن النتيجة النهائية التي توصل إليها المؤلف هي أن الديمقراطية الليبرالية منتهى النظام الذي سيسود معظم العالم، وأن الذي ينضوي تحتها هو خاتم البشر وأن ذلك هو نهاية التاريخ.

وقد جاءت مناقشته في هذا الكتاب في اتجاه تصاعدي لإثبات ما توصل إليه في نهايته، مع تكرار هذه النتيجة في ثنايا الكتاب كلما حانت لذلك فرصة.

خلال عرضي لأفكار المؤلف فإنني لن أتقيد بطريقة المؤلف في أسلوب عرضه، بل سأجمع ما توافق وتناسق من أفكار في سياق واحد وأضع لها عنواناً، وربما عرضتُ فكرته بإيجاز بقلمي أو عرضتها بقلمه، أي بألفاظه (وهذا الأغلب الأعم)، وذلك بحسب ما يحتاجه المقام. وقد قسمت العناوين إلى قسمين: الأول: أفكار رئيسة، والثاني: أفكار داعمة. وهذه هي عناوين القسمين:

القسم الأول: أفكار رئيسة:

١ - التاريخ ونهاية التاريخ.

٢ - مناصرة وتبنّي الديمقراطية الليبرالية.

٣ - نقد الديمقراطية الليبرالية.

٤ - الأنظمة الشمولية والتحدي الشيوعي وانهيار دوله.

٥ - الدين.

٦ - خاتم البشر.

القسم الثاني: أفكار داعمة:

١ - الاعتراف والتقدير والرغبة.

٢ - السيد والعبد.

٣ - العلم الحديث والتقنية.

٤ - نظرية التحديث.

٥ - القومية.

٦ - الواقعية.

المبحث الأول

القسم الأول: أفكار رئيسة:

- **التاريخ ونظرية نهاية التاريخ:**

أزمتان أثرتا في تقدم التاريخ: الأزمة السياسية في القرن العشرين، والأزمة الفكرية في المذهب العقلي الغربي. ولقد أدخلت المسيحية مفهوم التاريخ باعتباره محدوداً زمنياً، يبدأ بخلق الإنسان وينتهي بخلاص الإنسان النهائي، وأن ذلك يكون بحلول يوم الحساب والذي يبدأ معه ملكوت السماء وتنتهي الأرض وأحداثها. وعند باسكال، فإن الإنسان الآن في مرحلة شيخوخة الجنس البشري. وقد كتب الفيلسوف إيمانويل كانط في ١٧٨٤م مقالاً بعنوان: محاولة لكتابة تاريخ عالمي من وجهة نظر عالمية، ذهب فيه إلى أن التاريخ له نهاية، بمعنى أن له هدفاً نهائياً هو تحقيق الحرية الإنسانية. وأن الذي يكتب التاريخ ينبغي أن يكون فيلسوفاً ومؤرخاً وملماً بأحداث التاريخ وتأثيراتها. ثم جاء هيجل وكتب التاريخ بشروط كانط، وعرف مشروعه بأنه كتابة تاريخ عالمي، وقد سعى إلى إيضاح العناصر الطيبة في مختلف الدول والحضارات والأسباب التي أدت للإطاحة بها وبذرة الاستنارة التي بذرتها فبقيت حية بعدها فأفسحت مستويات أعلى للتطور، وبين أن مسار التاريخ محكوم بالصراعات بأنواعها الفكرية والسياسية التي لا تلبث أن تطيح بالأنظمة القائمة وتأتي بغيرها، وأن محركها هو ما أسماه السعي من

أجل نيل الاعتراف والتقدير وأن نهايته هـو الدولـة الليبراليـة، في حـين رجَّح ماركس أن نهايته هو المجتمع الشيوعي.

ويرجِّـح فوكـوياما أن التـاريخ ليـس دوريـاً ولا عفوياً محضـاً، وأنـه لا يعيـد نفسـه أبـداً، ولذا فلا بد من أن تكون له آليـة دائمـة وواحـدة، أو مجموعة من الأسـباب التاريخيـة الأولى الـتي تفـرض التطـور في اتجـاه غائي واحد، وأن هـذه الآليـة الأساسـية المحتملـة هـي العلـوم الطبيعيـة الحديثة باعتبارهـا النشـاط الاجتمـاعي الواسـع النطـاق الوحيـد الـذي يُجمِع الناس على أنه تراكمي. وعلى هذا الأساس يجيـب بـنعم لكـانط عندما تساءل: هل يمكن كتابة التاريخ؟ غير أن ذلك التفسير لن يبرر كل ما هو كائن على ضوء الغاية النهائيـة للتـاريخ؛ لأنـه قـد يغفـل بعـض تفاصيل التاريخ ويتجاهل طبيعة نسيجه؛ فأي تـاريخ سـنكتبه لـن يـوفر تفسيراً معقولاً لأحداث كثيرة هي أحداث حقيقية في نظر من يخبرونهـا. ويمكننا أن ننظر إلى التاريخ الإنساني باعتباره حواراً أو تنافساً بين أنظمـة أو أشكال مختلفة للتنظيم الاجتماعي ينتهي بانتصار إحداها حربيـاً أو اقتصـادياً أو سياسياً على الجميع ببقائه مدة أطول؛ فـإن كـان الحسـم للديمقراطيـة الليبرالية، ولم تكن هناك بـدائل صـالحة سـواها، ولم تعبِّـر شـعوبها عـن سخطها منها؛ فيمكننا عنـدها القـول بـأن الحـوار قـد وصـل إلى خاتمـة حاسمة، وأن على الفيلسوف التاريخي أن يقبل مزاعمهـا بأنهـا الأفضـل والغايـة النهائيـة. تلـك الدولـة سـتقوم علـى أساسـين: الاقتصـاد،

والاعتراف؛ فهما جناحا المسار التاريخي، وإن الإنسان سيصبح كالكلب بشرط أن يطعمه صاحبه.

ذاك اتجاه، أما الاتجاه البديل لتحديد ما إذا كنا قد وصلنا إلى نهاية التاريخ فيمكن تسميته النهج الذي يتجاوز التاريخ ويعتمد على فهم طبيعة الإنسان، وباعتبار ذلك يمكننا تقسيم العالم إلى قسمين: التاريخي، وما بعد التاريخي. التاريخي هو العالم الثالث ومن في حكمه، وما بعد التاريخي هو الولايات المتحدة وبريطانيا ومن في حكمهما، ولن يكون بين القسمين تفاعل إلا في حدود ضيقة، وسيكون بينهما محاور صِدام أبرزها: النفط، والهجرة، ومنع وصول التقنية الحربية إليها.

إن نهاية التاريخ هي الديمقراطية الليبرالية، وعندها ستكون البشرية كقافلة طويلة من عربات متشابهة، قد يتجه بعضها صوب المدينة في حركة حادة مفاجئة، وقد يعود بعضها إلى الصحراء، وقد تتعطل عجلات بعضها أثناء صعودها الجبل، وقد يهاجم الهنود الحمر عربات فيشعلون فيها النار فيهجرها ركابها، وقد تتعب عربة أو عربتان من الرحلة فيقرر ركابها الإقامة الدائمة في معسكرات... غير أن الغالبية العظمى من العربات ستمضي في رحلتها البطيئة إلى المدينة وسيصل معظمها إليها. وعند التأمل يتبين أنه لم يكن ثمة غير رحلة واحدة وهدف واحد للرحلة، ومن المشكوك فيه أن نكون قد بلغنا بالفعل هذه الرحلة.

والسؤال هو: هل خيرات المجتمع الديمقراطي ترضي الإنسان بوصفه إنساناً، أو أن ثمة صورة أرقى من حيث المبدأ للإشباع يمكن أن يوفرها نوع آخر من الأنظمة السياسية أو التنظيمات الاجتماعية؟

- **مناصرة وتبنِّي الديمقراطية الليبرالية:**

نعني بالديمقراطية: الحق المعترف به من الجميع لكافة المواطنين في أن يكون لهم نصيب من السلطة السياسية. ونعني بالليبرالية: أنها القاعدة القانونية التي تعترف بحريات وحقوق معينة للفرد غير خاضعة لسيطرة الحكومة. والديمقراطية الليبرالية خلقها البشر عند نقطة معينة من التاريخ على أساس فهم نظري معين للإنسان وللمؤسسات السياسية المناسبة التي ينبغي أن تحكم المجتمعات البشرية، ومن ثم فهي تنشأ بقرار سياسي. إلى الآن انتصرت الديمقراطية الليبرالية على متحديين رئيسين هما الفاشية والشيوعية، بل إن بعض الدول التي كانت شيوعية قادرة على أن تنتقل إلى الديمقراطية رغم تنوع القوميات؛ فليس ثمة تناقض بالضرورة بين الديمقراطية والانتماء القومي، ذلك أنها تمثل أيديولوجية متناسقة، ومن لم ينتقل إليها في جيله فسينتقل إليها في الأجيال القادمة، خاصة إذا علمنا أن التخلف في الدول النامية لم يكن ناجماً عن الظلم اللصيق بالرأسمالية بقدر ما هو ناجم عن عدم تطبيق بلادهم لها في الماضي بدرجة كافية (مثال ذلك: رئيس المكسيك كارلوس ساليناس، ورئيس الأرجنتين كارلوس منعم، ورئيس البرازيل فرناندو كولور). لقد أحدثت الأنظمة الشمولية والتخطيط المركزي الاشتراكي أزمة

أخرجتهما من حلبة الصراع؛ فلم تبقَ إلا الديمقراطية الليبرالية. وقد تكون الدولة ليبرالية وليست ديمقراطية كبريطانيا في القرن الثامن عشر، أو ديمقراطية وليست ليبرالية كإيران؛ إذ ليس فيها ضمانات لحرية التعبير أو الاجتماع ثم بالأخص حرية العقيدة الدينية. ورغم أن الدول الديمقراطية تتنامى أعدادها حتى بلغت الآن ٦٥ دولة إلا أن بعض الدول لا تثبت على النظام الديمقراطي بل يحصل فيها التبادل بين نوعية الأنظمة، لكن السؤال هو: ما إذا كان بالوسع تبيّن سبب يدعو إلى توقع حدوث تقدم عام للبشرية صوب الديمقراطية الليبرالية؛ حيث تتجسد الحرية الإنسانية في الدولة الدستورية الحديثة، كما عند هيجل.

لا بد من توضيح سبب توقع تطور الدول في النهاية في اتجاه الليبرالية الديمقراطية، أي الليبرالية الاقتصادية والسياسية؛ فالديمقراطية تظهر نتيجةَ اتفاقات أو حلول وسط تصل إليها جماعات الصفوة حين ينتابها الإنهاك أو الإحساس بتعذر تحقيق المطامح بسبب عقبات المنافسين، وهي في ذلك كله ترتبط بالتنمية الاقتصادية المرتبطة بالبيئة وبثقافة الجماعات العرقية وكذا التحديث الاجتماعي، إضافة لأمور أخرى، ومثال ذلك: أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية، ويشذ عن ذلك بعض دول الشرق الأوسط التي ليس فيها ديمقراطيات راسخة لكن معدل دخل الفرد فيها يعادل دخل الأوروبي والآسيوي. لكن المتمعنَّ لديه الحجج ليبيِّن أن التصنيع المتقدم يؤدي إلى الديمقراطية الليبرالية؛ إذ إن الديمقراطية توفِّق بين المصالح المتعارضة الناجمة من الاقتصاد

الحديث، وأن التصنيع الناجح يُوجِدُ طبقة وسطى تطالب بالمساهمة في الحياة السياسية، إضافة إلى أن الدكتاتوريات أو نظام الحزب الواحد تتحلل مع الزمن، كما أن الديمقراطية الليبرالية توفر وسائل ذات كفاءة لحماية البيئة مما لا تستطيع توفيره الأنظمة الأخرى كالشيوعية. غير أن ليبرالية (هوبزو ولوك) مردها إلى البرجوازية؛ وهي أنانية، خلافاً لهيجل الذي يعتبر الديمقراطية ثمرة اتفاق بين المواطنين؛ فهو يوفر فهماً للمجتمع الليبرالي أساسه الجانب غير الأناني من الشخصية الإنسانية؛ فالإنسان عنده لا تحدده طبيعته المادية والحيوانية فحسب وإنما قدرته على التغلب على هذه الطبيعة أو نفيها، والحرية عنده هي جوهر كل ما هو إنساني وهي التي أقرتها المسيحية التي كانت أول من أرسى دعائم مبدأ المساواة بين البشر. وقد أكد لنكولن أن الحرية تتطلب الإيمان بالله، أما هوبز ولوك فهما متفقان على المؤسسات الانتخابية وأن الديمقراطية ثمرة لعقد اجتماعي، لكن هوبز يقر بسيادة الملك أو الحاكم الشرعي، في حين يرى لوك السيادة البرلمانية وأن من حق الإنسان ليس فقط مجرد العيش، بل من حقه الحياة الرغدة وليست الحياة الأرستقراطية التي أشهرت الليبراليةُ الحديثة الحرب عليها، غير أن التناقض الواضح يتبدى في أن مؤسسي التراث الأنجلوسكسوني لليبرالية أرادوا إلغاء الثيموس (تعبير استخدمه سقراط للدلالة على الهمة والشجاعة، وهي نوع من الرغبة) الذي هو جانب من الشخصية الإنسانية؛ فالرغبة والعقل والثيموس تفسر تفاوت الميل إلى العمل وأخلاقياته التي ترتبط بالطريقة والدرجة وتحدده اعتبارات النظافة والتقاليد والوطنية (اليابانيون

يدفعون أثماناً أعلى لشراء منتجات يابانية؛ فهم أفضل من الأمريكان وطنية).

إن الدولة الديمقراطية الليبرالية دولة عقلانية؛ لأنها تحقق مصالحة بين مطالبات المتنافسين على الاعتراف؛ ولأنها تعترف بكافة الآدميين وتلغي الفرق بين السادة والعبيد. وقد زعم كوجيف أن ذلك تحقق، وفي نهاية التاريخ ليس ثمة منافسون أيديولوجيون لها، ذلك أنها انطلقت من الليبرالية التي هي حرية التعبير والاجتماع قبل أن تدخل المسار الديمقراطي، وهذا الذي حدث لأمريكا وبريطانيا، وباتحادهما تكوّنت الحضارة والتي من عواملها الإحساس بالهوية القومية، والدين، والمساواة الاجتماعية، وتحييد المجتمع المدني، والخبرة التاريخية بالمؤسسات الليبرالية. إن الليبرالية الديمقراطية الاقتصادية هي أفضل الطرق إلى رخاء أي شعب مستعد للإفادة منها. إن العالم اليوم لا يفتقر إلى أي بديل لها، لكن قد يحمل المستقبل نصراً لبدائل استبدادية جديدة تخلقها مجموعتان متباينتان من الدول: الدول التي فشلت، لأسباب حضارية، في تنمية اقتصادها بالرغم من تطبيقها الليبرالية الاقتصادية، والدول التي صادفت نجاحاً غير عادي في اللعبة الديمقراطية. ففي إطار النوع الأول نرى أن حركة الإحياء الراهنة للأصولية الإسلامية هي رد فعل لفشل المجتمعات الإسلامية بوجه عام في الحفاظ على كرامتها في مواجهة الغرب غير المسلم، رغم أنها بذلت جهوداً من أجل التحديث السريع؛ حتى تتمثل الممارسات الغربية الضرورية لبقائها في حلبة المنافسة.

أما الدول الآسيوية فجذور سلطاتها السياسية لها خصوصية تعطي الديمقراطية الليبرالية تفسيراً مختلفاً عن الدول التي شهدت بداياتها التاريخية كأوروبا وأمريكا الشمالية. إن انتصار الليبرالية نَشَرَ التسامح الديني؛ مما جرد الدين من أنيابه، في حين كان النزوع اللانهائي إلى الغزو من صفات الإمبريالية، كما حصل للعرب بعد اعتناقهم الإسلام، وذلك نظراً لظهور نظام أرستقراطي ركيزته الأخلاقية ذات توجه ملائم للحرب. إن التسامح الديني وعوامل أخرى جعلت معظم الديمقراطيات الليبرالية تشهد خلال الجيل الماضي انتشاراً عظيماً لحقوق جديدة تتعلق أغلبها بحياة الفرد، رغم أن واجباته في دولة كبيرة كأمريكا ضئيلة جداً؛ نظراً لأنه في الدول الكبيرة يشعر الفرد بأنه ليس سيد نفسه وأنه ضعيف عاجز في مواجهة أحداث لا يستطيع التحكم فيها. لكن ماذا يحدث إذا امتلأ العالم بالديمقراطيات الليبرالية ولم يعد به طغيان أو استبداد يمكن الجهاد ضده؟ إنهم سيتصارعون من أجل الصراع؛ وذلك لشعورهم بالملل كما حصل في الحرب العالمية الأولى.

لقد حاول الليبرالي الحديث أن ينقل أساس المجتمعات الإنسانية إلى مستوى حل مشكلة الميجالوثيميا (الرغبة في نيل الاعتراف بالتفوق على الآخرين أو تضخم الذات والتوق إلى المجد) عن طريق سلسلة معقدة من الترتيبات التنظيمية؛ كمبدأ السيادة الشعبية، وتأكيد مبدأ الحقوق، وسيادة القانون، وفصل السلطات، وغيرها، كما أتاحت الفرصةَ لظهور العالم الاقتصادي الحديث؛ بأن حررت الرغبة من كل القيود على

التملك والربط بينهما وبين العقل في صورة العلوم الطبيعية. إن الدولة الديمقراطية الليبرالية الحديثة هي تجسيد للمثال المسيحي عن الحرية والمساواة العامة بين البشر، إنها اعتراف بأن الإنسان هو الذي خلق الإله المسيحي وأنه قادر على أن يأتي بالله إلى الأرض ليقيم في مبنى البرلمان أو قصر الرئاسة. إنها تظل المطمح السياسي الواضح الوحيد في مختلف المناطق والثقافات في كوكبنا هذا.

- **نقد الديمقراطية الليبرالية:**

إن أكثر أهل هذا القرن تعقلاً وأعمقهم فكراً لم يرَ سبباً يدفعهم إلى الاعتقاد بأن العالم يتقدم نحو ما يراه الغرب مؤسسات سياسية إنسانية فاضلة تمثِّلها الديمقراطية الليبرالية. وقد انتقدت (كيركباتريك) فكرة إمكانية تحويل نظم الحكم في أي وقت وأي مكان إلى نظم الديمقراطية، واصفة إياها بأنها نموذج للأفكار الأمريكية البحتة. ولذلك فإننا لن ندهش لو أن الدول التي كانت شيوعية في الماضي لم تتحول في سرعة وسهولة إلى نظم ديمقراطية مستقرة، بل إن المدهش حقاً هو لو أن هذا حدث بالفعل! وكذلك فإن الكثير من دول أمريكا اللاتينية مثلاً تأسست كديمقراطيات ليبرالية بعد فترة وجيزة من استقلالها عن إسبانيا أو البرتغال في القرن التاسع عشر، ووضعت دساتير على غرار دستورَي الولايات المتحدة والجمهورية الفرنسية، ومع ذلك فإنه ما من دولة منها نجحت في الحفاظ على استمرار النهج الديمقراطي فيها دون انتهاك حتى الآن. إن الديمقراطية الليبرالية تمثل ظهور نوع من الحسابات الباردة

المتعمدة وذلك على حساب الآفاق الأخلاقية والثقافية، مما يجعلها، بحسب هوبز ولوك، تدخل في صراع طويل ضد أفراد شعبها سعياً منها إلى تحقيق الانسجام بين ثقافاتهم المتنوعة وتعليمهم مراعاة مصالحهم الخاصة بعيدة الأمد، مما يؤدي إلى انهيار النظام الديمقراطي بسبب بعض قرارات السياسيين.

ولذلك فإن عدداً من الدول، لا تتوافر فيها الشروط الحضارية للديمقراطية كالتماسك القومي، تمكنت من تحقيق مستوى عالٍ من الاستقرار كالهند مثلاً، وبالمقابل نتساءل: هل تستطيع الديمقراطيات الليبرالية المستقرة، كما في أوروبا وأمريكا، لو تركت لشأنها أن تحافظ على كيانها إلى الأبد، أم أنها ستنهار يوماً ما بسبب نوع من العطب داخلها شأنها شأن الشيوعية؟ إنها تعاني من حشد من المشكلات كالبطالة والتلوث والمخدرات والجريمة. إن هذه التناقضات إن كانت ظاهرة فعلينا أن نقول: إن التاريخ، بالمعنى الدقيق للكلمة، سيستمر.

إن معظم الديمقراطيات لا تستطيع التعاطي مع معيار المساواة دون الإخلال به، كمعاملة السود في أمريكا؛ فالعقبات التي تعترض طريق شاب أسود في ديترويت أو ساوث برونكس تبدأ بالمستوى المتدني للمدارس. لقد تحولت مشكلة الفقر في الديمقراطيات الغنية من مشكلة الحاجة الطبيعية إلى مشكلة خاصة بالاعتراف؛ فالإساءة الحقيقية للفقراء ومن لا مأوى لهم لا تكمن في وصفهم المادي بقدر ما تكمن في الإزراء بكرامتهم. ويقع الخلل في الديمقراطية الليبرالية من معيار آخر؛ وهو

توفير الاعتراف المتكافىء لأناس غير متكافئين. إن (نيتشه) الـذي يكـره الديمقراطيـة الليبراليـة لـه ملاحظـة هامـة بشـأن العلاقـة القلقـة بـين الديمقراطية والرغبة في نيل الاعتراف؛ ففي المدى البعيد قد تفسد داخلياً إما بسبب الإفراط في الميجالوثيميا (أي الرغبة في نيل الاعتراف بـالتفوق علـى الآخـرين، أي: تضـخم الـذات) أو الإفـراط في الإيسـوثيميا (أي الرغبة الجنونيـة في الاعـتراف المتكـافىء). إن الديمقراطيـة الليبراليـة لهـا سلبياتها والتي من أهمها:

١ - أنها ليست أصلح نظام سياسي لحل الصراعات الاجتماعية.

٢ - في المجتمعات المنقسمة على نفسها؛ بسـبب الطبقيـة الاجتماعيـة أو الجنسيات أو الدين؛ قد لا ينجم عن الديمقراطية غير الشلل والركود.

٣ - ليس من السهل على الديمقراطية حـل النزاعـات بـين الأعـراق والطوائف الوطنية المختلفة.

٤ - لم يكن بوسع الاتحاد السوفييتي أن يكـون ديمقراطيـاً دون تفـرق جمهورياته؛ لأنه ليس بوسع الديمقراطية أن تـنهض إلا علـى أسـاس مـن تقسيم الدولة إلى وحدات قومية أصغر.

٥ - بوسع الدكتاتورية الملتزمة بالتحديث أن تكون، من حيث المبدأ، أكثر فعالية مـن الديمقراطيـة بكـثير في خلـق الظـروف الاجتماعيـة الـتي تسمح بالنمو الاقتصادي الرأسمالي، كالفلبين وبيرو.

٦ – قد تتصرف بعض دول الديمقراطية الليبرالية كالدول الثورية، كما تفعل أمريكا الآن، في محاولة فرض الديمقراطية على دول أخرى بالقوة رغم أن هذه الدول لا ترغب فيها. فبدلاً من أن تعزز الحربُ المعاصرة دورَ الفضيلة والروح الخلاقة إذا بها تزعزع إيمان الناس (بمعنى مفاهيم مثل: الشجاعة والبطولة).

٧ – إذا أَضْفَتْ الديمقراطية الرخاء وتطلع الناس إلى الصراعات فإن العواقب تكون وخيمة خاصة بوجود الأسلحة المدمرة.

- **الأنظمة الشمولية والتحدي الشيوعي وانهيار دوله:**

تتباين النظرة الشيوعية عن الديمقراطية بشدة إزاءَ مفهوم المجتمع السليم. وقد كان الظن لدى الغرب أن الشيوعية لن تتهاوى. وقد حذر كيسنجر عندما كان وزيراً للخارجية الأمريكية الأمريكيين من «أننا نواجه اليوم، ولأول مرة في تاريخنا، حقيقةً سافرة؛ هي أن التحدي الشيوعي لن تكون له نهاية... وعلينا أن نتعلم كيف نصرف سياستنا الخارجية كما صرفتها الدول الأخرى على مدى قرون عديدة، دون تهرب ودون هوادة.. ذلك أن الوضع الحالي لن يتغير...» لكن الشيوعية سقطت، وجاء انهيارها العالمي في نهاية الثمانينيات أمراً يكاد يكون مفاجئاً تماماً. ولم يكن الفشل في توقع الانهيار يتعلق بمجرد عقيدة أيديولوجية عكّرت صفوَ النظرة الموضوعية الهادئة إلى الأحداث، بل هو فشل اشترك فيه أناس من كافة المذاهب السياسية؛ من اليمين، واليسار، والوسط؛ صحفيون وعلماء وسياسيون من الشرق والغرب. لقد نجحت

الشمولية الشيوعية في إرهاب الشعوب الخاضعة لها وفي إجبارها على تبنّي قِيَم سادتها، ولم يكن ممكناً أو متوقعاً أن تتوجه أي دولة شيوعية نحو الديمقراطية، بل إن ذلك غير قائم أصلاً. لكن كثيراً من الخبراء، بالرغم من أن الشيوعية كانت مفروضة على أقطارها، كانوا يرون في تلك الأقطار استقراراً اجتماعياً عظيماً. وقد أكد الخبراء في عام ١٩٨٧م، أننا لو قارنّا دول أوروبا الشرقية بكثير من دول العالم، كبعض دول أمريكا اللاتينية، فإن تلك الدول الشيوعية ستبدو مثلاً يحتذى من أجل الاستقرار. لكن ذلك كان على حساب هدم المجتمع المدني برمته لصالح اكتساب سلطة كاملة على حياة المواطنين.

غير أن الأمر لم يكن محتملاً لفترة أكثر من العقود التي عانت فيها تلك الشعوب من ظلم الحكم الشيوعي، فبدأ تسلسل السقوط المروع، وبعد السقوط بدأ المجتمع المدني يعيد بناء نفسه، وشكّل عشرات الآلاف من التجمعات الجديدة؛ كالأحزاب، والجمعيات الأوروبية، والكنائس، والجماعات الوطنية، وغير ذلك. لكن غياب المجتمع المدني لم يؤدِ إلى التقهقر؛ فثمة دول، كالاتحاد السوفييتي في عهد ستالين، مرت بالمراحل الأولى من التصنيع تعد دولاً متقدمة اقتصادياً وحضرية وعلمانية، وبناء الدولة فيها متين ومتجانس، وشعبها جيد التعليم نسبياً، غير أنها لا هي بالرأسمالية ولا بالديمقراطية. فقد حقق الاتحاد السوفييتي ما بين عام ١٩٢٨م إلى أواخر الثلاثينيات تحولاً اجتماعياً مذهلاً من دولة زراعية معظم سكانها فلاحون إلى دولة صناعية قوية، دون أن يتيح للمواطنين

حريات اقتصادية أو سياسية؛ ففي بعض الأحيان بوسع الدكتاتوريات أن تلائم نفسها مع الأوضاع المتغيرة وتتصرف بسرعة أكبر من سرعة الديمقراطيات. وهذا قد قوى من الحجة القائلة بأن الاشتراكية تناسب دول العالم الثالث باعتبارها استراتيجية للتنمية يتكرر فيها فشل الرأسمالية بشكل واضح. إن الدولة الشمولية التي تسمح بنشاط واسع النطاق للقطاع الخاص لا يمكن الاستمرار في تعريفها بأنها شمولية. وقد تمكّن المجتمع المدني في الصين من فرض نفسه بسرعة كبيرة في صورة مؤسسات تجارية تلقائية ومنظمي مشروعات وجمعيات غير رسمية، وذلك في جو من الحرية النسبية ساد البلاد في الأعوام ما بين ١٩٧٨م وإلى عام ضرب حركة المطالبة بالديمقراطية في ١٩٨٩م. وقد ذهب الكثيرون إلى أن احتجاجات الطلبة في ميدان (تيانانمن) لم تكن تعبيراً عن مطالبة تلقائية بالمشاركة السياسية بقدر ما كانت انعكاساً لصراع سياسي على سلطة دينج بين جاوزيانج ولي بنج. صحيح أن الحكم الشيوعي لا يزال قائماً في الصين وكوريا الشمالية وفيتنام، غير أن تغييراً كبيراً جداً حدث في مفهوم الشيوعية التي كانت تصدِّر نفسها على أنها شكل من أشكال الحضارة أرقى وأكثر تقدماً من الديمقراطية الليبرالية؛ فأصبح مفهومها -الآن فصاعداً- مرتبطاً في الأذهان بدرجة عالية من التخلف السياسي والاقتصادي. ولقد انتقلت دول كثيرة من النظام الشمولي إلى النظام الديمقراطي كالبرتغال عام ١٩٧٦م، واليونان ١٩٧٤م، وإسبانيا ١٩٧٧م، وتركيا عام ١٩٨٣م، والبيرو عام ١٩٨٠م، والأرجنتين عام ١٩٨٢م، والأورجواي عام ١٩٨٣م، والبرازيل

عـام ١٩٨٤م، وبـاراجواي وتشـيلي عـام ١٩٨٩م، ونيكـاراغوا عـام ١٩٩٠م، والفلبين عام ١٩٨٦م، وكوريا الجنوبية عام ١٩٨٧م. ولا تزال هناك دكتاتوريات تحكم دولاً وهي ممقوتة من شعوبها.

- **الديـن:**

يثني فوكوياما على هيجل من حيث مفاهيمه الفلسفية الأعمق بكـثير من المؤلفين السابقين للتواريخ العالمية، مثل: الطبيعة، والحرية، والتاريخ، والحق، والعقل. ثـم يقـول: إن هيجـل يـرى أن ديانـات العـالم الكـبرى ليسـت صـحيحة في حـد ذاتهـا، وإنمـا هـي أيـديولوجيات نجمـت عـن حاجات تاريخية معينة للشعب الذي آمن بها، والمسـيحية بـالأخص هـي أيديولوجية نجمت عن العبودية، وجاء إعلانها عن المساواة بـين الجميـع ليخدم مصلحة العبيـد في نيـل حـريتهم. إن المسـاواة المسـيحية أساسـها فكرة أن الناس جميعاً متساوون في تمتعهم بملكة واحدة معينـة هـي ملكـة الاختيار الأخلاقي؛ فـالجميع قـادرون علـى قبـول أو رفـض فكـرة الله وصنع الخير أو الشر. وكما في حالة النزعة الوطنية ليس ثمة صـراع بـين الـدين والديمقراطيـة الليبراليـة إلا حـين يكـون الـدين ضـد التسـامح والمساواة. وقد أشـار صـامويل هنتينجتـون إلى أن معظـم الـديمقراطيات الجديدة منذ عام ١٩٧٠م هي دول كاثوليكية؛ فقـد يبـدو أن الـدين مـن بعض الوجوه ليس بعقبة في سبيل إقامة الديمقراطية بل هو حافز عليهـا. وقد تمكن (باسكال)، بعد أن ضحى بالرياضيات، من كتابة ما يعتبر مـن أعمق التأملات الروحيـة في الـتراث الغربـي. إن كـثيراً مـن الشـباب في

المجتمعات الديمقراطية الحديثة يريـدون انتقـاء عقيـدة، ويريـدون التزامـاً بقيم أعمق من مجرد الليبرالية ذاتها؛ كتلك القيم الـتي توفرهـا الـديانات التقليدية، وأمامهم اختيارات يحتارون في الأخذ بأي منهـا؛ فبوسـعهم أن يكونوا مسـلمين، أو بـوذيين، أو مـن المـؤمنين بالصـوفية، أو مـن أتبـاع هيركريشنا أو لينـدون لاروش، ناهيـك عـن الكاثوليكيـة أو المعمدانيـة. وقد تمثـل العقيـدة الدينيـة حـافزاً للتنميـة الاقتصـادية أو عقبـة دونهـا؛ فالهندوسية لا تقوم على أسس نظريـة تقـوم علـى المسـاواة العامـة بـين البشر، بل تقسمهم إلى سلسلة معقدة من الطبقات وتحدد حقوق أفرادها وامتيازاتهم وأسلوب عيشهم؛ فهي قوة عارمة تـدفع المجتمـع إلى التبلّـد؛ حسب جونار ميردال. وأما اليهودية الأرثوذكسـية والإسـلام الأصـولي فهما ديانتان شموليتان تسعيان إلى تنظيم كل مظاهر الحياة البشرية، عامة كانت أو خاصة، بما في ذلك المجال السياسي.

وقد تتفق هاتان الديانتان مع الديمقراطية؛ فالإسلام بالـذات لا يقـل عن المسيحية تمسكاً بمبدأ المساواة بين الناس عامة، غير أنـه مـن الصـعب جداً أن نوفق بين هاتين الـديانتين وبـين الليبراليـة والاعـتراف بـالحقوق الـعامة، خاصة حرية الضمير والدين. إن معظم أقطار العـالم الإسـلامي لم تتمثل الواردات الغربية ولا هي حققت النجاح السياسـي أو الاقتصـادي الذي تطلّع إليه دعـاة الحداثـة في القـرن التاسـع عشـر وبـدايات القـرن العشرين، كذلك فإنه ما من مجتمـع إسـلامي تمكـن مـن تحـدّي الغـرب عسكرياً أو اقتصادياً، بل إن كـثيراً منهـا ظـل تابعـاً للاسـتعمار الغربـي

خلال الحرب العالمية الثانية، ولم تكن حركة إحياء الأصولية الإسلامية التي ظهرت مع الثورة الإسلامية عامي (١٩٧٨م، ١٩٧٩م) مجرد حالة من حالات استمرار القيم التقليدية في العصر الحديث، ذلك أنه كان قد سبق خلال مئة العام الماضية أن ألحقت الهزيمة الساحقة بهذه القيم العفنة المتهاونة، وإن كانت حركة الإحياء هذه تأكيداً جديداً للحنين إلى مجموعة من القيم أكثر عراقة ونقاء، يقال: إنها كانت قائمة في الماضي البعيد، وأنها غير القيم التقليدية للماضي القريب التي ثبت فسادها، وغير القيم الغربية التي نقلت إلى الشرق الأوسط في صورة شوهاء. وفي كل هذا نرى تشابهاً، أكثر من أن يكون سطحياً، بين الأصولية الإسلامية والنازية الأوروبية، فلا غرابة أن نجد الإحياء الأصولي يطل برأسه في إحدى صوره في الدول التي نخالُها أكثرَ عصريةً من غيرها. ولا يمكن إدراك قوة الإحياء الإسلامي إلا إذا أدركنا عمق الجرح الذي أصاب كبرياء المجتمع الإسلامي؛ بسبب فشله المزدوج في الحفاظ على تماسك المجتمع التقليدي والتمكن من تمثل تقنيات الغرب وقيمه.

- **خاتم البشر:**

عند هيجل: ستزول علاقة التناقض بين السيد والعبد بأن تجعل الدولة العبيد السابقين سادة أنفسهم؛ فلن يعود السيد معترفاً به فقط من جانب كائنات هي بشكل ما أقل من الآدميين، ولن يعود العبيد غير المعترف بآدميتهم على الإطلاق، وبدلاً من ذلك سيكون كل فرد حراً وداعياً بقدر ذاته ومعترفاً بكل فرد آخر. أما ماركس فيُنكر أن يكون

الاعتراف تاماً بسبب وجود الطبقات الاقتصادية. لكن عند (نيتشه) فإن المخلوق الذي سيظهر في نهاية التاريخ هو خاتم البشر، وهو في جوهره العبد الظافر، ولا تمثل الدولة الليبرالية الديمقراطية توفيقاً بين أخلاقيات السادة وأخلاقيات العبيد كما ذكر هيجل وإنما تمثل انتصاراً للعبد غير مشروط. إن خاتم البشر في نهاية التاريخ يعلم جيداً أن من العبث المخاطرة بحياته من أجل قضيته؛ حيث إنه يدرك أن التاريخ مليء بالمعارك التي لم يكن ثمة مبرر لها، حيث اقتتل فيها الناس حول ما إذا كان ينبغي على الإنسان أن يكون مسيحياً أو مسلماً، بروستانتياً أو كاثوليكياً، ألمانياً أو فرنسياً. وقد أثبت التاريخ اللاحق أن الولاءات التي دفعت الناس إلى القيام بأعمال إرهابية ملؤها الشجاعة والتضحية هي مجرد تعصب أحمق. أما من تلقوا تعليماً حديثاً فقانعون بالبقاء في بيوتهم، فخورون بسعة أفقهم وبعدهم عن التعصب. أو كما يقول نيتشه على لسان زرادشت «لهذا كله، قل: واقعيون نحن بغير إيمان وبغير خرافة، فابسطوا صدوركم.. ولكن وا أسفاه: صدور خاوية!».

إن زرادشت حين أخبر الجموع بشأن خاتم البشر، صيح به: «آتنا بخاتم البشر هذا، حوِّلنا حتى نكون مثله»؛ فحياة خاتم البشر حياة الأمن والوفرة الماديين، وهو ما يميل السياسيون الغربيون إلى أن يعِدوا الناخبين به؛ فهل كان هذا هو هدف الحياة البشرية خلال آلاف السنين الماضية؟ ألا ينبغي علينا أن نخاف عاقبة السعادة والرضا بوضعنا بعد أن نكف عن أن نكون بشراً ونصبح حيوانات من جنس الإنسان العاقل، أم أن

الخطر يتمثل في أننا سنكون سعداء على مستوى معين وساخطين على أنفسنا على مستوى آخر؛ فنكون من ثم على استعداد للعودة بالعالم إلى التاريخ بكل ما فيه من حروب ومظالم وثورات؟

القسم الثاني: أفكار داعمة:

- **الاعتراف والتقدير والرغبة (الثيموس):**

ذهب هيجل إلى أن المحرك الرئيس لتاريخ البشر هو الحافز من أجل نيل الاعتراف والتقدير، وليس العلوم الطبيعية الحديثة ولا الاقتصاد، وخالفه (هوبز) فاعتبرها، إضافة إلى احتقار الإنسان النبيل لمجرد الحياة، هما مصدر شقاء الإنسان. لقد قرر هيجل أن الفرد لا يمكنه أن يعي ذاته ككائن بشري منفصل إلا إذا اعترف به الآخرون؛ فهو يرغب أن يرغبه الآخرون، لذلك فإن الاستعداد للمخاطرة بالحياة في معركة من أجل المنزلة الخالصة هو أهم خاصية للبشر، ولا تظهر الحرية البشرية إلا حين يكون بوسع الإنسان أن يتجاوز وجوده الطبيعي والحيواني وأن يخلق لنفسه ذاتاً جديدة تستحق أن يصارع من أجلها للحصول على الاعتراف والتقدير. لقد تحدث أفلاطون عن الثيموس (أي الهمة والشجاعة والرغبة)، وميكافيللي عن تعطش الإنسان إلى المجد، وهوبز عن كبريائه وغروره، وروسو عن أنانيته، وألكسندر هاملتون عن حبه للشهرة، وجيمس ماديسون عن الطموح، وهيجل عن الاعتراف. كل هذه الصفات تشير إلى ذلك الجانب من الإنسان الذي يشعر بالحاجة إلى إسباغ القيمة على نفسه وتقييم الناس له، وهذا هو المصدر الرئيس

لعواطف الكبرياء والغضب والخجل. إن الناس يسعون إلى تحسين أحوالهم فيلجون خِضَمَّ العمل الشاق؛ فلماذا يفعلون ذلك؟ إنها رغبتهم في أن يلاحظهم الآخرون، إنها الخيلاء، لا الراحة ولا اللذة. ففي الولايات المتحدة، الإحساس بالكرامة المتولدة من: التمتع بالحرية والاكتفاء الذاتي والاحترام والاعتراف- جعلت حد الفقر الرسمي يمثل مستوى للمعيشة أعلى بكثير من مستوى معيشة الأغنياء في بعض دول العالم الثالث، عكس الفقراء الأمريكيين؛ فإن إحساسهم بقيمتهم الذاتية يصادف يومياً من الإذلال ما يفوق ما يلقاه غيرهم، ولذلك فإن الرغبة في التحرر من الرق هي السبب الحقيقي وراء الحرب الأهلية الأمريكية التي راح ضحيتها ٦٠٠ ألف رجل من مجموع السكان آنذاك البالغ ٣١ مليوناً. وليس ذلك بعجيب لأن العقل والرغبة هما دائماً جزآن من الروح مستقلان عن الثيموس.

إن أحداثاً عارضة لأشخاص تستثير فيهم معاني الاعتراف والتقدير قد ينشأ عنها تغييرات في مسار الأمم، كما حصل في تشيكوسلوفاكيا ورومانيا وبولندا والاتحاد السوفييتي. وقد كان مفهوم المجد والاعتراف والتقدير محوراً رئيساً في تفكير نيكولو ميكافيللي؛ فمن أقواله: «خير لك أن تكون مرهوباً من أن تكون محبوباً» أو «إنه لا ينبغي للمرء أن يلتزم بما وعد إلا إن كان الالتزام في صالحه». وقد سعى هوبز ولوك، مؤسسا الليبرالية الحديثة، إلى استئصال الميجالوثيميا (الرغبة في الاعتراف والتفوق على الآخرين وتضخيم الذات) من الحياة السياسية باعتبارها

صورة من الكبرياء العنيف لدى الأمراء أو من التعصب الديني لدى القساوسة. وقد عارضهما س. س. لويس لأن المجتمع الحديث سيصبح حينئذٍ مكوناً من أناس لا صدور لهم، لا يعرفون غير الرغبة والعقل، ويفتقرون إلى تأكيد الذات القائم على الكبرياء الذي هو محور إنسانية البشر في العصور السالفة. وقد اعتبر زرادشت أن الإنسان وحده هو الذي يقيم الأشياء للحفاظ على نفسه وهو الذي خلق معانيها. إن التغيرات الاجتماعية التي تصحب التصنيع السريع، وخاصة التعليم، تطلق من عقالها المطالبة بالاعتراف، والتي لم تكن قائمة لدى أناس أشد فقراً وأقل حظاً من التعليم فيصبحون أكثر غنى وأفضل تعليماً؛ فتتسع مطالبتهم لتشمل الاعتراف بمركزهم، كما أن الرغبة في نيل الاعتراف ستكون عندهم مصدراً سيكولوجياً لعاطفتين: الدين والوطنية، لكن ماذا عن عالم ما بعد التاريخ؟ إن ذاك العالم؛ عالم تفوقت فيه الرغبة في الحياة المريحة والحفاظ على النفس على الرغبة في المخاطرة بالحياة في المعارك من أجل المنزلة الخالصة- هو عالم حلّ فيه الاعتراف العام والعقلاني محل الصراع من أجل الهيمنة.

- **السيد والعبد:**

السيد قد يكون أكثر إنسانية من العبد بالنظر إلى استعداده للتغلب على طبيعته البيولوجية من أجل هدف غير بيولوجي وهو نيل الاعتراف، فهو يخاطر بحياته ليثبت أنه حر. وهنا تكمن مأساته، كما أنه يبقى على مر الزمان دون تغيير جذري لأنه ليس بحاجة إلى العمل؛

لأن لديه عبداً يعمل نيابة عنه، لـذا تبقـى حياتـه سـاكنة قوامهـا الفـراغ والاستهلاك وتنشأ الإمبريالية (أي هيمنة مجتمع بالقوة على مجتمع آخـر) بصورة مباشرة عن رغبة السيد الأرستقراطي في نيل الاعـتراف بتفوقـه. وتشكل رغبةُ السادة في نيل الاعتراف، وليس بناء نظام الدولـة، السـببَ الأصلي للحروب، ولـذا فـإن الديمقراطيـة والحـروب مرتبطتـان بطبقـة اجتماعية معينة هي طبقة السادة المعروفة باسم الأرستقراطية. أمـا العبـد فيأخذ بنصيحة هوبز ويستسلم لخوفه مـن القتل في حلبة الصـراع فيظـل حيواناً خائفاً محروماً. وهـو أيضـاً غـير راضٍ، لكنـه عـن طريـق العمـل يستعيد إنسانيته التي فقـدها خوفـاً مـن القتـل. ويكتشـف العبـد بفضـل العلم والتقنية أنه يستطيع تغيير الطبيعة، لا البيئة الطبيعية التي ولـد فيهـا فحسب، وإنما طبيعته هو أيضاً. إنه يدرك فكرة الحرية مـن خـلال عملـه في خدمة سيده حين يتبين أنه -باعتباره كائناً بشرياً- قـادر علـى العمـل الخلاق الحر. إن سيطرته على الطبيعة هي المفتاح لفهمه لفكـرة السيادة، فيطرح صوراً عديدة مبدئية عن الحرية قبـل أن يتبنـى الصـورة الحقيقيـة وهي المسيحية، (الدين المطلق)، رغم أنها في الحقيقة تخالف الصـواب في جوانب حيوية معينة؛ فهي ترى أن تحقيق الحرية الإنسانية لـن يـتم علـى الأرض بل في ملكوت السماء، فهي انتهـت بـدعوة العبيـد في عالمنـا إلى تقبّل عبوديتهم؛ بإخبارهم ألا يتوقعـوا تحريـرهم في هـذه الحيـاة الـدنيا. ويـذهب هيجـل إلى أن المسـيح لم يـدرك أن الله لم يخلـق الإنسـان وإنمـا الإنسان هو الذي خلق الله من قبيل إسقاط فكرة الحريـة عليـه، غـير أن المسيحي انتقل بعد ذلك إلى أن جعل من نفسـه عبـداً لهـذا الإلـه الـذي

خلقه الإنسان نفسه، وتقبّل حياة العبودية على الأرض معتقداً أن الله سيعتقه فيما بعد؛ فالمسيحية صورة جديدة للعبودية يجعل الإنسان نفسه بمقتضاها عبداً لشيء من خلقه هو فيصبح منقسماً على نفسه.

- **العلم الحديث والتقنية:**

إن قدرة التقنية (التكنولوجيا) على الارتقاء بالحياة البشرية تتوقف بشكل حاسم على حدوث تقدم موازٍ في أخلاق البشر، فهتلر وستالين وضعاها في خدمة الشر. إن العقل السليم المثقف يحوي كافة عقول أناس القرون الماضية ولن يعرف الشيخوخة. فالعلوم الطبيعية الحديثة مفتاح لغائية التاريخ بإجماع الناس، ولا ينطبق هذا الوصف على نشاطات، مثل: فنون الرسم، والشعر، والموسيقى، والمعمار؛ لأن هذه النشاطات متعلقة بنزوات البشر، أما العلوم الطبيعية فلا. إن خطر الحرب يضطر الدول إلى إعادة بناء أنظمتها الاجتماعية بحيث تكون أكثر فعالية في إنتاج التقنية واستخدامها، وقد تطمع الدولة لحماية نفسها في تبنّي تقنية أعدائها ومنافسيها؛ فالحروب مدعاة لتطوير التقنية، وتطوير التقنية يمنح قوة نفسية لخوض الحروب، وكذا لتبنّي الإصلاح كما حصل لفرنسا في عهد لويس الثالث عشر، وإسبانيا في عهد فيليب الثاني، ولليابان، وللإمبراطورية العثمانية. إن استمرار الحروب والتنافس العسكري (الذي تغذّيه التقنية) بين الأمم من العوامل الكبرى لتوحيدها؛ فمع كونها تؤدي إلى الدمار لكنها تجبر الدول على قبول الحضارة التقنية الحديثة والهياكل الاجتماعية التي تدعمها، كما أنها

تحدث تغييرات تاريخية غائبة هي التذليل الدائب والمرحلي للطبيعة بهدف إشباع الاحتياجات الإنسانية وهو ما نسميه التنمية الاقتصادية، وإننا لن نجد سلالة بشرية واحدة إلا وترتبط بسلالات البشر الأخرى من خلال الصلات الاقتصادية العالمية التي يخلقها الاستهلاك الحديث. إن منطق العلوم الطبيعية الحديثة يميل بالمجتمعات البشرية صوب الرأسمالية بقدر ما يتسنى للبشر رؤية مصالحهم الاقتصادية الذاتية بوضوح، إن التعقيد التقني والتطور السريع سيقوي طبقة المديرين (الاقتصاديين) على حساب الأيديولوجيين والمتشددين في العقيدة.

لقد فرض المنهج العلمي نفسه؛ فهل بوسع البشرية عكس مسار التاريخ الغائي برفض هذا المنهج أو فقدانه ولفظ العلوم الطبيعية الحديثة؟ وهل يمكن حدوث ذلك بكارثة كونية مروعة؟ لقد رفضت جماعات عديدة هذا المنهج، منها: الأصولية الإسلامية، وآية الله الخميني، والحركات الداعية للحفاظ على البيئة. وأما حدوث كارثة مروعة كحرب عالمية نووية فليس محتملاً أو هو احتمال ضعيف، لكن يبقى معلوماً أن منطق العلوم الطبيعية الحديثة لا يملك قوة في حد ذاته مستقلة عن البشر الذين يريدون استخدام العلوم لتذليل الطبيعة من أجل إشباع احتياجاتهم أو تأمين أنفسهم من أخطارها؛ فالعلوم بحد ذاتها (سواء في صورة الإنتاج الآلي أو التنظيم المنطقي للعمالة) لا تخلق غير الإمكانات التقنية. لكن تبقى العلوم الطبيعية الحصن الحصين في وجه إعادة التاريخ والعودة إلى وضع الإنسان الأول. ويبقى سؤالنا المهم هو: هل تؤدي

آلية العلوم الطبيعية الحديثة إلى ديمقراطية ليبرالية؟ الجواب: نعم! لأن البواعث وراء اختيار الديمقراطية ليست اقتصادية في أساسها (لكنها موجودة بقوة)؛ إذ لها مصدر آخر وهو ما يسهله التصنيع دون أن يجعله حتمياً.

- **نظرية التحدث:**

هي ثمرة جهد جماعي نهض به فريق من علماء الاجتماع، معظمهم أمريكيون، عقب الحرب العالمية الثانية، وهي نظرية تدين بالكثير لمؤلفات ماركس وآراء عالِمي الاجتماع فيبر ودوركهايم، وتذهب إلى أن التطور الصناعي، نمطاً متناسقاً من النمو، سيؤدي في النهاية إلى ظهور بنى اجتماعية وسياسية معينة متشابهة فيما بينها في مختلف الدول والحضارات. وجميعهم متفقون على أن التاريخ غائي في اتجاه الديمقراطية الليبرالية في الدول الصناعية المتقدمة. بيد أن نظرية التحديث، كسائر النظريات الاقتصادية في مجال التاريخ، غيرُ كافية تماماً؛ فهي صحيحة بقدر ما يكون الإنسان كائناً اقتصادياً تتحكم فيه مقتضيات النمو الاقتصادي والمنطق الصناعي، غير أن ثمة مظاهر أخرى للبواعث البشرية لا صلة لها بالاقتصاد؛ حيث تجد جذور فترات الانقطاع في التاريخ وأغلب الحروب بين البشر، ومن اللازم أن يكون (أي التاريخ) عالمياً حقيقياً قادراً على تفسير الانقطاعات والاتجاهات غير المتوقعة إلى جانب تفسيره لاتجاهات التطور العريضة المتراكمة. غير أن نظرية التحديث سقطت فيما بعد ضحيةَ اتهامها بأنها عنصرية

الطابع، أي أنها ترفع من قدر تجارب أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية في التنمية إلى مصاف الحقيقة العالمية دون إدراك منها بأنها هي نفسها رهن حضارة معينة. لقد وجدت بلدان مثل: اليابان، وسنغافورة، وهونج كونج ذات المساحات الضئيلة من الأرض والأعداد المحدودة من السكان، والتي بدون مصادر طبيعية للثروة، وجدت نفسها في وضع اقتصادي تحسد عليه دونما حاجة تدفعها إلى اللجوء إلى الإمبريالية لزيادة ثروتها؛ فأصبحت اليابان، مثلاً، في ظرف جيل أو جيلين منافسة لأمريكا في ميادين التقنية الراقية، وكذلك فإن دولاً مثل: تايلند، وماليزيا، دخلت ميدان التنمية متأخرة عن اليابان وكوريا الجنوبية لا تعاني أية خسارة نتيجة ذلك.

- **القومية:**

القومية ظاهرة حديثة بالنظر إلى أنها تُحِل محلَّ العلاقة بين السيد والعبد علاقةً من الاعتراف المتبادل على أساس المساواة، غير أنها ليست علاقة عقلانية تماماً؛ لأنها لا تضفي الاعتراف إلا على الأعضاء في جماعة وطنية أو عرقية معينة. ومتى أطلت القومية برأسها صارت تمثل قوة في التاريخ هي من الضخامة بحيث لا يمكن لأية أشكال أخرى من الانتماء، كالدين أو الأيديولوجيا، صدها، وهي كالدين لا خوف عليها من الاندثار. وقد كانت القوميات في أوروبا شديدة التداخل، خاصة في شرق وجنوب شرق القارة، وكان استقلال بعضها عن بعض في صورة دول قومية مصدراً خطيراً للصراع. وهناك الكثير من المجتمعات

الليبرالية في الظاهر امتزجت بها نزعة قومية متعصبة أفسدت رونقها. وقد كانت الأمم التي نشأت نتيجة القومية الحديثة تقوم إلى حد كبير على التقسيمات اللغوية الطبيعية السائدة قبل نشوء القومية. والواقع أن أوروبا، وهي المنطقة التي عانت أكثر من غيرها من ويل الانفعالات القومية، هي المنطقة التي تشهد اليوم أكبر انحسار للقومية في صورتها البدائية الحادة. صحيح أن الاتحاد الأوروبي لم يُلغِ الاختلافات القومية، وأنه يجد صعوبة في تأسيس أجهزة تعلو سيادتها سيادة الدول الأعضاء كما كان يأمل أصحاب المشروع، غير أن المشاعر القومية التي تظهر في الاتحاد الأوروبي بصدد مسائل مثل السياسة الزراعية أو الاتحاد النقدي، قد أضحت الآن خافتة بين العامة بشكل ملحوظ، وبعيدة تماماً عن القوة التي تسببت في حربين عالميتين. ومنذ سقوط هتلر لم تنظر أية قومية أوروبية غربية إلى الهيمنة على القوميات الأخرى باعتبارها مفتاح هويتها، وإنما نهجت نهج أتاتورك، فارتأت أن رسالتها هي تعزيز الهوية القومية وتطهيرها داخل وطنها التقليدي. غير أن المظاهر الجديدة للقومية نجد أولاً أن أشدها حدة سيظهر بصفة أساسية في أقل أجزاء أوروبا حداثة، خاصة في البلقان والمناطق القريبة منها. ثانياً: إننا نجد أن تأثير الصراعات القومية الجديدة على السلام وأمن الحدود في أوروبا والعالم سيكون أقل بكثير من تأثيرها عام ١٩١٤م حين تسبب أحد القوميين الصرب في إطلاق شرارة الحرب العالمية الأولى باغتياله ولي عهد الإمبراطورية النمساوية المجرية. ثالثاً: من المهم أن نلاحظ أن الطابع الانتقالي للصراعات القومية الجديدة التي نراها الآن في أوروبا الشرقية

وروسيا والجمهوريات المستقلة، هي بمثابة آلام المخاض لنظام جديد في تلك المنطقة، هو بصفة عامة أكثر ديمقراطية، ونتوقع أن تصبح تلك الدول ديمقراطيات ليبرالية، وأن تنضج قومياتها فتنتهج نهج (التريك) كما فعلت أوروبا الغربية.

- **الواقعية:**

المبشر الحقيقي للواقعية هو مكيافيللي؛ إذ كان يرى أن على الناس أن يهتموا بكيفية حياتهم هم في الوقع، وبأن على خير الدول أن تتبنى سياسات أسوأ الدول إن هي أرادت البقاء. إن نقطة البداية في كل النظريات الواقعية هي افتراض أن الافتقار إلى الإحساس بالأمن من الحرب والعدوان هو المظهر الدائم للنظام الدولي. فحين لا يكون ثمة حاكم للعالم تظل كل دولة عرضة للخطر من قبل كل دولة أخرى، ولن يكون هناك علاج للإحساس بعدم الأمن إلا باستخدامها السلاح للدفاع عن نفسها. وهذا الإحساس بالخطر حتمي إلى حد ما؛ حيث إن كل دولة ستسيء فهم الأعمال الدفاعية للدول الأخرى وتفسرها على أنها تهددها، فتتخذ إجراءات عدوانية، وبذا يصبح الخطر نبوءة ذاتية التحقيق؛ فإنْ تساوى الحافز من أجل القوة في جوهره لدى كافة الدول فلن يكون العامل الحقيقي الذي يحدد احتمال نشوب الحرب هو السلوك العدواني لدولة معينة، بل ما إذا كانت القوى متوازنة أو غير متوازنة داخل النظام الدولي الذي بطبيعته يخلق حوافز قوية على العدوان. وقد تتخذ الواقعية صورة (وصف) للسياسة الدولية

أو (وصفة) لكيفية إدارة الدول لسياستها الخارجية، وتنبع قيمة الوصفة الواقعية من دقة وصفها ومن قواعدها؛ والتي من أبرزها:

(١) أن الحل النهائي لمشكلة الافتقار للأمن الدولي هو في الحفاظ على ميزات القوى ضد الأعداء المحتملين.

(٢) أن اختيار الأصدقاء والأعداء يجب أن يكون على ضوء مدى قوتهم لا على ضوء الأيديولوجيا أو طابع النظام الداخلي.

(٣) أن على السياسيين حين يقيِّمون الأخطار الخارجية أن يدرسوا بعناية أكبر القدرات العسكرية لا النوايا.

(٤) استبعاد النزعة الأخلاقية من السياسة الخارجية.

إن من أبرز الواقعيين ميترنيخ، وكذا كيسنجر صاحب فكرة فك الاشتباك بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي في أوائل السبعينيات؛ وهو فك اشتباك بين الديمقراطية الليبرالية وبين نظام شمولي يأبى إدخال أي إصلاح في مؤسساته. لكن ينبغي أن يعلم أن الأساس النهائي للحرب بين الدول هو الثيموس لا الحفاظ على الذات. إن الشرعية الدولية قد أصبحت قوة واقعية؛ فعندما لم تعد بريطانيا للاستعمار فإنها تكون بذلك قد قبلت حكم العالم الحديث بأن الاستعمار هو صورة غير مشروعة للهيمنة (قلت: لكن مشاركتها في احتلال أفغانستان والعراق يدحض ذلك)؛ فالشرعية تمثل قوة الضعفاء (ويحتج بها الأقوياء لتنفيذ مآربهم)، وعندما تضيع الشرعية يسهل

التحرك. فلما ضاعت سمعة النظام الشيوعي في دولة إثر دولة مـن دول أوروبا الشرقية، تحللـت رابطـة حلـف وارسـو بسـرعة أكـبر ممـا كانـت ستتحلل بهـا في حمـى حـرب حقيقيـة.(قلـت: وكـذا ضـربت أمريكـا بالشرعية الدولية عرض الحائط واحتلت العراق).

المبحث الثاني

القسم الأول: مبادئ عامة:

سأذكر ستة مبادئ عامة تتعلق بمنظار النظر إلى هذه الأفكار النظرية وغيرها مما يطرحه الغربيون أو سواهم، سواء من غير المسلمين أو من المتأثرين بهم.

أولاً: محدودية العقل البشري:

إن الصياغات العقلية والتخيلية للمنتج الذهني البشري هي محصلة لإعادة تشكيل المدخلات البصرية والسمعية والحسية والعاطفية في صور وتصورات وأفكار كثيرة جداً قابلةً للتجديد باستمرار كلما ازدادت أعداد المدخلات وامتزجت مع ما قبلها؛ مما تحتفظ به الذاكرة البشرية وتتمكن من استدعائه سواء بحضور مباشر أو باسترجاع تذكاري، وضمن هذه الدائرة تكون المساءلة. قال -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]. وبهذا الاعتبار فإن القدرة العقلية البشرية محدودة بهذه المحددات التي ذكرتها، وهي متفاوتة من شخص لآخر. إن النظر في القضايا الكلية المتعلقة بالمسيرة البشرية ذات طابع لا بد أن يتسم بالإحاطة الشمولية المستوعبة لكل التفاصيل والجزئيات، سواء بذاتها أو بآثارها. وهذا ليس إلا لله عز

وجل. قال -تعالى-: ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس: ١٢].

فمن الخطأ، لمن كان غير متصل بالمنهج الإلهي، أن يخوض في هذه القضايا؛ لأنه كمن يريد قيادة القارب بدون مجاديف ولا قوة دافعة. إن فرانسيس فوكوياما قد خاض في كتابه (نهاية التاريخ) في بحر لُجّي يتعلق بمناهج المسيرة البشرية عبر التاريخ من غير هدى ولا كتاب منير، إلا ما اعتمد عليه من عقله ومن الفلاسفة الغابرين ممن هم أيضاً مقطوعة حبالهم عن مصادر التلقي للحقائق الكبرى والوقائع العظمى. فلا غرو لمن كان هذا حاله أن تأتي أحكامه مبتوتة الصلة عن المضامين الحقة. نعم! قد يصيب في بعض التفاصيل، غير أن غياب الخطوط العريضة، في منهج البحث، عن مكامن التنزيل تجعل إلحاقها بالقضايا الشاملة في غير موضعه. إن العقل البشري لا يأخذ اتساع آفاقه إلا من خلال الرجوع إلى منابع العلم والمعرفة.

ثانياً: منابع العلم والمعرفة:

إن منابع العلم الحقيقي والمعرفة الصادقة هي ما توافقت عليه الأمة الإسلامية، وهي الكتاب والسنة والإجماع، وإن الخبرة البشرية لها حظها من كونها منبعاً للعلم والمعرفة بقدر توافقها مع ما ذكرت. ومن ثم فإن كل نظرية أو دراسة لا تستنير بذلك فإنها تأتي كخبط عشواء، فغالباً ما تخطىء وقليلاً ما تصيب. قال -تعالى-: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى

ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ [الحج: ٨- ٩].

إن مبثوثات الكون من سموات وأرض وما بينهما ومن ملائكة وإنس وجن ونبات وحيوان وجمادات ومادة وطاقة، ومن قوانين في الفيزياء والضوء والكهرباء والكيمياء والجاذبية وغيرها وارتباطات في الزمان والمكان، مع تغيراتها وعلاقاتها اللحظية منذ أن خلق الله الخلق وإلى مدى الزمان -هي مما له أثر بالغ في الواقع البشري. فمن لم يكن له علم بكل ذلك فلا يجوز له أن ينصِّب نفسه منظِّراً للمسيرة البشرية ومتنبئاً بمآلاتها. ولما كان الذي ذكرته كله لله، وهو الواحد الأحد الذي يحيط بكل ذلك لأنه هو الذي خلقه، فإن الخطوط العريضة لفهمه (أي الواقع البشري) لا تكون إلا من خلال كتابه عز وجل. قال -تعالى-: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، ومن خلال سنة نبيه المفسرة والمفصلة لما جاء فيه. قال -تعالى-: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤].

ثالثاً: تقييم الخبرات البشرية:

إن الخبرات البشرية لها حظها التراكمي من التقييم والدراسة والبحث، فيستفيد كل جيل من خبرات سابقيه. ويمكن أن تُقسَّم هذه

الخبرات إلى قسمين رئيسين، الأول: يصب في بحيرة الخير، والآخر: في بحيرة الشر، ولكل منهما اتصال بالقيم والمباديء من جهة وبالممارسة والمباشرة من جهة ثانية. وكل يغترف مما يشاء؛ فمن كان ساحله على بحيرة الخير اغترف منها، ومن كان ساحله على بحيرة الشر اغترف منها، ومن كان ساحله بينهما اغترف منهما. إن بحيرة الخير هي دين الإسلام وهي مغترف الأنبياء وأتباعهم. قال -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٩].

هذه البحيرة مفعمة بالخبرات البشرية الخيِّرة النافعة للناس على مدى الدهور. أما بحيرة الشر فهي ما كان خارجاً عن دين الإسلام ومعارضاً له. ومن كان بينهما؛ فإن كان مسلماً فمُعظَم اغترافه من بحيرة الخير وقليله من بحيرة الشر، وإن كان غير مسلم فالعكس. فمن أراد أن يأخذ شيئاً من الخبرات البشرية من غير المسلمين فليغترف مما كان في دلائها مما اغترفت من الخير ويدع ما اغترفت من الشر.

رابعاً: الوحدات والشموليات:

قال -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥]. إن المفردة، أي الوحدة (وهي شيء) تمثل الأصل لكل عنصر بحسبه. ثم إن الوحدة مع وحدة أخرى تمثل شيئاً جديداً، ثم مع وحدة ثالثة تنتج شيئاً ثالثاً...، وهكذا. ثم كل شيء جديد ينتج من اجتماع الوحدات فإنه يلتقي في علاقة ما مع الوحدات المفردة وكذا مع

الأشياء الأخرى التي نتجت من اجتماع الوحدات الأخرى، وهكذا حتى تتشكل الشموليات من مجموع الأشياء المتكونة من الوحدات. فالذرة من عنصر ما مع ذرة من عنصر آخر تنتج جزيئاً، ثم الجزيء مع جزيئات أخرى يشكل مادة معينة ذات خصائص، ثم من مجموعها تتشكل النباتات والحيوانات والبحيرات وغيرها، وهكذا ننتقل إلى كوكب الأرض ثم المجموعة الشمسية ثم المجرة ثم العناقيد المجرية ثم السموات... وهكذا. كذلك فإن العلاقات البشرية لها وحدات أصلية من مثل: الإيمان والصدق والأمانة وأمثالها من وحدات الخير، وكذا وحدات أصلية من مثل: الشرك والكذب والخيانة وأمثالها من وحدات الشر. ومن مجموع وحدات الخير تتشكل الحركة البنّاءة في الحياة البشرية، ومن مجموع وحدات الشر تتشكل الحركة الهدامة في الحياة البشرية، وقد أحاط الله -تعالى- بكل ذلك. إن الحركة البناءة في الحياة البشرية هي في نفس اتجاه الحركة الكونية المادية التي ذكرتها؛ فهي منسجمة معها وداعمة لها. وأما الحركة الهدامة في الحياة البشرية فتسير عكس اتجاه الحركة الكونية المادية فهي متغايرة معها ومخالفة لها. إن الحركة البناءة هي منهاج الأنبياء والمؤمنين، وأما الحركة الهدامة فهي منهاج الأشقياء والمشركين. وللأسف فقد جاء كتاب (نهاية التاريخ وخاتم البشر) في سياق الحركة الهدامة؛ فقد استجمع كثيراً من وحدات الشر التي انتشرت في طوايا القرون وقَوْلَبَها في شموليات خاطئة، فهي مخلة بالتوازن الكوني وخارجة عن انسجامه.

خامساً: سنن التغيير:

إن لله -تعالى- في خلقه سنناً ثابتة لا تتبدل ولا تتحول. قال -تعالى-: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣]. ومن هذه السنن قوله -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ﴾ [الرعد: ١١]. أي لا يغير ما هم فيه من النعمة والعافية حتى يغيروا ما بأنفسهم من طاعة الله إلى معصيته، ولا يغير ما هم فيه من الشقاء والضنك حتى يغيروا ما بأنفسهم من معصية الله إلى طاعته. ولذا فإن مناط التغيير إلى الخير في هذه الأمة مرتبط بالرجوع إلى طاعة الله واتباع سنة نبيه ﷺ، وليس باستمساكها بالديمقراطية الليبرالية كما يريد فوكوياما، وأن ذلك سنة جارية لا يحابي الله -تعالى- فيها أحداً. قال -تعالى-: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٣- ١٢٤].

سادساً: التجديد:

لا تلبث الأفكار والآراء والنظريات أن تضمر أو تتلاشى ما لم يأتِ بعد كل حين مَنْ ينفث فيها الروح فتدب فيها انتعاشة الحياة. وقد يكون التجديد في اتجاه صراط الله المستقيم، أو يكون في اتجاه خطوات الشيطان الرجيم؛ وقد أمرنا الله -تعالى- باتباع الأول، قال -تعالى-: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، ونهانا عن اتباع الطريق الثاني؛ فقال -تعالى-:

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ [الأنعام: ١٤٢]. إن تجديد حال أمة الإسلام هو من صفات هذه الأمة. قال -تعالى-: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾ [آل عمران: ١١٠]؛ فلا بد أن ينتصب منها من يقوم بهذه المهمة التجديدية. قال -تعالى-: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، لكن فوكوياما يريد التجديد في اتجاه السّبل المنهي عنها، وقد جاء كتابه نهاية التاريخ في هذا الإطار؛ إنها محاولة تجديدية لنفض الغبار عن أفكار هيجل ونيتشه وهوبز ولوك وغيرهم، إنه تجديد لمناهج الكفر والشرك.

القسم الثاني:

يتعلق هذا القسم بتسليط الضوء بشكل مقتضب ومختصر على آراء وأفكار صاحب كتاب نهاية التاريخ وذلك بحسب العناوين التي ذكرتها في بداية الدارسة، وهي قسمان:

الأول: الأفكار الرئيسة:

١ - **التاريخ ونهاية التاريخ:**

سنركز مناقشتنا وفق النقاط التالية:

* إن كان المقصود بالتاريخ ما سلف من العصور وأن نهايته هي ما بقي منها؛ فإننا من المنظور الإسلامي نطل عليه من النوافذ التالية:

أ - إن جميع الأحداث التي وعاؤها الزمن (أي ما حصل وما لم يحصل بعد) إنما هي في سياق توقيفي وليس سياقاً توفيقياً (كيفما اتفق)، أي أنها تحصل بقدر. قال -تعالى-: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]. وليس في ذلك إلغاء لفاعلية المشيئة الإنسانية، بل مشيئتها واقعة ضمن المشيئة الإلهية القدرية العامة. قال -تعالى-: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

ب - إن للأمم آجالاً كما أن للإنسان آجالاً؛ فلا تهلك أي أمة إلا باستيفاء أجلها. قال -تعالى-: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

ج - إن هلاك الأمم أو بقاءها مناط باتفاق أعمالها مع ما جاء من عند الله في أمره ونهيه أو بمخالفتها لذلك وانسياقها في أنفاق الظلم. قال -تعالى-: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

د - إن السياق القرآني في بيان إهلاك الأمم جاء في مجال بسط العظة والاعتبار لئلا يكرر التاريخ نفسه فيهم؛ فيهلكون كهلاك من سبقهم لفعلهم كفعلهم. قال -تعالى-: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١].

هـ - أن هـلاك الأمم الكافرة أو هزيمتها غالباً ما يأتيها وهي في أوج قوتهـا. قـال -تعـالى-: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَـٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦]. وقـد وقع ذلك لكـثير مـن الأمـم كمـا حصـل لفرعـون، وكما هزم الله بجنده المؤمنين فارسَ والـرومَ وهمـا في عنفـوان قوتيهمـا، وغيرهم كثير.

* إن التاريخ، إن كان يقصد بـه الـزمن، فهـو لـيس بمنتـهٍ؛ فـالأفراد بشخوصهم أو باعتبارهم شعوباً أو أمماً كلٌّ مـنهم يمـوت بأجلـه وينتهـي تاريخه الذي فوق الأرض ويبدأ تاريخه الذي هو تحتها، ثـم ينتهـي ذلـك التاريخ ببعثه ويبدأ تاريخه الجديد في المحشر، ثم ينتهي به مطافـه التـاريخي إما إلى الجنة أو إلى النار، ثم يسير معه تاريخه إلى ما لا نهاية لـه مـا دام في أي منهما، ملتصقاً به وملازماً له كالجلد للبدن لا انفكـاك بينهمـا إلا أن يشاء الله تعالى.

* وعلى ذلك يتبين لنا أن ما ذهب إليه (كانط) من أن نهاية التـاريخ هي تحقيق الحرية الإنسانية، أو ما قـرره مـاركس مـن أنهـا قيـام المجتمـع الشيوعي، أو ما شدد عليـه فوكويامـا وأكـد أنهـا الديمقراطيـة الليبراليـة حيث نهاية الحروب والعيش بسعادة ورخاء، وأن التاريخ يطير بجنـاحين هما الاقتصاد والاعتراف...، أقول: يتبين لنا أن كل ذلك ما هو إلا هرطقـة الفلاسفة ورجم بالغيب. إن كان هـؤلاء يقصـدون نهايـة التـاريخ علـى

الأرض فإن نهايتها ونهاية من عليها وكيف سيحصل ذلك وعلى أي وجه وبأي تداعيات فذلك كله غيب، وقد علمناه نحن ليس بتحليلاتنا العقلية وإنما بالأدلة النقلية. وأما ما ذهب إليه ماركس فقد دحضه التاريخ القريب واختفت الشيوعية من المجتمعات التي جثمت على صدرها لمدة سبعين عاماً. وأما الديمقراطية الليبرالية التي دعا إليها فوكوياما فإنها لا تقوى على القيام بأعباء متطلبات القيم الإنسانية لقصورها الذاتي وضمورها المعنوي (وخاصة في المجتمعات الإسلامية). وأما ما ذهب إليه هيجل من أن المحرك التاريخي هو السعي من أجل نيل الاعتراف والتقدير فهو رأي المبتوت عن منهاج الله ورسله. أما المسلم فيتمثل قوله -تعالى-: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ، وما جاء على لسان ربعي بن عامر لرستم: جئنا لنخرجكم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة؛ فهذا هو الذي حرك تاريخ المسلمين. أما تاريخ غير المسلمين فإنه تحركه المصالح وحب السيطرة ليس لمجرد نيل الاعتراف والتقدير بل لإشباع دواعي الطمع والابتزاز كذلك.

٢ - مناصرة وتبنّي الديمقراطية الليبرالية:

إن العناصر الرئيسة تحت هذا العنوان والتي تحدث عنها فوكوياما هي:

* الدعوة إلى الديمقراطية الليبرالية.

* مفهوم الحرية.

وسأتناول الرد على كل منها وفق نقاط محددة كما يلي:

أولاً: الدعوة إلى الديمقراطية الليبرالية:

لا نعجب من دعوة أي إنسان غير مسلم لأي نظام حياتي يختاره طالما أن البشرية لا تنتظم مسالك حياتها إلا بالاتفاق على منهج ينظم شؤونها وعلاقاتها؛ فلا غرو أن يدعو فوكوياما أو غيره إلى الديمقراطية طالما أنهم يفتقرون إلى منهج إلهي يسيرون على هديه. صحيح أنهم مطالَبون بالإسلام، ولو دخلوه لوجدوا ضالتهم، لكنهم لا يعترفون به من الأساس، ثم يقولون: إن العالم اليوم لا يملك أي بديل لديمقراطيتهم. لكننا نعجب من المسلمين الذين بين أيديهم منهاج الله -تعالى- ثم يتركونه وراءهم ظهرياً ويلهثون وراء ديمقراطية فوكوياما وأحزابه. إن الإسلام نسيج وحده، دين كامل وتام. قال -تعالى-: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. وقد أمرنا الله -تعالى- بأخذه كاملاً كما هو، لا نزيد عليه ولا ننقص منه ولا نرقع فيه. قال -تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨]. إن حق التشريع حق إلهي؛ لأنه هو الذي خلق البشر وهو أعلم بهم وباحتياجاتهم من أنفسهم، لكن الليبرالية تجعل حق التشريع للبشر؛ فيكون البرلمان حينئذٍ هو الإله. وقد عبر فوكوياما عن ذلك بوضوح عندما قال: «إن الدولة الديمقراطية الليبرالية الحديثة هي اعتراف بأن

الإنسان هو الذي خلق الإله المسيحي، وأنه قادر على أن يأتي بالله إلى الأرض ليقيم في مبنى البرلمان». وطالما أن الديمقراطية الليبرالية خلقها البشر كما يقول فهي إذاً تحمل في طياتها النقص البشري ومحدودية نظرته للإنسان وطبيعته، وكذلك فهي منصة الأغنياء والوجهاء ليشرعوا القوانين ويسنّوا اللوائح التي تحفظ لهم امتيازاتهم؛ فهي لا تلغي الفرق بين السادة والعبيد، بل تزيد الأعباء الاقتصادية على الطبقة الوسطى وما دونها لصالح رخاء الطبقة الراقية، فهي ليست أفضل الطرق للرخاء كما زعم فوكوياما. فإذا كانت الديمقراطية في بلد بعينه لا تتمكن من الإلغاء الحقيقي للطغيان والاستبداد؛ فكيف ستلغيه على المستوى العالمي لِيسود الوئام وتلغى الحروب؟! إنها مجرد أمنية لسيادة الديمقراطية الليبرالية لتتسيد العالم في نهاية التاريخ بدون منافسين باعتبارها أيديولوجية متناسقة على حد زعم فوكوياما. كيف تكون متناسقة وهي تشرع باسم الشعب ما ليس دائماً هو حقاً في مصحلته؟! إن هذه المواصفات تسقط حتمية الانتماء إليها على الوجه الذي قرره فوكوياما بقوله: إن لم يكن في هذا الجيل ففي ما يتلو من الأجيال. إن تنامي الدول التي دخلت في المظلة الديمقراطية لا يدل على أنها على حق وصواب. قال -تعالى-: ﴿وَمَا أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] وقال -تعالى-: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦].

إن تخلف الدول النامية (وأكثرها من الدول الإسلامية) ليس ناجماً عن عدم تطبيق الرأسمالية التي هي ثمرة الديمقراطية الليبرالية، بل هو ناجم عن عدم تطبيقها للإسلام؛ إذ إن كثيراً من الدول الإسلامية الآخذة بالديمقراطية تغط في عالم التخلف ويعلو شخيرها. إن الديمقراطية الليبرالية ليست هي الحل في عالمنا الإسلامي؛ فإن كان ثمة خلاف بين المتنازعين، وثمة حاجة لحلول وسط سواء عند الصفوة أو عند عموم الناس فإن الحل لهذا الخلاف هو في الإسلام. قال -تعالى-: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، وهذا التوجه هو المحرك للأصولية الإسلامية وليس هو مجرد رد الفعل في مواجهة الغرب. إن فوكوياما يريد أن يوحي إلى القارئ بأن الإسلام ضد التسامح الديني، ولذلك يقول: إن نشر التسامح الديني قد جرد الدين من أنيابه! فأين هو من قوله -تعالى-: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦]؟ كما يدّعي أن العرب نزعوا للحرب بعد اعتناق الإسلام، وهذه مغالطة فاضحة؛ فما أكثر الحروب بين العرب أنفسهم أو ضد غيرهم قبل الإسلام! لكنها مجرد ترويجات للأباطيل خدمةً للديمقراطية الليبرالية.

ثانياً: مفهوم الحرية:

يقول فوكوياما: إن الليبرالية هي القاعدة القانونية التي تعترف بحريات وحقوق معينة. وأقول: إن الليبرالية في النظام الديمقراطي قد أخذت مفاهيم واسعة، وليس ذلك بمستغرب طالما هي منبثقة من

شهوات البشر وأهوائهم. أليس ضمن مفهومها وتحت ظلها شرعت قوانين الشذوذ! إن الحرية ليست هي جوهر كل ما هو إنساني كما يقول أصحاب الديمقراطيات؛ بل الإيمان، على الصحيح، هو جوهر كل ما هو إنساني. ومن لم يكن كذلك فحسبه قوله -تعالى-: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

٣ - نقد الديمقراطية الليبرالية:

رغم أن فوكوياما من الداعين إلى الديمقراطية الليبرالية بقوة، فإنه خلال مواقع متفرقة من كتابه (نهاية التاريخ) قد أشار إلى مثالب مهمة في ذلك النظام البشري. ورغم أن بعض تلك المثالب يعتبر جوهرياً في صلب النقض للنظام الديمقراطي غير أنه واظب على الدعوة إليه، وهذا بحد ذاته من مظاهر القصور البشري وانسياقه نحو رغباته الخاصة رغم تبين الصواب له في خلاف ما يؤمن به. إن الذي ذكره فوكوياما من نقد للديمقراطية الليبرالية يضاف إلى ما ذكرته من نقدي لها في المقطع السابق.

٤ - الأنظمة الشمولية والتحدي الشيوعي وانهيار دوله:

لا شك، فباعتبار فوكوياما من مناصري الديمقراطية بشدة فمن الطبيعي أن يكون ضد الأنظمة الشمولية، وخاصة الشيوعية، بشدة كذلك. إن المآخذ الرئيسة له على تلك الأنظمة الشمولية والشيوعية بالذات تتلخص فيما يلي:

- عدم إضفاء تعريف للمجتمع السليم كَذاكَ الذي تضفيه عليه الديمقراطية.

- أن ظاهرها التماسك وحقيقتها التضعضع؛ فكان سقوطها مفاجئاً حتى للمراقبين السياسيين الحذقين ككيسنجر.

- إن سقوط الشيوعية ليس فقط بسبب أيديولوجيتها، بل إضافة إلى ذلك فعل قوى كثيرة أخرى، داخلية وخارجية.

- إجبارها شعوبها على تبنِّي قيم ساداتها.

- غياب مؤسسات المجتمع المدني، وإن لم يؤدِ غيابها إلى تضعضع في البناء الحضاري، لكنه أثنى على سرعة تحولها من مجتمع زراعي إلى مجتمع صناعي.

- بعد خروج الشيوعية من الصراع فإنه لم يبقَ في العالم إلا الديمقراطية الليبرالية.

ولنا الملاحظات التالية:

١ - نختلف مع الكاتب في مفهوم المجتمع السليم. إن الكاتب يعتبر المجتمع الأوروبي الذي في ظل الديمقراطية هو المرجعية في المقارنة. ومن وجهة نظرنا فإن هذه المجتمعات تعشعش فيها الإباحية والمخدرات والجريمة والبطالة والظلم الاجتماعي؛ فهي لا تصلح أن تدرج في مرجعية المجتمع السليم، بل المجتمع السليم هو الذي يصدر في عقيدته وشريعته وأخلاقه من أحكام الله تعالى، وهي التي جاء بها الإسلام.

٢ - إن المتمعن من منظار الإسلام في ما كان عليه الاتحاد السوفييتي كان يرى بوضوح أن هذه الدولة لا تستطيع الاستمرار. وكنت قد أنهيت دراسة عن سقوط الاتحاد السوفييتي وانهياره قبل أن يحدث ذلك بسنتين.

٣ - إن الأيديولوجية الشيوعية مصادمة بطبيعتها للفطرة الإنسانية؛ فهي قائمة على مبدأ (لا إله والحياة مادة)؛ فما كان لها إلا السقوط الحتمي. وكذلك نقول: إن الديمقراطية الليبرالية بما تحمله في طياتها من تفريط في التزام مقتضيات الفطرة الإنسانية فإنها لا تقوى على الصمود، بل ستطويها السنن الإلهية كما طوت كل من جابهها من العقائد أو الدول.

٤ - إذا كانت الشيوعية قد أجبرت شعوبها على اعتناق قيم سادتها وقادتها مستخدمةً القوة؛ فإن الديمقراطية الليبرالية أيضاً تجبر شعوبها على اعتناقها ولكن من وجه آخر. الأولى بالقسر والقهر، والثانية بالإعلام والتمويه. وكما اكتشفت الشعوب في الدول الشيوعية أن حقوقها الإنسانية مهدورة؛ فكذلك ستكتشف شعوب الأنظمة الديمقراطية أن حقوقها الإنسانية مهدورة رغم أنها تستخدم بطاقات الانتخاب.

٥ - نعم! تمتاز الديمقراطيات بمؤسسات المجتمع المدني، هذا في الجملة، لكن في كثير من الديمقراطيات فإن أنشطة تلك المؤسسات تتعطل تماماً، أو تكون مطالباتها غير مجدية عندما يتعلق الأمر بالقضايا

الإسلامية، كما هو حاصل في أمريكا (أم الديمقراطية) فيما يخص المعتقلين الإسلاميين سواء في سجونها العادية أو في غوانتنامو؛ فما الفرق إذاً مقارنة مع تعطيل هذه المؤسسات في الدول الشيوعية؟

٦ - إن الدول الإسلامية، في حال احتكامها للإسلام، تستطيع أن تنهض حضارياً على المستوى الصناعي والتقني بما يفوق كثيراً معدلات النهوض في غيرها من الدول الديمقراطية، وسر ذلك يعود إلى أن الإسلام يطلق الطاقات المختزنة في إطار المنهج الصحيح عقيدة وممارسة وفهماً وتطويراً، ويدل على ذلك ما سطَّرته الحضارة الإسلامية على صفحات التاريخ من إنجازات علمية نهضت بالمسيرة الإنسانية في زمن قياسي مقارنة بغيرها من الأمم، ولذلك فإن ما حققته الشيوعية من سرعة في تحولها لمجتمع صناعي لا يعد شيئاً فيما لو أتيحت الفرصة أمام المجتمع الإسلامي.

٧ - لقد اتحدت كلمة اليهود والنصارى على أن الصراع في العالم بعد اندحار الشيوعية قد وُجِّه بكثافة ضد ما أسموه الأصولية الإسلامية، ثم طوروا المصطلح إلى الإرهاب الإسلامي، وهذا خلاف ما ذهب إليه فوكوياما من انفراد الديمقراطية الليبرالية بالساحة العالمية.

٥ - الدين:

لقد أثنى فوكوياما على مفاهيم هيجل الفلسفية التي ينفي فيها أن الديانات سماوية، بل هي مجرد أيديولوجيات نجمت عن حاجات تاريخية؛ وهذا هو التفسير المادي للتاريخ. كما أثنى على اعتبار قبول

أو رد فكرة الله اختياراً أخلاقياً عند المسيحية. وهذا إن كان صحيحاً عندهم، كما يدعي، ليس صحيحاً عندنا، الصحيح: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾ [الكهف: ٢٩]. لكن من شاء الكفر فإن اختياره له ليس أخلاقياً بالتأكيد بل هو ظلم، بدليل أن اختياره الكفر يورده النار، وهو ما جاء في تمام الآية السابقة: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ﴾ [الكهف: ٢٩].

إن ثناء فوكوياما على هيجل يوضح منهجيته المادية المضادة لوحي السماء. إن فوكوياما يعترف بفقر الديمقراطية للقيم، وهذا الذي يدفع الشباب إلى التفتيش عنها في الديانات التي سماها تقليدية، وهذا يعني أن الديمقراطية لم تشبع الحاجات العقلية والنفسية لهؤلاء الشباب رغم أنها توفر لهم الحرية غير المنضبطة أخلاقياً؛ لكنه في نفس الوقت، بعد أن ذم الهندوسية بسبب مثالبها الداعية إلى التبلد، فإنه ساوى بين اليهودية والإسلام في كونهما ديانتين شموليتين تسعيان إلى تنظيم كل مظاهر الحياة البشرية بما فيها المجال السياسي. إن هذا الكلام حق فيما يخص الإسلام فقط، غير أن الديانة اليهودية المحرفة ليست كذلك؛ فالمساواة بينهما افتئات على الإسلام، وكذا فإن الإسلام لا يقر بالديمقراطية حسبما ادعى فوكوياما، بل هو ضدها من حيث منطلقها العقدي، والإسلام يقدم الشورى مبدأ للسيادة التشريعية متضمنة في الأصل العام -وهو الاحتكام- للكتاب والسنة، وتتحقق الحرية والمساواة

وخيرية الضمير في المجتمع الإسلامي بأحسن وأرقى ما تكون؛ حيث إنها محكومة بهذه السيادة التشريعية الربانية. وأما عدم تمثل العالم الإسلامي للواردات الغربية فإن كان يقصد بذلك الانفلات من الدين والاستغراق في المادية؛ فإن المناعة الإسلامية في المجتمع الإسلامي هي التي وقفت ضد هذا التمثل، لكنها ضعفت نوعاً ما فحصل التمثّل غير المرغوب فيه لبعض الواردات الغربية، وأما عدم تمكن العالم الإسلامي من تحدي الغرب اقتصادياً أو عسكرياً فإنه بسبب الاستعمار الذي جثم على صدره فابتز ثرواته وأورثه التخلف. لقد أشار فوكوياما إلى الثورة الإيرانية باعتبارها حركة إحياء للأصولية الإسلامية، ونحن لا نوافقه على ذلك، بل هي إحياء مذهبي كما هو مفهوم، لكن العجب في مساواة فوكوياما للأصولية الإسلامية بالنازية الهتلرية! ومعلوم أن النازية ذات توجه عنصري من حيث الانتماء وتوجه تدميري من حيث الممارسة، خلاف الإسلام الذي هو توجه عالمي مستقل عن الانتماء العرقي أو الوطني، وذو توجه إصلاحي تعميري من حيث الممارسة. إن قوة الإحياء الإسلامي متجهة نحو الانتشار بزخم مترع بالرصيد الذي يعتد به عقدياً وتاريخياً وحركياً؛ مما سيمكنه من لئم الجراح التي أصابته والتي أشار إليها فوكوياما.

٦- خاتم البشر:

إن موضوع (خاتم البشر) على النحو الذي ذكره فوكوياما هو موضوع تخيلي برمته؛ إنها فذلكة الفلاسفة. إن الصراع في هذه الأرض

سيبقى ملتهباً إلى أن يرث الله الأرض وما عليها. قال تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]. وقد جاءت الأحاديث النبوية الصحيحة منبئة ببعض تلك الصراعات التي تحتدم فيها المعارك ويكثر فيها القتل. وأما العبد الظافر الذي سيتمتع بالسيادة والوفرة والأمن، وهو خاتم البشر؛ فإنه سيبقى قابعاً في مخيلة أتباع نيتشه. وأما المساواة بين كافة البشر بحيث سيكون كل فرد حراً وراعياً بقدر ذاته ومعترفاً بكل فرد آخر؛ فهي من أوهام وتخريصات هيجل؛ فإن البشر في صراعهم مع بعضهم سيهزم بعضهم بعضاً ويتسلط بعضهم على بعض، ولن يكون ذلك بسبب وجود الطبقات الاقتصادية كما عند ماركس؛ بل بسبب الصراع العقدي بين الأمم، وإن كان ذلك لا يخلو في مضموناته من الأطماع. إن فوكوياما يرى أن اقتتال الناس بسبب الدين ليس مبرراً، ولذلك فإن خاتم البشر سيستفيد من هذه التجربة المرة فلا يكررها. إن هذه الأطروحات تلغي بجرة قلم عقولَ ومبادئ الذين وقعت بينهم الصراعات. ومن وجهة نظر الإسلام فإن ما قام به أهله من جهاد عبر القرون مبرر بأنه إخراج العباد من عبادة غير الله إلى عبادة الله وحده، مع ما تبع ذلك من إعطاء الحقوق لأهلها وتمتع الناس بحريتهم وإقامة العدل بينهم؛ فلم يكن ذلك تعصباً أحمقاً كما ادعى فوكوياما. إن ما يعِد الساسة الغربيون به الناخبين ليكونوا هم خاتم البشر هو مجرد بيع للأوهام الفارغة من كل مضمون، وما الحروب التي يشنونها الآن على العالم الإسلامي إلا دليل قاطع على

كذبهم على شعوبهم؛ فأين الأمن والوفرة الماديان وهم يدفعون بخيرة شبابهم إلى أتون المعارك في أفغانستان والعراق؟ هل خاتم البشر هو الذي وعدوا به أم هو القاتل المعتدي الذي يتسلى بتعذيب أسراه؟! إن خاتم البشر، كما نراه الآن في الدول الديمقراطية الليبرالية سابحاً في مناهج البشر متولياً عن منهاج الله تعالى، يستحق الوصف الذي ذكره فوكوياما من أنه حيوان من جنس الإنسان العاقل!

الثاني: الأفكار الداعمة:

١ - الاعتراف والتقدير والرغبة:

نظرتان متضادتان؛ عند هيجل: الحافز الرئيسي لتاريخ البشر هو من أجل الاعتراف والتقدير مما يستحق المخاطرة بالحياة، وضده هوبز فهو يرى ذلك مصدراً لشقاء الإنسان. وتتوزع محركات التاريخ بين آراء الفلاسفة من خلال سياق أوصاف كالمجد والغرور والكبرياء والأنانية وحب الشهرة والطموح والاعتراف، وكلها أوصاف اعتبروها أساساً لإسباغ القيمة على الذات. والذي نقوله: إننا إذا اعتبرنا العقل منفرداً هو المرجعية فسوف تكون لنا آراء في شؤون الحياة وتصاريفها وتفسيرات حوادثها بعدد عقول البشر، ولذا فإننا لا نستغرب هذه الأقوال طالما أن هؤلاء لا يصدرون إلا عن طريق عقولهم وأهوائهم فقط. إن الذي خلق الإنسان هو الله تعالى، وإن صلة الإنسان بمراد الله منه، بحسب ما أعطاه من صفات وأسبغ عليه من نعم، لا تكون إلا عن طريق كتابه الذي أنزله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم. ولذا فإن

التوجه القلبي لدى المسلم فيما يقوم به من أعمال ليس لِنَيْلِ الاعتراف والتقدير من أمثاله من البشر، بل من أجل تحقيق مرضاة الله -تعالى- عنه. إن ذلك يعطي الإنسان قيمته الحقيقية؛ إذ يكون باطنه وظاهره سواء، أي لا يرائي الناس في أفعاله ليحوز إعجابهم وتقديرهم، بل يراقب ربه ليحوز الفوز بجنته. ولذلك فإن المخاطرة بالنفس وإيرادها المهالك لنيل اعتراف الناس وتقديرهم هو ضرب من الجنون، لكن المخاطرة بها في الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته هو تكريم لها وإعلاء من شأنها عند ربها، وهذا فارق عظيم في منهج إقامة الحياة البشرية. إن مبدأ الاعتراف والتقدير يكرِّس الأنانية المفرطة على خلاف مبدأ (في سبيل الله) فإنه يكرس الجماعية؛ فلا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه، والمسلمون تتكافؤ دماؤهم وهم يد على من سواهم، والمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله...

إن العمل في الإسلام شرف، ويلج المسلم العمل الشاق ليس لأجل الخيلاء، بل لأجل سد حاجات من يعول لأنه راعٍ لهم بالتكليف الإلهي. وبالأداء الجماعي في رحاب الأعمال بأنواعها، الشاق منها وغير الشاق، ترتقي الأمة في آفاق الرفعة الصادقة، ولا يحتقر فيها الغنيُّ الفقير، بل يقف معه ويساعده ويشد أزره ويقوي ساعده حتى يشتد عوده وينهض بحاله؛ فيقوم بأعباء نفسه ويستغني عن عون غيره، ثم يكون هو المعين لأخوانه المسلمين في وقت لاحق. وفي كل ذلك فإنه يكون محبوباً ومرهوباً؛ محبوباً لصدقه، ومرهوباً لانحيازه للحق.

أما عالم ما بعد التاريخ الذي يحلم به من يفكر على طريقة فوكوياما فإنه مجرد خرص لا قيمة له في عالم الواقع. إن معيار زيادة الإيمان لنيل رضا الله -تعالى- مرتبط بمعيار نقصان الاهتمام بالاعتراف والتقدير من البشر؛ فكلما زاد الأول نقص الثاني وبالعكس، ومن ثم فإن الحياة السياسية، والمفرزات الاقتصادية، والحركة الاجتماعية، والمناشط التعليمية، وغيرها من محركات المسيرة الإنسانية -يمكننا إخضاعها لنفس الميزان المعياري المذكور، ومنها نفهم لماذا تنهض الأمم، ولماذا تتثاقل إلى الأرض أو تندثر بالكلية.

٢ - السيد والعبد:

قضية السيد والعبد نشأت أساساً بسبب الحروب عبر التاريخ، وقد كان لها بروز في كثير من المجتمعات، غير أن الإسلام شرع من الأحكام ما يقلص به هذه الظاهرة بشكل تدريجي، لكنه لم يغلق بابها نهائياً لكونه بقي مفتوحاً عند أعدائه؛ فعند الضرورة هذه بتلك. وفي القرون المتأخرة كانت هذه الظاهرة ذات ثقل أثناء تشكل المجتمع الأمريكي؛ حيث تم استقدام الأفارقة كعبيد، ثم استفحل الأمر فأصبح خلفية حقيقية انطلقت منها الحرب الأهلية الأمريكية، وقد أشار فوكوياما إلى ذلك ضمناً. لكنه أصبح واضحاً أن ثمة طبقتين تشكلتا في ذلك المجتمع؛ طبقة السادة، وطبقة العبيد، وطبعاً السيادة للسادة والمذلة للعبيد، حتى كان يكتب على المطاعم وغيرها -إلى وقت قريب-: يمنع دخول الكلاب والسود. غير أن هذه الظاهرة وإن كانت لا تزال تتقد تحت الرماد،

لكنها غيبت عن السطح الظاهر شيئاً ما. وقد لعبت النصرانية دوراً مهماً في جعل العبيد يقنعون بما هم فيه؛ لأنها أخبرتهم أن حريتهم لن تكون في الدنيا، بل في الآخرة. واستغل هيجل هذه المقولة لينفذ منها إلى التأكيد على إلحاده وكفره بأن قال: إن الإنسان هو الذي خلق الله، ثم المسيحي عبده بعد ذلك؛ فألغى حريته في الدنيا منتظراً أن يعتقه الله فيما بعد (أي يوم القيامة). غير أن العبيد لم يكن الأمر مقنعاً لهم؛ فشرعوا في طرق أبواب العمل والتقنية والرياضة والسياسة وزاحموا السادة وتفوقوا عليهم في بعض الجوانب، ومنهم من أصبح يشعر أنه سيد بالفعل، خاصة بعد أن تسنموا مواقع رفيعة على المستوى السياسي القيادي، بل وعلى المستوى العسكري أيضاً. وفي مراحل ما بعد الحرب العالمية الثانية اعتبرت بعض الدول نفسها بمثابة السيد وعاملت دولاً أخرى من مفهوم العبودية، ثم تطورت الفكرة فأخذت طابع الشمولية؛ فأضحت الولايات المتحدة وأوروبا تعتبران نفسيهما السيد، والعالم الثالث ومن في حكمه العبد. وهكذا انتقل مفهوم العلاقة بين السيد والعبد من المستوى الشخصي إلى الطبقي ثم إلى الأممي. ومن خلال هذا التحليل نستطيع فهم ما يفعله الأمريكان وحلفاؤهم بالمسلمين في أفغانستان والعراق وما يفعله اليهود بالمسلمين في فلسطين؛ حيث يعتبرون أنفسهم السادة والمسلمين العبيد. وكما لا يهتم السيد لإثبات سيادته بذكر كم يقتل من العبيد، فكذلك لم تهتم هذه الدول الغاشمة كم تقتل من المسلمين. (آخر إحصائية أن عدد القتلى في العراق منذ الاحتلال الأمريكي حتى ٢٣ أكتوبر ٢٠٠٦م بلغ مليوناً ومئة واثني عشر ألف قتيل!).

إن الإسلام عندما ساد مشارق الأرض ومغاربها حرر الناس من عبوديتهم التي كانوا عليها لآلهتهم المدَّعاة أو لِزعمائهم الذين استعبدوهم، وحافظ على ذواتهم الإنسانية وعلى أعراضهم وممتلكاتهم وأطلق لهم حرية الاختيار؛ فاختاروا الإسلام ودخلوا فيه أفواجاً. وهنا تكمن المفارقة بين المنطلقات؛ فالنصارى عندما احتلوا القدس قتلوا سبعين ألفاً من المسلمين، وعندما حررها صلاح الدين لم يعاملهم بالمثل، بل تمثَّلَ سنة محمد بن عبد الله -عليه الصلاة والسلام- النبي المرسل المختار، عندما فتح مكة فقال لمن أخرجوه وقاتلوه: اذهبوا فأنتم الطلقاء. فهذه هي الحرية، وهي التي أنطق الله بها فاه عمر -رضي الله عنه- عندما قال: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟! فأين أنت يا فوكوياما من هذه المعاني التي أهملتَ ذكرها كلية في كتابك (نهاية التاريخ)؟

٣ - العلم الحديث والتقنية:

نعم، كما قال فوكوياما، لقد وضع ستالين وهتلر التقنية في خدمة الشر، لكن بوش وبلير وحلفاءهما فعلوا مثل ذلك. لقد استخدمت الولايات المتحدة أقصى مراتب التقنية لقتل أكبر عدد ممكن من البشر، وذلك عندما استخدمت القنابل النووية في هيروشيما وناجازاكي اليابانيتين. واستخدم الغرب أقصى ما توصلت إليه التقنية في الحرب العالمية الثانية فكانت النتيجة إزهاق أرواح أربعة وخمسين مليوناً من البشر. نعم! لقد تطورت التقنية في ظلال الحروب بأضعاف ما تطورته

في رحاب السلم، ليس لأجل التقنية بذاتها بل لأجل استخدامها في القتل والتدمير. إن تطوير أسلحة الدمار الشامل على المستوى النووي أو البيولوجي أو الكيميائي قد ساهم فعلاً في تطوير التقنية ليستخدمها السادة الأوروبيون والأمريكيون وأذنابهم ليحققوا انتصارات في حروب ظالمة، يبتزون من خلالها ثروات وخيرات العالم. نعم، كما قال كوفوياما، إن استمرار الحروب من العوامل الكبرى في توحيد الأمم، وهكذا حصل؛ فقد توحدت الدول الأوروبية وأمريكا تحت مظلة حلف الناتو، ليس لأجل ازدهار أممها بقدر ما هو أيضاً لتشكيل قوة عسكرية ضاربة تهزم بها أعداءها المسلمين. ومن المؤسف أن المهزوم يتأثر بالمنتصر فيحاول تقليده في كل شيء، حتى في الجوانب السياسية والاجتماعية والثقافية. إن هذا التأثر يعمم مفهوم الهزيمة لينقلها من ساحتها العسكرية إلى ساحتها الشاملة، أي جميع مكونات مجتمعها المدني. وقد ساعد الارتباط الاقتصادي العالمي على محو الهوية الذاتية لكثير من المجتمعات الإسلامية؛ وذلك بسبب انكشاف غطائها الإسلامي عن مضامين مكوناتها؛ فجاء الغطاء الأممي الاقتصادي وتوابعه فَحَلَّ محل الغطاء الإسلامي فكانت الكارثة التي نعاني الآن منها جميعاً، وهذا يفسر ميل مجتمعاتنا نحو الرأسمالية. إن آخر جيل من القرن العشرين سجل بداية قوية لدخول المسلمين عالم التقنية، وقد قادت الأصولية الإسلامية هذا التوجه؛ إذ جاء ذلك في خضمِّ تنامي الصحوة الإسلامية، وهذا يدحض ما ذكره فوكوياما من أن الأصولية الإسلامية ضد التوجه التقني. غير أن ما يحصل عليه المسلمون من التقنية من

الغرب هو كاستخراج اللقمة من فم الأسد، إذ تقوم تلك الدول بحجب كثير من التقنيات العلمية عن ما يسمونه العالم الثالث؛ ليوسعوا الهوة بينهم وبينه من جهة، وليستخدموه ضدهم عند الحاجة من جهة أخرى. لكن أقدار الله -تعالى- لا يسيطر عليها الإنسان مهما خطط وبرمج؛ فالقول: إن هذه العلوم الطبيعية هي الحصن الحصين في وجه إعادة التاريخ إلى وضع الإنسان الأول -ليس دقيقاً؛ فما تملكه روسيا وأمريكا من القنابل النووية يكفي لتدمير العالم عدداً من المرات؛ فما يدرينا ماذا سيكون عليه حال العالم في المستقبل، خاصة وقد وردت أحاديث يفهم من فحواها العودة إلى الاقتتال بالسيوف. وعودة على بدء في ما أثاره فوكوياما من تساؤل من أن العلوم الطبيعية الحديثة تؤدي إلى الديمقراطية الليبرالية؛ فالجواب عليه: لا تلازم بين الأمرين: فالعلوم الطبيعية كانت غذاء الشمولية الشيوعية كما هي غذاء الديمقراطية الأمريكية الأوروبية.

٤ - نظرية التحديث:

في الواقع إن نظرية التحديث أخضعها ماركس لمفهوم الحتمية باعتبار أنها ستنشىء بنى اجتماعية وسياسية متشابهة في مختلف الدول والحضارات. وهذا في رأينا خطأ؛ فإن التحديث في أي مجتمع لا ينفك عن طبيعة التكوين العقدي والاجتماعي لذلك المجتمع، فما يصيغه التحديث الصناعي من علاقات في مجتمع ما ليس بالضرورة أن يعيد الصياغة نفسها في مجتمع آخر. بل قد وجدنا في الدولة نفسها أن التحديث الصناعي يصيغ علاقات معينة في أوساط المدن غير تلك التي

يصيغها في أوساط القرى والأرياف، وكذلك ما يصيغه في الأوساط الداخلية (الوجه القبلي) غير تلك التي يصيغها في السواحل (الوجه البحري)، وهكذا. وعلى هذا فإن ما أحدثه التصنيع في الدول الآسيوية ليس هو نفسه الذي فعله في أوروبا وأمريكا. وفي العالم الإسلامي، فإن الإسلام يضفي روحه المعنوية وأخلاقياته السلوكية وتحفيزاته التطويرية على مضمون التحديث الصناعي؛ فيصيغ التحديث وفق أحكامه وليس العكس. إن الهيمنة الأخلاقية التي تكتنف التصرفات الفردية والجماعية في العالم الإسلامي، فيما لو حكم الإسلام، هي التي تمسك بزمام توجيه التحديث من خلال منظورية القيم والمبادئ التي ترفع من شأن الإنسان وتجعله يملك الآلة ولا تملكه.

٥ - القومية:

في الواقع لم تحل القومية محل العلاقة بين السيد والعبد كما ذكر فوكوياما، فإننا نجد في المنضوين تحت قومية واحدة أن هذه العلاقة لا تزال سائدة، لكنها تتجسد بصيغ جديدة، مثل: الغني والفقير، أو المتعلم والجاهل، أو الوزير والخفير، أو المحترم والحقير..، وأشباه ذلك، غير أن هؤلاء جميعاً يوحِّدهم الموقف إذا نالت منهم قومية أخرى. وليس صحيحاً أن القومية لا تقهر ولا يمكن لأي دين أو أيديولوجية صدها، بل الصحيح أن الدين الإسلامي قد صهر مختلف القوميات التي انضوت تحت مظلته في بوتقة واحدة، وبدل أن تكون العلاقة الإنسانية مندرجة في مضمون (القومي أخو القومي)، جعلها الإسلام مندرجة في

مضمون (المسلم أخو المسلم)، ولذلك لم تكن القومية في داخل الإسلام مصدراً للصراع كما هو عند النصارى في أوروبا وغيرها. إن الخلافات القومية في أوروبا ستستمر، وإن الاتحاد الأوروبي لن يفلح في سحب بساط الصراع المذكور؛ لأنه لا يقدم بديلاً عقدياً تذوب فيه القوميات كما فعل الإسلام، ولذلك فإن انحسار الصراع الآن في أوروبا بسبب القوميات هو انحسار مؤقت، وناره متقدة تحت الرماد، وخاصة عند المتعصبين من القومية الصربية. إن كل شعب في أوروبا لا يزال يتطلع إلى الحفاظ على نقائه القومي والعرقي. وأما ما يراه فوكوياما من أن شعوب أوروبا وروسيا والجمهوريات المستقلة تتجه نحو الديمقراطية عبر آلام المخاض، أقول: إن ذلك وإن حصل فإنه لا يقضي على الانفعالات القومية، وهذا محسوس واقعاً؛ حيث إن التعصبات القومية لا تزال تطل برأسها في دول أوروبا الغربية رغم أنها ذات أنظمة ديمقراطية. إن الانبعاث القومي الذي قادته القومية الطورانية في الدولة العثمانية أفسح المجال للقوميين العرب، وهم المتمردون على الإسلام ونظامه، لأنْ يستعلنوا بأنشطتهم القومية التي ما لبثت -في غياب دعاة الإسلام، بل في مطاردتهم والتضييق عليهم- أن استولت على أنظمة الحكم في معظم البلاد العربية وتبنّت بنفسها إعلان الحرب على الإسلام بشكل سافر. وقد حصلت جميع الهزائم العربية في ظل هذه الأنظمة القومية. وبعد أن ظنت الأنظمة القومية والأحزاب القومية أنها قد ضربت بجذورها في الأرض وأنها ملكت الخافقين، فاجأتها الصحوة الإسلامية ابتداءً من السبعينيات من القرن الماضي، ولا تزال الصحوة

الإسلامية في عموم العالم تسجل انتصاراتها في مختلف الميادين مقابل انحسار القوميين عنها، رغم أن الأنظمة القومية العربية تحصل على دعمها المباشر والمنوع من الدول النصرانية ومن اليهود، ورغم ادعاءاتها أنها تمثل التقدمية والانفتاح في حين أن صحوة الإسلامية تمثل الرجعية والتقوقع، بحسب زعمها. ولن يطول الزمان كثيراً حتى يسترجع النهوض الإسلامي مكانته التي فقدها مع سقوط الدولة العثمانية، إن شاء الله تعالى.

٦ - الواقعية:

يعتبر ميكافللي العالم كغابة، السيادة فيها للقوي، ولن يكون سيداً حتى يمارس البطش بالآخرين ويتصرف بأسوأ الطرق لإثبات ذاته وهيمنته، فهذا معنى قوله «.. أنْ تتبنى خير الدول سياسات أسوأ الدول لتبقى»، وهذه هي الواقعية عنده، أي: على الدول أن تستبقي استشعارها بالافتقار للأمن لتكون مهيأة دوماً لدخول الحرب. لكن الأمر بشموليته ليس على هذا الوجه؛ فقد تصطنع دولة ما أحداثاً تدبرها هي وتجعل منها مبرراً لدخول الحرب ضد آخرين ضعفاء لا يقوون على الصمود أمامها، أو تتهم دولاً أخرى بأنها تقوم بتصنيع أسلحة خطيرة تهددها أو تهدد مصالحها. إن غياب القيم الإنسانية والمبادئ الدينية السمائية على مستوى العالم في علاقاته الذاتية أو الدولية، من كونها مرجعية -جعلت من العالم أمثولة سيئة مكتظة بالخراب والدمار والقتل والتشريد وسرقة الثروات والخيرات. وفي ظل مثل هذه الأجواء

فإن السباق نحو التسلُّح ستكون له الأولوية، وذلك على حساب التنمية والخدمات الإنسانية، وكلما انتهت حرب وأفرزت واقعاً جديداً، يبدأ الاستعداد من جديد في الدول كافة وعلى المستويات كلها لخوض الحرب التي تليها. فهكذا حصل بعد الحرب العالمية الأولى، ثم بعد الحرب العالمية الثانية، ثم بعد حرب العراق وإيران، ثم حرب تحرير الكويت..، وهكذا. إن وجود دولة واحدة فذة القوة في العالم، كالولايات المتحدة، لا تحتكم إلى قيم العدل والمساواة- يشكل خطراً بالغاً وداهماً على كل العالم قاطبة بدون استثناء، مما يفرض على دول البسيطة أن تمارس جميع أنواع الضغط الممكنة لرد هذه الدولة إلى الاحتكام إلى ميزان العدل والإنصاف، وإن لم يحصل ذلك فإن حروب هذه الدولة، بعد أن شنتها على أفغانستان والعراق، ستستمر، وستجعل لكل حرب حجتها وتبريرها. إن عدم التوازن الدولي الحالي قد أحدث خللاً بالغاً في أخلاقيات التعامل بين أقطار العالم.

إن القواعد التي في الوصفة الواقعية التي وضعها فوكوياما تنبع من هذا التوجه اللاأخلاقي؛ إذ إنه استبعد تماماً قيم التعامل الأخلاقي في وصفته، بل جعل استبعادها القاعدة الرابعة في السياسات الخارجية للدول؛ فقد اعتبر أن الشرعية الدولية قد أصبحت قوة واقعية، وهذا ليس صحيحاً من أوجه: **الأول**: ما تعريف الشرعية الدولية، **الثاني**: من له صلاحية وضع ذلك التعريف، **الثالث**: من يعترف بذلك التعريف، **الرابع**: من يمتثل لمفهوم ذلك التعريف.

إن مصطلح الشرعية الدولية أصبح له تفسيرات كثيرة، فكل دولة تفسره بحسب مصالحها وتطلعاتها. قد يعتقد بعض الناس أن الأمم المتحدة هي الشرعية الدولية، وهذا خطأ؛ فإن الولايات المتحدة تعتبر نفسها هي الشرعية الدولية، ولذلك فإنها عندما شنت حربها على العراق انطلقت من شرعيتها الخاصة بها وضربت بالشرعية الدولية الخاصة بالأمم المتحدة عرض الحائط! نحن نقول: إن هذه الأرض ومن عليها مخلوقة لله، لا يجوز أن يكون سائداً فيها غير شريعته؛ فهي التي ينبغي، وفق قواعد الحق والعدل، أن تسود العالم في كل شؤونه صغيرها وكبيرها. قال -تعالى-: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨].

خاتمة

لقد طفنا في جولة عبر أرجاء نظرية نهاية التاريخ لفرانسيس فوكوياما، وبيّنا ما فيها من اعوجاج عن جادة الحق وحيدة عن طريق الصواب، مع بيان موقف الإسلام مما طرحه من أفكار وآراء بالغة الخطورة، كل ذلك بشكل مختصر أشبه ما يكون بالخطوط العريضة.

وختاماً أشير إلى ملاحظتين:

الأولى: خطورة أفكار الكاتب:

إننا نلتمس المخاطر التالية من أفكار المؤلف في هذا الكتاب:

١ - دعوته إلى الديمقراطية الليبرالية باعتبارها الملاذ والمنتهى السعيد للبشرية.

٢ - إبراز أفكار وآراء لفلاسفة ضد الإسلام دون أن تعطى حقها من المناقشة.

٣ - الحديث عن الذات الإلهية (الله تعالى) بدون تحفظ أدبي، وأحياناً بصيغ كفرية فجة.

٤ - تقديم تحليلات من وجهة نظر مادية بحتة لأحداث وقعت.

٥ - ذكر حتميات غائية تتعلق بالتاريخ والاقتصاد وسياسات الحكم وما سمّاه (خاتم البشر) وأشياء أخرى، بطريقة تلتبس مقدماتها ونتائجها على القارئ وتموّه أمامه الحقائق.

٦ – إحفاف الكتاب بزخم إعلامي لإبرازه وكأنه نظرية صادقة، وتضمَّن ذلك ترجمته لعدد من اللغات مع إعطائه كماً وافراً من الدعاية والإعلان.

الثانية: منهجية الكاتب:

هناك ملاحظات على منهجية الكاتب، من أهمها:

١ – أن الكاتب وزع الفكرة الواحدة بين خضم صفحات الكتاب بحيث ليس من السهل لـمُّ شتاتها لتكون فكرة واقعية قابلة للنقاش والحوار.

٢ – اختلطت، وأحياناً اندثرت، آراء الكاتب وأفكاره بين آراء وأفكار الذين يستشهد بهم، بحيث أن القارئ بعد أن يقرأ المضمون، عليه أن يبذل جهداً لاستخراج رأي الكاتب في الفكرة التي يذكرها.

٣ – إن فكرة (خاتم البشر) ضاعت في خضم بعثرتها في أرجاء الفصول الأخيرة، في حين أنها فكرة رئيسة استحقت في رأي الكاتب أن تكون متضمنة في العنوان الرئيس للكتاب.

٤ – حاول الكاتب أن يسبر غورَ بعض الأفكار من خلال التعمق في تحليلاتها، لكن مع ذلك لم يكن موفقاً في أحيان كثيرة في تلك التحليلات، بحيث أن النقد الصريح والشامل للكتاب ربما احتاج التوقف عند كل فقرة، وأحياناً عند كل جملة.

٥ - لم يقدم المؤلف في نهاية الكتاب نتائج نهائية توصل إليها، مما يجعل القارئ عندما يصل إلى نهايته يتساءل: ثم ماذا؟ أو: ماذا بعد؟ أو: ما الذي يريده الكاتب بالضبط؟!

٦ - يبدو واضحاً أن اطلاع الكاتب على الإسلام وتاريخه ضعيف جداً، وما ذكره عنه لا يظهر أنه حصيلة معرفة متعمقة، بل ربما حصيلة قرارات عامة متفرقة من كتب غير متخصصة أو من تجميعات صحفية مؤرشفة.

وأخيراً، فإني شخصياً لا أوصي بإضاعة الوقت في قراءة هذا الكتاب إلا من قبل الدعاة الذين في ساحة الدعوة، يذبون عنها ويدافعون عن مسيرتها ويبيِّنون نصاعتها، أو من قبل المتخصصين الذين لا بد لهم من متابعة ما ينزل في الساحة العالمية من دراسات وأبحاث.

في النهاية أقول: ما كان من الحق فمن الله وحده، وما كان غير ذلك فمِنِّي ومن الشيطان، وأستغفر الله العظيم، وأصلي وأسلم على خاتم المرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مؤ ت م رمؤتلو ملإ

من مظاهر التطاول الغربي

على الثوابت الإسلامية

التطاول الغربي على الثـوابت

د. محـمـد يسـري

الطـعن فــي القرآن الكـريـم

د.عبد المحسن بن زين المطيري

مؤتمر تعظيم حرمات الإسلام

التطاول الغربي

على الثوابت

د. محمد يسري

رئيس الشؤون الأكاديمية

بالجامعة الأمريكية المفتوحة

القاهرة ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله إله الأولين والآخرين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الداعي إلى خير دين، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه الهداة المهتدين، وسلم تسليماً كثيراً. أما بعد:

فإن لله -تعالى- في خلقه سنناً تمضي لا تزول ولا تحول، وله -جل وعلا- في خلقه شرائع ثابتة، وأحكام ماضية، لا يعتريها نسخ ولا تبديل.

فمن سننه -تعالى- في كونه ذلك التمايز والاختلاف في عوالم مخلوقاته في الألسنة والألوان، والثقافات والحضارات، والمناهج والأديان، قال -تعالى-: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]، قال -سبحانه-: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التغابن: ٢].

وقال -جل في علاه-: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

وقال -سبحانه-: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ﴾ [المائدة: ٤٨].

ومن السنن الماضية في خاصته من خلقه: المعاداة بين حزبه المفلحين والملأ المجرمين، قال -سبحانه-: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ

ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]، وقال -تعالى-: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ﴾ [الأنعام: ١١٢].

ولما كان محمد ﷺ خاتم النبيين والمرسلين كانت دعوته للعالمين، ورسالته للثقلين، قال -سبحانه وتعالى-: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨]، وفي الصحيح من حديث أبي هريرة قال ﷺ: «**وأرسلت إلى الخلق كافة**»(١).

ومن أجل هذه العالمية التي تتجاوز حدود المكان وتستغرق الزمان؛ كانت هنالك عالمية أخرى متجددة على مستوى الصراع والتحديات، وكان لنبينا ﷺ النصيبُ الأوفى من عداوة المجرمين وأوليائهم من المخالفين، قال -تعالى-: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ﴾ [البقرة: ١٢٠].

ولم يكن عداؤهم عن جهل بحقه وقدره الشريف، قال -تعالى-: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وهي معرفة حقيقية مستمدة من عقيدته وشريعته وأخلاقه وحربه وسِلْمِه ﷺ، كما هي مستمدة من كتبهم التي أنزلت عليهم، قال -تعالى-:

(١) أخرجه مسلم (٥٢٣).

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وإذا جاز أن من عامتهم من لا يعرفونه ولم يطالعوا سيرته، فلا يجوز بحال أن يكون أكابر أهل مللهم لا يعرفون كريم سجاياه، وعظيم أخلاقه ﷺ!

ومنذ فجر التاريخ الإسلامي والسهام تُصوَّب إلى نبي الإسلام ورسالته، ومحكمات عقيدته وشريعته، وخلافته ورمز دولته، تبذل في هذا السبيل الجهود الهائلة، وتنفق الأموال الطائلة، وتجرد الحملات الصليبية الثمانية، عبر قرنين من الزمان (٤٨٩-٦٩٠هـ)، تؤازرها الموجة التترية الوثنية العاتية بدعوة صليبية حاقدة، وتتبعها هجمة بربرية على الحضارة الإسلامية الأندلسية؛ فحقبة استعمارية انتقصت الوطن الإسلامي من أطرافه الآسيوية، ثم أردفت بحملة فرنسية (١٢١٣هـ-١٧٩٨م) إلى قلب الوطن الإسلامي والمنطقة العربية.

وتميز التحدي الاستعماري الغربي الحديث في هذه المرة بغزو فكري صاحب احتلال البلاد ونهب الثروات، ثم آلَ الأمر بعد الحرب العالمية الثانية (١٣٦٤هـ-١٩٤٥م) إلى غزوة غربية حديثة تجلب بخيلها ورَجْلها، وتقتل بقضِّها وقضيضها، وتغري بغواية التغريب للعقل، والاحتلال الفكري للشرق بتبعيةٍ في الثقافة، بل وتنصير في الدين، ويُقدَّم هذا مغلفاً بغلاف من العولمة؛ لتبرر وتكرس هيمنة الغرب المستعمر على العالم بأسره.

ثم إن التاريخ يشهد أن تلك التحديات الصليبية والموجات الاستعمارية قد تكسرت على أرض الإسلام، حتى تحول الشرق المسلم إلى مقبرةٍ لموجات وإمبراطوريات الغزاة الغربيين.

والمسلمون اليوم يقفون في وجه حملةٍ غربيةٍ عالميةٍ، تهتك كلَّ حرمة، وتحارب كل فضيلة، تقدم الإسلام لشعوبها على أنه الخطر المقبل الذي سيهلك الحرث والنسل، ويدمر منجزات الحضارة الحديثة، ويغرق البشرية في طوفان من الدماء والأشلاء.

وفي سبيل هذه المواجهة تستباح ما تفتقت عنه قريحة الشيطان من بغي وإجرام، وتنتهك حرمة رسل الله عامة، وحرمة نبينا ﷺ خاصة، وتتناقل أحاديث الإفك الظالم وأخبار البهتان الظاهر، وتروَّج مقالات الحقد الصليبي الصهيوني الأعمى.

ولقد شهدت السنوات القليلة الماضية هجمةً متناميةً على شخص النبي ﷺ تجسَّدت في نشر رسوم دنماركية مسيئة، تبع ذلك تجاوب نرويجي ففرنسي فسويدي فأسباني فأرجنتيني، وتوقف القطار المندفع في الفاتيكان ليدلي كبير أهل ملتهم بدلوه في الإساءة والتهجم، ثم تعود الدنمارك مؤخراً لتبث شريط فيديو مصور فيه إساءةٌ جديدة للنبي ﷺ.

ولا شك أن الأمة بمختلف فئاتها قد هبّت لنُصرة النبي ﷺ، وعبّرت عن غيرتها على حرمته ﷺ بأشكال متعددة، ولقد ظن كثيرون أن المسالة حادثٌ فردي عابرٌ يستوجب استنكاراً لتهدأ الأمور وتعود إلى نصابها

من جديد..؛ إلا أن شيئاً من هذا لم يكن.

الأمر الذي يستوجب وقفة متأنية مع هذه المستجدات، ومحاولة فهمها وتجميع عناصرها السابقة والمعاصرة، وربطها في محاولة لإدراك الظاهرة حتى يجري التفاعل والتعامل معاً بشكل صحيح.

وبناءً على ذلك؛ فإن هذا البحث يهدف إلى رد العدوان عن ثوابت الإسلام ومقوماته، والذود عن جناب نبينا ﷺ والدفاع عن حرماته، وذلك عن طريق العرض السريع لأهداف الحرب على الإسلام وغاياتها، واستجلاء صورة الإسلام في التراث والمناهج الغربية عموماً، وصورة النبي ﷺ على وجه الخصوص، وأسباب الخطأ في عرضها، وتحديد الجهات التي تقود هذه الحرب.

ومن ثم استشراف المستقبل ورصد إيجابياته، والعمل على تلافي سلبياته، ثم طرح مشروعات عملية مقترحة للتصدي لتلك المخططات المدمرة للعلاقات الإنسانية والصلات البشرية الطبيعية. كما تهدف هذه المقترحات العملية لتوسيع رقعة الاعتدال عند الغربيين، وذلك عن طريق قراءة الإسلام قراءة صحيحة، وتمكين المسلمين من العيش والتعايش الحر الكريم مع الآخرين.

قال -تعالى-: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت : ٣٤].

وقد قُسِّم هذا البحث إلى العناصر التالية:

أولاً: صورة الإسلام في الفكر الغربي قديماً وحديثاً.

ثانياً: موقف مناهج التعليم الغربية من الإسلام .

ثالثاً: صورة النبي ﷺ في التراث الغربي.

رابعاً: أسباب التطاول على دين الإسلام وخير الأنام ﷺ.

خامساً: استشراف المستقبل.

سادساً: ما العمل؟

أولاً: صورة الإسلام في الفكر الغربي بين القديم والحديث:

يذهب كثير من الباحثين إلى أن تاريخ العداء يبدأ من العصور الوسطى الأوروبية، غير أن هذه الفرضية تدحضها وقائع كثيرة، بل وتصريحات عديدة لغربيين.

يقول الكاتب والقائد الإنجليزي (جلوب) (١٨٩٧م-١٩٨٦م): **إن تاريخ مشكلة الشرق الأوسط الأوسط إنما يعود إلى القرن السابع للميلاد**[١].

أي إلى تاريخ ظهور الإسلام وبزوغ فجره على المعمورة؛ حيث أزال النور الإسلامي ظلمات عشرة قرون تطاول فيها الغرب الإغريقي والروماني والنصراني على الشرق؛ فاحتل أرضه ونهب ثروته وقهر ثقافته؛ فكان الفتح الإسلامي تحريراً للإنسان من الفتنة في الدين، وتحرراً للأوطان من ذلك العدوان.

ولقد رأى الغرب في هذه الديانة الوليدة عدواً عقائدياً وحضارياً، يقدِّم محبة الله -تعالى- على محبة الإنسان، ويجعل التوحيد فكرة يتمحور حولها الإنسان، وذلك في مقابلة فكرة تقديس الإنسان وعبادته، والتي قامت عليها أديانهم المحرفة. فلم تكن قضية الإسلام منازعة على ثروات أو منافسة على زعامات.

---

(١) مقال بجريدة الشرق الأوسط، لجمال شاهين، عدد (٩٩١٣) في ١٨ ذي الحجة ١٤٢٦هـ، نقلاً عن كتاب للكاتب بعنوان (محمد).

عمل الغربيون من قديم وبمختلف فئاتهم على اعتبار الإسلام عدواً أيديولوجياً وحضارياً يجب القضاء عليه، يشرح هذه الفكرة المفكر الغربي (مونتغمري واط) قائلاً: «إن الإسلام من وجهة نظر المسيحية الغربية يتسم بخلفية إشكالية لاهوتية عميقة؛ لقد ظهر في أوائل القرن السابع للميلاد في محيطٍ تميّز بتأثُّره الروحي بالتقاليد اليهودية -المسيحية، مؤكّداً من ناحية، وعبر التوحيدية الإبراهيمية، صلته المبدئية بتلك التقاليد الشرقية اليهودية- المسيحية، ولكنه وضع نفسه من ناحية أخرى في خندق مضاد متعارض تماماً مع التقاليد الدينية المذكورة.

فمن خلال تعميم مطلق غير محدود للتوحيد، ألغى الإسلام في حقيقة الأمر أي إمكان لتجسيد الطبيعة الإلهية، مع نفي تام لفكرة الثالوث المسيحية، وبذلك التوجه العقائدي حطّم الإسلام النظام البنيوي - اللاهوتي، الذي كان مهيمناً في التصورات المسيحية -لا سيما في العصر الوسيط- حول التكوين الإلهي للتاريخ، وحول التقديس، وتجسيد الإله ذاته. وهكذا كان ظهور الإسلام بالنسبة للديانتين اليهودية والمسيحية نوعاً من التحدي الديني - التاريخي»[1].

وتقول د.كارين آرمسترونج: «علينا أن نتذكر أن الاتجاه العدائي ضد الإسلام في الغرب هو جزء من منظومة القيم الغربية التي بدأت في التشكل مع عصر النهضة والحملات الصليبية، وهي بداية استعادة

---

(١) تأثير الإسلام على أوروبا في القرون الوسطى، مونتغمري واط، موسكو، ١٩٧٦م، (ص ٨:١٠).

الغرب لذاته الخاصة مرة أخرى. والقرن الحادي عشر كان بداية لأوروبا الجديدة، وكانت الحملات الصليبية بمثابة أول رد فعل جماعي تقوم به أوروبا الجديدة»[١].

وهنا يتعين التنبيه إلى أن تصور البعض اليوم أن خوف الغرب من الإسلام؛ إنما باعثه ظاهرة (العنف) أو (التشدد) عند بعض جماعات الإسلامية - هو تصور لا يخلو من سذاجة أو سطحية.

ولا شك أن موقف العداء متجذر لدى مؤسسات الغرب قبل عصر اليقظة الإسلامية بقرون متطاولة.

فمارتن لوثر (١٤٨٣م-١٥٤٦م) زعيم الإصلاح الديني، ورأس الكنيسة البروتستانتية، وهو الذي قرأ ترجمة معاني القرآن وما ذكر فيه عن التوراة والإنجيل من التعظيم والتبجيل.

يقول لوثر متحدثاً بعد ذلك عن القرآن الكريم: «**أي كتاب بغيض وفظيع وملعون هذا القرآن المليء بالأكاذيب والخرافات والفظائع؟!**».

ولم تكن الكاثوليكية بأحسن حالاً من البروتستانتية في صناعة هذه الأكاذيب.

إن هذه الصورة لا يشترك في رسمها دهاقنة النصرانية أو ساسة أوروبا وقادتها فحسب، بل يشاركهم فيها أدباؤهم ومثقفوهم وفنّانوهم.

---

(١) مقال لجمال شاهين، بجريدة الشرق الأوسط.

لقد ذهبت ملحمة رولاند (١١٠٠م) إلى إسقاط التثليث على المسلمين وعقيدة التوحيد فتزعم أن المسلمين يعبدون ثالوثاً وثنياً، وأنهم إنما يعظمون يوم الجمعة؛ لأنه يوم إلهة الحب (فينوس)، بينما يعظم النصارى يوم الأحد؛ لأنه يوم الله!

كل هذا الشحن المزيف للحقيقة؛ حتى يلتهب حماس عوامهم بالحقد على أهل الإسلام لتقام المجازر والمذابح باسم الله.

ففي هذه (الملحمة) ينادي الإمبراطور جنوده كي يذبحوا المسلمين، فيقول: انظروا إلى هذا الشعب الملعون! إنه شعب ملحد، لا علاقة له بالله، سوف يمحى اسمهم من فوق الأرض الزاخرة بالحياة؛ لأنهم يعبدون الأصنام، لا يمكن أن يكون لهم خلاص، لقد حكم عليهم، فلنبدأ إذن تنفيذ الحكم، باسم الله، ثم تبدأ المذبحة[1].

تلك باختصار صورة الإسلام القديمة كما عبر عنها ساسة وقادة ورهبان وفنانون، فهل تغيرت تلك الصورة في العصر الحديث ؟!

لعل في أنشودة الجندي الايطالي لأمه جواباً حين يقول لها: **أماه! أتـمِّي صلاتك.. لا تبكي، بل اضحكي وتأملي! أنا ذاهب إلى طرابلس فرِحاً مسروراً، سأبذل دمي في سبيل سحق الأمة الملعونة، سأحاسب**

(١) صورة الإسلام في التراث الغربي، هوبرت هيركومر، وجيرنوت روتر، ترجمة ثابت عيد، وتقديم د. محمد عمارة، (ص١٨، ٢١، ٢٣، ٢٤، ٤٣)، طبعة القاهرة دار نهضة مصر ١٩٩٩م.

الديانة الإسلامية، سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن[(١)].

وكتبت جريدة فرنسية عام ١٩٢٦م تقول: «**لقد استسلم عبد الكريم الخطابي من غير شروط، وخضع لحماية فرنسا، ذلك ما كنا نبغي! فالحادث مهم؛ فهو يضرب الإسلام في الصميم، وبوسعنا الآن أن نفتك بهذا الدين الفتك الذريع**»[(٢)].

ولإنسان أن يقارن بين هذا الكلام وبين كلام الأب أربان الثاني مفجِّر الحروب الصليبية في مجمع كلير مونت عام ١٠٩٥م حين يقول: «**أيها الجنود المسيحيون! اذهبوا وخلِّصوا البلاد المقدسة من أيدي الأشرار، اذهبوا واغسلوا أيديكم بدماء أولئك المسلمين الكفار**»[(٣)].

وتتبين الإجابة مجدداً من قول (أيوجين روستو) رئيس قسم التخطيط في وزارة الخارجية الأمريكية، ومستشار الرئيس جونسون لشؤون الشرق الأوسط حتى عام ١٩٦٧م؛ حيث قال: «**يجب أن ندرك أن الخلافات القائمة بيننا وبين الشعوب العربية ليست خلافات بين دول أو شعوب؛ بل هي خلافات بين الحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية؛ لقد كان الصراع محتدماً بين المسيحية والإسلام منذ القرون الوسطى، وهو مستمر حتى هذه اللحظة بصور مختلفة. ومنذ قرن ونصف خضع الإسلام**

---

(١) القومية والغزو الأمريكي لمحمد جلال كشك، نقلا عن: (الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة)، الحسيني معدّى، دار الكتاب العربي، ط١، ٢٠٠٦م، (ص٥٧).

(2) 28 / 5 1926, da acpechede constasntine.

(٣) الحروب الصليبية، د. سيد عاشور، مكتبة الأنجلو المصرية.

لسيطرة الغرب، وخضع التراث الإسلامي للتراث المسيحي..، إن الظروف التاريخية تؤكد أن أمريكا إنما هي جزء مكمل للعالم الغربي..؛ فلسفته وعقيدته ونظامه، وذلك يجعلها تقف معادية للعالم الشرقي الإسلامي بفلسفته وعقيدته المتمثلة بالدين الإسلامي، ولا تستطيع أمريكا إلا أن تقف هذا الموقف في الصف المعادي للإسلام وإلى جانب العالم الغربي والدولة الصهيونية...[١].

وفي أعقاب حرب رمضان ١٣٩٣هـ (أكتوبر ١٩٧٣م) أجرت صحيفة (لفيجارو) الفرنسية استفتاء للرأي العام الفرنسي؛ فأسفر الاستفتاء عن أن: ٤٥٪ مع إسرائيل مؤيدين لها، و ١٧٪ يؤيدون العرب، و٨٪ مع الطرفين، و٣٠٪ لا رأي لهم. وأجرى المعهد الوطني استفتاءً للرأي العام في لندن فأسفر عن أن ٤٧,٥٪ من البريطانيين الذين شملهم الاستفتاء يؤيدون إسرائيل في مقابل ٥٪ يؤيدون الدول العربية، وأجرى معهد (جالوب) الأمريكي استفتاء للرأي عن النـزاع في الشرق الأوسط يوم ٦ أكتوبر فأسفر عن أن ٤٧٪ من الأمريكيين يؤيدون إسرائيل في مقابل ٦٪ فقط يؤيدون الدول العربية[٢].

وأرجعت بعض الجهات هذه النتائج إلى ما تفعله الدعاية الصهيونية في الرأي العام في العالم الغربي ومدى عمق جذورها فيه.. إلا أن هذا

(١) قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام أبيدوا أهله، جلال العالم، مكتبة الصحابة، ص ٣١.

(٢) الإسلام قوة الغد العالمية، باول شمتز، ترجمة د. محمد شمة، طبعة مكتبة وهبة، ص ٤.

ليس راجعاً إلى الدعاية الصهيونية وحدها، بل إن ما تفعله هذه الدعاية هو تنشيط للرواسب القديمة التي خلفتها الحروب الصليبية من بغض وكراهية للمسلمين، تلك الأحقاد التي لا تزال وستظل منطلق التخطيط للعالم الغربي في علاقاته بالعالم الإسلامي في مختلف المجالات.

والمفكر الاستراتيجي الأمريكي، الرئيس الأسبق ريتشارد نيكسون، يذكر في كتابه (الفرصة السانحة): **«إن العداء للمسلمين هو الأمر الأكثر شيوعاً، والأسوأ صورة لدى جمهور الأمريكيين»، «... فكثير من الأمريكيين يتصورون أن المسلمين هم شعوب غير متحضرة، ودمويون، وغير منطقيين، ويعتقدون أن سيوف محمد وأتباعه هي السبب في انتشار الدين الإسلامي في آسيا وأفريقيا، وحتى أوروبا..؛ ولذلك فإن الكثيرين من الأمريكيين قد أصبحوا ينظرون إلى كل المسلمين كأعداء.. وليس هناك صورة أسوأ في ذهن وضمير المواطن الأمريكي من صورة العالم الإسلامي». «ويحذر بعض المراقبين من أن الإسلام والغرب متضادان.. وأن الإسلام سوف يصبح قوة جيوبوليتيكية متطرفة.. وأنه مع التزايد السكاني والإمكانات المادية المتاحة سوف يؤلف المسلمون مخاطر كبيرة.. وأنهم يوحدون صفوفهم للقيام بثورة ضد الغرب، وسوف يضطر الغرب إلى أن يتحد مع موسكو ليواجه الخطر العدواني للعالم الإسلامي»**[(١)].

وإذا كان ريتشارد نيكسون قد أعلن «أنه ليست هناك صورة في ذهن وضمير المواطن الأمريكي أسوأ من صورة العالم الإسلامي»؛ فإن صناعة هذه

---

(١) الفرصة السانحة، لريتشارد نيكسون، ترجمة أحمد صدقي مراد، طبعة القاهرة ١٩٩٢م، (ص٢٨، ١٣٨، ١٤١، ١٥٢، ١٥٣).

الصورة -في الثقافة الغربية والضمير الغربي- سابقة على قيام إسرائيل، وحقبة النفط، وحركات الجهاد الإسلامي بلا شك. يقول د. محمد عمارة: فـ (الشهادات الألمانية) تحدثنا عن أن الإفرنج منذ الحروب الصليبية -أي قبل نحو ألف عام- كانوا يطلقون على العرب والمسلمين صفات الجنس الحيواني الحقير، والكلاب والخنازير! وهي الصفات التي لا تزال شائعة في صحافة الغرب المعاصر، وفي أفلام هوليود![(١)].

وهكذا فعداء المشروع الغربي للإسلام هو موقف معلن من كثيرين في دوائر ومؤسسات صنع القرار، وليس وهماً صَنَعْته ذهنية المؤامرة، إنما يمثل مشكلة أسبق وأعمق من الوقائع الطارئة والآنية التي أثمرتها حركات البعث الإسلامي المعاصرة، أو بعض نظم الاستبداد الحاكمة، أو بعض الحركات الجهادية هنا أو هناك.

ولا يمنع وجود هذا التوجه العام من رصد شيء من التوجه الايجابي في موقف الكنيسة أو موقف عدد من الأفراد؛ فمن ذلك أن الكنيسة الكاثوليكية ناقشت في مجمعها الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢- ١٩٦٥م) العلاقة بين الكنيسة والأديان غير المسيحية ثم أصدرت بياناً إيجابياً جاء فيه: «**إن الكنيسة تنظر بعين الاعتبار أيضاً إلى المسلمين الذين يعبدون الإله الواحد الحي القيوم الرحيم القادر على كل شيء، خالق السماء والأرض، الذين (أي المسلمين) يجتهدون في أن يخضعوا بكليتهم حتى لأوامر الله غير المعلنة، كما خضع له إبراهيم، الذي يسند إليه بطيبة خاطر الإيمان الإسلامي. إنهم**

---

(١) في فقه المواجهة بين الغرب والإسلام، د. محمد عمارة، طبعة دار الشروق الدولية، القاهرة ٢٠٠٣م، (ص١٤٠).

يجلّون يسوع كنبي وإن لم يعترفوا به كإله، ويكرمون أمه مريم العذراء؛ بل إنهم بتقوى يتضرعون إليها أحيانا! علاوة على ذلك فإنهم ينتظرون يوم الدين عندما يثيب الله كل البشر القائمين من الموت، ويعظمون الحياة الأخلاقية أيضاً، ويؤدون العبادة لله لا سيما بالصلاة والزكاة والصوم. وإذا كانت قد نشأت على مر القرون منازعات وعداوات كثيرة بين المسيحيين والمسلمين؛ فالمجتمع المقدس يحض الجميع على أن يتناسوا الماضي وينصرفوا بإخلاص إلى التفاهم المتبادل، ويصونوا ويعززوا معاً العدالة الاجتماعية والخيارات الأخلاقية والسلام والحرية لفائدة الناس جميعاً»(١).

لكن الأمر لم يدم طويلاً؛ ففي أكبر وأخطر مؤتمرات الكنائس الغربية، الذي انعقد في كولورادو بأمريكا سنة ١٩٧٨م، قد أرجع هذا العداء الغربي المحموم للإسلام إلى ما رآه (الطبيعة الإسلامية المناقضة للنصرانية) كما فهمتها الكنائس الغربية؛ فقالت مقررات هذا المؤتمر: «**إن الإسلام هو الدين الوحيد الذي تناقض مصادره الأصلية أسس النصرانية.. وإن النظام الإسلامي هو أكثر النظم الدينية المتناسقة اجتماعياً وسياسياً.. إنه حركة دينية معادية للنصرانية، مخططة تخطيطاً يفوق قدرة البشر.. ولا بد من مئات المراكز التي تؤسس حول العالم بواسطة النصارى؛ للتركيز على الإسلام لفهمه، والتعامل معه، واختراقه في صدقٍ ودهاء**».

ثم ها هو البابا الكاثوليكي بينديكت السادس عشر ينسحب من هذه المواقف إلى مواقع متراجعة؛ فيغير ما أسموه بلجنة حوار الأديان إلى لجنة

---

(١) الإسلام والمسحيين، د. أليسكي جورافيسكي، سلسلة أعلام المعرفة (٢١٥)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، نوفمبر ١٩٩٦، (ص١١٧).

حوار الثقافات..، الأمر الذي يعد انقلابا على نتائج المجمع الفاتيكاني التي تضمنت اعترافاً بالديانات الإبراهيمية[١].

وبالمثل فكما رصدت تصريحات وكلمات إيجابية حول الإسلام من عشرات المثقفين والأكاديميين والسياسيين الغربيين؛ إلا أن الصوت الأعلى والكثرة والكاثرة لغير المنصفين!

(١) (لماذا يكرهونه؟) الأصول الفكرية لعلاقة الغرب بنبي الإسلام ﷺ، د. باسم خفاجي، ص ٤٦.

ثانياً: موقف مناهج التعليم الغربية من الإسلام:

إن البحث في صورة الإسلام في المناهج التعليمية في بلاد أوروبا وأمريكا، أو ما اصطلح على تسميته بالغرب، ترجع أهميته إلى معرفة تلك المرتكزات والمداخل التي يتناولون من خلالها الإسلام.

إذ إن معرفة ماذا يقولون، وكيف يقولون، ولماذا يقولون، وكيف يؤثر ما يقولون بطريق مباشر، أو غير مباشر، في عملية صنع القرار السياسي أو الثقافي أو العسكري تجاه الإسلام وأهله- من الأهمية بمكان، كما أن نخبة من أساتذة الدراسات في الجامعات الغربية تعدهم الحكومات الغربية بمثابة خبراء ومراجع في شأن الإسلام، وتطلب منهم تقديم الشهادات والتوصيات عن ذلك الشأن للمسؤولين، ويقومون بالفعل بتقديم تلك الشهادات والتوصيات، ولكنَّ علم الكثيرين وممن يسمون بخبراء الظاهرة الإسلامية علمٌ منقوص ومشكوك فيه، ومعارف أكثرهم تحتاج إلى أن تُوازن بوجهة النظر الإسلامية؛ حتى تقترب من الصواب، وتعطي إفادات وشهادات لا تضر بالمسلمين ولا بمصالح الدول الغربية.

كما تؤثر الكيفية التي تتم بها دراسة الإسلام في المدارس والجامعات أيضاً بنحو أو بآخر في قطاعات من الرأي العام الغربي، وتؤثر لذلك في علاقة الغربيين بالمسلمين على صعيد العالم الإسلامي وعلى مستوى الجاليات المسلمة في الغرب.

ومن ناحية أخرى تفيد دراسة (الإسلام في المناهج الغربية المعاصرة) في

تحديد ما يمكن أن يفعله الخبراء والعلماء وصناع القرار في العالم الإسلامي لمساعدة الغربيين على دراسة الإسلام دراسة علمية نـزيهة وعميقة وذات جـدوى؛ بحيث تـؤدي دوراً إيجابياً في إطـار حـوار الحضارات، وتحسين العلاقات المتوترة بين الكثير من دول العالم الإسلامي والعالم الغربي(١).

وقبل تدوين أية ملاحظات حول مسألة عرض الإسلام في المناهج الغربية، تجدر الإشارة إلى أن هذه المناهج قد تأثرت بشكل مباشر بما خلفته الحركة الاستشراقية من تراث، والذي يمتد إلى قرابة قرنين من الزمان، وخلَّف نحواً من ٦٠,٠٠٠ كتاب عن الشرق المسلم(٢).

ولا ريب أن أصدق مفهوم للاستشراق هو العلم في خدمة السياسة والاستعمار؛ وهدفه إذابة الشخصية الإسلامية، وتغيير ما بنفس المسلمين من إيمان بالإسلام ومُثُلِه، ونظمهِ ولغتهِ وحضارتهِ، والتنكر لكل هذا، وقطع الصلة بين المسلم وبين دينه وربه ونبيه(٣).

وحركة التنصير هي صنو حركة الاستشراق في تشويه صورة الإسلام؛ فقد كان المنصرون رواداً في مهنة التعليم في الغرب؛ حيث كانت المدارس في أوروبا تقام في الكنائس، وفي أمريكا تَولّى مهمة التعليم الآباء المنصرون

---

(١) الإسلام في المناهج الغربية المعاصرة، د. محمد وقيع الله، ط١، ٢٠٠٦م، ص ٢٥-٢٦.

(2) Orient alism and the west: An attack on learned ignorange Time. april 16.1969, p54.

(٣) الإسلام والدعوات الهدامة، أنور الجندي، طبع المختار الإسلامية، القاهرة ١٤١١هـ، ص ٢١.

الفارون بدينهم من الاضطهاد الذي لقوه بأوروبا، وقد كان في طليعة أهدافهم تشويه مواد الدراسات الإسلامية، حتى يقطعوا الطريق على الإسلام، وكان عليهم أن يصوروا العقيدة الإسلامية بصورة منكرة؛ حتى يبذل مواطنوهم أقصى جهد لتنصير المسلمين وإنقاذهم من هذا الدين الوثني كما يصورونه لهم[1].

وفيما يلي عدد من الملاحظات حول موقف المناهج الدراسية في الغرب من الإسلام:

- في دراسة علمية أعدها كل من (سوزان دوغلاس) و (روس دون) بعنوان (**تفسير الإسلام في المدارس الأمريكية**) استعرض الباحثان محتويات ستة كتب تعليمية تعرضت للإسلام ودُرِّست للطلاب من الصف السادس إلى الثاني عشر.

وقد أشارت الدراسة إلى أن الطالب فيما سبق كان يتخرج من الدراسة الجامعية لا يعرف شيئاً عن الإسلام، إلا أنَّ تحسُّناً طرأ في هذا الاتجاه بعد تغيير في الدستور الأمريكي سنة ١٩٨٨م سمح بتدريس الأديان كافة في المناهج التعليمية، فنال الإسلام حظّاً من ذلك الاهتمام.

ولكن الذي ورد في هذه المناهج الدراسية يثير عجباً! حيث قيل: إن الإسلام نسخة معدلة عن الديانتين اليهودية والنصرانية، وقطعت الصلة

---

(١) التبشير والاستعمار في البلاد العربية، د. مصطفى الخالدي، د. عمر فروخ، المكتبة القصرية، صيدا ١٩٧٧م، (ص ٣٩-٤٥).

بين الإسلام والمسلمين من جهة وبين إبراهيم -عليه السلام- من جهة أخرى. ثم حملت هذه الكتب على انتشار الإسلام؛ على أساس كونه لم ينتشر إلا بالسيف، وأنه يضطهد غير المسلمين، ويصادر حقوق المرأة، وفي الوقت نفسه لا تذكر تلك المناهج عن حضارة الإسلام شيئاً.

وقد علق الباحثان على أن هذه الكتب حين تنصف الإسلام فإنها تكتفي بذكر حقائق جافة ولا تعطيها التفسير الصحيح اللائق، حتى إنها تصور عبادات المسلمين على أنها جزء من بقايا الوثنية، وهو ما يتطابق مع كلام المستشرقين القدماء(١).

وفي دراسة أعدها د. مايكل سليمان أستاذ العلوم السياسية بجامعة (كنساس) بأمريكا بعنوان (تأثير المقررات الدراسية في الثانوية على تكوين المخيلة الأمريكية لشعوب الشرق الأوسط)، ومن خلال استطلاع إحصائي لآراء الأساتذة والطلاب في المدارس الثانوية في ست ولايات أمريكية، انتهى الباحث إلى أن هذه الشريحة يعبِّرون عن آراء تعميمية سلبيةٍ عدائيةٍ عن الإسلام والمسلمين، وقلما يعبرون عن آراء إيجابية.

وقد نقل في دراسته قول بعضهم في تعريفهم للإسلام: «**إنه دين زائف**»، أو «**إنه الإيمان الذي يعوق التفكير الخلاق**»، أو «**إنه الدين الذي يسبب تخلفاً في نمو نهضة أتباعه**».

---

(1) Susan L. Duglass, and Rosse. Dunn «Interpreting Islam in American Schools» The Annual of American academy of political and social sciences, p. 588. July 2003 p.62.

أما تصور الطلاب للمسلمين فهو أنهم: «**قوم يحبون الحروب بطبيعتهم**»، أو «**قوم متدينون مخدوعون من رجال الدين**»، أو «**أنهم أصحاب الدين العجيب غريب الأطوار**».

وكثير من أولئك يربطون بين الإسلام والحروب الصليبية، ومنهم من يربط بينه وبين تنظيمات الأمريكان السود في أمريكا من أتباع النبي محمد ﷺ، ظانين أنهم يمثلون الإسلام الحق.

وكما أشارت الدراسة إلى أن عدداً من الأساتذة كان يحمل انطباعاً جيداً عن الإسلام وأهله، إلا أن إلمامهم بالإسلام ليس كافياً.

وفي دراسات حديثة عن المناهج الدراسية في المراحل من الابتدائية إلى الثانوية في أمريكا، ظهر بوضوح أن تحسناً كبيراً قد طرأ على مناهج الدراسات التاريخية، وأن تصحيحات كثيرة قد طرأت على المناهج بما يتفق مع عدد من الحقائق، مع حرصٍ على توخي الدقةِ واللياقة قدر الإمكان.

وفي دراسات أخرى عُنيت بالمناهج الدراسية الأوروبية في المراحل ذاتها ظهر أن المناهج في إنجلترا تميل إلى تجاهل المسلمين وتبخيس معطياتهم الحضارية، وأن تحسناً ملحوظاً قد بدأ في المناهج الفرنسية، في حين أن المناهج الدراسية الألمانية لا تزال مشبَّعة بنزعة عدائية شديدة تجاه الإسلام وأهله، بتأثير التراث الاستشراقي الذي خلفّه أمثال (جوزيف شاخت) و (أوغست فيشر)، ولوحظ الاستخفاف بالإسلام وتاريخه وثقافته في

المناهج البلجيكية. وأما المناهج في كندا فإن سياستها الصارمة في هذا الأمر هو الحيادية التامة؛ فهي تطبق علمانية لا تبيح لمؤلفي الكتب المدرسية أن يتهجموا فيها على أي دين، بما في ذلك الإسلام[(١)].

وأما في الجامعات الغربية فإن دارسة الإسلام فيها يرجع إلى القرون الوسطى، وهذا تاريخ له دلالته وتوجهه؛ الأمر الذي صبغ الدراسات القديمة بصبغة تحريف و تشويه وافتراء، غير أنه -وبالجملة- بدأت هذه المناهج بالتغير وإحلال الكتب الجديدة مكان القديمة، وهذه سياسة تنتهجها الجامعات الغربية عموماً؛ مما أدى إلى تكاثر نسبي في الكتب المحسنة؛ الأمر الذي سيؤدي إلى مزيد من التحسن في نظرة الغربيين إلى الإسلام وأهله.

وعموماً فإن كتب الدراسات الجامعية تدور محاورها حول القضايا التي يهتم بها الغربيون عادة، مثل: قضايا الجهاد، والفلسفة، والتصوف، والمرأة، وما يدعونه بـ (الوهابية) هي الأكثر عنايةً من قبل هذه المقررات، في مقابل ضعف ظاهر في دراسة السنة والسيرة والتشريع الإسلامي.

وفي دراسة أعدها البروفسور خالد بلانكنشب حول صورة الإسلام والمسلمين في كتب الدين المعاصرة المقررة بجامعات أمريكا الشمالية، ينتهي إلى أنه يختلف تصوير المسلمين في الكتب الدراسية بأمريكا الشمالية اختلافاً كبيراً، من ناحية الكم والكيف؛ فلا تزال كثير من الكتب تشتمل على بعض الصور والقوالب المعادية للإسلام، وذلك

---

(١) يراجع: الإسلام في المناهج الغربية المعاصرة، د. محمد وقيع الله (ص ٦٩-١٦٥).

على الرغم من جهود الناشرين مؤخراً في محاولة لتقديم صورة عادلة ومعقولة للإسلام[١].

ولا شك أن عوامل عدة أثرت في إيجاد هذا التوجه الملائم، منها ما وُجِّه لحركتي التنصير والاستشراق من نقد مستحق، كما فعل د. إدوارد سعيد في كتابه (الاستشراق) وسار في دربه عدد من الباحثين كالدكتور عبد اللطيف الطيباوي؛ الذي قدم دراستين عن تجنِّي المستشرقين على الإسلام، واتهامهم له بالنقائص، كما أفصحت عدد من الدراسات عن ضعف الجوانب العلمية، وطغيان التحيز في كثير من تلك الدراسات[٢].

كما ساعد على هذه التغيرات إعداد معايير خاصة للتعبير والكتابة في المقررات الدراسية، والتي تمنع من إسقاط رأي المؤلف في ثنايا عباراته، أو تضمينه أحكاماً لوصف دينٍ ما أو عقيدة ما، وقد خرجت عدة توصيات من أكثر من جهة دولية اعتبارية تدعو إلى مراعاة تلك الضوابط، وتحذر من سوء عاقبة إهمالها[٣].

---

(١) صورة الإسلام والمسلمين في كتب الدين المعاصرة المقررة بجامعات أمريكا الشمالية، وقائع الندوة السنوية الثالثة لمعهد العلوم الإسلامية والعربية في أمريكا، ١٣-١٥ ذي القعدة ١٤١٥هـ، (ص ٢٥١).

(٢) ومن تلك الدراسات أيضاً: دراسة د. محمد خليفة حسن، بعنوان (أزمة الاستشراق الحديث والمعاصر).

(١) كما في معهد السلام بواشنطن الذي أنشئ عام ١٩٨٤م بقرار من الكونجرس، وكان من مهمته بحث الأسباب الكفيلة بمنع انفجار الصراعات وأساليب احتوائها.

ولا ينسى في هذا المقام دور عقلاء الغربيين كالأمير تشارلز ولي عهد بريطانيا؛ الذي أُثِرت عنه كلمات منصفة بحق المسلمين(١)، وكذا عدد من الأكاديميين والمثقفين المعتدلين.

كما ساهم عدد من الأكاديميين الغربيين بتقديم بدائل محسنة للمناهج المستفزة والمحرفة كما فعلت (أ. سوزان دوجلاس) في سلسلة الإسلام والحضارة الإسلامية، وهي تضم اثني عشر كتاباً تغطي احتياجات مراحل التعليم، بدءاً من الروضة وانتهاءً بالصف الرابع الثانوي.

كما ظهرت أدبيات بأقلام مسلمة؛ حيث رصد بعض الباحثين ٢٥ كتاباً في السنوات العشر الأخيرة بأقلام مسلمة أمريكية، كما أسهمت حملة الترجمة النشطة في هذا التحول؛ ولا سيما الترجمات الصحيحة للقرآن الكريم، وكتب السنة المطهرة، والتفسير والسيرة.

وهكذا يظهر هذا التحسن الملحوظ الذي سينعكس بدوره على الأجيال القادمة، غير أن الأمر لا يمضي هكذا في طريقه قدماً دون صعوبات وعقبات.

ذلك أن هذا الاعتدال الذي حصل مؤخراً فجّر هجوماً من قبل دعاة صراع الحضارات وأقطاب المعسكر اليميني النصراني المتطرف.

---

(٢) يراجع ترجمة خطاب تشارلز في كتاب الإسلام والغرب، وقائع المؤتمر العام التاسع للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف، القاهرة، ١٤١٨هـ ص (٨٢٢-٨٢٣).

حيث هوجم منْ تعامل مع الإسلام بموضوعية وإنصاف من أساتذة الدراسات الأكاديمية الشرقية، وصار شائعاً أن هؤلاء الأساتذة «**يقدِّمون دعاية مجانية لدين معار**».

وانبرى صاموئيل هنتنغتون، الأستاذ بجامعة هارفارد؛ فلم يكتف بمؤلَّفه صراع الحضارات عام ١٩٩٣م، حتى أصدر بعد أكثر من عشر سنوات وبالتحديد عام ٢٠٠٤م دراسته بعنوان (من نحن؟)، وقد شنّ فيه هجوماً على ما أسماه: الإسراف في تدريس ثقافات وأديان الأمم الأخرى، ومن بينها الإسلام، في إطار المناهج الأمريكية. وقد أشار إلى بروتستانتية أمريكا وأنها أصبحت في خطر بسبب تلك الدراسات الأجنبية الوافدة من ثقافات وحضارات وأديان العالم الأخرى؛ الأمر الذي سيقود إلى تفكيك الوحدة الثقافية الأمريكية، ثم قال: «**أما ما يرمي إليه دعاة التعدد الثقافي حالياً فهو العكس من ذلك؛ فهم يطالبون بتقليل دروس اللغة الإنجليزية، وإيقاف عملية تشرب الطلاب الأمريكيين بقيم الثقافة الأمريكية، وأسوأ من ذلك إعطاؤهم فرصة لدراسة لغات وثقافات وقصص أبطال الأمم الأخرى كالأمم الإسلامية**»[1].

إن مما حفّز هنتنغتون، وهو من أتباع المدرسة الوضعية المنطقية، لأنْ يكتب (صراع الحضارات) ما يشهده من هذا التحسن الطارئ على صورة الإسلام، وأنه لا يمكن أن يوقف هذا المد سوى توجه ديني أصولي

(1) Samuel Huntington, who Are we, the challenge to Americans national Identity, Simon of schustes, New York, 2004, p. 62-64, p.173.

بروتستانتي إنجيلي متطرف؛ فكتب صراع الحضارات، ثم لم يلبث أن انحاز عن أطروحة صراع الحضارات إلى أطروحة أضيق هي صراع الأديان، وها هو يستثمر توجهات اليمين الأمريكي وطاقاته لصالح دعوته الصراعية.

ولعل من أسباب صدور كتابه الأخير ما ألفه البروفسور (مايكل سيلز) بعنوان (الاقتراب من القرآن، التنـزلات الأولى: The early revelatious Aprooching The Qura'an).

حيث قدم الكاتب ترجمة أمينة لخمس وثلاثين سورة مكية إلى الإنجليزية، وغدا كتابه مقرراً ضمن مادة الإرشاد الثقافي بجامعة كارولينا الشمالية لطلبة السنة الأولى.

وهنا قامت العاصفة مدوية؛ فصرّح أحد زعمائهم (سام إيليز)، عضو مجلس النواب قائلاً: «**إن مواطني الولاية لا يريدون لأبنائهم الطلاب الجامعيين أن يقرؤوا هذا الشر الذي قررته عليهم الجامعة كمادة إجبارية**»[1]، وتحدث السياسي (بيل أوريلي) قائلاً: «**إن القرآن كتاب أعدائنا الدينيين، وهو شبيه بكتاب (كفاحي) لهتلر؛ فكيف نسمح بتدريسه لطلابنا الجامعيين؟!**»[2] .

ومع هذا فإن سجالاً قد قام في أمريكا وعلى صحفها اليومية؛ فصحيفة USA Today نشرت في افتتاحيتها ٨/٨/ ٢٠٠٢م: «**إن الأمة الأمريكية**

(1) Clande Salhani, «Koranic misreading» Culture vulture colamn, United pres International 2002-AUG-9.

(2) Joe Glover «Book Jail's to tell whole Trath, USA to day 2002- AUG-8.

تحاول أن تتفهم أبعاد ما جرى في ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، وأن تستخدم كل الإمكانيات المتاحة لديها، ولا تحتاج أن تبعث مزيداً من الكراهية باسم الدين. وأما وصف البعض للمسلمين بأنهم العدو، فإنه أمر لا يفيد إلا فئة المسلمين المتطرفين الراديكاليين الذين يحاولون تصوير الحرب الأمريكية على الإرهاب أنها الحملة الصليبية الغربية على الإسلام».

وقد انبرى عدد من الأساتذة للدفاع عن زميلهم بما يدعم مسيرة الاعتدال؛ فقال البروفسور (كارل إيرنست): **إن (سيلز) قدم إسهاماً جوهرياً للأدبيات الدينية يجب أن يهنأ عليه، وأنه سيلقى ترحيب العلماء والطلاب والمؤمنين الذين يبتغون فهماً صحيحاً عن الإسلام وكتابه المقدس**»[1].

وانبرت د. كارين أرمسترونج أستاذة الإسلاميات بجامعة فرجينيا قائلة: «**إن مايكل سيلز قد أنجز خدمة لا تقدر بثمن، وذلك بأن جعل جمال القرآن، وطاقته الروحية، وقوته المقنعة متاحة للقارئ الغربي لأول مرة**»[2].

ثم إن مارتن كريم أستاذ الدراسات الشرق أوسطية، ورئيس دورية الشرق الأوسط، ومدير مركز (موشي ديان) للدراسات الشرق أوسطية والإفريقية بجامعة تل أبيب، والأستاذ بعدد من الجامعات الأمريكية -شنَّ حرباً على أقسام الدراسات الإسلامية والشرق أوسطية بالجامعات الأمريكية، متهماً إياها بأنها صارت تعنى بتقديم الإسلام المعتدل للأمريكان، بدلاً من أن

(٣) الإسلام في المناهج الغربية المعاصرة (ص ٤٢١، ٤٢٢).

(١) الإسلام في المناهج الغربية المعاصرة (ص٤٢١-٤٢٢).

يوفروا المعلومات الصحيحة لدعم اتخاذ القرارات حول الشرق الأوسط. وزاد من حملته على التعليم العام أيضاً؛ فأنشأ منظمةً لمراقبة الطريقة التي تدرس بها الإسلاميات في الجامعات، والتي تسمى مراقبة الحرم الجامعي، ومهمتها التبليغ عما يقوله أساتذة الإسلاميات وأساتذة الدراسات الشرق أوسطية، مما لا ينسجم مع الرؤية الصهيونية المتطرفة(١).

الأمر الذي حدا مجلس الأمن القومي الأمريكي أن يتدخل فيكلف معهد بحوث السياسات الخارجية التابع له بمتابعة الأمر والتوجيه بشأنه؛ فعُقِد مؤتمر في ٣-٤ مايو ٢٠٠٣م ليبحث عمّا يمكن أن يكون في دراسة الإسلام من محاذير، وتناول المؤتمر بالبحث موضوعات عدة، ودارت فيه مناقشات مستفيضة لينتهي إلى تحذير الأساتذة من دمغ المسلمين بالتُّهم وتصويرهم على أنهم شيء واحد؛ فالإسلام ليس ظاهرة ساذجة والمسلمون لم يخرجوا من قالب واحد.

مع ملاحظة أن العداء الإسرائيلي قد قاد المسلمين للعداء مع الأمريكان، ولم يكن ذلك معهوداً من قبل ظهور الصراع العربي الإسرائيلي، ولا يخفى ما في هذه النتيجة من إيجابية في مقابل تلك الرؤية الصهيونية المتطرفة.

---

(2) http://www.campus_watch.org.

ثالثاً: صورة النبي ﷺ في التراث الغربي.

إذا كانت الصورة عن الإسلام على النحو الذي ظهر؛ فلا شك أن ممثّله الأول سيناله القسط الأكبر من التجنّي والتشويه.

ولا تزال ذاكرة التاريخ تحفظ أن يوحنا الدمشقي (٦٧٦م- ٧٤٩م) (٥٥-١٣١هـ) قدم كتابه الذي أسماه بالهرطقة يهاجم فيه النبي ﷺ وسيرته، زاعماً أن القرآن من وضع بحيرى الراهب وبمساعدة من النبي ﷺ، الذي أخذ عن ورقة بن نوفل؛ وكان قسّاً يترجم الأناجيل المحرفة إلى العربية.

وفي سياق العصور الوسطى ذكر بيدرو باسكال: «**إن المصادر الإسلامية تفيد بأن راهباً مرتداً عن النصرانية يقال له: بحيرى، رأى محمداً، وقربه إليه، وعلمه الدين المحَّرف، وحذر عمه أبا طالب من أن يصيبه اليهود بسوء، وسرعان ما تعلم محمد أمور الرهبنة، وانقطع للتنسك بجبل في مكة، مهيئاً نفسه لتزوير كتاب ديني يزعم أنه أوحي إليه**»(١).

وعلى هذا المنوال نسج البريطاني جون مانفيلد الذي عاش في القرن الرابع عشر الميلادي؛ حيث قال: «**حين تشبع محمد من أفكار الراهب قام بكتابة نص ديني خاص به سماه القرآن الكريم، ثم هجم بمعية أتباع**

---

(1) N.A.D Daniel, Islam and the West: The making of an image. Edinburgh university press, Edinburgh, 1966, P.235.

له على الراهب بحيرى، وحصره واجتز رأسه بالسيف. ولما كان محمد سكراناً حينها؛ فإنه لم يدر ما فعل، إلا أنه لما أفاق وأدرك ما جنت يداه أصدر أمراً عامّاً بتحريم الخمر؛ فغدت منذ ذلك اليوم محرمة على جموع المسلمين»[(١)].

كما أن مارتن لوثر الألماني رأس الكنيسة البروتستانتية كان (صانع صورة) من الأكاذيب الغريبة؛ يهدف من ورائها إلى شحن العامة بالأحقاد ليتحولوا إلى وحوش في حربهم ضد الأتراك المسلمين..؛ ومن أجل ذلك قال في إحدى (مواعظة): «**أرى أن القساوسة عليهم أن يخطبوا الآن أمام الشعب عن فظائع محمد؛ حتى يزداد المسيحيون عداوة له، وأيضاً ليقوى إيمانهم بالمسيحية، ولتتضاعف جسارتهم وبسالتهم في الحرب، ويضحّوا بأموالهم وأنفسهم!**».

وامتداداً لهذا الإفك فقد ذهبت دراستان ألمانيتان معاصرتان إلى أن الأوربيين قد ادعوا: «أن محمداً ﷺ كان في الأصل كاردينالاً كاثوليكيّاً، تجاهلته الكنيسة في انتخابات البابا؛ فقام بتأسيس طائفة ملحدة في الشرق انتقاماً من الكنيسة، واعتبرت أوروبا المسيحية في القرون الوسطى محمداً ﷺ المرتد الأكبر عن المسيحية، الذي يتحمل وزر انقسام نصف

---

(١) نقلاً عن (الإسلام في المناهج الغربية المعاصرة) د. محمد وقيع الله أحمد، ط ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م، ص٥٠. Reeves, M.P. 106.

البشرية عن الديانة المسيحية!»[١].

فهذه الشهادة الألمانية هي التي تفسر لنا (الشهادة الإنجليزية) للقائد الإنجليزي جلوب عن أن مشكلة الغرب مع الإسلام إنما تعود إلى القرن السابع للميلاد.

ومن أسوأ من كتب عن النبي ﷺ من مشاهير كتاب أوروبا عبر قرون متطاولة هو الإيطالي دانتي (١٣٢١م- ١٤٦٥م) في ملحمتة الشعرية (الكوميديا الإلهية).

حيث وضع نبي الله ﷺ ومعه علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- في الخندق التاسع من الحلقة الثامنة في الكوميديا الإلهية كما أسماها، وهذا الجزء من الجحيم -كما يدعي دانتي- قد تم تخصيصه لمثيري الصدامات والانشقاقات الدينية والسياسية، ومن يزرعون الفتن فيحصدون الأوزار[٢].

وانتشرت منذ ذلك الوقت القصص الأسطورية المختلقة التي تتعمد إهانة النبي ﷺ، أو التشكيك في نبوته أو دعوته، أو استحقاقه للاحترام والتقدير. وقد نشرت على نطاق واسع في أوروبا الحكاية الأسطورية القائلة: إن محمداً قد درّب الحمامة لتنقر حبوب القمح من أذنه، وبذلك

---

(١) (صورة الإسلام في التراث الغربي)، هوبر هيركومر، وجيرنوت روتر، ترجمة ثابت عيد، ص ١٨-٢١.

(٢) الكوميديا الإلهية، لدانتي، ترجمة حسن عثمان، دار المعارف، مصر، ١٩٩٥م، ص ٧٣-٧٧.

أقنع العرب، أن تلك الحمامة هي رسول الروح القدس، الذي كان يبلِّغه الوحي الإلهي. وعممت هذه الحكاية المختلقة إلى درجة أن الشاعر الإنجليزي جون ليدهيت -وهو من شعراء القرن الخامس عشر- عندما وضع سيرة لحياة محمد، سمى لون تلك الحمامة (حليباً- أبيض)[(١)]! كما ردد هذه القصة المضحكة مؤرخون وأدباء أوروبيون!

كما كانت الصور النمطية تؤكد أن الإسلام دين يدعو إلى الشهوانية، وأن نبيه يجتذب الناس إلى دعوته من خلال ذلك، وجرى التركيز على وصف أن الإسلام هو دين البسطاء ومتوسطي الذكاء، وهو وصف لا يزال يتكرر في أدبيات الغرب المعاصرة؛ فمثلاً يؤكد القديس توما الأكويني المزاعم القائلة: إن محمداً أغوى كثيراً من الشعوب للدخول في عقيدته، من خلال تشجيعه إياهم على الحصول على الملذات والشهوات الحسية، وعن طريق الوعود التي قطعها لهم ضمن هذا التوجه الغرائزي... يتابع الأكويني السير في هذا المنحى المتحيز، مؤكداً أن محمداً أسس قواعده وأحكامه التشريعية، التي تتناسب مع قدرات وإمكانات العقل المتوسط وحسب[(١)].

ومن عجب أن الشاعر الألماني جوته (١٧٤٩م- ١٨٣٢م)، الذي ادعى هياماً بالشرق والشرقيين يزعم: «أن النبي ﷺ قد نصب حول العرب غلافاً دنيئاً كئيباً، وعرف كيف يحجب عنهم الأمل في أي تقدم حقيقي»[(٢)].

---

(١) (الشامل في الرد على الكفرة) توما الأكويني، عن: (صورة الإسلام في التراث الغربي)، ص٤٣.

(١) نقلاً عن: (في فقه المواجهة بين الإسلام والغرب)، د. محمد عمارة، ص١٤١.

وكذا الفرنسي فولتير يرى في شخصية ﷺ نموذجاً للتعصب والتطرف، فيقول: «**إنني أصور محمداً متعصباً، عنيفاً ومحتالاً..، وعاراً على الجنس البشري، الذي حول التاجر ليصبح نبياً مشرِّعاً وملكاً. محمد إنه يجسد خطر التعصب**»(١).

الأمر الذي حدا نابليون أن قال عن مقالة فولتير السابقة: «**إنه هنا قد تخلى عن التاريخ والقلب الإنساني**»(٢).

ولا تزال لوحات كنسية تنتشر في بلجيكا وإيطاليا وغيرها تعرض صوراً مزعومة للنبي ﷺ وهو يعذب في النار!(٣).

وأما ما يساق في عالم اليوم من الشبهات والافتراءات على أيدي قسيسين وسياسيين ومفكرين معاصرين وإعلاميين، فأكثر من أن يذكر أو أن ينقل.

وتكفي في هذا الصدد مطالعات سريعة لمحطات البث النصراني، والجامعات الأصولية المسيحية، ومواقع الإفك الإلكتروني، وما يبثه أمثال: بات روبرتسون، وفرانكلين جراهام، وجيري فاينز، وجيري فالويل، وأخيراً بابا الفاتيكان!

---

(٢) لماذا يكرهونه؟)، (ص٥٢-٥٣)، نقلاً عن: (حول مفهوم الشخصية) أ.ب كوبزيف (ص٦٧٦).

(3) N. Daniel, Islam, Europe and Empire.

(٤) (لماذا يكرهونه؟)، د. باسم خفاجي، ص٣٦-٣٨.

رابعاً: أسباب التطاول على دين الإسلام وخير الأنام ﷺ:

لقد بان من خلال العرض السابق لصورة الإسلام ونبيه في التراث الغربي القديم والمعاصر ومناهج التعليم أن أسباب هذا التطاول متعددة، ويمكن تصنيف هذه الأسباب إلى فئات محددة.

أولها: الأسباب الدينية:

ويمكن بسهولة فهم هذه الأسباب محررة في النقاط التالية:

١- منع المسيحية من الانتشار والتوسع:

حيث يبدأ ذلك من تحرير الشرق بالتوحيد الحق، يقول ليفي ستراوس: «**إن وجود الإسلام قد لعب دوراً مزعجاً؛ لقد قطع إلى نصفين عالماً كان يستعد للاتحاد، وتدخَّل بين الهللينية والشرق، بين المسيحية والبوذية، لقد قام الإسلام بعملية أسلمة للغرب، ومنع المسيحية من أن تتعمق**»(١).

ويقول آخر: «**لقد أمكن لمحمد أن يكوِّن إمبراطورية سياسية ودينية على حساب موسى والمسيح**»(٢).

ولو أن هؤلاء استمعوا إلى المنصفين من بني جلدتهم ما صدرت عنهم تلك المقولات.

---

(1) Levi - strauss, Tristes Tropiques, pp.437.

(٢) أوروبا والإسلام... صدام الثقافة والحداثة، هشام جعيط، دار الطليعة، بيروت، ط٢، ٢٠٠١م، (ص١٣).

يقول جوستاف لوبون: «**سيرى القارئ -حيث يبحث في فتوح العرب وأسباب انتصاراتهم- أن القوة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن الكريم، وأن العرب تركوا المغلوبين أحراراً في أديانهم**»، ويقول أيضاً: «**لم ينتشر القرآن الكريم بالسيف.. بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب**»(١).

ويقول الكونت هنري دي كاستري في كتابه الإسلام (خواطر وسوانح): «**فلم يُكره أحد عليه - أي الإسلام- بالسيف ولا باللسان، بل دخل القلوب عن شوق واختيار، وكان نتيجة ما أودع في القرآن الكريم من مواهب التأثير والأخذ بالألباب**» (٢).

٢- التقابل بين عقيدة التوحيد والتثليث:

فكما تقوم عقيدتهم على تقديس الإنسان واعتباره إلهاً أو ابن الإله، وجعله محور هذا الكون؛ فإن عقيدة التوحيد تقوم على ضد ذلك كله؛ فهي لا تثبت ألوهية أحد دون الله، ولا تقبل أن يخرج الإنسان عن طوره، ونبي الإسلام ﷺ هو عبد الله ورسوله، كما أن عيسى ﷺ عبد الله ورسوله، والمسؤولية فردية أمام الله في الآخرة، ولا يحمل أحدٌ عن أحد خطيئته يوم القيامة.

قام مجموعة من كبار المحاضرين وأساتذة اللاهوت في جامعات لندن

---

(١) حضارة العرب، جوستاف لوبون، ترجمة محمد عادل، (ص١٤٥-١٤٨).

(٢) نقلاً عن: الإسلام في قفص الاتهام (ص١١٠).

وبيرمينجهام وأكسفورد بإعداد دراسة كانت بعنوان (**أسطورةُ تجسُّدِ الإله في السيد المسيح**)، يقول أحد الباحثين (دون كوبيت) في خاتمة بحثه لهذه الدراسة: «**ومقياس التدين الصحيح بمفهومه الحقيقي يتطلب ألا تصبح دراسة شخصية المسيح نوعاً من مذهب عبادة الإنسان للإنسان؛ إذ يجب التركيز على الله وليس على المسيح**»[(١)].

٣- قوة الإسلام الذاتية:

وهي قوة معنوية خارقة تملأ المسلم قدرة وحماساً، وتعين على الانتصار على نفسه أولاً وعلى أعدائه الخارجيين ثانياً. وهي قوة مادية عادلة يطالب الدين كل مؤمن بتحصيلها، يقول -تعالى-: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، ويقول ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف**»[(٢)].

والعجب أن يتخذ بعض مفكري القرون الوسطى من هذا المعنى دليلاً يسوقه ضد الإسلام! يقول دانيال: «**إن استعمال القوة كان تقريباً معتبراً بالإجماع كخاصية كبيرة وأساسية للدين الإسلامي، وبالتالي فهو دلالة بدهية على ضلال الإسلام**»[(٣)].

---

(١) (أسطورة تجسد الإله في السيد المسيح) جون هاك، ترجمة د. نبيل صبحي (ص١٧).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب: في الأمر بالقوة ترك العجز، (٢٦٦٤)، من حديث أبي هريرة مرفوعاً.

(3) N. Daniel Islam and the west pp. 146.

والحق أن هذا الخوف من قوة الإسلام العقدية والفكرية والسياسية والتشريعية على حد سواء، هذا الخوف هو الذي يحرك هذا الاتهام، يقول جولدزيهر: «**إن الإسلام قد جعل الدين دنيوياً؛ لقد أراد أن يبني حكماً لهذا العالم بوسائل هذا العالم**»(١).

وهذا برنارد لويس، مستشار البيت الأبيض الأمريكي يقول: «**إننا نواجه مزاجاً وتحركاً سيرفعان إلى حد كبير من وتيرة القضايا والسياسات التي تنتهجها الحكومات، وهذا ليس صدام حضارات. قد يكون هذا هو رد الفعل اللاعقلاني؛ بل التاريخي لخصم قديم على تراثنا اليهودي المسيحي، وحاضرنا العلماني، وانتشارهما على نطاق عالمي**»(٢).

ثانيها: الأسباب الفكرية والثقافية.

لا شك أن حروباً ثقافية فكرية اجتماعية استمرت داخل الحضارة الغربية لأكثر من سبعين عاماً بين الرأسمالية والشيوعية، والليبرالية والشمولية. وقد حُسِمت القضية لصالح الليبرالية الغربية، وقُضي على الشيوعية قضاء مبرماً؛ وعلى أساس هذا جاء كتاب (نهاية التاريخ) لِفوكوياما، ثم تبعه اليهودي هنتنغتون في (صراع الحضارات)، ثم عاد فوكوياما بعد قارعة سبتمبر ٢٠٠١م ليتحدث عن «**الحداثة التي تمثلها أمريكا والغرب، والتي ستبقى القوة المسيطرة في السياسة الدولية.. وعن مبادئ**

---

(١) نقلاً عن: «لماذا يكرهونه؟» (ص٨٢).

(٢) الإسلام هو العدو الأول للإمبراطورية الأمريكية، جريدة الاتحاد، أبو ظبي، ٩-٩-٢٠٠٣م.

الغرب التي ستستمر في الانتشار عبر العالم».

وكتب عن استعصاء الإسلام وحده على الخضوع لهذه الحداثة الأمريكية، والقبول بهذه المبادئ الغربية «التي تلقى قبولاً كبيراً لدى الكثيرين من شعوب العالم غير الغربية، إن لم نقل: جميعها.. بينما الإسلام هو الحضارة الوحيدة في العالم التي يمكن الجدال بأن لديها بعض المشاكل الأساسية مع الحداثة الغربية؛ فالعالم الإسلامي لا يرفض فقط السياسات الغربية، وإنما يرفض المبدأ الأكثر أساسية للحداثة الغربية؛ وهو العلمانية نفسها... وإن الصراع الحالي ليس معركة ضد الإرهاب؛ ولكنه ضد الأصولية الإسلامية التي تقف ضد الحداثة الغربية. وهذا التحدي -بالنسبة لأمريكا- هو أكثر أساسية من الخطر الذي شكلته الشيوعية».

وأخيراً فقد عاد هنتنغتون بعد سبتمبر ٢٠٠١م داعياً إلى ما سماه بـ «حرب داخل الإسلام؛ حتى يقبل الإسلام الحداثة الغربية والعلمانية الغربية.. والمبدأ المسيحي: فصل الدين عن الدولة»، وهو بهذا يصادق على كلام فوكوياما الذي قال: «وإن التطور الأهم يجب أن يأتي من داخل الإسلام نفسه، وعلى المجتمع الإسلامي أن يصل إلى وضع سلمي مع الحداثة، وخاصة فيما يتعلق بالمبدأ الأساسي حول الدولة العلمانية»[1].

---

(١) تراجع: دراسات فوكوياما وهنتنغتون في العدد السنوي من مجلة النيوزويك الأمريكية، ديسمبر ٢٠٠١م، فبراير ٢٠٠٢م.

وهما بهذا يتجاوبان بعد أكثر من عشر سنوات في اتساق واضح مع مجلة دراسة (شؤون دولية) -التي صدرت في (كمبردج) بإنجلترا في يناير ١٩٩١م- عقب سقوط الاتحاد السوفييتي مباشرة، عندما تحدثت عن (**الأفكار الرائجة في الغرب حول الإسلام والعالم الإسلامي**)، وعندما عللت لإعلان الغرب «**أن الإسلام هو العدو الذي حلّ محل إمبراطورية الشر الشيوعية**». وتحدثت عن الأسباب الثقافية لهذا العداء وهذا الإعلان للحرب على الإسلام؛ ففي (الملف) الذي نشرته المجلة، ومن خلال دراستين علميتين رصينتين؛ إحداهما عن (الإسلام والمسيحية) كتبها (إدوارد مورتيمر)، والأخرى عن (الإسلام والماركسية) كتبها عالم الأنثروبولوجيا (إرنست جيلنر)، قالت المجلة: «**لقد شعر الكثيرون -في الغرب- بالحاجة إلى اكتشاف تهديد يحل محل التهديد السوفييتي، وبالنسبة إلى هذا الغرض فإن الإسلام جاهز في المتناول.. فالإسلام من بين الثقافات الموجودة في الجنوب هو الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة؛ ليس لسبب سوى أنه الثقافة الوحيدة القادرة على توجيه تحدٍّ فعلي وحقيقي للثقافة الغربية**».

إذن فالمواجهة مفروضة (كرهاً) على المسلمين اليوم لا لشيء إلا استعصائه على العلمنة التي تصحب منظومة العولمة، التي ترمي أخيراً لتكريس التبعية وفقدان الهوية؛ فعلمنة الإسلام ومن ثمّ إلحاق الإسلام بالنصرانية الغربية؛ لإلحاق العالم الإسلامي بالغرب؛ هو الهدف الأول المعلن في كتاب (نيكسون) قبيل سقوط الشيوعية، وفي دراسة مجلة (شؤون دولية)

فور سقوط الشيوعية، وفي كتابات فوكوياما قبل أحداث سبتمبر وبعدها!

وإذا كان الكاتب الاستراتيجي الأمريكي اليهودي (صموئيل هنتنغتون) قد كتب، عقب سقوط الشيوعية؛ فكشف عن واقع ممارسة الغرب لصدام الحضارات، وصراع الثقافات، وأشار على صانع القرار الأمريكي أن يبدأ مسلسل (صدام الحضارات) بالحرب على الإسلام؛ لتمييز ثقافة الإسلام عن الثقافة الغربية- فلا عجب إذن أن تصدر أمريكا أوامرها إلى عدد من الحكومات العربية والإسلامية بتغيير مناهج التعليم الديني، لتقف فقط عند الشعائر والمناسك والعبادات والشكليات والآليات، مع إلغاء كل ما يتعلق بالسياسة والاجتماع والاقتصاد والجهاد وتاريخ الغزوات والفتوحات والولاء والبراء... مع اختصار (حصص) هذا التعليم الديني -في بعض البلاد- من أربع وعشرين ساعة أسبوعيّاً إلى أربع ساعات فقط! ذلك أن الأمر كما يقول (توماس فريدمان): «**إن الحرب الحقيقية في المنطقة الإسلامية هي في المدارس**»[1].

ولا عجب أيضاً أن تضع العنصرية الصهيونية على رأس جدول أعمال المفاوضات متعددة الأطراف -منذ نحو عشر سنوات- بندَ (ثقافة السلام)؛ بدعوى أن الإسلام يحض على كراهية اليهود!

ولا عجب أن تصدر أمريكا التعليمات وتعتمد الميزانيات؛ لتكوين

---

(١) نيويورك تايمز الأمريكية، والنقل عن صحيفة وطني (القاهرة) في ٢٥-١-٢٠٠٥م.

(الدعاة والأئمة المستنيرين!) الذين سيتولون ترويج أفكار الغرب وتشكيل الجيل الجديد وإعادة صياغته! بل لقد تجاوز التدخل في التعليم الديني في البلاد العربية والإسلامية حدود المطالبة باختزال المناهج وساعات التدريس، والاكتفاء من الإسلام بالجانب العبادي والشعائري -الفردي دون الاجتماعي- تجاوز الأمر هذه الحدود إلى حيث طلبت أمريكا تحويل المدارس إلى أجهزة مراقبةٍ أمنيةٍ على المدرسين والطلاب لصالح أجهزة الاستخبارات ومكاتب التحقيقات الأمريكية! «...**فخصصت أمريكا لباكستان مائة مليون دولار؛ لكي تراجع كتب الثقافة الإسلامية -وليس فقط المناهج الدراسية- وتحكم السيطرة على المدارس الدينية، بحيث يعد ملف لكل أستاذ وطالب**»[1].

وأن يفتش عن أرباب الإسلام الطرقي المنحرف أو البدعي الضال، أو الرافضي الأثيم؛ ليتسنّم القيادة والريادة في البلاد الإسلامية بدلاً عن القيادة السنية الحقيقية.

ولا عجب أيضاً أن يحتفي الغرب بسلمان رشدي أو نصر حامد أبو زيد وغيرهم ممن احترفوا الهجوم على الإسلام وحُرَمه ومقدساته، وأن يتحولوا إلى أبطال يُستقبلون استقبال رؤساء الدول، وتنهال عليهم الجوائز والهبات!

وأن يتهجم بعض أهل الدنمارك على النبي ﷺ ويتجاوب معهم عدد

---

(١) مقال بصحيفة العربي، لفهمي هويدي، ١٣-١-٢٠٠٢م.

ليس بالقليل عبر السنة الماضية من دول الغرب، وأن ينتهي الأمر إلى كبير قساوستهم فينال من الجناب النبوي المطهر!

إن العقل الواعي بالأحداث يستطيع بأدنى تأمل أن يرى رباطاً جامعاً تلتئم منه حرب ضروس شاملة معلنة على الحرمات والمقدسات، والعقائد والأفكار، والثقافات والآداب الإسلامية، ولا مجال للتشكيك إذن بأن هنا تأثراً بنظرية المؤامرة؛ إذ الأمور جلّها معلنة لا تحتاج إلى استخفاء أو مداورة.

لقد أكدت هذه الحرب الغربية على الإسلام -أو داخل الإسلام- أن هدف الغرب السياسي هو علمنة الإسلام، وتحويله إلى صيغةٍ نصرانية؛ تقبل الفصل بينه وبين الدولة لإلغاء التميز الإسلامي، وتسهيل إلحاق العالم الإسلامي والحضارة الإسلامية بالنموذج الغربي؛ تأييداً للتبعية الحضارية، وتكريساً لعولمة التغريب. وفي هذا الإطار، سارع المستشرق اليهودي الأمريكي (برنارد لويس) -بعد ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م- إلى إصدار كتاب عنوانه (ما هو الخطأ الحادث في العلاقة بين الإسلام والغرب؟). وفي هذا الكتاب واصل أطروحاته القديمة حول «**أن إرهاب اليوم هو جزء من كفاح طويل بين الإسلام والغرب..؛ فالنظام الأخلاقي الذي يستند إليه الإسلام مختلف عما هو في الحضارة اليهودية -المسيحية (الغربية).. وآيات القرآن -بزعمه- تصدّق على ممارسة العنف ضد غير المسلمين**»[1]. وهذه الحرب -التي أعلنها الغرب بقيادة أمريكا بعد قارعة سبتمبر- هي برأي

(١) في فقه المواجهة بين الغرب والإسلام، د. محمد عمارة (ص٩٧).

برنارد لويس «**حرب بين الأديان**»[(١)].

وأخيراً:

فإذا كانت العلمانية الغربية قد أخذت مداها في التطبيق؛ فإنها آتت ثمارها النكدة لا شك في ذلك؛ ومنها إهدار كل حرمةٍ، والتعدي على كل مقدَّسٍ، وازدراء الأنبياء عامةً؛ والتعرض لموسى وعيسى -عليهما السلام- بشكل خاص، وأخيراً على نبيناً ﷺ.

ثالثها: الأسباب التاريخية والنفسية:

كان من بين ما ورثته أوروبا عن اليونان والرومان أن نظروا إلى أنفسهم على أنهم هم وحدهم المتمدِّنون، أما كل من كان أجنبياً عنهم، وعلى الأخص أولئك الذين كانوا يعيشون شرق البحر المتوسط؛ فقد كان اليونانيون والرومانيون يُطلقون عليهم لفظ (البرابرة). ومنذ ذلك الحين والأوروبيون يعتقدون أن تفوقهم العنصري على سائر البشر أمر واقع، ثم إن احتقارهم إلى حد بعيد أو قريب لكل ما ليس أوروبياً من أجناس الناس وشعوبهم قد أصبح إحدى الميزات البارزة في المدنية الغربية[(٢)].

ولقد تركت ثمانية حملات صليبية متوالية بصماتها على النفسية الغربية (٤٨٩-٦٩٠هـ/ ١٠٩٦-١٢٩١م) وهي حملات دعا إليها الباباوات،

---

(١) صحيفة الأهرام في ٢/ ٣/ ٢٠٠٢م، ٣/ ٣/ ٢٠٠٢م، نقلاً عن مقال النيوزويك، بقلم (زاخاري كاربيل) في ١٤/ ١/ ٢٠٠٢م.

(٢) الإسلام على مفترق الطرق، لمحمد أسد، ترجمة د. عمر فروخ، دار العلم للملايين (ص٥٢).

وحثت عليها آباء الكنيسة لتحقق أهدافاً دينية، أولها: القضاء على الإسلام وإزالة المسلمين ككيان ووجود، وغايتها سيطرة الصليبية وسيادتها. ونرى أن هذه السلسلة من الحروب لم تبدأ إلا بعد الجزْر الإسلامي وتوقف المسلمين عن التقدم بعد أن خسروا معركة (بواتيه) أو بلاط الشهداء. حيث إن الصليبيين قد سال لعابهم لإحراز المزيد من الانتصارات والمكاسب، وأمعنوا في مطاردة المسلمين حتى قامت دولة صليبية في قلب الأندلس وغربها، وتوالى سقوط أجزاء عزيزة في الأندلس في أيدي الصليبين وتبدّل حال المسلمين من المد إلى الجزر، ومن التقدم إلى التجمد.

ولا يزال التاريخ يذكر الخطبة الشهيرة في مجمع (كليرمون) عام ١٠٩٥م في فرنسا؛ حيث طالب البابا الملوك والحكام الأوروبيين باستعادة (أراضينا) المقدسة من (قبيلة الفرس-الأتراك) التي تخدم القوى الشيطانية على حد قوله. وقد وعدهم البابا بأن يحصلوا من هذه الحملات الصليبية المقدسة ليس على الخيرات المادية فقط من الأرض التي تفيض لبناً وعسلاً، كما جاء في التوراة، وإنما أن يصبحوا على طريق الجسد المقدس، أي على طريق الحجاج السائرين إلى القدس، وبذلك يخدمون الرب في الصراع مع (الكفار)، الذين يمنعون المسيحيين من القيام بالحج إلى الأراضي المقدسة[١].

---

(١) الإسلام والمسيحية، د. أليسكي جورافيسكي، عالم المعرفة (ص٣٤).

ولا يزال التاريخ يذكر أنه عندما دخلت الجيوش الصليبية دمشق كان أول ما فكر فيه قائدهم أنْ توجَّهَ إلى قبر صلاح الدين عند الجامع الأموي، وركله بقدمه وقال له: «**ها قد عدنا يا صلاح الدين؟!**»؛ حقد شديد وغيظ بالغ ونفسية متوترة.

وعندما سقطت القدس عام ١٩٦٧م قال تشرشل: «**لقد كان إخراج القدس من سيطرة الإسلام حلم المسيحيين واليهود على السواء. إن سرور المسيحيين لا يقل عن اليهود! إن القدس قد خرجت من أيدي المسلمين، وقد أصدر الكنيست الإسرائيلي ثلاثة قرارات بضمها إلى القدس اليهودية ولن تعود إلى المسلمين في أية مفاوضات مقبلة بين المسلمين واليهود**»[١].

وقد استغلت إسرائيل صليبية الغرب في جمع التبرعات لإعانتهم على الحرب؛ فكتبوا على صناديق التبرع (قاتلوا المسلمين!) وعندئذٍ ثار حماس أولئك الموتورين وامتلأت الصناديق مرات ومرات. وسجلت التبرعات أرقاماً خيالية لا لشيء إلا للمساعدة والعون ضد الإسلام والمسلمين.

إذن فالحرب الصليبية لم تنتهِ بعد، ولا يزال الأمل يراود أعداء الإسلام في القضاء عليه؛ حيث يعبِّرون بفرحة وشماتة عن كل ما يسئ إلى المسلمين ويضرهم، ويعربون بمزيد من الأسى عن كل نصر وتقدم ورقي للعالم الإسلامي. وكثيراً ما أخذت الحروب الصليبية أشكالاً وأسماء متعددة؛ فالتطهير العرقي هو اسم حملة الصليب في بلاد البوسنة

---

(١) نقلاً عن كتاب: قادة الغرب يقولون، جلال العالم (ص٣٢).

والهرسك مثلاً، وقمع المتمردين هو اسم حملة الصليب في بلاد الشيشان.. وهكذا.

ولم تنتهِ تلك الحملات إلى اليوم؛ فما يزال التاريخ يذكر أيضاً أن تلك الروح الصليبية ظهرت على لسان رئيس أمريكا حين وصف، في ١٦ سبتمبر ٢٠٠١م، الحرب التي سيشنها على العالم الإسلامي بأنها «**حملة صليبية**».

وتبعه بيوم واحد رئيس وزراء بريطانيا قائلاً: «**إنها حرب المدنية والحضارة (في الغرب) ضد البربرية في الشرق**».

أما وزير العدل الأمريكي (جون أشكروفت) قد علق قائلاً: «**إن المسيحية دين أرسل الرب فيه ابنه ليموت من أجل الناس. أما الإسلام فهو دين يطلب الله فيه من الشخص إرسال ابنه ليموت من أجل هذا الإله**»(١).

إنها نفسية تحمل أحقاداً تاريخية، قال -سبحانه-: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَـٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨].

وهذه العنصرية النازية الظاهرة يعبر عنها (ساندرسون) بقوله: «**إن الجنس الآري العظيم هو وحده فقط القادر على قيادة البشرية نحو طريق الحرية الدينية، والسياسية، والحرية الفكرية**»(٢).

---

(١) صحفية الشرق الأوسط، لندن، ٢١/ ٢/ ٢٠٠٢م.

(1) N. Daniel, Islam, Europeans Empire pp. 467-468.

إنها عنصرية تعبر عنها النساء كالرجال سواء بسواء، تقول وزيرة الخارجية الأمريكية (مادلين أولبرايت): «**إننا معشر الأمريكيين أمة ترتفع قامتها فوق جميع الشعوب، وتمتد رؤيتها أبعد من جميع الشعوب**»(١).

إن هذه العنصرية المتوترة جعلت الكنيسة لا تحتمل أن يصدر عن أحد رعاياها كلمة حق، أو دفاع مستحق عن الإسلام أو خير الأنام ﷺ.

فكان نصيب من يحاول هذا الدفاع أو يعلن رأيه الصريح الطرد والإبعاد من رحمة الباباوات! وما وقع للأديب الروسي (تولستوي) خير شاهد؛ فبمجرد أن كتب في مقالة له بعنوان (من هو محمد؟): «**إن محمداً هو مؤسس ورسول؛ كان من عظماء الرجال الذين خدموا المجتمع الإنساني خدمة جليلة، ويكفيه فخراً أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق، وجعلها تجنح إلى السكينة والسلام، وتؤثر عيشة الزهد، ومنعها من سفك الدماء وتقديم الضحايا البشرية، وفتح لها طرق الرقي والمدنية، وهو عمل عظيم لا يقدم عليه إلا شخص أوتي قوة، ورجل مثله جدير بالاحترام والإجلال**»(٢).

استحق من فوره الخروج من رحمة البابا ومن ثم من رحمة الله! (بزعمهم).

---

(٢) صحيفة الأهرام، القاهرة، ٣٠/ ١٠/ ٢٠١م.

(١) مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي: مكارم الغمري، عالم المعرفة (الكويت)، العدد ١٥٥، نوفمبر ١٩٩١م.

رابعها: أسباب داخلية:

بالإضافة إلى ما ذكر من أسباب دينية وفكرية وتاريخية، هناك ما عرضنا له من تشويه صورة الإسلام ونبيّه في المناهج والمقررات الدراسية، وفي التراث الغربي بصفة عامة.

غير أن ثمة أسباب أخرى تتعلق بأهل الإسلام أنفسهم؛ فإنّ الله -عز وجل- علمنا أن ما أصابنا من مصيبة فبما كسبت أيدينا، وأرشد أسلافنا الصالحين حين قالوا: أنى هذا؟! فقال -جلّ من قائل عليماً-: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

- فمن عند أنفسنا: وقع تهاون بثوابت الدين ومعاقده الكلية؛ تمثَّل في تجرؤ منتسبين إلى الإسلام، لا تقل جرأتهم على المقام النبوي المطهر عن جرأة أولئك المخالفين في أصل الدين. وما خبر (آيات شيطانية) و (وليمة لأعشاب البحر) عن مسامعنا ببعيد!

- ومن عند أنفسنا: وقع تعطيل للشرع في جوانب كثيرة، وضعف سلطان الشريعة في مجتمعات متعددة على طول العالم الإسلامي وعرضه.

- ومن عند أنفسنا: خَفَتَ صوت المحتسبين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وضعفت ولاية العلماء على الواقع اليوم.

- ومن عند أنفسنا: أساء كثير من أبناء المسلمين تمثيل الإسلام بين أهله،

فضلاً عن الدعوة إليه خارج دياره، سواء في ذلك الأفراد والمؤسسات.

- ومن عند أنفسنا: وقع التقصير في تصحيح الصورة المشوهة عن الإسلام ونبيه مما صدر بالعربية، فضلاً عما صدر بغيرها من اللغات.

- ومن عند أنفسنا: جرت تلك الممارسات المنهزمة في الدفاع عن الإسلام وثوابته، وتلك العجلة الطائشة في الرد عن الإسلام وأهله.

- ومن عند أنفسنا: حصل تشويه الإسلام بتقديمه باهتاً هزيلاً شاحباً، مع ادعاء أنه الإسلام في كماله وبهائه!

خامساً: استشراف المستقبل:

ليس من قبيل المبالغة أن نقول بعد بحث وطول درس: إن المستقبل للإسلام في الغرب، وإن الصورة المشوهة له بينهم آيلة للانحسار بإذن الله، وأن أنصاراً كثر سيركبون قطار الإسلام، وأن الإنصاف سيعلو صوته تدريجياً ولو بعد حين، ونحن نملك على هذا الاستشراف أدلة وأمارات نذكر أهمها:

أولاً: إن ذلك الاعتماد على تراث حركتي التنصير والتبشير فيما يتعلق بعرض الإسلام في المناهج آخذ في الانحسار؛ بل ويحل محله كثير من الإنصاف، ولا سيما بعد ضربات موجعة لخطط المستشرقين ومناهجهم، كما يدعم هذا التوجه الإيجابي انفتاح حضاري وتواصل ثقافي وعلمي بين الشرق والغرب، وترجمات صحيحة لكتب الإسلام الأصيلة ومراجعه الأولى، ولا سيما القرآن الكريم والسنة المطهرة.

ثانياً: إن إعداد الكتب الدراسية لا تقوم به وزارات التعليم في الغرب، وإنما تتنافس دور النشر التجارية والتي يلتزم كثير منها بإسناد الكتب إلى الخبراء الحياديين الملتزمين بدرجة كبيرة بضوابط التحرير والتأليف. كما حرص عدد منهم على استشارة المسلمين عند الكتابة، كما أن عدداً من هذه المقررات تولّى مسلمون تأليفها بأنفسهم. وتجدر الإشارة إلى أن عدداً من المراكز والمؤسسات العلمية قد تأسست في بلاد الشرق لتكتب باللغات الحية مباشرة مناهجَ المقررات وسلاسل الكتب

التعليمية بصور وأشكال راقية؛ الأمر الذي سيسهم قريباً -بإذن الله- في تصحيح الصورة وكسب مزيد من الأنصار.

ثالثاً: تزايد عدد طلاب العلم من الغربيين المسلمين الذين درسوا بجامعات إسلامية كالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، والأزهر بمصر، وغيرها. وتزايد عدد الطلاب المسلمين المتدينين في تلك المدارس والجامعات من أبناء المهاجرين القدامى والجدد. ومع تملّك هاتين الفئتين لناصية اللغة الأجنبية وحسن الفهم للقضايا والأمور الشرعية ستزيد بلا شك نسبة الوعي الصحيح ويقل الوعي الزائف.

رابعاً: مع الاهتمام بالإسلام في الجامعات الغربية زاد عدد المدرسين المؤهلين من أساتذة التاريخ والدراسات الاجتماعية، وقد لمست آثاره الإيجابية خلال العقد الأخير خاصة.

خامساً: يسمح نظام الدراسة في المدارس الغربية بتقديم مواد دراسية ذات صبغة دينية يتطوع بتدريسها الآباء وأولياء أمور الطلاب، شريطة الالتزام بعدم ممارسة الدعوة إلى الدين، وهذا مما يعين على تصحيح المفاهيم أيضاً.

سادساً: لقد أثرت عوامل متعددة في إقبال الغرب على التعرف على الإسلام من أفواه أبنائه؛ لذا يُرصد إقبال متنامٍ على مراكز تعليم اللغة العربية لغير أهلها، وهذا الإقبال يسجل من المسلمين الجدد وكذا من غير المسلمين؛ ولذا فإن بلاداً كمصر والشام والسودان تشهد حركة

نشطة في تعليم العربية لغير أهلها. كما لوحظ أن عدداً من هؤلاء الدارسين يشغلون مناصب مرموقة كعمداء كليات وأساتذة أكاديميين ومثقفين.

سابعاً: إن جنون القوة وغطرستها التي يمارسها الغرب اليوم سيجعل عمر هذه الهيمنة قصيراً، خصوصاً تلك البلاد التي تساس بعقلية رعاة البقر، والذين يفتقرون إلى تاريخ حضاري يسلحهم بدبلوماسية ناجحة، ولا سيما أن هؤلاء لا يشكلون أمة بالمعنى العلمي؛ إذ إنهم خليط متنافر من الأمم والثقافات. وفي العالم حراك سياسي واقتصادي من شأنه أن يقضي على الأحادية العالمية لتتعدد الأقطاب، وظهور قوى جديدة تعيد التوازن مرة أخرى.

ثامناً: إن عالمنا الإسلامي اليوم أنضج كثيراً منه قبل مئة عام. وإن مقارنة سريعة بين حالة الأمة الراهنة اليوم والأمة قبل قرن من الزمان تدل دلالة واضحة على أن علامات إيجابية تلوح في الأفق، بحيث لا نجد حرجاً في وصف هذا القرن الحالي بقرن الإسلام. ولقد شهد العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الماضي حركات بعث قوية ترجمت إلى ظواهر علمية وفكرية؛ بل وسياسية، وما خبر ما يسمى بالإسلام السياسي في تركيا والسودان وأفغانستان والجزائر وفلسطين وأخيراً في الصومال عنا ببعيد! وهي تجارب، وإن لم يكتمل بعضها أو انتقد بعضها الآخر، إلا أنها تدل على حالة من الوعي والحركة والنشاط لا تشابهه حالة الأمة قبل قرن من الزمان.

كما أن حركات الجهاد الإسلامي وحروب التحرير في جهات متعددة من عالمنا تدل بوضوح على علامات تعافٍ بادية.

وهذا القرن سيشهد مزيداً من إعلان إفلاس المشروع الغربي بحداثته وما بعد حداثته! بل إن من أمارات العافية هذا التوجه المحموم للنيل من الإسلام وحرماته، ولا يكون هذا من منتصر أو غالب، ويقابله هذا الاعتداد المتنامي بالإسلام وقيمه من شبابه ورجاله ونسائه، والذي سيفضي -بإذن الله- إلى بعث الحضارة الإسلامية وتقديمها للعالم بأسره وإقامتها على أرض الواقع، لا لتُصارعَ غيرها، وإنما لتتفاعل تفاعلاً صحيحاً مع الآخرين بمختلف أطيافهم الحضارية والدينية.

تاسعاً: ومما يدعو إلى الأمل أن الغرب ليس على درجة واحدة من العداء، وليس على كلمة سواء في العداء؛ فمنهم من ينصف ويعترف ويقدر الإسلام ورموزه، سواء من دخل منهم في الدين الحق ومن لم يفعل، وهم ينتمون إلى طوائف مهنية متعددة؛ فمنهم الإعلاميون كروبرت فيسك البريطاني، ومنهم أساتذة الأديان المتخصصون كجون إسبوزيتو، وكارل إيرنست ومايكل سيلز الأمريكيين، ومنهم رهبان ككارين أرمسترونج البريطانية، بل ومنهم أمراء كالأمير تشارلز الإنجليزي.

كما أن في الغرب رصيداً قوياً من إخواننا المسلمين من أهل تلك البلاد الغربية، ومن المتوطنين بها ممن هاجر إليها من بلادنا، وهؤلاء رصيد ضخم مبارك.

وأخيراً فإن الغالبية الساحقة من أهل تلك الديار ممن لا يعرفون عن الإسلام، أو شُوِّهت معارفهم، يحتاجون إلى مزيد معرفة وتبصير حتى ينقلبوا منصفين أو محايدين على الأقل، ولا شك أن إدراك الواقع بحقيقته لَـمِمَّا يساعد على تحديد الهدف وتنفيذ العمل.

ويبقى قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ﴾ [النور: ١١]، يدفعنا إلى استلهام الحكم واستجلاء الخطط، ويحدونا الأمل نحو العمل.

سادساً: ما العمل؟

إن الإجابة على هذا السؤال تتعدد تجلياتها وتتنوع مجالاتها؛ فلا شك أن عملاً ضخماً يقع على عاتق كل مسلم رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً.

كما أنه تختلف صورها باختلاف القوى المعادية، ولا شك أن هناك فروقاً بين المشروع الاستعماري الغربي والذي يقوم عليه دهاقنة السياسة والفكر والدين في الغرب، وبين الإنسان الغربي بشكل عام؛ إذ إن الأول لن يكون إلا عدواً جلداً، وأما الآخر فإن منه من يمكن أن يتحول إلى نصيرٍ وظهير ومتفهم للإسلام وفكرته، بل ومؤمن به وبرسالته إذا بلغته الدعوة على وجهها، وأقيمت الحجة وأزيلت الشبهة.

وأما العِلْم الغربي فموقفنا منه انتقائي؛ فمنه ما نحرص عليه ونسعى إلى امتلاك أسبابه، ومنه مالا حاجة لنا به. بل إن علينا أن نستفيد من هذا العلم بتقنياته في نشر عالمية الإسلام، ومقاومة عولمةٍ تزِّيف الفكرَ وتكرِّس هيمنة الغرب، وتنـزع سيادة المسلم عن أرضه ووطنه.

أما الخطوة الأولى فهي الوعي بحقائق هذا الواقع وما يتضمنه من فرصٍ ومخاطر، ومن ثم استثمار هذا الوعي الواجب لوضع خطة عمل طموحة يمكن أن نقترح من تفاصيلها العملية ما يلي:

إن العمل يمكن أن تنتظمه ثلاثة محاور هي:

المحور الأول: إعادة تشكيل الذهنية الغربية حول الإسلام وثوابته ورموزه.

المحور الثاني: التصدي لحملات الإساءة والتشويه لمقام نبينا ﷺ خاصة، وللثوابت الإسلامية عامة.

المحور الثالث: بناء البيت المسلم وترتيبه من الداخل؛ حيث لا نرجو احتراماً لوضعنا العالمي إلا بتحصيل القوة بمختلف صورها.

وفيما يلي مقترحات عملية حول كل محور من المحاور السابقة.

مقترحات حول المحور الأول:

١- العناية بإنتاج الكتب والأدبيات الإسلامية باللغات الحية. ويتأتى هذا عن طريق إنشاء مراكز بحثية عالمية تعنى بإنتاج الكتاب الإسلامي المعاصر بعدة لغات، سواء ما يصلح للتدريس في المقررات الدراسية أو الجامعات، أو ما يطرح للمثقفين والأدباء، وفق معايير عالية الجودة.

٢- إنشاء مراكز للترجمة الواعية وفق ضوابط تراعي السياقات الزمنية والحضارية للمراجع الإسلامية الأصيلة في القرآن الكريم وعلومه، والحديث وأصوله، والسيرة والتاريخ والحضارة الإسلامية.

٣- توجيه الباحثين وطلبة العلم الذين يجيدون اللغات الغربية للإسهام

بالتدريس في فصول دراسية بالجامعات الغربية، ومراسلة هذه الجامعات في ذلك كنوع من أنواع المشاركة في تحسين الصورة الإسلامية لدى الأوساط الأكاديمية.

٤- التوجه إلى إعداد مكتبات إسلامية رصينة ومتكاملة وإهدائها إلى مكتبات الجامعات الغربية المعتنية بتدريس الإسلاميات؛ الأمر الذي يؤدي إلى اطراد التحسن في تناول وعرض الإسلام، وإضعاف فكرة صراع الحضارات التي يتزعمها بعض غلاة المحافظين الجدد.

٥- متابعة المؤتمرات العلمية الغربية والتي تعنى بالشأن الإسلامي والعربي والشرق أوسطي، والعناية بحضورها بتمثيل واعٍ حتى تتأتى المشاركة والتفاعل الإيجابي، وعدم مقاطعتها، حتى تلك التي تدعو إلى حوار بين الأديان، ما لم تتضمن دعوة للتنصير أو خلطاً للأديان.

٦- تشجيع ودعم مراكز تعليم اللغة العربية للأجانب سواء ما أنشئ منها في الشرق، أو افتتاح عدد منها في الغرب؛ ليتمكن الغربي بنفسه وبلا وسائط من التعرف على الإسلام من مصادره الأولى، ويمكن دعم تقديم منحٍ للأكاديميين والمثقفين الغربيين في هذا الصدد للدراسة في الشرق، وهو دور ستحمد عاقبته بإذن الله تعالى.

٧- التعاون مع المنصفين، والتواصل مع المعتدلين في المجتمعات الغربية، وذلك بإنشاء روابط وجمعيات وفعاليات للحوار والدعم الفكري، وطباعة

كتب الغربيين أنفسهم والتي تنطق بالحجة الصحيحة.

٨- الإعلان للأكاديميين الغربيين عن جوائز سنوية قيّمة في البحوث والدراسات الإسلامية المتميزة باللغات الحية، وتحديد المحاور التي وقع فيها الخلط المتعمد أو الجهل بحقائق الإسلام وقضاياه الكبرى لتكون محور هذه البحوث.

٩- إنشاء ودعم عدد من الكراسي الأكاديمية في عدد من الجامعات الغربية العريقة حول الإسلاميات.

١٠- التوسع في إنشاء القنوات الفضائية المتخصصة في مخاطبة رجل الشارع الغربي بلغته، والنفوذ إلى عقله ووجدانه، وتعريفه بالإسلام وأصوله، والنبي ﷺ وسيرته.

١١- إصدار مجلات ودوريات تعتني بالشأن الإسلامي، واستكتاب عدد من المستشرقين المنصفين والأكاديميين المعروفين بالاعتدال من مختلف البلدان واللغات.

مقترحات حول المحور الثاني:

١- إنشاء منظمات ومؤسسات عالمية للدفاع عن أنبياء الله قاطبة، والتعاون في هذا الصدد مع عقلاء المخالفين في أصل الدين، ومخاطبة الحكومات والسياسيين ومختلف الهيئات والجهات المعنية بهذا الصدد.

٢- تبنّي الرد المباشر والمناظرة العلنية والحوار المفتوح مع مَنْ تقع منه الإساءة، وتعريته، وفضح أصوله الفكرية والسياسية المتطرفة.

٣- استخدام كل جهد دبلوماسي متاح للذود عن حرمات الإسلام وتعظيم مقدساته، والدعوة إلى الاجتماعات الطارئة على مستوى التمثيل الدبلوماسي الإسلامي لمناقشة ما ينزل ويستجد.

٤- تنظيم الحملات الإعلامية المضادة في مختلف وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية، وإطلاق عدة مواقع إلكترونية للرد بمختلف اللغات، وتخصيص المصطفى ﷺ بنصيب مستقل من ذلك.

٥- اعتماد أساليب المقاطعة بمختلف صورها الاقتصادية والثقافية مع من يثبت تعمده الإساءة وتتكرر منه الإهانة للإسلام وأهله.

٦- مد جسور التواصل مع المنصفين الغربيين لعقد حوارات وندوات مشتركة في الرد على المعتدين، ونشر تلك الندوات بأشكال متعددة.

٧- إنشاء عدد من المؤسسات الإعلامية العالمية لتتبنى المنافحة عن القضايا والمسائل الإسلامية المثارة في الإعلام الغربي.

مقترحات حول المحور الثالث:

١- العمل الجاد والسعي الدؤوب بمختلف السبل إلى تطبيق شريعة الله -عز وجل- نصاً وروحاً، ودعوة الحكومات وولاة الأمر في بلاد المسلمين قاطبة للتمسك بأهداب الشرع المطهر.

٢- تقوية دور العلماء وهيئات الأمر بالمعروف والاحتساب، وتشكيل لجان وروابط دولية للعلماء، متحررة من الإقليمية والضغوط الحزبية والسياسية على حد سواء.

٣- إنشاء عدد من المؤسسات الإعلامية والدعوية الخيرية؛ والتي تتبنى تنسيق جهود الدعاة ودعمهم حول العالم علمياً وإعلامياً.

٤- العناية بشأن تصحيح العقيدة واعتمادها كأولوية أولى في برامج الإصلاح لدى الدعاة بمختلف طوائفهم وأطيافهم.

٥- توجيه جهود الدعاة إلى تربية الأمة على حماية مقدساتها، والغيرة على عقيدتها، وحياطة شريعتها، والإيجابية في التصدي لأعدائها، وإشاعة الوعي الفكري والثقافي والسياسي بين صفوفها.

٦- الأخذ على أيدي العلمانيين والمتغربين فكرياً، ومنعهم من تمثيل الأمة أو التحدث باسمها أو تشكيل صورتها لدى الغرب، وردع أولئك المتجرئين على ثوابتها بكل الوسائل الشرعية المتاحة.

٧- السعي إلى ترشيد الحركات الجهادية الصحيحة ومناصحتها، والأخذ على أيدي المتعجلين، والحرص على استيفاء شرعية هذه الأعمال، وعدم الإضرار بالأمة، وحسن ترتيب الأولويات، وتحقيق مصلحة إعزاز الدين، والدفع عن المستضعفين، وكف بأس الكافرين.

٨- الحرص على الشمول والتجديد في الخطاب الدعوي لتشمل أمتي الدعوة والإجابة، والعناية بالوحدة والائتلاف، وتحري العدل والإنصاف عند الخلاف، ومراعاة حال الأمة، وتقديم النظر لها على تحقيق مصلحة حزبية أو منفعة شخصية.

٩- التوجيه للخروج من التبعية الغربية في التقنية والتصنيع والاقتصاد والتجارة، وتعظيم قيمة التحرر من أسر التبعية الغربية في مختلف المجالات، والاستفادة من الجانب النافع المفيد من العولمة، وتوقي الضار منها.

١٠- الاهتمام بالجوانب السلوكية والحضارية لدى الأمة أفراداً وجماعات، والدعوة إلى تلك القيم الإسلامية العليا، والحرص على تقديم صور حضارية مشرفة للمجتمعات المسلمة في عباداتها كالحج والمشاهد العامة.

ملخص البحث

تناول البحث ظاهرة التطاول على حرمات الإسلام وثوابته؛ والتي تنامت بشكل لافت للنظر في السنوات الأخيرة.

واستعرض البحث صورة الإسلام في الفكر الغربي القديم والحديث؛ حيث رصدت تصريحات ومواقف عدائية غلبت على الفكر الغربي قديماً وحديثاً، وانحياز ضد الإسلام من قبل ظهور الحركات الإسلامية المعاصرة، وإن لم يمنع هذا من وجود أصوات منصفة هنا وهناك قديماً وحديثاً.

وفي حين كانت المناهج الدراسية القديمة تتجاهل الإسلام أو تصِمُه بالبهتان؛ فإن المناهج الحديثة قد تخلصت من رواسب حركتي الاستشراق والتنصير وبدت أكثر اعتدالاً، مما يبشر بتغير إيجابي تُلمس آثاره واضحة عن قريب.

ولقد تشوهت صورة النبي ﷺ في التراث الغربي بشكل ظاهر وقبل الحروب الصليبية، وإن كانت حقبة القرون الوسطى وما بعدها كُتب فيها أسوأ البهتان والافتراء، الأمر الذي دعا بعض المنصفين أن يرد على ذلك بشكل فردي.

وترجع أسباب هذا التطاول إلى أسباب دينية، وأخرى فكرية ثقافية، وثالثة تاريخية ونفسية. كما إن من الأسباب ما يرجع إلى المسلمين أنفسهم بالتقصير في البيان والرد.

ومع كل هذا الركام فإنه يتبين ما يدعو للتفاؤل بالتحول التدريجي

نحو الموضوعية، بطروء تحسُّن ملحوظ على المقررات الدراسية والجامعية في الدراسات الإسلامية، وبظهور إفلاس الحضارة الغربية، وتنامي النضج والوعي الإسلامي، وتزايد عدد المنصفين الغربيين، ويتعين العمل على إعادة تشكيل العقل الغربي حول الإسلام وثوابته، والتصدي المباشر لحملات الإساءة والتشويه بمختلف الوسائل، وأخيراً العناية بالداخل الإسلامي وتقويته وإنهاضه، وذلك كله عبر وسائل عملية عصرية وفعَّالة.

الطعن في القرآن الكريم

د. عبد المحسن بن زبن المطيري

أستاذ التفسير بكلية الشريعة ـ جامعة الكويت

الطعن في القرآن

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقد عرف أعداء الإسلام أن مصدر عزة هذا الدين وأهله، وسر تجدده في نفوس المسلمين هو هذا القرآن العظيم، الذي لا يخلق من كثرة الترداد، ولا تنقضي عجائبه، ولا يملّه القارئ والسامع، ولا يزداد به المؤمن إلا يقيناً بدينه وتعلقاً به، هذه المعجزة الخالدة، والآية الباقية ما بقي الليل والنهار، هذا الكتاب الذي وعد الله -تعالى- بحفظه بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

ولما كانت هذه منزلة القرآن اجتهد أعداء الدين بالطعن في هذا القرآن؛ حتى يسلخوا المسلمين من التعلق به، فيصبحوا صيداً سهلاً وغنيمة باردة. وحربُ أعداء الدين هذه ليست فقط على القرآن، بل على كل أساساته وقواعده؛ فهناك الحرب على الرسول ﷺ وسنته[1]، والطعن في عدالة الصحابة، والحرب على المرأة المسلمة[2] وحجابها وعفافها، والحرب

(١) انظر: كتاب: السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام: مناقشتها والرد عليها، د. عماد السيد الشربيني، دار اليقين، المنصورة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م؛ وكتاب: القرآنيون وشبهاتهم حول السنة، خادم حسين إلهي بخش، الطائف، مكتبة الصديق، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م.

(٢) انظر: كتاب: ماذا يريدون من المرأة؟ لعبد السلام بسيوني، طبع إدارة الشؤون الإسلامية في قطر، إنه نفيس في هذا الباب؛ وانظر: كتاب: عودة الحجاب، لمحمد إسماعيل المقدم، الرياض، دار طيبة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٦هـ.

على بعض الشعائر كالجهاد[١]، وغيرها من الجبهات؛ ولكن الحرب على القرآن هي أخطرها وأشدها وأشرسها؛ لأن القرآن هو الذي يدل على الأصول السابقة ويحث عليها؛ فهو أصلها وهي فروعه، وبذهاب الأصل تذهب الفروع. ومن هنا عزمت في هذه الرسالة على جمع هذه المطاعن والإشكالات التي تثار الآن، والتي هي عبارة - في غالبها - عن ترديد لما سبق، فلو عرفها الناس وتحصنوا منها لما حصل هذا الاضطراب من هذه الشُّـبَه.

ومن أهداف البحث أيضاً الرد على المستشرقين الذين يطعنون في هذا الدين، ويشككون في قدسية وعصمة كتابه. وكذلك الرد على المعاصرين الذين تأثروا بهذه الشبه وبدؤوا يرددونها.

ومن هنا كان هذا البحث.

---

(١) انظر: أثر الحركات الباطنية في عرقلة الجهاد ضد الصليبيين، يوسف إبراهيم الشيخ عيد، دار المعالي، عمّان، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.

الطعن في القرآن الكريم والرد على الطاعنين [(١)]

ليس من منهجي أن أجمع كل ما أثير، بل أجمع ما كان فيه شبهة وقد يقع فيه اللبس عند بعض الناس. وأما بعض الطعون التي يوردُها الطاعنون بسبب جهلهم باللغة، أو سوء فهمهم، أو تحريف المعنى، أو الكذب، أو الدعوى المجردة عن الدليل، أو بسبب الحقد الدفين؛ فهذا يكفي ذكره في إبطاله، ويكفيك من شر سماعُه؛ مثل إنكارهم بلاغة القرآن وهم أبعد الناس عن تذوق بلاغة القرآن، أو تفسير بعضهم قوله -تعالى-: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ [الزمر:٧٥]؛ فقد قال بعض المستشرقين في تفسير معنى ﴿حَآفِّينَ﴾: أي بدون أحذية[(٢)]. وفسر بعض المستشرقين قوله -تعالى-: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣] بقوله: يأتي الكافر وفي رقبته حمامة. ومنهم عَلاّمة تصدى لوضع المعجمات الكبرى[(٣)]؛ فكتب في مادة (أخذ) أنها تأتي بمعنى نام لقوله -تعالى-:

---

(١) وهو تلخيص لرسالتي في الدكتوراه (دعاوى الطاعنين في القرآن الكريم في القرن الرابع عشر الهجري والرد عليها).

(٢) انظر: الإسلام دعوة عالمية ومقالات أخرى، لعباس محمود العقاد (ص: ١٨٩)، منشورات المكتبة العصرية، بيروت.

(٣) وَصْفُ العقاد لهذا المستشرق بالعَلاّمة هو من باب: التهكم والاستهزاء بجهله الشديد باللغة العربية. وقد فضح جهله هذا تفسيره لمادة (أخذ) بمعنى نام، مخالفًا بذلك جميع معاجم اللغة، فصار كمَن تخصص في وضع معجمات لنا لا نعرفها.

﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾ [البقرة:٢٥٥])[١]. ومثل ادّعاء بعضهم أنه وجد مخطوطة بخط النبي ﷺ، ومن ثمّ يثبت أنه لم يكن أمياً[٢]، وقول بعضهم: إن معنى قوله -تعالى-: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ﴾ [الأعراف:١٥٧] أن أمياً بمعنى وثنياً[٣]. وادّعاء بعضهم أن الوحي عبارة عن صرع كان يصيب النبي ﷺ[٤]. أو النزول إلى الدرك الأسفل من الدناءة بإطلاق لفظ (الخراء) على القرآن، كما في كتاب حيدر

---

(١) انظر: اللغة الشاعرة مزايا الفن والتعبير في اللغة العربية، لعباس محمود العقاد (ص: ٧٥)، منشورات المكتبة العصرية، بيروت. وذكر محمد العوضي في مقال له عن الاستشراق في جريدة الحدث الكويتية (العدد: ٩٦) بتاريخ ٥ أكتوبر سنة ٢٠٠٢م: أن أحد المستشرقين فسّر قوله -تعالى-: ﴿هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ﴾ [البقرة: ١٨٧] بقوله: «يعني هن بنطلونات لكم وأنتم بنطلونات لهن».

(٢) المرجع السابق (ص: ١٩٢) وفيه أن صحف القاهرة نقلت هذا الخبر عن صحيفة بيروتية أثبت فيها واجدها أنه بخط النبي ﷺ، ومن المعلوم أنه لا يمكن إثبات هذا إلا عن طريقين؛ أحدهما: أن تكون عندنا مخطوطة مكتوبة بخط النبي ﷺ ونقارن بين الخطين؛ وهذا غير موجود بداهة. الآخر: أن يشهد شهود عدول أن النبي ﷺ كتبها؛ وهذا مما لا وجود له أصلاً.

(٣) انظر: دفاع عن القرآن ضد منتقديه، لعبدالرحمن بدوي (ص: ١٥)، الدار العالمية للكتب والنشر، القاهرة. ويقول بدوي في هذا الكتاب (ص: ٧): إن معرفة المستشرقين للغة العربية من الناحية الأدبية أو الفنية يشوبها الضعف، ويمكن القول: إن هذه الملاحظة تخصهم جميعاً تقريباً. ا هـ.

(٤) انظر: حاضر العالم الإسلامي، لستودارد (١/ ٣٤)، ترجمة عجاج نويهض، دار الفكر، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٧٣.

حيدر[١] (وليمة لأعشاب البحر)[٢]، وغير ذلك من السفاهات.

الطعون على القرآن تنقسم قسمين: طعون حول القرآن، وطعون في القرآن. الطعون حول القرآن مثل: الطعن في جمع القرآن، وتواتر القرآن، وتقسيم القرآن إلى مكي ومدني، ونزول القرآن على سبعة أحرف، ومعنى المتشابه في القرآن، والنسخ في القرآن، وترجمة القرآن، وإعجاز القرآن، وقراءات القرآن...إلخ، تلك الشبه التي تحوم حول القرآن ولا تطعن في آياته طعناً مباشراً، وهذا البحث كفانا فيه عدد من العلماء الأفاضل والباحثين الأجلاء، ومن أفضل هذه الكتب التي اطّلعت عليها، كتاب (شبهات حول القرآن وتفنيدها) للدكتور غازي عناية[٣]، وبعضهم أفرد في بعض هذه المباحث مؤلفاً، مثل كتاب (المستشرقون وترجمة القرآن الكريم) للدكتور محمد صالح البنداق[٤]. وفي كتاب (القراءات وأثرها في التفسير والأحكام) للدكتور محمد بن عمر بازمول[٥] عقد باباً بعنوان (رد الشبهات التي تثار حول القراءات)

---

(١) حيدر حيدر: كاتب سوري معاصر من سكان قرية (حصين البحر) القريبة من ميناء طرطوس، ألف رواية (وليمة لأعشاب البحر) وملأها بالاستهزاء والسخرية من الله -تعالى- ورسوله ﷺ، وكتابه، ودين الإسلام، والرسل والأنبياء، والأزهر، وغير ذلك. انظر: كتاب (الملحدون الجدد) لجمال عبد الرحيم (ص: ١٢٥)، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.

(٢) انظر: الملحدون الجدد، لجمال عبد الرحيم (ص: ١٢٧).

(٣) طبعته دار ومكتبة هلال للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

(٤) دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م.

(٥) طبعته دار هجر، الرياض، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

أجاب فيها عن كل ما يثار حول هذا الموضوع، وكتاب (القراءات في نظر المستشرقين والملحدين) للشيخ عبد الفتاح عبد الغني القاضي[١]، وكتاب (نزول القرآن على سبعة أحرف) للدكتور مناع القطان[٢]، وفي مجلة لواء الإسلام بحث لعبد الباري إبراهيم أبو عبلة في الجواب على طعون المستشرقين في لغة القرآن ونحوه[٣].

ومن أشد الكتب التي طعنت في هذا الباب كتابان:

١-القرآن: نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره، لبلاشير[٤].

٢-مقدمة كتاب المصاحف لأبي داود، لآرثر جفري.

رد عليهما الدكتور إسماعيل سالم عبد العال في كتابه (المستشرقون والقرآن)، في جزأين[٥].

وأما النوع الثاني: هو الطعن في القرآن نفسه من حيث دلالالته، ومعانيه، وأخباره، وأحكامه، وغير ذلك، وهو الذي أبحث فيه؛ والسبب

---

(١) من منشورات مكتبة الدار بالمدينة المنورة.

(٢) مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.

(٣) العدد ٣، للسنة الحادية والثلاثين، تاريخ نوفمبر ١٩٧٦م، ص: ٣٥.

(٤) ريجي بلاشير (١٩٠٠-١٩٧٣م) مستشرق فرنسي، ولد في باريس وسافر مع والديه إلى المغرب ودرس في الدار البيضاء، وعُيّن أستاذاً للغة العربية في المدرسة الوطنية للغات الشرقية في باريس، وتولى عدة مناصب كبيرة وألّف كتباً كثيرة عن الإسلام. انظر: موسوعة المستشرقين، للدكتور عبدالرحمن بدوي، (ص: ١٢٧) دار العالم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٩٣م.

(٥) أصدر الكتابَ رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، وهو من إصداراتها الدورية تحت سلسلة دعوة الحق، السنة التاسعة، العدد ١٠٤، لعام ١٤١٠هـ.

في ذلك أن هذا النوع هو الذي تولى القرآن الرد فيه على الطاعنين؛ ولأن الرد على هذه الشبه فيه الرد على تلك الشبه بطريق اللزوم؛ فإنه إذا ثبت أن القرآن ليس من عند النبي ﷺ، بل من الله -تعالى- وهو غير قابل للنقد، وأنه ليس فيه تحريف ولا زيادة، وأنه صادق الأخبار وواجب الاتباع، إذا ثبت هذا؛ فإن الله قال فيه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، إذن لا مجال للطعن في تواتره وجمعه وقراءاته وما نسخ منه؛ لأنه محفوظ بحفظ الله له.

وقد حرصتُ على الردود الإجمالية على كل طعن في فصل الردود التفصيلية على من طعن في القرآن؛ لأنها الأهم؛ فهي صالحة لما قد أُثير ولما يمكن أن يثار في المستقبل، وأما الردود التفصيلية على كل طعن فإنها لا تنتهي، وقد يُفتح لإنسان ما لا يُفتح على غيره في الرد، وبعضها طعن ساذج لا يستحق الرد.

أولاً: التعريف:

الطعن: لكلمة طعن معنيان: حسي، ومعنوي؛ فالحسي بمعنى الضرب بآلة حادة كالخنجر، وهو المتعدي للمفعول (طعنه)، والمضارع منه مضموم العين (يطعُن) وبعضهم يفتحه، والمعنوي بمعنى: القدح في شيء، سواء كان نسباً، أو كتاباً، أو شخصاً، أو غير ذلك، وهو اللازم (طعن فيه)، والمضارع منه مفتوح العين (يطعَن).

ثانياً: تعريف القرآن:

هو كلام الله المعجز، المنزل على محمد ﷺ، المكتوب في المصاحف، المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته[(١)]. والقرآن من المشهورات التي لا تحتاج إلى تعريف.

ثالثاً: تعريف الطعن في القرآن:

الطعن في القرآن: هو أحد مباحث علوم القرآن، التي تبحث في الرد على من طعن في كتاب الله، أو زعم تناقضه، أو إشكاله، والرد عليها بالأدلة الشرعية، والعقلية، والحسية[(٢)].

هناك عدة مصطلحات في تسمية هذا العلم، ترادف مصطلح الطعن في القرآن وهي:

١- المتشابه أو المشتبه.

٢- موهم الاختلاف أو مختلف القرآن.

---

(١) انظر: مناهل العرفان للزرقاني (١/ ١٥)، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م؛ وانظر: كتاب النبأ العظيم للدكتور محمد عبدالله دراز (ص: ١٠) دار طيبة للنشر الطبعة الأولى، ١٩٩٧م؛ وانظر: المناظرة في القرآن، عبدالله المقدسي (١/ ٢٢)، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ، تحقيق الجديع، وغير ذلك.

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي (٢/ ٥٣)، بيروت دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٨م؛ والإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٣/ ٧٩)، القاهرة، مكتبة دار التراث؛ باهر البرهان في مشكلات القرآن لبيان الحق النيسابوري (١/ ١١٢).

٣- موهم الاضطراب.

٤- أسئلة القرآن.

٥- غامض القرآن.

٦- مشكل القرآن.

أقدم الطعون:

حديث الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ:لَمَّا قَدِمْتُ نَجْرَانَ سَأَلُونِي فَقَالُوا: إِنَّكُمْ تَقْرَؤونَ: ﴿يَـٰٓأُخۡتَ هَـٰرُونَ﴾ وَمُوسَى قَبْلَ عِيسَى بكَذا وَكَذَا؟ فَلَمَّا قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: «**إِنَّهُمْ كَانوا يُسَمُّونَ بأنبيائِهِمْ وَالصَّالِحِينَ قَبْلَهُمْ**»[1].

وهـذا الطعـن الذي ذكـر في الحـديث، مع أن النبي ﷺ أجاب عليه، إلا أنه لا يزال يردد إلى يومنا هذا، كما سترى فيما سيأتي إن شاء الله.

معرفة أعداء الإسلام عظيمَ أهمية القرآن:

عرف أعداء الله أهمية كتاب الله -تعالى- في نفوس المسلمين، ومدى تعلقهم به، وعلموا أنه هو باعث نهضتهم، ومحيي همتهم، وموحد كلمتهم، وسبب نجاتهم وقوتهم.

---

(١) أخرجه مسلم (كتاب الآداب، باب: النهي عن التكني بأبي القاسم، وبيان ما يستحب، رقم: ٢١٣).

يقول الحاخام الأكبر لإسرائيل سابقاً مردخاي ألياهو، مخاطباً مجموعة على وشك الالتحاق بالجيش الإسرائيلي: «هذا الكتاب الذي يسمونه (القرآن) هو عدونا الأكبر والأوحد، هذا العدو لا تستطيع وسائلنا العسكرية مواجهته، كيف يمكن تحقيق السلام في وقت يقدس العرب والمسلمون فيه كتاباً يتحدث عنا بكل هذه السلبية؟! على حكام العرب أن يختاروا؛ إما القرآن أو السلام معنا»(١).

وفي بدايات هذا القرن كان الجنود الإيطاليون يتغنون بأنشودتهم: «أنا ذاهب إلى ليبيا فرِحاً مسروراً؛ لأبذل دمي في سبيل سحق الأمة الملعونة ومحو القرآن. وإذا مت يا أماه فلا تبكيني، وإذا سألك أحد عن عدم حدادك فقولي: لقد مات وهو يحارب الإسلام»(٢).

ويقـول الحاكم الفرنسي في الجزائر: «إننا لن ننتصر على الجزائريين ما داموا يقرؤون القرآن، ويتكلمون العربية»(٣).

ويقول وليم جيفورد: «متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب، يمكننا حينئذٍ أن نرى العربي يتدرج في طريق الحضارة الغربية بعيداً عن محمد وكتابه»(٤).

---

(١) انظر: مجلة البيان، العدد: ١٥٩، بتاريخ ذي القعدة ١٤٢١هـ؛ وجريدة البلاد (السعودية): ٣٠ رجب ١٤٢١هـ.

(٢) انظر: صلاح الأمة في علو الهمة لسيد عفاني (٦/ ٥٧٥)، نقلاً عن التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية للدكتور أحمد شلبي.

(٣) قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام أبيدوا أهله، لجلال العالم، ص: ٣١.

(٤) المرجع السابق، ص: ٤٩.

ويقول اللورد كرومر في مصر: «جئت لأمحو ثلاثاً: القرآن والكعبة والأزهر»[(١)].

يقول جون تاكلي: «يجب أن نستخدم القرآن -وهو أمضى سلاح- ضد الإسلام نفسه؛ بأن نعلم هؤلاء الناس -يعني المسلمين- أن الصحيح في القرآن ليس جديداً، وأن الجديد ليس صحيحاً»[(٢)].

ويقول غلادستون - وزير المستعمرات البريطاني سنة ١٨٩٥م، ثم رئيس الوزراء-: «لن تحقق بريطانيا شيئاً من غاياتها في العرب، إلا إذا سلبتهم سلطان هذا الكتاب. أخرجوا سر هذا الكتاب -القرآن- مما بينهم تتحطم أمامكم جميع السدود»[(٣)].

وقال أيضاً: «ما دام هذا القرآن موجوداً في أيدي المسلمين فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق، ولا تكون هي نفسها في أمان»[(٤)].

إذن هم يعرفون أن القرآن مصدر قوة المسلمين؛ لذلك أعلنوا الحرب

---

(١) الخنجر المسموم الذي طعن به المسلمون، أنور الجندي: ص ٢٩، دار الاعتصام، سلسلة دائرة الضوء.

(٢) انظر: مجلة مجمع الفقه الإسلامي (ص: ٣٢٩)، الدورة السابعة، العدد ٧، الجزء الرابع لعام ١٩٩٢م؛ ورد افتراءات المبشرين على القرآن الكريم، لجمعة (ص: ٢٦٣)؛ وواجب المسلمين في نشر الإسلام للأستاذ زيد الفياض (ص: ١٩).

(٣) القراءة المعاصرة للقرآن في الميزان، أحمد عمران، (ص: ١٧)، دار النفائس، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٥.

(٤) منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، للدكتور فهد الرومي (ص: ٤٤٢) مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الخامسة، ١٤١٢م؛ هجمة علمانية جديدة ومحاكمة النص القرآني، د.كامل سعفان (ص: ٩٧).

على كتاب الله تعالى. وهذه الحرب قديمة قدم نزول القرآن، كما قال -تعالى-: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]؛ يعني: أن الغلبة لهم على المسلمين إنما تكون باللغو والطعن في القرآن.

أنواع الطعون:

الطاعنون في القرآن كثر، ومطاعنهم وشبهاتهم كثيرة، وحصرها قد يعيي الباحث، ويكل الجد، ولكن حقيقة هذه الطعون أنها تدور في أفلاك محددة، وتنبع من مشكاة واحدة، ويمكننا أن نرجعها إلى أصول وقواعد تلملم شعث هذه الطعون، والرد على هذه الأصول يتكفل بالرد على جميع ما تحته من طعونات لا تعد ولا تحصر(١)، ويمكننا أن نرد المطاعن إلى أربعة أصول يتفرع من بعضها فروع؛ وهي:

١- نفي نسبة القرآن لله تعالى: ويشمل عدة طعون:

- نسبته إلى النبي ﷺ وأنه من تأليفه(٢).
- نسبته إلى الاقتباس من الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل(٣).

---

(١) ويكفي في هذا الرد الإجمالي الذي سيأتي في الفصل الأول من الباب الثاني.

(٢) انظر: الإسقاط في مناهج المستشرقين للدكتور شوقي أبو خليل (ص: ٤٧)، دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م؛ ومعالم تاريخ الإنسانية، لويلز (٣/ ٦٢٦)؛ وتاريخ الدولة العربية، ليوليوس فلهاوزن (ص: ٨)، ترجمه عن الألمانية د.محمد أبو ريدة، الألف كتاب، القاهرة، ١٩٥٨م وغيرها من المراجع.

(٣) انظر: المستشرقون والدراسات القرآنية للدكتور محمد حسين الصغير، (ص: ١١٨-١٢٠)، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م، ودائرة المعارف الإسلامية=

- دعوى عدم قدسيته وإمكانية نقده ومخالفته[1]؛ يعني قد يقر بأنه ليس من النبي ﷺ وأنه من الله -تعالى- ولكن يقول: هو ليس مقدساً، بل يمكـن نقده. وهذا الكلام حقيقته نفي القرآن عن الله تعالى؛ لأن ما كان من الله -سبحانه- فهو مقدس ولا يمكن نقده، وما كان من غيره فينطبق عليه ما يجري على كلام البشر من خطأ أو عجز أو جهل، إلى غير ذلك من نقائض البشر.

٢- زعم عدم حفظه:

يعني قد يقر بأن القرآن من الله جل جلاله، ولكن يزعم عدم حفظه فيدّعي:

- أنه ليس هو القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ، بل قد غُيّر وبُدِّل، وأما الأصل فلا وجود له[2].

=الاستشراقية (ص: ١٦)؛ والعقيدة والشريعة في الإسلام لجولدتسيهر ص: ١٢، عن كتاب القرآن الكريم في مواجهة الماديين الملحدين للدكتور أحمد الشاعر (ص: ٩٣) دار القلم، الكويت، الطبعة الثانية، ١٩٨٢؛ وانظر: القرآن والمستشرقون، لنقرة (ص: ٣١) وغيرها من المراجع.

(١) انظر: القرآن الكريم في مواجهة الماديين الملحدين، للدكتور أحمد الشاعر (ص: ٩٦-٩٧)؛ والتمهيد في تاريخ الفلسفة للشيخ مصطفى عبدالرازق (ص: ٥)؛ نقض مطاعن في القرآن الكريم، لمحمد أحمد عرفة، (ص: ٤)؛ و(طه حسين: حياته وفكره) لأنور الجندي، ص: ١٤٤، نقلاً عن كتاب مستقبل الثقافة في مصر، وغيرها من المراجع.

(٢) انظر: دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية، لإبراهيم عوض (ص: ٧)؛ والوحي الجديد (ص: ٤٤)، نقلاً عن كتاب مناقشات وردود، لمحمد فريد وجدي (ص: ٣٧٠)، وغيره من المراجع.

- أنه زِيدَ فيه ونقص[١]؛ يعني قد يقر بأن القرآن الموجود هو الكتاب الذي نزل من الله، ولكن يقول: إنه زِيدَ فيه أو نُقص منه.

٣- اتهام القرآن بالتناقض:

- تناقض الآيات بعضها مع بعض[٢].

٤- اتهام القرآن بمعارضة الحقائق:

- معارضة الحقائق الشرعية[٣].
- معارضة الحقائق التاريخية[٤].

---

(١) انظر: لطائف المنان وروائع البيان في دعوى الزيادة في القرآن، د.فضل حسن عباس، دار النور للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م؛ والشيعة والقرآن، لإحسان إلهي ظهير، مكتبة إدارة ترجمات السنة، لاهور باكستان؛ وكتاب (أيلتقي النقيضان؟) لمحمد مال الله، دار النفير، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ؛ وأصول مذهب الشيعة الإمامية الإثني عشرية، د.ناصر بن عبد الله القفاري، الفصل الأول من الباب الأول بعنوان (اعتقادهم في القرآن) (١/ ١٢٣) وغيره من المراجع.

(٢) انظر: كتاب تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة الدينوري، تحقيق السيد أحمد صقر، المكتبة العلمية؛ وكتاب المسائل والأجوبة في الحديث والتفسير، له أيضاً، تحقيق مروان العطية ومحسن خرابة، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م؛ وأضواء على متشابهات القرآن، لخليل ياسين مكتبة الهلال، بيروت؛ وباهر القرآن في معاني مشكل القرآن لبيان الحق النيسابوري، تحقيق سعاد بابقي، من مطبوعات جامعة أم القرى، ١٩٩٧م، وغير ذلك من المراجع.

(٣) انظر: كتاب: رد مفتريات على الإسلام، لشلبي، (ص: ٣٨)، عن رسالة المجلس الملي القبطي الأرثوذكسي بالإسكندرية، ودائرة المعارف البريطانية (ص: ٢٢)؛ حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، للعقاد (ص٢٧٦)، المكتبة العصرية، بيروت، وغير ذلك من المراجع.

(٤) انظر: المستشرقون والدراسات الإسلامية، للدكتور محمد حسين الصغير (٧٤-٧٥)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع؛ و (في الشعر الجاهلي) لطه حسين (ص: ٢٦)؛ ومدخل إلى علم التفسير، للدكتور محمد بلتاجي ص: ١٧٠، وغير ذلك من المراجع.

- معارضة الحقائق الكونية، أو حقائق العلم التجريبي الحديث[١].

والملاحظ في هذه الطعون هو التدرج فيها، فكلما انتفت شبهة انتقلوا إلى التي تليها.

ولو علم المسلمون هذه الشبه الأربع والرد عليها لما حصل ما نراه الآن من تأثر كثير من المسلمين بها، بل والاعتقاد فيها أو التسليم بها.

والمطاعن من حيث صراحتها تنقسم إلى نوعين:

١- طعون واضحة وصريحة، وهذا هو الغالب في طعون المستشرقين.

٢- طعون غامضة وملتوية وغير مباشرة، وهذا الغالب في طعون العلمانيين.

---

(١) انظر: رد مفتريات على الإسلام، لعبد الجليل شلبي، دار القلم، الكويت، الطبعة الأولى، ١٩٨٢م؛ ومدخل إلى علم التفسير لأستاذنا الدكتور بلتاجي، مكتبة الشباب، ١٩٩٨م، وغير ذلك من المراجع.

الرد على من طعن في القرآن

أولاً: الردود الإجمالية التي تصلح لكل شبهة:

١- إعجاز القرآن الغيبي والعلمي والبياني والتشريعي.

٢- التحدي أن يأتي أحد بمثله: (فليأتوا بحديث مثله- قل لئن اجتمعت الإنس والجن - فليأتوا بعشر سور مثله – فليأتوا بسورة من مثله).

٣- شهادة المنصفين من الخصوم بصدقه.

٤- الوحدة الموضوعية لكل سورة.

٥- عدم التناقض.

٦- عدم معارضة كفار مكة له، مع أنهم أكثر الناس عداوة وفصاحة.

ثانياً: الرد على الطعون الأربعة الرئيسية:

أ ـ الرد على الطعن الأول (نفي نسبة القرآن إلى الله تعالى):

١- لو كان القرآن من تأليف النبي ﷺ لاستطاع العرب أن يأتوا بمثله، مع حرصهم الشديد على معارضته؛ حيث النبي ﷺ كان يتحداهم دائماً ويكرره عليهم كثيراً، ومع هذا لم يطقْ أحد منهم معارضته، ولا يقال: إن النبي ﷺ بلغ من العبقرية مبلغاً، بحيث لم يستطع أحد أن يأتي بمثل ما قال. لأنه يمكن للمخالفين أن يجتمعوا فيؤلفوا قرآناً. ومن المعلوم أن الجماعة تبدع وتبتكر أكثر من الإنسان الواحد؛ فلو اجتمع مئة شاعر مثلاً لتأليف قصيدة؛ لكانت في جمالها وقوتها وسبكها أفضل بمراحل من شاعر واحد

ألّف قصيدة، مهما بلغ هذا الشاعر من البلاغة والبيان[١]، فإذا كان آحاد المشركين لم يستطيعوا معارضة القرآن؛ فلماذا لم يجتمعوا لمعارضته؟ ولكن هيهات! فإنه لو اجتمعت قريش والعرب وأهل الأرض قاطبة، بل والجن؛ ما كان لهم أن يأتوا بمثل آية منه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ [الإسراء: ٨٨].

٢- (تبرّؤ محمد ﷺ من نسبة القرآن إليه ليس ادعاء يحتاج بيّنة، بل هو إقرار يؤخذ به صاحبه:

في الحقيقة أن هذه القضية لو وجدت قاضياً يقضي بالعدل، لاكتفى بسماع هذه الشهادة التي جاءت بلسان صاحبها على نفسه، ولم يطلب وراءها شهادة شاهد آخر من العقل أو النقل؛ ذلك أنها ليست من جنس (الدعاوى) فتحتاج إلى بيّنة، وإنما هي من نوع (الإقرار) الذي يؤخذ به صاحبه، ولا يتوقف صديق ولا عدو في قبوله منه. أي مصلحة للعاقل الذي يدعي لنفسه حق الزعامة، ويتحدى الناس بالأعاجيب والمعجزات لتأييد تلك الزعامة...، نقول: أي مصلحة له في أن ينسب

(١) ومن هذا الباب المجامع الفقهية وما فيها من اجتهاد جماعي، ومنه ما في دول الغرب من عمل لجانٍ متخصصة في الطب والفلك والأحياء والكيمياء والكهرباء والحاسوب وغيرها من العلوم؛ فأثمرت هذه اللجان المتخصصة علوماً وإبداعاً، واكتشافاً لا يستطيعه الفرد الواحد مهما بلغ من فرط الذكاء، وسيلان الذهن، وعبقرية العقل أن يبدعه.

بضاعته لغيره، وينسلخ منها انسلاخاً؟! على حين أنه كان يستطيع أن ينتحلها فيزداد بها رفعة وفخامة شأن، ولو انتحلها لما وجد من البشر أحداً يعارضه ويزعمها لنفسه.

الذي نعرفه أن كثيراً من الأدباء يسطون على آثار غيرهم؛ فيسرقونها أو يسرقون منها ما خف حمله وغلت قيمته وأُمنت تهمته، حتى إن منهم من ينبش قبور الموتى، ويلبس من أكفانهم، ويخرج على قومه في زينة من تلك الأبواب المستعارة؛ أمَّا أن أحداً ينسب لغيره أنفس آثار عقله، وأغلى ما تجود به قريحته؛ فهذا ما لم يلده الدهر بعد!)[(١)].

٣- (لا أدل على أن الوحي القرآني خارج عن الذات المحمدية من مخالفة القرآن في عدة مواطن لرأيه الشخصي ولطبعه الخاص)[(٢)]ومعاتبته على أخطائه :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾ [التحريم:١]، ﴿ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ [التوبة: ٤٣]، ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ

---

(١) النبأ العظيم: (ص: ١٦)

(٢) القرآن والمستشرقون، لنقرة ص:٣٥؛ والمستشرقون وشبهاتهم حول القرآن، محمد باقر الحكيم (ص:٥٠)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال:٦٧- ٦٨]، ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾.

[عبس:٥-١٠]

أرأيت لو كانت هذه التقريعات المؤلمة[1] صادرة عن وجدانه، معبرة عن ندمه ووخز ضميره حين بدا له خلاف ما فرط من رأيه؛ أكان يعلنها عن نفسه بهذا التهويل والتشنيع؟ ألم يكن له في السكوت عنها ستر على نفسه، واستبقاء لحرمة آرائه؟! بل إن هذا القرآن لو كان يفيض عن

---

(١) الدكتور (دراز) لم يذكر فيما ذكر تقريعات مؤلمة بل إنما هي عتاب، ولكن هناك آيات آخرى تدل على ما قال، منها قوله -تعالى-: ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء:٧٤-٧٥] وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة:٦٧]، وقوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة:٤٤-٤٧].

وجدانه، لكان يستطيع عند الحاجة أن يكتم شيئاً من ذلك الوجدان، ولو كان كاتماً شيئاً لكتم أمثال هذه الآيات، ولكنه الوحي لا يستطيع كتمانه﴿ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ [التكوير: ٢٤])(١).

وقد أقر بهذا الدليل بعض المستشرقين، مثل المستشرق (لايتنر)؛ حيث قال: «مرة أوحى الله إلى النبي ﷺ وحياً شديد المؤاخذة؛ لأنه أدار وجهه عن رجل فقير أعمى ليخاطب رجلاً غنياً من ذوي النفوذ، وقد نشر ذاك الوحي؛ فلو كان محمد كاذباً - كما يقول أغبياء النصارى بحقه - لما كان لذلك الوحي من وجود»(٢).

٤- نسبة محمد ﷺ القرآن إلى الله لا تكون احتيالاً منه لبسط نفوذه، وإلا لِمَ لَمْ ينسب أقواله كلها إلى الله؟(٣)

٥- (في بعض المواقف تكون حاجة النبي ﷺ للقرآن شديدة، بل لقد كانت تنزل به نوازل من شأنها أن تحفزه إلى القول، وكانت حاجته القصوى تلح عليه أن يتكلم، بحيث لو كان الأمر إليه لوجد له مقالاً ومجالاً، ولكنه كانت تمضي الليالي والأيام تتبعها الليالي والأيام، ولا يجد في

---

(١) النبأ العظيم، (ص: ٢٤).

(٢) دين الإسلام، لِلايتنر، ترجمة عبدالوهاب سليم (ص:١٣٢)، المكتبة السلفية، دمشق، ١٤٢٣هـ. وذكر أن لايتنر هو باحث إنجليزي حصل على أكثر من شهادة دكتوراه في الشريعة والفلسفة واللاهوت، زار الأستانة عام ١٨٥٤م.

(٣) شبهات حول القرآن وتفنيدها، د.غازي عناية، (ص:٢١).

شأنها قرآناً يقرؤه على النـاس؛ **ومع هـذا لم يتقوله ولم ينزل عليه شيء)**[١] مما يدلك على صدقه؛ إذ الكاذب لا يتأخر في افتراء الكذب عند الحاجة الماسة إليه، ومن أمثلة ذلك حادثة الإفك، وسؤال قريش له عن أصحاب الكهف وذي القرنين والروح، وتحرّقه لتحويل القبلة وغيرها.

٦- توقف الرسول ﷺ أحياناً في فهم مغزى النص حتى يأتيه البيان:

(لقـد كان يجيئه الأمر أحياناً بالقول المجمل، أو الأمر المشكل الذي لا يستبـين هـو ولا أصـحابه تأويلـه، حتى ينزل الله عليهم بيانه بعد. قل لي بربك: أي عاقل توحي إليه نفسه كلاماً لا يفهم هو معناه، وتأمره أمراً لا يعقل هو حكمته؟

أليس ذلك من الأدلة الواضحة على أنه ناقل لا قائل، وأنه مأمور لا آمر؟

ومـن أمثلة ذلك: موقفه في قضية المحاسبة على النيات: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ [البقرة: ٢٨٤] جزع الصحابة من هذه الآية، وأمرهم بالتسليم لها، وكذلك موقفه في صلح الحديبية وموافقته على كل شروط قريش مع اعتقاد بعض الصحابة أن فيها تنازلاً كبيراً كعمر بن الخطاب.

٧- إخباره في هذا الكتاب بأمور تحصل بعد موته وعلوم لم تكن في عصره، وقد قيل: يمكن أن تخدع كل الناس بعض الوقت، ويمكن أن تخدع بعض الناس كل الوقت، ولكن لا يمكن أن تخدع كل الناس كل الوقت.

---

(١) آراء المستشرقين لرضوان (١/ ٣٨٨).

فلنفرض أن النبي ﷺ استطاع أن يخدع كل من كان في زمنه، ألا يخشى أن ينكشف بعد ذلك إذا ازداد الناس علماً؟ فهو يخبر بأمور فلكية وأخرى طبية وأمور جغرافية، ويخبر بأحداث سوف تقع بعد موته، ويتكلم بعلوم لم يعرفها أهل زمانه، كل هذا وهو مطمئن القلب لصدق نفسه، ثم لا يأتي الواقع إلا مطابقاً لما قال، ولا يأتي العلم - على تقدمه الكبير- إلا بتأكيد كلامه وتأييد آرائه، أليس في هذا دليل أنه لا يتحدث من قبل نفسه، بل من قبل من يعلم السر والنجوى الذي لا تخفى عليه خافية؟

٨- من الأدلة على أن القرآن ليس من النبي ﷺ أوقاتُ نزوله(١)؛ فليس للنبي ﷺ اختيار فيما ينزل أو متى ينزل؛ فقد يأتيه وهو في الفراش مع أهله، أو وهو نائم، أو مع أصحابه، أو وهو سائر، أو على البعير(٢)، وقد يتتابع الوحي ويحمى حتى يشعر بكثرته عليه، وقد يفتر عنه حتى يشتاق إليه، بل قد يمرض من تأخره عليه.

ب ـ الرد على ادعاء (أنه نقل من غيره):

١- لقد تكفل الله -تعالى- بالرد على هذه الشبهة:

وبالسبر والتقسيم يمكن القول: إن القرآن يمكن أن يأتي إلى النبي ﷺ من أربع طرق: من عند نفسه، من عند شخص، من كتاب، من الله تعالى.

---

(١) المستشرقون وشبهاتهم حول القرآن، للحكيم (ص: ٥٤).

(٢) انظر: فتح الباري (١/ ٣٠)؛ فقد ذكر أن عند البيهقي حديث: «وإن كان ليوحى إليه وهو على ناقته؛ فيضرب حزامها الأرض من ثقل ما يوحى إليه».

- أما من عند نفسه؛ فقد تقدم معنا الرد على هذه الشبهة بأكثر من ثمانية أوجه[(١)].

- أما من عند شخص؛ فمن هذا الشخص؟ أكثر الطاعنين على أنهم نصارى أو يهود، فرد الله -تعالى- عليهم أن لسان أولئك القوم ولغتهم أعجمية، ولكن لغة هذا القرآن عربية مبيّنة؛ فكيف للأعجمي أن يأتي بأعلى الفصاحة وذروة البلاغة في اللغة العربية؟ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل:١٠٣].

-أما من كتاب؛ فالنبي ﷺ لا يقرأ ولا يكتب: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت:٤٨].

- فلم يبقَ إلا أنه من الله تعالى.

٢- **العهد القديم لم يكن مترجماً إلى اللغة العربية قبل الإسلام**، وقد نص على ذلك المستشرقون أنفسهم، فهذا (جوتين) يقول عن صحائف اليهود: «إن تلك الصحائف مكتوبة بلغة أجنبية»[(٢)]. وقد أشارت الموسوعة البريطانية إلى عدم وجود ترجمة عربية لأسفار اليهود قبل الإسلام وأن أول ترجمة كانت في أوائل العصر العباسي، وكانت بأحرف عبرية[(٣)].

---

(١) راجع الصفحات السابقة.

(٢) دراسات في تاريخ الإسلام ونظمه، س. د. جوتين، نقلاً عن كتاب الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده، لمحمود ماضي، (ص:١٤٧).

(٣) المرجع السابق (ص:١٤٨).

كيف إذاً أخذ النبي ﷺ منها؟! لا بد على المستشرقين أن يفتروا كذبة جديدة، وهي أن النبي ﷺ درس لغة التوراة فكان يترجمها للقرآن!

٣- ومن لطائف الاستدلال على أنه لم ينقل من غيره ما يذكره العلماء في فوائد أسباب النزول؛ إذ يذكرون أن من فوائد أسباب النزول دلالته على إعجاز القرآن، وأنه من الله -تعالى- من ناحية الارتجال؛ فنزوله بعد الحادثة مباشرة يقطع دعوى من ادّعوا أنه أساطير الأولين، أو من كتب السابقين[1]؛ فلو كان ينقل كتابه من كتب غيره لكان إذا سأله سائل يتريث حتى يراجع الكتب التي عنده، وينظر ماذا تقول في هذه المسألة ثم يجيب، ولكن النبي ﷺ لم يكن يفعل، بل يسأله الرجل فيعطيه الجواب الموافق للصواب، الذي لم يكن قرأه ولا عرفه إلا في هذه اللحظة التي نزل عليه فيها.

٤- لو كان القرآن مأخوذاً من التوراة والإنجيل والكتب السابقة، لما استطاع محمد ﷺ أن يتحدى الناس ويقدم على هذا الخطأ الفادح؛ لأن هذه الأصول المنقول عنها موجودة في متناول أيدي الجميع؛ فلماذا يتحدى الناس بشيء موجود؟ ألا يخشى أن يقوم بعض الناس بالرجوع إلى مراجعه والعمل مثل عمله فينكشف؟!

٥- (افتراض تعلم النبي ﷺ من نصارى الشام ويهود المدينة وغيرهم، لا يتفق مع الحقيقة التاريخية التي تحدثنا عن الحيرة والتردد في موقف المشركين من رسول الله في محاولتهم لتفسير ظاهرة الرسالة؛ لأن مثل

(١) ذكر هذه الفائدة الطاهر بن عاشور في كتابه التحرير والتنوير، (١/ ٥٠).

هذه العلاقة مع النصارى أو اليهود لا يمكن التستر عليها أمام أعداء الدعوة من المشركين وغيرهم، الذين عاصروه، وعرفوا أخباره، وخبروا حياته العامة بما فيها من سفرات ورحلات)[١].

٦- وجود بعض الشرائع في القرآن، التي تتفق مع ما في التوراة والإنجيل، أو حتى ما عند العرب ليس في هذا دليل على أنه مأخوذ منها؛ فالقرآن لم يأتِ لهدم كل شيء، بل لتصحيح الخطأ وإقرار الحق؛ فالصدق، والشجاعة، والكرم، والحلم، والرحمة، والعزة كل هذه المعاني موجودة عند كفار مكة، ومع هذا جاء الإسلام ولم يغيّر منها شيئاً؛ بل باركها وحثّ عليها، لذلك قال النبي ﷺ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لأتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلاقِ**»[٢]. ولم يقل: لأنشئها.

إذن ليس من الضروري لكتاب هداية من هذا القبيل أن يشجب كل الوضع الذي كانت الإنسانية عليه قبله حتى يثبت صحة نفسه، فمن الطبيعي أن يقر القرآنُ بعض الشرائع، سواء في الكتب السابقة السماوية، أو في عادات الناس وأعرافهم، وأما الخطأ فإنه لا يقره[٣].

وقد نص القرآن على هذا المعنى في مثل قوله -تعالى-: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا

---

(١) المستشرقون وشبهاتهم حول القرآن، لمحمد باقر الحكيم (ص:٤٣).

(٢) أخرجه الإمام أحمد عن أبي هريرة (٨٧٢٩)، رواه الإمام مالك في الموطأ بلاغاً من غير إسناد (كتاب الجامع، باب ما جاء في حسن الخلق) بلفظ «**بعثت لأتمم حسن الخلق**»، وأخرجه البزار بلفظ «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» (انظر: فتح الباري (٦/ ٦٦٥).

(٣) المستشرقون وشبهاتهم حول القرآن، للحكيم (ص:٦١).

ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس:٣٧].

٧- كيف يمكن اعتبار التوراة والإنجيل من أهم مصادر القرآن مع أن القرآن خالفها في كثير من الأشياء؛ ففي بعض الأحداث التاريخية نجد القرآن يذكرها بدقة متناهية، ويتمسك بها بإصرار، في الوقت الذي كان بإمكانه أن يتجاهل بعضها، على الأقل تفادياً للاصطدام بالتوراة والإنجيل(١).

(ففي قصة موسى يشير القرآن إلى أن التي كفلت موسى هي امرأة فرعون، مع أن سفر الخروج يؤكد أنها كانت ابنته، كما أن القرآن يذكر غرق فرعون بشكل دقيق، لا يتجاهل حتى مسألة نجاة بدن فرعون من الغرق مع موته وهلاكه، في الوقت الذي نجد التوراة تشير إلى غرق فرعون بشكل مبهم، ويتكرر نفس الموقف في قضية العجل؛ حيث تذكر التوراة أن الذي صنعه هو هارون، وفي قصة ولادة مريم للمسيح- عليهما السلام- وغيرها من القضايا)(٢).

٨- من المعلوم أن في القرآن ما لا وجود له في كتب اليهود والنصارى؛ مثل: قصة هود وصالح وشعيب، فكيف أتى بها النبي ﷺ؟(٣).

٩- وإذا كان النبي ﷺ أخذ من النصارى الذين خالطهم؛ من أمثال سلمان، وصهيب، وورقة؛ فلِمَ لم يفضحوه عندما سبّ النصارى وكفّرهم

---

(١) المستشرقون وشبهاتهم حول القرآن (ص:٤٦).

(٢) المرجع السابق (ص:٤٧).

(٣) الوحي القرآني من المنظور الاستشراقي ونقده، لماضي (ص:١٤٨)؛ الجواب الصحيح لابن تيمية (٣/ ٢٥)،(٤/ ٥٧).

في كتابه في عدة آيات؟ حتى إن سورة المائدة، وهي من آخر السور نزولاً، كانت من أكثر السور تكفيراً للنصارى[١].

١٠- من تناقضهم زعمُهم أن النبي ﷺ أخذ القرآن من سلمان وصهيب النصرانيين وابن سلام اليهودي وغيرهم ممن أسلم من أهل الكتاب[٢]، وحقيقة الأمر أن إسلام هؤلاء حجة عليهم؛ إذ لو كان النبي ﷺ أخذ القرآن والشريعة من أهل الكتاب؛ فلماذا يتركون الأصل ويذهبون إلى الفرع؟

جـ - دعوى جواز نقده ومخالفته، والرد عليهم:

هذا لون آخر من ألوان المواجهة البغيضة ضد القرآن، وهو ليس موجهاً ضد النص القرآني في مصدره الإلهي؛ ولكنه يستهدف أثر القرآن في الحركة الفكرية والتقدم العلمي.

فهو قد يقر بأن القرآن من عند الله؛ ولكن هذا الأمر لا يجعله يسلم من النقد والمخالفة. وحقيقة هذا الطعن أنه إنكار لقدسيته وأنه من عند الله ولكن بأسلوب ذكي؛ لأنه يعلم أنه لو صرّح بإنكار القرآن وأنه ليس من عند الله فسوف يلقى طوفاناً من المواجهة والتهم التي قد تصل إلى تكفيره؛ فلجؤوا إلى هذه الشبهة ومؤدّاها هو نفس مؤدّى إنكار القرآن؛ فأهم قضية عند المسلمين - وهي التي تؤرق الكافرين وأذنابهم- أن القرآن قدسي لا يقبل النقد، وحاكم واجب الاتّباع.

---

(١) الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده، لماضي (ص:١٤٨).

(٢) انظر: القرآن والمستشرقون، لنقرة، (ص:٣٥).

وإذا ثبت أن القرآن ليس من عند النبي ﷺ، وأنه من الله -تعالى- بكل ما فيه من كلمات وحروف - كما أثبتنا هذا في المباحث السابقة-؛ فهو إذن مقدّس لا يمكن الاعتراض عليه ولا نقده؛ فقد أمر الله الناس باتّباع الشرع، والأمر يدل على الوجوب؛ فقال -سبحانه-: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يونس:١٠٩]؛ فكيف نخالف أمر الله -تعالى- بأن نتبع غير الوحي؟

ومن أعظم معاني العبادة الرضى به حَكَمًا سبحانه: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٤٠]؛ فالدين القيم أن تجعل تحاكمك لله، والتحليل والتحريم والتشريع من خصائص الربوبية، ومن جعلها لغير الله فقد اتخذه نداً له سبحانه: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام:٥٧].

والحصر يدل على انفراد الله -تعالى- بالحكم:

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣١].

عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ: «أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذهَبٍ، فَقَالَ: **يَا عَدِيُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَثَنَ**». وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ (بَرَاءَةٌ): ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قَالَ:

أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئاً اسْتَحَلُّوهُ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئاً حَرَّمُوهُ»[١].

يعني أنهم لم يتخذوهم أرباباً؛ لأنهم عبدوهم؛ بل لكونهم أطاعوهم في التحليل والتحريم.

وقال -سبحانه-: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف:٢٦]، فسمى التحاكم لغيره شِركًا[٢]، وقال: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٠]. وكلمة (شيء) نكرة في سياق النفي وهذا من صيغ العموم؛ فكل شيء نختلف فيه فالحكم فيه لله، ثم أكد على إرادة العموم بـ (من) التي تفيد التأكيد[٣]. والله -سبحانه- لا يحكم ولا يقضي إلا بالحق؛ فمن ردّ حكم الله وشرعه فإنما رد الحق: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس:٣٢]. قال -جل جلاله-: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ﴾ [المائدة: ٤٨]. وقال الله -تعالى-: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النساء: ١٠٥].

---

(١) أخرجه الترمذي (كتاب التفسير، باب سورة التوبة، رقم:٣٠٩٥)، وحسّنه الألباني (صحيح الترمذي (٣/ ٥٦) رقم:٢٤٧١).

(٢)انظر:أضواء البيان للشنقيطي (٤/ ٩١)، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٩٨٨م.

(٣) انظر: تفسير القرطبي (١٦/ ٧).

وقال -سبحانه-: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:١٠٥]، فهو متلبس بلبوس الحق على كل أحواله[١]. والله -تعالى- لا يظلم ولا يحيف في الحكم[٢]: ﴿أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [النور:٥٠]، فلماذا إذن لا نأخذ حكمه؟ وقال -تعالى-: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨]، ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧]، ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

فإن كان الله أحسن الحاكمين وخيرهم وأحكمهم؛ فكيف يُعرِض المسلم عنه إلى غيره؟ لذلك قال النبي ﷺ كما ذكر الله -تعالى- عنه: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ [الأنعام:١١٤]، يعني: وأهل الكتاب يشهدون بفضله ومنـزلته وأنه حق.

من يعرض عن دين الله ويحكّم أي شيء آخر فإنما هو متّبع لهواه:

قال -سبحانه-: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص:٥٠]؛ يعني: لا أحد أضل ممن اتّبع هواه.

---

(١) انظر: تفسير القاسمي (٤/ ٦٣٦).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٢٩٨).

وقال -جل جلاله-: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٤٩-٥٠]، فكل حكم غير حكم الله فهو حكم الجاهلية وليس حكم الحضارة والتقدم كما يزعم الطاعنون. وقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ﴾ [المائدة: ٤٨]. وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٧]، وهذا وعيد شديد للنبي ﷺ لو خالف كتاب الله؛ فما بالك بغيره؟!

بل هذا التولي عن دين الله يعد من نواقض الإسلام. يقول -تعالى-:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥]، فنفى الله -تعالى- عمَّن لم يُحكِّمِ النبيَّ ﷺ الإيمانَ، وأقسم على ذلك بأعظم قسم -أقسم بنفسه العلية- وأكد هذا بالنفي مرتين (لا.. لا)، (وفي هذا الوعيد الشديد ما تقشعر له الجلود وترجف له الأفئدة؛ فإنه أولاً: أقسم -سبحانه- بنفسه؛ مؤكداً لهذا القسم بحرف النفي بأنهم لا يؤمنون؛

فنفى عنهم الإيمان الذي هو رأس مال صالحي عباد الله حتى تحصل لهم غاية؛ هي تحكيم رسول الله ﷺ. ثم لم يكتفِ -سبحانه- بذلك حتى قال: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ [النساء: ٦٥]، فضم إلى التحكيم أمراً آخر هو عدم وجود حرج -أيِّ حرج- في صدورهم؛ فلا يكون مجرد التحكيم والإذعان كافياً حتى يكون من صميم القلب عن رضا واطمئنان، وانثلاج قلب، وطيب نفس. ثم لم يكتفِ بهذا كله؛ بل ضمّ إليه قوله: ﴿وَيُسَلِّمُوا﴾ أي: يذعنوا وينقادوا ظاهراً وباطناً، ثم لم يكتفِ بذلك بل ضمّ إليه المصدر المؤكد فقال: ﴿تَسْلِيمًا﴾؛ فلا يثبت الإيمان لعبد حتى يقع منه هذا التحكيم، ولا يجد الحرج في صدره بما قضى عليه، ويُسلِم لحكم الله وشرعه تسليماً لا يخالطه رد ولا تشوبه مخالفة)[1].

وقال -سبحانه-: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]. وقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]. وقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]. وقال: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ

(١) فتح القدير للشوكاني (١/ ٥٧٣).

ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۝٥٠ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥١ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٥٢ ۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٥٣ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النور:٤٧-٥٤].

لذلك كله فلا يجوز لأحد كائناً من كان أن ينتقد كتاب الله أو يخالف مقتضاه:

قال -تعالى-: ﴿ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾. [الرعد: ٤١]

نعم! لا يجوز لأحد أن يعقب على أحكام الله، وذلك أن الانتقاد والتعقيب إنما يكون بسبب أمور؛ إما أن المعقب والمنتقِد أعلم من المنتقَد، سواء كان أعلم على العموم أو بهذه المسألة بالذات التي انتقد فيها، أو لا يكون أعلم ولكن المنتقَد غفل عن نقطة معينة في حكمه جانب فيها الصواب، فينبهه المنتقِد عليها.

وكل هذا منتفٍ بحق الله سبحانه؛ فلا أحد أعلم منه في كل الأمور جملة وتفصيلاً، والله -سبحانه وتعالى- لا تأخذه سنة ولا نسيان ولا غفلة:

﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ [طه: ٥٢]. ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾. [الأنعام: ١٣٢]

وقال الله -تعالى- : ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾. [النساء: ١٠٥]

وقال -سبحانه-: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾. [النساء: ٦٤]

إذاً الغاية من إنزال الكتب أن يُتحاكم إليها، والغاية من إرسال الرسل طاعتها؛ فمن لم يحقق هذه الغايات فهو لم يؤمن أصلاً بدين الإسلام، بل بكل الأديان، فما الدين إلا طاعة الله -تعالى- بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وما الإسلام إلا استسلام العبد لله في تطبيق شرعه على نفسه ومجتمعه.

د- الرد على زعم من ادعى عدم حفظه:

١- شهد لكماله وحفظه أعداؤه فمن تلك الشهادات:

يقول لوبلوا[(١)]: «إن القرآن هو اليومَ الكتاب الرباني الوحيد الذي ليس فيه أي تغيير يذكر»[(٢)].

---

(١) لوبلوا: لم أجد له ترجمة، وإن كان واضحاً من اسمه أنه فرنسي، وقد يكون هناك خطأ مطبعي في كتابة اسمه، فقد وجدت رجلاً فرنسياً اسمه (ماري لوبان) وهو زعيم حزب الجبهة الوطنية، كان ضابطاً في الجيش الفرنسي في الجزائر، وله عضوية في البرلمان الأوروبي بمدينة سترازبورغ، حزبه ينمو؛ لمطالبته بإخراج العرب من فرنسا، يتراوح عدد المصوتين له بين ٨ و١١٪؛ فلعله يكون هو مقصود الدكتور دراز، لاسيما أن دراز أقام في فرنسا طويلاً. (انظر: مجلة الهدى التونسية، العدد١٣).

(٢) انظر كتاب: مدخل إلى القرآن الكريم، للدكتور محمد عبدالله دراز،(ص:٤٠)، دار القلم، الكويت، ١٩٩٣م.

ويقول موير[١]: «إن المصحف الذي جمعه عثمان قد تواتر انتقاله من يد ليد حتى وصل إلينا بدون أي تحريف، ولقد حُفِظَ بعناية شديدة بحيث لم يطرأ عليه أي تغيير يذكر، بل نستطيع أن نقول: إنه لم يطرأ عليه أي تغيير على الإطلاق في النسخ التي لا حصر لها والمتداولة في البلاد الإسلامية الواسعة؛ فلم يوجد إلا قرآن واحد لجميع الفرق الإسلامية المتنازعة. وهذا الاستعمال الإجماعي لنفس النص المقبول من الجميع حتى اليوم، يعد أكبر حجة ودليل على صحة النص المنزل الموجود معنا، والذي يرجع إلى الخليفة المكروب عثمان»[٢].

ويقول بلاشير[٣]: «إن الفضل بعد الله يعود إلى الخليفة عثمان بن عفان؛ لإسهامه قبل سنة ٦٥٥م في إبعاد المخاطر الناشئة عن وجود نسخ عديدة من القرآن، وإليه وحده يدين المسلمون بفضل تثبيت نص كتابهم المنزل على مدى الأجيال القادمة»[٤].

---

(١) ليوأري موير (١٨٩٥ – ١٩٥٩م): ولد في بولندا، علاّم بولندا، عالم بالآثار الإسلامية، يهودي، هاجر إلى فلسطين عام (١٩٢١م) ومات فيها، وتقلب في الجامعة العبرية بين مناصب كثيرة من مدرس في معهد الدراسات الشرقية، ثم عميد المعهد، ثم مدير للجامعة، وله مؤلفات كثيرة، انظر: (موسوعة المستشرقين): (ص: ٥٣٩).

(٢) مدخل إلى القرآن الكريم، للدكتور محمد عبد الله دراز، (ص:٤٠)، دار القلم، الكويت،١٩٩٣م.

(٣) تقدمت ترجمته ص ٢٨٢.

(٤) تاريخ الأدب العربي لبلاشير (٢/ ٢٢) عن كتاب: قالوا عن الإسلام (ص:٥٢).

٢- هذه الشبهة الرد عليها متفرع من الرد على الشبه السابقة؛ فإن كان المخالف قد أقر بأن هذا القرآن ليس من النبي ﷺ ولا نقله من غيره، بل هو من الله تعالى؛ فإن الله قال في هذا الكتاب: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فبما أن الله تكفل بحفظه إذن لا يوجد مجال للطعن في بقائه؛ لأن هذا تكذيب لله تعالى.

٣- يكفي في الرد على هذه الدعوى العارية عن مستند أن نطالبهم بالدليل: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

فالدعاوى إن لم يقيموا عليها بينات أصحابُها أدعياء

٤- نرد عليهم بالواقع؛ فإن الواقع يُثْبِتُ أن القرآن لم يتغير منه شيء؛ فالتفاسير القديمة والكتب المؤلفة في الصدر الأول، والآثار المنقولة عن التابعين والصحابة، والأحاديث المرفوعة للنبي ﷺ لم نجد فيها حرفاً يغاير ما هو بين أيدينا الآن؛ بل يذكر فيها القرآن بنصه وحروفه وترتيبه، وكل من قام بمحاولة لتحريفه أو تغييره فُضِحَ وكُشِفَ وباءت حيلُه بالفشل.

٥-أجمع العلماء على أن ما بين دفتي المصحف هو كتاب الله الذي أنزل، وليس فيه نقص ولا زيادة(١)، ولم تعتن أمة من الأمم بكتاب كاعتناء أمة

(١) انظر: شبهات حول القرآن (ص: ٤٩).

الإسلام بكتاب الله (القرآن)؛ فقد ألِّفت حوله من الكتب ما لا يحصى كثرة؛ في تفسيره، وضبط حروفه وعلومه، وتفنيد الشبهات حوله، وقراءاته، وتجويده، وإعجازه، وبلاغته، وإعرابه، ورسمه، وأعداد كلماته وحروفه، وغير ذلك[١].

- وأما أجوبة الشبهات في دعوى التناقض سواء في الآيات بعضها مع بعض أو تعارض الآيات مع الحقائق (الشرعية والتاريخية والعلمية)، فهي كثيرة وتفصيلها طويل، وقد أجبت على الكثير منها في الرسالة.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

(١) انظر: مدخل إلى علم التفسير، أ.د. محمد بلتاجي (ص: ٧).

مؤ ت ـمـلـمؤسلطاهلإ

بين حملات التنصير

والدعوة إلى الحوار والتقارب

الحملات التنصيرية في العالم الإسلامي: أهدافها وبرامجها

مهدي رزق اللّه أحمد

تقويم تجربة الحوار بين المسلمين والنصارى

د. أحمد بن عبد الرحمن القاضي

الاستشراق المعاصر وأثره في ظاهرة التطاول على الإسلام

د. مازن مطبقاني

الحملات التنصيرية في العالم الإسلامي

أهدافها وبرامجها

(خاصة العالم العربي:

السودان ومصر والعراق والجزائر، نماذج)

مهدي رزق الله أحمد

ملخص البحث

يتناول هذا البحث الأهداف الرئيسة للتنصير في العالم الإسلامي وتطبيقاتها حسب برامجه في حالة: السودان، ومصر، والجزائر، والعراق. وهي الأهداف: الدينية والسياسية والاقتصادية، اللاتي اتخذوا أساليب ووسائل متعددة لتحقيقها.

ففي حالة السودان: ألقى البحث الضوء على الخلفية التاريخية للوجود النصراني فيه منذ قيام الدويلات النصرانية في شماله. ثم ينتقل البحث للكشف عن أبعاد المخططات التنصيرية للخروج من دائرة العمل وسط الأقليات النصرانية إلى العمل وسط المسلمين في الشمال، والوثنيين في الجنوب وجبال النوبة. ثم قرار الاحتلال الإنجليزي قفْلَ هاتين المنطقتين في وجه الدعوة الإسلامية والأفراد الشماليين؛ لتنفرد الإرساليات التنصيرية بها، مما أحدث واقعاً معاشاً في حاضر جنوبي السودان والجبال، رجحت فيه كفة النصارى على كفة المسلمين والوثنيين. بل غذى الغرب النصراني الحرب الأهلية التي اندلعت فيهما منذ قبيل الاستقلال، وانتهت باتفاقية نيفاشا عام ٢٠٠٥م. ووضع البحث أصابعه على تغلغل التنصير في دارفور بحجة المساعدات الإنسانية لضحايا الحرب الأهلية الأخيرة فيه.

وفي حالة مصر: وقف البحث عند الأقلية النصرانية القبطية ومحاولاتها إعادة مصر إلى نصرانية ما قبل أسلمة وتعريب مصر بشتى الوسائل، أو علمنتها.

وفي حالة الجزائر: تناولت الورقة محاولات الاحتلال الفرنسي تمهيد الطريق للإرساليات التنصيرية الغربية، والتعاون معها لفرنسنة الجزائر وتنصيرها بشتى الطرق، التي كان من أبرزها أسلوب القتل والتشريد، وتيسير طلب الرزق في فرنسا وغيرها من دول النصرانية.

وفي حالة العراق: ركّز البحث على خطورة أنشطة المنصرين التي صاحبت الاحتلال الصهيوني الصليبي له ابتداء من عام ٢٠٠٣م.

التنصير في العالم الإسلامي

الأهــداف

يمثل التنصير في تاريخ العلاقات الإسلامية - النصرانية إحدى أجنحة المكر الثلاثة: الصهيونية والشيوعية والصليبية (التنصير).

وترجع بداية هذا الصراع إلى العهد النبوي، بسَرِيَّة مؤتة وغزوة تبوك.

ثم فتح الخلفاء الراشدون بلاد الشام ومصر وشمال إفريقيا فأسلمت شعوبها طوعاً.

وعندما وصل الإسلام إلى أوروبا، لجأت أوروبا النصرانية إلى الأسلوب العسكري لوقف مده في بلاده، ومحاولة استرداد ما فقدته من أراضيها في بلاد الشام ومصر وإفريقيا.

فكانت الحروب الصليبية المشهورة التي دامت قرنين، ابتدأت عام ٤٩٠هـ/ ١٠٩٦م وانتهت عام ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م[١]. وكان من نتائجها استيلاء النصارى على بيت المقدس وكثير من بلاد الشام. وتولدت منها أحقاد آلام صَعُبَ عليهم نسيانها؛ فانعكس ذلك في مخططاتهم للغارة على العالم الإسلامي بشتى الوسائل والأساليب التي تزيد على المئة، من أخطرها:

---

(١) الحريري، أحمد بن علي بن أحمد الحريري: الأعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على بلاد المسلمين، تحقيق البروفيسور: مهدي رزق الله أحمد، نشر: دار الدعوة الإسكندرية ١٤٠٤هـ، ص٧، وص٧٣.

إخراج المسلمين من الإسلام بشتى وسائل التشكيك والفساد، وتعاونوا مع الصهيونية العالمية والاستعمار (الاستخراب) لتحقيق أهدافهم الرئيسية، والتي منها:

١- **الأهداف الدينية:**

أ- لقد هدف النصارى إلى نشر النصرانية بين المسلمين وغيرهم. وفي حالة الفشل في تنصير المسلمين بالذات يلجؤون إلى محاولات إخراجهم من دينهم. وقد سجل القرآن الكريم هذه الحالة، كما في قوله -عز وجل-: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقوله: ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٩].

ومن الأدلة على هذا الشق الثاني من الأهداف الدينية ما جاء على لسان أحد أقطابهم، في المؤتمر التنصيري الذي عقد عام ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م بجبل الزيتون الفلسطيني، وحضره ممثلون لأربعين دولة نصرانية صليبية، قوله: «... أتظنون أن غرض التنصير وسياسته إزاء الإسلام هو إخراج المسلمين من دينهم ليكونوا نصارى؟! إن كنتم تظنون ذلك فقد جهلتم التنصير ومراميه... ولكن الغاية التي نرمي إليها هي إخراج المسلم من الإسلام فقط؛ ليكون مضطرباً في دينه، وعندها

لا تكون له عقيدة يدين بها ويسترشد بهديها، وعندها يكون ليس له من الإسلام إلا الاسم أحمد أو مصطفى، أما الهداية فينبغي البحث عنها في مكان آخر..»[(١)].

وسبق إلى مثل هذا القول المنصر الأمريكي المشهور (زويمر) أمام مؤتمر القدس عام ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م[(٢)]، وكرر الدكتور واطسون[(٣)] (مدير الجامعة الأمريكية بالقاهرة) ما جاء في مؤتمر الزيتونة والقدس، من خلال المحاضرات التي ألقاها بعنوان (الفكرة العظمى) شرح فيها غاية الجامعة الأمريكية ومهمتها.

وما هذا القول إلا ذر للرماد في العيون؛ لأن من أهدافهم الرئيسية فعلاً تنصيرَ العالم الإسلامي، كما هو واضح في أفعالهم في العالم، خاصة في آسيا وإفريقيا، وفي قرارات مؤتمراتهم، وموقف الغرب النصراني من الصحوة الإسلامية في زماننا هذا. وإذا فشلوا في هذا فالخيار الثاني إضعاف الإسلام؛ فمثلاً في مؤتمر (تامبرام) التنصيري بمدراس الهندية عام ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م، قرر المجلس بأن للكنيسة النصرانية التزاماً خاصاً، وهو ألا تترك العالم الإسلامي بدون الشهادة على الإنجيل؛ على الرغم من كل الصعوبات التي تواجههم، وضآلة النتائج التي يتحصلون

---

(١) جريدة السياسة المصرية، ٣١٤٥، ٢٠/ ٦/ ١٩٣٣م.

(٢) أحمد عبد الوهاب: حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر، ط، دار غريب، القاهرة، ١٤١٢هـ/ ص ١٦٠-١٦١.

(٣) جريدة السياسة المصرية، ٣١٤٦، ٣٠/ ٦/ ١٩٣٣م.

عليها ، وازدياد ضيق الفرص المتاحة أمامهم[١] . ويوضح ذلك أكثر قول المنصر رايد: «... إنني أحاول أن أنقل المسلم من محمد إلى المسيح...»[٢] .

فهم يعملون إذاً على ثلاثة محاور في وقت واحد: تحويل المسلم إلى النصرانية، أو إضعاف القيم الدينية في نفسه، أو إخراجه من دينه ليصبح بِلا دين.

ومما يدل على اهتمامهم بالمحور الثاني (إضعاف القيم الإسلامية) قول المنصر بننق[٣]: «...إن الإيمان العميق لدى المحمديين -يعني المسلمين- بأن دينَهم هو الدين الوحيد الذي لديه الحل لكل المشكلات قد اهتز بقوة؛ ذلك أن عجائب الغرب المقرونة بتعليم العلوم الحديثة قد هزت هذه الثقة، وبذلك يوجدون متأسفين أن الإسلام لم يعد منسجماً مع العالم الحديث ومع العلم». وبينما ينوح بننق[٤]على ما أسماه بـ (الركود الروحاني) في الغرب النصراني، يفرح ويرحب بهبوط الإسلام التقليدي -كما يزعم- بسبب طفرة البترول في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين.

---

(١) هنري كونوي زيقلر: أصول التنصير في الخليج العربي، دراسة ميدانية وثائق، ترجمة د.مازن صلاح مطبقاتي، مكتبة ابن القيم- المدينة المنورة، ط ١: ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص ١١٠-١١١.

(٢) د. مصطفى الخالدي ود. عمر فروخ: التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ط٤، بيروت، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م، ص١٩٢.

(٣) كونوي، المرجع السابق، ص ٨٥-٨٦.

(٤) المرجع والمكان نفسه.

ويقول المنصر صموئيل زويمر: «...لا ينبغي للمبشر المسيحي أن يفشل أو أن ييأس ويقنط عندما يرى أن مساعيه لم تثمر في جلب كثير من المسلمين إلى المسيحية، لكن يكفي جعل الإسلام يخسر مسلمين بخلخلة عقيدة بعضهم، وعندما تنجح في هذا فقد خسره الإسلام، ولو لم يصبح مسيحياً»(١).

ويأمّلون كثيراً على التعليم العلماني لتحقيق مثل هذا الهدف. يقول أحدهم: «... وأنا أرجو أن يخرج هذا التعليم إلى حيّز الفعل ليبُثَّ في دين الإسلام التعاليمَ المستمدة من المدرسة الجامعة الفرنسية»(٢).

ويؤكد المنصر ذاته هذا المعنى، ويدندن كثيراً حول هذا الهدف، ويشير إلى أن خطة المنصرين في شطرها الثاني هو الهدم الذي يجب أن يلازمه بذل الوسع في إدخال التعليم النصراني؛ الذي يمهد السبيل إلى تقريب الإسلام، ومن ثم يتحقق هدف إضعافه في النفوس، خاصة مع تفتيت الدولة العثمانية(٣).

---

(١) مولود قاسم: آنية وأصالة، ط، وزارة التعليم الأصلي بالجزائر.

(٢) شاتليه: الغارة على العالم، لخصها ونقلها إلى اللغة العربية: مساعد اليافي ومحب الدين الخطيب، الدار السعودية للنشر، جدة، ص١٣-١٩.

(٣) المرجع نفسه، ص٢٠-٢١.

ب- السعي لوقف انتشار الإسلام بتشويهه:

عندما رأى النصارى الإسلام ينتشر في بلاده سعوا إلى إيقاف مدِّه بكل الوسائل، والتي كان منها تشويه حقائقه وصورة أتباعه(١). وقام بهذا الدور المنصرون المستشرقون، أمثال: هنري لامانس الفرنسي الأصل، البلجيكي المولد، واللبناني النشأة والممات، الذي كتب ١٨٥ عنواناً باللغة الفرنسية في الدراسات الإسلامية و١٢٧ عنواناً بالعربية.

آخر من حاول تشويه صورة الإسلام ونبي الإسلام البابا بنديكتوس السادس عشر، حين قال خلال زيارته ألمانيا في سبتمبر ٢٠٠٦م: «...إن الله في العقيدة الإسلامية مطلق السموّ ومشيئته ليست مرتبطة بأي من مقولاتنا ولا حتى بالعقل». أقام مقارنة مع الفكر المسيحي المشبع بالفلسفة الإغريقية، موضِّحاً أن هذا الفكر يرفض «عدم العمل بما ينسجم مع العقل»، وكل ما هو «مخالف للطبيعة الإلهية».

وذكر مقطعاً من حوار دار في القرن الرابع عشر بين إمبراطور بيزنطي وفارسي مثقف... يقول الإمبراطور للمثقف في الحوار: «أرِني ما الجديد الذي جاء به محمد! لن تجد إلا أشياء شريرة وغير إنسانية، مثل: أمره بنشر الدين الذي كان يبشر به بحد السيف» قاله البابا خلال حديثه إلى أساتذة جامعيين وطلاب في (رانبسون) بجنوبي ألمانيا، بمناسبة الذكرى الخامسة لاعتداءات الحادي عشر من سبتمبر / أيلول ٢٠٠١م.

---

(١) انظر: سعد الدين السيد صالح: الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام، ص ٥٥.

٢- الأهداف السياسية:

وهي نشر النصرانية لتكون عاملاً عظيماً في توطين وتمكين الحكم (الاستخرابي)، وبسط هيمنته الكنسية سياسياً ودينياً وعلمياً على العالم كله.

ومن هذه الأهداف المرتبطة بالهدف السياسي السابق توهينُ القيم الإسلامية (مصدر قوة المسلمين)؛ لإضعافهم ومن ثمّ تفتيت وحدتهم، ليسهل القضاء عليهم. إضافة إلى إيقاف المد الإسلامي في آسيا وإفريقيا بالذات. والواضح من تاريخ التنصير في العالم أن نشر الدين النصراني من منطلق ديني بحت هو من الأمور الثانوية عند كثير من المنصرين، ولذا يرى كثير من المنصرين أن الأهداف السياسية هي المحرك الرئيس لحركة التنصير. ومن الأدلة على هذا:

١ - اعتبر قادة الغرب المنصِّرين جنوداً لهم؛ فكان من سياسة لويس التاسع (ملك فرنسا، وقائد الحملة الصليبية الثامنة، الذي أسره المسلمون بمدينة المنصورة المصرية)، والتي رسمها عندما فشلت الحملات الصليبية العسكرية: «تحويل الحملات الصليبية العسكرية إلى حملات صليبية سلمية تستهدف الغرض نفسه، وتجنيد المنصِّرين الغربيين في هذه المعركة السلمية لمحاربة تعاليم الإسلام ووقف انتشاره، ثم القضاء عليه معنوياً، واعتبار هؤلاء المنصرين في تلك المعارك جنوداً للغرب»[1].

---

(١) عماد شرف: حقائق عن التبشير، ط١، ١٩٧٥م، ص١٠.

ويؤكد هذا الهدف (أدوين بلس) و(آرنست باركر) و (و. ج. فيليب). يقول (بلس) في كتابه (ملخص تاريخ التبشير): «...إن ريمون لول الإسباني هو أول من تولى التبشير بعد أن فشلت الحروب الصليبية في مهمتها..»[1].

ويقول باركر: «... وظهر أمثال ريمون لول، الذي كان ينادي بوجوب استبدال الحملة الصليبية ببعثة تبشيرية، وأن يقوم التبشير السلمي مقام الحملة الحربية...» [2].

ويقول فيليب: «... إن فرصتنا الوحيدة للعمل التنصيري في مصر، وغيرها من البلاد العربية، هو الإسراع في إزالة المظاهر التقليدية للمجتمع الإسلامي، وجعل هذا المجتمع في حالة القابلية للغزو الحضاري الغربي والإنجيل، وهي السياسة التي اتّبعها المنصرون بقوة ومساعدة الإدارة البريطانية بعد ثورة ١٣٣٨هـ / ١٩١٩م بمصر...»[3].

٢- استغل رجال السياسة الاستخرابية العمل التنصيري لتثبيت أقدامهم في البلاد المستهدفة في آسيا وإفريقيا؛ لأن حكم الشعب، إذا تنصّر أو تغرّب، يصبح أيسر من حكم المسلم الملتزم بقيم الإسلام التي ذروة سنامها الجهاد. ولذا فلا غرابة أن يصاحب الجنرال الفرنسي

(١) أ. ل. شاتليه: الغارة على العالم الإسلامي، سبق ذكره، ص ٢٤.

(٢) أر نست رينان: الحروب الصليبية، ص ١١٤.

(3) D. G. Philip: Women and the Present Day، C. M.C

(تورمنت) - قائد الحملة الفرنسية على الجزائر عام ١٨٣٠م - ستة عشر قسيساً، كان أحدهم الأب السوري الأصل زكاري، أخو بطريق بيت المقدس. وصرح تورمنت بعد سقوط الجزائر قائلاً: «... إنكم أعدتم معنا فتح الباب للنصرانية في إفريقيا، ونأمل أن تنبع قريباً الحضارة التي انطفأت في هذه الربوع»(١).

وعندما تم لفرنسا احتلال الجزائر وثبتت أقدامها فيها عسكرياً ثارت أطماعها في بقية بلدان المغرب العربي الإسلامي؛ فقام المنصرون بدورٍ هام في هذا؛ حيث أخذوا يصورون الشمال الإفريقي على شكل طائر، صدره الجزائر وجناحه الأيمن في تونس، والأيسر في المغرب الأقصى. وكان القس (دوفوكو) اليهودي من دعاة احتلال فرنسا لتونس والمغرب. وكان يصرح بأنه لا يمكن للطائر الفرنسي أن يبقى بدون جناحيه(٢). وهو صاحب نظرية فرنسا المغرب العربي الكبير عن طريق تنصير وتجنيس سكانه بالجنسية الفرنسية(٣).

(١) عبد الجليل التميمي: ملامح التفكير التنصيري عند المسؤوليين الفرنسيين في القرن التاسع عشر الميلادي (ملتقى الفكر الإسلامي السابع)، ١٩٧٣م، ج٣، ص ٩٩٤؛ نقلاً عن: د. عكاشة: الملامح، ص ١٦٠ (٣).

(٢) علال القاسي: نشاط التغيير ودور الاستعمار التخريبي بالأمس واليوم...ج ٣، ص ١١٠٤، المرجع نفسه، نقلاً عن عكاشة.

(٣) القاسي: المصدر نفسه، ص ١١٠٩، د. عكاشة، ص ١٦٠.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الاحتلال الأجنبي (الاستخراب) كان صيغة أخرى من صيغ الحروب الصليبية. وقد عبر عن هذا صراحة بعض قادته، ومثاله:

(أ) قول الجنرال الإنجليزي (أللنبي) عندما دخل بيت المقدس في الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٥م: «الآن انتهت الحروب الصليبية»[١].

(ب) قول الجنرال الفرنسي (غورو) عندما دخل دمشق على رأس جيوش الحلفاء، وذهب إلى قبر صلاح الدين الأيوبي -قاهر الصليبيين- وركله: «ها قد عدنا مرة أخرى يا صلاح الدين...»[٢].

(ج) صرح وزير الإعلام الصربي عام ١٩٩٢م، في بداية حرب البوسنة قائلاً: «نحن طلائع الحروب الصليبية الجديدة»[٣].

(د) قول بوش الابن عن حرب العراق: «إن الحرب على العراق مهمة إلهية يقوم بها من أجل عالم أفضل»[٤]. وهو يتبنّى هنا عقيدة ما يسمّى بـ (الصهيونية المسيحية).

---

(١) جلال العالم: قادة الغرب يقولون: دمروا العالم أبيدوا أهله، ط ٢، ١٢٩٥هـ/ ١٩٧٥م، ص٢٦، ومصدره: مجلة الطليعة القاهرية، عدد سبتمبر ١٩٦٦م، ص٨٤، مقال بقلم: وليام سليمان.

(٢) المرجع نفسه، ومصدره: القومية والغزو الفكري، ص ٨٤.

(٣) انظر: مجلة البيان، عدد ١١٨، سنة ١٤١٢هـ جمادى الآخرة ١٤١٨هـ/ أكتوبر ١٩٩٧م، ص ٨٠.

(٤) انظر: الإنترنت: htt: /www. Arabs wata. Org/inder. Philip p.= 13&wid=23.

إن الأدبيات الدينية التي توظفها هذه الحركة الصهيونية المسيحية تجعل اليهود المؤتمنين على الخطة الإلهية التي يتحدد بمقتضاها مصير البشر، وتجعل من إقامة دولتهم المدخل الوحيد الذي لا بد منه للعودة الثانية للمسيح، وهي العودة التي تحسم صراع الإيمان والكفر، والتي تنتهي بانتصار المسيح وسيادته على العالم مدة ألف عام، ومن ثم تقوم الساعة[١].

٣- القضاء على الوحدة الإسلامية، وإثارة الفتن الداخلية بين الطوائف الدينية في البلد الإسلامي الواحد؛ لأن هذه وسيلة لاستعباد الشعوب -وبخاصة الآسيوية والإفريقية- من قِبل الاستخراب الغربي النصراني.

وذلك بدليل قول لورانس براون: «إذا اتحد المسلمون أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم أو خطراً... أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون بلا وزن ولا تأثير... لذا يجب أن نحوِّل بالتبشير مجاري التفكير في الوحدة الإسلامية، حتى تستطيع النصرانية أن تتغلغل في المسلمين»[٢].

أما القس (سايمون) فكان يرى أن الوحدة الإسلامية هي التي تجمع آمال الشعوب السُّمر وتساعدهم على التملص من السيطرة

---

(١) انظر: الإنترنت: htt: /www. Arabs wata. Org/inder. Philip p.= 13&wid=23.

(٢) د. عمر فروخ ومصطفى الخالدي: التبشير والاستعمار، ص ٣٧.

الأوروبية[1]؛ لذا كان لا بد من القضاء على هذه الوحدة التي تخيف أوروبا، وهذه من أماني المستشرق جب[2] وأمثاله.

ولذا كان من أهداف المنصرين، ومن ورائهم دول الغرب النصرانية، القضاءُ على الخلافة الإسلامية العثمانية؛ لأنها تمثل رمزاً لوحدة المسلمين، وتقف سداً منيعاً أمام مخططاتهم المختلفة.

ومما يدل على هذا قول رئيس إرساليات التنصير الألمانية عام ١٣٨٩ هـ / ١٩٠٠م «... وبما أن كل الشعوب الإسلامية تُولي وجهها نحو الأستانة، عاصمة الخلافة؛ فإن كل المجهودات التي نبذلها لا تأتي بفائدة إذا لم نتوصل إلى القضاء عليها. ويجب أن يكون جُلُّ ما تتوخاه جمعية إرساليات التنصير الألمانية، هو بذل مجهوداتها حول هذه العاصمة، وهي قلب العالم الإسلامي»[3].

إثارة الفتن الطائفية:

من الأدلة على إثارة الفتن الداخلية الطائفية ما فعله (زويمر) بمصر حين ارتدى زيَّ طلاب الأزهر، ودخل بينهم ليوزع منشورات تثير الفتن بين المسلمين والأقباط، وكان يفعل مثل هذا في الشام المستشرق

---

(١) د. فروخ والخالدي: التبشير والاستعمار.

(٢) شاتليه: الغارة، ص ٤٦.

(٣) نفسه.

والمنصر الفرنسي المشهور هنري لامانس[(١)].

وعندما سقطت الخلافة العثمانية التركية، قال المنصر (جب):

«إن القضية التي تواجهنا بطبيعة الحال هي: ماذا يكون من أمر هذا الانقلاب العظيم على دين الإمبراطورية؟... إن هذا سيساعدنا على طبع الكتب البروتستانتية، وسيصبح المرء حراً في أن يبدِّل دينه...»[(٢)].

٤- إيجاد كتلة نصرانية تقف في وجه الكتل الإسلامية إذا ما ادّعت الأخيرة حق السيطرة أو النفوذ في تلك الدول. ومثال ذلك: محاولات النصارى فصل جنوب السودان عن شماله بحجة حقوق الإنسان المهضومة بالجنوب، أو ما يسمونه حديثاً بالتهميش؛ فقد غذّوا الحرب التي اندلعت به، ودبروا الاغتيالات في نيجيريا في مسرحية مكشوفة، عندما وجدوا المسلمين في مركز القيادة. ومثال ذلك: ما حدث للزعيم النيجيري أحمدو بيللو، ورئيس الوزراء أبي بكر تفاوا بليوة، وأصدروا أوامرهم بإلغاء توحيد نيجيريا والحكم الفيدرالي، وحل الأحزاب، وفرض سيطرة قبيلة (الأيبو) النصرانية على نيجيريا، ثم حركوا عميلهم الجنرال (أوجوكو) ليقوم بمحاولته الانفصالية في إقليم بيافرا. وبدأت الأسلحة تتدفق عليه بالمجان لقتل المسلمين، من: هولندا، وفرنسا، وألمانيا الغربية، وإيطاليا، وإسرائيل. واشترك البابا والفاتيكان في تهريب

---

(١) أنور الجندي: الإسلام في وجه التغريب، ص ٨٦.

(٢) فروخ والخالدي: التبشير والاستعمار، ص ٥٢.

الأسلحة إلى بيافرا على بواخر حكومية، واستحقوا لذلك شكره[١].

ولقد عبر عن أهداف أوجوكو أحد أقطاب التنصير في العصر الحديث، البروفسير (جيريام إمريك)، بقوله:

«إن الثورة البيافرية سوف تنشئ حكومة مسيحية في نظراتها، وذلك تبعاً لما صرح اللواء أوداميجو أن الخط السياسي لدولة بيافرا سيكون في وضع حد للتوسع الإسلامي في كل أرجاء إفريقيا».

وأراد الله أن يتحطم هذا الخط بفضله ثم بفضل صلابة المسلمين في نيجيريا، ورأى الغرب النصراني في الإسلام قوة سياسية تؤرِّق وجودهم في المستعمرات، ومن ثمّ تُعرقل مصالحهم الاقتصادية المتمثلة في نهب الثروات وفتح الأسواق أمام استثماراتهم وبضائعهم، ومن ثم كان التفكير في نوع من الدمج أو (التوحيد) بين الأنشطة السياسية والاقتصادية والدينية، بحيث يصبح (الدين) أو (التنصير) في خدمة الاقتصاد والسياسة في آنٍ واحد. وكان ذلك أحد أهم الأعمال التي ناقشها مؤتمر أدنبرة الاستعماري عام ١٣٢٨ هـ/ ١٩١٠م؛ حيث أجمع المؤتمرون على ضرورة ضم المقاصد السياسية والاقتصادية الأعمال الأخلاقية والدينية في سياسة الاستخراب الألماني، مؤكداً أن نموَّ

---

(١) مجلة البلاغ، ٥٨، الأربعاء ١٣ ربيع الثاني ١٣٩٠ هـ - ١٧/ ٦/ ١٩٧٠م، محمود شاكر: نيجيريا، ط٢، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م، ص٩٧ - ٩٩.

الاستعمار إنما يتوقف على نجاح المنصرين في إدخال الـدين المسـيحي إلى البلاد المستعمرة[(١)].

٥- خدمة الصهيونية العالمية: استغل الصهاينة التنصير للقضـاء علـى الإسلام أو إضعافه بعد أن فعلوا ذلـك بالنصـرانية في الغـرب. فالمنصـر المشهور زويمر لم يكشف عـن يهوديتـه إلا عنـد احتضـاره سـنة ١٩٥٢م عندما طلب حاخاماً يهودياً ليلقِّنه الشهادة، وهـو الـذي عمـل في حقـل التنصير لمدة ستين عاماً، كان معظمهـا في الـبلاد العربيـة، وهـو القائـل: «... إن المنصرين الأمريكيين الذين توجهـوا إلى منطقـة الجزيـرة العربيـة يعتبرون أنفسهم أبناء إسرائيل وحلفاء اليهود»[(٢)].

وادعى هو وزملاؤه المنصرون أن من بين دوافع التنصـير في الجزيـرة العربية استرجاع الجزيرة العربية المسلمة إلى أيدي النصارى كحق تاريخي تشهد عليه الآثار[(٣)].

وتعاون يهود الجزيرة العربية مع الاستخراب النصراني على احتلالها وتثبيت أقدامه فيها، أمثـال: يعقـوب صـروف، وفـارس، ونمـر، وتقـلا،

---

(١) شاتليه: الغارة على العالم الإسلامي، ص ٤٩.

(٢) د. غراب: رؤية إسلامية للاستشراق، ص٦٢؛ عكاشة، ص ٧٦.

(٣) د. غراب: رؤية إسلامية للاستشراق، ص٦٢؛ د. التميمي: التبشير في منطقة الخليج العربي، ص ٤٨-٤٩.

ومكاريوس، وداود بركات؛ رئيس جريدة الأهرام لأكثر من ثلاثين عاماً، وخليل ثابت...[١].

وسُمِح للمنصرين بإقامة أكبر مركز لهم في الشرق الأوسط بمدينة القدس أيام الاحتلال البريطاني لفلسطين.

ووصل اليهودي (بيريا) إلى كرسي البابوية، وتبنَّى قراراً بتبرئة اليهود من دم المسيح عليه السلام[٢].

وزار البابا يوحنا بولس الثاني معبداً يهودياً في ١٣/ ٤/ ١٩٨٦م[٣]. وعقد الغزال مبحثاً خاصاً عن تغلغل الصهيونية وأذرعها في الفاتيكان، بعنوان: «... الماسونية تغزو الفاتيكان»[٤].

---

(١) أنور الجندي: الإسلام في وجه التغريب، ص ٣١١، ٣١٦، ٣١٧.

(٢) غزال: الفضائح، ص ٣٩ وما بعدها.

(٣) نفسه، ص ١٢٧-١٢٨.

(٤) نفسه، ص ١٤٠ وما بعدها.

حركة التنصير في السودان القديم

إن صلات السودان بجيرانه، خاصة مصر والحجاز، قديمة جداً. وسبقت الحضارةُ المصرية الحضارةَ العربية ثم الإسلامية في التأثير على السودان الشمالي بالذات، حتى كاد السودان الشمالي أن يكون مصرياً في معظم مظاهره الحضارية في عصر الدولة المصرية الحديثة(١).

وكانت التجارة وأهمية تأمين طرقها بين مصر والسودان على رأس أسباب التسرب الحضاري المصري إلى السودان والعكس، وظهر هذا الأثر في الدويلات التي قامت في شمال السودان، مثل: دولة كوش، التي اتخذت مروي عاصمة لها بعد نبتة(٢).

وعندما سقطت دويلة كوش في منتصف القرن الثالث الميلادي، تلا ذلك فترة غموض دخل بعدها السودان في نفوذ النصرانية المتسرب إليه من مصر، وكان من نتائجه قيام ثلاث دويلات نصرانية في شماله: الأولى (نوباديا) أو النوبة، وعاصمتها فرس؛ والثانية: المقرة، وعاصمتها دنقلا العجوز؛ والثالثة: علوة، وعاصمتها (سوبا)(٣).

---

(١) د. مكي شبيكة: مملكة الفونج الإسلامية، ط ١٩٦٣، ص٥-٦؛ د. شوقي أبو خليل: تاريخ السودان وادي النيل، ط ١٩٦٩م، ج ١.

(٢) د. شبيكة: نفسه، ص٥-٦؛ الشاطر بصيلي عبد الجليل: تاريخ وحضارات السودان الشرق الأوسط، ١٩٧٠، ص ٧٨-٨٠.

(٣) د. مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، ط ١٩٦٠م، ص ٥٦-٦٧.

وعندما أسلمت مصر وشمال السودان وتعرّبتا انفصلت تلك الدويلات عن منبعها المصري، وابتلعتها القوى العربية الإسلامية القادمة من الشمال والشرق والغرب، ولم تجدها المقاومة لهذا الزحف مدى تسعة قرون(١)، وكان سقوط علوة على يد دولة سنار الاتحادية سنة ١٥٠٤م(٢).

حركة التنصير في السودان الحديث:

لقد بدأت حركة التنصير في السودان في منتصف القرن التاسع عشر، على يد إرساليات كاثوليكية وبروتستانتية.

الإرساليات الكاثوليكية:

بدأت نشاطها في السودان عام ١٨٤٢م على يد القس (لوينجي منظوري) الإيطالي، قادماً من أثيوبيا، وافتتح مدرسة صغيرة لأبناء النصارى في الخرطوم، ثم عاد إلى أثيوبيا عام ١٨٤٥م ومات مشروعه، وتلاه آخرون، نجح منهم الدكتور (كنو بلاخر) النمساوي، حين أسس قاعدة في الخرطوم، ثم فتح محطة في قندوكورو -قرب مدينة جوبا- وأخرى في جهات شامبي. وانضمت إلى بعثة الخرطوم بعثات أخرى من القساوسة وخبراء حرفيين، من بينهم الأب دانيال كمبوني، سنة

---

(١) نعوم شقير: جغرافية وتاريخ السودان، ط ١٩٦٧، ص ٣٦٢ وما بعدها، المسيوجيات: وثائق تاريخية.

(٢) د. ضيف الله: الطبقات، ط ١٩٧٣م، ص ٥؛ مهدي رزق الله: السلطنة الزرقاء.

١٨٥٧م، والذي وصل حتى جنوب السودان. وعندما توفي خلال ١٤ سنة ستة وأربعون منهم قرر الفاتيكان إغلاق الإرسالية سنة ١٨٦٢م إلى حين تحسّن الأحوال البيئية. وفي سنة ١٨٧٢م أوكل الفاتيكان لِكمبوني ومرافقيه الأربعة إعادة فتح الإرسالية؛ فبدأ بفتح محطة في مدينة الأبيض، وأخرى في الدلنج بجبال النوبة؛ تعتبر أقدم وأكبر الإرساليات التنصيرية في السودان، وتتبع للفاتيكان، وتمثلها حالياً ست مطرانيات(١).

وكانت استراتيجية كمبوني في العمل فتح مدارس لتعليم الأفارقة المهن المناسبة والعقيدة النصرانية ليقوموا بمهمة التنصير بدلاً عن النصارى الأوربيين الذين كان الموت يتخطفهم لعدم ملاءمة البيئة لهم.

وتواصلت جهود المنصرين في جبال النوبة لغلبة الوثنية عليها، حتى بلغت نسبة التنصير وسطهم إلى ٨٥٪، والمسلمين ٥٪(٢).

واستغل المنصرون فقر المسلمين فأغروهم بالمال ليرتدوا إلى النصرانية(٣).

---

(١) وكان من الذين تنصروا على يديه من جبال النوبة: الأب دانيال دينج سرور، الدينكاوي الأصل، من منطقة إبيي بولاية شمال كردفان، والراهبة فورتانا كواشي النوباوية، والراهبة بخيته الداجوية، وصورتها معلقة اليوم على هيكل مدينة الأبيض (جونتاني فانتيني: تاريخ المسيحية في المماليك النوبية القديمة والسودان الحديث، الخرطوم ١٩٧٨م، ص ٢٤٢).

(٢) د. حسن مكي: المشروع التنصيري في السودان، ص ٢٢١.

(٣) انظر: حديث أشوك كولن يانق المنصر العالمي الدينكاوي الذي أسلم، مجلة المجتمع، ع ١٦٢٩، ٢٢ شوال، ١٤٢٥هـ/ ٢/ ٢٠٠٤م، ص ١٩.

وتركت النصرانية مؤثرات سالبة على الحياة الدينية والثقافية والاجتماعية في مجتمع جبال النوبة، وبخاصة الآثار التي نتجت عن دخول هذه المنطقة تحت مظلة التمرد الجنوبي[١].

ومنذ عام ١٨٦٧م تمركز نشاط كمبوني في العاصمة السودانية وما حولها بتأييد ومعاونة أتراك وقناصل الدول الأوروبية لتحقيق طموحاته التنصيرية[٢].

وقد توفي عام ١٨٨١م في الخرطوم ودفن بها وخمدت بذلك نار مشروعه لتنصير السودان باندلاع الثورة المهدية في العام الذي مات فيه؛ فدُمِرت كل مؤسسات الإرسالية الكاثوليكية، وأُسِرَ قساوسة وراهبات الأبيض والدلنج، وتمكن من الهروب إلى القاهرة من كان منهم في الخرطوم، ثم عاد الأحياء منهم مع غيرهم بعد سقوط المهدية وبخطة جديدة؛ وهي حصر نشاطهم في الشمال على الخدمات التعليمية والطبية ورعاية الجالية النصرانية، على أن يكون النشاط التنصيري المباشر في جنوب السودان.

---

(١) انظر: د. نور الدين عوض الكريم بابكر: تأثير التنصير في مجتمع جبال النوبة، بحث منشور في مجلة (دراسات إسلامية)، ع ١، السنة الأولى، عام ١٤١٨هـ، ص ٤٩-٨٠.

(٢) انظر: الأب جيوفاني: المسيحية في السودان، نشر مركز محمد عمر بشير للدراسات السودانية، جامعة أم درمان الأهلية، ص٦٣-٦٥، د. حسن مكي: المشروع التنصيري في السودان ١٨٤٣- ١٩٨٦م، ٢٢-٢٣.

وكان من بين من عادوا كأول دفعة من المنصرين والراهبات من جمعيات كمبوني، وفتحوا المدارس في أم درمان والخرطوم سنة ١٩٠٢م، وفتحوا في الجنوب أول محطة في لول الشلكية سنة ١٩٠١م، وفي بحر الغزال سنة ١٩٠٤م، ثم الزاندي ١٩٠٢ م، والاستوائية ١٩١٩م.

وقسمت الحكومة الجنوب إلى مناطق نفوذ خاصة بكل جمعية من جمعيات التنصير سنة ١٩٠٣م؛ مناطق للكنيسة الكاثوليكية، وأخرى للإرسالية الأمريكية، وثالثة للجمعيات التابعة للكنيسة الأسقفية.

وكان من أهم عوامل نموِّ التنصير في الجنوب تكفّل الحكومة بكامل نفقاتها إلى سنة ١٩٢٩م. وبعد ذلك اقتصر دور الحكومة على إعانات سنوية لكل مدرسة إذا استوفت الشروط المفروضة.

وتحولت الكنيسة الكاثوليكية في السودان للسودانيين عام ١٩٧٤م[١].

---

(١) الأب جيوفاني فانتيني: المسيحية في السودان، سبق ذكره، ص ٦٥- ٦٨، بتصرف.

الكنيسة الأسقفية:

هي واحدة من أربع عشرة طائفة تابعة للكنيسة البروتستانتية.

كان نشاطهم متمركزاً في الجنوب منذ ١٩٠٦م، ابتدأ بمنقلا، وغربي الاستوائية، ابتدأ بمدينة (ياي) سنة ١٩١٧م، ثم جوبا عام ١٩٢٠م، ثم مريدي ١٩٢٠ ثم لوي.

وقد أصبحت المدارس من أهم العوامل لنجاح إرسالياتهم. وتركّز عملهم في الشمال على المدارس والمستشفيات.

الكنائس الشرقية:

وهي: الكنيسة القبطية، والأرثوذكسية، والمارونية، وكنيسة الروم، واليونانية الأرثوذكسية، والأرمينية الأرثوذكسية، والأثيوبية الأرثوذكسية، والإريترية، والكورية.... إلخ. وكانت جميعها تحصر نشاطها وسط جالياتها، ماعدا القبطية التي كانت تمارس نشاطاً تبشيرياً منذ عام ١٨٧٩م.

الكنيسة الإنجيلية (عرفت بالإرسالية الأمريكية أيضاً):

بدأت نشاطها في أعالي النيل في الجنوب، وراء فاشودة، منذ عام ١٩٠١م، ثم بدأت نشاطها في الشمال، وفي الخرطوم بالذات شيّدوا أول كنيسة لهم عام ١٩٠٧م. ثم في عطبرة ووادي مدني وحلفا وكريمة وبور تسودان عام ١٩١٢م؛ أغلقت سنة ١٩٣٢م أيام الأزمة المالية العالمية حين انسحب رجالها المصريون من السودان. وأخيراً أعيد فتح اثنتين

منها في كريمة وبور تسودان بعد زوال الأزمة. وتبع ذلك إنشاء بعض المستشفيات منذ عام ١٩٠٣م، وانتقل العمل فيها إلى السودانيين عام ١٩٦٥م، مستقلة عن مصر(١).

الكنائس البروتستانتية:

تلي الكنيسة الكاثوليكية في الحجم، وتمثلها أربع عشرة طائفة بأسمائها المختلفة مثل: الأسقفية، الأنجلكانية، الرسولية، الأخوة، الثالوث الأقدس، الإنجيلية، الإزفنست السبتيين.

الكنيسة البريطانية الإفريقية:

The Chaurch missionary societ

«هي مختلفة الأصول، بعضها بريطانية كجمعية تنصير الكنيسة البريطانية لإفريقيا والعرب».

من أشهر روادها في السودان جون إسبنسر ترمنجهام، ثم خلفه القس (ألفر أليسن) الذي قدم إلى السودان عام ١٩٣٨م(٢).

وفي محاولة لتقدير نسب المرتادين لهذه الكنائس يقول الأستاذ عمار صالح موسى(٣): الكنيسة الكاثوليكية ٥٠٪؛ إذ ينتمي إليها أغلب

---

(١) الأب جيوفاني: المسيحية في السودان، ص ٦٨-٧٣، بتصرف.

(٢) د. حسن مكي: التبشير المسيحي في العاصمة المثلثة، ص ١١.

(٣) في مقابلة معه أجراها مصعب الطيب بابكر، مجلة البيان، السنة ١٨، ١٩٢، شعبان ١٤٢٤هـ، أكتوبر ٢٠٠٣م، ص ٤٠، (طوفان التنصير يهدد هوية السودان).

سكان جنوب السودان، وتهتم غالباً بشؤون أفرادها، وليس لهم عمل كبير بين المسلمين. (٢) الكنيسة الإنجيلية ٢٥٪، ولكن لها أنشطة عديدة لتنصير المسلمين، وهي الكنيسة الأكثر تمويلاً وتأثيراً. (٣) الكنيسة الأرثوذكسية ١٥٪. (٤) الكنيسة الأسقفية ٨٪. (٥) شهود يهوه ٢٪.

من آثار التنصير في السودان:

وصل عدد الكنائس في السودان إلى أكثر من سبعين كنيسة، ما عدا الكنائس العشوائية والتي في مخيمات اللاجئين(١).

وجاء في التقرير الاستراتيجي السنوي، الذي صدر عن مجلة البيان والإصدار الثالث، لسنة ١٤٢٧هـ، بعنوان: (العالم الإسلامي تحديات الواقع واستراتيجيات المستقبل)، ص ٢١٦، بحث: (السودان صراع وجود)، للأستاذ مصعب الطيب بابكر -رئيس مجلس إدارة جريدة المحرر السودانية- قال : تعمل في السودان أكثر من ١٩٨ منظمة أجنبية، يتواجد أغلبها في إقليم دارفور، تمارس طيفاً واسعاً من الأعمال... وهي جهات سبق أن اتهمتها الحكومة بأنها تقوم بأعمال تجسسية لصالح جهات عديدة وبرعاية التبشير الكنسي.

وعلى الرغم من الوجود النصراني في شمال السودان، إلا أن حركة الرِّدة من الإسلام إلى النصرانية ظلت ضئيلة جداً.

---

(١) جبر الله عمر الأمين ومدبولي إسماعيل عثمان: حزام المواجهة، حرب التنصير في إفريقيا، ط ١، الدمام ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م، ص ١٢٤.

أما في جنوب السودان وجبال النوبة بجنوب كردفان فقد اختلف الوضع كما سبق ذكره.

الاستخراب البريطاني يكرس الوجود التنصيري في جنوب السودان وجبال النوبة:

لقد عمل الاحتلال (الاستخراب) البريطاني، إثر سقوط دولة المهدية، على تشجيع التنصير وحمايته في هاتين المنطقتين لإيقاف المد الإسلامي إلى الجنوب وبقية إفريقيا غير المسلمة؛ لتحويلها تدريجياً إلى قارة نصرانية. واتخذت سلطات الاحتلال التدابير والإجراءات التالية لإنجاح هذه الخطة:

(١) إصدار مرسوم حكومي عام ١٩٢٢م، يعتبرون فيه جنوب السودان منطقة مغلقة، لا يدخلها أحد إلا بتصريح من الحاكم البريطاني.

والهدف الرئيس من هذا: منع التجار المسلمين من دخول الجنوب لكيلا يعيقوا عمل جمعيات التنصير، وإيقاف هجرة الجنوبيين إلى الأقاليم الشمالية، حيث نص المرسوم على: عدم تشغيلهم في الشمال إلا بشروط قاسية تضطرهم للعودة إلى جنوبهم، ويعاقب المخالف بالسجن أو الغرامة.

وضيقوا فرص الزواج بين الشماليين والجنوبيين، بمنع الأزواج الشماليين من اصطحاب أولادهم الجنوبيين إلى الشمال(١).

(١) د.جمال مسعود وأ. علي لبن: المجتمع الإسلامي المعاصر بإفريقيا، ص ٣٤ وما بعدها.

ومارسوا سياسة الاستغناء عن خدمات الموظفين الشماليين الذين يعملون في الجنوب، وتم ذلك بخبث ودهاء، بدليل الخطاب الذي صدر من الحاكم البريطاني (ماك مايكل) إلى مدير مديرية بحر الغزال في ١١/ ٥/ ١٩٣٣م، ويقول له فيه: «يجب ألا يفكر أحد في طرد هؤلاء بالجملة، بل ينبغي أن يكون الإبعاد فردياً، وأن يلتمس له أسباباً كافية في كل حالة...». والخطاب محفوظ حالياً بدار الوثائق المركزية بالخرطوم[١].

وحرصت الإدارة على أن لا تستخدم مآمير من غير الزنوج السودانيين أو الأقباط المصريين، لإبعاد الجنوبيين عن المؤثرات الإسلامية العربية على حد قولهم[٢].

(٢) عملت على تنمية اللغة الإنجليزية واللهجات المحلية، ووضعت العراقيل في وجه اللغة العربية.

(٣) استبدلت الأسماء العربية بأسماء أوروبية أو قبلية إفريقية، كما وجهت النصائح إلى زعماء القبائل وأتباعهم إلى أن يتخلوا عن زيِّهم العربي، وأصدرت الأوامر إلى التجار بعدم بيع أنماط الملابس العربية.

(٤) منع المسلمين في الجنوب من ممارسة شعائر دينهم علانية[٣].

---

(١) د.جمال مسعود وأ. علي لبن: المجتمع الإسلامي المعاصر بإفريقيا ، ص ٢١١ - ٢١٢.

(٢) نفسه، ص ٢١٠.

(٣) نفسه، ص ٢١٤، ٢١٦.

(٥) استخدام التعليم بدءاً من رياض الأطفال إلى المرحلة الجامعية، لتربية الأهالي تربية نصرانية، مع تقديم المساعدات السخية لينخرط الناس في سلك التعليم.

(٦) سعوا بكل الوسائل إلى تعميق الهوة بين الشمال والجنوب، بدليل أنه في عام ١٩٥٠م، وعندما (سودنوا) الوظائف الحكومية، لم يعطوا الجنوبيين سوى عدد وظيفتين وجعلوا الراتب بنسبة ٣ : ١ قرش لصالح الموظف الشمالي.

(٧) شجعوا العريَّ الكامل كموروث ثقافي للأهالي.

(٨) تعمدت الكنائس في الجنوب تشويه صورة العرب والمسلمين بتلك الصورة المكررة التي تعلق في أبرز مكان من الكنائس الجنوبية، وهي لرجل يرمز للعرب المسلمين؛ يرتدي جلباباً ويجر امرأة زنجية بحبل مربوط في رقبتها، دلالة على استعباد العرب المسلمين للأفارقة[١].

(٩) حاربوا التعليم الديني الإسلامي في الشمال والجنوب؛ فقاموا بإحراق المدارس القرآنية والكتاتيب والخلاوي في الجنوب، مثلما حدث في ديم زبير، وراجا، وكافيا، وكنجي، وحفرة النحاس ببحر الغزال والرجاف، وجوبا، وأنادي في الإستوائية. وقتلوا السلاطين الذين افتتحوها مع الأبناء والأحفاد. وحتى المدرسة التي افتتحها المصريون

---

(١) انظر: مجلة (المسلمون) في ٢٩/ ١١/ ١٩٩١م، المجتمع الإسلامي المعاصر لجمال مسعود وعلي لبن، ص ٤٦.

-شركاؤهم في الاحتلال- في الجنوب لأبناء جنودهم وجند السوداني الشمالي، حاربوها، وحاولوا تقليص فعاليتها؛ لأنَّ من بين طلابها جنوبيين وثنيين.

ومارسوا كذلك سياسة المناطق المقفولة بجبال النوبة وكان من نتائج هذه السياسة أن أصبحت نسبة النصارى من الجنوبيين، طبقاً لإحصائية أجريت قبل نحو ثلث قرن، ١٧ ٪ من مجموع سكان الجنوب و١٨٪ من المسلمين و ٦٥٪ وثنيين أو لادينيين. ولا توجد إحصائية حديثة في هذا الجانب. يقول الأستاذ علي محجوب عطا المنان(1): «... وعموماً فلا أعتقد أن النِّسبَ الآن تسير في صالح المسلمين، بل هي في صالح النصارى لسبب رئيس؛ هو أن الكنيسة قد عبأت بشكل منتظم أعداداً كبيرة من الشباب وربطتهم بالمدارس ومعاهد التعليم النصرانية والكنيسة نفسها في مناشط شبابية أكاديمية وغير أكاديمية، وتستفيد من كون ٧٥٪ من الجنوبيين موجودين في الشمال».

---

(١) في حوار معه منشور في مجلة البيان، ١٩٢، السنة ١٨، شعبان ١٤٢٤هـ/ أكتوبر٢٠٠٣م، ص٤٠، بعنوان: طوفان التنصير يهدد هوية السودان، إعداد مصعب الطيب بابكر، ومن ضيوفه أيضاً: الشيخ محمد عبد الكريم، والأستاذ إلياس علي كرم الله، والأستاذ عمار صالح موسى عثمان.

عمل الاحتلال البريطاني في شمال السودان:

ولما كان الشمال قد قطع شوطاً كبيراً في ظل الإسلام وحضارته؛ فقد خشوا من المقاومة الجهادية، مثل: الثورة المهدية التي أسقطت الحكم التركي في السودان لتعطيله أحكام الشريعة الإسلامية، لذا لجأ الاحتلال إلى أسلوب إضعاف الدين في نفوس الشماليين عن طريق التعليم العلماني، وفتحِ منافذ وسبل الفساد الخلقي؛ حيث أحضروا معهم كخطوة أولى طبقةً من المستثمرين الأجانب، خاصة من الإيطاليين واليونان؛ فأسسوا مصانع للخمور، وافتتحوا الملاهي وحانات بيع الخمور وغيرها من وسائل الإفساد، ومن رموزهم: سوكلاتكس، وجرجس، ومحروس، ونشاكير، وغلو في مدينة عطبرة التي أنشأها الاحتلال سنة ١٩٥٠م، بل خصصوا حياً للعاهرات عندما خططوا مدينة عطبرة.

وتخرّج من معاهدهم، التي كان آخر مراحلها كلية غوردون التذكارية، ثلةٌ من السودانيين المتأثرين بحضارة الغرب، بدليل أن أحدهم صمم حياً للبغايا يتبع لخريطة مصنع سكر خشم القربة (حلفا الجديدة) وقال أحدهم في ندوة عن البغاء في السودان، عقدت بقاعة الامتحانات بجامعة الخرطوم في أواخر الستينيات -فترة وجودي في الجامعة المذكورة-: «إن البغاء ضرورة اجتماعية».

التنصير تحت ظل السودان المستقل:

لم تتوقف حركة تنصير أبناء الجنوب وجبال النوبة بعد استقلال السودان.

فعندما اندلعت الحرب الأهلية في الجنوب في عام ١٩٥٥م، وامتدت إلى جبال النوبة، نزح كثير من سكان هذه المناطق إلى شمال السودان؛ فكانوا هدفاً سهلاً للمنظمات التنصيرية، وساعد على ذلك الحالةُ البائسة التي كانوا يعيشون فيها، مثل: عدم توفر السكن والأجر المناسبين في مقابلة أعباء المعيشة، وعدم توفر العمل المناسب، فقد عمل معظمهم خدم منازل أو عمّال بناء؛ فأخذت الكنيسة في وضع الخطط لاستقبالهم عند محطات الوصول إلى الشمال، وعرضت عليهم حل مشاكلهم تحت غطاء المساعدات الإنسانية، ونظمت لهم الفصول الدراسية الليلية والأندية الاجتماعية والرياضية، وغذت فيهم روح العداء لمسلمي الشمال...، وأخيراً نجحوا في تنصير الكثير منهم، وجعلوا الكنيسة مكاناً جاذباً لهم(١).

وقد بلغ عدد هذه المنظمات أكثر من خمسمئة منظمة كنسية، كما ذكر أمين عام مجلس الكنائس العالمي لوسط وشرق إفريقيا سابقاً السيد أشوك كولن يانق. وكشف عن أبعاد المخطط الذي تتبعه هذه المنظمات

---

(١) انظر: د.حسن مكي: التبشير في العاصمة المثلثة، ص١٤ وما بعدها.

في تنصير المسلمين عبر وسائل وأساليب متعددة ومتكررة في عملهم في البلاد الآسيوية والإفريقية(١).

وعندما أدركت حكومة الفريق إبراهيم عبود العسكرية (١٩٥٧-١٩٦٤م) خطورة العمل التنصيري على الإسلام وأهدافه ووسائله، وتورطه في دعم التمرد، أصدرت قانون الهيئات التبشيرية في ٢٧/ ٢/ ١٩٦٤م، الذي كان من أهم بنوده (سودنة) الوظائف الكنسية في الجنوب، وطرد المنصرين الأجانب.

وسقط حكم عبود بعد أقل من عام من هذا الحدث؛ فأعقبته حكومات حزبية لم يكن التنصير من همومها؛ فأخذت الدوائر الكنسية تعمل بهدوء للوصول إلى ذات الأهداف، وثارت في وجه المشير جعفر نميري (١٩٦٩ – ١٩٨٥م)، عندما أعلن قوانين الشريعة الإسلامية في سبتمبر ١٩٨٣م، على الرغم من استثناء الجنوب منها، وعدم التزام حكومته بقوانين الهيئات التبشيرية سنة ١٩٦٤م، ودعموا حركة جون قرنق لتجعل من أهدافها التبشيرية محاربة القوانين الإسلامية، علماً بأن شرارة تمرد قرنق اندلعت قبل سَنِّ هذه القوانين .

ومارست الدوائر الغربية النصرانية ضغوطاً شديدة على حكومة البشير بحجج منها: أن ذلك القانون يتنافى مع حقوق الإنسان والحريات الدينية

---

(١) انظر حواره الموسع في مجلة (المجتمع) الكويتية، ١٦٢٩، في ٢٢ شوال ١٤٢٥هـ ٤/ ١٢/ ٢٠٠٤م، ص ١٨. وانظر جزءاً من سيرته الذاتية، ص٢١، بعنوان: (أشوك كولن يانق في سطور).

والديمقراطية؛ فألغي قانون الهيئات التبشيرية في ٤/ ١٠/ ١٩٩٤م، على الرغم من أنه كان في حكم الملغي خلال حكم الأحزاب وحكم النميري. بل إن النميري عندما وقع اتفاقية أديس أبابا مع متمردي الجنوب في فبراير ١٩٧٢م، تحت رعاية الإمبراطور الإثيوبي النصراني هيلا سيلاسي(١)، أقام لأول مرة علاقات دبلوماسية مع الفاتيكان في أغسطس ١٩٧٢م، وسلّم الجنوب على أثرها للكنائس، بما فيها الخدمة المدنية والتعليم؛ فضغطت الكنيسة على المجلس الحاكم (مجلس الجنوب) في ذلك الوقت بأن تكون الأولوية للنصارى في وظائف الخدمة المدنية والتعليم، ودعم الطلاب وبعثات التعليم العالي... حتى سبل كسب العيش، مما أدّى إلى ظاهرة ردة المسلمين الجنوبيين إلى النصرانية لينالوا هذه الامتيازات، التي قصد بها أن تكون طُعماً لهم(٢).

وعندما اندلعت الحرب الأهلية في إقليم دارفور دخلت المنظمات الكنسية لأول مرة في التاريخ مع المعونات الإنسانية؛ لدرء كارثة آثار هذه الحرب وسط اللاجئين.

---

(١) ومن أطراف الاتفاقية وشهودها: مجلس الكنائس العالمي، ومجلس كنائس إفريقيا، ومجلس الكنائس السوداني، ولم تحضرها أية أطراف إسلامية. هذا ما ذكره يوناس بول دي منيال، الأمين العام للرابطة الإسلامية لجنوب السودان، في مقال نشرته مجلة البيان، ١٣٨، السنة ١٤، صفر ١٤٢٠هـ/ يونيو ١٩٩٩م.

(٢) انظر: البيان، عدد ١٩٢: طوفان التنصير وهوية السودان، سبق، من حديث الأستاذ علي محجوب عطا المنان، بتصرف، ص٤٢- ٤٣.

وقد حذر المهندس الحاج عطا المنان -والي جنوب دارفور- من وجود بوادر حملة تنصيرية بدارفور، وكشف لدى لقائه وفد الحكومة الزائر لولايته عن قيام عدد من رجال الدين النصراني بتوزيع كتب التنصير على المواطنين في محاولة لتنصيرهم. وقال عطا المنان: «إن الخطر الحقيقي ليس في التدخل الخارجي بالسلاح، ولكن في تنصير مواطني دارفور؛ الذين عرفوا بحبهم للقرآن وحفظهم له، ونسخهم للمصاحف الشريفة»[١]. وكشف وزير الداخلية السوداني عن أن عدد المنظمات التنصيرية الأوروبية والأمريكية العاملة في دارفور يبلغ أكثر من ثلاثين منظمة، تقوم بأدوار في غاية الخطورة، وتستغل العمل الإغاثي في عمليات التنصير في دارفور المسلمة التي ليس فيها كنيسة واحدة.

وكانت قمة التدخل التنصيري في أثناء اجتماع الأساقفة الإنجيليين بالمركز الكنسي التابع للأمم المتحدة بنيويورك في شهر أبريل الماضي ٢٠٠٤م؛ حيث دعا رئيس الشماسين كلبروتستانتي إلى تقديم يد العون لسكان دارفور والمتشردين منها. وأرسل بابا الفاتيكان مبعوثاً شخصياً له، وهو رئيس الأساقفة الألماني بول كوردز، إلى السودان أواخر شهر يوليو ٢٠٠٤م؛ للضغط على الحكومة السودانية لتسرع في إدخال

(١) انظر: مجلة البيان، عدد ٢٠٤، السنة ١٩، شعبان ١٤٢٥هـ، سبتمبر/أكتوبر ٢٠٠٤م، ص٥٧ (الدور الأمريكي في أزمة دارفور)، بقلم: حسن الرشيدي.

المنظمات الكاثوليكية وتقدِّم لها التسهيلات، والأهم من هذا السماح للفاتيكان بتقديم تضامنه الروحي للمنكوبين، أي التنصير!

ومن بين المنظمات التنصيرية التي كرست جهودها مؤخراً في دارفور، منظمة ميرسي كوريس الأمريكية الإنجيلية التي قضت ٢٥ عاماً في التنصير في جنوب السودان. ويبدو أن ثمة تعاوناً وثيقاً بين نصارى الجنوب وبين المنظمات التنصيرية؛ فقد أرسل رئيس الأساقفة الإنجيليين في السودان (يوسف مارونا) إلى نظرائه في مناطق مختلفة في العالم يحثهم فيها على التدخل في دارفور[١]. ويذكر الشيخ الدكتور عبد الحي يوسف[٢]: «إن المنظمات الكنسية قد اهتبلت الفرصة فأقبلت بخيلها ورَجْلِها إلى دارفور تحت دعوى الإغاثة لتوزع قليلاً من الغذاء والدواء وكثيراً من الأناجيل والمنشورات. وحين تدخل معسكراً من معسكرات النازحين يفاجئك الصغار رافعين أكفهم وهم يرددون: O .K».

وأشار الدكتور عبد الحي إلى تورط بعض المنظمات الصليبية في دعم التمرد بدارفور، مثل: منظمة العون الكنسي النرويجية، وأن أكثرهم تورط في تثبيط النازحين عن العودة إلى دارهم، بدعوى أنهم قد جاؤوهم بإغاثة تكفي لست سنوات.

---

(١) مجلة البيان، ص ٥٧-٥٨.

(٢) نفسه، ص٧٠، وعنوان البحث: (الصراع في دارفور... تأملات ووقفات).

وكذلك أكدت اللجنة العليا لمبادرة زعماء دارفور بالخرطوم أنها قد وضعت خطة من ثلاثة محاور بالتنسيق مع الزعماء في دارفور لتفريغ معسكرات النازحين، وذلك في أعقاب اكتشافها للعمل المكثف للمنظمات الصليبية بالتبشير وسط النازحين، حيث عُثِر على كمية من الصلبان يحملها شباب وأطفال تتراوح أعمارهم ما بين ٥-١٨ سنة.

وقال العمدة جبريل حسن آدم، رئيس اللجنة: إن المعسكرات أصبحت مرتعاً خصباً للمنظمات الكنسية لتغيير ديانة أهل دارفور. وأضاف: إنها لم تأتِ للإغاثة، وإنما لتكفير أهلنا، ونحن المواطنين لا نقبل هذا[(١)].

ويذكر الدكتور محمد سليم العَوَّا (الأمين العام للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين) في حوار أجراه معه الأستاذ أحمد منصور، على قناة الجزيرة الفضائية القطرية، في برنامج (بلا حدود) أن هناك ٥٣ منظمة إنمائية تنصيرية أو دولية تمكّن للتنصير تعمل في دارفور، أربعة منها فقط عربية إسلامية.

وكان ذلك الحوار في أعقاب زيارته إلى دارفور ضمن جماعة الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، برئاسة الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي رئيس الاتحاد، عام ٢٠٠٤م.

---

(١) صحيفة (ألوان) السودانية، الأربعاء، ٢٧رمضان ١٤٢٥هـ -١٠/ ١١/ ٢٠٠٤م.

حركة التنصير في مصر

لقد كان زحف البعثات التنصيرية التي نظمتها دول الغرب النصرانية ابتداءً من العقد الأول للقرن التاسع عشر -امتداداً لتحقيق أهداف الحروب الصليبية التي فشلوا فيها، ولكن بطرق سلمية غير مباشرة كما أوصى لويس التاسع.

لقد ركزوا جهودهم على مصر بصفة خاصة لاعتبارات متعددة، على رأسها: إدراك هذه الدول بأهمية مصر الاستراتيجية، من حيث: الثقل السكاني، والموقع، والمكانة الثقافية والدينية -الإسلامية، والنصرانية القبطية الأرثوذكسية - ذات العمق العربي الإفريقي.

وصرحوا بهذا في مؤتمر أكسفورد بإنجلترا في منتصف أغسطس ١٩٨٦م، الذي كان هدفه وضع استراتيجية دقيقة منظمة وسرية لغزو الصليب وضرب الإسلام. وقد عكس ذلك (د. كوانج) المنصر الأمريكي الذي ترأّس جلسات مؤتمر أهمية العمل التنصيري في مصر بقوله: «إن مشروع التبشير بالنصرانية في مصر هو مفتاح القضاء على الإسلام تماماً»[١].

---

(١) جبر الله ومدبولي: حزام المواجهة، ص١٥٥-١٥٦، وانظر هنا أسلوب العمل وسط المجتمع المصري.

وكانت سهامهم في المرحلة الأولى موجهة للعمل وسط الكنائس الشرقية، ثم بعد أن اكتسبوا لمذاهبهم الغربية -مثل البروتستانت والكاثوليك- مواطئ أقدام بين أبناء الكنائس الشرقية، بدؤوا التوجه نحو تنصير المسلمين أو إبعادهم عن دينهم، عبر وسائل وطرق متعددة، تجاوزت المئة خلال القرنين الماضيين، والتي منها فيما يتعلق بمصر بصفة خاصة:

١- إنشاء المدارس التنصيرية من مرحلة الروضة إلى الجامعة: وقد بدأ هذا النشاط في عصر محمد علي باشا (١٨٠٥-١٨٤٨م)؛ حيث افتتحت (مدرسة الآباء لأونست) في الإسكندرية سنة ١٨٤٠م، وسموها الكلية الفرنسية، وأسسوا في السنة ذاتها الجمعية الأنجليكانية البروتستانتية في القاهرة. وظهر نشاطهم بوضوح في عهد الخديوي محمد سعيد (١٨٥٤-١٨٦٣م)، ثم فُتِحَ الباب على مصراعيه للقيام بأنشطتهم المختلفة في عهد الخديوي إسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩م)؛ بسبب مد دولهم له بالقروض المطلوبة[(١)].

ثم جاء الاحتلال البريطاني لمصر (١٨٨٢-١٩٥٢م) ليفسح لهم المجال والحماية للانتشار والتوسع بلا مواربة.

كيف لا يحدث هذا وقد رحبوا بهذا الاحتلال عام ١٨٨٢م في قرار رسمي صدر في السنة نفسها عن مجمع الكنائس؟

---

(١) د.خالد محمد نعيم: الجذور التاريخية لإرساليات التنصير الأجنبية في مصر (١٧٥٦-١٩٨٦م) دراسة وثائقية، القاهرة، ١٩٨٨ م، ص (٢٤، ٢٩).

إذ اعتبر القرار أن احتلال مصر فرصة سانحة لردة المسلمين في مصر عن دينهم[1].

لقد ظل المنصرون يرددون نغمة استرداد الأرض على مدى تاريخ التنصير في مصر. ومن الأمثلة على هذا: أن البابا شنودة في جلسته التاريخية -التي سبق ذكرها - مع القساوسة والأثرياء سنة ١٩٧٣م، ختم تلك الجلسة بأنْ بَشَّر الحاضرين، وطلب منهم نقل هذه البشرى إلى شعب الكنيسة، بأنَّ أملهم الأكبر في عودة البلاد والأراضي إلى أصحابها من (الغزاة) -يعني المسلمين- بات وشيكاً، وليس في ذلك أدنى غرابة، وضرب لهم مثلاً بإسبانيا النصرانية التي ظلت بأيدي المستعمرين المسلمين قرابة ثمانية قرون، ثم استردها أصحابها النصارى.

ثم قال: وفي التاريخ المعاصر عادت أكثر من بلد إلى أهلها بعد أن طُرِدوا منها منذ قرون طويلة جداً[2].

وقد أسهمت سياسة التوفيق الهادئة بين مصالح الإمبراطورية البريطانية والكنيسة في تهيئة المناخ المناسب للعمل التنصيري، بدون حدوث ردة فعل خطيرة تهدد الوجود البريطاني والإرساليات طوال الفترة من ١٨٨٢م وحتى ١٩١٩م، وهي الفترة التي تم خلالها إنشاء عدد من الكنائس التابعة للإرساليات التنصيرية المختلفة وما يلحقها من

---

(١) د. غراب: رؤية إسلامية للاستشراق، ص ٧١.

(٢) مجلة البلاغ، مصدر سبق ذكره، ص ٣٥ .

المدارس؛ فأحدث تحول أنظارها من العمل بين المواطنين الأقباط إلى العمل وسط الغالبية العظمى من المسلمين[١].

واستفادت مدارسهم من الإعانات الحكومية، أي من جيب دافع الضرائب المسلم[٢]، وكان بطل هذه السياسة (كرومر) الحاكم العام البريطاني على مصر: «إن من مهامي السياسية خدمة الإسلام»[٣]. وهذا ما قاله لأعيان الخرطوم عندما تم لهم احتلال السودان[٤].

ومن الأدلة على هذا نشاط المنصرة الشهيرة (الأم تيريزا) التي أحاطها الإعلام الغربي النصراني والعالم بدعاية واسعة النطاق؛ لأنها تمثل جزءاً من أنشطة بابا الفاتيكان التنصيرية، خاصة في منطقة الشرق الأوسط، في الأعوام ١٩٧٥-١٩٨٥م. فكانت تأتي إلى مصر عدة مرات في سياق متابعة مشروعاتها التنصيرية في مصر، والتي تحاط بالكتمان من جانب المسؤولين المصريين في الشؤون الاجتماعية، وقد استقبلها عام ١٩٨٥م، نائب رئيس الوزراء ووزير التعليم العالي[٥].

---

(١) د. عكاشة: الملامح، ص ١٠٢.

(٢) نفسه، ص١١٠ – ١١١، ومصدره:

Richter: The History of the Protestant Mission in the Near East ،Edib،P.78.

(٣) المكان و المرجع نفسه.

(٤) نفسه، ص ١٠٢.

(٥) انظر: الأهرام المصرية، ٨ يوليو ١٩٨٥م؛ مجلة المختار الإسلامي.

وقد استطاعت إخراج خمسين فتاة من الإسلام وإدخالهم النصرانية بمصر[(١)].

٢- تقديم الخدمات الطبية للفقراء من أهل الديانتين: الإسلامية والنصرانية.

ومما يدل على أهمية هذه الوسيلة عند المنصرين:

(أ) قول الطبيب المنصر الأمريكي بول هاريسون في كتابه (الطبيب في بلاد العرب)، ما ترجمته : «لقد وُجدنا نحن في بلاد العرب لنجعل رجالها ونساءها نصارى»[(٢)].

(ب) وقول س. أ. موريسون، المحرر في مجلة العالم الإسلامي: «...وحينئذٍ تكون الفرصة سانحة حين يبشِّر هذا الطبيب بين أكبر عدد من المسلمين في القرى الكثيرة في طول مصر وعرضها»[(٣)].

شجعوا التعليم العلماني؛ لأنهم كانوا يرون في المعاهد والمدارس الإسلامية عقبة كأْداء أمام أنشطتهم التنصيرية، الأمر الذي جعلهم ينبِّهون دائماً إلى خطرها، ويدعون إلى مواجهة التعليم الديني بالتعليم العلماني. وهذا ما كشف عنه مؤتمر القاهرة التنصيري عام ١٩٠٦م؛ حيث تباحث المؤتمرون في مدارس الحكومة وفي الأزهر. يقول أحد المؤتمرين: «... إن السُّنيين من المسلمين رسخ في أذهانهم أن تعلم اللغة

---

(١) د.غنيم: الجذور، ص٣٤٥- ٣٤٦.

(٢) فروخ والخالدي: التبشير و الاستعمار، ص ٥٩، ومصدره: الطبيب في بلاد العرب، ص ٢٧٧.

(٣) زيقلر: أصول التنصير.

العربية في الأزهر متقنٌ ومتينٌ أكثر منه في غيره من المعاهد التعليمية الأخرى. والمتخرجون من الأزهر معروفون بسعة الاطلاع على علوم الدين، والباب مفتوح فيه لكل مشايخ العالم».

واقترحوا في توصياتهم إنشاء مدرسة وجامعة نصرانية تقوم الكنيسة بتمويلها، وتكون مشتركة بين كل الكنائس المسيحية في العالم، على اختلاف مذاهبها وفِرَقِها، لتتمكن من مزاحمة الأزهر بيسر(١).

وانطلاقاً من هذا أنشأت الإرسالية الأمريكية التنصيرية في القاهرة عام ١٩١٩م الكلية الأمريكية بمصر، والتي أصبحت فيما بعد الجامعة الأمريكية(٢).

٣- التشكيك في الإسلام؛ لإبعاد المسلمين عن دينهم أو دخولهم النصرانية:

ودليل هذه الوسيلة المتبعة في العالم قول البابا شنودة أمام القساوسة والأثرياء - في اجتماع معهم - في الإسكندرية: «يجب مضاعفة الجهود التبشيرية الحالية... إن الخطة التبشيرية التي وضعت بنيت على أساس هدفٍ اتُّفق عليه للمرحلة القادمة؛ وهو زحزحة أكبر عدد ممكن من غير شعب الكنيسة عن دينهم والتمسك به، على ألا يكون من الضروري اعتناقهم المسيحية؛ فإن الهدف هو زعزعة الدين في نفوسهم، وتشكيك الجموع الفقيرة منهم في كتابهم وصدق نبيهم، ومن ثمّ يجب عمل كل

---

(١) د.كرم: الإذاعات التنصيرية، ص ٦٠.

(٢) جبر الله ومدبولي: حزام المواجهة، ص ١٥٥.

الطرق واستغلال كل الإمكانات الكنسية للتشكيك في الإسلام. وإذا أفلحنا في تنفيذ هذا المخطط التبشيري في المرحلة القادمة فإننا نكون قد نجحنا في إزاحة هذه الفئات من طريقنا، وإن لم تكن هذه الفئات مستقبلاً معنا فلن تكون ضدنا. وهذا المخطط التبشيري يجب أن يتم بطريقة هادئة لبِقة وذكية حتى لا يكون ذلك سبباً في إثارة حفيظتهم ويقظتهم. إن الخطأ الذي وقع منا في المحاولات التبشيرية الأخيرة التي نجح مبشّرونا في هداية عدد منهم إلى الإيمان والخلاص على يد الرب يسوع المخلص- هو تسرب أنباء هذا النجاح؛ لأن ذلك من شأنه تنبيههم وإيقاظهم من غفلتهم. وهذا أمر ثابت في تاريخهم الطويل معنا، وليس هذا بالأمر الهين. ومن شأن هذه اليقظة أن تفسد علينا مخططاتنا المدروسة، وتؤخر ثمارها، وتضيع جهودنا؛ ولذا فقد أصدرنا التعليمات الخاصة بهذا الأمر وسننشرها في كل الكنائس لكي يتصرف جميع شعبنا مع المسلمين بطريقة ودية تمتص غضبهم وتقنعهم بكذب هذه الأنباء، كما سبق التنبيه على رعاة الكنائس والآباء والقساوسة بمشاركة المسلمين احتفالاتهم الدينية، وتهنئتهم بأعيادهم، وإظهار المودة والمحبة لهم. وعلى شعب الكنيسة في المصالح والوزارات والمؤسسات إظهار هذه الروح لمن يخالطونهم من المسلمين»[1].

---

(١) مجلة المجتمع، ٥٤٩، محرم ١٤٠٢هـ-٣/ ١١/ ١٩٨١م، بعنوان: «شنودة.. المؤامرة القبطية على مصر الإسلامية»، ص٣٤-٣٥.

٤- السعي الدؤوب لإقرار ضمانات الحرية الدينية في الدساتير؛ لييسِّروا عملية الردة من الإسلام إلى النصرانية دون عقوبة حدِّ الردة من الإسلام إلى النصرانية.

وهو ما يسمونه بـ (علمنة الدساتير) والوقوف بصلابة في وجه ما يسمونه بـ (الإسلام السياسي) الذي يسعى لتطبيق الشريعة الإسلامية[١]. ودليل ذلك من الواقع المصري، رفع (واطسون) -مدير الجامعة الأمريكية في القاهرة- مذكِّرةً إلى اللورد أللنبي بهذا المعنى في أغسطس ١٩٢٠م[٢]. وكانت سياسة اللورد كرومر أن أفضل ضمانات الحرية الدينية، أي حرية الارتداد، تغريب المجتمعات الإسلامية[٣].

ومع هذا ظل الأقباط، ومن ورائهم أمريكا ودول النصرانية الأخرى، يضغطون على الحكومات المصرية المتعاقبة حتى لا تطبق القوانين الإسلامية في مصر، وأن تكون النصوص الدستورية فارغة المضمون، ومجرد حبر على الورق، وكبح جماح الجماعات الدينية -الإخوان المسلمين- التي تتصدى للتنصير. ومثال ذلك: زيارة البابا شنودة لأمريكا واللقاء بالرئيس كارتر عام ١٩٧٧م لتحقيق هذه الأهداف

---

(١) د. حقار: التنصير في إفريقيا، ص٢٦، ومثاله قول راعي الكنيسة التشادية: «ليس هناك ما يؤكد السلام و الاستقرار طالما هنالك الإسلام السياسي».

(٢) د.عبد العزيز عبد الغني: بداية التنصير الأمريكي في وادي النيل، ص ٨٦؛ د. عكاشة: التصدي، ٩٩ - ١٠٠.

(٣) د. عكاشة: التصدي، ص ١٠٠.

وغيرها، مثل: إنشاء جامعة قبطية تمكن للدعوة الصليبية الاستعمارية في العالم العربي والإسلامي، مثلما يفعل الأزهر في مجال الدعوة الإسلامية.

ولهذا بدأ الأقباط صيامهم في مصر لمدة أربعة أيام كخطوة ضاغطة تعقبها خطوات؛ ولذا جاءت الأنباء من راديو القاهرة في ١٣/ ٩/ ١٩٧٧م مؤكدة بأن البابا شنودة الثالث قد اجتمع برئيس الوزراء المصري ممدوح سالم بمبادرة من الأخير على غير العادة، وفي نهاية الاجتماع صرح الأول بأنه يشعر بالارتياح البالغ للضمانات التي قدمتها السلطات الحكومية خلال لقاء سالم والبابا، وخلال اللقاءات التي سبقت بشأن القوانين الإسلامية التي تحمل على الاعتقاد بأنها لن تطبَّق في مصر(١).

٥- الاستفادة من قانون الامتيازات الأجنبية ثم من الحماية الاحتلالية، مما مكنهم من توسيع نشاطهم التنصيري على مختلف أشكاله في الحواضر والأرياف(٢).

ولم يقف الشعب المصري المسلم مكتوف الأيدي إزاء هذا النشاط، بل تصدى لهم في عدة انتفاضات شعبية، أهمها أحداث عام ١٩٣٢م وعام ١٩٣٦م.

---

(١) المجتمع، الثلاثاء، ٢٢/ شوال ١٣٩٧هـ- ١٤/ ١/ ١٩٧م، ٣٦٩، السنة ٨، ص١٦: (التحرك الصليبي في مصر..ماذا وراءه؟ وإلى أين؟).

(٢) د.عكاشة: التصدي، ص١٠١؛ د.غنيم: الجذور، ص ٢٥٩ وما بعدها.

وشكّل العلماء والمفكرون الإسلاميون هيئة أطلقوا عليها (جماعة الدفاع عن الإسلام) للتصدي لهذه الظاهرة. وقامت جمعية عرفت بـ (الحصافية الخيرية) في دمنهور، نسبة إلى مؤسسها عبد الوهاب الحصافي، وكان الشيخ حسن البنا سكرتيراً لها، وتصدت لمحاولات التنصير وسط الفقراء الأيتام(١).

بل تنامت المقاومة حتى وصلت إلى مرحلة الجهاد المسلح ضد المنصرين، فيما يعرف بحركة الجهاد الشعبية الإسلامية(٢).

٦- إشاعة الفساد الأخلاقي ليتحقق لهم هدف زعزعة عقائد المسلمين، ودليل هذا استِخدام العوامات النهرية، التي تمارس فيها كل أنواع الفساد الأخلاقي(٣).

ومن الجماعات التنصيرية التي تشيع الفساد في المجتمعات الإسلامية مجموعة أبناء الرب الأمريكية. وقد ألقت السلطات المصرية القبض على مجموعة من النصارى اليهود من أعضائها بتهمة القيام بأعمال تتنافى مع تقاليد مصر الإسلامية، وقررت طرد رئيسها، الذي كان يعمل مراسلاً لعدد من المجلات الأمريكية في الشرق الأوسط، ورأس تحرير مجلة (القاهرة اليوم) بالإنجليزية. كما قبض على فروعها في أندونيسيا عام ١٩٨٥م، والإمارات العربية المتحدة وماليزيا وباكستان، خلال عام

---

(١) د. عكاشة: التصدي، ص١٠٢؛ د.غنيم: الجذور، ص ٢٥٩ - ٢٦٢.

(٢) انظر: د.غنيم: الجذور، ص ٢٥٩ - ٢٦٢.

(٣) انظر: د.غنيم: الجذور، ص ٢٣٠ - ٢٣١.

١٩٨٤م والنصف الأول من عام ١٩٨٥م، وفي الفلبين[١].

٧- أسسوا المجالس العامة لتوحيد جهودهم بمذاهبهم المختلفة في مجالات معينة في البلد الذي يعملون فيه؛ فأنشؤوا مثلاً في مصر المجلس العام للإرساليات، مهمته التصدي للحركات المعادية للمنصرين في مصر[٢].

٨- الدعوة إلى تحديد النسل بين المسلمين ليجعلوهم على المدى القصير أقلية في بلدانهم، على الرغم من أنهم يعتبرون ذلك في كنائسهم جريمة! ويسّروا للمسلمين الحصول على حبوب منع الحمل بأرخص الأثمان[٣].

وقد كشف البابا شنودة الثالث المصري عن هذه الخطة في اجتماع الكنيسة المرقسية بالإسكندرية، كما سبق الإشارة إليه، حين قال: «... لذلك فإن الكنيسة تحرم تحريماً باتاً تحديد النسل أو تنظيمه، وكل من يفعل ذلك يعد خارجاً عن تعليمات الكنيسة ومطروداً من رحمة الرب وقاتلاً لشعب الكنيسة ومضيعاً لمجده...، وقد اتخذت الكنيسة عدة قرارات لتحقيق الخطة القاضية بزيادة العدد، وهي:

(١) تحريم تحديد النسل أو تنظيمه بين شعب الكنيسة.

---

(١) د.عكاشة: الملامح، ص١١١.

(٢) نفسه.

(٣) د. شلبي: أفيقوا أيها المسلمون قبل أن تدفعوا الجزية، ص ٧٦.

(٢) تشجيع تحديد النسل و تنظيمه بين المسلمين (خاصة أن أكثر من ٦٥٪ من الأطباء القائمين على الخدمات الصحية هم من شعب الكنيسة).

(٣) تشجيع الإكثار من شعبنا، ووضع حوافز ومساعدات مادية ومعنوية للأسر الفقيرة.

(٤) التنبيه على العاملين في الخدمات الصحية على المستويين الحكومي وغير الحكومي؛ كي يضاعفوا الخدمات الصحية لشعبنا، وبذل العناية والجهد الوافرين، وذلك من شأنه تقليل نسبة الوفيات بين شعبنا.

(٥) تشجيع الزواج المبكر وتخفيف تكاليفه.

(٦) تحرِّم الكنيسة تحريماً تاماً على أصحاب العمارات والمساكن المسيحيين تأجير أي مسكن أو شقة أو محل تجاري لغير أبناء شعبنا...[(١)].

وخطوا خطوة أخرى تمثلت في نجاحهم في قتل الأطفال (الأجنة) المسلمين في أرحام الأمهات، من خلال برنامج تنظيم الأسرة الذي تموِّله الحكومة الأمريكية من الداخل[(٢)].

---

(١) مجلة المجتمع، ٦ محرم ١٤٠٢هـ-٣/ ١١/ ١٩٨١م، عدد ٥٤٩، ص٣٤؛ د. جريشة: حاضر العالم الإسلامي، ص ٦١.

(٢) جبر الله و مدبولي: الحزام، ص ١٥٧.

وعندما واجهت الأمة الإسلامية في مصر الحركة التنصيرية بوسائل منها الجهاد المسلح، كما سبق ذكره، لجأت إلى طريق الممارسة غير المباشرة مثل: الإفساد الفكري والخلقي؛ حتى يخرج المسلم من دينه، متعاونةً مع الصهيونية العالمية والصليبية العالمية والإمبريالية الرأسمالية(١).

٩- تعاونوا مع الاستخراب (الاحتلال) في محاربة اللغة العربية الفصحى لتصبح كاللاتينية، ومحاولة إحلال اللغات واللهجات المحلية مكانها، وبذلك تضمحل المدارس القرآنية، ويصعب قراءة القرآن وفهمه(٢). ومن أميز الدراسات التي كشفت أبعاد وأهداف ووسائل هذا المخطط الدكتورة نفوسة زكريا سعيد في بحثها (تاريخ العامية في مصر وآثارها..) الذي حصلت به على درجة الدكتوراه في التاريخ الحديث من جامعة الإسكندرية، ونشر سنة ١٩٦٥م.

١٠- حرصهم على أن يتخصص أبناء الكنيسة في المهن الطبية لأسباب اقتصادية واستراتيجية دينية تنصيرية، والتخصص في الدراسات التاريخية ليتمكنوا من تفريغ التاريخ الإسلامي من مضامينه الأخلاقية السامية، حتى وصلت نسبتهم في مصر إلى أكثر من ٩٠٪، كما ذكر لنا سنة ١٩٧٠م، أحد البروفيسورات الجامعيين، الذين هاجروا إلى السعودية بعدما لحق بهم من أذى تحت نظام عبد الناصر.

---

(١) د.غنيم: الجذور، ص٣٣٠ - ١٣٣١.

(٢) د. بلقاسم: الحركات...ص ٥٤.

حركة التنصير في العراق

بدأ التنصير في العراق بين الطوائف النصرانية القديمة؛ إما لتوحيدها لأنها ذات رسالة مشتركة، أو محاولة كل طائفة نقل أتباع الطوائف الأخرى إلى جماعتها، ثم بعد ذلك يكون الانطلاق للعمل لتنصير المسلمين أو زعزعة عقيدتهم.

وقد وقع اختيار المنصرين على مدينة البصرة لتكون مركز انطلاق لدعوتهم، وذلك لما تميَّزت به من موقع استراتيجي؛ حيث تسيطر على شمال الخليج العربي.

وكان (صموئيل زويمر) وبمساعدة صاحبيه جيمس كانتين والطبيب شارلز رقز أول من وضع لبنة العمل التنصيري في البصرة؛ حين أقامت البعثة العربية البروتستانتية محطة لهم في البصرة عام ١٨٩١م، ومنها كانت الانطلاقة إلى معظم بلدان الخليج وبعض أجزاء شبه الجزيرة العربية. وقد بدؤوا عملهم على متن السفن الأجنبية في المرفأ، ثم قليلاً في المدينة نفسها[(١)].

وما لبث أن افتتح الدكتور (رقز) مستوصفاً في البصرة. وقام المنصرون بتوزيع مطبوعات دينية، وفتحوا مكتبة صغيرة بالقرب من

---

(١) زيلقر: أصول التنصير في الخليج العربي، ص ٣٣ - ٣٤ ومصدره:
Samuel M.Zwemer ،Field Reports of the Arabian Mission..،P.3.

الميناء لبيع الأناجيل بالعربية والإنجليزية، وقاموا بعدة رحلات قصيرة في الداخل العراقي، ولكن لم تثبت جدواها كما يقول زيقلر[١].

ولم يمضِ وقت طويل بعد وصولهم العراق حتى أدركوا صعوبة الطريق أمامهم، وذلك حين أمرهم الحاكم التركي بمغادرة البصرة. ولكن تمكن زويمر من الحصول على إذن بالبقاء، بشرط أن يقوم بالوعظ والطقوس النصرانية فقط بين الغرباء، وهو وعد لم يلتزم به حرفياً[٢]. وذكر زويمر في تقاريره ما أصابه من إحباط نتيجة صعوبة العمل، قائلاً: «إن الجهل بالمسيح والمسيحية بين الطبقات الدنيا لا يمكن تخيّله»[٣].

والجانب المشرق في هذا العمل كما يرى زيقلر هو التجاوب مع العمل الطبي والتعليمي غير الديني! ويذكر أن المثال الذي قدمته جمعية الكنيسة التنصيرية بتأسيسها مقراً لها في بغداد عام ١٨٨٣م، والقبول الذي لاقته من خلال مستشفاها ومدرستي الأولاد التابعتين لها في بغداد والموصل[٤]، مشجع لزويمر لاتخاذ قرار بالتحوّل من التركيز على التنصير في البصرة إلى العمل التنصيري الطبي والتعليمي[٥]. وقد كتب زويمر حول (قوة هذه الطريقة ونجاحها في إبطال التعصب وإيقاظ

(١) زيلقر: أصول التنصير، ص ٣٥.

(٢) نفسه، و مصدره تقارير زويمر.

(٣) نفسه، و مصدره تقارير زويمر.

(٤) نفسه، ص ٣٦، وانظر مصدرها هنا.

(٥) نفسه، ص ٣٧، و مصدره التقارير الميدانية رقم ٣ يوليو - أكتوبر ١٩٨٢م، ص ٦.

التعاطف في البلاد الإسلامية)، قائلاً: «إن مستوصف جمعية الكنيسة التنصيرية في بغداد التي كان يديرها الدكتور ستون Sutton لَدليلٌ رائع على ذلك»[(١)].

لقد وصل عدد المنصرين التابعين للبعثة العربية عام ١٩٣٣م خمسة وثلاثين في الخليج العربي، منهم سبعة عشر بالبصرة (بما في ذلك العمارة) والبقية في دول الخليج الأخرى. ثم انطلقوا إلى الناصرية عام ١٩١٨م وإلى بغداد عام ١٩٢١م.

وعندما اكتُشِف البترول في بلدان الخليج العربي لم يعد المواطن العربي المسلم بحاجة إلى مدارس ومستشفيات المنصرين، ولذا أخفقت هذه البعثة في مهامها بعد عمل دام ٨٤ عاماً. يقول زيقلر: لقد شهدت السنوات من ١٩٣٤م إلى ١٩٥٧م تحديات عديدة داخلية وخارجية ونهاية أخيرة للآمال الحقيقية لإدخال أحد إلى النصرانية.. وكان الانقلاب على الملك فيصل عام ١٩٥٨م إشارة لنهاية فصل في تاريخ البعثة الحافل[(٢)]!

ويقول: «.. ففي أعقاب الثورة التي اتسمت بالصلابة في معارضتها لكل أنواع التدخل الأجنبي في العراق أُغلق مستشفى في العمارة. وفي

---

(١) زيلقر: أصول التنصير، ص ٣٧، والتقرير ص ٦.

(٢) نفسه: ص (١١٣، ١١٤).

١٦ مارس استولت الحكومة على ممتلكات البعثة في العمارة، وأُجبر أعضاء البعثة على الرحيل»(١).

وأجبر القس جي جاكوب هولير على مغادرة البصرة في الشهر نفسه، وترك مدرسة الهاي هوب خلال ٢٤ ساعة وأغلقت نهائياً عام ١٩٦٧م وطرد جميع المنصرين من العراق(٢).

التنصير في شمال العراق:

(١) يذكر تقرير صادر عن وحدة التنصير العالمي (Global Mission Unit) أن عام ١٨٥١م كان بداية دخول حملات التنصير إلى مناطق الأكراد في شمال العراق. وكان المنصر صموئيل أدلي طليعة هذه الحملات. ومن هذا التقرير المعنون بـ (خواطر تفهم أعمال التبشير بين الأقليات القومية الإسلامية): «يبدو أن الأهداف الأولية للتنصير في شمال العراق هي: تشكيل فريق عمل من المنصرين للوصول إلى أهداف التنصير ببلوغ سنة ٢٠٠٠م. ويذكر التقرير المدخل الاستراتيجي للفريق الذي يتمثل في:

(١) تعليم اللغة الكردية.

(٢) إيجاد فرص عمل للأكراد بتعليم الحاسب الآلي وتدريس اللغة الإنجليزية، وإنشاء أعمال ومشاريع صغيرة. وتم تشكيل الفريق المذكور

---

(١) زيلقر: أصول التنصير، ص١١٧.

(٢) نفسه، ص ١١٨.

من كل من:

(أ) بون بلن. (ب) بل كونبس.

(ج) تيري بوس. (د) تيريزا سلينجر.

(هـ) روث تيسدال.

ويذكر التقرير الخطة التي وضعت للفريق والسقف الزمني لها، وحدود ما يجب على الفريق إنجازه ويتمثل في:

(أ) الاطلاع التام على الإسلام.

(ب) إنشاء كنائس.

(ج) أن يكون أعضاء الفريق قدوة للمسلمين .

(د) السعي الجاد لتنصير المسلمين.

وافتتحت جمعية الكتاب المقدس الدولية مكتباً لها في أربيل، وقامت بطبع وتوزيع القسم السادس من العهد الجديد المعنون (رسالة إلى مؤمني روما) باللغة الكردية عند اندلاع القتال بين البرزاني والطالباني. وقامت بطبع إنجيل لوقا بالكردية، بالإضافة إلى طبع تقويم عام ١٩٩٥م مع بعض الجُمل من الإنجيل عليه. والجدير بالذكر أن هذه الطبعات قد تمت داخل الإقليم. إضافة إلى الأناجيل المطبوعة خارج العراق بطبعات جميلة وجذابة وزعتها الجمعية المذكورة.

(٢) **المكتبات التنصيرية**: فتحت المنظمات التنصيرية مكتبات عامة لترويج الكتب النصرانية، واحدة في مدينة أربيل، وأخرى في مدينة دهوك، لإعارة الكتب، وقد تقدمها هدايا إلى المترددين عليها، وكذلك إعارة الأشرطة المسجلة، وأشرطة الفيديو حول حياة السيد المسيح -عليه السلام- من وجهة نظر الكنيسة، إضافة إلى التراتيل الدينية باللهجات المحلية.

(٣) **مجمل أنشطة المنصرين**، إضافة إلى ما ذكر:

١- إقامة المراكز الاجتماعية التي تنتج لهم التأثير في المسلمين.

٢- إقامة دورات فنية لتعليم الموسيقى والغناء والرقص!

٣- تردد المنصرين على المنطقة لإلقاء المحاضرات، مثل: زيارة ممثل اتحاد الكنائس الأمريكية التي استغرقت عدة شهور.

٤- تشجيع الهجرة إلى أوروبا عن طريق منظمة الكنائس العالمية.

٥- توزيع المساعدات الإغاثية والإنسانية.

٦- تشجيع افتتاح صالونات الحلاقة والتجميل النسائية؛ حيث يمنح كل صالون نسائي ٢٥٠ دولاراً شهرياً، وإدخال الخمور وبيعها عن طريق الحدود التركية.

٧- تشجيع استعمال الحروف اللاتينية بدل العربية لكتابة اللغة الكردية.

٨- طبع كتاب باللغتين الكردية والإنجليزية باسم (الأكراد في الكتب المقدسة).

٩- إقامة مركز سري خاص لدراسة الصحوة الإسلامية في المنطقة؛ سعياً منهم لمعرفة خصوصياتها لتعويق تطوّرها. وألقى التقرير الضوء على المنظمات التنصيرية في شمال العراق وأنشطتها المختلفة التي تريدها من عدة مكاتب.

العراق كله ميداناً للتنصير:

لقد رصدت وحدة الاستماع والمتابعة على الموقع (إسلام أون لاين) أنشطة المنظمات البروتستانتية التي تلهث قبل أن يغلق الباب في ظل الحكومات الوطنية القادمة، وذلك طبقاً لما أوردته صحيفة ديلي تلغراف البريطانية. وقالت الصحيفة (٢٧/ ١٢/ ٢٠٠٣م): إن الهدف الآن هو توزيع نحو مليون نسخة من الإنجيل بالعربية، وشرائط فيديو وكراسات دعائية في أنحاء العراق، بعد أن تم توزيع ٨ الآف نسخة في الفترة الماضية.

وأضافت الصحيفة: إن المنصرين البروتستانت يتنافسون على الإرساليات التنصيرية المستقبلية بالتوازي مع (هيئة الإرساليات الدولية؛

الـذراع التنصـيرية للمعمـدانيين الجنـوبيين الـذين يُعـدون أكـبر طائفـة بروتستانتية في أمريكا)[١].

وفي خطاب لأتباع كنيسته البالغ عـددهم ١٦ مليـون شـخص، قـال (جون برادي)، رئيس هيئة الإرساليات الدولية للشرق الأوسط وشمال إفريقيـا: «لقـد دعـا المعمـدانيون الجنوبيـون لسـنوات أن يكـون العـراق مفتوحاً للتنصير».

وذكرت الصحيفة: «إن جماعات المنصرين تتنكـر تحـت سـتار تقـديم المـواد الغذائيـة والمعونـات الطبيـة، لكـنهم في الحقيقـة يقومـون بمهـام تنصيرية».

ذكرت نشرة لهيئة الإرسـاليات الدوليـة: إن عمـال الإغاثـة يوزعـون نسخاً من الإنجيل.

ومن الأسماء اللامعة الـتي تتسـتر وراء الإغاثـة القـس البروتسـتانتي (جون حنا) الأمريكـي، الـذي التقـى في نـوفمبر ٢٠٠٣م في بغـداد مـع بعثتين تنصيريتين أمريكيتين، إحداهما مـن إنـديانا، قامـت بتوزيـع ١٠٣ مليون كراسة دعائية للعـراقيين. وهنـاك منظمـات يقتصـر دورهـا علـى الدعوة إلى النصرانية مثل: منظمتي (المجتمـع الـدولي للإنجيـل) ومنظمـة (تعليم أمة كاملة) المعروفة اختصاراً بـِ (DAWN). وقالت جاكي كـون

---

(١) يتبع لهم (المؤتمر المعمداني الجنوبي)، قال رئيسه (جاك جراهام) في بداية الحرب على العراق: إنهم سيوفرون الغذاء و المأوى للعراقيين وسيركزون على مناطق الجنوب، يعني مناطق الشيعة!

(٧٢) عاماً، التي زارت العراق إلى جانب حنا: «إن بعض العراقيين الذين التقت بهم قد اعتنقوا المسيحية» وضربت مثالاً على ذلك بامرأة كردية وشقيقتها اعتنقتا المسيحية على يديها. ويقول القس الأمريكي والصديق لبوش الابن (فرانكلين جراهام): «...إننا في العراق من أجل مهمة مسيحية في المقام الأول؛ إننا نسعى لتنصير العراقيين...».

وجراهام المذكور هو مدير مؤسسة (فرانكلين ساماريتانزبيرس)، أكبر التنظيمات الإنجيلية في العالم، والمعروف بسبّه العلني للإسلام، ووصفه إياه بالدين الشرير والمؤذي، وقد جاء إلى العراق ضمن قادة التنصير في العراق تحت الستار الإغاثي. ولم يخفِ حقيقة دوره عندما أعلن في تصريح لشبكة (بيليف نت) أن أعضاء منظمته توجهوا للعراق بالتنسيق الكامل مع وكالات الإدارة الأمريكية في العاصمة الأردنية.

لقد أثبتت الأيام أن مجلة (النيوزويك) -أخبار الأسبوع الأمريكية- لم تكن مبالغة عندما نشرت قبيل الغزو الأمريكي للعراق ما ترجمته: «بوش وأنصاره من الإنجيليين يأملون أن تكون الحرب القادمة على العراق فاتحة لنشر المسيحية في بغداد. ولذرِّ الرماد في العيون تحاول الإدارة الأمريكية أن تبدي موقفاً محايداً تجاه السيل التنصيري نحو العراق، بدليل تصريح (أري فليتشر) القائل: «... إن الإدارة الأمريكية لا تستطيع أن تمنع أية مجموعة من العمل في العراق».

وقالت الناطقة بلسان الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية: «إن هذه المنظمات لا تعتمد على تمويل حكومي؛ لذا فليس للحكومة أي سيطرة عليهم».

ويقول ريتش هايني، من منظمة (داون) التنصيرية -تعليم أمة كاملة. حسبما نقلته عنه مجلة التايمز: «لم تحظَ الحركة التبشيرية الإنجيلية بفرصة جيدة منذ أكثر من عقد من الزمان بمثل العراق! وإنه في مقدورنا أن نقول: إن هذه الحرب نعمة للمبشرين». لقد تسابقت المنظمات التنصيرية إلى العراق، غير التي ذكرنا، تحت ستار العمل الإنساني الإغاثي، مثل:

(١) منظمة (مجتمع التوراة العالمي) التي أعدت طبعة للإنجيل خاصة باللاجئين العراقيين، وقامت بحملة تبرعات واسعة لحثِّ كل أمريكي على دفع أربعين سنتاً لطبع كتيب تنصيري وشحنه إلى العراق.

(٢) (هيئة الإغاثة العالمية) وهي الذراع الإنساني للرابطة الوطنية الإنجيلية. أعلنت أنها في انتداب توراتي إلى العراق لتعريف البائسين بيسوع المسيح.

وذكرت مجلة (التايمز) في عدد يونيو ٢٠٠٣م ما قالته المنصرة باربارا في دعاء لها عند نهاية محاضرة تدريبية مدتها ثلاث ساعات للمنصرين الإنجيليين المتوجهين إلى العراق: «... نصلي من أجل أن يسحق الرب سلاح الدمار الشامل الحقيقي؛ وهو الإسلام...».

ونقلت شبكة (إنترناشيونال ميشن International Mission Board) عن أحد المنصريين، أن المناطق التي يأمل المنصرون إحداث أثر فيها: أكراد الشمال، وتركمان الموصل، وكركوك، والسُنَّة في تكريت، والشيعة في كربلاء والنجف.

وخوفاً من رجال المقاومة العراقية؛ فقد تبنّت الإرساليات التنصيرية أسلوب العمل الاجتماعي، أو ما يعرف بـ (الخيامين) الذي ركز عليه مؤتمر كلورادو التنصيري عام ١٩٧٢م.

حركة التنصير في الجزائر

كانت الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي عام ١٨٣٠م ولاية من ولايات الخلافة التركية العثمانية.

وكان رجال الكنيسة الفرنسية يأملون أن يعقب الانتصار الحزبي على الجزائر إرجاعها إلى حظيرة النصرانية مرة أخرى؛ وفاءً وتخليداً لذكرى وجهود لويس التاسع الذي لقي حتفه في تونس في غزوة صليبية[١]. لذلك صاحب الجنرال الفرنسي (تورمنت) -قائد الحملة الفرنسية على الجزائر- ستة عشر قسيساً؛ كان أحدهم الأب زكاري السوري الأصل وأخ بطريق بيت المقدس، كما سبق ذكره. وقد صرّح القائد بعد سقوط مدينة الجزائر لهؤلاء قائلاً: «إنكم أعدتم معي فتح الباب للنصرانية في إفريقيا، ونأمل أن تنبع قريباً الحضارة التي انطفأت في هذه الربوع» [٢].

لقد حمل الاحتلال الفرنسي للجزائر في طيّاته خطة صليبية لضرب الإسلام وتنصير المسلمين. وقد وجدت الكنيسة الكاثوليكية، يدعمها بابا الفاتيكان، مجالاً خصباً للعمل في الجزائر لتنصير المسلمين، وكان

---

(١) د.عبد الجليل التميمي: ملامح التفكير التنصيري عند المسؤولين الفرنسيين في القرن التاسع عشر الميلادي (ملتقى الفكر الإسلامي السابع)، ١٩٧٣م، ص ٩٩٤، نقلاً عن د. عكاشة: الملامح، ص١٦٠.

(٢) د.عبد الجليل التميمي: ملامح التفكير، سابق.

كبار القادة العسكريين متحمسين دائماً لهذا المشروع. وتاريخ كل من المارشالات الرواد: جوليوتي، ولافيجيري، ورفيقو، ومن جاء بعدهم مليءٌ بالمخططات التنصيرية، إلى جانب الإرهاب والتعسف في قتل الأبرياء والمدنيين، وإحراق القرى، وإبادة رجال القبائل، وهدم المساجد، ومصادرة الأوقاف الإسلامية(١)؛ بل اتخذوا المساجد كنائس كاتدرائية، منها جامع (القشاوة)، الذي كان يعتبر من أجمل مساجد الجزائر وأكبرها، هجموا عليه سنة ١٨٣٢م، وكان به أربعمئة مصلٍّ؛ فأبادوهم عن بكرة أبيهم(٢).

لقد كان وراء هذا الغزو التخريبي وزراء الحزب اليميني في الحكومة الفرنسية، ودافع عن فكرتهم (كليرمون دي تونير) وزير الحربية، في تقرير جاء فيه: «... وربما يسعدنا الحظ بهذه المناسبة لننشر المدنية بين السكان الأصليين وندخلهم في النصرانية».

وعندما أقام بورمون، قائد الحملة، صلاة الشكر في فناء القصبة بمناسبة الانتصار، بعث بوصفٍ لهذا الاحتفال، قال في نهايته: «... مولاي، لقد فتحت لهذا العمل باباً للمسيحية على شاطئ إفريقيا،

---

(١) التنصير والتغلغل الاستعماري في إفريقيا، جامعة إفريقيا العالمية، مركز البحوث والدراسات الإفريقيا، ص ١٩١ - ١٩٢.

(٢) المرجع نفسه، ص١٩٢-١٩٣، وفيه إحصاءات عن المساجد وأوقافها التي هُدِّمت أو حُوِّلت إلى كنائس، وانظر المرجع بالحاشية التالية.

ورجاؤنا أن يكون هذا العمل بداية لازدهار الحضارة التي اندثرت في تلك البلاد».

ولم يُخفِ المؤرخون الفرنسيون المعارضون هذه الحقيقة؛ فقد وصف (إدوارد ريو) حادث الاحتلال، قائلاً: «إنه كان أول إسفين دُقَّ في ظهر الإسلام»(١).

وخلال هذه الحملة الصليبية على أماكن العبادة الإسلامية، قام القس (شوشيه) بتزعُّم هذه الحملة الباغية؛ فيكتب إلى ملك فرنسا عام ١٩٣٩م، منوهاً بأعمال الحاكم الفرنسي الصليبي، بأنه يريد أن يضاعف عدد الصلبان والكنائس بالجزائر، وكوفئ بأن جُعل أول راعٍ للكنيسة التي قامت على أنقاض مسجد القشاوة؛ الذي قتل فيه أربعمئة من المصلين.

ويقول سكرتير الحاكم بوجو عن هذه الكنيسة: «... إن آخر أيام الإسلام قد دنتْ. وفي خلال عشرين عاماً لن يكون للجزائر إله غير المسيح. إذا أمكننا أن نشك في أن هذه الأرض تملكها فرنسا؛ فلا يمكننا أن نشك في أنها قد ضاعت من الإسلام إلى الأبد! أما العرب فلن يكونوا مُلكاً لفرنسا إلا إذا أصبحوا مسيحيين جميعاً!».

---

(١) شوقي أبو خليل: الإسلام وحركات التحرير العربية، دار الرشيد، ص١١، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٦م، ص٦١، ومرجعه: المغرب العربي للدكتور صلاح العقاد، ص٨٦؛ وَ (الجزائر أرض المعارك) للدكتور بهي الدين زيان، ص٥٤ – ٥٥.

«ومن أجل هذه الصليبية في الجزائر بذل المنصرون جهوداً كبيرة، وشجعت الإدارة الفرنسية بناء المعابد اليهودية والكنائس حتى صار بالجزائر ٣٢٧ كنيسة للنصارى و٤٥ معبداً لليهود، بجانب ١٦٦ مسجداً للمسلمين، ليس غير»[١].

وقضوا على نهضة البلاد التعليمية، وحاربوا اللغة العربية رسمياً منذ عام ١٨٣٨م، وجعلوها لغة أجنبية. فبينما بلغت نسبة التعليم بين أبناء النصارى ١٠٠٪ كانت بين أبناء المسلمين ١٠٪، وتشرد مليونان وأربعمئة ألف طفل ليعملوا في مهن هامشية مثل: مسح الأحذية، وباعة متجولين، أو حمالين... إلخ[٢].

وقد وضعوا من أول وهلة خطتهم التعليمية على فرنسة الجزائر. يقول القس اليسوعي (ميز) في معرض كلامه عن سياسة فرنسا الدينية في بلاد المسلمين: «.. إن الحرب الصليبية الهادئة التي بدأها مبشِّرونا في القرن السابع عشر لا تزال مستمرة إلى أيامنا هذه... وكان من غايات الامتيازات الأجنبية دائماً أن تحتفظ فرنسا بالدور الذي يلعبه رهبانها.

وقد اعتُرف لقناصلتنا وسفرائنا بالحماية للنصارى... وكثيراً ما اختارت فرنسا قناصلتها وسفراءها من رجال الدين...»[٣].

---

(١) الجزائر أرض المعارك، ص٧٤، نقلاً عن: أبي خليل: حركات التحرر، ص ٦٦.

(٢) د. أبو خليل: المرجع نفسه، ص ٦٦ - ٦٧.

(٣) الخالدي وفروخ: التبشير و الاستعمار، ص ١٢٧، و مرجعه:

The Muslim world vol.lxv.jan،1975 No.I،pp.6

وقد صرح المنصر دوفوكو في رسالة بتاريخ ١٦/٧/١٩١٦م إلى السلطات الفرنسية، بعد أن اقتنع بأن تنصر المسلمين هي الوسيلة الوحيدة لتكتسحَ فرنسا شمال إفريقيا، وتُخمدَ جذور أي حركة مقاومة وطنية لإخراجهم من هذه المناطق، خاصة حين يتضاعف عدد سكان المغرب الكبير[١].

لم ينجح المنصرون في مساعيهم في تنصير الجزائريين إلا في حدود ضيقة جداً، مثلما حدث في منطقة الخليج العربي؛ ولكنهم نجحوا في نشر ثقافتهم الفرنسية العلمانية التي نخرت في جسد الأمة الإسلامية، لتفتح الباب أمام تفشّي ظاهرة الردة إلى النصرانية في العقود الأخيرة من القرن العشرين ومطلع هذا القرن الحادي والعشرين.

وفي تقرير مبثوثٍ على موقع (الإسلام اليوم) بتاريخ ٢١/٣/٢٠٠٢م، تناول تعرُّضَ الجزائر إلى غارة تنصيرية منظمة تضطلع بها عشرات المنظمات والجمعيات التنصيرية التي تتحرك في الأوساط الشعبية بكل حرية، على الرغم من أن وسائل الإعلام الجزائرية الناطقة بالعربية قد أشارت إلى خطورة هذه الظاهرة، غير أن أحداً لم يحرك ساكناً في الجزائر.

يقول التقرير: «.. ويبدو أن هذه المنظمات التنصيرية قد استغلت الأوضاع الأمنية والسياسية وانفجار الجبهة الداخلية لِتنفذ إلى قلوب الشباب على وجه التحديد. وتشير بعض الأرقام التي وصلت إلى

(١) د. بلقاسم الحناشي: الحركات التبشيرية، ص ٨٦ – ٨٧.

الجهات المعنية في الجزائر، والموجودة بحوزة هذه المنظمات التنصيرية، أن حوالي عشرة آلاف شاب جزائري قد اعتنقوا المسيحية في الجزائر. وحسب هذه الجهات المختصة، التي تقوم برصد ظاهرة التنصير ومن يقف وراءها، فإن أَنْشَط الجمعيات التنصيرية هي الكنيسة الكاثوليكية برئاسة القس هنري قسي، والكنيسة البروتستانتية برئاسة هوج جونسون الأمريكي الأصل والمقيم في الجزائر العاصمة، ويترأس الجمعية الجزائرية البروتستانتية. وهناك جمعية نشطت تُدعى جمعية القلب المقدس، يترأسها كاميف بيار من مواليد وجدة المغربية، ويقع مكتب جمعيته في حي ديدوش مراد العريق في قلب العاصمة الجزائرية. وقد اعتبرت بعض القوى السياسية وبعض البرلمانيين الجزائريين أن هذه الغارة التنصيرية على الجزائر ما كانت لتنجح لولا الفقر المدقع الذي يعيشة أزيد من ٨٠٪ من الجزائريين؛ حيث يبادر بعض المنصرين إلى تنصير الشباب الجزائري، وبعد ذلك يقدِّمون وعوداً لهم بأن يسهِّلوا لهم مهمة الحصول على تأشيرة وإقامة في أي دوله غربية يريدونها. وقد طالب بعض النواب في مجلس الشعب الحكومة بالتحرك الفوري لوقف هذه الغارة. وتجدر الإشارة إلى أن نشاط القس (هودج) قديم؛ حيث أُوفِدَ من قبل كنيسته الأمريكية إلى الجزائر سنه ١٩٦٣م، وكان أول من أقام كنيسة في مدينة تيزي وزو القبائلية سنة ١٩٦٣م، وتمكّن من الحصول على اعتماد رسمي من السلطات الجزائرية، وقد بدأ نشاطه بشكل سرِّي إلى أن أثمر وباتت الحالة التنصيرية في الجزائر ظاهرة يشار إليها بالبنان .

وكانت إستراتيجية هودج تكمن في تنصير الجزائريين وتكليفهم بمهام الإشراف على الكنائس، كما حدث مع نائبه الجزائري من منطقة بجاية القبائلية، الذي تنصّر عام ١٩٧٠م، وأصبح يشرف على الكنيسة المسيحية في منطقة تيزي وزو القبائلية. وحسب معلومات دقيقة فإن المنصرين الغربيين والجزائريين يترددون على مرجعياتهم الكنسية في أمريكا وفرنسا وسويسرا، ويتلقّون مساعدات مالية جيدة، يستخدمونها في إعالة عشرات الآلاف من العوائل الفقيرة، وتحديداً في المناطق القروية، وتحديداً تلك الواقعة في المناطق القبائلية. وبسبب هذا النشاط التنصيري الرهيب فقد انتشرت نسخ الإنجيل والأشرطة السمعية والبصرية بالعربية واللهجات القبائلية في العديد من الولايات، الأمر الذي يوحي بوجود مشروع متكامل لتنصير الجزائر والمساس مستقبلاً بالوحدة الترابية للجزائر، على اعتبار أن الأنشطة التنصيرية أفضت إلى إيجاد أقلية نصرانية حقيقية في الجزائر. ومن أبرز الدعاة التنصيرين في الجزائر قسٌ فرنسي كان ضابطاً في الفرقة العسكرية الفرنسية الخاصة إلى سنة ١٩٨٠م، يدعى فيليب مارتناز. وبعد اعتزاله الوظيفة قرر الانضمام إلى جمعية إنجيلية نفذت العديد من الأنشطة في إفريقيا، و بخاصة في تشاد، وتمكّن من إقامة فرع لكنيسته في منطقة القبائل عرفت بالجمعية الإنجيلية الجزائرية.

ولم تترك الجمعيات الإنجيلية مكاناً ولا محافظة جزائرية إلا وزحفت إليه. وعقدوا مؤتمراتهم في مدينة تيزي وزو القبائلية في سبتمبر ٢٠٠٠م حضره مئات الأشخاص من الجزائر وبعض الدول الأوروبية، ويلعب دوراً خطيراً في تيسير تأشيرات الدخول إلى فرنسا وسويسرا وغيرها من دول الغرب للراغبين من الشباب العاطلين عن العمل، ويقوم بتقديم مساعدات مالية كبيرة للفقراء، خاصة من يتنصر من الشباب.

التوصيات

- نرى أن تتضافر جهود الأمة الإسلامية، دولاً وجماعات وأفراداً، على تحقيق التوصيات الآتية لدرء عواقب الأنشطة التنصيرية في وسط المسلمين.
- أن تقوم الدول الغنية وجمعيات الدعوة الإسلامية والأفراد والأثرياء بإنشاء المؤسسات التعليمية والعلاجية في المناطق التي لا تهتم دولها بهذا العمل أو ضعيفة الإمكانات.
- أن تتبنى الدول الإسلامية الجمعيات المتخصصة في مجال الإغاثة وتقدِّم لها الدعم المادي والبشري الذي يمكِّنها من أخذ زمام المبادرة في الكوارث والأزمات.
- إنشاء مركز أبحاث أو مواقع على الشبكة العنكبوتية، أو عَقْد مؤتمرات دورية دولية وإقليمية لرصد أنشطة التنصير وأساليبه، وتبادل الخبرات.
- تحرير مجلة فصلية تعنى بالدراسات التي ترد على شبهات المنصرين تابعةً لمثل تلك المراكز.
- إنشاء معاهد علمية متخصصة في الدعوة الإسلامية بين المسلمين وغير المسلمين.
- قيام منظمات أو هيئات ذات وعي كبير بمخاطر أنشطة البعثات والإرساليات النصرانية؛ لتتصدى لها بكل الأساليب الفعالة والمناسبة.
- إنشاء دور لرعاية الأيتام واللقطاء والعجزة لقطع الطريق أمام المنصرين الذين يستهدفون هذه الفئات.

تقويم تجربة الحوار

بين المسلمين والنصارى

وضوابط ذلك في ظل حملات التنصير والدعوة إلى الحوار والتقارب

د. أحمد بن عبد الرحمن القاضي

كلية الشريعة وأصول الدين، جامعة القصيم، عنيزة

E.mail: qadisa@yahoo.com

تقويم تجربة الحوار بين المسلمين والنصارى

وضوابط ذلك في ظل حملات التنصير والدعوة إلى الحوار والتقارب

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، القائلُ -سبحانه-: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، القائلُ: «**والذي نفس محمد بيده! لا يسمع بي أحد من هذه الأمة؛ يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار**» رواه مسلم. أما بعد:

فمنذ قرابة نصف قرن تدور رحى نازلة في فناء المسلمين، ألقتها بين ظهرانيهم الدوائر الكنسية الغربية، الممثلة بالكنيسة الكاثوليكية الرومانية، ومجلس الكنائس العالمي، وما يرتبط بهاتين المرجعيتين من معاهد ومراكز؛ تلك هي نازلة الدعوة إلى (تقارب الأديان).

وقد تسمَّت هذه الدعوة بمسميات متفاوتة عبر العقود المنصرمة:

١- ففي عقد الستينيات، والسبعينيات الميلادية كانت تسمى (التقارب الإسلامي المسيحي).

٢- وفي الثمانينيات، لُطِّفت إلى (الحوار الإسلامي المسيحي) دفعاً لتهمة التلفيق بين الأديان.

٣- وفي التسعينيات، اتسعت الدائرة في ظل الحديث عن التطبيع مع اليهود، واتفاقيات أوسلو، لتصبح (حوار الديانات الثلاث) أو (الأديان

الإبراهيمية).

٤- ومع هبوب رياح العولمة، والرغبة في ضم الديانات الوثنية، في مطلع الألفية الثالثة، جرى الحديث عن (حوار الحضارات).

وليس الشأن في (الحوار)! فنحن - المسلمين - أسعد الناس بالحوار، بل نحن أصحاب المبادرة إلى الحوار؛ فقد أمرنا ربنا أن نبادئ أهل الكتاب به؛ فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٦٤]، وأدَّبنا بأدب الحوار، فقال: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٦]، وإنما الشأن في أهداف الحوار ومضمونه.

ومقصودنا في هذا البحث تقويم هذه التجربة التي خاضها بعض أهل الإسلام مع النصارى خاصة ضمن السياق العقدي، والإرث التاريخي للعلاقات الإسلامية النصرانية، وفي ظل حملات التنصير المستمرة، والهجمات المتجددة على حرمات الإسلام. والله الموفق.

أساليب النصارى في مواجهة الإسلام

لقد كان ظهور الإسلام وانتشاره السريع في القرن السابع الميلادي صدمة عنيفة للكنائس النصرانية المختلفة التي تهيمن على شعوب منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط وما جاورها؛ فقد تهاوت معاقل النصرانية العريقة، ومهد المسيح -عليه السلام- وأنبياء بني إسرائيل، أمام الفاتحين الجدد من أصحاب العمائم، رعاء الشاء والإبل، الضاربين في تِيه الجزيرة العربية لقرون بعيدة، وفي تِيه الشرك والوثنية والتخلف لقرونٍ أبعد. وفي مدةٍ تقل عن مئة عام تمكن المسلمون من إخضاع جميع السواحل الشرقية والجنوبية والغربية للبحر الأبيض المتوسط. وفي مدةٍ تزيد على المئة قليلاً بلغوا أعماق أوروبا النصرانية في جنوب فرنسا. (وهكذا كان الإسلام يتوسع على نحوٍ مندفع مخلفاً، في الحقيقة، صدماتٍ هائلة تستعصي على التصور)[1]؛ كما عبر أحد الكتاب الغربيين. ويكفي لتصور عمق الصدمة أن أربعاً من بين خمس عواصم دينية لدى النصارى تحولت إلى حواضر إسلامية؛ وهن: بيت المقدس، والإسكندرية، وأنطاكية، والقسطنطينية! ولم يبقَ بأيديهم سوى الخامسة؛ روما.

---

(١) انظر: الشخصية العربية في الجدال المسيحي مع الإسلام، دانيل ساهاس، مجلة الاجتهاد: (٢٨/ ١١١).

والصدمة الكبرى التي تفوق إخضاع الأرض وضمها لدار الإسلام، كانت تتمثل في خضوع القلوب لدعوة الحق، ودخول الناس في دين الله أفواجاً كما وعد الله -تعالى-: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [الصف: ٩]، فـ (في مرحلة لاحقة، ومع الرسوخ السياسي واللاهوتي للدين الإسلامي، وتنامي النزعات والاتجاهات الانتقادية للمسيحية، تحولت الكتلة الأساسية لمسيحيي الشرق الأدنى إلى الإسلام)[١]، كما يعترف كاتب آخر.

وربما ظنت الدولة البيزنطية لأول وهلة أنها أمام زوبعة عارضة نشأت بسبب انفجار سكاني، وضيق معيشي حاق بأعراب الجزيرة، سرعان ما تخبو جذوته ويخمد لهيبه، لافتقار القوم لأسس التنظيم والتخطيط الذي يحفظ مكاسبهم.

وربما ظنت الكنيسة الأرثوذكسية، وغيرها من الكنائس المحلية الأخرى، أنها أمام همج رعاع لا يرتقون في تفكيرهم إلى آفاق الثقافة الهلنستية[٢]؛ فلا تملك تقاليدهم البدوية الصمود أمام الفلسفة النصرانية العريقة.

(١) الإسلام والمسيحية: أليكسي جورافسكي، (١٧٨).

(٢) الهلنستية أو الهيلينية Hellenism: الثقافة الناشئة من امتزاج الفلسفة اليونانية بثقافات حوض البحر.

ولكن هذه الظنون من المؤسستين الرسمية والكنسية تهاوت، كما تهاوت جحافلهم أمام إيمان الفاتحين المسلمين ومتانة ووضوح عقائدهم.

ولم تشأ كبرياء الكنيسة النصرانية المصطنعة أن تذعن للحق، كما لم تشأ الإمبراطورية البيزنطية أن تذعن للأمر الواقع؛ ومن ثم فقد اتسمت العلاقات بين المسلمين والنصارى بالعداء المستمر طوال التاريخ، كما أن العلاقة بين الإسلام والنصرانية المحرفة اتخذت نفس الطابع، ولم يكن هناك وجود لما عُرف أخيراً باسم (التقريب) أو (الحوار) من الجانبين، بالصفة التي تمخضت عنها النصرانية في النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي.

ويصف المستشرق الروسي أليكسي جورافسكي هذه العلاقة التاريخية في جانبيها السياسي والعقدي بالعبارات التالية: «إن المجابهة العسكرية السياسية بين هاتين الديانتين -أو قل: بين هاتين الحضارتين- منذ بدء ظهورهما المتجاور، ووصولاً إلى القرن العشرين كانت هي الطابع المسيطر على علاقاتهما الأخرى، بما في ذلك العلاقات الدينية الأيديولوجية. وبودنا التأكيد في هذا السياق أن ترسيخ الإسلام وتوطيد أركانه العقائدية في سوريا ومصر وشمال أفريقيا سحبا من المسيحية النصف الغني بثرواته من المجال الجغرافي الحضاري لشاطئ البحر المتوسط. إن فتح المسلمين إسبانيا وصقلية، والحملات الصليبية إلى فلسطين، واستيلاء الصليبيين على القدس، وثأر صلاح الدين الأيوبي وانتصاره عليهم، وطرد العرب المسلمين من إسبانيا، وسقوط

القسطنطينية، وهجوم الأتراك العثمانيين على مناطق البلقان، وتمرد الشعوب الإغريقية والسلافية، كل هذه المصادمات والمجابهات العنيفة ألبست رداء الدين، والحرب من أجل تعزيز راية الإيمان ضد (الكفرة)»[١].

لقد احتاجت النصرانية إلى ثلاثة عشر قرناً من الزمان، بدءاً من القرن السابع إلى القرن العشرين حتى تبلغ مرحلة (الحوار). وبين التنافر والتقارب برزت في الفكر النصراني ممارسات متنوعة في مواجهة الإسلام في جانبه العقدي، والعملي، يمكن تحديدها بما يلي:

أولاً: أسلوب التشويه والتضليل:

وقد وُلد هذا الأسلوب في وقتٍ مبكر، لمواجهة موجات الفتح الإسلامي والاعتناق الجماعي لدين الإسلام. ومن أشهر من أرسى قواعده قسيسٌ دمشقي عرف باسم (يوحنا الدمشقي) المتوفى سنة ٧٥٠م، وقد عاش هو وأبوه منصور بن سرجون في أكناف أمراء بني أمية، وألّف عدة مؤلفاتٍ ضمنها القدح في الإسلام ونبيه ﷺ وكتابه القرآن؛ فالإسلام عنده ليس دين إبراهيم عليه السلام، بل هو مؤذِن بالمسيح الدجال. والرسول ﷺ واحد من أتباع بدعة آريوس، لا يعرف من العهدين القديم والجديد إلا ما ضحلت قيمته. والقرآن نتاج لأحلام اليقظة، كما ينتقد إجراءات الزواج والطلاق في الشريعة[٢].

---

(١) الإسلام والمسيحية (٣٦ ـ ٣٧).

(٢) انظر مقالة: (الشخصية العربية في الجدل المسيحي مع الإسلام) دانيل ساهاس مجلة الاجتهاد: (٢٨/ ١٠٩ ـ ١٣٦).

إن هذا القسيس المضلل، الذي يصفه النصارى بـ (القديس)، يبوء بإثم إشاعة هذه الافتراءات التي صدت كثيراً من النصارى في الشرق والغرب عن الوقوف على حقيقة الإسلام. يقول إليكسي جورافسكي: «إذا كنا نتفق على واقعة أن التصورات الأوروبية عن الإسلام تشكلت ما بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر للميلاد؛ فإننا يجب أن نشير إلى حقيقة أن هذه التصورات تكونت في كثير من جوانبها وخطوطها الكبرى على خلفية التفسير المسيحي الشرقي للعقيدة الإسلامية. وتعد المؤلفات التي وضعها يوحنا الدمشقي، المتوفى سنة ٧٥٠م، من أكبر الدراسات المسيحية الشرقية عن الإسلام.

والواقع أن التصورات المتكونة عن الإسلام كبدعة مسيحية، مرتدة ومنشقة، وعن محمد كنبي مزيف، انتقلت من مسيحيي سوريا إلى البيزنطيين، ومنهم إلى الأوروبيين»[1].

وللمرء أن يتخيل ما يمارسه القسيسون الحاقدون الذين يعيشون خلف الحدود في أرجاء أوروبا البيزنطية، ثم الرومانية؛ حيث لا يعلمون عن الإسلام وعقيدته وشريعته وتطبيقه سوى ما يتلقفون من إنتاج نظرائهم الذين يتميزون غيظاً وحسداً في المشرق الإسلامي، ثم يضيفون إليه ما تبلغه أوهامهم المريضة وخيالاتهم الفاسدة من أساطير وحكايات مسفّة. وهذا ما حدث بالفعل في أوروبا طوال القرون الوسطى؛ فقد رُوجت العديد من الخرافات والتُّهم السخيفة

(١) الإسلام والمسيحية (٧٠ ـ ٧٣).

عن الإسلام وعن شخص نبينا محمد ﷺ؛ نعفّ عن ذكرها إكراماً له وتوقيراً، مما حدا بباحث غريب معاصر أن ينتقدها بإنصاف قائلاً: «وللحقيقة، يجب القول: إن تلك الأساطير المختلقة تمثل سخرية مأساوية؛ لأن النبي (محمداً) الذي حارب أكثر من أي مخلوق آخر عبادة الأوثان، والذي حطم جميع أصنام الكعبة، يتحول في تصور المسيحيين إلى (صنم يؤلهه أتباعه) الذين يطلقون عليهم ازدراءً واحتقاراً لقب: (عبيد سارة) أو (أبناء الجارية)»(١).

ومن صور هذا التشويه الإعلامي ما حكاه ابن الأثير -رحمه الله- في أعقاب تحرير بيت المقدس من الصليبيين: «وصوروا المسيح -عليه السلام- وجعلوه مع صورة عربي يضربه، وقد جعلوا الدماء على صورة المسيح -عليه السلام- وقالوا لهم: هذا المسيح يضربه محمد نبي المسلمين، وقد جرحه وقتله، فعظم ذلك على الفرنج؛ فحشروا، وحشدوا حتى النساء»(٢)، وهذا يذكر بالرسوم الدنماركية المسيئة إلى نبينا ﷺ.

ثانياً: أسلوب المجادلة العقلية وإثارة الشبهات:

رائد هذا المسلك هو الراهب الفرنسي (بطرس المبجَّل) - كما يصفه النصارى ـ عاش في الفترة ١٠٩٤ - ١١٥٦م، وشغل منصب رئيس كهنة دير كلوني، وقد عاصر قيام الحملة الصليبية الأولى

(١) الإسلام والمسيحية (٧٧)، وانظر أيضاً ما جاء في (٦٧، ٧٤ ـ ٧٦).

(٢) الكامل في التاريخ: ابن الأثير، عز الدين، أبو الحسن علي بن محمد الشيباني، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى (١٤١٧هـ ١٩٩٧م) (١٠/ ٦٩).

١٠٩٦م والثانية ١١٤٥م، وأدرك فشل المسلك العدواني العسكري في تحقيق الأهداف النصرانية. ومن المعروف أن دير كلوني الذي ينتمي إليه بطرس المبجل ـ عندهم ـ كان له دورٌ بارز في تاريخ النصرانية، فيما عرف بـ (الإصلاح الكلوني) وعلى وجه الخصوص في تأجيج الروح الصليبية في حرب الاستعادة الإسبانية Reconquista ، ولكن الفترة التي تولى فيها هذا الراهب رئاسة الدير كانت أوروبا مشغولة عنه بتمويل الحملتين الصليبيتين الأولى والثانية ضد منطقة شرق المتوسط، مما أدى إلى إعطاء الحروب الإسبانية ضد المسلمين مكانة ثانوية. ولعل هذا ما حدا به إلى سلوك أسلوب المجادلة العقلية.

يقول أستاذ لاهوت الأديان (لودفيغ هاغمان): «يعتبر رئيس كهنة دير كلوني بطرس المعروف بالمبجَّل (١٠٩٤- ١١٥٦م) أول من مهّد الطريق للمجادلة العقلية مع الإسلام.

وقد استعان بطرس هذا بجملة من المستعربين في ترجمة بعض الأحاديث النبوية، وكتابة بعض المقالات والمحاورات المزعومة، كما وجه بنفسه خطاباً مفتوحاً إلى (العرب، أبناء إسماعيل، الذين يتبعون قانون الرجل الذي يدعى محمداً)»[1]. كما صنف كتاباً أسماه (دحض العقيدة الإسلامية) ضُم لاحقاً إلى ترجمات أتباعه، وعُرفت المجموعة باسم (المجموعة الطليطلية) أو (فيلق كلوني)، وهي المجموعة التي

---

(١) انظر: الإسلام والمسيحية (٨٢ ـ ٨٣).

صارت بالنسبة للأوروبيين المصدر الرئيسي للمعلومات والمعطيات عن الدين الإسلامي على مدى خمسمئة عام تقريباً»[١].

وعلى الرغم من أن هذا اللون من المقاربة يراد به النقض والهجوم، إلا أنه يمثّل تحولاً في الاتجاه العام لدى نصارى القرون الوسطى من مرحلة المهاترات والتلفيقات ونسج الأساطير والخرافات بغرض التنفير، إلى مرحلة متقدمة تعتمد التعرف على الخصم عن كثب؛ لمجادلته وإثارة الشبهات في وجهه. وقد نسج على منوال بطرس المبجل فيما بعد المستشرقون في القرون اللاحقة، كما لاحظ ذلك المستشرق جورافسكي، فقال: «يلاحظ أي باحثٍ موضوعي أن الأغلبية المطلقة من مستشرقي القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين - لم يتخلصوا من المواقف المسبقة الموجهة ضد الإسلام، سواءً أكان عداؤها صريحاً مباشراً وعنيفاً، أم كان يتسم بعدم الارتياح تجاه الشعوب الإسلامية»[٢].

ثالثاً: أسلوب الحروب الصليبية والاحتلال المسلح:

يمثل هذا الأسلوب الحملات الصليبية المنطلقة من غرب ووسط أوروبا النصرانية إلى بلاد المشرق الإسلامي (سواحل الشام ومصر وآسيا الصغرى)، في سبع حملاتٍ متعاقبة استغرقت قرابة قرنين من الزمان (٤٩٠ ـ ٦٩٠هـ). بالإضافة إلى استمرار الزحف النصراني جنوباً على بقية الأندلس المسلمة، وبقية جزر البحر الأبيض المتوسط.

(١) الإسلام والمسيحية (٨٤).

(٢) الإسلام والمسيحية (١٠٥).

ويمكن أن يؤرخ لبدء الحملات الصليبية بالاجتماع الحاشد الذي دعا إليه البابا (أربان الثاني) في مدينة (كليرمون) في جنوب فرنسا، في نوفمبر من عام ١٠٩٦م، وحضره كبار الأساقفة والأمراء والإقطاعيين. وقد ألهب البابا حماس المجتمعين بخطبة بليغة مؤثرة أثار فيها العصبية الدينية، بل والأطماع الدنيوية. واستجاب الحاضرون لنداءات البابا التحريضية، وصاحوا جميعاً في ذلك الحقل الفسيح صيحة مدوية صارت شعاراً في حروبهم المقبلة مع المسلمين قائلين: (الرب يريدها) أو (تلك إرادة الله). ثم شرع البابا أوربان الثاني يجوب أنحاء فرنسا للدعوة إلى حربه المقدسة. كما برز قادة كنسيون شعبيون من أمثال (بطرس الناسك) هجروا أديرتهم وتفرغوا لتهييج الفلاحين والفقراء لإنقاذ مهد المسيح ـ بزعمهم ـ، ودغدغة مشاعرهم بامتلاك الأرض التي تفيض لبناً وعسلاً[(١)].

وقد تجدد هذا الأسلوب في خريف الدولة العثمانية المريضة. والمتغير الوحيد في هذه المرحلة عن مرحلة الحروب الصليبية أن الحكومات الأوروبية المتأثرة بالثورة الفرنسية (١٧٨٩م) العلمانية باتت أكثر دهاءً، وغزت المجتمعات الإسلامية بأسلحتها المتفوقة، تحت شعارات منمقة لا تحمل الطابع الديني الصليبي، بل تحاول أن تتجنب استفزاز المشاعر الإسلامية، وتتستر تحت لافتات سياسية مثل (الانتداب) و(الوصاية) و(الحماية).

(١) انظر: ماهية الحروب الصليبية: د. قاسم عبده قاسم، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، طبعة ١٩٩٣م، (١٠٨ - ١١١).

وقد آلت هذه الجولة إلى إبرام اتفاقية (سايكس ـ بيكو) سنة ست وثلاثين وثلاثمئة وألف (١٣٣٦هـ - ١٩١٦م) بين فرنسا وبريطانيا بشأن اقتسام المنطقة العربية المتبقية من تركِة الرجل المريض -أي الدولة العثمانية- وهي العراق وسوريا الكبرى، والخليج العربي، وفلسطين، والأردن، فضلاً عمّا تم التهامه من مناطق العالم العربي والإسلامي.

رابعاً: أسلوب التبشير (الدعوة إلى التنصر):

ويمثل هذا الاتجاه الراهب الإيطالي فرنسيس ألاسيزي (١١٨٢ ـ ١٢٢٦م)، ويعده النصارى من أكبر قدّيسيهم، وإليه تنسب طائفة الرهبان الفرنسيسكان، وعمدتهم النص المنسوب إلى المسيح -عليه السلام-: «اذهبوا في العالم أجمع، وأعلِنوا البشارة إلى الخلق أجمعين» (إنجيل مرقس ١٦:١٥). وقد قام فرنسيس ألاسيزي بنفسه بهذه المهمة؛ فقد صحب الحملة الصليبية السادسة الموجهة نحو مصر عام ١٢١٩م والتقى الملك الكامل الأيوبي ودعاه إلى النصرانية[1].

ومن أشهر الرهبانيات التي انتهجت هذا الأسلوب، وكانت معاصرة من حيث النشأة للفرنسيسكان، طائفةُ الرهبان الدومينيكان التي أسسها الراهب الإسباني دومينيك (١١٧٠ ـ ١٢٢١م) وإليها ينسب (توما الإكويني) المتوفى سنة ١٢٧٤م، أكبر لاهوتي دومينيكاني.

ويقوم الفرنسيسكان والدومينيكان بذرع العالم، وبعث الإرساليات التنصيرية إلى شتى أنحاء المعمورة منذ تأسيسهما في مطلع القرن الثالث

---

(١) انظر: الإسلام والمسيحية (٨٧ ـ ٨٩).

عشر الميلادي حتى يومنا هذا.

ومن الجدير بالذكر أن الدومينيكان قد أسسوا معهداً في القاهرة باسم (معهد الدراسات الدومينيكاني)، انبثقت عنه أولى جمعيات التقارب الديني في البلاد الإسلامية، وهي جمعية (الإخاء الديني) عام ١٩٤١م، كما عقدوا ندوة حوارية حملت اسم الأيام الدومينيكانية.

خامساً: أسلوب التقارب والحوار:

كان لسقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣م بأيدي الفاتحين العثمانيين آثار بعيدة المدى على جميع المستويات؛ فقد اهتزت أوروبا من أدناها إلى أقصاها لسقوط مدينة قسطنطين الكبير، وحطم ذلك البقية الباقية من كبريائها.

وقد ألّف نيكولاي كوزاني كتابه (سلام الإيمان) في نفس العام الذي سقطت فيه القسطنطينية عام ١٤٥٣م. ثم ألّف عام ١٤٦٢م (شرحاً نقدياً للقرآن الكريم «في غربلة القرآن» هادفاً إلى أن يباشر حواراً ينطلق مما هو مشترك بين المسيحيين والمسلمين)[١]. وتلا ذلك سابقة ملفتة في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية؛ حيث وجه البابا بيوس الثاني (١٤٥٨ ـ ١٤٦٤م) كتاباً إلى السلطان العثماني محمد الفاتح يتضمن بحثاً في مسائل عقدية[٢]، ودعوة إلى النصرانية، ولكنه كما وصف لودفيغ هاغمان: (تشتم منه رائحة اليأس)[٣].

---

(١) الإسلام، روجيه جارودي، (١٣٨ ـ ١٣٩).

(٢) الإسلام والمسيحية (٩٢).

(٣) المسيحية والإسلام من التصادم إلى التلاقي، مجلة الاجتهاد (٣٠/ ٢٨).

وحين ظهرت حركة الإصلاح الديني (البروتستانتية) على يد مارتن لوثر (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦م)، بدت كأنها تتجه نحو الموضوعية في فهم الإسلام، مما أطلق عليه مارتن لوثر: «خرافات الأوروبيين وجهالاتهم» حيال الإسلام[1].

و(في عام ١٧٠٥م أصدر هادريان ريلاند (١٦٧٦ ـ ١٧١٨م) كتابه (الديانة المحمدية) الذي يعتبر أول عرضٍ موضوعي للإسلام من وجهة نظر مسيحية... قامت الكنيسة الكاثوليكية بإلقاء الحرم عليه ومنعه. وفي هذا العصر قدّم غولتهولد أفرايم لسنغ (١٧٢٩ ـ ١٧٨١م) عمله الأدبي (ناتان الحكيم)، الذي وضعه بصيغة رمزية جواباً عن السؤال التالي: أي من الديانات الثلاث: اليهودية، والمسيحية، والإسلام تعتبر الدين الحق؟)[2].

ويرى جورافسكي أن (الإرهاصات الأولية الممهدة فلسفياً ولاهوتياً للحوار الإسلامي ـ المسيحي، الذي نوقش رسمياً للمرة الأولى في المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني) تمت على يد مفكرين بارزين:

---

(١) انظر:المسيحية والإسلام من التصادم إلى التلاقي، مجلة الاجتهاد(٣٠/ ٢٩)، والإسلام والمسيحية (٩٧).

(٢) المسيحية والإسلام من التصادم إلى التلاقي، مجلة الاجتهاد (٣٠/ ٣١).

أحدهما: الفيلسوف الروسي فلاديمير سولوفيوف (١٨٥٣ ـ ١٩٠٠م)، الذي تدرج في فهمه للإسلام وسر ظهوره التاريخي وشخصية نبيه محمد ﷺ، وكانت ذروة أبحاثه في هذا المضمار في كتابه (محمد: سيرته وتعاليمه الدينية)، الذي ألّفه قبل وفاته بأربع سنوات ١٨٩٦م، وفيه يرتقي إلى إثبات نبوة محمد ﷺ(١).

أما الآخر فهو: المستشرق الفرنسي: لويس ماسينيون (١٨٨٣ ـ ١٩٦٢م)، الذي اشتغل بالدراسات العربية في دمشق والقاهرة، واستهواه التصوف؛ فكانت أطروحته في الدكتوراه في جامعة السربون بعنوان: (مأساة الحسين بن منصور الحلاج، شهيد الإسلام الزاهد)، وكتب عن ابن سبعين، الصوفي الأندلسي. واتجه إلى فكرة توحيد الديانات الكتابية الثلاث. (وفي رأي الدارسين؛ فإن مؤلفاته، وإسهاماته العلمية، ومنطلقاته الروحية، ونشاطاته السياسية مهدت الطريق للتحول الكاثوليكي الجذري بشأن الموقف من الإسلام)(٢).

يقول الأب موريس بورمانس: «.. بفعل (مسيحيين نبويين) مثل: ميجيل أسين إي بلاسيوس، ولويس ماسينيون وغيرهما، تجددت نظرة الكنيسة إلى الإسلام، وصارت ترى فيه، علمياً ولاهوتياً، دين توحيد يرتبط بالدعوة الإبراهيمية...؛ فكان لا بد أن يؤدي ذلك إلى إعلان

---

(١) عن الإسلام والمسيحية (١١٦ ـ ١١٧).

(٢) الإسلام والمسيحية (١٢٠ ـ ١٢١).

المجمع الفاتيكاني الثاني ١٩٦٢ ـ ١٩٦٥م عن علاقة الكنيسة بالديانات غير المسيحية، الذي أصبح للكاثوليك (شرعة الحوار الإسلامي المسيحي)[١].

(١) توجيهات في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين: الأب: موريس بورمانس، أمانة السر للعلاقات بغير المسيحيين، ترجمة: المطران يوحنا منصور، المكتبة البولسية. بيروت- لبنان، الطبعة الأولى.

حقيقة (الحوار) عند النصارى

أطلق المجمع الفاتيكاني الثاني المنعقد في مدينة روما، في الفترة الممتدة من ١٩٦٢م إلى ١٩٦٥م، عقال الكنيسة الكاثوليكية في نظرتها وتعاملها مع الآخرين المخالفين، من النصارى أتباع الكنائس الأخرى، وغير النصارى من اليهود والمسلمين، بل والوثنيين والعلمانيين.

فبعد ما يقرب من أربع سنوات من المداولات والمجادلات، بل والنزاعات بين التيار المحافظ والتيار التقدمي، تبنّت الكنيسة الخيار التقدمي المنفتح على الآخرين، مما يعد (تطويراً لاهوتياً) في هذا المجمع؛ فبعد أن كانت الكنيسة ترى أنها وحدها تمتلك (الحقيقة المطلقة)، وأنه لا سبيل إلى (الخلاص) إلا عن طريقها - أبدت قرارات المجمع الفاتيكاني الثاني مرونةً وتنازلاً عن هذه المعتقدات العتيدة التي كانت الأساس في القرون السابقة لقرارات الحجب والحرمان.

جاء في أول دساتير المجمع (الكنيسة:دستور عقائدي) فقرة ١٦: (...بيد أن تدبير الخلاص يشمل أيضاً أولئك الذين يؤمنون بالخالق، وأولهم المسلمون الذين يعلنون أنهم على إيمان إبراهيم، ويعبدون معنا الله الواحد الرحمن الرحيم، الذي يدين الناس في اليوم الآخر)(١).

وفي البيان المتعلق بعلاقة الكنيسة بالأديان غير المسيحية: (..والكنيسة الكاثوليكية لا تنبذ شيئاً مما هو في هذه الديانات حقٌ

---

(١) المجمع الفاتيكاني الثاني: دساتير، قرارات، بيانات (٥٢).

ومقدس، وتولي تقديرها باحترامٍ صادق هذه الطرق المسلوكة في العمل والحياة، وهذه القواعد والتعاليم التي؛ وإن اختلفت في أمور كثيرة عما تقول به وتُعلِّمُه؛ تحمل غير مرة قبساً من شعاع الحقيقة التي تنير جميع الناس. غير أنها تبشر، ويجب أن تبشر بلا انقطاع بالمسيح الذي هو (الصراط والحقيقة والحياة) (يوحنا: ١٤:٦).

من أجل ذلك تحرّض أبناءها على الاعتراف بالقيم الروحية والأدبية والاجتماعية والثقافية التي توجد عند أتباع الديانات الأخرى، والمحافظة عليها وإنمائها، وذلك بطريق الحوار والتعاون معهم، بمقتضى الفِطنة والمحبة، مع الشهادة للإيمان والحياة المسيحية).

وبعد هذا الانفتاح العام على الآخرين، والاعتراف بما لديهم من قيمٍ ومثل في سابقة ليس لها نظير في الخطاب الكنسي، يتوجه البيان إلى خصوصية المسلمين بهذه الدعوة فيتابع قائلاً: (... وتنظر الكنيسة أيضاً بتقدير إلى المسلمين الذين يعبدون الله، الواحد الحي القيوم، الرحمن، القدير، الذي خلق السماء والأرض، وكلّم الناس أنهم يسعون بكل نفوسهم إلى التسليم بأحكام الله، وإن خفيت مقاصده! كما سلم لله إبراهيم الذي يفخر الدين الإسلامي بالانتساب إليه. وإنهم على كونهم لا يعترفون بيسوع إلهاً، يكرمونه نبياً، ويكرمون أمه العذراء مريم، مبتهلين إليها أحياناً بإيمان! ثم إنهم ينتظرون يوم الدين الذي يجازي الله فيه جميع الناس بعد ما يبعثون أحياء. من أجل هذا يقدّرون الحياة الأدبية، ويعبدون الله بالصلاة والصدقة والصوم خصوصاً.

ولئن كان قد وقع في غضون الزمن كثير من المنازعات والعداوات بين المسيحيين والمسلمين؛ فإن المجمع يحرضهم جميعاً على نسيان الماضي، والعمل باجتهاد صادق في سبيل التفاهم فيما بينهم، وأن يحموا ويعززوا كلهم معاً، من أجل جميع الناس، العدالة الاجتماعية، والقيم الروحية، والسلام والحرية)[(١)].

إن هذه الفقرات من دساتير المجمع الفاتيكاني الثاني وبياناته، لَتمثل موقفاً عقدياً جديداً، تبني عليه طريقة عمل جديدة أيضاً. وهي تمثل أساساً متيناً لمشروع الحوار والتقارب بين الكنيسة والأديان الأخرى، وقاعدة انطلاق عريضة استند إليها الناشطون من دعاة التقارب والحوار منذ ذلك الحين؛ ولكنه في الوقت نفسه أثار معضلة كبيرة؛ معضلة العلاقة بين الحوار والبشارة، ومحاولة التوفيق بينهما.

وفي فترة البابا يوحنا بولس الثاني كثر الحديث عن قضية الحوار، والعلاقة بين الحوار والبشارة، واستضاف الفاتيكان العديد من اللقاءات الدينية المنوعة، وشارك في الكثير من مؤتمرات التقارب والحوار، وأصدر الوثائق والإرشادات المتعلقة بقضية الحوار والبشارة، وأكد البابا بنفسه على تبنّي الحوار مع الأديان عموماً، والإسلام خصوصاً، انطلاقاً من مقررات المجمع الفاتيكاني الثاني، ولكنه وضع الحوار في إطار المهمة الأساسية للكنيسة؛ وهي التبشير. فمع عناية البابا بالحوار واستمراره، كقوله في رسالة الفادي: «المؤمنون جميعهم، والجماعات المسيحية كلها، مدعوون إلى ممارسة الحوار... إن الحوار هو

---

(١) المجمع الفاتيكاني الثاني (٦٢٩ ـ ٦٣١).

الطريق إلى الملكوت»[١]، غير إنه في خطابه الموجه إلى أعضاء الجمعية العمومية للمجلس البابوي للحوار بين الأديان المنعقد عام ١٩٧٨م يجعله قسيماً توأماً للتبشير، فيقول: «.. كما أن الحوار بين الأديان هو مادة من مواد رسالة الكنيسة؛ فإن إعلان عمل الله الخلاصي في سيدنا يسوع المسيح هو أيضاً مادة أخرى... وإنه من غير الجائز أن يختار الواحد، ويتجاهل الآخر أو يطرح»[٢].

ولعل سر احتفاء البابا يوحنا بولس الثاني بالحوار هو أنه يرى فيه معبراً ثقافياً ينفذ التبشير من خلاله إلى أعماق الحضارات الأخرى، بعد تأنيسه بالحوار، وذلك ما اصطلح الكنسيون على تسميته بالغرس الثقافي للمسيحية المستنبت في تربة ثقافات أخرى. يقول البابا في الإرشاد الرسولي المعنون بـ (تبليغ التعليم الديني): «إن رسالة البشارة متضمنة في الثقافة الإنجيلية التي لا يجب أن تنفصل عنها. إنها تنتقل عبر حوار رسولي متضمن بالضرورة في حوار ثقافي بعينه. إن قوة الإنجيل قادرة على التغيير والتجديد، لذلك لا يجب أن يتغير الإنجيل أو يتأثر عند اتصاله بالثقافات، وعندئذٍ فإن التعليم الديني سيتأصل في مختلف الثقافات؛ ويضفي كمال المسيح على قيمها الشرعية»[٣].

---

(١) رسالة الفادي: البابا يوحنا بولس الثاني، اللجنة الأسقفية لوسائل الإعلام. جل الديب ـ لبنان، صدرت في روما ١٩٩٠م، (٩٠).

(٢) عن حوار وبشارة (١٠).

(٣) نقلاً عن: تنصير العالم، (مناقشة لخطاب البابا يوحنا بولس الثاني): د. زينب عبد العزيز، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة ـ مصر، الطبعة الأولى (١٤١٥هـ -١٩٩٥م)، (١٠٧).

وفي هذا القدر تفسير وبيان لطبيعة (الحوار) الذي ينشده راعي الكنيسة الكاثوليكية، إنه الحوار المتدسس الذي لا يعني في الحقيقة معنى التبادل، والاستعداد للتغيير والتجرد والمجازفة من طرفي الحوار، كما كانت الكنيسة تدَّعي ذلك عقب المجمع الفاتيكاني الثاني، ولكنه الحوار الذي يشترط مسبقاً أنه: (لا يجب أن يتغير الإنجيل أو يتأثر عند اتصاله بالثقافات).

إن الحوار في نظر البابا عملية نفسية يخضع لها المحاور الآخر؛ فيتعرض لحالة اهتزاز قيم، وزلزلة ثوابت تنتج (الارتداد) الذي يوصل في نهاية المطاف إلى اعتناق موقفٍ عقدي جديد. ويصف البابا يوحنا بولس الثاني هذه العملية بقوله: «إن الحوار بالنسبة إلى الكنيسة هو ـ نوعاً ما ـ أداة، وعلى الأخص طريقة للقيام بعملها في عالم اليوم... إنارة الكون كله ببشارة الإنجيل، وتوحيد البشر بروحٍ واحد... وفي الواقع إن الكنيسة تستعمل طريقة الحوار لكي تحسن حمل الناس ـ سواء أكانوا يعرفون أنفسهم أنهم أعضاء الجماعة المسيحية بالعماد والاعتراف بالإيمان، أم هم غرباء عنها ـ على الارتداد والتوبة، عن طريق تجديد ضميرهم وحياتهم تجديداً عميقاً في ضوء سر الفداء والخلاص...إن الحوار الصحيح يرمي، إذاً بادئ بدء، إلى تجديد كل الناس بالارتداد الباطني والتوبة مع احترام كل الضمائر»[1].

---

(١) عن المرجع السابق (١٠٩).

إن نظرة شاملة لمسيرة الكنيسة الكاثوليكية خلال العقود الثلاثة الأخيرة التالية لمقررات المجمع الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢ ـ ١٩٦٥م) حول قضية الحوار مع الإسلام تكشف عن ثلاث مراحل متميزة:

١- **المرحلة الأولى:** وهي التي أعقبت المجمع الفاتيكاني الثاني، الذي قدم المسوّغ اللاهوتي للحوار عن طريق توسيع عقيدة الخلاص، وهجر الدعوى الكنسية القديمة القائلة: «لا خلاص خارج الكنيسة»، والتخفف من لوازم عبارة إنجيل يوحنا القائلة: «أنا الطريق والحق والحياة».

٢- **المرحلة الثانية:** تمثل هذه المرحلة تنامي ردود الفعل المضادة للانفتاح على الديانات والتقاليد الأخرى، واعتبار أسلوب (الحوار) و(التقارب) خيانة لرسالة الكنيسة وتخلياً عن البشارة. هذا من جانب النقد الذاتي داخل الأسرة الكاثوليكية، لكن صاحَبَ ذلك ما يشبه (خيبة الأمل) و(الإحباط) تجاه التجاوب الإسلامي مع دعوة الحوار؛ فنصارى الحوار لم يجدوا بغيتهم التي تلبي طموحاتهم في مسلمي الحوار، فضلاً عن معارضيه. وهذه المرحلة واكبت السنوات الأولى من سيامة يوحنا بولس الثاني بابا الفاتيكان.

٣- **المرحلة الثالثة:** وهي الفترة الممتدة من أواسط الثمانينيات وحتى وقتنا الراهن. وتتسم باستمرار التأكيد على أهمية الحوار من الناحية الإعلامية والمظهرية، ولكن باعتبار الحوار جسراً لنقل الثقافة الإنجيلية إلى الآخرين، أو ما صار يسمى بـ (الغرس الثقافي). وهذه المرحلة أعقبت رحلات البابا يوحنا بولس الثاني لأجزاء من العالم

الإسلامي، ولقائه بمسلمين في آسيا وأفريقيا وأوروبا على مدى أربع سنوات (١٩٨٠ ـ ١٩٨٤م). وعاد بلا ريب مقتنعاً بعدم كفاءة أمانة السر الفاتيكانية للعلاقات بغير المسيحيين، التي كان يشغلها إذ ذاك رئيس الأساقفة جان جادوت، في تفعيل الحوار الهادف إلى نشر النصرانية؛ فكان أن عيّن الكاردينال الأفريقي الأصل فرانسيس آرينزي في ذلك المنصب ليرضي طموحه وفق النظرة الجديدة للحوار. ومن الملاحظ في هذه الفترة تكثيف النشاط التنصيري، واستخدام كافة وسائل التقنية الحديثة لتنصير العالم ومن أخطرها مشروع Lumen 2000، أي نور سنة ٢٠٠٠م، وهو القمر الصناعي المخصص لبث برامج التنصير عبر القنوات الفضائية.

هذه المرحلة أخطر مراحل الحوار الذي تمارسه الكنيسة الكاثوليكية؛ حيث تمطر الآخرين بعبارات ذات مدلول فارغ تخدرهم فيها، وتصرف أنظارهم عن الاشتغال بما يهمهم حقاً، في الوقت الذي تستنفد فيه كافة السبل والوسائل للتبشير والغرس الثقافي طويل الأمد، تحت ستار (الحوار) الطُّعم.

وبإزاء الكنيسة الكاثوليكية، يمثل مجلسُ الكنائس العالمي الطوائفَ النصرانية غير الكاثوليكية، ويتمتع بنفوذٍ واسع يضاهي نفوذ (الفاتيكان)، وتنضوي تحته جميع الكنائس البروتستانتية، والإنجليكانية، والأرثوذكسية، التي يبلغ عددها ثلاثمئة وست عشرة كنيسة موزعة على أكثر من مئة بلد، ويتبعها قرابة أربعمئة مليون نصراني.

لقد لفتت مبادرات مجلس الكنائس العالمي للتقريب بين الأديان الأنظارَ في أواخر الستينيات، وطوال السبعينيات الميلادية، بتتابعها وانتشارها في أصقاع متنوعة من قارات العالم القديم؛ فقد عقد المجلس أكثر من خمسة عشر لقاءً دولياً أو إقليمياً خلال عشر سنوات، موزعة في أوروبا وآسيا وأفريقيا. ولكن هذا النشاط الدائب لم يكن يخفي وراءه وضوحاً في الرؤية ومضاءً في العزيمة؛ بل كان سلسلةً من التجارب المشبعة بروح المغامرة، والرصد لانعكاسات التقارب على الحركة المسكونية.

لقد واجه المجلس معضلة العلاقة بين (الحوار) و(البشارة)، وبعبارة أدق: بين (التقارب) و(التنصير)، بصورة أعنف مما واجهته الكنيسة الكاثوليكية..، ويمكن أن نميز ثلاث مراحل:

١- **المرحلة الأولى: مرحلة الدراسة**: وقد ابتدأت في وقتٍ مبكر إثر انعقاد المجلس عام ١٩٥٥م؛ حيث شكل مشروعاً دراسياً بعنوان: (كلمة الله والأديان الحية للبشر)، استمر حتى مطلع السبعينيات. وكانت حصيلته الدعوة إلى الانفتاح والحوار مع الإسلام، ومجاراة ما كان سائداً في النصف الثاني من الستينيات إثر المجمع الفاتيكاني الثاني. وكانت ذروة هذه المرحلة مؤتمر (كارتيني) عام ١٩٦٩م، الذي رأى ضرورة الحوار لحمل الديانتين على تأمين الاحترام المتبادل وتعزيز التفاهم، وفي ذات العام أنشئت وحدة الحوار.

٢- **المرحلة الثانية: مرحلة التجربة العملية**: وقد استُهلت بإصدار الإرشادات لشرح سياسة وحدة الحوار مع معتنقي الأديان والمثل الحية

عام ١٩٧١م، وفيها يوصف الحوار بأنه اضطراري، ومستعجل، ومملوء بالفرص، ومع ذلك يعترف المجلس أنه لا يوجد لديه رأي موحد، وأن ممارسة المجلس للحوار مغامرة.

٣- **المرحلة الثالثة: مرحلة حوار البشارة:** تبتدئ هذه المرحلة عام ١٩٧٩م، إثر صدور إرشاداتٍ بشأن الحوار في اجتماع اللجنة العامة للمجلس في جامايكا؛ فقد عُرِّف الحوار بأنه ليس مجرد نشاط اجتماعات ومؤتمرات بل أسلوب حياة للإيمان النصراني، مرتبط بالجيران، يؤدي فيها المحاور الشهادة، ويتذرع بجميع الوسائل الحديثة للوصول إلى مستمعيه.

ومن ثم فقد انحسر عدد المؤتمرات التي يرعاها المجلس بين الأديان بصورة ملحوظة إلى حد إلغاء وحدة الحوار، وإدراجها ضمن إطار العلاقات الدولية للمجلس؛ فقد استفرغ المجلس وسعه في السعي لاستغلال الحوار ـ من حيث هو حوار ـ للتنصير، فلم يأتِ بطائلٍ يرضي طموحه؛ فأبقى الاسم ستاراً لمشاريعه وفرَّغه من المضمون.

أما المرحلة الراهنة فَعِلْمها عند الله، لكن رؤية المنحنى المنحدر يشي بشيءٍ من معالمها الذي سيسفر عن الوجه الكالح للصليبية الجديدة. ولا أدل على ذلك من الاستهزاء العلني الذي تديره الآلة الإعلامية الكبرى في الغرب النصراني ضد قيم الإسلام، ونبيه، وكتابه، ورموزه، كما أبصره الناس في الرسوم المسيئة إلى شخص نبينا محمد ﷺ، وجرى دعمه وإسناده من بعض القوى السياسية والدينية الغربية، أو تجاهله وعدم إدانته من آخرين.

ثم طفح الكيل حين فاه البابا بنديكت السادس عشر، في محاضرة ألقاها في جامعة (ريغبنسبورغ) الألمانية، يوم ١٢ سبتمبر ٢٠٠٦م، بهجومه البذيء على الإسلام ونبيه، في سابقة هي الأولى من نوعها بعد قرارات المجمع الفاتيكاني الثاني، مما يدل على أن القوم نفد صبرهم، وشعروا أن الإسلام يتقدم، ويكتسب أفراداً ومواقع جديدة، وأن لعبة (التقارب) لم تعد مجدية، والبساط يطوى من تحتهم، والأرض تنقص عليهم من أطرافها، لا بل في عقر دارهم!

تقويم تجربة الحوار

على مدى نصف قرن من الزمان في أركان الأرض الأربعة:

١-مئات المؤتمرات والندوات والملتقيات، ضمت مشايخ وأساقفة وحاخامات وكهنة.

٢-أُسست عشرات المعاهد والمراكز المتخصصة في قضايا الحوار.

٣-طُبعت آلاف الكتب والبحوث والدوريات.

٤-بُنيت مجمعات الأديان التي تضم: مسجداً، وكنيسةً، وكنيساً، ومعبداً وثنياً.

٥-أقيمت الصلوات المشتركة بين أتباع الديانات المختلفة برعاية البابا.

وباستقراء الكم الهائل من هذا النشاط نسجل الحقائق التالية:

أولاً: دعوة (الحوار الإسلامي النصراني) بصورتها السائدة غربية المولد والمنشأ، ترعرعت في حجر النصارى الغربيين، على اختلاف طوائفهم. وانطلقت مبادراتها الأولى من المرجعيتين الكبريين لنصارى العالم: الكنيسة الكاثوليكية، ومجلس الكنائس العالمي، وأسس كل منهما دائرة مستقلةً للحوار مع غير النصارى.

ثانياً: جرت هذه الفعاليات في وضع غير متكافئ ؛ حيث الجانب النصراني هو الأقوى: سياسياً، وعسكرياً، وتخطيطاً. بينما الجانب الإسلامي يتخبط في مشاكله المتنوعة، ولا يملك المحاورون أهدافاً واضحة، ويفتقرون إلى الكفاءة العلمية والتخطيط.

ثالثاً: تم تغييب الهدف الإسلامي الأصيل من الحوار، المتمثل في قوله -تعالى-: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٦٤]، والمجاهرة بأنه: (لا حوار في قضايا الاعتقاد)! والاكتفاء بالبحث عن أوجه الاتفاق، وإقصاء أوجه الافتراق، والاشتغال بقضايا فرعية باهتة.

رابعاً: كانت أهداف (التقارب) لدى النصارى في بادئ الأمر: استغلال المسلمين للوقوف في وجه المد الشيوعي الزاحف على مختلف مناطق العالم، وخطفُ البريق الإسلامي الذي سطع على العالم المنفتح بعد الحرب العالمية الثانية بالتمظهر بزمالة الأديان وتساويها، ثم آلَ الحال إلى استخدام الحوار وسيلة للبشارة والتنصير.

خامساً: لم يجِد النصارى قِيد أنملة عن معتقداتهم، فلم ينتهوا عن قولهم: (ثلاثة)، ولا عن غلوهم في الدين، وأصروا على إنكار نبوة محمدٍ ﷺ. وحقيقة الحال أن النصارى يريدون من غيرهم أن يقتربوا منهم فحسب، ولا يقابلون ذلك إلا بمظاهر جوفاء وبياناتٍ إعلامية، يتسللون من خلالها إلى أتباع الديانات الأخرى. قال -تعالى-: ﴿هَـٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ﴾ [آل عمران: ١١٩].

ومن شواهد ذلك:

أ ـ إصرار النصارى على الجهر بعقائدهم الباطلة في ملتقيات التقارب:

لم تحمل المجاملة آباء الكنيسة على مراعاة محاوريهم أو مضيفيهم من دعاة التقارب من المسلمين، بل صدعوا بكفرهم وتثليثهم بين ظهراني المسلمين دون مواربة، ومن أمثلة ذلك:

كلمة البابا يوحنا بولس الثاني في الدار البيضاء بالمغرب، التي حُشد له فيها عشرات الآلاف من الشبان والشابات المسلمين، الذين حملتهم الحافلات على حين غرة من مدارسهم وجامعاتهم، حتى غصت بهم مدرجات (الأستاد) الرياضي، في ١٩ أغسطس عام ١٩٨٥م. ومما جاء فيها قوله: «إنكم تعلمون أن سيدنا يسوع في اعتقاد المسيحيين هو الذي يدخلهم في معرفة حميمة للذات الإلهية التي تفوق كل إدراك بشري، وفي نوعٍ من الاتحاد (الابني) بعطايا الله ومواهبه؛ ولذلك فهم يشهدون أنه هو الرب والمخلِّص»(١). ثم ختم كلمته الطويلة بابتهال.

كلمة رئيس أساقفة إسبانيا الكاردينال الكاثوليكي، أنريكي ترانكون، في مؤتمر (التقدير الإيجابي لمحمد وعيسى في المسيحية والإسلام) المعقود في قرطبة عام (١٣٩٧هـ ١٩٧٧م) حين خاطب المؤتمرين قائلاً: «إن عقيدتنا في التثليث لا تنقص شيئاً من ذلك التأكيد القاطع المطلق من ذلك الإيمان الذي ينبغي لإخواننا المسلمين أن

---

(١) دراسات إسلامية مسيحية (٨)؛ أو: وثائق عصرية في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين، (١٩٦).

يعترفوا لنا به؛ فنحن كذلك نرفض الشرك مثلهم، ولا نرضى أن نتهم بأننا نشرك مع الله آلهة أخرى...بجانب ذلك نؤمن بأن لعيسى صبغة إلهية... تلك العلاقة الخاصة والحميمة بين الله وهذا الإنسان هي بالنسبة لنا أيضاً سِرٌّ لا يدرك، واستناداً إلى نصوصنا وتقليدنا العقيدي نعبر عن الوحدة الإلهية بالتثليث»(١).

ب ـ إصرارهم على إنكار نبوة محمد ﷺ:

لقد أبى النصارى الزاعمون أنهم يسعون إلى التقارب مع المسلمين مجردَ التسليم بنبوة محمد ﷺ، حتى ولو لم يتبعوه، كما يؤمنون بعامة أنبياء بني إسرائيل؛ فحينما انعقد مؤتمر (التقدير الإيجابي لمحمد وعيسى في المسيحية والإسلام) في قرطبة عام (١٣٩٧هـ ١٩٧٧م)، كان المتوقع من جهة غير كنسية (جمعية الصداقة الإسلامية المسيحية) أن تعلن اعترافها بنبوة محمد ﷺ، ولكن (التقدير الإيجابي) لم يبلغ هذا الحد، وأفصح الأب جاك جوينيه عن السر الأثيم في ذلك بقوله: «إن الاعتراف بمحمدٍ نبياً يعني الاعتراف بكل ما يتضمنه القرآن، وبالتالي بأن محمداً خاتم المرسلين وخاتم الأديان. وهذا لا يعتبر سوى إلغاء لإنجيل المسيح»(٢).

سادساً: المضيّ في تضليل الخلق بما يسمونه (التبشير)، مستغلين الفاقة المعيشية والصحية والأمنية، لكثير من شعوب العالم الثالث –وغالبيتهم

(١) مجلة العربي، عدد (٢٢٣)، يونيو ١٩٧٧م (٤٦).

(٢) مجلة العربي، عدد (٢٢٣)، يونيو ١٩٧٧م (٤٤).

مسـلمون ـ ولتحقــيق مكاسـب جديـدة ومـواطىء أقـدام لمنصـريهم، وإقامة كنائسهم تحت شعار التقارب والحوار والتسامح.

سـابعاً: موالاة بعضهم بعضاً، وموالاة اليهود والمشركين على الظلم والعدوان ضد المسلمين في: فلسطين، والبوسنة، وأندونيسيا، والفلـبين، وغيرها.

ثامنـاً: دلــت النصــوص الشــرعية القاطعــة علــى بطــلان (دعــوة التقريب بين الأديان)؛ لأن دين الله واحد؛ هو الإسلام الذي ابتعـث الله بـه محمداً ﷺ، وما سواه إما باطلٌ أو منسوخ؛ فمن رام التقريب بينـه وبـين غيره فقد رغب عن ملة إبراهيم، وابتغى ديناً غير دين الإسلام، وطعن في صدق محمدٍ ﷺ وعموم رسالته، وأنكر هيمنة القـرآن علـى الكتـب السابقة ونسْخَه لأحكامها، وخالف إجماع المسلمين، واتّبـع غـير سـبيل المؤمنين من الصحابة والتابعين. وكلها لـوازم لا محيـد لـدعاة التقريـب عنها، وفسادها معلومٌ من الدين بالضرورة. وفسـاد الـلازم يـدل علـى فساد الملزوم، وبطلان الفرع يعود على الأصل بالإبطال.

تاسـعاً: دل الواقع العملي المشاهد خلال فورة دعـوة التقريـب بـين الأديان في العقود الخمسة المنصرمة -على ظهور بعض النتائج والآثـار الملموسة، الناجمة عن تجربة التقريب، مثل:

١- التسـوية بين كـلام الله الذي لا يـأتـيه الباطـل مـن بـين يديـه ولا من خلفه (القـرآن) والكتـب المحرفـة المنسـوبة إلى أنبيـاء الله، الـتي

بأيدي اليهود والنصارى اليوم، ووصفها جميعاً بـ (مقدسة) و(سماوية) و(كلام الله).

٢- التسوية بين بيوت الذِّكر والرحمة (المساجد) وبيوت العذاب والشرك، من معابد اليهود والنصارى والمشركين، ومشاركتهم في صلواتهم واحتفالاتهم الدينية.

٣- إقامة المؤسسات البحثية المشتركة بين الأديان؛ بغرض تنقية المناهج الدراسية والوسائل الإعلامية من النقد المتبادل، ورفع الأحكام العقدية والشرعية في شأن أهل الكتاب، واستلال اعترافات صريحة وضمنية من نظرائهم المسلمين على صحة دينهم وكتبهم، وإعادة عرض الإسلام بصورة مشوهة خداج، كالتصوف الباطني.

الضوابط والتوصيات

١- عقد المؤتمرات العالمية والإقليمية والمحلية للدعوة إلى كلمة سواء:

امتثالاً لأمر الله -تعالى-: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وتأسيّاً بهديه ﷺ في مخاطبة أهل الكتاب مشافهةً؛ بالجدال والمحاجة والمناظرة، ومكاتبةً لعظماء أهل الملل، واتّباعاً لسبيل المؤمنين السابقين في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، واستغلالاً للفرصة النادرة والإمكانات المتاحة في كثيرٍ من الدول الغربية، التي تسودها أنظمة ديمقراطية، تسمح بحرية التعبير عن الرأي ومخاطبة الجمهور بالوسائل الأدبية اللائقة، دون إثارةٍ أو اعتداء.

فينبغي للهيئات الإسلامية الموثوقة أن تسعى في هذا السبيل القاصد والمحجة البيضاء، وألا تضيّع جهودها وإمكاناتها، وجهود العاملين معها فيما لا طائل من ورائه، أو ما فائدته قليلة بجنب مشاريع الدعوة الإسلامية الصريحة.

٢ـ المشاركة الإيجابية في المؤتمرات والمنتديات الدينية بالصفة الشرعية المتميزة:

ثمَّة موقفان من المسلمين حيال المشاركة في ملتقيات الحوار الديني التي تدعو إليها جهات كنسية، أو منظمات دينية نصرانية غالباً، وهما:

أ ـ **الرفض المطلق**، والإعراض التام، بل وإدانة جميع صور المشاركة، بحسبانها لوناً من ألوان المداهنة والاستدراج والفتنة عمّا أنزل الله؛ لصدور تلك المبادرات من جهاتٍ لا تألوا جهداً في صد المسلمين عن دينهم، والكيد لهم.

وقد تبلور هذا الموقف إثر الممارسات التي كشفت الغبن والغرر الذي حاق بالمسلمين، دون تحقيق شيءٍ من المقاصد الشرعية، في مقابل المكاسب والغايات التي جناها الطرف الآخر.

ب ـ **القبول المطلق**، والاسترسال التام مع داعي هذه المؤتمرات والندوات دون قيدٍ أو شرط، والتساهل والمجاملة الزائدة مع المخالفين، وموافقتهم على رسومهم التي رسموها لسير الحوار والحدود التي أقاموها وأقنعوا رصفاءهم بعدم تخطّيها؛ كالبحث في مسائل الاعتقاد، وعدم الجهر بكلمة الحق، وكشف الباطل، ضمن تعليلات مصلحية فاسدة.

ولا شك -والحال هذه- أن الموقف الأول هو الحق الذي يجب لزومه والعضّ عليه بالنواجذ؛ حرصاً على نقاء الدعوة، وسلامة المنهج، والبعد عن مواطن الريب. ولكن لا تجوز الصيرورة إليه حتى يثبت ثبوتاً أكيداً تعذُّر البلاغ وإقامة الحجة في مثل هذه المنتديات،

ورفض الجهات الداعية المنظِمة السماحَ للمحاورين المسلمين من إعلان ما يريدون، ونقد ما يسمعون.

ذلك أن الرفض والامتناع موقف سلبي يمكن أن يتخذه أعداء الإسلام مغمزاً أو مطعناً في الإسلام وأهله؛ من وصفِهم بالجبن والتخاذل عن المواجهة، أو وصمهم بالشعور بالنقص وعدم القدرة على التعايش مع مستجدات العصر، أو رميهم زوراً وبهتاناً بالتعصب ونبذ الآخرين، وعدم اعتماد أسلوب المحاورة بالحجة، وعدم احتمال سماع (الرأي الآخر)، وأنه لم ينتشر سابقاً إلا بحد السيف والإكراه.

وقد اعتبر شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- هذا المحذور، في معرض رده على من قال: «إن آيات المجادلة والمحاجة للكفار منسوخات بآية السيف» فقال: «الوجه الثامن: إن كثيراً من أهل الكتاب يزعم أن محمداً ﷺ وأمته، إنما أقاموا دينهم بالسيف، لا بالهدى والعلم والآيات؛ فإذا طلبوا العلم والمناظرة؛ فقيل لهم: ليس لكم جواب إلا السيف، كان هذا مما يقرر ظنهم الكاذب، وكان هذا من أعظم ما يحتجون به عند أنفسهم على فساد الإسلام، وأنه ليس دين رسول من عند الله، وإنما هو دين ملك أقامه بالسيف»(١).

وقد جاء في قرارات المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي في دورته الثامنة عشرة عام ١٣٩٦هـ البندُ التاسع عشر، ما يلي: (دَرَسَ المجلس الدعوة التي تلقتها الأمانة العامة، للاشتراك في المؤتمر المسيحي

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح (١/ ٢٤٤).

الإسلامي، الذي ينظمه مجلس الكنائس العالمي في جنيف في يناير ١٩٧٧م، وقرر:

١- الموافقة على الاشتراك في هذا المؤتمر وغيره من المؤتمرات المماثلة، بشرط أن يكون المقصود من ذلك بيان الحق الذي بعث الله به نبيه محمداً ﷺ، وبطلان ما سواه من الأديان.

٣- أن يتولى تمثيل الرابطة فيها العلماء المختصون بالمواضيع المطروحة في جدول أعمالها)[1].

وأحسب أنه لو جرى الالتزام بهذين الشرطين لتحقق نفعٌ عظيم، ولأفضى الحال إلى بيّنة من الأمر؛ فإما القبول بالحق والرضى بالإسلام؛ وإما النكوص والكف عن الدعوة إلى مثل هذه المنتديات واستغلالها في أغراض الصد عن سبيل الله، وتغطية أعمال التنصير.

٣ـ التقويم المستمر لمسيرة الحوار وتبادل الخبرات بين الجهات الإسلامية:

إن من الضرورة بمكان أن يتلاقى المعنيّون من الجهات والهيئات الإسلامية المعتبرة للتشاور حول جدوى الحوار وتقويم مسيرته، وتبادل الخبرات وثمرات التجارب السابقة، ثم اتخاذ القرارات حول المضيّ فيه إن كان يحقق المقاصد الشرعية أو التوقف إن كانت الأخرى، وأن يتم ذلك في ضوء العقيدة الإسلامية والسياسة الشرعية.

---

(١) محضر قرارات الدورة الثامنة عشرة (١٤).

إن مستوى التخطيط والتنسيق وتبادل الخبرات بين الجهات الإسلامية خلال العقود الماضية أقل من الحد الأدنى. ولا ريب أن لبعض الجهات الإسلامية المعتبرة مثل: رابطة العالم الإسلامي، والأزهر، ووزارات الأوقاف والشؤون الإسلامية في العديد من البلدان الإسلامية -تجاربها الخاصة وتوصياتها؛ ولكنها لم ترتقِ بعدُ إلى درجة الموقف الموحد والنضج التام من أصل القضية وتضاعيفها، وذلك يحتّم أن تلتئم هذه الجهات مسترشدة بالمنهج الشرعي الرصين، مستفيدة من تجارب الماضي، وتصدر عن رؤية شرعية واحدة.

٤ ـ الاهتمام بالأقليات الإسلامية في أنحاء العالم:

وهؤلاء في الحقيقة رُسلٌ للإسلام إلى أهالي تلك البلاد بحكم إعلانهم باعتناق هذا الدين، ومرايا عاكسة لعقيدته وشريعته في سلوكهم الشخصي ووضعهم الاجتماعي. ولَكَم كان هؤلاء سبباً مباشراً أو غير مباشر لاعتناق آخرين دين الإسلام؛ إما بالدعوة الصريحة؛ أو بالقدوة الحسنة والسلوك الحميد!

وكثير من هؤلاء المسلمين القلة في بلاد الكفار يعانون من الجهل والقطيعة من بقية إخوانهم المسلمين، مع معاناتهم الأصلية من العيش بين ظهراني الكافرين، والتأثر والخضوع لأعرافهم الاجتماعية، وقوانينهم المدنية. فينبغي للمؤسسات الإسلامية، الدعوية والخيرية، التواصل مع تجمعات المسلمين في سائر دول العالم، في الجوانب التالية:

أ ـ توعيتهم وتعليمهم أمور دينهم، عن طريق بعث الدعاة إلى الله، وإقامة الدورات الشرعية، وتزويدهم بالكتب وغيرها من أوعية العلم

باللغات التي يحسنون، ومنح الفرص لأبنائهم لتلقّي الدراسات العليا في الجامعات الإسلامية.

ب ـ عمارة المساجد والمدارس الإسلامية لهم ولأبنائهم، والمراكز التي تقوي رابطتهم وتحول -بإذن الله- دون ذوبانهم في المجتمعات التي يعيشون فيها.

ج ـ السعي لدى حكوماتهم لمَنْحِهم كامل حقوقهم المدنية وحرياتهم الدينية؛ في اللباس والأعياد وغيرها، والاعتراف بمؤسساتهم وروابطهم ومدارسهم، ودعمها أسوة ببقية الطوائف، وتسهيل أمورهم المدنية والحقوقية.

٥ـ قيام الجامعات الإسلامية والمعاهد الشرعية بإحياء فنِّ المناظرات والمجادلة بالتي هي أحسن، وتأهيل الدعاة والمحاورين للقيام بواجب الدعوة والبلاغ:

مما يلاحظه المتتبع أن كثيراً من الجامعات الغربية وكليات اللاهوت والمعاهد التنصيرية العريقة- تضم أقساماً للدراسات الإسلامية، ومراكز للحوار الديني، وتقوم بعقد المؤتمرات المتتالية. بل ثمَّة مراكز ومعاهد مستقلة أنشئت في مواقع عدة من العالم لهذا الغرض. فحري بالجامعات الإسلامية أن تولي هذا الأمر حقه من الاهتمام والرعاية وفق المناهج الشرعية المعتبرة، دون محاكاة الأنماط الغربية.

ومن المشاريع المقترحة في هذا الصدد:

أ ـ إحياء التراث الإسلامي الحافل في باب المناظرة والجدل مع أهل الكتاب، تحقيقاً ودراسةً، في أقسام الدراسات العليا ومراكز البحوث.

ب ـ رصد المستجدات من الاتجاهات الحديثة داخل الملل الأخرى، وأهدافها ووسائلها.

ج ـ تأسيس أقسام للدعوة، وتخريج الدعاة المؤهلين لمحاورة أهل الكتاب وغيرهم.

وبهذه الوسائل وأمثالها، يمكن للأمة الإسلامية أن تقوم بالمهمة التي شرفها الله بها، من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله، وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، بما من الله به عليها من إكمال الدين، وإتمام النعمة، والرضى لها بالإسلام ديناً.

نسأل الله أن يعز دينه، وأن يعلي كلمته، وأن يصلح حال المسلمين، إنه ولي ذلك، والقادر عليه.

وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

مؤتمر تعظيم حرمات الإسلام

الاستشراق المعاصر

وأثره في ظاهرة التطاول على الإسلام

د. مازن مطبقاني

الأستاذ المشارك بقسم الثقافة الإسلامية

جامعة الملك سعود - الرياض

www.madinacenter.com

المقدمة

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق؛ ليظهره على الدين كله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي بعثه ربه رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

ما حقيقة ظاهرة التطاول على الإسلام؟ وما مدى اتساعها؟ وأين نجد هذه الظاهرة؟ ومن المسؤول عن ظهورها؟ ولماذا توجد مثل هذه الظاهرة في هذا الوقت؟ وما الحلول المناسبة لمواجهة هذا التطاول؟ لَكَمْ ردّدنا حديث المصطفى ﷺ: «**يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كتداعي الأكلة إلى قصعتها..**»! وفُهِم من الحديث أن التداعي يكون حِسّياً؛ وهو حاصل بالفعل؛ فالقوات الأجنبية الغازية موجودة في ديار المسلمين، والبلاد التي ليس فيها قوات أجنبية تتحقق فيها الهيمنة العسكرية والسياسية والاقتصادية في صور مختلفة ولها وكلاء يقومون بهذا. ولكن هذا التداعي له مظاهر معنوية وفكرية وثقافية. وهو ما دعا الشيخ أبا الحسن علي الحسني الندوي -رحمه الله- إلى توجيه عدد من الرسائل إلى ملوك وأمراء الجزيرة العربية يحذّرهم وينبّههم إلى خطورة الوجود الأجنبي في جزيرة العرب؛ ليس من الناحية المادية فحسب (لا يجتمع في جزيرة العرب دينان)؛ بل من الناحية (المعنوية) والدينية.

والاستشراق المعاصر هو أحد عناصر هذه الظاهرة في التطاول على الإسلام؛ حيث تصدرت الجامعات الغربية -الأوروبية والأمريكية-

مصادر تلقّي العلم لدى الكثيرين من أبناء هذه الأمة منذ بداية سياسة الابتعاث إلى هذه الدول؛ بغرض الحصول على الشهادات العليا في العلوم الاجتماعية، وما يسمى بالعلوم الإنسانية، وحتى العلوم الشرعية! وهناك درس أبناؤنا على أيدي المستشرقين؛ فتشبّع كثيرٌ منهم بأفكار أساتذتهم وآرائهم، وأُعجِب بعضهم بالأساتذة، بينما وصل بعضهم إلى درجة الانبهار والحب العميق لهؤلاء الأساتذة؛ بل وصل الأمر بأحدهم، وقد ذهب إلى هناك ليدرس الاستشراق، أن عاد ناعياً حظه في هذه الدراسة، ظانّاً أن من يدرس الاستشراق كمن يحارب طواحين الهواء دون (كيشوت)، وما إن وجد الفرصة حتى انتقل إلى تخصص آخر بعيداً عن الدراسات الإسلامية عند المستشرقين، ولم ينتج صفحة واحدة بعد حصوله على الدكتوراه من هناك.

وفي هذا البحث الموجز عن الاستشراق المعاصر وأثره في ظاهرة التطاول على الإسلام؛ نتناول هذه الظاهرة من خلال مبحثين وخاتمة، هما:

- طبيعة الدراسات الاستشراقية المعاصرة.
- مجالات التطاول وتجلّياتها المعاصرة.
- الخاتمة والتوصيات.

ولا بد من التنبيه أن من الصعب إطلاق الحكم على الاستشراق المعاصر عامة؛ لأن من الصعب على أي باحث عربي مسلم أن يزعم أنه على اطِّلاع بكل ما يدور في الساحة الاستشراقية أو في الجامعات ومراكز

البحوث الغربية عامة؛ ولكن تخصصي في الاستشراق المعاصر؛ وزيارتي للعديد من الجامعات الأوروبية والأمريكية واطلاعي على المواد الدراسية، بالإضافة إلى حضور العديد من المؤتمرات والندوات وما يسمى ورش العمل.. كل ذلك وفّر لي الفرصة لمثل هذه الاستنتاجات.

المبحث الأول

طبيعة الدراسات الاستشراقية المعاصرة

إن الاستشراق المعاصر، أو ما أصبح يعرف بـ (الدراسات العربية والإسلامية) أو الدراسات الإقليمية، أو دراسات الشعوب العربية والإسلامية تحت مختلف التخصصات؛ كالاجتماع، وعلم الإنسان، والاقتصاد، والسياسة -لم يعد يشبه ذلك التراث الضخم من الكتابات الاستشراقية المعروفة مثل كتابات جولدزيهر، ومارجليوت، وشاخت وكولسن، وبرنارد لويس، وهاملتون جب، وتوماس آرنولد، وغيرهم. فإذا كان المستشرقون القدامى ينطلقون من معرفة اللغة إلى تناول كافة القضايا التي تتناول الإسلام والمسلمين في المجالات: العقدية، والتشريعية، والسياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية- فإن المستشرقين المعاصرين، أو الباحثين الغربيين، يدركون الآن أنه لا يمكن للشخص أن يصبح عالماً متخصصاً في الشرق العربي الإسلامي من خلال اللغة وحدها. إن الباحثين الغربيين الذين يدرسون العالم الإسلامي، من خلال بعض المعرفة باللغات الإسلامية مع إلمام محدود بالإسلام، أصبحوا يدرسون العالم الإسلامي من خلال قضايا محدودة جداً، مثل: وضع المرأة في قُطْر من الأقطار، أو التعليم في بلد من البلاد الإسلامية، أو قضايا الزواج والطلاق، أو بعض المسائل الفرعية الأخرى.

الاستعانة بالطلاب العرب المسلمين والأساتذة:

لقد توفر للاستشراق المعاصر أعداد كبيرة من الباحثين العرب والمسلمين الذين يدرسون في الجامعات الغربية، ويُختارون بناءً على توجيه مشرفيهم

لدراسة قضايا معينة تخص العالم الإسلامي، وهذا ما لم يتوفر للمستشرقين القدامى الذين كان بعضهم يضطر إلى زيارة البلاد العربية والإسلامية والإقامة فيها سنوات، ومع ذلك فقد لا تتوفر له المعرفة الدقيقة التي يمكن أن يحصِّلها من خلال ما يقوم به طلاب الدراسات العليا من العرب والمسلمين. ومع ذلك فعلينا أن نذكر أن أمر الرحلة لم ينقطع تماماً؛ فمازال للبلاد الأوروبية والأمريكية جامعات ومراكز بحوث في البلاد العربية الإسلامية، والتي تمكِّن بعض الباحثين الغربيين من الإقامة بضعة أشهر أو سنوات؛ لدراسة الشعوب العربية والإسلامية، وإتقان لهجاتها المختلفة، ومعرفة أوضاعها.

وأصبحت الدراسات العربية والإسلامية تستعين بأعداد من الأساتذة العرب المقيمين في الغرب أو الزائرين (نصر حامد أبو زيد؛ أستاذ زائر بجامعة ليدن منذ عشرة أعوام، وصادق جلال العظم، وبسّام الطيبي، وعزيز العظمة... والقائمة طويلة جداً)، وهؤلاء الأساتذة لا بد أن تنطبق عليهم شروط معينة؛ لعل من أولها أن يكون صاحب تفكير (حر) بزعمهم، وهو أن يكون ممن لا يتورع عن انتقاد الإسلام عقيدة وشريعة ومنهاجاً. أما الأساتذة الذين يعتزون بدينهم فمن الصعب أن يجدوا مكاناً في الجامعات الغربية[1].

وفي زيارة لمعهد الولايات المتحدة للسلام عام ١٤١٥هـ (١٩٩٥م)

---

(١) قدمتُ في تونس في مؤتمر عقدته مؤسسة التميمي عن المناهج الغربية في دراسة العالم الإسلامي وتركيا عام ١٤١٦هـ (١٩٩٦م) -بحثاً بعنوان «التعاون العلمي بين الجامعات الغربية والعالم الإسلامي: بين الواقع والطموح»، وأشرتُ إلى أن اختيارات الغرب للباحثين لا تتبع المنهجية العلمية الموضوعية؛ فأثار حديثي حفيظة جميع الحاضرين؛ لأنهم من الصنف الذي تستقطبه الجامعات الغربية!

علمتُ عن دعوتهم للدكتور سعد الدين إبراهيم لإعداد بحث عن الحركات الإسلامية (الأصولية) في مصر؛ فتعجبت منهم يدعون باحثاً عرفت عنه عداوته لهذه الحركات وتحيّزه ضدها! كما أن معهد الشرق الأوسط بواشنطن العاصمة كان قد دعا باحثاً من الأردن لإمضاء سنة كاملة للبحث حول الأردن؛ فخرج بنتائج كادت تُحدِث فتنة داخل الأردن(١)، وكان أحد الباحثين أيضاً في المعهد نفسه قد كُلِّف بالكتابة عن الحركات الإسلامية وتناول كتابات سيد قطب، وأصر في نتائجه على أن سيد قطب هو الأب الروحي للقاعدة والإرهاب في الوقت الحاضر، ومن العجيب أن تنشر صحيفة الإندبندنت ملحقاً خاصاً عن سيد قطب في صيف العام الماضي (أغسطس ٢٠٠٦م) تناول جذور الإرهاب- بزعمهم- ونَسبَها إلى سيد قطب رحمه الله!

ومن مظاهر استقطاب الجامعات الغربية للباحثين العرب والمسلمين دعوة بعضهم لإجراء البحوث فيما بعد الدكتوراه أو المحاضرة والتدريس في جامعاتهم، ولكن بمواصفات خاصة؛ وهي أن يكون هذا الباحث معروفاً بمواقفه المنتقدة للإسلام، أو حتى التي يمكن أن تصل حد الكفر، والأمثلة على ذلك كثيرة. ويأتي هؤلاء إلى الجامعات الغربية ليدرّسوا في الجامعات، ويعتلوا المنابر، ويُشركوا في إعداد البرامج والإشراف على الطلاب وغير ذلك. كما أن بعضهم يُستخدم لتقديم معلومات عن بلاده؛ وبخاصة

---

(١) الباحث هو صلاح أبو عودة، وكان بحثه عن وضع الفلسطينيين في الأردن، وحاول إثارة الفتنة بالحديث عن الظلم الذي يعاني منه الفلسطينيون في الأردن.

عن الحركات الإسلامية أو الجماعات الإسلامية في الهند، كما هو الحال مع أحد الباحثين الهنود المدعو إلى المعهد الدولي لدراسة الإسلام في العصر الحديث، والذي تشترك فيه ثلاث جامعات هولندية هي: جامعة أمستردام، وجامعة ليدن، وجامعة أوتريخت.

الاستشراق المعاصر ودعم الحكومات الغربية:

الاستشراق المعاصر يحظى بدعم الحكومات الغربية من حيث التمويل والإفادة من معطيات البحوث التي تنتجها الجامعات ومراكز البحوث، بالإضافة إلى العدد الكبير من المراكز التي يطلق عليها مراكز التفكير (Think Tanks)، والتي تقدم للحكومات الغربية دراسات واقتراحات للنظر في تنفيذها في السياسة الخارجية لتلك الدول. ومن نماذج التمويل لدراسات العالم الإسلامي ما قامت به الحكومة الهولندية من تخصيص مبلغ مليونين ونصف يورو لدعم برنامج الدراسات العليا في العقيدة الإسلامية بقسم العقيدة في جامعة ليدن، وهو البرنامج الذي يقول عنه رئيس قسم الأديان: إنه لإعداد الأئمة والخطباء في أوروبا بدلاً من استقدامهم من العالم الإسلامي.

ونادت الجامعات البريطانية، التي تضم أقساماً لدراسات الشرق الأوسط والدراسات الإسلامية، بالمطالبة بدعم حكومي، وعقدت لذلك العديد من الندوات والمؤتمرات واللقاءات الخاصة للحصول على دعم الحكومة. وقد استجابت الحكومة البريطانية استجابة عملية تمثّلت في تكليف ثلاث جامعات لإنشاء (مركز الامتياز للبحث في شؤون العالم الإسلامي

المعاصرة) وهي جامعات إدنبرة، ودرم، ومانشستر. وبالإضافة إلى هذا المشروع؛ فإن أقسام دراسات الشرق الأوسط (وغيرها من الأقسام العلمية) يتم تقويم عملها من لجان محايدة كل ست سنوات، ليقرر على ضوء ذلك تحديد الدعم المالي والمعنوي الذي تستحقه تلك الجامعات.

كما أن الاتحاد الأوروبي قد أنشأ المعهد الجامعي بفلورنسا، ومن أبرز مهامه: دراسة أوضاع العالم الإسلامي من خلال البحوث والدراسات العليا والندوات والمؤتمرات. وأذكر على سبيل المثال (ندوات البحر المتوسط) التي تعقد سنوياً وتضم أكثر من عشر ورش تتناول قضايا مختلفة في العالم الإسلامي، وكان من بين تلك الورش: العيش تحت حكم استبدادي، ومسألة الجندر، والأسرة في الشرق الأوسط، وقضية المعلوماتية في العالم الإسلامي، وقضايا أخرى. وهناك مجموعات من الباحثين يتولّون عقد دراسات حول العالم الإسلامي بدعم من الاتحاد الأوروبي، كما أن بعض الباحثين يحصلون على مِنَحٍ من حلف (الناتو) لدراسة أوضاع العالم الإسلامي.

وقد قدمت الحكومة الهولندية مبلغ مليونين ونصف يورو لجامعة (ليدن)، وبخاصة قسم دراسات الأديان؛ لإنشاء برنامج دراسات عليا في أصول الدين الإسلامي. كما أن من ضمن هذا الدعم أن المعهد الدولي لدراسة الإسلام في العصر الحديث أعلن تقديم ثماني عشرة منحة لدراسة الدكتوراه، وثلاثين مِنحة للماجستير في مجال الدراسات

الإسلامية بجامعة (ليدن)، شريطة إتقان اللغة الإنجليزية؛ لأن الدراسات العليا في هذا البرنامج ستكون باللغة الإنجليزية.

وعلى الجانب الآخر من الأطلسي قامت الحكومة الأمريكية، بعد سقوط الشيوعية واحتلال العراق للكويت، بدعم برامج دراسات الشرق الأوسط؛ بل إنها جعلت من شروط الحصول على منح للالتحاق ببرامج دراسات الشرق الأوسط، الالتحاقَ بالخدمة الحكومية؛ ومنها العمل في الاستخبارات المركزية الأمريكية. ثم عاودوا الكرة مرة أخرى بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م، ولكن ظهر العداء أكثر للإسلام والمسلمين والتطاول عليه بعد هذه الأحداث، وضُيِّق على الأساتذة الذين يتعاطفون مع قضايا العالم الإسلامي، وبخاصة الاحتلال الصهيوني لفلسطين وما تفعله إسرائيل بالشعب الفلسطيني، حتى أصبحت الحرية الأكاديمية مهددة في أمريكا في الوقت الحاضر.

المراكز الاستشراقية تستوطن بلادنا:

لم يكتفِ الغربيون بالأعداد الكبيرة التي تذهب إليهم من أبناء المسلمين للدراسة عندهم، والحصول على الشهادات الجامعية المختلفة في التخصصات كافة؛ حتى الدراسات الشرعية؛ إلى درجة أن حكومة إندونيسيا عقدت قبل أعوام اتفاقاً مع جامعة (ليدن) على أن يقوم الطلاب الإندونيسيون بإتمام دراساتهم العليا في الدراسات الإسلامية في هولندا، وأحياناً تستضيف الجامعات الإندونيسية عدداً من الأساتذة الهولنديين للإشراف على الطلاب هناك. لم يكتفوا بذلك كله، ولم يكتفوا بالمعاهد

القليلة التي كانت موجودة لدينا؛ كالجامعتين الأمريكيتين في القاهرة وبيروت؛ بل سعوا إلى إنشاء جامعات أمريكية أخرى، كما فعلوا في كلٍّ من دبي والشارقة وغيرهما. وتسابقت الدول الأوروبية لإنشاء مزيد من المعاهد ومراكز البحوث في البلاد العربية. وبالإضافة إلى الجامعات الأمريكية؛ فإن ألمانيا قامت بفتح جامعة في مصر، وهناك محاولات محمومة لإنشاء جامعة فرنسية في القاهرة أيضاً. أما مراكز البحوث فعددها كبير وهي بين هولندية وألمانية ودنماركية وسويدية، وفي بعض البلاد التي لديها تردد في السماح بالجامعات الأجنبية افتُتِحت كليات بأسماء عربية وبمحتوى استشراقي بحت. بل إن جامعات عربية قد أُنشئت تحت إشراف أكبر جامعة (يسوعية) في الولايات المتحدة الأمريكية وهي جامعة (جورجتاون) التي أنشأت كلية لها في قطر. ومن الصعب تصديق من يزعم أننا نستطيع ضبط هذه الكليات والجامعات وأن نفرض عليها مناهج معينة، فلو استطعنا افتراضاً أن نصنع ذلك؛ فهل نحن الذين نختار الأساتذة؟ وما المعايير التي يمكن أن نتطلبها في هؤلاء الأساتذة؟ كما أن الأستاذ يستطيع أن يتجاوز المنهج المقرر من الجامعة، وكما قال أحد الأساتذة: هناك دائماً المنهج السري الذي يختاره الأستاذ.

وثمة نشاط استشراقي جديد هو عقد الندوات وورش العمل في البلاد الإسلامية بحجة تدريب الباحثين العرب على المناهج العلمية في البحوث الاجتماعية، ويحضر هذه الدورات عدد من الأكاديميين الغربيين للإشراف عليها واتخاذ دور الأستاذ المدرّب والموجه. وفي هذه الندوات تُناقَش كثير من القضايا الحيوية والحساسة، ومن أمثلة هذه الدورات ما قامت

به مؤسسة الجنوب بمشاركة معهد (جوته) للدراسات الشرقية في بيروت، والمعهد الدولي لدراسة الإسلام في العصر الحديث بجامعة (ليدن) بهولندا.

المبحث الثاني

مجالات التطاول وتجلّياتها المعاصرة

لا يمكن معرفة مجالات التطاول على الإسلام في الاستشراق المعاصر بقراءة كتاب أو كتابين أو حتى عشرة، أو قراءة مقالة أو بحثٍ تطاول فيه باحث غربي أو عربي مسلم أفرزته الجامعات الغربية، أو زيارة رسمية يقوم بها مسؤول كبير من إحدى المؤسسات الإسلامية الكبرى لعدد من الجامعات الغربية؛ فتنقلب إلى زيارة بروتوكولية تسيطر عليها المجاملات والكلام المعسول(١). أما المعرفة الحقيقية لهذه الدراسات فتتطلب حقيقة الدخول إلى أعماقها من خلال الزيارة والإقامة والاطّلاع على تفاصيل النشاطات الاستشراقية المعاصرة وحضور المحاضرات والندوات والنشاطات المختلفة، والتعرف إلى الأساتذة والطلاب وحتى الإداريين في هذه المراكز. ويمكن أن نقسم ظاهرة التطاول في الاستشراق المعاصر إلى ما يلي:

المواد الدراسية:

تتنوع المواد الدراسية وفقاً لخطة القسم والجامعة وكذلك الأستاذ المحاضر، فبالرغم من أن القسم يقرّ الخطوط العريضة للمقرر الدراسي للأستاذ؛ إلا أنه يترك له جانباً كبيراً من الحرية في طريقة التدريس وفي

---

(١) الزيارة التي قام بها الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي لعدد من الجامعات الإسلامية وتناولتها وسائل الإعلام؛ تُلتقط الصور لمعاليه وهو في تلك الزيارة التي لا أعتقد أنها أدت إلى أي تغيير حقيقي، وقد كتبتُ لمعاليه أقترح مرافقته في هذه الرحلة لسابق زيارة قمت بها لعدد من الجامعات بدعوة من وكالة إعلام الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٩٥م، وزرت فيها تسع مدن وأكثر من عشر جامعات.

وضع تفاصيل المنهج والقراءة المقررة والبحوث، وغير ذلك من الواجبات الدراسية والامتحانات. وسوف أصف بعض المواد الدراسية التي وجدت أن فيها تطاولاً على الإسلام وتشويهاً له وتحريفاً.

أ- **المرأة في الشرق الأوسط (جامعة جورجتاون)**: تتناول هذه المادة موضوع المرأة في الشرق الأوسط مع التركيز على كتابات نوال السعداوي وفاطمة المرنيسي ومن شابههما. وثمَّة تركيز على التيارات التغريبية؛ توصف بأنها التيارات المتفتحة المتحررة والعاقلة. ولا تذكر التيارات الإسلامية والدعوة إلى عودة المرأة للحياة وفقاً لتصورات الشرع المجيد إلاَّ من خلال كتابات التيار المتغرب.

ب- **الفكر السياسي العربي المعاصر(مادة في جامعة جورجتاون)**: كان يدِّرسها عام ١٩٩٥م صادق جلال العظم، وهو يصرح بالإضافة إلى كتاباته بإلحاده وماركسيته؛ ففي هذه المادة (حضرت عدداً من المحاضرات) كان الفكر السياسي العربي المحتفى به هو الفكر السياسي البعثي لياسين الحافظ وغيره من التيارات المتغربة، ولم يحتفل الأستاذ بكبار العلماء المعاصرين من أمثال: الخطابي باديس، أو حسن البنا، أو غيرهما من العلماء والقياديين الإسلاميين.

وفي مجال الدراسة ما تزال كتب المستشرقين الأقدمين من أمثال: جولدزيهر، وشاخت، وتوماس أرنولد، وهاملتون جب، وشاخت، وكولسون، وغيرهم هي المرجع الأساس للطلاب؛ فقد كان كتاب توماس أرنولد المطبوع عام ١٩١١م يباع في مكتبة جامعة جورجتاون باعتباره؛ إما قراءة

إجبارية، أو اختيارية للطلاب. بل إن جامعة (برنستون) قامت بإعادة ترجمة كتاب جولدزيهر (دراسات إسلامية) ونشره عام ١٩٨٥م، مع تعليقات وهوامش للمستشرق المشهور برنارد لويس. وقد عقدت جامعة ليدن مؤتمراً حول الفقه الإسلامي باسم جوزيف شاخت عام ١٩٩٦م. ولو أراد الباحثون الغربيون أن يطّلعوا على الدراسات العلمية التي تصدر في العالم الإسلامي في صورة رسائل جامعية أو كتبٍ تصدر لما صعب عليهم الأمر؛ بل إنهم يعرفون عن الكتب قبل أن تخرج من المطابع[1]؛ فلماذا هذا التجاهل المتعمد لكثير من إنتاجنا الفكري؟ ولماذا تتركز الترجمة عندهم على كتابات محدودة من أمثال: كتابات نجيب محفوظ في الأدب، ومحمد سعيد العشماوي، وبسام الطيبي، وعزيز العظمة حينما يكتبون باللغات الأوروبية؟ بل إن الجامعات الغربية احتفت بإنتاج بعض الباحثين العرب والمسلمين الذين تطاولوا على الإسلام أكثر من أساتذتهم، بل ربما لم يجرؤ الأساتذة على مثل ذلك التطاول، ولا شك أن ثمة تشجيعاً من أساتذتهم على مثل هذا التطاول. والأمثلة كثيرة جداً، ويكفي أن أُذكِّر بكتب الدكتور محمد عبد الحي شعبان حول التاريخ الإسلامي الذي يتطاول على أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- وأنه لم يرسل جيوش الفتح الإسلامي إلاّ لإشغال العرب عن الفتن الداخلية، وتشجيع تطلعاتهم إلى الغنائم والمكاسب المادية.

---

(١) نشرت بحثاً ضمن كتابي (الاستشراق المعاصر في منظور الإسلام) عن بعض قضايا الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الغربية؛ تناولت فيها مثل هذه القضايا بتفصيل أوسع.

النشاطات الأكاديمية:

تكاد الأقسام العلمية في الجامعات الغربية لا تهدأ من كثرة النشاطات فيها، ولا يستطيع المرء أن يتابعها جميعها، ولكن حسبنا هنا أن نذكر تلك النشاطات التي يحدث فيها التطاول على الإسلام، وفيما يأتي بعض هذه النشاطات:

- **اللقاءات الأسبوعية:**

تعقد معظم أقسام دراسات الشرق الأوسط نشاطات أسبوعية؛ وهي عبارة عن محاضرة في وقت الغداء، لا تزيد مدة المحاضرة عن نصف ساعة ثم يتبعها نقاش. وفي شهر سبتمبر من عام ١٩٩٥م دُعي باحث تركي للحديث حول المشهد السياسي في تركيا، فكان مما ذكره في حديثه أن رئيسة الوزراء التركية (تانسو تشيللر) كانت تمارس الدكتاتورية على الرغم من أنها ابنة الغرب، ووصلت إلى الحكم عن طريق الانتخابات، ثم عرّج المتحدث على حزب (الرفاه)، وقال: «إن قبولهم للعبة السياسية إنما هو وسيلة للوصول إلى الحكم؛ وإلاّ فإن لهؤلاء أجندة سرية تتمثل في صوت واحد، لرجل واحد، مرة واحدة فقط». وسألته عن الدليل على هذا الاتهام لحزب (الرفاه) أم إن الحركات الإسلامية متهمة دائماً؟ وأن هذا ما فعله الغرب والعالم بالوقوف في وجه جبهة الإنقاذ الجزائرية من أن تصل إلى الحكم؛ فوجم طويلاً ثم بدأ يجيب. وفي نهاية اللقاء التقيت رئيس القسم الذي أكّد لي صحة ما قلت، وأن الغرب لا يمكنه الاعتراف بوصول الحركات الإسلامية إلى السلطة، مع أنه قَبِل بوصول الشيوعيين

والبعثيين والعلمانيين وغيرهم، أما الإسلاميون فلا يمكن القبول بهم مطلقاً. وهو عين موقفهم من حماس في الوقت الحاضر.

وفي أحد اللقاءات الأسبوعية تحدث (إلسي براون) مدير برامج دراسات الشرق الأوسط بجامعة برنستون أيضاً حول الأطماع الإمبراطورية لأمريكا، وكان هذا في عام ١٩٨٨م، قبل سنتين من غزو العراق للكويت، واستخدام هذا الأمر حجة من قبل الأمريكان لإنزال قواتهم في المنطقة بأعداد ضخمة، ثم ما تطور عن ذلك من احتلال العراق وأفغانستان وتهديد المنطقة باستمرار؛ مؤكدين بأن عهد الاستعمار قد عاد، وهم الذين اشتهر منهم الرئيس (ويلسون) صاحب برنامج إعطاء الحريات للشعوب. وها هي أمريكا في عهد المحافظين الجدد تعيد إلى الأذهان الاستعمار البريطاني في أوج قوته وعنفوانه. وكان الدكتور يتناول الأطماع الإمبراطورية وأنها مكلفة؛ فتقدمتْ طالبة لتناقشه، وأنه يتكلم عن العالم وكأنه فراغ لا حراك فيه ولا أمل أن تصعد قوة أخرى إلى جانب الولايات المتحدة.

- المؤتمرات والندوات:

من أبرز النشاطات العلمية للجامعات الغربية ومراكز البحوث عقد الندوات والمؤتمرات حول قضايا العالم الإسلامي، وتستقطب هذه المؤتمرات العديد من الباحثين في العالم الإسلامي. وقد وجدت أن كثيراً من هذه المؤتمرات إنما هو إعادة الأفكار الاستشراقية القديمة في الطعن في الإسلام وتشويهه ولكن بأساليب جديدة. ولعل من خطورة استمرار التشويه والتطاول على الإسلام أن كثيراً ممن يحضر هذه المؤتمرات هم من

طلاب الدراسات العليا في الجامعات الغربية الذين يتناولون الإسلام بكثير من الجهل والسذاجة؛ ولكنهم يزعمون لأنفسهم فهماً عميقاً، حتى إنهم يذكرونني بموجة الاهتمام بالحديث عندنا؛ حتى أصبح صغار الطلاب عندنا يزعمون لأنفهسم القدرة على انتقاد صحيحي البخاري ومسلم، وانتقاد كبار علماء الأمة؛ كالإمام أبي حنيفة رحمه الله. ويصدق عليهم المثل العربي: «تزببوا قبل أن يتحصرموا». وفيما يأتي نماذج من التشويه والتطاول على الإسلام في عدد من المؤتمرات والندوات:

أ- موضوع المرأة:

تسود المؤتمرات النظريات المتغربة أو الغربية في هذا الموضوع، كما هو حال الدعوة القديمة لتحرير المرأة (المزعوم)، وكذلك الترويج لمنظومات الأمم المتحدة في هذا الخصوص؛ ففي ورش العمل في المعهد الجامعي الأوروبي في فلورنسا لعام ٢٠٠٦م كان من بين الورش الحديث عن الجندر (وهذا مصطلح أفرزه الفكر الأوروبي المحارب للقيم ليبعد البشر عن التفكير بأن الله خلقنا من ذكر وأنثى؛ ليقولوا لنا: نحن جندر، وليس كما خلقنا الله سبحانه وتعالى)؛ ففي هذه الورشة كان الحديث عن السحاقيات العربيات (قدمته باحثة سورية). أما التشويه الحقيقي والتطاول كان في ورقة قدمها باحث وباحثة من المغرب حول المشروع الوطني لإدماج المرأة الغربية في التنمية، وهو مشروع لاقى معارضة كبيرة في المغرب على الرغم من قدرة الحكومة هناك على تمرير المشروع؛ فقد أثنى الباحثان على المدونة وأشادا بكل التطورات بشأن المرأة في المغرب،

وأن ما حققته المرأة من حقوق يستحق الثناء عليه، وما زالوا ينتظرون حقوقاً أخرى تصل إلى درجة مساواة المرأة والرجل في الميراث، وإلغاء مسألة قوامة الرجل على المرأة؛ ففي نظرهما أنه لا يليق في القرن الواحد والعشرين -بزعمهما- أن تستمر مثل هذه الأفكار(١).

وفي موضوع المرأة والأسرة كانت ثمة ندوة أخرى تناولت قضايا مختلفة عن الأسرة؛ فوجدت أن الباحثات في هذه القضايا لا يعرفْنَ ما جاء به الإسلام من تشريعات بخصوص الأسرة والعلاقة بين أفرادها وغير ذلك من القيم والتشريعات. حتى إنني تعجبت من الاستماع لبحوث مدة ثمانية أيام لم تذكر فيها آية واحدة أو حديث واحد! وقد ذكرت ذلك لبعض الباحثات فتعجبن من تعجبي!

وما تزال قضية الحجاب من الموضوعات التي تثار في المؤتمرات، وقد قدمتْ باحثة بحثاً عن احتجاب بعض المذيعات في القنوات الفضائية ببحث ضافٍ عما جاء عن الحجاب، ولكن مصادرها نوال السعداوي والمرنيسي وغيرهما، وأطالت الحديث فيما ينبغي أن يُغطّى من المرأة وما يمكن أن يُكشف؛ فتعجبتُ من كل ذلك التنطع دون النظر إلى أن مسألة الحجاب ليست قطعة قماش توضع على الرأس؛ وإنما هي مسألة

(١) بعد انتهاء تلك الجلسة تقدمت إلى رئيستها بكتيب صادر عن حزب العدالة والتنمية بعنوان: (موقفنا من خطة إدماج المرأة المغربية في التنمية)، فتساءلت باستغراب: هل أنت تروج لهذا الموقف؟ قلت: أنا لست مروجاً؛ وإنما في مؤتمر يزعم أنه علمي وموضوعي كان يتطلب عرض وجهة النظر الأخرى. فكأنه لا يوجد أي معارضة لهذه الخطة.

إيمان وعفة وحشمة ووقار، وأشرتُ إليها أن تنظر في ملابس طالبات الجامعة التي كنّا نحضر فيها المؤتمر: فأيهما أفضل الحجاب أو العري الظاهر في تلك الجامعة؟

ب - الإسلام والسياسة:

لطالما ابتدعت دوائر الاستشراق القديم والمعاصر الحديث عن الانفصال بين الإسلام والسياسة. ولا يغيب عنّا أن دوائر الاستشراق كانت تدعم ما جاء به علي عبد الرازق قبل أكثر من سبعين سنة، حتى إن بعض كبار المتغربين (العلمانيين، أو الليبراليين) يعد كتاب عبد الرازق من ضمن أبرز المنجزات الفكرية في القرن العشرين. وفي مؤتمر عقد في صيف العام الماضي (يوليو ٢٠٠٦م) في مدينة برمنجهام في بريطانيا تقدم باحث شاب ليتحدث عن تساؤل طرحه وهو: هل يمكن أن يكون الإسلام مفسراً للأوضاع السياسة؟ زاعماً أن الإسلام ليس إسلاماً واحداً؛ فهناك الإسلام السلفي، والإسلام التقليدي، والإسلام المتطرف، وإسلام القرون الأولى، وإسلام القرن الواحد والعشرين، كما أن ثمة خلافات بين الإسلام في البلاد العربية والإسلام في جنوب شرق آسيا على سبيل المثال. ولذلك فقد أكد الباحث استحالة استخدام الإسلام مفسراً للشأن السياسي. ولكن غاب عن الباحث أن القرآن الكريم قد أوضح خطورة الاستبداد والدكتاتورية في مثال فرعون الذي ورد في القرآن الكريم أكثر من ستين مرة معظمها في سياقات سياسية. كما أن القرآن أبرز

جمال الحكم بالعدل كما في أمره -سبحانه وتعالى- لداود عليه السلام. وهل أبلغ من قيام الدولة الإسلامية في المدينة المنورة ووجود جميع مرافق الدولة في دولة الرسول ﷺ من: إدارة، وسياسة، واقتصاد، وعلاقات خارجية وعلاقات عامة؟ ولله در الشيخ عبد الحي الكتَّابي! حيث ألّف كتاباً بعنوان (التراتيب الإدارية أو الحكومة النبوية).

والاهتمام بالسياسة والإسلام ذلك الحديث الذي لا ينتهي عن الحركات الإسلامية وربطها بالإرهاب والتطرف، وقد ذكرت مثالاً واحداً عن الباحث التركي واتهامه لحزب (الرفاه) في تركيا، ولكن من الصعب إحصاء هذه الاتهامات منذ ظهور حركة (الإخوان المسلمون) في مصر عام ١٩٢٨م وحتى اليوم؛ فقد صدرت مجلدات ومجلدات في هذا الموضوع، ولكني أشير إلى مؤتمر عقد في (ليدن) بهولندا عام ١٤١٦هـ (١٩٩٦م)؛ حيث تقدم باحثان مصريان للحديث عن موقف الحركات الإسلامية من الديمقراطية، متهمين هذه الحركات بالرجعية والتخلف، ومحاولة إعادة الأمة إلى القرون الوسطى المظلمة (لم يعلموا أن تلك القرون كانت القرون الذهبية للأمة الإسلامية)[1]، ومثل هذا الاتهام قال به باحث أمريكي من أصل أرمني (من مواليد لبنان) في لقاء له مع عدد من الباحثين في القنصلية الأمريكية بجدة، ونشره في العديد من بحوثه.

---

(١) الباحثان هما: هالة مصطفى ونبيل عبد الفتاح؛ في المؤتمر العالمي الأول حول الإسلام والقرن الواحد والعشرين الذي عقد في جامعة ليدن بالتعاون بين وزارة الشؤون الدينية الإندونيسية وجامعة ليدن في صيف عام ١٤١٦هـ(١٩٩٦م).

وثمة كثير من القضايا التي يتناولها الباحثون المستشرقون المعاصرون تستمر في التطاول على الإسلام، وإنما كان ما قدمت في الصفحات الماضية نماذج منها.

الخاتمة والتوصيات

يحلو لكثير من الباحثين العرب والمسلمين والغربيين أن يعلن بين الحين والآخر زعماً: أن الاستشراق قد مات، دون تكليف أنفسهم الدخول إلى أعماق ما يدور في أوساط دراسات الشرق الأوسط في العصر الحاضر من خلال الاطّلاع على ما يقدم من بحوث، وما يعقد من ندوات ومؤتمرات، وما يتم من برامج وتخطيط. والحقيقة؛ وإن كان الاستشراق قد مات في معنى من معانيه؛ إن ما يدور في العالم الغربي من اهتمام بنا إنما هو استمرار لبعض أهداف الاستشراق القديمة مع اختلاف في الوسائل والمناهج. ولكن ما يجب أن ندركه أن المشهد في هذه الدراسات ليس قاتماً تماماً؛ فثمة جهود حقيقية لدى بعض الباحثين الغربيين لعرض الإسلام عرضاً جيداً، بل إن بعض هؤلاء قد يكونون مسلمين ولكنهم يخفون إسلامهم خوفاً من المضايقات والإقصاء.

وأول استنتاج أجده يستحق الإشارة إليه والإشادة به هو الدعم الوافر والغزير لدراسات الشرق الأوسط. ولا يخفى علينا أهداف الحكومات الغربية من هذه المعرفة؛ ولكن ألا يمكن أن يكون هذا الأمر مشجعاً لنا في العالم العربي الإسلامي من أجل أن نعطي البحث العلمي بعض الأهمية؟ فليس التقدم مرتبطاً فقط بالطب والهندسة والتقنية، ولكن العلوم الاجتماعية أيضاً تستحق أن ينفق عليها كما ينفق في المجالات الأخرى.

أما مسألة التطاول على الإسلام والمسلمين في الاستشراق المعاصر فيعود الأمر فيها جزئياً إلى مسؤولية الباحثين العرب والمسلمين المنتمين

حقاً إلى أمتهم وقيمها ومبادئها من الحضور في هذه المؤتمرات. أما بعض المراكز العربية والإسلامية أو كراسي الدراسات العربية المموَّلة من العالم الإسلامي؛ فليس لدينا معايير قوية في أن تكون هذه الأموال والتمويلات لدعم قضايانا وإبراز الصورة الحقيقية عن ديننا وقيمنا وثوابتنا، ولكن للأسف بعض هذه الأموال تنفق على مؤسسات ضالعة في التشويه والتطاول على الإسلام والمسلمين، **وفيما يأتي بعض التوصيات:**

١ - الشروع في إنشاء أقسام ومراكز بحوث للدراسات الأوروبية والأمريكية.

٢-على الحكومات العربية والإسلامية تقديم الدعم الحقيقي للبحث العلمي، ودعم الباحثين المسلمين المعتزين بإسلامهم للمشاركة في المؤتمرات الدولية.

٣-إعادة النظر في تمويل كراسي الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الغربية لخدمة أهداف الأمة؛ وليس من أجل الدعاية الشخصية.

٤- أن نشرع نحن في عقد مؤتمرات في بلادنا تتناول مشكلاتنا، ونتصارح حول أوضاعنا.

٥- أن ننتقل إلى عقد مؤتمرات وندوات ومحاضرات تتناول القضايا الفكرية والثقافية التي تواجهها المجتمعات الغربية، وندعو باحثيهم لتقديم بحوثهم عندنا. فمتى يكون ذلك.. متى؟!

الفصل الخامس:

دور أهل الأهواء في التطاول

رد التطاول على الصحابة الكرام رضي الله عنهم

د.عبد الستار فتح اللّه سعيد

تطاول المنافقين على الثوابت

د. سعيد بن ناصر الغامدي

رد التطاول

على الصحابة الكرام رضي الله عنهم

د. عبد الستار فتح الله سعيد

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعتي الأزهر وأم القرى (سابقاً)

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، واتبع هداه إلى يوم الدين، أما بعد:

فقد شرّفنا الله -تعالى- بدينه الإسلام، وجعله خاتمة رسالاته للناس، وحمله رسول الله ﷺ هو وأصحابه الغر الميامين، عبر تضحيات جسام وجهاد موصول مبرور.

وقد قام في وجوههم طواغيت الجاهلية طويلاً، ورموهم بكل نقيصة، ولكن الله -تعالى- أتم نوره، وأظهر دينه، واستخلف عباده المؤمنين في الأرض؛ فكانوا رحمة للعالمين، وأخرجوا الناس من عبادة العبيد إلى عبادة الله وحده، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، وصدق الله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ثم أدركت المسلمين غمرة من دنياهم؛ فعاد الضالون للتطاول على الإسلام، وإلى الطعن في الدين وأهله، وفي نبيه العظيم ﷺ، والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، ومن تبعهم بإحسان، رضي الله عنهم أجمعين.

وهذا بحث موجز نتناول فيه هذه الظاهرة، والذين تولوا كبرها من خارج المسلمين عامة، ومن داخلهم خاصة. وقد ركزت على ظاهرة: (التطاول من الداخل)؛ لأنها أخطر أثراً، وأفحش ضرراً، والقصد الأول هو إبراز الأسباب، وبيان آثارها المدمرة على الدين والدنيا، والفرد والمجتمع،

توصلاً إلى ما نرجوه من إصلاح الأمور، وتبصير أهل الغرور، وعودة الشاردين إلى صراط الله المستقيم.

وقد قسمت البحث إلى: مقدمة، وتمهيد، وثلاثة فصول، وخاتمة، توخيت فيها الإيجاز قدر المستطاع، وأردت منها التنبيه إلى الحق لا التنديد والسب، رجاء أن يفيء العقلاء إلى دين الله وما نزل من الحق.

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه الفقير إلى عفو الله

د. عبد الستار فتح الله سعيد

تمهيد

خصائص الرسل عليهم السلام

اصطفى الله -تعالى- من الناس رسله الأكرمين، وزودهم بكل الخصائص والصفات التي تعينهم على الدعوة والبلاغ، ليقيموا في الأرض دينه الحق، ولتقوم بهم حجة الله على الخلق، وليقوم الناس بالقسط، كما قال -تعالى-: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

وهذه الخصائص نوعان:

الأول: (**الخصائص المشتركة**) بين الرسل جميعاً عليهم السلام، مثل: الإيمان بالله واليوم الآخر، والصدق والأمانة، والتبليغ والفطانة والإبانة، وشرف الأنساب، وسلامة الحواس، ونحو ذلك مما يحتاجونه لرسالتهم: دعوة، وبلاغاً، وتطبيقاً، وجهاداً.

الثاني: (**الخصائص الذاتية**)، التي ميّز الله -تعالى- بها كل رسول على حدة لتناسب زمنه وقومه والمرحلة التي بعث فيها، مثل:

(أ) تناسب اللغات، قال -تعالى-: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

(ب) **تفاوت الأعمار ومدّة البلاغ**: فنوح - عليه السلام - كان أول رسول يبعث للناس خارج ذريته، لذلك زوده الله -تعالى- بطول العمر وامتداد الدعوة، وسعة الإمهال الإلهي للمكذبين من قومه عبر أجيال كثيرة، قال -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤].

(ج) **تعادل الأوصاف**: إذ تختلف الأمم شدة وليناً، وبداوة وحضارة، وقبائل ودولاً... إلخ؛ فكان كل رسول يبعث وفيه من الأوصاف الخاصة ما يعادل أحوال قومه؛ كموسى - عليه السلام - الذي زوده الله بصفات القوة والحزم، والشدة في الحق، ليناسب دولة الفراعنة؛ ذات البأس الشديد، والسلطان الطاغي، والقوة العارمة الباطشة، قال -تعالى-: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣].

خصوصيات الرسول الخاتم ﷺ:

ولما بعث الله -تعالى- رسوله محمداً ﷺ اختصه بعموم الرسالة وختم النبوة، لذلك زوده بكل الخصائص والصفات اللازمة لذلك، وجمع له ما تفرق في إخوانه المرسلين - عليهم السلام - ليبْلُغ برسالته ما بلغ الليل والنهار، كما قال -تعالى-: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

وهذا إجمال يحتاج إلى بيان فيما يلي:

الفصل الأول: الرسالة الخاتمة وحملتها

اقتضت حكمة الله -تعالى- أن تكون رسالة محمد ﷺ هي خاتمة الرسالات الإلهية لعباده، وحجة الله على الناس ما دام الرسول ﷺ فيهم؛ فكيف تقوم عليهم الحجة بهذه الرسالة بعد وفاته ﷺ؟

قال -تعالى-: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٠] وختام الآية الكريمة هو مفتاح الجواب على هذا السؤال.

لأن الله -تعالى- الذي أحاط بكل شيء علماً زوّد هذه الرسالة بكل عوامل الحفظ والبقاء والنماء والامتداد والخلود، بما أودع فيها من جوانب الامتياز والإعجاز الذي يضمن لها التفوق والتفرد على كل المذاهب والأديان والأفكار التي ستقابل هذه الرسالة المباركة في رحلتها الممتدة مع الحياة إلى آخر الدنيا؛ طولاً مع آماد الزمن، وعرضاً مع سائر الأمم، وعمقاً مع شتى النظم والثقافات والحضارات. وصدق الله في وعده الكريم: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾ [النور: ٥٥].

أركان الرسالة الخاتمة

لذلك هيّأ الله -تعالى- كل الأسباب لتحقيق هذا الوعد الكريم، خاصة الأركان الأربعة التالية:

الأول: الرسول الخاتم ﷺ:

بما فطره الله عليه من صدق وأمانة، وأخلاق عظيمة، وعبودية تامة لله رب العالمين، وجهاد صادق في سبيله، وإخلاص في الدعوة والبلاغ، لذلك كان آية عظمى في الأرض في حياته، ثم بعد مماته متمثلاً في سنته الشريفة.

الثاني: القرآن الكريم:

وهو كتاب الله المعجز بلفظه ونظمه، والمنزل على رسول الله ﷺ ليكون هداه وسبيله، ومعجزته ودليله، والمنقول إلينا بالتواتر عبر أصحابه - رضي الله عنهم - والتابعين لهم بإحسان.

الثالث: الدين الكامل الشامل:

الذي شرعه الله لعباده على علم وحكمة، وقال فيه: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ﴾ [المائدة: ٣].

الرابع: الأمة المستخلفة:

وهي الجماعة البشرية المخاطَبة بهذا الدين، والمكلَّفة به تطبيقاً وبلاغاً ودعوة للناس في كل العصور إلى يوم الدين. وهي بدورها تتألف من طبقات تتوالى عبر الزمان:

فالطبقة الأولى: هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، وغيرهم ممن صحب النبي ﷺ حتى اكتمل القرن الأول وهو خير القرون.

والطبقة الثانية: هم التابعون لهم بإحسان ممن جاؤوا بعدهم، حتى اكتمل القرن الثاني، وهو في الفضل يلي القرن الأول.

والطبقة الثالثة: الذين جاؤوا من بعدهم.

وفيهم يقول ﷺ: «خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم...»[1].

ويقول -عز وجل-: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وهؤلاء هم الذين مكّنوا للإسلام في أرض الله، وحملوه إلى الناس في كل مكان استطاعوا الوصول إليه، حتى ذاع وشاع، واستقر استقرار الأبد بإذن الله.

الطبقة الرابعة: أمة الإجابة جيلاً بعد جيل، ويتفاضلون بالتقوى والعمل الصالح، وهم مثل صدر الأمة مكلفون بالتطبيق والبلاغ.

ضرورة الأمة المستخلفة في الأرض:

وهكذا يتبين أن الأمة الإسلامية بداية وامتداداً هي ضرورة أساسية لدين الله عز وجل، وليست مجرد أمة عابرة في التاريخ، لتؤدي مهمة

(١) رواه البخاري ومسلم من حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما.

محدودة ثم تسقط كأوراق الخريف الذابلة كما سقطت قبلها أمم وشعوب وحضارات ودول!

ولكن الصحيح أنها امتداد موصول حتى يرث الله الأرض ومن عليها؛ لأن الله -تعالى- أخرجها إخراجاً واستخلفها لأمر خطير؛ هو أن تكون امتداداً أميناً لصوت النبوة الخاتمة بعد وفاة الرسول الخاتم ﷺ كما كانت في حياته، ولتحمل للناس رسالات الله الشاملة الكاملة، ولتقوم الحجة بها على الناس بعد ختم النبوات، ولذلك كرّمها الله -تعالى- وشرّفها وكلّفها وناط بأعناقها مهمة الدعوة والبلاغ، والجهاد الموصول إلى آخر الدهر، حتى يقاتل آخرها الدجال وأتباعه، كما قاتل أولها المشركين وأهل الأوثان.

الفصل الثاني: الصحابة خير الأمة المستخلفة

الصحابي بالمعنى العام: «كل مسلم رأى النبي ﷺ ولو لحظة، ومات على الإسلام». وهذا مذهب المحدثين عامة، وكثير من العلماء[١].

والصحابي بالمعنى الخاص: من طالت صحبته للنبي ﷺ، واختص به اختصاص الصاحب بالمصحوب.

ومن العلماء من يشترط لذلك شروطاً مثل: طول المجالسة للنبي ﷺ، أو أن يكون قد روى عنه وحفظت روايته، أو غزا معه، أو استشهد بين يديه ﷺ[٢].

بل كان سعيد بن المسيب - إمام التابعين- لا يعد الصحابي إلا من أقام مع النبي ﷺ سنة أو سنتين، وغزا معه غزوة أو غزوتين[٣].

ويجمع بين القولين: بأن القول الأول هو لبيان أصل الصحبة، والقول الثاني هو لبيان درجة الصحبة.

ولا شك أن الصحابة - رضوان الله عليهم - لهم شرف الصحبة وفضلها بالرؤية والإسلام، ولكنهم يتفاوتون في درجاتها تفاوتاً كبيراً جداً، بين السابقين الأولين إلى الإسلام؛ كأبي بكر، وخديجة، وعلي، وزيد بن حارثة، ثم من هاجر الهجرتين، ثم من شهد بدراً من المهاجرين

---

(١) شرح صحيح مسلم للإمام النووي، ج ١، ص٤١.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر، ص٢٩٦.

(٣) مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث مع شرحها، ص٢٩٧.

والأنصار، ثم من أنفق قبل فتح مكة وجاهد، على تفصيل واسع النطاق في بيان طبقات الصحابة رضي الله عنهم. قال -تعالى-: ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُواْ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الحديد: ١٠].

للصحابة الصدارة وفضل السبق:

ومن ذلك يتبين فضل الصحابة - رضي الله عنهم - على غيرهم من طبقات الأمة التي جاءت بعدهم، وأنهم رأس الأمة جميعاً وعمادها وأساسها؛ فقد سبقوا إلى الإسلام ابتداءً، وأخذوا من النبي ﷺ، وجاهدوا في الله جهاداً طويلاً، وحملوا علوم الإسلام والقرآن ونقلوها لمن بعدهم في صدق وأمانة.

يقول الشيخ محمد الغزالي -رحمه الله-: «إن أعداداً كبيرة من أصحاب محمد ﷺ ذهبوا شهداء في معارك الجهاد ضد الوثنيين والكتابيين».

والدارس المحايد يرى آثار النبوة في شمائل أولئك الرجال الشجعان.. لقد أُشربوا منه حب الله – تعالى - وطلب رضاه، والتمهيد للقائه، والشوق إلى جنته؛ فأقدرتهم هذه العواطف الجياشة على تهديم أسوار الباطل وكانت عالية، وتلاشت إمبراطوريات استعصت على الفناء قروناً متطاولة.

وتميز أصحاب محمد ﷺ بـ (أمرين) لم يُعرفا في تاريخ النبوّات الأولى: لقد نقلوا الوحي السماوي كله فما سقط منه حرف، ونقلوا السنة

النبوية كذلك، وربّوا من الأتباع من عمل عملهم؛ فإذا الإسلام يبقى في أصوله النظرية مصوناً من كل شائبة.

وظل هذا التواتر للقرآن كلمة كلمة، وللسنة في الجملة؛ فتوفرت للرسالة الخاتمة عناصر الخلود، وظلت، وسوف تظل، كلمة الله الأخيرة للخلائق أجمعين حتى انتهاء الدنيا.

أما الأمر الآخر فإن الصحابة -رضي الله عنهم- هم الذين جعلوا عالمية الرسالة حقيقة واقعة؛ فإن النبي -عليه الصلاة والسلام- لحق بالرفيق الأعلى ودينه لم يتجاوز حدود جزيرة العرب، وقد علم الأصحاب الكرام أنه مبعوث للعالم كله، فشرعوا ينساحون في الأرض مبشرين ومنذرين.

ولم يكن الطريق سهلاً؛ فإن رعاع العرب داخل الجزيرة العربية حاولوا إعادة الليل المدبر وإحياء الجاهلية المسحوقة، كما أن مجوس فارس وصليبيي الرومان اعترضوا بالعنف مسار الدعوة.

غير أن الجيل الذي رباه محمد ﷺ كان صلب المعدن، شديد البأس، جمع بين الصرامة والكرامة، ولم يضرع أمام قوى الباطل، إنه نازلها كلها حتى كسر شوكتها وأسقط دولتها. إن تربية محمد ﷺ لهذا الجيل معجزته الكبرى بعد القرآن الكريم..»[1].

(١) علل وأدوية للشيخ محمد الغزالي، ص١٢٧ - ١٢٨، دار الدعوة بالإسكندرية بتاريخ ذي الحجة ١٤١١ هـ، ١٩٩١م.

شهادة الله ـ تعالى ـ للصحابة:

لقد استفاضت شهادة الله -تعالى- في كتابه الكريم، المحفوظ المتواتر، لهؤلاء الصحابة الكرام بالخيروالتزكية والمدح، والحكم لهم بما لا يعلمه إلا هو من الإخلاص والعدالة، ولذلك أَمَرَ أمراً صريحاً بمحبتهم وإكرامهم، ونهى نهياً جازماً عن إهانتهم وسبهم، أو الطعن فيهم وانتقاصهم. ومن ذلك على سبيل الإيجاز:

أولاً: امتنان الله -تعالى- على الأمة جميعاً بصنعه لها، وإخراجه إياها، واختياره لأفرادها على أرقى ضروب الكمال البشري والخير الإنساني، قال -تعالى-:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. ومعنى (وسطاً) أي: خياراً عدولاً.

- وقال -تعالى-: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. وهذا خبر صريح بأن هذه الأمة خير الأمم؛ وكفى بالله شهيداً.

- وقال -تعالى-: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]. والاجتباء: هو الاختيار والاصطفاء من الله -تعالى- لهذه الأمة بمحض فضله، وقبل أن تعمل

عملاً ما تستحق عليه هذه النعمة، وقد فعلت بعد ذلك الكثير الطيب من البذل والجهاد.

ويلاحظ في الآيات الكريمة:

١- إسناد الفعل فيها جميعاً إلى الله تعالى أعني: (جعل، وأخرج، واجتبى)، وهذا غاية التشريف والتكريم للأمة، وهو أتم شهادة لها من الله الذي ساق الكلام مساق الامتنان بنعمه العظمى، فضلاً عمّا في الآيات من ذكر الوسطية والخيرية والاجتباء؛ وكلها ألفاظ مدح.

٢- جعل الله -تعالى- هذا التشريف مدخلاً للتكليف؛ بالشهادة على الناس في الآية الأولى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الآية الثانية، والجهاد في سبيل الله في الثالثة؛ وقد قام الصحابة بذلك.

٣- الآيات الثلاث تزكية للأمة المستخلفة جميعاً، ويدخل فيها (الصحابة) دخولاً أولياً؛ لأنهم أوْلى الأجيال والطبقات بهذا الفضل. أو هي خطاب مباشر للصحابة ابتداء، ويدخل في الخطاب الذين اتّبعوهم بإحسان إلى يوم الدين؛ لاشتراكهم -حينئذٍ- في العمل والجهاد، والمماثلة في العبودية والانقياد.

ثانياً: اختصاص الصحابة -رضي الله عنهم- بنصوص قرآنية مباشرة في مناسبات شتى، وبأساليب متنوعة: مدحاً، وتزكية، وتفضيلاً، ومن ذلك:

١- قال -تعالى-: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤].

والآية الكريمة تسجيل لأنبل أعمالهم من: الإيمان، والهجرة، والجهاد في سبيل الله، وإيواء المؤمنين ونصرة الرسول ﷺ، ثم هي حكم صريح لهم من الله -تعالى- بصدق إيمانهم وحقيقته المطلقة، ثم هي وعد رباني جليل لهم بالمغفرة والرزق الكريم. والآية الكريمة نزلت في أوائل العهد المدني بعد غزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة.

٢- قال -تعالى-: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٨ - ٩]. والآيات الكريمة في سورة الحشر نزلت عقب غزوة بني النضير في السنة الثالثة من الهجرة، وهي تزكية عاطرة، وثناء إلهي جليل على المهاجرين والأنصار، وحكم لهم بالصدق، والمحبة، والإيثار، والسخاء في سبيل الله تعالى.

٣- قال -تعالى-: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]. وهذه شهادة ربانية في شأن أهل بيعة الرضوان، حين بايعوا رسول الله ﷺ على الموت في سبيل الله -تعالى- عام الحديبية (في السنة السادسة من الهجرة).

وفي الآية الكريمة لفتة إلهية جليلة بأنْ حكم على بواطنهم بالخير والإيمان، لذلك أنزل السكينة عليهم ووعدهم بفتح قريب. وقد حدث ذلك يقيناً في (خيبر) بعدها بأشهر معدودة، ثم فَتْحِ مكة الذي هدم الله به قواعد الجاهلية كلها (في رمضان من السنة الثامنة للهجرة).

٤- قال -تعالى-: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]. وهذه الآية الكريمة من آخر ما نزل من القرآن الكريم بعد غزوة تبوك في السنة التاسعة من الهجرة، وهي شهادة ربانية للمهاجرين والأنصار بالسبق والفضل، وللذين لحقوا بهم فأسلموا وأحسنوا وإن لم تطل صحبتهم للنبي ﷺ، كالذين حجوا معه ﷺ في السنة العاشرة من الهجرة، وقد عمهم الله -تعالى- بخيري الدنيا والآخرة حين صرّح برضوانه عليهم، وإعداده الجنات لهم، وهذا أعظم الفوز والفلاح.

ويلاحظ أن الآيات الكريمة تغطّي العهدين المكي والمدني جميعاً؛ فهي شهادة للمهاجرين الذين صبروا قبل الهجرة صبراً جميلاً طويلاً، وشهادة لهم وللأنصار الذين جاهدوا في الله حق جهاده في حرب مشبوبة موصولة من (بدر إلى تبوك) وما بينهما في جهاد المشركين واليهود.

والآيات في هذا الباب كثيرة جداً مستفيضة، وهي كلام رب العزة العليم الخبير، وكفى بالله شهيداً، وكفى بحكمه الجليل على ظواهرهم

وبواطنهم، وإثبات رضوانه عليهم في الآيات كلها، ومغفرته لهم، ووعدهم بالأجر العظيم والثواب الجزيل في جنات النعيم.

شهادة النبي ﷺ للصحابة الكرام:

ومن هنا نعلم سر الأحاديث الكثيرة الواردة في هذا الباب، تطبيقاً لما فهمه ﷺ من القرآن ومن شهادة الرحمن، ثم بلاغاً لما كان يأتيه من الوحي الإلهي بكرة وعشياً خاصاً بهم، وبياناً لفضلهم، وتحذيراً من سبّهم، ومن ذلك:

١- قوله ﷺ في الحديث المتواتر: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم..**»[١].

٢- وقوله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي! فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أُحُدٍ ذهباً ما أدرك مُدّ أحدهم ولا نصيفَه»[٢]. وهذا غاية في تقرير فضل الصحابة -رضي الله عنهم- وتقدير منزلتهم، وسبقهم سبقاً عظيماً على غيرهم، حتى ليسبق مدُّ أحدهم إنفاقَ ذهب مثل أُحد وهذا

---

(١) الحديث رواه البخاري ومسلم وغيرهما، وقد حكم له بالتواتر عدد من العلماء كابن تيمية في رسالة (الفرقان)، وابن حجر في الإصابة ج١، ص٢١، والسيوطي في كتابه: الأزهار المتناثرة، ص٧٢ حديث رقم ١٠٦، وأورده عن ثلاثة عشر صحابياً (انظر تفصيلاً: كتاب: ملامح النفاق والمنافقين كما بينتها سنة خاتم المرسلين، ص١٤٠ هامش رقم ٣).

(٢) رواه البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخُدْري مرفوعاً. والمُدُّ: مكيال صغير يبلغ نحو رطل وثلث عند أهل الحجاز، وهو ٢/١ صاع، والنصيف: مكيال أقل من ذلك، أو نصف المدّ.

ما لا يملكه أحد، ولا يستطيعه مخلوق فيما نعلم.

ولذلك قال الخطيب البغدادي – رحمه الله -: «... والأخبار في هذا تتسع، وكلها مطابقة لما ورد في نص القرآن، وجميع ذلك يقتضي طهارة الصحابة، والقطع على تعديلهم ونزاهتهم؛ فلا يحتاج أحد منهم مع تعديل الله -تعالى- لهم، المطلع على بواطنهم، إلى تعديل أحد من الخلق له»(١).

دلالة هذا الموقف الشرعي الحاسم:

تقرر من هذا أن الله -تعالى- في كتابه، وبما أوحاه إلى رسوله ﷺ، قد حسم هذا الأمر حسماً صارماً، حتى صار حكماً شرعياً معلوماً من الدين بالضرورة، يجب الوقوف عنده، ويحرم مخالفته، ويفسق من خالفه، ويكفر من أنكره. وسر ذلك -والله أعلم- ما يأتي:

١- إحقاق الحق في ذاته، وإعطاء كل ذي حق ما يستحقه، وصيانته عن الباطل الذي يضاد حقه أو يناقص منزلته.

وهذا مطَّرد في أحكام الشريعة الربانية العادلة، كما قال -تعالى-: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦].

وحرم الله -تعالى- كل ما يؤذي من السخرية، والهمز، واللمز، والتنابز بالألقاب، وسماه فسوقاً وظلماً، وحرم سوء الظن والتجسس والغيبة... إلخ. قال -تعالى-: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ

(١) الكفاية للخطيب البغدادي ص٤٨، نقلاً عن الكتاب السابق.

وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ [الحجرات: ١١ - ١٢].

وقال رسول الله ﷺ: «**كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضه**»(١).

وهذه نصوص عامة تشمل أئمة المسلمين وعامتهم. وأَوْلَى الناس عند التعامل بها هم أصحاب رسول الله ﷺ، الذين يدخلون في الأمر والنهي دخولاً أولياً، فضلاً عن النصوص الواردة فيهم بأعيانهم خاصة؛ فوجب التزام الحكم الشرعي من جانبي العموم والخصوص، وهذا غاية التأكيد.

ورحم الله الخطيب البغدادي الذي أورد هنا كلاماً غاية في التوفيق والذكاء فقال: «لو لم يَرِدْ من الله -تعالى- ورسوله ﷺ شيء مما ذكرناه، لأوجبت الحالُ التي كانوا عليها - من الهجرة، والجهاد، ونصرة الإسلام، وبذل المهج والأرواح، وقتل الآباء والأبناء، والمناصحة في الدين، وقوة الإيمان اليقين - القطعَ على تعديلهم، والاعتقاد لنزاهتهم، وأنهم أفضل من جميع المعدَّلين والمزكَّين الذين يجيئون من بعدهم، أبد الآبدين، وهذا مذهب كافة العلماء..»(٢).

---

(١) رواه مسلم (برقم ٢٥٦٤)، وأخرجه البخاري بنحوه (٥١٤٤).

(٢) الكفاية، ص٤٩ (نقلاً عن كتاب: ملامح النفاق، المرجع السابق، ص١٤٢).

٢- إنصاف الصحابة لأنهم حملة القرآن والدين، ونقلة الشريعة والأحكام، والطريق المتفرد للأداء والبلاغ عن النبي ﷺ، ومن ثم فهم طريق حفظها واستمرارها، وإلا انقطعت سلسلة البلاغ والاستمرار في أخطر حلقاتها.

ولذلك فتزكيتهم وتعديلهم هو ضرورة لازمة لحفظ الدين كله، وفريضة جازمة لتحقيق الوعد الإلهي بحفظ القرآن والدين، وهو وعد الحق الذي قامت عليه أدلة التواتر التاريخي، والواقع العملي، واليقين البدهي القطعي عن طريق نقل الكافة عن الكافة، وهو أقوى وأثبت من التواتر المحدود بعدد ما في أسانيد الرواة.

وهذا السبب كان هو أقوى الأمور جميعاً لما جاء به الوحي الإلهي من وجوب تعديل الصحابة، وتحريم سبّهم والطعن فيهم تحريماً قاطعاً، وإلا وقع الشك في الدين، وانتقضت العروة الوثقى التي وثقه الله -عزَّ وجلَّ- بها.

وفي ذلك يقول الإمام أبو زرعة الرازي:

«إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق، وذلك أن الرسول عندنا حق، والقرآن حق، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحابُ رسول الله ﷺ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى، وهم زنادقة...»(١).

---

(١) كتاب ملامح النفاق والمنافقين، المرجع السابق، ص١٤٤ نقلاً عن الكفاية للخطيب البغدادي، ص٤٩.

الفصل الثالث: الطاعنون في الصحابة رضي الله عنهم

تبين مما سبق أن أهل الضلالة قد ركزوا مطاعنهم على الصحابة؛ توسلاً بذلك إلى هدم الدين، وإبطال حقائقه وشرائعه، ولا يزال ذلك دأبهم قديماً وحديثاً، على ما نبيّنه في إيجاز:

أولاً: المنافقون القدامى:

وهم أقوام من الأعراب ومن أهل المدينة قد أبطنوا الكفر، وأظهروا الإسلام خداعاً وكذباً، وقد فضحهم الله -تعالى- في كتابه الكريم، وعلى لسان رسوله الأمين ﷺ، بما أضمروه من العداوة لله ولكتابه ولرسوله وللمؤمنين، وبما فعلوه من الفتن والدسائس، والتخذيل عن الجهاد. وكان موقفهم من المؤمنين والمؤمنات بالغ السوء والعداوة، ومن ذلك:

١- رميهم أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- بالزنى، وإشاعة حديث الإفك؛ بغضاً في النبي ﷺ، وحقداً على الإسلام وعلى بيت النبوة وبيت الصديق أبي بكر؛ لما يعلمونه من صدق إسلامه. وقد كذّبهم الله -تعالى- في كتابه تكذيباً صريحاً واضحاً؛ فقال -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١] والذي تولى كبره منهم هو شيخ المنافقين عبدالله بن أبي بن سلول.

٢- سخريتهم من المؤمنين، وهمزهم ولمزهم، خاصة أهل الصلاح الظاهر من الصحابة وأهل التقوى منهم؛ كالأنصار عامة، أو بعض

أعيان المؤمنين؛ كعلي بن أبي طالب -رضي الله عنهم- جميعاً؛ أو كالقراء الذين يحرصون على أخذ القرآن وغير ذلك مما جاء في التفاسير، وكتب السيرة والسنن. ومن ذلك ما رُوي عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال[1]:

قال رجل في غزوة تبوك في مجلس: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسنة، ولا أجبن عند اللقاء... فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، ونزل القرآن، (يعني بقوله -تعالى-): ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٥ - ٦٦]. أي أن الله -تعالى- عدّ الطعن في قراء الصحابة -رضي الله عنهم- استهزاء بالله وآياته ورسوله، وحكم على أهله بالكفر.

ثانياً: الخوارج:

وكانت فتنتهم بسبب غلوهم في الدين، وسوء التفسير والتأويل، وتطاولهم على أصحاب رسول الله ﷺ؛ ولذلك خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ورموه بالكفر هو وجمهور الصحابة رضي الله عنهم. يقول الإمام ابن الجوزي: «وكانت الخوارج تتعبد؛ إلا أن اعتقادهم أنهم أعلم من علي بن أبي طالب؛ وهذا مرض صعب»[2].

---

(١) تفسير ابن كثير ج٢، ص ٣٦٨، عند تفسير آيات سورة التوبة المذكورة.

(٢) كتاب (تلبيس إبليس) لابن الجوزي، ص٩١.

وقد دخل عليهم ابن عباس -رضي الله عنهما- ليناقشهم فقال لهم: «أتيتكم من عند المهاجرين والأنصار، ومن عند صهر رسول الله ﷺ، وعليهم نزل القرآن، وهم أعلم بتأويله منكم» ثم عاد لتأكيد هذا المعنى؛ لأنه لبُّ القضية فقال لهم: «هاتوا ما نقمتم على صهر رسول الله ﷺ والمهاجرين والأنصار، وعليهم نزل القرآن وليس فيكم منهم أحد، وهم أعلم بتأويله..»[(١)].

ولولا هذا الداء العضال من التطاول على الصحابة، وتأويل الدين بالأهواء، لما وقع هذا الصدع الخطير في بنيان الأمة الإسلامية. لكن مضى الخوارج في طريقهم الوعر؛ فكفروا المسلمين، واستحلوا الدم الحرام، وغرّهم في دينهم ما كانوا يفترون، مع وجود الصحابة -رضي الله عنهم- الذين نقلوا الدين صحيحاً للناس؛ فأبى الظالمون إلا كفوراً.

ثالثاً: الشيعة:

وهم على عكس السابقين، غلوا في محبة علي -رضي الله عنه- وزعموا له ولآل البيت أموراً ما أنزل الله بها من سلطان، وأول من يبرأ منها ومنهم هو أمير المؤمنين علي وجميع آل البيت، رضي الله عنهم. وقد أدى بهم ذلك إلى سب الصحابة ولعنهم وتكفيرهم؛ إلا مَنْ ناصَرَ علياً رضي الله عنه.

---

(١) تلبيس إبليس، ص (٩١، ٩٢).

ولقد بادت فرق الخوارج، وبقيت الشيعة بفرقها المتعددة، تشكل خرقاً خطيراً في أمة الإسلام؛ إذ يجعلون سب الصحابة والطعن فيهم ديناً يتقربون به إلى الله -بزعمهم-، وينسبون لكبارهم وصغارهم شتى الموبقات والخطايا كذباً وزوراً، إلا نفراً قليلاً منهم، وهذا مما يوقع أنكى الشكوك في الدين كله؛ إذا كان حملته ونقلته بهذه المثابة عندهم.

ولا يزال موقف الشيعة يشكل أشنع وأبشع تدنيس وتلويث في تاريخ الأمة الإسلامية، وهو الذي يفتح أبواب الفتنة على الناس والفِرق والمستشرقين والمنحرفين من أبناء المسلمين، كما سنبين بعد قليل إن شاء الله[1].

والأمل في الله - عزَّ وجلَّ - وحده، ليهدي علماءهم وعقلاءهم إلى ما اختلف فيه من الحق بإذنه، وأن يؤثروا رضى الله على مواريثهم.

رابعاً: المستشرقون:

وهم أفواج من علماء الغرب ومفكريه، الذين درسوا علوم الشرق ولغاته ومذاهبه وأديانه لخدمة كنائسهم، أو دولهم الطامعة في بلادنا والمعادية لديننا. وقد اصطنعوا لذلك منهجية علمية خادعة، قائمة على الكذب والافتراء، واستطاعوا في فترات ضعف الأمم الإسلامية التأثير

---

(١) من شاء فليراجع الكتب الآتية للتثبت من صدق ما كتبناه:

أ- مع الإثني عشرية في الأصول والفروع (موسوعة شاملة)، للدكتور علي السالوس.

ب- أصول وعقائد الشيعة الإثني عشرية، للدكتور حافظ موسى عامر.

ج- عصمة الإمام، دراسة مقارنة (ثلاثة أجزاء - رسالة دكتوراه)، للدكتور حافظ عامر.

د- فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنّة، للدكتور علي محمد الصلابي.

في اتجاهات التفكير والتعليم، حتى فتنوا أجيالاً متتابعة من أبناء المسلمين، وأذابوهم في فتنة الانبهار بالحضارة الأوروبية المعاصرة، بعد أن أفرغوهم من حقائق الإسلام، وشحنوا أنفسهم بالمتع والشهوات، وشوهوا لهم النماذج العليا من حضارة الإسلام، وتاريخه، وأصوله. وقد انتهوا بأغرار المسلمين إلى انقلاب خطير، أشبه ما يكون بـ: (الردة الصامتة) كما سماها بعض علماء المسلمين.

وقد ركز هؤلاء الأعداء الألداء على أصول منها:

١- الطعن في القرآن، ونسبته إلى مصادر بشرية، وقطعه عن أصله الأعلى.

٢- الطعن في الرسول ﷺ، وإنكار نبوته، والتشكيك الوقح في سيرته وسنته.

٣- الطعن في أصحابه طعناً منظماً باعتبارهم حملة الدين ونقلة الشريعة. وقد وجدوا في تراث الخوارج وعقائد الشيعة -قديماً وحديثاً- مستنقعاً هائلاً استمدوا منه مزاعمهم وأضاليلهم!

وكل ما نجده الآن في الثقافة الأوروبية والأمريكية، أو في موروثات هذه الشعوب، من بغض الإسلام، وعداوة أهله، وتزييف حقائقه وتاريخه - فالوزر فيه ابتداءً على هؤلاء المستشرقين الكذبة. ونحن لا نستغرب هذا؛ فليس بعد الكفر ذنب، ولكن الذي يهمنا هنا هو التركيز على تطهير أنفسنا من الداخل، وإيقاف السيل المنهمر من الأضاليل والأكاذيب التي يقولها ويفعلها «**قوم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا**»، أو التي يتهافت عليها

أفواج من المثقفين والمبهورين من أبنائنا وبناتنا، كما يتهافت الذباب على المعاطن والقاذورات.

خامساً: المستغربون:

وهم إجمالاً: الذين فُتِنوا بالغرب وأفكاره وطرائقه في العيش والحياة، ثم انقلبوا ينظرون لدينهم وتاريخ أمتهم بقلوب منكوسة وعقول معكوسة؛ فصاروا على أمتهم مثل أعدائها أو أشد وأنكى! وهم تفصيلاً: أصناف شتى، مثل:

(أ) تلاميذ المستشرقين:

وهم الثمار المرّة لتربيتهم المباشرة، أو للتشبع بمذاهبهم ومناهجهم الفاسدة؛ فتسممت أفكارهم وقلوبهم بالشبهات والأضاليل، وصاروا يرددونها كالببغاوات؛ فكان الفرع شراً من الأصل أحياناً في الجرأة على الله ورسله وكتبه..!

(ب) تلاميذ المذاهب الإلحادية المعاصرة:

وهي مذاهب انحلالية فاسدة، أو مذاهب عقائدية كافرة، لا تؤمن بالله ولا بالمرسلين، بل تكفر بكل دين؛ كالماركسية، وكالشيوعية التي انبثقت منها، وعمادها: (لا إلهَ والحياةُ مادة).

وهؤلاء لا يزالون أخبث الفرق، وأشدهم جهالة وعمى وجموداً على ما تلقنوه؛ إذ جعلوه ديناً جديداً يعتنقونه ويسعون لنشره، وهو (دين الإلحاد) فعلاً، وأصحابه مجردون من كل القيم والشرف، لذلك انطلقوا

في أوساط (المثقفين) دعاةً إلى أبواب جهنم، يستخفون بكل الحقائق، ويستحلون كل محرم جاءت به شريعة الله عز وجل.

ولما كان الإسلام هو الجبل الأشم الراسخ الذي وقف في وجوههم، لذلك خصوه بأوجع نصيب من الطعون والأكاذيب، حتى وصل الأمر ببعضهم(١) إلى تأليف كتاب عن السيرة النبوية الشريفة سماه أولاً: (صناعة نبي) وتبنّى فيه كل ما قاله فلول المنصّرين، أو زعمه قساوسة المستشرقين والحاقدون على النبي الكريم ﷺ، ولـمّا خاف عاقبة جريمته غيّر اسم الكتاب إلى (سيرة الصادق الأمين) سخرية، وحشا تحت هذا العنوان كل ضروب الإفك والأكاذيب التي أرادها من العنوان الأصلي.

وألـف كـتاباً سـمّاه (مجتمع يـثرب) حشـاه بكل ألوان الإفك عن الصحابة -رضوان الله عليهم-، وصورهم بصورة السكارى، والزناة، والمتآمرين... إلخ، وهم أنبل أمة درجت على الأرض، وأشرف مجتمع عرفه تاريخ البشر. ويلاحظ اختياره اسم (يثرب) بدل (المدينة) وهو اسمها الإسلامي، وبذلك دلّ على صفته من العنوان؛ لأن المنافقين هم الذين كانوا يطلقون عليها هذا الاسم القديم، كما قال -تعالى- ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾ [الأحزاب: ١٢ - ١٣].

(١) هو شيوعي مصري معاصر كان يتسمى باسم (الشيخ: خليل عبدالكريم)، وقد هلك منذ سنوات معدودة.

(ج) الزنادقة المعاصرون:

المشهور في معنى الزنديق: أنه الذي لا يتمسك بشريعة، ويقول بدوام الدهر، والعرب تعبر عن هذا بقولهم: (ملحد) أي: طاعن في الأديان. وهذا ينطبق تماماً على أخلاط من المعاصرين لا ينتسبون لأنماط فكرية أو عقائدية محددة، أو يأخذون من مدارس ومذاهب شتى، أو يندفعون تحت شعارات الحرية والبحث العلمي المزيف إلى ألوان فاحشة من الأضاليل والأباطيل، ليس لها زمام ولا خطام، كالذين قال الله -تعالى- فيهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وهذا النوع واسع النطاق يمتد في كل الطبقات، ويشمل جميع أنشطة الحياة؛ كالصحافة والإعلام، ومؤسسات التعليم والقانون، والسياسة والاقتصاد، ناهيك عن محترفي الآداب والفنون!

أمثلة متعددة:

ولنأخذ أمثلة تتعلق بموضوعنا مباشرة عن الصحابة -رضي الله عنهم- وسنشير إلى ذلك بإيجاز شديد:

أولاً: إفك قديم:

في أوائل القرن الخامس عشر الهجري كتب كاتب يساري الاتجاه، شيوعي الهوى، سلسلة مقالات في أوسع الجرائد اليومية انتشاراً بعنوان: (عليّ إمام المتقين). وكان في استطاعته أن يجد فيضاً واسعاً من فضائل

أمير المؤمنين ومناقبه، يؤسس بها في نفوس الناس محبة علي وآل البيت، ويبرز من خلالها جلال التربية النبوية لأصحابه جميعاً، ولكن الكاتب جنح بها إلى شر سبيل، وجعلها وسيلة للهجوم على الصحابة جميعاً باستثناء علي -رضي الله عنه-. وقد ردّ عليه الشيخ محمد الغزالي -رحمه الله- في محاضرة طويلة مشهورة، نشرها في كتابه: (علل وأدوية)[(١)].

يقول الشيخ -رحمه الله-: «... ومضى الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي في طريقه يفسر الوقائع بمعايير الفكر اليساري، ويقرأ كتب التاريخ غير مميز بين حقيقة وشائعة، وبين صحيح وموضوع، وغير مدرك لمكانة الرجال الذين يتحدث عنهم؛ فجاءت مقالاته بعيدة كل البعد عن المنطق العلمي، كما جاءت بعيدة الأثر في الإساءة إلى الإسلام والصحابة...»[(٢)].

«... وقد عجبت لـمّا رأيت الأستاذ الشرقاوي يقص أخبار الفتنة الكبرى على نحو يحرك الحزازات، ويهيج جمهور أهل السنة! لقد جعل العشرة المبشرين بالجنة مبشرين بالنار، ماعدا علي بن أبي طالب، حتى عمر بن الخطاب كاد يهلك لولا فضل (عليّ) عليه! أما البقية فأغنياء تكويهم ثرواتهم يوم القيامة!...»[(٣)].

---

(١) ص٢٥٢ – ٢٨٠.

(٢) السابق، ص٢٥٤.

(٣) السابق، ص٢٦٨.

«إن التحصن بعلي بن أبي طالب لضرب بقية الأصحاب خطة قديمة لضرب الإسلام ذاته، وتقويض قواعده الأولى!.. »[(١)].

ثانياً: إفك جديد:

وعلى هذا النمط، وفي شهر رمضان الماضي ١٤٢٧ هـ طلعت علينا جريدة بعنوان غريب هو (أسوأ عشر شخصيات في الإسلام)! من عائشة أم المؤمنين إلى عثمان الخليفة الراشد، وحتى الأب الرئيس والابن الوريث[(٢)].

وأصدرت بذلك (ملحقاً) متوسط الحجم، سهل الحمل، غاصاً بالعناوين الغليظة الخطّ، الكثيرة العدد؛ إمعاناً في لفت الأنظار، وتركيز الأبصار على امتداد ثماني صفحات.. هذا من حيث الشكل. أما من حيث المضمون فغاية في السوء والتحريض، ومحاولة تأصيل الدنس، وإغراء القارئ العادي بالبحث والتفتيش عن عيوب الصحابة وخطاياهم المزعومة!

يقول الأفّاك كاتب هذا الملحق في صدارة تقديمه:

«أنت قلق، وتشعر بالخوف، وتشعر أيضاً أن الله لن يرضى عنك إذا كوّنت آراء سيئة في صحابة رسوله وتابعيه. لكن اطمئن! صحابة رسول الله وتابعوهم ملؤوا كتب السيرة والتاريخ الإسلامي بانتقادات حادة ضد بعضهم البعض، وشتائم قاسية، واتهامات لا يمكن أن تتخيلها!

---

(١) السابق، ص٢٧٩.

(٢) جريدة (الغد) القاهرية، السنة الثانية، العدد: ٨١، الأربعاء ١١ من رمضان ١٤٢٧هـ (٤/ ١٠/ ٢٠٠٦م).

إذاً المشكلة فيك أنت عزيزي القارئ، أنت الذي لا تريد أن تعرف، تريد أن تغمض عينيك ليتساوى الأبيض والأسود، والمخطئ والمصيب»[١].

والكتب التي يشير إليها هي كتب في التاريخ، والأدب، والحكايات المرسلة، تورد كثيراً من الروايات الساقطة، ذات الأسانيد التالفة، أو التي لا سند لها ولا أساس. وهؤلاء الزنادقة يعلمون أننا أمة تتميز (بالإسناد) وتمحيص الروايات، وعندنا -بحمد الله- من كتب الصحاح والسنن الموثقة ما يكفي لإثبات أنبل الصفات وأشرفها للصحابة رضوان الله عليهم؛ لكن عين الزنادقة لا ترى إلا المساوئ؛ فإن لم تجد اختلقت الإفك، واخترعت الأضاليل، ثم خرّت عليها كأنها أوثان مقدسة عندهم، وصدق الله: ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾ [العنكبوت: ١٧].

وهذه قضية تحتاج إلى بسط طويل لا يتسع له المقام في هذه الصفحات المحدودة. ولكن يبقى في ختام هذا الإيجاز (أمران مهمان) تتقرر بهما الحقائق لمن أراد الهدى:

الأول: العدالة لا العصمة:

فالصحابة -بصريح القرآن والسنة- عدول خيار، بلغوا الغاية في الصدق والأمانة حين نقلوا لنا الدين والأحكام، وكانوا على غاية التطبيق

---

(١) مقدمة (ملحق) العدد السابق بتاريخه.

والالتزام، وقد تواتر بينهم قوله ﷺ: «**من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**»[١].

وقوله -عليه السلام-: «**نضّر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها وأداها كما سمعها...**». وقد قال النبي ﷺ ذلك على ملأ من الصحابة في خطبته في مسجد (الخيف) بمنى عام حجة الوداع، لذلك رواه عنه جمع كبير من الصحابة رضي الله عنهم[٢].

أما ادّعاء (العصمة) لهم فلم يقل به أهل السنة قط، بل ادعتها الفرق المنحرفة لأئمتها بلا دليل ولا برهان؛ فيجوز على جميع البشر -غير الرسل- الخطأ والنسيان، والاجتهاد بنوعيه، والوقوع في المخالفات بلا استحلال للباطل.

---

(١) هذا حديث متواتر رواه الشيخان وغيرهما، وقال ابن الجوزي: رواه عن النبي ﷺ ثمانية وتسعون صحابياً منهم العشرة، ولا يعرف ذلك في غيره. وذكر ابن دحية أنه خرّج من نحو أربعمئة طريق. (انظر الحديث رقم: (٢٥٩٣) من كتاب: كشف الخفا ومزيل الإلباس للعجلوني، ج٢، ص٢٧٥).

(٢) رواه أصحاب السنن وغيرهم بطرق كثيرة وألفاظ مختلفة عن ابن مسعود، وأنس بن مالك، وزيد بن ثابت مرفوعاً. وقد ذكره السيوطي في (الأزهار المتناثرة في الأخبار المتواترة) وقال: في أوله في كثير من طرقه: «خطبنا بمسجد الخيف من منى..». وانظر كشف الخفا (السابق) ج٢، ص٣١٩ حديث رقم (٢٨١٣).

والصحابة بشر، لكنهم موفَّقون للحق والورع والصلاح، ولم يثبت عنهم قط أنهم كذبوا في الدين، أو تقوّلوا في النقل عن الله ورسوله، حتى في زمن الفتن العاصفة التي دخلت على حياتهم رضي الله عنهم.

وقد أحسن أبو سلمة بن عبدالرحمن حين وصفهم بهذا الوصف الجامع فقال: «لم يكن أصحاب رسول الله ﷺ منحرفين ولا متماوتين، وكانوا يتناشدون الأشعار في مجالسهم، ويذكرون أمر جاهليتهم؛ فإذا أريد أحد منهم على شيء من أمر دينه دارت حماليق عينيه كأنه مجنون»(١). وفي رواية أخرى: «كان أصحاب محمد ﷺ يتمازحون، ويتبادحون بالبطيخ؛ فإذا جاء الحق كانوا هم الرجال».

الثاني: الآثار الخطيرة المترتبة على سب أصحاب محمد ﷺ.

إن بغض الصحابة من حيث المبدأ هو عقيدة المنافقين ودأبهم، والله -تعالى- يقول: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]. أما سبهم ورميهم بالكفر أو الفسوق، أو المروق من الدين، على نمط ما قامت به بعض الفرق المنحرفة قديماً، وما تفعله الرافضة قديماً وحديثاً، والزنادقة وأمثالهم متعللين بالظنون والأوهام والأكاذيب - فهذا أمر بالغ الخطر والأثر، ويؤدي إلى أوخم النتائج، ومنها:

---

(١) تلبيس إبليس لابن الجوزي، ص٢٩١.

(أ) تكذيب الوحي الإلهي:

وقد زكاهم وعدّلهم، وأثنى عليهم، ووعدهم النصر في الدنيا والجنات في الآخرة، وقد أنجز لهم وعد الدنيا بعد رسول الله ﷺ، وهو لا يخلف الميعاد في الآخرة يقيناً؛ فدل هذا على صلاحهم، وسموّهم، واستمرارهم على الحق الذي يدخلهم ربهم به الجنة بإذنه. والسبّابون يصفونهم بالكفر، وبالردة، وبالنفاق، وبأنهم خانوا عهد رسول الله بعد وفاته.

فكيف يجتمع النقيضان؟! وكيف يجرؤ عاقل على تكذيب الله ورسوله؟! والجواب البدهي: إن الله يعلم وهم لا يعلمون، وإن الوحي الإلهي صادق وهم كاذبون.

(ب) هدم الدين جملة:

لأنهم حملة الدين، ونقلة الشريعة ابتداءً من ألفاظ القرآن وسنة الرسول ﷺ، ولا يصح وصفهم بحرف واحد مما تقوّله الضالون الكذابون، وإلا انهدم كل ما نقلوه لنا من الدين والرسالة. وقد تعهد الله بحفظ دينه وكتابه، ثم الواقع شاهد، وكفى بالله شهيداً؛ فدل ذلك على براءة أصحاب محمد ﷺ، بل دل على طهارتهم وسموهم، ووفائهم بما عاهدوا الله عليه، والفتنة التي ابتلوا بها كانت بلاء عابراً جسيماً.

(ج) ابتداع دين جديد:

إن إصرار المبطلين على سب الصحابة يؤدي إلى إبطال الإسلام الذي نقلوه لنا، ولا بد للناس من دين؛ فما الدين الذي يكون عليه السبابون؟ إنهم حينئذٍ سيقعون في واحدة من بلايا، كلها شر مستطير:

١- أن يتخبطوا في أهوائهم وضلالهم حتى يخرجوا من الدين وهم يحسبون أنهم أئمته، كما قال -تعالى-: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٠٣ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣ - ١٠٤]. وهذا ما حدث مع (الخوارج) حين صادموا الصحابة، وردوا أقوال المهاجرين والأنصار؛ فحق فيهم قول النبي ﷺ: «... **يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة**...»(١).

٢- ابتداع دين ملفّق من بقايا الإسلام ومحدثات العقائد والأحكام، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة(٢)، وهذا ما انتهى إليه الرافضة من الشيعة، حين كفَّروا الصحابة ورفضوا أن يأخذوا عنهم، واخترعوا لأنفسهم مصادر أخرى تقوم على الاختراع والابتداع؛ كالقول القاطع بتحديد الأئمة في أناس بأعيانهم من آل البيت رضي الله عنهم، ثم ادّعوا لهم العصمة، وقدّموهم حتى على الرسل؛ بل قربوهم في اعتقادهم من (التأليه) مع الله تعالى،

(١) رواه البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري، وسهل بن حنيف، وعلي بن أبي طالب، وأبي ذر الغفاري وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم.

(٢) الحديث: «... **وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل بدعة ضلالة**...». رواه أبو داود والترمذي، وهو صحيح.

ثم استمدوا منهم سائر البدع كذباً وزوراً، عدا ما حرفوه من معاني الإسلام. وهذا الأمر أشنع من فعل الخوارج؛ لأنه تأسيس لدين جديد، وتأصيل للضلال باستحلال التشريع من دون الله، وإنكار المعلوم من الدين بالضرورة، واعتقاد ما لم يأذن به الله، والتعبد بما حرم الله في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، وقد أنكر الله -تعالى- ذلك على سائر الفرق، وبرأ منهم رسوله ﷺ قال -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩]. والآية الكريمة تستنكر تفريق الدين أوّلاً، ثم ما يؤدي إليه من تفريق الأمة إلى شيع وأحزاب متضاربة.

٣- إعلان بطلان الإسلام، وفتح باب النبوة من جديد، وقيام فرق تؤمن بأدعياء النبوة المبتدعة، وبكتب أخرى تنسخ الإسلام كما نسخ هو ما قبله، ومن ذلك (القاديانية) وما تفرع منها، (والبهائية) التي خرجت من مذاهب الشيعة، وأمعنوا في التحريف أكثر من سابقيهم.

خاتمة

تلخيص ومقترحات

خلاصة البحث:

يدور البحث حول إبراز فضائل الصحابة -رضي الله عنهم- وأنهم صدارة الأمة الإسلامية المستخلفة في الأرض إلى يوم الدين، لتبليغ الرسالة الخاتمة، وإقامة حجة الله على العالمين.

ويحذر البحث غاية التحذير من الطعن في أصحاب رسول الله ﷺ باعتبارهم حملة الدين ونَقَلَة الشريعة، أوسبّهم. والطعن فيهم يؤدي إلى نتائج خطيرة جداً؛ منها تكذيب الوحي الإلهي، وهدم الدين الذي لم يصلنا إلا عن طريقهم، وهذا بدوره يفضي إلى ابتداع دين جديد ما أنزل الله به من سلطان.

وقد بيّن البحث أنواعاً من الطاعنين فيهم قديماً وحديثاً من غير المسلمين، وممن ينتسبون للإسلام، وهؤلاء أخطر أثراً، وأنكى ضرراً؛ لأنهم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا، وهم أولى بالبيان والنصح، ثم المقاومة والزجر إن لم يتوبوا إلى ربهم، والله الهادي إلى سواء السبيل.

مقترحات:

١- دعوة الأمة جميعاً إلى فهم هذه القضية الخطيرة والاهتمام بها لصلتها ببقاء الدين، وامتداد الإسلام.

٢- ترسيخ هذه القضية في وعي الأمة باعتبارها حكماً شرعياً، ونصاً قرآنياً، وسنة متواترة لا تحتمل الخلاف ولا أنصاف الحلول.

٣- دعوة المؤسسات الإسلامية؛ كالجامعات، والجمعيات، والنوادي العلمية، والمساجد -إلى تبنِّي هذه القضية بشتى الوسائل، وبيان الأخطار الماحقة التي تترتب على الطعن في صدر هذه الأمة الذين زكاهم الله -عز وجل- وزكّاهم رسوله، واستغفر لمسيئهم، وبشّرهم بالفضل والتمكين، وجنات النعيم.

٤- ينبغي العناية بالمناهج الدراسية لتأسيس أبنائنا على إجلال الصحابة وتوقيرهم، وتوجيه الرسائل العلمية لخدمة هذا الغرض، وكذلك الكتب العلمية والأدبية، واستخدام المحاضرات والندوات وفنون القصة والمسلسلات الإذاعية بأنواعها؛ حتى يتأسس وعي عام على هذا الحق الذي قرره القرآن وجاءت به السنن الصحاح وشهد به التاريخ الصحيح.

٥- العناية بالرد على المتطاولين بالباطل، ومناقشتهم بالحجة والبرهان، وتجلية الحقائق الصحيحة لهم، في الداخل والخارج، بالحكمة والموعظة الحسنة؛ فإن الحق والصدق والفضل عندنا بحمد الله، والحق أبلج، والباطل لجلج لا يثبت إلا بتفريط أصحاب الحق.

٦- العناية الجادة بتنقية الكتب القديمة مما حُشي فيها من روايات تالفة، وأخبار كاذبة، وتوجيه طلاب الدراسات العليا لخدمة هذه الكتب، وتحقيقها بالرسائل الجامعية الوثيقة.

٧- تنظيم مسابقات علمية وأدبية جادة ذات جوائز قيّمة، للتأليف في تصحيح تاريخنا القديم وبيان الحقائق التي زيّفها أهل الباطل، وهذا مجال الجمعيات الخيرية الكبرى، وأصحاب البذل والعطاء ممن يريدون للصحابة الإنصاف والإجلال، وللأمة الإسلامية التآلف والاتحاد. والله من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

فهرس أهم المراجع

١- القرآن الكريم.

٢- تفسير ابن كثير.

٣- كتب السنة المتعددة (كالصحيحين والسنن).

٤- كشف الخفا ومزيل الإلباس، للشيخ إسماعيل العجلوني، دار الكتب العلمية، بيروت.

٥- ملامح النفاق والمنافقين كما بيّـنَتها سنة خاتم المرسلين، للدكتور محمد أنور البيومي، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ، مؤسسة العلياء، القاهرة.

٦- تلبيس إبليس للإمام ابن الجوزي، إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة، ١٣٦٨هـ.

٧- مع الإثني عشرية في الأصول والفروع (موسوعة شاملة)، للدكتور علي السالوس، الطبعة الرابعة ١٤٢٣هـ، دار الفضيلة، الرياض.

٨- أصول وعقائد الشيعة الإثني عشرية، للدكتور حافظ موسى عامر.

٩- عصمة الإمام في الفقه الشيعي (دراسة مقارنة) ثلاثة أجزاء للدكتور حافظ موسى عامر. كلاهما طبعة مكتبة الإمام البخاري للنشر، مصر، الإسماعيلية، ١٤٢٧ هـ.

١٠-فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة، للدكتور محمد علي الصلابي، الطبعة الأولى، القاهرة، مؤسسة اقرأ، ١٤٢٦ هـ.

١١-علل وأدوية للشيخ محمد الغزالي، دار الدعوة، الإسكندرية، ١٤١١ هـ.

تطاول المنافقين على الثوابت

د. سعيد بن ناصر الغامدي

بسم الله الرحمن الرحيم

تطاول المنافقين على الثوابت

المقدمة وتحتوي:

أولاً: أهمية الموضوع وضوابطه وحدوده.

ثانياً: تحديد المصطلحات:

أ- التطاول.

ب- المنافقون.

ج- الثوابت.

ثالثاً: مستويات تطاول المنافقين على الثوابت.

١- المستوى الأعلى (المستوى المرجعي):

أ- الوحي والنبوة في ذاتهما.

ب- القرآن

ج- السنة

د- الصحابة.

هـ - القرون الفاضلة.

و- اللغة العربية.

ز - فهم العلماء المعتبرين.

٢-المستوى الأفقي (المستوى التطبيقي):

أ- الاعتقادي (أركان الإيمان الستة).

ب- التشريعي.

ج- العبادي.

٣- المستوى الرأسي (المستوى العملي).

أ- الأخلاقي.

ب- الانتمائي والولائي.

المقدمة

أهمية الموضوع وضوابطه وحدوده:

الحمد لله، والصلاة والسلام على نبينا خليل الله محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه، أما بعد:

ففي هذه الأسطر نبذ سريعة ترصد شيئاً من تطاول أهل الفكر المادي وتلامذته على ثوابت الإسلام وقضاياه الكبرى، تؤكد خطورة ظاهرة النفاق والمنافقين.

وفي هذا البحث جملة من النقول المتطاولة على ثوابت ديننا؛ وليس نقلها بالضرورة وصفاً لقائليها بالنفاق أو الكفر، وإن كانت النصوص ذاتها دالة على ذلك، عملاً بقاعدة أهل السنة والجماعة في (التفريق حين الحكم بين القول وقائله والفعل وفاعله؛ لأن الحكم بالعموم والإطلاق غيرُ الحكم بالتعيين والتخصيص). كما أن بعض النصوص صريحة في الكفر وكان حقها أن تذكر في شواهد الردة، ولكني أتيت بها هنا من جهة أن أصحابها، مع بشاعة وشناعة ما قالوا، يدّعون أنهم من أهل الإسلام، ويريدون الجمع بين المتناقضات، وفي الوقت ذاته لا يريدون أن يكشف زيفهم وتناقضهم أحد؛ فإن فعل قالوا: (تكفيري، جامد، نصوصي)! وهم أتوا بالعظائم وجهروا بأبشع المآثم. وحالهم -في تقليدهم لأساتذتهم الغربيين- حال من يقول: نحن ننتقد الدين والوحي

والنبوّات مثلما تفعلون، ونسلك في التهوين من الدين كما تسلكون، ونبتعد عن معاييره وضوابطه ومحكماته وأحكامه وتشريعاته كما تبتعدون، ونرى أن من حرية الأديب والمفكر أن ينتقد المجتمع وعقائده وقيمه كما قررتم في مبادئ الحرية، ونعتقد أنه لا يكون مبدعاً ولا متطوراً إلا إذا مارس ذلك بحرية مطلقة كما تمارسون.

بيد أن هناك فرقاً جوهرياً بين الأساتذة الغربيين والأتباع من أبناء المسلمين؛ وهذا الفرق هو أن الغربي إذا قيل: أنت كافر بالنصرانية واليهودية وبالله رب العالمين، اعترف بذلك وأقر، ولم يجد في هذا الإقرار سوى تحصيل الحاصل وتقرير المقرر، أما الأتباع من أبناء البلدان الإسلامية إذا فاه أو كتب أحدهم ما يناقض الدين، ثم قيل له: هذا كفر، وخروج من دين الإسلام وردة؛ صاح مستنكراً، وصرخ مستجيراً، واستدعى الحكام، وسلَّ الأقلام، وسخر الإعلام لِسحق من كشف حقيقته. إن الواحد من هؤلاء يريد أن يمارس الكفر ويدعو له، ويريد في الوقت ذاته أن يعيش آمناً ويحيا بين المسلمين -الذين ينال من أعز شيء عندهم- وله سمعة طيبة ومنزلة حسنة! إنه يريد، كشأن أهل النفاق دائماً، أن يتخذ من انتسابه للإسلام جداراً عازلاً يقاتل من خلفه ويحتمي به.

وقد نقلت هنا شيئاً من هذا الغثاء الزائف من أجل تأكيد خطورة قضية العدوان على الثوابت وبشاعة جريمة التطاولات عليه، وأن خطورتها تتمثل في أنها ليست انفصالاً عن الإسلام والإيمان فحسب، بل ومناقضة لذلك تمام المناقضة؛ بل إنها في أولويات منطلقاتها تسعى لنقض الإسلام وتهدف إلى هدم الديانة، وخاصة عندما ننظر إلى تلك المذاهب والتوجهات التي يقوم نسيجها الفكري على كل شيء سوى الإسلام. وفي داخل أدغالها وسراديبها ومتاهاتها يجد الفاحص أصوات السقوط الاعتقادي، ونظرات السلخ الفكري، ونظريات الكفر والإلحاد، أنفاساً لاهثة، ونفوساً هائمة، وقلوباً مظلمة، وأفكاراً جاهلية، تقوم أساساً على إدانة الدين، ورفض الحق والخير والهدى والرشاد، وتبرير الجهل والانحطاط، وتسويغ الردة والضلال .

فخاخ منصوبة نُسجت أحابيلها من قصائد ودراسات نقدية ومقالات وقصص وروايات، يقع في شراكها حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام، زائغو القلوب والعقول، أتباع الشبهات، أرباب الشهوات .

ادّعوا أنهم جاؤوا من أجل التقدم والنهضة والرقي؛ فإذا هم ليسوا سوى طلائع عدو، وإفرازات عداوة، وإرهاصات حرب شاملة .

يحملون أسماء المسلمين من بني جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا؛ لكن عقائدهم غير عقائد المسلمين، وأفكارهم تناقض جوهر الدين الحنيف

دين الإسلام، وطموحاتهم في إزالته من الوجود أو تهميشه، من خلال المهاجمة الواضحة لدين الله والاستخفاف الجلي بالله العظيم - جَلَّ وَعَلاَ - وتقبيح الوحي المعصوم، وتشويه الاستمساك بالوحي، وتزييف حقائق الدين - والدين كله حقائق -، ومقاومة قواعده وأصوله، كل ذلك في تبجح ظاهر، وجرأة وقحة، وسفاهة معلنة: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون:٤].

والموضوع واسع الأرجاء، وقد وضعت خطته المفترضة المذكورة آنفاً وكتبت في أهم القضايا وهي: (الوحي والنبوة وأركان الإيمان الستة)، وتركت الباقي لضيق مساحة المتاح في هذا المقام.

ثانياً: تحديد المصطلحات

أهمية تحديد المفاهيم والمصطلحات:

كثرت فتن هذا الزمان وتعاظمت وتفاقمت، ومن أخطرها فوضى المصطلحات والمفاهيم، التي وصل التباسها حتى إلى بعض دعاة الإسلام وطلاب العلم فيه، وهذا مصداق قول حذيفة: «ما الخمر صرفاً بأذهب لعقول الرجال من الفتن»(١).

وقد وضع -رضي الله عنه- وهو الخبير بشأن الفتن، معياراً لذلك فقال: «إذا أحب أحدكم أن يعلم: أصابَتْه الفتنة أم لا؟ فلينظر! فإن كان رأى حلالاً ما كان يراه حراماً فقد أصابته الفتنة، وإن كان يرى حراماً ما كان يراه حلالاً فقد أصابته»(٢).

وفي الحديث عن معاذ مرفوعاً: «**إنها ستكون فتنة؛ فقال: فكيف لنا يا رسول الله وكيف نصنع؟ قال: ترجعون إلى أمركم الأول**»(٣).

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٧/ ٤٧٥، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢٧٤.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه ٤/ ٥١٤، ومصنف ابن أبي شيبة ٧/ ٤٧٤، والحلية ١/ ٢٧٣.

(٣) ذكره في مجمع الزوائد ٧/ ٣٣. وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه عبد الله بن صالح، وقد وثق وفيه ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح.

وعن أبي أمامة مرفوعاً: «**ستكون فتنة، يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً؛ إلا من أحياه الله بالعلم**»(١).

ومصداق ذلك في قوله - تعالى -: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٣]، والمطلوب أمام هذا اللبس والالتباس بيان الحق، وإظهار الحقيقة، وكشف الشبهة، وقطع اللبس، وبيان الزيف .

والسؤال المهم في هذا المقام: من المستفيد من تذويب المفاهيم والمصطلحات وعدم تحديدها؟

ولعلنا نجد جواباً في سوق سعار الفكر البرغماتي والمادي القائم على مفاهيم نفاقية (الوصول للكسب بأي طريقة) و (إظهار ما لا يستبطن) و(تطبيق معايير مزدوجة) و (النسبية الأخلاقية).

لقد قال نعوم تشومسكي: «المنافقون هم الذين يطبقون على غيرهم معايير يرفضون تطبيقها على أنفسهم»(٢).

---

(١) أخرجه ابن ماجة ٢/ ١٣٥. والدارمي ١/ ١٩. وفي إسناده ضعف كما في مصباح الزجاجة ٤/ ١٧.

(٢) انظر: كتاب هيمنة الإعلام لتشومسكي ص٧٢ .

أ ـ التطاول:

في اللغة: تطاول الرجل على فلان: تكبر وترفع واعتدى[١].

ومن الشعر قول ابن حيوس:

كالدوقس المغـرور ظن بجهلــه   أن الوِهادَ تطــاول الآكاما

وقول المعري:

كسرى أصاب الكسر جابر ملكه   والقصر كرَّ على تطاول قيصر

وقول أبي هلال العسكري:

ولا تتجاهل إنْ منيت بجـــاهل   فليس فساد الجاه إلا التجاهل

ولا تتـطـاول إنْ تطاوَلَ أحمـق   فرأس حماقات الرجال التطاول

ويراد بالتطاول هنا: (**الاستكبار عن قبول أمر الله أو تصديق خبره، أو رد ذلك، أو الاعتراض عليه بالباطل، أو ممارسة التشكيك فيه، أو السخرية منه**).

وقد وصف الله هذه الحالة في القرآن في غير ما آية، من ذلك:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢١].

---

(١) محيط المحيط ٥٦١.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ [النساء:١٧٣].

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٦].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان:٢١].

شرح المفهوم:

الاستكبار: من الكبر وهو التعالي علماً أو عملاً؛ فكل من لم يسلّم لشرع الله تسليماً كاملاً ففيه نوع من الاستكبار، يقل أو يكثر.

قبول أمر الله وخبره: شرط لصحة الإيمان. ووحي الله إما خبر يجب تصديقه، وإما أمر بالفعل أو الترك يجب امتثاله.﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ١١٥].

أو رد ذلك: أي ترك أحكام الله وجحد أخباره ضلالاً في ذات نفسه.

أو الاعتراض عليه: أي أنه يتعدى في تركه وجحوده ليضل غيره بذلك.

بالباطل: فكل مستكبر أو راد أو معترض على أمر الله وخبره هو بالضرورة مبطل وإن سمّى عمله (ثقافة أو فلسفة أو علماً أو سياسة أو عصرنة أو فكراً) أو غير ذلك؛ إذ ليس بعد الحق إلا الضلال.

ممارسة التشكيك: أي أنه يعرض أحكام الله وأخباره على سبيل الارتياب والشك فيها.

أو السخرية: أي الاستهزاء بشيء من دين الله تعالى .

ويخرج من هذا المفهوم كل من قبل بشرع الله وخبره جملة وعلى الغيب، وسلم بذلك تسليماً حقيقياً، وإن حصل منه رد أو اعتراض؛

بسب تأويل محتمل أو شبهة أو تقليد. ولا يستثنى من ذلك إلا ممارسة التشكيك والاستهزاء؛ فإن ذلك مبني في الغالب على الاستخفاف والتدنيس.

ب ـ المنافقون:

جمع منافق. ومن تعريفات العلماء السابقين يتضح أنهم يعرفونه بإظهار الإسلام وإبطان خلافه، ربطاً بين الأصل اللغوي والاستعمال الشرعي وإن تنوعت عباراتهم في التعبير عن ذلك، ومنه: ما جاء في القاموس المحيط: ونافق في الدين: ستر كفره وأظهر إيمانه[1].

ويقول الإمام ابن تيمية: «والمقصود هنا أن الزنديق في عرف هؤلاء الفقهاء هو المنافق الذي كان على عهد النبي ﷺ، وهو أن يظهر الإسلام ويبطن غيره، سواء أبطن ديناً من الأديان كدين اليهود والنصارى أو غيرهم، أو كان معطلاً جاحداً للصانع والمعاد والأعمال الصالحة»[2].

ويقول الإمام ابن القيم في تعريف النفاق: «وهو أن يظهر للمسلمين إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر؛ وهو في الباطن منسلخ من ذلك كله مكذّب به، لا يؤمن بأن الله تكلم بكلام أنزله على بشر جعله رسولاً للناس، يهديهم بإذنه، وينذرهم بأسه، ويخوفهم عقابه»[3].

---

(١) القاموس المحيط لمجد الدين الفيروز أبادي، ج ٣، ص٢٩٦.

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية، ج ٧، ص٤٧١.

(٣) صفات المنافقين لابن القيم، ص١٥-١٦.

وكل هذا مبني على الصلة بين التعريف الاصطلاحي الشرعي والتعريف اللغوي، وهي صلة واضحة؛ فالمنافق يشبه نفاق اليربوع وخداعه للصياد .

يقول ابن فارس في معجم مقاييس اللغة، موضحاً الصلة بين المعنى الشرعي والمعنى في أصل اللغة:«ومنه اشتقاق النفاق؛ لأن صاحبه يكتم خلاف ما يظهر؛ فكأن الإيمان يخرج منه أو يخرج هو من الإيمان في خفاء، ويمكن أن الأصل في الباب واحد وهو الخروج»[1].

ويقول صاحب لسان العرب في الصلة بين المعنى الشرعي واستعمالات العرب لهذا اللفظ: «والنفاق: الدخول في الإسلام من وجه والخروج عنه من وجه آخر، مشتق من نافقاء اليربوع، إسلامية، وقد نافق منافقة ونفاقاً، وقد تكرر في الحديث ذكر النفاق وما تصرف منه اسماً وفعلاً، وهو اسم إسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به، وهو الذي يستر كفره ويظهر إيمانه وإن كان أصله في اللغة معروفاً، يقال: نافق ينافق منافقة ونفاقاً، وهو مأخوذ من النافقاء لا من النفق وهو السرب الذي يستتر فيه لستره كفره»[2].

---

(١) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، ج ٥، ص٤٥٤.

(٢) لسان العرب لابن منظور، ج ١، ص ٣٥٩.

ويقول الإمام ابن تيمية كذلك في الصلة بين المعنى اللغوي والشرعي: «ولفظ النفاق من هذا الباب؛ فإنه في الشرع إظهار الدين وإبطان خلافه، وهذا المعنى الشرعي أخص من مسمى النفاق في اللغة؛ فإنه في اللغة أعم من إظهار الدين ثم إبطان ما يخالف الدين»[(١)].

وهكذا تظهر الصلة واضحة من خلال التعريفات وكلام العلماء وأهل اللغة في الربط بين المعنيين؛ فكأن المنافق قد جعل الكفر عقيدته، ولكنه عندما يوضع أمام الحقيقة يهرب ويخرج من مخرج الإيمان؛ فكأنه اليربوع في تصرفه؛ فاليربوع اتخذ بيتاً في الأرض له عدة أبواب أو مخارج؛ فكلما حاول الصياد إمساكه من ناحية خرج من الناحية الأخرى، وهذا كلما حاول المسلمون وكادوا أن يكتشفوا أمره كان له عدة مخارج يخرج منها.

وكما بيّن صاحب اللسان أن هذا الاسم لم يعرف إلا في الإسلام، وإن كان أصله اللغوي معروفاً قبل ذلك، ولكن لما أتى الإسلام عرفت هذه الطائفة بهذا الاسم للمشابهة القوية بين الاصطلاحين.

هذا هو حد النفاق لغوياً وشرعياً ووجه المناسبة والربط بينهما.

والنفاق (بحسب اجتهادي) هو:

(إظهار الإسلام قولاً أو عملاً مع إبطان الشك في محكماته وثوابته،

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية، ج ١١، ص١٤٣.

أو الاستكبار على شرع الله، أو التكذيب، أو البغض لشيء ثبت عن الله تعالى، أو السخرية بشيء من ذلك).

جـ- الثوابت:

أ- المراد بها:

جمع ثابت وهو: الراسخ المستقر المقيم على أمر لا يتغير.

والثبات فيه معنى الديمومة والاستمرار والملازمة والبقاء، وفي القرآن: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، وَ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وفيه: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩] وفيه: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ﴾ [البقرة: ٢٦٥] وفيه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦].

معنى الثابت في الاصطلاح:

لم يرد هذا المصطلح بمعناه المتداول اليوم، وإنما ورد في مجال صحة النقل فيقال: نص ثابت أو غير ثابت، وفي مجال النظر فيقال: قضية ثبوتية، وفي مجال القضاء والفقه فيقال: حكم ثابت، وقضية ثابتة،... ونحو ذلك.

أما الثوابت بالمعنى المستخدم اليوم فيأتي في مواضعات العلماء السابقين بإطلاقات منها: (الإجماع) ومنها (المعلوم من الدين بالضرورة) وقد تسمى الأصول، أو الكليات، أو المحكمات.

وهو ذلك القدر الذي يمثل دين الإسلام ويمثل هويته وحقيقته، بحيث لا يتصور إسلام بدونه، وهذا القدر يمكن ـ باطمئنان ـ أن تطلق عليه (الثابت).

ب- أمثلة الثوابت:

وذلك كإجماعهم على وجوب الصلاة والزكاة والحج وصيام رمضان (وليس شوالاً ولا محرماً مثلاً)، وأن الوضوء شرط للصلاة وأنه قبلها (وليس بعدها كما يمكن أن يوصل إليه التحليل اللغوي للآية)، وأن البيع حلال والزواج حلال، وأن هناك أحكاماً للإيلاء والظهار والطلاق والقصاص والحدود، وغير ذلك من مستويات الإجماع حتى يصل إلى أن الطواف إنما هو بجعل البيت عن يسار الطائف، وأن البدء يكون بالصفا، وأن النبي ﷺ مدفون في المدينة، وأن القبلة هي الكعبة، وأن السرقة والزنا

والربا والقتل والعدوان والخمر والخنزير والميتة كلها حرام.

وأن الحكم بما أنزل الله فريضة، وأن السنة أصل واتّباعها واجب، وأن الزيادة في الدين ما ليس منه كالانتقاص منه؛ كلها محرمة.

وأن العدل واجب، والحق لازم، والأخلاق الفاضلة لازمة ثابتة.

المتغيرات:

١- تعريفها:

المتغير: اسم فاعل من تغير الخماسي، ومعناه تحول، ويقال: غيّره: إذا جعله غير ما كان، وحوّله، وبدّله، وفي التنزيل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]. وفيه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾. [الأنفال: ٥٣].

المتغير في الشريعة الإسلامية هو:

ما كان محل ظن ونظر. والظن: إدراك الطرف الراجح، والنظر: ترتيب أمور معلومة للتوصل بها إلى مجهول؛ فهو مكون من مقدمات قد تكون ظنية تحتاج إلى إقامة دليل وبيان جهة دلالته، ومن هنا يمكن مناقشة الدليل، ويمكن مناقشة دلالته على المدلول، وكل ذلك يخرج المسألة من حد الثبات إلى حد التغير.

ومساحة كل النظر في الشريعة قليلة في أصول الأبواب، كثيرة في فروعها؛ فالثابت في جملة الواجبات والمحرمات كبير، ولكن في فروعها المتغير هو الكبير.

فيمكن أن نقول: إن الفروع الخارجة عن الإجماع ـ والتي هي محل نظر وتفكر ـ تمثل جزءاً من المتغير.

والثابت والمتغير اصطلاحان حديثان سريا في كلام أهل الشريعة من قبل الأدباء؛ حيث تكلموا في الأدب عن الثابت والمتحول، وعبّر بعضهم عن ذلك بالثابت والمتغير، وتوسع آخرون ـ في ظل اضطراب المصطلحات في عصرنا ـ إلى التعبير عن ذلك بالأصالة والمعاصرة، وبالقديم والحديث، وبالمطلق والنسبي، وبالتراث والحداثة. وكل من هذه المصطلحات الثنائية وضعت بإزاء معانٍ مختلفة، بينهما فوارق شتى؛ غير أن الأمر أصبح فوضى في استعمال المصطلحات بإزاء المفاهيم.

ثالثاً: مستويات تطاول المنافقين على الثوابت:

ثلاثة مستويات:

المستوى الأعلى (المستوى المرجعي).

المستوى الأفقي (المستوى التطبيقي).

المستوى الرأسي (المستوى العملي).

ولنعرض لكل واحد من هذه المستويات عرضاً ملخصاً:

١- المستوى الأعلى (المستوى المرجعي):

المراد بالمرجعية هنا:

أ- الوحي والنبوة في ذاتها.

ب-القرآن.

ج-السنة.

د-الصحابة.

هـ-القرون الفاضلة.

و-اللغة.

ز-فهم العلماء المعتبرين.

وسأقصر الشواهد هنا على قضية الوحي والنبوة باعتبار عموم معناهما، واندراج قضايا عديدة تحت هذا العموم.

أما **كلامهم عن الوحي**: فمنه قول حسن حنفي في معرض رده على مناقش خشي عليه أن يكون (مؤمناً)؛ فأجابه قائلاً: «... فأنت تعني الإيمان السلفي التاريخي... إلخ، والمتوارث عبر التاريخ وهو الشيء الذي تخافه عليّ؛ لذلك فإن إيماني يكفرني، كما أنه يكفرك أيضاً؛ وبالتالي فإن القضية بالنسبة لنا هي التحدي ... وأعتقد أن الإخوة العلمانيين يستعجلون التقدم، إنهم يريدونه إيجابياً فقط، وأنا أريد أولاً أن أمنع عوائق التقدم، أي: أعمل للتقدم سلباً إذا جاز التعبير؛ فإذا ما استطعت ذلك عندئذٍ أسلّم المجتمع العربي إلى الإخوة العلمانيين لكي يبنوه إيجاباً!ومن ثم أنا مقدم لهم، أنا ماركسي شاب وهم ماركسيون شيوخ هذا تقسيم لأدوار العمل! وفي ما يتعلق بمضمون الوحي وحادث الوحي، فكما بينت لكم، أنا مفكر وضعي، أقصد أنا وضعيٌّ منهجي ولست وضعياً مذهبياً، إنّ كل ما يخرج عن نطاق الحس والمادة والتحليل أضعه بين قوسين ...»[(١)].

ويقول حسن حنفي أيضاً: «... الحداثة تبدأ بالالتحام المباشر مع الواقع؛ فالبنسبة لقضية فلسطين: هل تحتاج إلى العودة إلى القرآن

---

(١) الإسلام والحداثة: ص ٢١٨ - ٢١٩.

والحديث لتنادي بالتحرير؟ وفي قضية الشعر والفن: هل أنت محتاج إلى نص قرآني أو حديث نبوي لكي تعرف أو تجد حلاً لقضايا الشعر والفن وقضايا الوحدة والتجزئة، قضايا الهوية والاختلاف... إلخ؟ وهذا يعني بأن الالتحام المباشر بالواقع يجبُّ أحياناً كل نص، بل إنك كما قال مالك ابن أنس: «ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن» قل أنت: قال الله في كتابه الكريم: يا شباب الحجارة، ويا أطفال الحجارة، استمروا، ويكون كلامك صحيحاً... إن المسلم يجوز له أن يضع نصاً يعبّر به عن مقصدٍ في الواقع ويكون مصدراً للحكم»[1].

وقرر بأنه «... قد تداخل كلام الله وكلام البشر في أصل الوحي في القرآن ...»[2].

ومِن أظهر من تصدى لنصوص الوحي وخاصة القرآن المسمى (نصر أبو زيد) وهو نصر حامد أبو زيد، أحد أشد عتاة أعداء الإسلام المعاصرين، يرى أن القرآن العظيم مجرد نص لغوي، وأن الوحي مجرد ظاهرة، وكل ذلك قابلٌ للنقاش والأخذ والرد؛ يتبنى العلمانية ديناً، ومناقضة الإسلام مبدأ، ومحاربة الشريعة الإسلامية غاية. اهتم بالدراسات اللغوية وعلوم القرآن وقضايا التأويل؛ محاولاً إيجاد أرضية

---

(١) الإسلام والحداثة: ص ٢٣٥ - ٢٣٦.

(٢) المصدر السابق ١٣٨.

فكرية لتقويض الإسلام، مجمل كتاباته تدل على أنه يتبنى هدم الإسلام من داخل الإسلام نفسه؛ حمْته السلطة العلمانية، ومنعت من مقاضاته، وسهلت خروجه خارج البلد؛ حيث تلقفته الجامعات الغربية في إسبانيا وهولندا وأمريكا وفرنسا.

يقول نصر حامد أبو زيد في معرض رده لنصوص الوحي المعصوم المنزل على نبينا محمد ﷺ: «... إن النصوص الدينية ليست في التحليل الأخير سوى نصوص لغوية»، «... إن النصوص الدينية نصوص لغوية شأنها شأن أي نصوص أخرى في الثقافة»(١).

ثم يخلص من هذا الكلام الهزيل ليصل إلى مراده النهائي، والذي سوف يرتب عليه نسف الدين كله؛ فيقول: «وإذا كنا نتبنى القول ببشرية النصوص الدينية؛ فإن هذا التبنّي لا يقوم على أساس نفعي أيديولوجي يواجه الفكر الديني السائد والمسيطر، بل يقوم على أساس موضوعي يستند إلى حقائق التاريخ وحقائق النصوص ذاتها»(٢).

ويستتر هذا البغيض تحت عبارات يخادع بها ويبث بها كفره مثل: الموضوعية وحقائق التاريخ وحقائق النصوص، وهو أبعد ما يكون عن

---

(١) قضايا وشهادات عدد ٢ بعنوان (الحداثة)، صيف ١٩٩٠م -١٤١٠ هـ: ص ٣٨٩ ، وَ ص ٣٩١ -٣٩٢.

(٢) المصدر السابق: ص ٣٩١ -٣٩٢.

كل ذلك، وهو من جنس حجج الكافرين السابقين: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ [الفرقان: ٥] ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١].

وها هو محمد أركون يتهكم بالمؤمنين الذين يؤمنون بأن الله خالق العالم ويصفهم بالأصوليين والأرثوذكس؛ فيقول: «...موقف المتكلمين الفقهاء، أي الأصوليين الذين يدافعون عن الموقف الأرثوذكسي كما حدده القرآن بأن العالم مخلوق من الله، وبين موقف الفلاسفة الذين قالوا بأزلية العالم ...»(١).

يقول نصر أبو زيد عن القرآن: «تتحدث كثير من آيات القرآن عن الله بوصفه ملِكاً (بكسر اللام)، له عرش وكرسي وجنود، وتتحدث عن القلم واللوح، وفي كثير من المرويات التي تنسب إلى النص الثاني -الحديث النبوي- تفاصيل دقيقة عن القلم واللوح والكرسي والعرش، وكلها تساهم، إذا فهمت فهماً حرفياً، في تشكيل صورة أسطورية عن عالم ما وراء عالمنا المادي المشاهد المحسوس»(٢).

---

(١) الإسلام والحداثة: ص ٣٤.

(٢) المصدر السابق: ص ٣٩٢.

ويقول أبو زيد: «...كان المعنى النقيض الذي ساد بعض الوقت ثم تم تهميشه بعد ذلك هو أن القرآن حادث مخلوق ارتبط إيجاده وإنزاله بحاجة البشر وتحقيقاً لمصلحتهم. ومن السهل أن ندرك أن هذا المعنى النقيض كان جزءاً من بنية فكرية أخرى تطرح رؤية للعالم والطبيعة والإنسان تتسم بالحيوية والديناميكية ... وغني عن القول: إن تلك الرؤية النقيضة هي التي أبدعت وأنجزت في مجال المعرفة العلمية تلك الإنجازات التي أفادت منها أوروبا.

وإذا كان معنى قِدم القرآن وأزلية الوحي يجمّد النصوص الدينية ويثبت المعنى الديني؛ فإن معنى حدوث القرآن وتاريخية الوحي هو الذي يعيد للنصوص حيويتها، ويطلق المعنى الديني -بالفهم والتأويل- من سجن اللحظة التاريخية إلى آفاق الالتحاق بهموم الجماعة البشرية في حركتها التاريخية... إن القول بحدوث القرآن يظل ذا أهمية تاريخية من حيث المعنى والدلالة... الذي ندعو إليه هو عدم الوقوف عند المعنى في دلالته التاريخية الجزئية، وضرورة اكتشاف المغزى الذي يُمكن لنا أن نؤسس عليه الوعي العلمي التاريخي .

إن النصوص الدينية ليست في التحليل الأخير سوى نصوص لغوية»[١].

---

(١) قضايا وشهادات ٢، صيف ١٩٩٠ م-١٤١٠هـ، ص ٣٨٨ - ٣٨٩.

أما النبوة: فكلامهم في هذا الصدد متنوع ومتعدد، بيد أن من أوائل من فتح لهم هذا الباب هو طه حسين الذي اصطنع الشك بل استنسخ الشك من ديكارت، ليسلطه على الحقائق الدينية والتاريخية، بل حتى على بعض المسائل الاعتقادية كما هو الشأن في هذه القضية التي نحن بصددها، وذلك حين ادعى أن القرآن والتوراة لا يكفيان حين يتحدثان عن إبراهيم وإسماعيل -عليهما الصلاة والسلام- لإثبات وجودهما التاريخي، فضلاً عن إثبات هذه القصة التي تتحدث عن هجرة إسماعيل إلى مكة، والنتيجة المترتبة على ذلك من انتساب العرب المستعربة إلى إسماعيل. وادعى أن هذه القصص منتحلة وضعها اليهود الذين يستوطنون شمالي البلاد العربية، وأن القرآن إنّما اصطنع هذه القصص احتيالاً لإثبات الصلة بين الإسلام واليهودية أو بين القرآن والتوراة والعرب واليهود(١).

وقد كتبت لجنة العلماء في مصر تقريراً مفصلاً عن كتاب (في الشعر الجاهلي) الذي ذكر فيه القول الشنيع عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وقد قررت اللجنة أن الكتاب (كله مملوء بروح الإلحاد والزندقة، وفيه مغامز عديدة ضد الدين مبثوثة فيه، لا يجوز بحال أن

---

(١) انظر: الصراع بين القديم والجديد ٢/ ١٩٥؛ ونقد كتاب في الشعر الجاهلي لمحمد فريد وجدي: ص ٧٦.

تلقى إلى تلامذة لم يكن عندهم من المعلومات الدينية ما يتقون به هذا التضليل المفسد لعقائدهم).

وبينوا (أنه إذا لم تكافح هذه الروح الإلحادية في التعليم ويقتلع هذا الشر من أصله وتطهر دور التعليم من اللادينية التي يعمل بعض الأفراد على نشرها بتدبير وإحكام تحت شعار حرية الرأي- اختل النظام وفشت الفوضى واضطرب حبل الأمن ؛ لأن الدين هو أساس الطمأنينة والنظام .

والكتاب وضع في ظاهره لإنكار الشعر الجاهلي، ولكن المتأمل قليلاً يجده دعامة من دعائم الكفر ومعولاً لهدم الأديان، وكأنه ما وضع إلاّ ليأتي عليها من أصولها وبخاصة الدين الإسلامي)[١].

وحتى لا يكون الكلام مجرد نقل عن الناقدين لطه حسين فإنه لا بد أن نذكر قوله بنصه لتبيان حقيقة قوله الذي أصبح فاتحة شرّ لما هو أعظم من ذلك فيما بعد.

يقول طه حسين: «للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن

(١) انظر نص التقرير في كتاب تحت راية القرآن: ص ١٦٧ - ١٧٢.

لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي فضلاً عن إثبات هـذه القصـة الـتي تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة»(١).

ثم يقول طه حسين: «نحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعـاً من الحيلة لإثبات الصلة بين اليهود والعرب مـن جهـة، وبـين الإسـلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى»(٢) .

ثم يضيف: «وقد كانت قريش مستعدة كـل الاسـتعداد لقبـول مثـل هذه الأسطورة في القرن السابع للمسيح»(٣).

إلى أن قال: «إذاً فلـيس [هنـاك] مـا يمنـع قريشـاً مـن أن تقبـل هـذه الأسطورة التي تفيد أن الكعبة من تأسيس إسماعيل وإبراهيم كما قبلـت روما أنها متصلة بإينياس بن بريام صاحب طراودة. أمر هذه القصة إذاً واضح؛ فهي حديثة العهد قبيل الإسلام؛ واستغلها الإسلام لسبب ديني، وقبلتهـا مكة لسبب ديني وسياسي أيضاً؛ وإذاً فيسـتطيع التـاريخي والأدبـي واللغـوي ألا يحفل بها عندما يريد أن يتعرف أصل اللغة العربية الفصحى»(٤).

ولا شك أن هذه الأقوال تتضمن معارضة صريحة للقرآن العظيم وتكذيباً للنصوص القاطعة وللرسول ﷺ الذي أوحي إليه من ربه:

---

(١) في الشعر الجاهلي: ص ٢٦.
(٢) في الشعر الجاهلي: ص ٢٦.
(٣) في الشعر الجاهلي: ص ٢٧.
(٤) في الشعر الجاهلي: ص ٢٩.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾. [الحج: ٢٦- ٢٧].

وهذا الذي قاله طه حسين عن القرآن هو عينه الذي قاله المشركون في القرآن من قبل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾. [الفرقان: ٤ – ٥].

لقد كان طه حسين طليعة المجترئين على حرب الوحي والرسل والرسالات، وما يزال يعد عند الحداثيين والعلمانيين صاحب طريقة يجب أن تطاع وأن تسلك؛ فها هو الحداثي عزيز العظمة يستشهد بكلام طه حسين، ويجعله منطلقاً لرفض وصاية أهواء الماضي، واعتبره برنامج عمل للفاعلية العقلانية التاريخية[1]، وقائد الريادة للممارسة الفكرية المستقلة عن الماضي، واعتبر أن الذين ردوا على طه حسين في تلك

(١) الإسلام والحداثة: ص ٢٦٩.

النصوص الخطيرة يمارسون الردة ويعملون إلى إرجاع الأسطورة وإرجاع النص إلى مكانته المتعالية ورفض المساءلة، ثم ينتقد العظمة الذين أحجموا عن القيام بمثل ما قام به طه حسين[1].

ثم ختم مقاله بقوله: «إن عنوان الحداثة العلمانية في يومنا هذا هتك أساطير البداية ووعي التاريخ والتأسيس فيه ومن سياقه العالمي، وإعادة الوصل مع كونية طه حسين مع مواضع أخرى؛ حيث تعطل الوصل بيننا وبين الترقي الثقافي والعقلي الكفيل بإعادة الاعتبار للشرط اللازم للرقي في معانيه الأعم»[2].

وهذا ما ترسخ فعلاً في مشروعات أهل الحداثة والعلمانية؛ فقد وجدوا أن الالتحاق بهذه المفاهيم هو أقرب الطرق لهدم الإسلام من خلال هدم أصوله ومصادره.

وهاهو شوقي عبد الحكيم في كتابه (موسوعة الفلكلور والأساطير العربية) يسرد أموراً هائلة من التطاول على ثوابت ومحكمات الدين الإسلامي؛ حيث أدخل في الأساطير أموراً ثابتة في القرآن والسنة، ومن ذلك أنه خصص مبحثاً عن جبريل -عليه الصلاة والسلام- باعتباره أسطورة من الأساطير العربية؛ فقال: «جبريل في المثيولوجيا العربية هو

---

(١) الإسلام والحداثة: ص ٢٧٠-٢٧١.

(٢) الإسلام والحداثة: ص ٢٧١.

رئيس ملائكة الرحمة، وأحد الملائكة الثلاثة المصرح بـذكرهم في القـرآن، (اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل). والأخير هو إسـرافيل، أحـد حملة العـرش». يصـف جبرائيـل بقولـه: «وهـو الـذي يـنفخ في الصـور نفخات ثلاث: أولاهن: نفخة الفزع، والثانية: نفخـة الصـعق، والثالثـة: نفخة البعث» كما صـوره الـنبي محمـد بقولـه: «جبريـل في صـورته ولـه ستمئة جنـاح، وكـل جنـاح منهـا قـد سـد الأفـق، يسـقط مـن جناحـه التهاويل» وهو الذي أسرى بالنبي محمد إلى السماء السابعة، وقالوا: «إنـه من شدة قوته رفع مدائن قوم لوط وكنّ سبعاً بمن فيهن مـن الأمـم ...» ويظهر جبريل في أساطير الخلق الثلاثة العبرية والعربيـة وعنـد الفلاشـا، كأحد رسل الله الثلاثة لإحضار الطين المقدس مـن الميـاه الفطريـة حـين أراد الله تشكيل العـالم والإنسـان»[1]، إلى آخـر مـا جـاء في كلامـه وهـو طويل.

وقد ساق (أدونـيس) كـلام صِنوه ابـن الراونـدي في جحـد النبـوة وامتدحــه، وشــرح كلامــه في ذلــك وفي تهكمــه بشــرع الله ورســوله وبالعبادات والأحكام، ثم يتعرض للمعجزات جاحـداً سـاخراً متهكمـاً قال أدونيس: «... ثم يرد المعجزات المنسوبة إلى النبي كحـديث الميضـأة، وشاة أم معبد، وحديث سراقة، وكلام الذئب، وكـلام الشـاة المسـمومة،

---

(١) موسوعة الفلكلور والأساطير العربية لشوقي عبد الحكيم: ص ١٩٨.

ويسخر من معجزة الملائكة الذين أنزلهم الله يوم وقعة بدر لنصرة النبي، قائلاً: «إنهم كانوا مغلولي الشوكة، قليلي البطشة، على كثرة عددهم واجتماع أيديهم وأيدي المسلمين؛ فلم يقدروا على أن يقتلوا زيادة على سبعين رجلاً!» ثم يتساءل: «أين كانت الملائكة في يوم أحد لما توارى النبي ما بين القتلى فزعاً، وما بالهم لم ينصروه في ذلك المقام ؟» وابن الراوندي هنا لا ينتقد المعجزة بذاتها وحسب، وإنّما ينتقد كذلك المنطق الداخلي المتهافت، الكيفي، لدى القائلين بها؛ فإذا كانت المعجزة هنا نصراً من الله يجيء في وقت الحاجة إليه؛ فإن حدوثها في الحالات الأكثر حرجاً وضيقاً أولى من حدوثها في الحالات الأقل حرجاً وضيقاً، ثم يحاول ابن الراوندي أن ينتقد النبي في الفكر والعمل قاصداً من وراء ذلك إبطال دعواه النبوة»[1].

يقول أدونيس: «في الشرق حروب مسعرة تحت راية نص ديني أصيل، والإنسان العربي يقاتل دفاعاً عن مبادئ لا يؤمن بها؛ فهو جندي في خدمة الأوهام، يستميت لتوطيد قيوده .

وهذه الدعوات للتقيد بحرفية النصوص قد تعنف وتتعاظم، خاصة أن الشعوب عامة تزداد تقبلاً للطروحات العقائدية والتصورات الخرافية أو ما شابه.

---

(١) الثابت والمتحول ٢، تأصيل الأصول ٧٥.

أَوَليست هذه النصوص أسساً ودعائماً لدولة إسرائيل ؟

وللنصوص العربية دور مماثل.

ما النص الأصيل؟

حسب التفسير الشائع –في الدين اليهودي والمسيحي والإسلامي– النص عالم تزول معه الإرادة الإنسانية أمام إرادة الله؛ فأيُّ معنى يبقى لعالم فقد إنسانه واحتفظ بالله والنص؟ إذ إن جوهر الإنسان في غده وليس في ماضيه.

فجذوره مهيار في خطواته، والإنسان لم يجد هويته يوم صاغ لغته فحسب، وإنّما وجد أصله؛ فمهيار نقيض كل نظام قائم على نصوص أصيلة، اتخذ الحرية مقراً والديمقراطية الاشتراكية عقيدة لا يقبل بأصل غير الإنسان»[1].

وكلامه في النبوة كثير مضمونه:

إن النبي ابن المجتمع ونتاجه، والوحي له أسبقية عند العرب تتمثل في الكهانة والشعر من حيث أن هذه جميعاً فيها اتصال الإنسان بغير الإنسان، وإلغاء الكهانة يؤدي إلى إلغاء الأساس الوجودي والمعرفي

(١) رأيهم في الإسلام : ص ٣٤ – ٣٥.

لظاهرة النبوة. وظاهرة الوحي استندت إلى مفهوم عميق في الثقافة وهو إمكانية اتصال بين البشر وبين العوالم الأخرى من الملائكة والشياطين[١].

التشكيك في أمية النبي ﷺ، والقول بأنه كان حائراً بعد مجيء الوحي أول مرة إليه، وأنه كان يتشوف إلى ما يطمئنه على صحة قواه العقلية[٢].

وممن يعتبر عند بعض الدارسين من المعتدلين في الحداثة، إحسان عباس! الذي تحدث في كتابه (اتجاهات الشعر العربي) عن الأسطورة في الشعر المعاصر وكيف استخدمها الشعراء، وضرب لذلك أمثلة عديدة، وجعل منها المسيح ويحيى -عليهما الصلاة والسلام- والخضر، وأخبار الإسراء، والمهدي المنتظر، كلها عدها من الأساطير[٣].

ويقول عبد الوهاب المؤدب: «وكان التوحيد قد اخترق الجزيرة العربية في صيغته اليهودية والمسيحية؛ فكان بعض اليهود والمسيحيين ينتظرون موسى آخر وربما وجدوه بشخص محمد؛ إذ كان رجل ثقافة واسعة وتفهّم كبير؛ فشعر أن شعبه جاهز للانضباط وعلى أهبة الاستعداد للفتح؛ فخطَّ التوحيد بلغة الضاد، وأقام وحدوية رمزية تتسم بطابع

---

(١) انظر مفهوم النص: ص ٣٤، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٥٩، ١٤٤.

(٢) مفهوم النص: ص ٧٠، ٧١.

(٣) انظر اتجاهات الشعر العربي المعاصر: ص ١٢٨ -١٢٩.

الآنية كحافز لانطلاقة العرب، وأن تتخذ تلك الوقائع الأسطورة هالة لها؛ فالأمر طبيعي .

قلت: إن محمداً كان رجل ثقافة، فلماذا ادّعوا أنه أمي، لا يقرأ ولا يكتب؟ أمِن أجل إضفاء مصداقية أكبر وشرعية أعظم تزيد الرسالة نفاذاً في النفوس؟ فكل كلام علمي يتلفظ به أمي، لا بد من أن يتجاوز قائله ليصبح مصدره إلهياً»[1]. والقول لعبد الوهاب المؤدب.

ومن أمثلة ذلك أن السياب عد وحي السماء أساطير بالية تجر القرون بمركبة من جنون ولظى وغبار السنين، يقول:

«أساطير، مثل المُدى القاسيات
تلاوينها من دم البائسين
فكم أومضت في عيون الطغاة
بما حملت من غبار السنين!
يقولون: وحي السماء!
فلو يسمع الأنبياء
لما قهقهت ظلمة الهاوية
بأسطورة بالية
تجر القرون

(١) رأيهم في الإسلام: ص ٢٢٥.

بمركبة من لظى، في جنون

لظى كالجنون!»[١].

وفي قصيدة (المومس العمياء) التي يقولون عنها بأنها إعلان انفصاله عن الشيوعيين، يتحدث عن مجموعة من البغايا يبحثن عن رجال، ثم يقول في استخفاف بالأنبياء وجحد لهم يعبر عنه بلفظ الاندحار:

«والسور يمضغهن ثم يقيئهن ركام طين

نصباً يخلد عار آدم واندحار الأنبياء»[٢].

وفي مقطع آخر يعلن عقيدته في الأنبياء وفي نبوة محمد ﷺ فيقول:

«كفرت بأمة الصحراء

ووحي الأنبياء على ثراها في مغاور مكة أو عند واديها»[٣].

٢- **المستوى الأفقي (المستوى التطبيقي).**

أ- الاعتقادي (أركان الإيمان الستة).

ب- التشريعي.

ج- العبادي.

---

(١) ديوان السياب: ص ٣٤ .

(٢) ديوان السياب: ص ٥٢٩.

(٣) ديوان السياب: ص ٦٤٢.

أ ـ الاعتقادي (أركان الإيمان الستة):

وعليها سأقتصر في هذا المدرك:

١- الإيمان بالله:

في هذا الصدد يقول حسن حنفي الذي يعد عند بعض العلمانيين والحداثيين من أصحاب التوجه الإسلامي المستنير! يقول في ندوة عقدت في لندن بعنوان (الإسلام والحداثة) عام ١٤٠٩ هـ ١٩٨٩م: «إن العالم مقسوم إلى قسمين: الله والعالم؛ فينعكس ذلك حتماً في المجتمع، على السلطان (على الحاكم والمحكوم)، وسينعكس في الأسرة على الرجل والمرأة، والسؤال الموجه لك هو أن هناك ثلاثة اختيارات، اختيار حركة تحـرر المرأة... في البداية لتحرير المرأة من الرجل، وهناك المثقف العلماني الذي يبدأ بتغـيير النظام السياسي، وهناك الذي يحاول تثوير الدين. ما لم نقضِ على هذا التصور الثنائي للعالم ورؤية العالم بين الحاكم ومحكوم، وعلى المستوى الديني بين خالق ومخلوق- فلن تستطيع حركات تحرر المرأة أن تفعل شيئاً، ولن يستطيع المثقف العلماني أن يؤدي دوره ما لم نقضِ على هذا التصور، هذا السؤال الأول في آليات التغيير»[١].

ويعد علماني آخر -وهو اللبناني عادل ظاهر- أن قضية لزوم تطبيق حكم الله في الأرض مرتبط في عقيدة المسلم بإيمانه بوجـود الله الخالق،

(١) الإسلام والحداثة: ص ٣٨٧ - ٣٨٨.

وأن هـذا الاعتقاد هو الذي يشكل الرباط المعرفي والأسبقية الاعتقادية التي ينبني عليها القول بلزوم انضواء السياسة تحت الإسلام، كما يقول بذلك علماء ودعاة الإسلام اليوم، ومن ثم يشير هذا الكاتب إلى ما يجب استبعاده من منظومات عقائد المسلم، باعتبارها الأساس للقول بوجوب الحكم بشرع الله في سائر نواحي الحياة وهي القضية التي يسعى لمحاربتها، ويرى أنه لا يُمكن استبعادها إلاّ باستبعاد أساسها الاعتقادي؛ فيقول: «...إن الكلام على الماهية العقدية للإسلام هو كلام على ذلك الاعتقاد الذي له أسبقيته ومنطقية على الاعتقادات الدينية الأخرى للمسلم. إن أسبقيته المنطقية يحتّمها كونه الأساس الأخير لكل اعتقاد آخر للمسلم. إن ما ينبغي أن نلجأ إليه في نهاية التحليل، لنقرر ما الذي يتحتم استبعاده أو عدم استبعاده، أو لا يتحتم استبعاده من منظومة اعتقادات المسلم الدينية، ومعيار الاستبعاد أو عدم الاستبعاد- هو معيار منطقي في المقام الأول»[1].

إلى أن يقول: «ولكن أي اعتقادات المسلم هو الاعتقاد المؤهل لاحـتلال هذا الوضع الإبستمولوجي الفريد في المنظومة الاعتقاديـة للمسـلم؟ إنـه لا شك الاعتقاد بوجود خالق أزلـي كلّـي الحضـور، واحـد أحـد لكـل

---

(١) كتاب الحداثة والإسلام، من مقال للبناني عادل ظاهر بعنوان (الإسلام والعلمانية): ص ٧٤ - ٧٥.

شيء، خالق واجب الوجود وكلّي العلم وكلي الخير وذي حرية تامة ومصدر للإلزام الأخلاقي، إن أي اعتقاد آخر يتعارض معه مستبعد بالضرورة من المنظومة الاعتقادية للمسلم...»[١].

وبعد سفسطات سخيفة يقول: «هل يُمكن أن يكون الله، ذو الطبيعة المسندة إليه من قبل الإسلام، كائناً يُمكن أن يأمر البشر بأن يقيموا دولتهم على أسس معينة لا سواها؛ بغض النظر عن ظروفهم الزمانية والمكانية؟ هل يُمكن لكائن له طبيعة الله أن يفرض على المؤمنين في كل عصورهم وأممهم ألا يفصلوا بين دينهم والسياسة؟ ...»[٢].

كما يحلو لمحمد أركون أن يعبر بلغة جارفة ساخرة تبعاً لتعبيرات معلميه في فرنسا وغيرها؛ ففي سياق انتقاده للغة العربية ووصفه لها بأنها منغلقة ونائمة ومتخشبة، وامتداحه للغة وفكر الغرب؛ يتساءل بعد إيراده للفظ فرنسي إلحادي يقول: «... فكيف نعبر عنه باللغة العربية؟ هل نقول: مشكل الله أو مشكلة الله؟!».

ثم يعقب بأن هذا التعبير يقابل بالاندهاش والاستنكار عند العرب في حين أنه تعبير عادي في اللغة الأوروبية الحديثة[٣].

---

(١) المصدر نفسه ص ٧٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٥.

(٣) الإسلام والحداثة: ص ٣٤٣.

ثم ينسلّ إلى مقصده الرئيسي الذي ذكره سابقاً فيما يتعلق بالله تعالى؛ فيقول عن العربي: «... لا يُمكن أن يتصور إمكانية طرح مشكلة فكرية حول الله أو مناقشة فكرية حول وجود الله؛ والسبب هو أن الخطاب القرآني يملأ مشاعره كمسلم أو كعربي بوجود الله، إنه يملأ أقطار وعيه ومشاعره إلى درجة أنه لا يبقى في وعيه أية مساحة لإثارة مناقشة فكرية حول وجود الله»(١).

أمّا لماذا كل هذا التبجح بالإلحاد ؟ فأمر يجيب عليه أحد نقاد الحداثة قائلاً: «لعل إشكالية الحداثة هي الأكثر لبساً بين الإشكالات الفكرية والثقافية والفنية التي شهدتها لوحة الثقافة العربية الراهنة .

ويبدو أن هذا اللبس والغموض المحيط بها ليس سمة الحداثة في حقل تداولها الاصطلاحي والدلالي العربي فحسب؛ بل هي ولدت في سياقها الغربي متلبسة باللبس والشك والقلق، والعقل المزدحم بتمزقاته وانشراخه...؛ حيث لا أفق سوى العدمية والاستلاب بعد إعلان (نيتشه) موت الله وموت الجمال معه. والفن لم يعد يعوض عن الحياة بل يساهم في تعميق الاستلاب نحوها؛ فسيموت الفن تاركاً إيّانا في العراء.

---

(١) الإسلام والحداثة: ص ٣٤٤.

إن الباحث وهو يجهد لاكتشاف خصائص ومميزات الحداثة وسط العوالم القاحلة والعراء الروحي إلاّ من الشمس السوداء، وقمر الكارثة الشاحب - لا بد أن يقر بصعوبة الإحاطة بكليتها عبر تناقضاتها وتفتت رؤيتها لذاتها وللعالم ... وهي إذ تطمح لإلغاء الطبيعة عبر تشييئها التقني لا تلبث أن تنتحب حنيناً إلى فردوس الطبيعة المفقود؛ فقد اغتالت الله والجمال والأخلاق والفن وراحت تندب وترثي ما اجترحته يداها.

إنها وعي المتاهة إذ تغدو المتاهة هي الحقيقة الواقعية الوحيدة، بعد أن مات الإنسان بموت الله عبر قرون من تلاشيه التدريجي ...»[1].

وأقتصر هنا على جزء من توحيد الربوبية وهو وجود الله تعالى، أما باقي قضايا الربوبية وتوحيد الألوهية والأسماء والصفات فلهم فيه كلام أبشع وأشنع.

٢- الإيمان بالملائكة:

مِن أظهر الذين جحدوا وجود الملائكة علاء حامد في روايته (مسافة في عقل رجل)؛ حيث يجعل الإيمان بالملائكة ثمرة للإيمان بالله الذي يرى أن نفيه هو الذي سيؤدي إلى نفي كل ما يترتب عليه من

---

(١) قضايا وشهادات ٢/ ٢٧٥ - ٢٧٦ من مقال لعبد الرزاق عيد بعنوان (الحداثة: عقيدة الأفاعي)، وفيه ثناء وإطراء للماركسية والزعم أنها أبدية وأنها العقلانية الوحيدة، ويتوقع مستقبلاً زاهراً لها، ويثني على الحداثة ورموزها وطموحاتها.

غيبيات؛ فيقول: «... من الأهمية بمكان أن نشذب فكرة وجود الله من أغصانها السرطانية بالالتجاء لقفص العقل، ورفض توارث فكرة وجود الله ... إن الإيمان بوجود الله من خلال الأديان؛ والتي تطالب الإنسان أيضاً بالإيمان بأمور تتخطى نطاق التفكير، وتربط قضية وجود الله بهذه الأمور ارتباط الجنين بالمشيمة والجذر بالتربة؛ فطالما آمن الإنسان بوجود الله عن طريق الأديان فعليه تقبل كل ما يتصل بوجود هذا الإله من جنة ونار، وشياطين وملائكة، وجن صالح وجن طالح، وإبليس ومعاونيه؛ حتى لا يجرفه الإنكار إلى النار المحرقة»(١).

أمّا صلاح عبد الصبور فإنه يذكر ملك الموت في صورة أخرى من التهكم والاستخفاف قائلاً:

«وفي مساء واهن الأصداء جاءه عزريل

يحمل بين أصبعين دفتراً صغيراً

ومد عزريل عصاه

بسر حرفي (كن) بسر لفظ (كان)

وفي الجحيم دُحرجت روح فلان

يا أيها الإله!

---

(١) مسافة في عقل رجل: ص ١٩١.

كم أنت قاسٍ موحش يا أيها الإله!»[(١)].

٣- **الإيمان بالكتب:**

أثناء قراءة كتب ومقالات أعداء الوحي من المستغربين من أبناء المسلمين يجد الباحث أنهم لم يخرجوا عن المفهوم الغربي في دراستهم لدين الإسلام، ولذلك تجدهم يرددون بإمعيّة كاملة ألفاظ ومصطلحات أساتذتهم فيطلقون على الوحي مصطلح (ميثولوجيا) أي: مجموعة الأساطير التي تعمل على فك مستغلفات الحياة والموت، ويجعلون المنهج (الميثولوجي) أساس دراستهم، باعتباره علماً يعالج تصنيف المعتقدات ويحللها ويقارنها وفق المفهوم الغربي بطبيعة الحال .

وأحياناً يسمون نصوص الوحي (الميثات) جمع (ميث) وهي الأسطورة والقصة الخرافية التي يسودها الخيال، وإذا تكلموا عن الدين أطلقوا عليه اسم (ثيولوجي) وهو مصطلح يعني اللاهوت بالمفهوم الغربي النصراني واليهودي، ويعرفونه بأنه علم يبحث في وجود الله وذاته وصفاته، ويسمى أيضاً (ثولوجيا) وعلم الربوبية والإلهيات. واللاهوت الطبيعي يعتمد على التجربة والعقل وحدهما دون الرجوع إلى النقل، ويقابله عندهم اللاهوت المنزَّل؛ ويعتمد على النصوص المقدسة.

---

(١) ديوان صلاح عبد الصبور: ص ٣١.

وإذا تعرضوا لدراسة الوحي ونصوصه تخاطروا بألفاظ تلقوها عن أساتذتهم، وتنافروا بالمصطلحات الغربية على أساس أنها هي الحق والحقيقة والعلم، من أمثال (الفيلولوجيا) وهي الطرق التي تستهدف إنجاز نص، وتسهيل قراءته ونقده، ودراستها النقدية من خلال الوجهتين التاريخية والمقارنة[(١)].

وقد استخدموا هذا المنهج النقدي تبعاً لسينوزا وغيره، وحاولوا من خلال هذا النقد هدم نصوص الكتاب والسنة كما فعل الغربيون في الكتب المحرفة، أو التشكيك في ثبوتها وصحتها أو في مدلولاتها القطعية، كما أنهم استعملوا لهذا الغرض الأخير منهج التأويل المعاصر الذي يطلقون عليه مصطلح (هرمنيوطيقيا) وهي طريقة تأويل، تدرس المبادئ المنهجية في التعامل مع النصوص وتفكيك رموزها وكشف أغوارها، وتستهدف في ميدان الوحي - الذي هو أهم ميدان للهرمنيوطيقيا - الدراسة التأويلية للرموز والاستعارات، وتعني استخلاص المعنى الكامن انطلاقاً من المعنى الظاهر، أو الانطلاق من المعاني المجازية بحثاً عن المعاني الحقيقية .

وقد استخدم هذا المصطلح في أول الأمر في دوائر الدراسات اللاهوتية ليشير إلى مجموعة القواعد والمعايير التي يجب أن يتبعها المفسر

---

(١) انظر: الفيلولوجيا في: معجم المصطلحات المعاصرة لعلوش: ص ١٧١.

لفهم النص الديني (الكتاب المقدس) عند الأوروبيين من يهود ونصارى، ثم اتسع مفهوم هذا المصطلح ليشمل كل العلوم الإنسانية، غير أن الحداثيين والعلمانيين في سياق تبنّيهم لسبينوزا ومناهجه، توجهوا إلى الوحي من كتاب وسنة لدراسته على أساس المنهج التأويلي (الهرمنيوطيقي) حسب مفهوم تعبير الغربيين، وتعريب المستغربين[(١)].

ومن المصطلحات التي تقمصها المنهزمون من أبناء المسلمين في دراستهم للوحي مصطلح (التاريخية) أو (التاريخانية)، وقد أغرم بهذا المصطلح إلى حد التقديس محمد أركون ونصر أبو زيد، ويفضل أركون استخدام التاريخية ويفصل بينها وبين التاريخانية، على اعتبار أن التاريخانية هي التي تقول بأن كل شيء أو كل حقيقة تتطور مع التاريخ وتهتم بدراسة الأشياء والأحداث من خلال ارتباطها بالظروف التاريخية، ويرى أركون بأنه يجب تجاوز هذا المعنى إلى (التاريخية) التي تسمح وحدها بتجاوز الاستخدام اللاهوتي أو القومي، وبشكل عام الإيديولوجي للتاريخ[(٢)].

ويتعامل المستغربون مع الوحي على الطريقة الغربية، باعتباره فكرة من الأفكار، ويدرسون كيفية انتشاره، والنزعات التي أثرت في وجوده

---

(١) انظر عن (الهرمنيوطيقيا): معجم المصطلحات الأدبية لسعيد علوش: ص ٢٢٤ - ٢٢٥، ومعجم المصطلحات والشواهد الفلسفية: ص ٩٠ - ٩١، وإشكاليات القراءة وآليات التأويل لنصر أبو زيد: ص ١٣، ٢٠، ٢٧، ٣٠، ٤٤.

(٢) انظر: الفكر الإسلامي قراءة علمية لأركون: ص ١٣٩.

وتطوره، مستبعدين قضية عصمة الوحي وعصمة المبلغ ووحدانية الموحي والآمر به، ثم يصدرون بناء على دراسة الظروف والملابسات والأوضاع التي مرت بها نصوص الوحي -وفق معلوماتهم، وحسب أغراضهم ومقاصدهم- الأحكامَ على النصوص وخاصة القرآن عند المستغربين من أبناء الشرق، ويطبقون سائر مقتضيات هذا المنهج (التاريخي) على نصوص الوحي بصورة تدل على اعتقادهم العميق بعصمة وصحة هذا المنهج، وهم في (التاريخية) و (الهرمنيوطيقيا) أتباع مخلصون لفلسفة مارتن هايدغر، ومتعصبون للمنهج التاريخي، ويعتبرون أن المعرفة التاريخية هي الأداة الأساسية لدراسة النصوص والمصير الإنساني، ويرون أن المنهج التاريخي قادر على الكشف .

من الأمور التي تعرّض لها أركون في دراساته (السوربونية) دراسة الوحي ونصوصه على ضوء عقيدة خاصة، ليست عقيدة الإسلام، قال عنه مؤلفا كتاب (رأيهم في الإسلام): «صاحب عقيدة، واثق من صلابة تفكيره وصواب رأيه ووضوح مواقفه...، يحافظ على اتصال دائم مع التطور الغربي، مخاصماً مسلمين كثر؛ فوجئوا وصدموا باستعماله، في خواطره وأبحاثه التاريخية، نظريات استوحاها من حياة القرن العشرين وأوروبا، وعلم اللغات وتحاليل اجتماعية وأصول تنظيمية، همه الأوحد تطهير رؤى هؤلاء لإسلامهم من الخرافات والأوهام

والشوائب التي تشوبها...، فإعادة النظر بمجموع التقاليد الإسلامية لتوحيدها وكشف الرواسب المتراكمة التي عثَّرتها منذ الدعوة القرآنية، هي موضع اهتمام محمد أركون كما المصلحين المحدثين، مصدرها سلطان النص المطلق، وشرعية هذا السلطان الذي لا يخلو من تعصب نظري، فينبغي أن تؤدي الثقة العارمة بالنص إلى التقليل من أهمية التجدد في النظرة -أكانت شرقية أم غربية- إلى الإسلام، التي تواكب عمل أبرز أخصائي مسلم بالدين، ولا ريب، لغته فرنسية»[(١)].

يتحدث أركون عن التاريخية والهرمنيوطيقيا التي يدرس على ضوئها ثبوت القرآن وسيادته، ويتحدث أن سلطته جاءت من الدولة الأموية التي جعلته مصدر السلطة العليا فيقول: «... إنه عائد إلى الدولة الرسمية التي وُضِعتْ منذ الأمويين بمنأى عن كل دراسة نقدية؛ لأنها أرادت أن تجعل منه مصدراً للسيادة العليا والمشروعية المثلى التي لا تناقش ولا تمس، لقد فرضت هذه الوظيفة السياسية للقرآن نفسها منذ أن تم تشكيل المصحف»[(٢)].

وواضح أنه لا يرى للقرآن قداسة ولا أحقية في السيادة، وأنه لم يمتلك هذه الأحقية لكونه كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه

---

(١) رأيهم في الإسلام : ص ١٤٥ – ١٤٦.

(٢) الفكر الإسلامي: قراءة علمية لمحمد أركون: ص ٥١.

ولا من خلفه كما يعتقد كل مؤمن، بل يرى أن هـذه السـيادة والأحقيـة نالها القرآن بالفرض السياسي منذ أن تم جمع المصحف .

ويتحدث أركون في موضع آخر مـن كتابـه عـن مـا يسـميه (ظـاهرة التقديس) للقرآن العظيم، فيرى أنها من ممارسـة «... الـذين يسـتمتعون في اجترار نفس الكلام بسبب الكسل أو الجهـل»[1]، ويـرى أن المشـروع الأسمـى هـو أن «نجمـد كـالأقنوم عامـل التقـديس الموجـود في القـرآن والأناجيل والتوراة»[2]. وإنه لا بد من «... بلورة نظرية مُرضـية لظـاهرة التقديس، أو لانبثاق ظاهرة التقديس ومنشئها ومسارها داخـل الـوعي، ودعاماتها المتغيرة في الوجود البشري، فإننا عندئـذٍ نكتشـف أن مشـاكل الصحة والموثوقية أو الاختراع والتحريف الذي لحق بالنصـوص المتلقـاة على أنها مقدسة، أقول: نكتشف بأن هذه المشاكل ثانوية في الحقيقـة. إن منطـق الثالث المرفوع -منطق الصحة أو اللاصحة- يبـدو عندئـذٍ تافهـاً لا أهمية له؛ لأننا نكتشف قارات أخرى مـن الحقيقـة النفسـية واللغويـة والتاريخية للإنسان، كانت هذه القارات قد طُمِرت أو طمست وأزيحـت

---

(١) الفكر الإسلامي: قراءة علمية لمحمد أركون: ص ٥٨.

(٢) الفكر الإسلامي: قراءة علمية لمحمد أركون: ص ٦٦.

من ساحة البحث والتفكير عن طريق ثيولوجيا من نوع منطقي – مركزي ...»[١].

إن اطّراح أركون لقضية الصحة والموثوقية لنصوص الوحي واعتبارها قضية تافهة لا أهمية لها – مجرد دعوى يغطي بها مقصده من منهجيته القائمة على دراسة (التقديس) أو تجميد التقديس من خلال ما يسميه الحقيقة النفسية واللغوية والتاريخية بعيداً عن أي نظرة دينية أو حسب تعبيره: (ثيولوجية)، إن هذه الالتفافة البعيدة سوف يصل من خلالها إلى إسقاط صحة وموثوقية النص القرآني المقصود بدراسته، وهذا ما يحاول فعله حقيقة تحت أردية الألسنة والتاريخية ؛ لأن إسقاط القداسة أو تجميد القداسة سوف يؤدي إلى جعل القرآن مثل أي كلام بشري؛ فلا حرمة له ولا مكانة، ويُمكن مناقشته بنيوبياً كما يدعو نصر أبو زيد، أو ألسنياً كما يدعو أركون، وبذلك ينزلونه في سوق تلاعباتهم الفكرية التي لا تصلح لدراسة كلام شاعر أو أديب لما فيها من التناقض والفوضوية، فضلاً عن دراسة كلام الله العزيز الحميد .

وفي موضع آخر يتكلم عن صحة القرآن وثبوته باعتباره مجرد فرضية[٢].

---

(١) الفكر الإسلامي: قراءة علمية لمحمد أركون: ص ٥١.

(٢) انظر: الفكر الإسلامي: قراءة علمية لمحمد أركون: ص ٦٦.

ثم يتكلم أركون عن أن الخطاب الإسلامي لم يستطع التوصل إلى التمييز في القرآن ونصوص الوحي بين الأسطورة والتاريخ، وإنه (أي: الخطاب الإسلامي المعاصر): «لا يزال بعيداً جداً عن تاريخانية القرن التاسع عشر الأوروبية التي توصلت إلى تهميش العامل الديني والروحي المتعالي وحتى طرده نهائياً من ساحة المجتمع، واعتباره يمثل إحدى سمات المجتمعات البدائية»(١).

ويصف أركون قصة أصحاب الكهف بأنها أساطير(٢).

ويعيد الكلام عن الخطاب الإسلامي المعاصر فيصفه بأنه «... الذي يزعم أنه يحرك التاريخ المعاصر، ويجد له من جديد ديكتاتورية الغاية المثلى على طريقة الإسلام البدائي، هذا الخطاب هو خطاب أيديولوجي، مغلق على البعد الأسطوري والرمزي ذي الأهمية الحاسمة جداً في القرآن»(٣).

يقول أركون: «العقل الديني... يشتغل داخل إطار المعرفة الجاهزة، ويستخرج كل المعرفة الضخمة استناداً إلى العبارات النصية للكتابات المقدسة من قرآن وأناجيل (توراة)، وإذن فالعقل الديني بطبيعته عقل

---

(١) المصدر السابق: ص ٦٨.
(٢) الفكر الإسلامي: قراءة علمية لمحمد أركون: ص ٨٤.
(٣) الفكر الإسلامي: قراءة علمية لمحمد أركون: ص ١٠٩.

تابع لا مستقل، وبالتالي فهو لا يطرح مشكلة أصل الوحي المعطى، أو معطي الوحي: أي الوحي كظاهرة موضوعية موجودة بغض النظر عن مشاعرنا الذاتية، تماماً كوجود الظواهر الفيزيائية أو البيولوجية ...، ومن هنا جاء تقديس الشريعة والقانون الإسلامي واعتباره فوق البشر والتاريخ»(١).

ويتصدى الصادق النيهوم -كعادته- للإسلام ومصدره الأول القرآن العظيم، ثم للمصدر الثاني السنة المطهرة، فيقول: «ميزة كل كتاب مقدس أن معلوماته تصبح تلقائية غير قابلة للجدل، وهي ميزة مفيدة -فقط- إذا كانت المعلومات نفسها حقائق نهائية...، أسطورة تعلن أن المرأة نفسها مجرد مخلوق جانبي صنعه الرب من ضلع آدم، وهي ترجمة سحرية لحكمة تريد أن تقول: مكان المرأة إلى جانب الرجل.

وإذا كان الحجاب قد أصبح الآن فريضة إسلامية، يدعو إليها الوعاظ علناً باسم الإسلام، فإن هذه الدعوة ليس مصدرها النص القرآني بل مصدرها أن الواعظ المسلم يتكلم لغة عبرانية من دون أن يدري؛ فمنذ مطلع القرن الهجري الأول كان الفقه الإسلامي يتلقى علومه بحماسة كبيرة في مدرسة التوراة، وكان موضوع الطمث قد أعيد إلى خانة (النجاسة) من جديد؛ فتحولت المرأة المسلمة خلال فترة الطمث إلى امرأة

---

(١) الإسلام والحداثة: ص ٣٣٨.

(غير طاهرة) مرة أخرى، وعمد الفقهاء إلى إبطال صلاتها وصيامها طوال أيام المحيض، في فتوى لا تستند إلى نص القرآن بل تستند إلى قول التوراة «كل شيء مقدس لا تمس، وإلى المقدس لا تجيء»... فحجاب المرأة ليس شريعة من أي نوع بل منهجاً تربوياً مكتوباً بلغة السحرة، قاعدته النظرية أن (المرأة مخلوق نجس) وقاعدته العملية أن تقنع المرأة نفسها بقبول هذه الشخصية، وهي كارثة تحققها فكرة الحجاب... فالمرأة المحجبة لا تخفي نفسها كالطفل داخل عباءة لأنها امرأة ورعة؛ بل لأنها امرأة مسحورة، تعرضت لحرب نفسية رهيبة، شنها السحرة ضدها طوال ثلاثة آلاف سنة، ضمن خطة تربوية مكتوبة بلسان أكبر ساحر في العالم، وقد نجم عن هذا الضغط الهائل شل عقل المرأة وتدنيس جسدها، وأتاح إدانتها -شرعياً- بأنها (ناقصة عقل ودين) وأحالها إلى مخلوق مريض في حاجة ماسة إلى رحمة الله. إن الحجاب فكرة فظيعة إلى هذا الحد»[1].

٤- الإيمان بالرسل:

مرّ معنا في الكلام السابق شيء من موقفهم من الوحي والكتب المنزلة، من تكذيب وتشكيك وسخرية واستهزاء ومضادة ومعاندة.

وما قالوه هناك في الكتب ينطبق على ما قالوه في الرسل الكرام لتلازم ما بين الأمرين في الأصل؛ ولأن الحداثيين تلقوا الانحراف في

---

(١) مجلة الناقد، العدد ١٣ تموز ١٩٨٩م، ١٤٩ هـ: ص ٦ – ٧.

الرسل والكتب على السواء، باعتبار التلازم الذي بينهما، ثم إن أساتذتهم الذين أخذوا عنهم هذه الانحرافات تعرضوا للكتب والرسل معاً، وكذلك فعل التلاميذ .

والكلام هنا امتداد تفصيلي -بعض الشيء- لما سبق، وفي كلامهم أوجه عديدة من انحرافهم في الرسل والرسالات، ومنها:

١ - جحد الرسالات والتشكيك في وجود الرسل وفي صدقهم.

٢ - البغض والاستهانة والسخرية بالرسل وأعمالهم وأقوالهم.

٣ - جعل الرسل والرسالات مناقضة للعقل وسبباً للتخلف.

٤ - القول في الرسل بأقوال الديانات المحرفة.

٥ - إطلاق أسماء وأوصاف وخصائص الرسل على غيرهم.

ولضيق المقام سنأتي بشواهد لبعض هذا وسأبدأ بمن يعتبر عند بعض الدارسين من المعتدلين في الحداثة، وهو إحسان عباس! وقد تحدث في كتابه (اتجاهات الشعر العربي) عن الأسطورة في الشعر المعاصر وكيف استخدمها الشعراء، وضرب لذلك أمثلة عديدة، وجعل منها المسيح ويحيى -عليهما الصلاة والسلام- والخضر وأخبار الإسراء والمهدي المنتظر، كلها عدها من الأساطير(١) .

---

(١) اتجاهات الشعر العربي المعاصر: ص ١٢٨ - ١٢٩.

وسوف أعرض هنا نموذجاً للفكر الملوث القائم على المغالطة والافتراء الجريء على الحقائق الثابتة، وهذا يعطينا تصوراً عن نوعية القوم الذين يريدون أن يهدموا دين الإسلام بسواعدهم الضعيفة وأفكارهم الكليلة، ويعطينا صورة عن الموضوعية المدعاة والعقلانية المزعومة، يقول أحدهم: «إن سمو التوحيد – كل توحيد – يتطلب برهاناً كما الوثنية ؛ لأنها إنشاءات تقام على افتراضات»(١).

وإذا نظرنا في تقسيم التدين فإنه لا بد أن يكون: إمّا توحيداً، وهو كَمِلّة أهل الإسلام؛ وإمّا وثنية، كمن عداها، حتى ولو كان صاحبها يدعي الإلحاد وعدم الإيمان بشيء فإن ذلك في حد ذاته وثنية .

وبما أن القائل يعيش الوثنيات المعاصرة ويتلبس بمفهوماتها فهو لا يحتاج إلى برهان في وجودها ووجود أتباعها، إذن هو يتطلب برهاناً للتوحيد الذي يبدو أنه يجحده أو يشك فيه؛ وحيث إن الرجل فرنسي النزعة فسوف نأتيه بفرنسي يحدثه عن المصدر الذي يتضمن إثبات التوحيد وتأكيده .

ومن أمثلة ذلك قول السياب حيث عد وحي السماء أساطير بالية تجر القرون بمركبة من جنون ولظى وغبار السنين، يقول:

---

(١) رأيهم في الإسلام: ص ٢٢٤، والقول لعبد الوهاب المؤدب من المغرب العربي.

«أساطير، مثل المُدى القاسيات
تلاوينها من دم البائسين
فكم أومضت في عيون الطغاة
بما حملت من غبار السنين!
يقولون: وحي السماء!
فلو يسمع الأنبياء
لما قهقهت ظلمة الهاوية
بأسطورة بالية
تجر القرون
بمركبة من لظى، في جنون
لظى كالجنون!»[1].

وفي مقطع آخر يعلن عقيدته في الأنبياء وفي نبوة محمد ﷺ فيقول:

«كفرت بأمة الصحراء
ووحي الأنبياء على ثراها في مغاور مكةٍ أو عند واديها»[2].

أما نزار قباني فيقول على سبيل التهكم:

---

(١) ديوان السياب: ص ٣٤.

(٢) ديوان السياب: ص ٦٤٢.

«وأنبياء الله يعرفونني

عليهم الصلاة والسلام

الصلوات الخمس لا أقطعها

يا سادتي الكرام

وخطبة الجمعة لا تفوتني

يا سادتي الكرام

من ربع قرن وأنا

أمارس الركوع والسجود

أمارس القيام والقعود»[1].

ثم عقب بعد ذكر هذه الأعمال والعقائد الإسلامية وغيرها:

«... وهكذا يا سادتي الكرام

قضيت عشرين سنة

أعيش في حظيرة الأغنام

أعلف كالأغنام

---

(١) الأعمال الشعرية لنزار قباني ١/ ١٣٢.

أنام كالأغنام

أبول كالأغنام

أدور كالحبة في مسبحة الإمام

لا عقلي لي، لا رأس، لا أقدام

استنشق الزكام من لحيته

والسل في العظام

قضيت عشرين سنة

مكوَّماً كرزمة القش على السجادة الحمراء

أجلد كل جمعة بخطبة غراء»[1].

٥- الإيمان باليوم الآخر:

هذه العقيدة القطعية الثابتة الصحيحة التي يعتقدها أهل الإسلام، نجد أن المتطاولين على الثوابت قد كذبوها وخالفوها وأنكروها: إمَّا بالكلية كما هو حال أكثرهم؛ وإمَّا في بعضها، والتكذيب ببعض كالتكذيب بالكل؛ وإمَّا بالشك والارتياب في حصولها، والشك تكذيب ومناقضة لليقين الواجب .

(١) المصدر السابق ٣/ ١٣٢ – ١٣٣.

ونجد في منثور أقوالهم وأصول عقائدهم الجحدَ الصريح ونفي البعث، والسخرية بالنصوص الشرعية والعقائد اليقينية المتضمنة لإثبات اليوم الآخر وما وراءه .

وهم في هذا كله ينطلقون من أصولهم المادية الإلحادية، التي بنوا عليها أسس فكرتهم ومنطلق توجههم ووجهة إبداعهم؛ فلم يتجاوزوا حدود أقوال الدهرية القدماء بل قالوا بقولهم في أبدية الدنيا والدهر، وكرروا مضامين عقائدهم، وبعضهم قال بتناسخ الأرواح؛ فهم -إذن- لم يتجاوزوا الأسس الإبليسية التي أضل بها من قبلهم، وإن توغلوا في ذلك ونوعوا العبارات، واستخدموا أساليب الأدب واللغة، ولغة الفن والصحافة والإعلام، وخادعوا بالادعاءات العلمية والمزاعم العقلية، وغير ذلك من الأساليب الحداثية المشهورة.

وإذا نظرنا إلى أقوال هؤلاء الجاحدين للبعث أو المشككين فيه فإننا نجدهم عدة أضرب:

الأول: الجاحدون الملحدون، فهؤلاء أنكروا وجود الخالق تعالى، وتبعوا أقوال الفلاسفة الدهريين الطبائعيين الماديين، ومن هؤلاء الشيوعيون والوجوديون .

الثاني: الذين يعترفون بوجود الخالق، ولكنهم يكذبون بالبعث والمعاد والنشور والآخرة .

وسلفهم في ذلك كفار الجاهلية الأولى الذين كانوا يعترفون بأن الله خلق السموات والأرض: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، وهم مع ذلك يقولون كما حكى الله - تعالى- عنهم: ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، [النمل: ٨١ -٨٢].

والمنطق الجاهلي نفسه يردده المنحرفون المحدَثون؛ حيث يدّعون أنهم يؤمنون بالله، ولكنهم يزعمون أن الله -تعالى- عاجز عن إحيائهم بعد إماتتهم وبعثهم بعد فناء أجسادهم .

وهذا القِسْم هو الذي ضرب الله لهم الأمثال، وساق لهم الحجج والبراهين لبيان قدرته على البعث والنشور، وأنه -سبحانه- لا يعجزه شيء، وفي مضمون ذلك رد على سائر المكذبين والجاحدين والمنحرفين.

الثالث: الذين يؤمنون بالمعاد على غير الصفة التي جاء بها الشرائع وتحدث بها الوحي؛ فهم يحرّفون الكلم عن مواضعه، ويؤولون الحق بتأويلات باطلة فاسدة خاطئة، ويزعمون أنهم مهتدون.

وهذا الصنف هو أخبث الأصناف وأشدها ضرراً؛ لأنهم يتلبسون بالدين، ويستخدمون آلته في محاولة هدمه وتخريبه، تحت مسميات التحرر الفكري، والمسايرة للعصر، والنظرة التنويرية للنصوص، والتجديد للفهم،

وتجاوز العقليات الجامدة والتفسيرات السلفية الثابتة، وتقريب الإسلام من روح العصر، وعقلنة الدين وعلمنة الشريعة، إلى آخر دعاوى الأدعياء الذين يصدق عليهم قول الله -تعالى-: ﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[المنافقون:٤].

ومن الأمثلة قول الحداثي المحترق جابر عصفور في سياق حديثه عن الموقف المضاد للحداثة في كتاب الأخ الشيخ عوض القرني، ومقدمته التي كتبها سماحة العلامة الشيخ عبدالعزيز بن باز، ويصف ذلك بأنه خطاب إرهابي قمعي تسلطي ينبني على «... الثقافة التي يغلب عليها الاتّباع والتقليد، وبنية المجتمع يغلب عليه الخوف والإذعان، وذلك في متواليةٍ تؤجج عمليات التناص الديني السياسي الاجتماعي في لا وعي المتلقي، حيث تتجاوب المخزونات اللاشعورية الملازمة لسلطة الدولة الإرهابية وأجهزتها القمعية وعنفها اللاإنساني، والمخزونات المصاحبة للقيم الدينية، حيث الخوف من عذاب القبر والرعب من نار الآخرة...»(١).

يعبر أحدهم عن سخطه على التعليم والتأليف في بلاد المسلمين الذي قام في مجمله على الإيمان بالله واليوم الآخر، فيقول:

«خدعتنا مقاعدنا المدرسية

---

(١) الإسلام والحداثة، ص ٢٤.

لم تعد النار ناراً وتلك الجنان جناناً

سوى في الكتب ...». ثم يقول:

«سأدخل مع روحي الآن حربْ

وألقى بها في مهب الذنوب

المعدة للصالحين هناك ...

سأحيا ذنوبي هنا كلها»[(١)].

أمَّا نازك الملائكة فإنها تعبر عن شكها في البعث بتقريرها أنه ليس هناك إلاّ الفناء وأنه لا حياة خالدة بعد الموت، وذلك في قولها:

«قالوا: الخلود

ووجدته ظلاً تمطى في برود

فوق المدافن حيث تنكمش الحياة

ووجدته لفظاً على بعض الشفاه

غنَّته وهي تنوح ماضيها وتنزله اللحود

غنَّته وهي تموت ... يا للازدراء!

---

(١) مجلة الناقد، العدد ٨ فبراير ١٩٨٩ م/١٤٠٩ هـ، ص ٣٥، من مقطوعة بعنوان (قصيدتان للحداثي الفلسطيني إبراهيم نصر الله).

قالوا: الخلود، ولم أجد إلاّ الفناء»[١].

أمَّا صلاح عبد الصبور فإنه يعبر عن عقيدته في هذه القضية العظيمة بقوله:

«وقيل لكم:
بأن حياتكم جسر، وأن بقاءكم مسطور
خطى تخطى بميقات إلى دارٍ ببابين
نطوف بها كومض شعاعة العين
وأن العاقل المبرور من يحيا بلا زاد
يجمع زاد راحلته
لأن وراء هذه الدار فيما قد رواه الناس
شطوطاً طاميات موجها ديجور
ولولا سيف نور شق ظلماها
وملاح على مركب
يقول لمن أحث الخطو في دهليزها:
اركب!

---

(١) ديوان نازك الملائكة: ٢/ ٨٧.

ولولا ومض مصباح يلوح لمقلة الملاح

لضل الركب في التيه سنين مئين

أقول لكم: بأن الزيف قد يقتات بالفطنة، وسقْط القول قد يعلو بأجنحة من الترديد»[1].

أمّا نزار قباني الممتلئ ببغض الشرق والعرب والمتخم بأنواع الضلالات؛ فإنه يجعل من التخلف الإيمانَ بما شرع الله وبما أخبر به عن يوم القيامة، يقول:

«في ليالي الشرق لما

يبلغ البدر تمامهْ

يتعرى الشرق من كل كرامةْ

ونضال

فالملايين التي تركض من غير نعال

والتي تؤمن في أربع زوجات

وفي يوم القيامة...».

إلى أن قال في نهاية المقطع:

---

(١) ديوان صلاح عبد الصبور: ص ١٦٧ - ١٦٨.

«شرقنا المجتر تاريخاً

وأحلاماً كسوله

وخرافات خوالي»[1].

٦- الإيمان بالقدر:

ومن أظهر تطاولهم في باب القدر ما يلي:

١ - نفي وجود القدر، ونفي قدرة الله تعالى، وجعل القدر خرافة وكذباً.

٢- ذم القدر والاعتراض عليه، وجعل الإيمان سبباً للتخلف والتحجر والمهانة والسذاجة.

٣ - التهكم والسخرية والاستخفاف بالقدر وبالمؤمنين به.

٤ - نسبة التقدير والقدر إلى غير الله تعالى، وزعم القدرة على تغيير مجرى القدر المكتوب.

٥ - نسبة الشر إلى الله عَزّ وَجَلَّ.

٦ - تبرير الرذائل والانحرافات بالقدر.

٧ - نسبة الأعمال الإرادية إلى القدر.

---

(١) الأعمال الشعرية لنزار قباني: ١/ ٣٦٧ - ٣٦٨ .

وها هو أحدهم في كتابه (بحثاً عن الحداثة) يقول: «في الخرافة يتجلى ثاني أساسيات الثقافة العربية بوصفه تفسيراً للفاعلية وتعليقاً لها على وجود آخر غير منظور، وتنتشر تمثلات الخرافة تحت شتى المسميات، فهي القدر مرة، وهي الشيطان أو الكائنات الأسطورية مرة أخرى...»[1].

ويقول الفيتوري:

«ولأنَّ القدر السيد عبد يتأله

والنبوات مظله

والديانات تعله

هبَّ من كل ضريح في بلادي

كل ميت مندثر

كل روح منكسر

ناقماً على البشر

كل أعداء البشر

كافراً بالسماء، والقضاء والقدر»[2].

ويقول سميح القاسم:

---

(١) بحثاً عن الحداثة لمحمد الأسعد، ص ٦٦.

(٢) ديوان الفيتوري، ١/ ١١٣.

«كنت طفلاً، آنذاك...
علَّموني أن مجرى الأرض في كف السماء
علَّموني أنه -سبحانه - يحيى ويفني ما يشاء
علَّموني أن أطيع الأولياء
دون أن أسأل: من كانوا؟
وماذا صنعوا للتعساء؟!
علَّموني الدجل والرقص على الحبل
وإذلال النساء
علموني السحر والإيمان بالأشباح
والرقية والتعزيم
والخوف إذا جاء المساء!
علموني ما يشاؤون، ولم يستنبئوني ما أشاء
فرس الخضر .. كفيل بي
وحسبي الفقهاء!
يا أبي المهزوم .. يا أمي الذليلة!
إنني أقذف للشيطان، ما أورثتماني
من تعاليم القبيلة!
إنني أرفضها تلك الطقوس الهمجية

إنني اجتثها من جذرها

تلك المراسيم الغبية

إنني أبصق أحقادي وعاري

في وجوه الأولياء الصالحين

إنني أركل قاذورات ذلي وانكساري

للتكايا والدراويش

وأقزام الكراسي النابحين!

إنني أصرخ من قعر جحيمي:

يا وحلاً لصقت في نعل تاريخي العظيم

إنني أحكم بالموت عليك»[1].

وعند هذا الحد أتوقف لأني قد أطلت وأتيت بما يتجاوز عدد الصفحات المطلوبة، ولعله إن أتيحت فرصة أخرى أن يتم استكمال عناصر خطة هذا البحث، نسأل الله التوفيق، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله.

---

(١) ديوان سميح القاسم المصدر السابق: ص ٢٣٨ – ٢٣٩.

ل ا لأ لل سادس

تقويم تجربة الأمة

بعد أزمات التطاول على الثوابت

دور الحكومات والمؤسسات وتقويم تجربتها بعد أزمات التطاول على الثوابت

رائد حليحل

وجْهُ الإخفاقات في المواقف القريبة للأمة في تعظيمها للحرمات

د. الشريف حاتم العوني

تقويم تجربة الشعوب الإسلامية بعد أزمات التطاول على الثوابت

د. عادل الشدي

دور الحكومات والمؤسسات

وتقويم تجربتها بعد أزمات التطاول على الثوابت

رائد حليحل

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَـٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد:

فيقول الله -عزَّ وجل-: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَـٰبِكُمۡ ۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـًٔا ۗ وَسَيَجۡزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

فالآية الكريمة صريحة توضح لنا أن حرمة رسول الله بعد مماته كحرمته قبل مماته، وعلى أتباعه أن يثبتوا على دربه ونهجه، وبذلك يكون لهم الفلاح المطلق الذي يشمل الدنيا والآخرة، كقوله -سبحانه-: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فلا بد إلى جانب الإيمان والاتباع من التعزير والنصرة؛ فالله -عزَّ وجلّ- الذي امتن عليه بنصره: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠]. وبيّن أيضاً منّته بنصرة المؤمنين له: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الأنفال: ٦٢].

وهذه النصرة، وإن كانت متعينة على كل مسلم؛ كل بحسبه، إلا أنها من الأمور الجسام العظام التي لا بد من إحالتها إلى ولاة الأمر؛ لأنهم الأقدر والأجدر والأولى بالقيام بذلك على حدّ قوله -سبحانه-:

﴿ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ ﴾ [النساء: ٨٣].

وإنا لو أمعنا النظر (شرعياً وعقلياً) فإنا نجد أن الحكومة المسلمة أو الدولة، أو قُل: السلطان المسلم، إنما هو مفوَّض من قبل الأمة وموكَّل عنها للقيام بحفظ الدين وإصلاح الدنيا. وإن المتأمل لكلام الله -عزَّ وجلّ- مثلاً قوله: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ ﴾ [المائدة: ٣٨] وقوله: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ ﴾ [النور: ٢]؛ سيجد أن الخطاب موجه لعموم الأمة، مع ما اتفقت عليه الأمة أن الحدود يقوم بها السلطان الممَكَّن. وعليه فإن كل خطاب للأمة يعني السلطان أصلاً وتبعاً؛ فهو داخل في الخطاب الشرعي، وكذا هو مكلف نيابة عن الأمة فصار دوره مضاعفاً؛ فالنصرة للدين أوجب عليه من عموم الأمة. ولو أردنا أن نتفحّص معنى الدولة لنخلص من ذلك إلى معرفة دورها وواجباتها ومسؤولياتها؛ فسنجد أن المفكر الفرنسي يعرفها بأنها: «مجموعة من الأفراد مستقرة في إقليم محدد، تخضع لسلطة صاحبة سيادة، مكلفة أن تحقق مصالح المجموعة، وملتزمة في ذلك مبادئ القانون».

ويـذهب عـالم الاجتمـاع الأمريكـي (سمنـر) إلى أن مفهـوم النظـام الاجتماعي يتألف من جانبين:

الأول: الفكرة أو المبدأ المشترك بين أبناء المجتمع.

والثاني: البناء الذي هو المؤسّسات التي تمـنح الفكـرة والمبـدأ الطـابع النظامي وتضعها موضع التطبيق بشكل يحقق مصالح الإنسان(١).

إذاً فالدولة أو ما يسمى العقد الاجتمـاعي: أن يتنـازل أفـراد المجتمـع عن بعض حرياتهم للسلطة مقابـل تنظـيم شـؤونهم وإدارتهـا بمـا يحقـق المصلحة للمجموع(٢).

يتضح من ذلك أن الدول لا بد أن يكون أداؤها انعكاساً لحال الأمـة وواقعها ورغباتها؛ فكأنها بمثابة الموكَّل الذي لا يحق له التصرف إلا وفق رغبـة مـوكِّله. بل على الحكومات أن تسعى لتحقيـق رغبـات المـواطنين لا سيما إذا كانت تتوافق مع مسلَّماتهم وثـوابتهم، وإلا فإنّهـا لا تكـون حكومة لهم بل لغيرهم.

وحتى يتجلى الأمر أكثر من زاوية السياسة الشرعية فإنا نجد أن القرآن الكريم قد صدع بالدور الذي ينبغي أن يقوم به السلطان؛ فقد قال الحق -سبحانه وتعالى-: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

---

(١) بناء المجتمع الإسلامي ونظمه: د. نبيل السمالوطي، ص ٥٣.

(٢) الحرية أو الطوفان: ص ٢١.

قال فيهم ابن أبي نجيح: هم الولاة[١].

مكنّاهم:

ثبّتناهم وملكّناهم. والتمكين في الأرض: قوة التصرف والاستظهار بأسباب الدنيا، وأن يكون في مَنَعَةٍ من العدو، وسعة في الرزق وحسن حال[٢].

والآية تشمل كل من قام بنصرة دين الله على الوجه الأكمل[٣].

وسبحان الله! ما أجل إعجاز كلام الله -عزَّ وجلّ-؛ فقبل هذه الآية الكريمة مباشرة نجد قوله -سبحانه وتعالى-: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [سورة الحج: ٤٠]. فالممكَّن عليه أن ينصر الله لينصره؛ لأنه مصدر النصر؛ فهو القوي العزيز، وبعدها قوله: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج:٤٢ - ٤٤].

فالممكَّن همّه إقامة دين الله عزَّ وجلّ، وهو وصية الله -عزَّ وجلّ- لأولي العزم من الرسل، كما قال -سبحانه-: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا

---

(١) القرطبي: ج ١٢، ص ٣.

(٢) التحرير والتنوير: ج ٤، ص ٣٦.

(٣) أضواء البيان: ج ٥، ص ٢٧٢.

وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ﴾ [الشورى: ١٣].

ومعنى: أقيموا الدين: اجعلوه قائماً. يريد: دائماً مستمراً محفوظاً مستقراً من غير خلاف فيه ولا اضطراب(١).

وقيل في معناه: اعملوا به؛ قاله السدّي. وقال مجاهد: ادعوا إليه وقيل: جاهدوا عليه من عانده(٢).

فالدولة الإسلاميّة هي سور الأمة؛ تقوم بحراسة الناس في دينهم ودنياهم. وقد قال الغزالي: «اعلم أن الشريعة أصل والملك حارس؛ وما لا أصل له فمهدوم، وما لا حارس له فضائع»(٣). فواجب الدولة القيام بواجب الدّعوة، كما أن إحدى مسؤولياتها التّعليم الديني ومكافحة العبث واللهو والمجون والإباحة والإلحاد، وعليه فقوة التنفيذ التي تملكها الدولة يجب أن توجَّه إلى خدمة الإسلام؛ فالإيمان هو عماد الدولة وسرّ قوتها، والعقيدة هي أيديولوجيتها وسبب نجاحها(٤).

ولذلك فإنه لا يوجد -في التصور الإسلامي- دولة أو سلطة غير

(١) القرطبي: ج ١٦، ص ١١.

(٢)النكت والعيون للماوردي: ج ٤، ص ٦٤.

(٣) نظريات المعرفة والدولة والمجتمع: ص ٩٥.

(٤) نقلاً عن الرسائل لحسن البنا: نظريات المعرفة والدولة والمجتمع، ص ٩٠- ٩٤.

منسجمة مع عقيدتها، فضلاً عن كونها متخلية عنها، بل كما قال الإمام الماوردي -رحمه الله-: «الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا، وعقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع».

وقد أورد قول الشاعر:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم

ولا سراة إذا جهالهم سادوا

ثمَّ يبين أن الشرع قد فوَّض الأمور إلى الولي في الدين؛ قال الله -عزَّ وجلّ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩][(١)].

وفي سياق موضوعنا هذا عن استراتيجيَّة المواجهة، والمهام الملقاة على عاتق الحكومات بعد أزمات التطاول على ثوابتنا؛ فإنني أجد كلام الإمام الماوردي، عند حديثه عن واجبات الإمام وما يلزمه أن يقوم به من واجبات، منطبقة على واقعنا؛ ليعيد حكام المسلمين النظر في واقعهم؛ فإنهم إن أقاموا الدين أرضوا ربهم ثمَّ ثبّتوا ملكهم، وأرعبوا عدوهم وتألّفوا قلوب رعيتهم؛ فيكونون بذلك من خير الناس الذين قال عنهم رسولنا ﷺ: «**خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، ويصلون عليكم وتصلون عليهم. وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم**» [صحيح مسلم].

---

(١) الأحكام السلطانية: ص ٥.

فلنتأمل هذه الواجبات! وسأذكر بعضها كما أوردها الماوردي رحمه الله:

- حفظ الدين على أصوله المستقرة وما أجمع عليه سلف الأمة؛ فعليه عمل ما يلزم ليكون الدين محروساً من الخلل ، والأمة ممنوعة من الزلل.
- حماية البيضة والذب عن الحريم.
- إقامة الحدود لتصان محارم الله عن الانتهاك.
- تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة؛ حتى لا تظفر الأعداء بغِرَّة ينتهكون محرَّماً، أو يسفكون فيها لمسلم أو معاهد دماً.
- جهاد من عاند الإسلام بعد الدّعوة حتى يُسلم أو يدخل في الذمة ليقام بحق الله في إظهار دينه على الدين كله[1].

ثمَّ يردف قائلاً: هذا وإن كان مستحقاً عليه بحكم الدين ومنصب الخلافة؛ فهو من حقوق السياسة لكل مسترعٍ لقول النبي ﷺ: «**كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته**».

ويقول: وإذا قام الإمام بما ذكرناه من حقوق الأمة فقد أدى حق الله فيما لهم وعليهم، ووجب له عليهم حقان: (الطاعة، والنصرة)[2]. فتأمل يارعاك الله!

وبعد هذا لا يسعنا إلا النصح للولاة أن يقوموا بدورهم في نصرة

---

(١) الأحكام السلطانية: ص ١٨ ـ ٢٦.

(٢) الأحكام السلطانية: ص ١٩.

الدين؛ فإنه طريق التمكين بنص كلام رب العالمين: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [النــور: ٥٥].

يقول الإمام الجويني عن الإمامة والسلطة: رياسة تامة وزعامة عامـة، تتعلق بالخاصة والعامة في مهمات الدين والدنيا، مُتَضمَّنها حفظ الحوزة ورعاية الرعية، وإقامة الدّعوة بالحجة والسيف، وكفّ الجنف والحيف...[(١)].

فعلى الولاة أمور منها: ترقية مـدارك الأمـة رجـالاً ونسـاءً، وصـيانة نشئها عن النقـائص، ونشـر مزايـا الإسـلام وحقائقـه رجـاءَ تعميمـه في البشر.

ومعنى حماية البيضة والحوزة: حفظ الأمة من اعتداء عـدوها عليهـا، وحفظ بلاد الإسلام من أن ينتزع عدوها قطعـة منهـا أو يتسـرب إليهـا؛ فمن مقاصد الإسلام أن تكون الأمـة مرهوبـةَ الجانـب محترمـةً، منظـوراً إليها في أعين الأمم الآخرى نظرة المهابة والوقار؛ «**نُصِـرتُ بالرعـب**...» حديث صـحيح، وقولـه -سـبحانه-: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ

(١) اختصار غيات الأمم: ص ١٩.

بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾ [الأنفال: ٦٠][١].

«وحتى لا يساء الفهم فإن مجاهدة غير المسلمين لا تكون في سبيل هوى شخصي أو رغبة في التسلط؛ بل لتمكين العدل ونشر المفاهيم السامية التي شاء الله نشرها بين الناس ليضمن لهم السعادة في الدارين»[٢].

ولذلك فإن أول عمل للمجاهد هو الدّعوة: «**ادعهم إلى الإسلام! فإن أجابوك فاقبل منهم وكُفّ عنهم**» [صحيح مسلم][٣].

فمن المتقرر أنه لا خلاف بين الفقهاء في أن أهم مسؤوليات الإمام وأوجبها إقامة الدين؛ إذ وجوب الإمامة حكم شرعي معلل بحفظ الدين والأمة وسياسة شؤونها[٤].

بل إن الأمر أعظم من ذلك! فقد ذكر الجويني فيما يوجب الانخلاع عن الإمامة أمور؛ منها: الانسلال عن الدين: فلو فُرض انسلال الإمام عن الدين لم يخفَ انخلاعه وارتفاع منصبه وانقطاعه[٥].

فعمل الدولة المسلمة يتلخص في أمرين اثنين: أمر بالمعروف، ونهي عن المنكر.

---

(١) أحوال النظام الاجتماعي في الإسلام للطاهر بن عاشور: ص ٢٠٣.

(٢) عن المفتي حسن خالد بتصرف.

(٣) معالم النظام الاجتماعي في الإسلام: ص ٣٩.

(٤) الحرية أو الطوفان: ص ٢٣٠.

(٥) اختصار غياث الأمم: ص ٣٩.

يقــول الله -عــزَّ وجــلّ-: ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّـةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ ﴾ [آل عمــران: ١٠٤]، وهــذا العمل هـو سـرّ خيريـة الأمـة: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّـةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فعلينا جميعاً -وعلى الدول تحديداً- أن تنـذر أنفسـها لهدايـة النـاس وإخراجهم من الظلمات إلى النـور، ولا يجـوز أن نحصـر دورنـا بـردّات الفعل. يجب أن يكون في الأمة جماعة منتصبة للقيام بـأمر الله، وقـد ورد عن عمر بن الخطاب قوله: «مـن أراد أن يكـون مـن هـذه الأمـة فليـؤدِّ شرطها. أي: بالدعوة»[1]. وقد ذكر العلماء فرضـيته [الأمـر بـالمعروف] على المحتسب بحكم الولاية[2].

وحديث الرسول ﷺ واضح في هذا السياق: «**من رأى مـنكم منكـراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه؛ وذلك أضعف الإيمان**»[3].

وقد شرحه العلماء رحمهـم الله؛ فـذكر القـرطبي نقـلاً عـن العلمـاء: الأمر بالمعروف باليد على الأمـراء، وباللسـان علـى العلمـاء، وبالقلـب

---

(١) الدُّر المنثور للسيوطي. وانظر: ابن كثير، ج ٢، ص ١٦٢.

(٢) الأحكام السلطانية: ص ٢٩٩.

(٣) صحيح مسلم من حديث أبي هريرة.

على الضعفاء[١].

والأمر بالمعروف أمر إيجاب بإجماع الأمة، وهو فرض كفاية إن قام به بعض سقط عن الباقين، وإذا تركه الجميع أَثِم كل من تمكن منه بلا عذر ولا خوف، ثمَّ إنه قد يتعين كما إذا كان في موضع لا يعلم به إلا هو أو لا يتمكن من إزالته إلا هو»[٢].

وفي فتاوى اللجنة الدائمة للافتاء في المملكة العربية السعودية: إن تغيير المنكر ثلاث درجات: باليد للقادر عليه كالحكام، فإن لم يتمكن فبلسانه كالعلماء، وإلا فبالقلب؛ فالمسلم يقوم بتغيير المنكر قدر استطاعته. ومن فرّط فيه وهو قادر كان فيه شبه ممن قال الله[٣] فيهم: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨ - ٧٩].

بل بعض العلماء صرّح أنه ما دامت الحدود قد أُوكلت إلى الإمام فكذا تغيير المنكر[٤].

والإنكار له مراتبه التي ينبغي أن نتدرج فيها من الأدنى إلى الأعلى؛

---

(١) تفسير القرطبي: ج ٤، ص ٤٩.

(٢) شرح النووي: ج ١، ص ١٣١.

(٣) ج ١٤، ص٤٨٨ - ٤٩٥.

(٤) سلوة الأحزان: ج ١، ص ٥٤.

فأولاً: ﴿ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [النحل: ١٢٥]، مروراً بقوله: ﴿ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ ﴾ [التوبة: ٧٣]، وصولاً إلى قوله -سبحانه-: ﴿ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ﴾ [الفرقان: ٥٢].

وهذه المجاهدة تكون بكل ما يملك الإنسان كما قال -سبحانه-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [الصف: ١٠- ١١].

بعد كل ما تقدم فإنه لا يسع الولاة التخلي عن إنكار المنكرات العادية فضلاً عن التطاول على المقدسات. ولئن كان واجباً على المحتسب المعيّن من قبل الوالي الإنكار؛ بل البحث عن المنكرات الظاهرة لإنكارها؛ فما بالك بمنكرات فيها اعتداء صارخ وتحدٍّ سافر وتطاول عجيب على رموز ومقدسات؛ بل ثوابت ومسلمات؟!

إننا عندما قصرنا بواجب الدّعوة تطاول علينا هؤلاء الأقزام؛ فلنعد إلى رشدنا ولنعلم أن خير وسيلة للدفاع هي الهجوم.

واجب الدولة إذاً عظيم؛ إرضاء لله، وقيام بالواجب، وأداء للأمانة، وقطع لدابر الفتنة. وإننا، وإنْ كنّا شكرنا وما زلنا نشكر بعض المواقف الكريمة إزاء بعض الممارسات والأقوال، إلا أننا -وللإنصاف- نقول بعد علمنا بالواجب الملقى على عاتق الحكام، وبعد معرفتنا لما يمكنهم

فعله، وبعد مشاهدتنا لعظيم التطاول من أعداء الأمة: إننا لم نعد نرضى بالقليل؛ لأن جُهْدَ المقل لا يقبل ممن يمكنه إعطاء المزيد. وعلى دولنا في تعاملها مع الآخرين أن تسلك دربها بوضوح وثبات وجرأة؛ فعليها :

١- حمل نور الإسلام وهذه الرسالة العظيمة إلى العالم كله دون خجل ولا خوف.

٢- الوقوف إلى جانب الحق والعدل في القضايا الدولية.

٣- مساعدة كل من تقدر على مساعدته من المستضعفين.

ولتعلم دولنا أنها في تعاملها مع الدول غير المسلمة ملزمة بعهود توافق عليها هي ولا تُفرض عليها فرضاً، وليكن شعارنا في ذلك قول الله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤]، وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧]. وعليه فعلى الدول المسلمة مسؤوليات:

١) **في مجال التَّعليم**: ما دام أن هناك اتفاقيات بين الدول (تعاوناً ثقافياً)؛ فأين التطبيق العملي لذلك؟ أين دور الملحقيات الثقافية لدولنا؟ أين الكتب التي تترجمها لتقدمها لتلك الشعوب؟ لماذا لا نستفيد من تجارب الآخرين (تصدير الثورة)؟

٢) في مجال الدّعوة: الذي أهملته الـدول عمومـاً؛ فصـار عبئـاً علـى جمعيات لا تقدر على هذا الحمل: أين إعداد الدعاة لبلاد غير المسلمين؟ «**إنك تأتي قوماً أهل كتاب؛ فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله**»[1].

أيـن نشـر تراثنـا الإسـلامي؟ وأيـن دوْر الـدول في إنشـاء المراكـز الإسلاميّة أو على الأقل دورها في التنسيق بـين المراكـز القائمـة في بـلاد غير المسلمين؟

٣) في مجال الإعلام: لم نستغل الإعـلام لبيـان سماحـة ديننـا ونشـر تعاليـمه، ولا حـتى الدفـاع عن مقدسـاتنا؛ بل للدفــاع عــن الزعــماء، أو لتمضية الوقت، ولِـمجرد التسلية دون رسالة أو هدف.

٤) على الصعيد الدبلوماسي: ألا يمكن استدعاء سـفراء بلادنـا مـن الـبلاد المسـيئة للتعـبير عـن الاحتجـاج؟ هـذا أمـر سـائغ في العـرف الدبلوماسي؛ بل أبعـد مـن ذلـك: لـماذا يجـوز قطـع علاقـات بـين دول (شقيقة أحياناً) لخلاف شخصي بين زعيمين؛ فإذا جئنا لرعاية المقدسات بدأت الحجج تظهر أن ذلك غير ممكن؟! بل يمكن ما هو أكبر مـن ذلـك وهو إبلاغ سفير البلد المسيء أنه غير مرغوب به في بلاد الإسـلام. ولنـا في فعل الرئيس الفنزويلي (تشافيز) خير برهان خـلال حـرب الصـهاينة على لبنان(الحرب الأخيرة).

---

(١) حديث صحيح.

٥) على الصعيد القانوني وعلى مستوى الهيئات الدولية: وذلك عبر التبنّي المباشر لمتابعة وملاحقة ومقاضاة أهل الاعتداء على مقدساتنا، والسعي لإعداد ميثاق عالمي لاحترام المقدسات، والضغط على حكومات العالم لسنّ القوانين الكفيلة بمنع التجديف، والسعي الدؤوب لتأسيس محكمة عالمية لملاحقة ومعاقبة المتطاولين، والسعي الجاد لوضع اتفاقية عالمية لوضع حد ومعيار حقيقي لحرية الرأي، ومنع استغلال ذلك، والضغط على الدول والمؤسسات ـ بما حبانا الله من وسائل ضغط ـ لمراعاة هذا الأمر (أعني: احترام مقدساتنا).

٦) على المستوى الاقتصادي: توضع شروط مسبقة من الاحترام تسمح بالتعامل وتوضع بنود جزائية، ويتم التهديد باستخدام سلاح المقاطعة الذي يجري العمل به في العالم كله، بل يوجد ما هو أشد منه (الحصار).

إذاً لدينا وسائل كثيرة، ولن نستخدمها إلا إن وُجدت العزيمة الصادقة؛ وذلك عندما نحمل الإسلام بجد، (وكل إناءٍ بالذي فيه ينضح).

هذا على صعيد الدول الإسلاميّة منفردة؛ وإلا فإن التنسيق والتّعاون والتوافق فيما بينهم على مثل هذه النوازل هو الأكمل والأفضل كما يفعل القوم؛ فاجتماعنا على حقنا أولى من اجتماعهم على باطلهم، واجتماعنا على تراثنا الذي نعتز به أولى من اجتماعهم على هرطقة جديدة عليهم ومبتدعة فيهم (اللادينية). والله من وراء القصد.

أما المؤسّسات الرسمية فسأقتصر على ثلاثة منها.

أولاً: جامعة الدول العربيّة:

وهي منظمة إقليمية تجمع بين الأقطار العربيّة، وهي بمثابة إطار للتعاون الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والتنسيق السياسي.

فقد أنشئت بغرض توثيق الصلات بين الدول العربيّة وتنسيق الخطط السياسية؛ تحقيقاً للتعاون بينها، وصيانةً لاستقلالها وسيادتها، وتطويراً للتعاون العربي في جميع المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ودعم التعاون مع الهيئات والمنظمات الدولية.

نعم! لقد كان موقف الجامعة وأمينها العام متعاطفاً جداً، لكنه غير كافٍ! إذ لديها من القدرة ما يجعلها مؤهلة لأنْ تعمل الأفضل، ولو على الصعيد الإعلامي والثقافي. كان المرجو أن تنعقد قمة طارئة، ولو على مستوى وزراء الخارجية، تخصَّص لبحث ظاهرة التطاول التي امتدت لتنال رموزَ ومسلمات، بل ومقدسات هذه الأمة، وإنْ تُرِك لهؤلاء ما أرادوا دون التصدي الرادع؛ فأين سيصبح مصير (رسالتنا الخالدة لأمة عربية واحدة)؟

ثانياً: منظمة المؤتمر الإسلامي:

والتي تضم في عضويتها سبعاً وخمسين دولة ومنظمة دولية، تحشد مواردها وتوحِّد جهودها وتتحدث بصوت واحد للدفاع عن مصالحها وتأمين رقي ورفاهية شعوبها، وكل المسلمين في العالم.

وللمنظمة أهداف معلنة:

١- التضامن الإسلامي بين الدول الأعضاء.

٢- التعاون بين الدول الأعضاء في المجالات الاقتصاديّة والاجتماعية والثقافية والعلمية.

٣- كفاح جميع الشعوب الإسلاميّة من أجل الكرامة والاستقلال والحقوق الوطنية.

فلماذا لم يظهرهذا التضامن خلال أزمات التطاول الأخيرة؟ وأين الخطوات العملية (كفاحاً وتعاوناً من أجل قيمنا وكرامتنا)؟

ويتبع لها المنظمة الإسلاميّة للتربية والعلوم والثقافة:

وأهم أهدافها:

١- دعم الثقافة الإسلاميّة، وحماية استقلال الفكر الإسلامي من عوامل الغزو الثقافي والتشويه، والمحافظة على معالم الحضارة الإسلاميّة وخصائصها المتميزة.

٢- حماية الشخصية الإسلامية للمسلمين في البلدان غير الإسلاميّة.

ويجدر الاعتراف أن هذه المنظمة كانت من أول من أصدر بياناً مستنكراً للهمجية (الكرتونية). ولن ننسى بيان مكة المكرمة قبيل حج ١٤٢٦هـ ولكن هذا لوحده غير كافٍ؛ فلا بد من تفعيل خطوات، منها: استصدار قانون دولي يحرم بل يجرم التطاول على مقدساتنا وتحديداً (الذات الإلهية ـ القرآن الكريم ـ شخص الرسول ﷺ).

لو أن هذه المنظمة، وهي تحوي ثلث سكان المعمورة، أخـذت موقفـاً واضحاً عملياً ثابتاً فلا شك أننا سنحصد ثماره الطيبة. وإننا نشـد علـى يد أمين المنظمة العام بما يُعرف عنه من تمسك بالـدين أن يسـعى لوضـع برنامج عملي؛ وإلا فإن القوم إن رأوا مِنّا تهاونـاً تطـاولوا أكثـر؛ ولات ساعة مندمٍ.

وعلى هذه المنظمة أخذُ زمام المبادرة بمناقشة القـوم في عــقر دارهـم، أو دعوتهـم لديار المسـلمين للمشـاركة في مــؤتمرات وحـوارات ثقافيـة ما دام ذلك من تخصصها.

ثالثاً: الأمم المتحدة:

إن المتأمل في ميثاق الأمم المتحدة يراه يـنص علـى احـترام الشـعوب وثقافتها، ومما ورد في ميثاقهم: (نحن شـعوب الأمـم المتحـدة وقـد آلينـا على أنفسنا أموراً منها: أننا نؤكد مـن جديـد إيماننـا بـالحقوق الأساسـية للإنسان وبكرامة الفرد، وفي سبيل هذه الغايات اعتزمنا:

١ـ أن نأخذ أنفسنا بالتسامح وأن نعيش معاً في سلام وحوار.

ومن مقاصد الأمم المتحدة:

١) حفظ السلم والأمن الدولي؛ وتحقيقاً لهذه الغاية تتخذ الهيئـة التـدابير المشـتركة الفعالـة لمنـع الأسـباب الـتي تهـدد السـلم وإزالتهـا، وتتـذرع بالوسائل السلمية وفقاً لمبادئ العدل والقانون الـدولي؛ لحـل المنازعـات الدولية التي قد تؤدي إلى الإخلال بالسلم أو لتسويتها.

٢) إنماء العلاقات الودية بين الأمم على أساس احترام المبدأ الذي يقضي بالتسوية في الحقوق.

٣) تحقيق التعاون الدولي على حل المسائل ذات الصفة الاقتصاديّة والاجتماعية والثقافية والإنسانية، وعلى تعزيز احترام حقوق الإنسان، والحريات الأساسية للناس جميعاً بلا تمييز بسبب الجنس أو اللغة أو الدين).

هذه بعض الفقرات الواردة في الميثاق، مما يوجب على هذه المنظمة الدولية التدخل لوضع حدّ لمثل هذه الاعتداءات التي تزدري المسلمين بسبب دينهم، وتدعو إلى الكراهية التي قد تسبب نزاعات وتهدد السلم العالمي. وإن المتبصر بالقانون الدولي لَيعلم أن الدول الإسلاميّة لو اتخذت موقفاً واحداً واضحاً فإنه سيفرض نفسه ليصبح في العرف السياسي أمراً ملزماً تجب مراعاته ويمنع من تكراره. وكلنا يعلم أن دولاً تأخرت في انضمامها لهذه المنظمة رغم مالَها من مكانة عالية، وبعض الدول لا تدخل في اتفاقيات دولية؛ لأنها تعارض مصالحها، وغير ذلك من صور القطيعة بين الدول لمجرد إرث تاريخي ونحو ذلك؛ فحجة حكوماتنا بأنها ملزمة بعهود ونحوها تمنعها من أخذ موقف أمرٌ غير واقعي! فما على الدول المسلمة إلا مراجعة نفسها وحساباتها، وما كنا نذكره في أول الأزمة أنَّ ردّات الفعل الشعبية وليست الرسمية -حتى لا نحرج حكوماتنا- لم يعد أمراً يحسن ذكره، بل أصبح معيباً؛ لأن فيه إعفاءً للمستطيع وتكليفاً للعاجز؛ فلتبادر الحكومات بعمل واضح! والشعوب كلها متعطشة ليوم ترى فيه دينها وثقافتها بل وتراثها مهاباً مصاناً محترماً عزيزَ الجانب.

الخلاصة

لا بد إلى جانب الإيمان والاتباع من التعزير والنصرة. الأمة كلها مخاطبة بنصرة الدين، وولاة الأمر كذلك؛ وزيادة فإنهم مفوضون من قبل الأمة ونوابٌ عنها في تطبيقهم الشرع.

- الدولة لها أربعة أركان (أفراد ـ إقليم ـ سلطة ـ سيادة) وعلى الدولة المحافظة على فكر شعبها وأن يظهر عليها ذلك، (التمكين ضريبته النصرة).

- أسمى مهمة هي إقامة الدين.

- واجبات السلطان يجمعها حماية البيضة.

- مسؤولية الرعاة عظيمة.

- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سرّ خيرية الأمة.

- السلطان أولى الناس بالأمر والنهي.

- السعي لنشر الإسلام خير وسيلة لمنع التطاول.

- تعاملنا مع أمم الكفر محكوم بقاعدة (فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم).

- مسؤولية الدولة في مجالات عدّة: (تعليمي - دعوي - إعلامي - دبلوماسي - قانوني - اقتصادي).

- تفعيل ميثاق جامعة الدول العربيّة.

- تحقيق أهداف منظمة المؤتمر الإسلامي.

- الاستفادة من ميثاق الأمم المتحدة.

- تشكيل لجنة متابعة واتصالها بالجهات الرسمية عموماً لتتحمل مسؤوليتها.

- تنظيم يوم عالمي (رسمي وشعبي) لتفعيل نصرة المقدسات الشرعية.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للبريات، وبعد:

يقول الله -عزَّ وجل-: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. فلا خوف على الإسلام ولا على مقدساته، فهو محفوظ بحفظ الله وحتى رسولنا الكريم ﷺ قد كفاه الله شرّ هؤلاء: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ [الحجر: ٩٥].

فسعيُنا ليس للمحافظة على هذا الدين؛ بل من أجل أن نحفظ أنفسنا بهذا الدين، ومن أجل أن يكون لنا دور في تبليغ هذه الرسالة الخالدة والتي بنا أو بغيرنا ستمضي إلى ما شاء الله؛ فما علينا إلا أن نُقدِم ولا نحجم، ويكون نصب أعيننا قول الحق -سبحانه-: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

وإنني أقترح على مؤتمركم الكريم تشكيل لجنة متابعة لحمل ورقة عمل للحكومات والمؤسسات الرسمية لتقوم بدورها ـ الواجب عليها ـ وتحميلها المسؤولية التاريخية. وأرى، حتى يعلم كل مسيء أو منْ تسوِّل له نفسه ذلك أننا على العهد باقون، بأن ننظم يوماً عالمياً (رسمياً وشعبياً) يتم الإعداد الجيد له وعنوانه العريض (الذبّ عن مقدساتنا)

وذلك بتنظيم (ندوات – محاضرات – مهرجانات – معارض) وبمشاركة إعلامية شاملة. ويمكن عند اعتماده الاتفاق على تفاصيل مهمة لإنجاحه.

إن نصرتنا لديننا امتحان واختبار لما في قلوبنا؛ فإذا أردت أن تعرف منزلتك عند الله فانظر إلى منزلة دينه في قلبك، وإنّ ما وقر في القلب لا بد أن يصدِّقه العمل. أسأل الله أن يستعملنا جميعاً في طاعته إنه جواد كريم! وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه الفقير إلى الله رائد بن شفيق حليحل

طرابلس الفيحاء

الجمعة ٢٣/ ١٢/ ١٤٢٧هـ

١٢/ ١/ ٢٠٠٧م

المصـــادر*

١- بناء المجتمع الإسلامي ونظمه: د. نبيل السمالوطي، ص ٥٣.

٢- الحرية أو الطوفان: د. حاكم المطيري.

٣- تفسير القرطبي.

٤- التحرير والتنوير لابن عاشور.

٥- أضواء البيان للشنقيطي.

٦- النكت والعيون للماوردي.

٧- نظريات المعرفة والدولة والمجتمع: د. أحمد موصللي.

٨- الأحكام السلطانية للماوردي.

٩- اختصار غياث الأمم لإمام الحرمين: اختصره محمد بن شاكر الشريف.

١٠- أصول النظام الاجتماعي في الإسلام للطاهر بن عاشور.

١١- معالم النظام الاجتماعي في الإسلام: يحيى أحمد الكعلكي.

١٢- الدر المنثور للسيوطي.

١٣- تفسير ابن كثير.

١٤- شرح النووي على صحيح مسلم.

١٥- فتاوى اللجنة الدائمة.

١٦- سلوة الأحزان للمشتولي.

* حسب ورودها مرتبة في البحث.

مؤتمر تعظيم حرمات الإسلام

وجْهُ الإخفاقات

في المواقف القريبة للأمة في تعظيمها للحرمات

د. الشريف حاتم بن عارف العوني

عضو مجلس الشورى، والأستاذ المشارك في جامعة أم القرى

المقدمة

الحمد لله الذي وسع كل شيء برحمته، والصلاة والسلام على إمام المرسلين وعلى أزواجه وذريته.

أما بعد:

فإن من سنة الله -تعالى- في الأرض أن يتدافع الحق والباطل، وهذا من أسباب بقاء الحق واستمرار وجوده ظاهراً قويّاً: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

كما أن هذا الصراع مآلُهُ مَحْسومٌ، لا يَشُكُّ فيه أحدٌ؛ وهو أنّ الغَلَبَةَ للحقّ سبحانه؛ وما دام الله -تعالى- هو الحق فلن يُكْتَبَ لغير الحقِّ بقاءٌ وخلود: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ﴾ [الأنبياء: ١٨] و﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

ولذلك كان غياب الحقّ في بلد أو بين أُمة هو سبب قيام دولة الباطل فيهم، ومجرّدُ مجيء الحقّ هو زُهُوقُ الباطل، ولا يتطلب دَحْرُ الباطل إلا هذا المجيء!

وهذه السنة الرّبانّية التي تبدأ بالصراع بين الحق والباطل، والتي تنتهي بأن مجرد حضور الحق الكامل بحججه وبراهينه هو زُهُوقُ الباطل واندحاره واختفاؤه -سنةٌ جعلها الله -تعالى- دليلاً على الحق وعلامة له، لمن خَفِيَ عليه برهانُ الحقّ ودليله، وأراد أن يعرف الحق من الباطل بمآلات الأمور.

وهذا هو ما نشاهده اليوم بأم أعيننا؛ أنّ انتشار الإسلام هو بقدر عَرْضه والدعوة إليه، وأنه ما حَضَرتْ صورةُ الإسلام بصفائها إلا استطاعت أن تملك القلوب وتملأ العيون؛ فلا يستطيع من شاهدها إلا بأن يقف أمامها مبهوراً مشدوهاً بذلك الجمال والكمال والعظمة؛ فإما أن تَتّقد الفطرةُ فيه فيدخل في دين الله تعالى، أو أن تغلبه الأهواء فينكص على عقبيه، ليزداد قلبه ظلاماً بهذا العناد، وتنقبض نفسه ضيقاً على ضيق، وتضل نداءات فطرته في مهالك ظُلْمِهِ لنفسه، لتكون ألماً على ألم وحسرةً على حسرة: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠].

ولذلك كان هذا الانتصار لدين الإسلام، هو انتصارُ انتشارِهِ بمجرّد حضوره والدعوة إليه - دليلاً من أدلة نبوة نبينا ﷺ؛ لأنّ علامة الحقّ الظاهرةَ قد تحقّقت في دين الإسلام الذي بُعث به نبينا ﷺ؛ فكان هذا

دليلاً على أن إلهنا حق ونبينا حق وديننا حق: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٧].

لكن ظهور تلك العلامات وبروزَ ذلك الدليل على النبوّة يستوجب القيام بواجب الحقّ الذي تحمّلناه؛ وهو الدعوة إليه، والدفاع عنه أمام من يحاول صدّ الناس عنه بتشويهه، أو يحاول تدنيسه لكي يستدل على بطلانه بذُلّ أتباعه وانخذال حَمَلتِه.

ويتضح من ذلك أن التطاول على المقدّسات له غرضان كبيران، هما من أهم المقاصد عند المتطاولين:

الأول: تحريف حقائق الحق لتكون باطلاً في نظر الجاهلين به؛ فلا يجد الجاهلون فيه مُرادهم ومقصودهم الذي يسعون إليه، وهو الحق الذي تتعّطش النفوس إليه؛ فينفرون منه.

وتَطَاوُلُ أصحاب هذا الغرض سمتُهم فيه الشُّبْهَةُ، ومحاولة الاستدلال (ولو بالمغالطات) على تطاولهم هذا.

الثاني: الانتقاصُ والإهانة لحقائق الحق الذي يتلبَّسُ التَّشَفي فيه بصورة الاحتقار والترفّع والتعالي على ذلك المقدَّس عند غيرهم؛ ليكون هذا دليلاً عند أنفسهم وعند من يجهل الحقَّ أنه ليس حقاً؛ لأن الحق مرتكِزٌ في النفوس أنه عزيز وعالٍ، وأن أصحابه وحملته أعِزّةٌ به؛ فإذا ما احتقره أحدٌ واستخف به تصوّر الجاهلون بالحق أنه لا يمكن أن

يكون حقاً، وإلا لما تطاول عليه ذلك المُتَطاوِل الذي قد يكون مُعظَّماً عند قومه وبني جنسه!

وتطاول أصحاب هذا الغرض سمتُهم الإسفاف في التطاول والإقذاع في أسلوب التناول: بالسبّ، والشتم، والأعمال الدالة على شدة الاحتقار وتمام الاستخفاف.

وقد ظهر هذان الغرضان في الأزمات المسيئة السابقة؛ فيأتي تطاول بابا الفاتيكان لتحقيق الغرض الأول، وتأتي الرسوم الدنماركية محققةً للغرض الثاني.

فهبّت الأمةُ غضباً لدينها ولنّبيها ﷺ؛ فاندلعت المظاهرات والاحتجاجات، وعمّت كل بقاع المسلمين، سواءً في الدول الإسلامية أو الدول التي فيها تجمّعات إسلامية.

لقد كان حدثاً هائلاً اندهش له الإسلاميّون والمصلحون، قبل أن يندهش له الآخرون. بل لقد صرَّح العديد من القادة الغربيين أنهم ما كانوا يظنّون أن شيئاً من هذا سيحصل!ولا نستغرب أن يقول الغربيون ذلك؛ لأننا نحن قبلهم ما كنّا نظن أن كل هذا سيحصل!

نعم.. لقد استطعنا أن نجعل العالم الغربي المتغطرس، الذي كان لا يرضى أن يستمع إلينا فضلاً عن أن يفهمنا، أن نجعله منصتاً لنا؛ فقد أجبرناه على ذلك، وأن يلتفت إلينا ليقول في اندهاش: «مازال للمقدّس

الديني شأن عظيم عند طائفة من البشر على وجه الأرض! مازال المسلمون يعظمون دينهم!».

ولذلك قد كان ذلك الحَدَثُ الهائل، بكل ما فيه من أحزان، ومن شعور بالنشوة للعزّة الديّنية التي فاضت بها الأمة -حدثاً لا يجوز أن يمر بغير وقفات تأمل معه؛ نستلهم منه الدروس، ونستفيد من تفاصيل أحداثه ومراحلها ما نسدّدُ به خطانا المستقبليّة فيما إذا احْتَجْنا إلى مثلها.

ولن يتم ما ننشده أيضاً من استلهامٍ للدروس إلا إذا عرفنا إخفاقاتنا وعثراتنا وأخطاءنا؛ لكي نحرص على تجاوزها مستقبلاً.

ولا يخفى على أحد أن عَدَّ المرء لمحاسنه ليس كعدّه لمساوئه، وأنه أقدر على رؤية الفضائل أكثر من رؤيته للرذائل، إلى درجة أنه لا يحتاج إلى غيره لرؤية الفضائل، في حين أنه ما أحوجه إلى غيره لرؤية العيوب، فالمِرآةُ لا يحتاجها غالباً إلا لاكتشاف العيب والنقص ليحسنه ويكمّله.

ولئن كان عوامُّ الناس بحاجة إلى رفع المعنويّات بذكر المحاسن والبداء بها؛ فإنّنا معشر القائمين على الإصلاح نحتاج من حين لآخر إلى لحظات مصارحة ومكاشفة، نعتني فيها بإدراك العيوب لسَدِّ الخلل.

ولذلك عُنِيْتُ في هذه الأوراق أن أُبرز بعض أهمّ نقاط الخلل التي انتابت عَمَلَنا الإسلامي في هذا الحدث، وأحاول أن أبيّن جوانب قصور

أدائنا فيه، مع تضمين ذلك ذكر بعض أهمّ المقترحات لسدّ الخلل وتكميل النقص.

واسمحوا لي أن أكون صوتَ المعارضة، ونبرة النقد، لكن لا لمجرّد المعارضة ولا حبّاً للنقد.. للنقد فقط؛ بل من أجل الإصلاح. وليس عدم ذكري للنجاحات استخفافاً بها أو لقلتها، ولا لعدم رؤيتي لها؛ ولكن لأن الوقت قصير... هذا أولاً، ثانياً: لأن ورقة بحثي خصّصتها للإخفاقات ليس إلاّ؛ وإلا فإن النجاحات كثيرةٌ ومباركة، والإنجازات عظيمةٌ نفخر بها، ومن هذه الإنجازات والنجاحات هذه الندوة المباركة.

أسأل الله -تعالى- الإعانة والتوفيق.

والحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

وجوه القصور في موقف الأمّة

في دفاعها عن مقدّساتها

كما قدّمت به في هذه الأوراق أن الْتِفَاتي سيكونُ لوجوه القصور التي بدت لي من معايشتي لموقف أمَّتنا الإسلامية من تحدّيات الإساءة إلى المقدّسات، وأن اهتمامي سينصرف إلى ذكر بعض الإخفاقات التي ينبغي علينا السعي إلى دراسة أسبابها؛ لمحاولة تجاوزها في مستقبل أمتنا، ولكي نُوجِد الوسائل الصحيحة لتكون نجاحاتٍ بلا إخفاقاتٍ قدر المستطاع.

الوجه الأول: شيوع التصوّرات الخاطئة عن أسباب هذه الإساءات، وظهور التفسيرات القاصرة أو البعيدة عن الصواب في تحديد دواعيها:

خطورة هذا الوجه من وجوه القصور يظهر من جهة أن مواجهة المشكلة بالطريقة المؤدّية إلى حلّها إنما تبدأ من معرفة أسبابها؛ فإذا ما فُسِّرت دواعيها بالتفسير المجانب للصواب أدى ذلك إلى عدم القدرة على مواجهتها المواجهة الصحيحة الكفيلة بحلّها؛ فمعرفة الداء سبيلُ تحديد الدواء، كما أن معرفة أسباب الداء سبيل معرفة طُرُق الوقاية منه.

ولهذا الوجه صورٌ متعددّة:

الأولى: استمرار سيطرة فكرة المؤامرة على تصوّراتنا، ومحاولة ربط الحوادث بخيوط ضعيفة، وإغفال أن العالم بعد الحادي عشر من سبتمبر وما تلاه من أحداث قد زاد احتكاكه بالإسلام والمسلمين، ومن الطبيعي في هذا الوقت المتأزّم أن تتعدد فيه أنواع المواجهة، وأن يكون منها المنظّم

وغير المنظّم. ولا أريد بذلك إلغاء فكرة المؤامرة؛ لكني ضد عقدة المؤامرة التي تبالغ في هذا الوجه من وجوه التفسير، وتجعل وسائل المواجهة كلّها مبنّيةً عليها. أما أن نضع هذا في الحسبان، وأن تكون المؤامرة إحدى المسبّبات لبعض تلك الاعتداءات، بحسب الأدلة الدالة على ذلك؛ فهذا مطلوب؛ لأنه الحق الذي لا يخالف فيه من استبانت له أدلّته.

الثانية: حصر سبب تلك الاعتداءات في سبب واحد، مع أن أسبابه متعدّدة، أو التركيز على أسباب بصورة تؤدي إلى إغفال أسباب أخرى.

فمثلاً سمعنا وقرأنا من عَدَّ السبب في ذلك هو أن العالم النصراني، والغربي بالتحديد، يعادي أهل الإسلام مع علمهم بصحّته عناداً وإصراراً على الباطل. وهذا، وإن كان حقاً في قلّة من الباحثين الغربيين، فإننا نعلم يقيناً أنه لا ينطبق على الكثرة الكاثرة والأعمّ الأغلب من الغربيين، الذين يجهلون دينهم (قبل غيره) جهلاً شديداً، فضلاً عن أن يكونوا قد عرفوا نبوّة النبي ﷺ وجحدوها عن علم وعناد على الباطل.

وخطورة هذا التصورّ، أو المبالغة في تعميمه فوق واقعه الضيق الوجود جداً، أنه سيحول بيننا وبين أهمّ وسيلة للدفاع عن النبي ﷺ؛ وهي التعريف به على الوجه الصحيح؛ لأن من كان يعرف النبي ﷺ ولم يمنعه من الإيمان به إلا الاستكبار؛ ما فائدة محاولة تعريفه بالنبي ﷺ؟

إن محاولة حصر أسباب تلك الاعتداءات في سبب واحد، أو تضخيم سبب فوق حجمه الذي هو عليه، سيؤدّي إلى نتائج غير صحيحة، ولن يساعد على المواجهة الصحيحة.

ولا بأس بذكر بعض الأسباب الكبرى لهذه الاعتداءات:

الأول: العداء الأزلي بين الحق والباطل، والإسلام والكفر؛ والذي لا يلزم لوقوعه أن يكون صادراً ممن عرفوا أنهم على الباطل والكفر فأصرّوا عليه، بل يصدر عداء أصحاب الباطل للحق مع ظن أصحاب الباطل أنهم على الحق، وهذا هو الغالب، ويصدر من أصحاب العناد العالمين بالحق التاركين له بُغضاً وكبراً وعناداً.

إن الصراع لَـمتوقَّعٌ بسبب اختلاف المبادئ والأديان؛ فهو صراع أساسه عقيدة الولاء والبراء الراسخة في قلب أصحاب كل دين ثابتِين عليه.

الثاني: الجهل بالإسلام رسولاً وتعاليم، والذي كُنّا نحن سبباً من أسبابه بتقصيرنا في الدعوة إلى الله تعالى.

الثالث: انتشار صورة قاتمة ظالمة للإسلام والمسلمين في العقليّة الغربيّة، كان للغربيين دورٌ كبير فيها؛ من خلال حركات الاستشراق (القديمة والحديثة) التي أصدرت دراسات جائرة وبثّت تصوّرات كاذبة عن الإسلام والمسلمين؛ ومن خلال وسائل الإعلام المسيئة في الغرب، والتي يقع كثيرٌ منها تحت سيطرة جهات صهيونية بصورة مباشرة أو غير مباشرة؛ ومن خلال أوضاع بعض المسلمين الذين أعانوا على الإساءة

إلى الإسلام أيضاً، وأكدوا التصورات الظالمة عن الإسلام بأفعالهم المخالفة له المنسوبة إليه بغير حق؛ ومن خلال التخلف الحضاري الذي تعيشه كثير من الدول والمجتمعات الإسلاميّة، كل هذا وغيره أدى إلى سوء التّصور لدى غير المسلمين عن الإسلام وأمة الإسلام.

الرابع: اختلاف القِيَم بيننا وبينهم؛ فالغرب ليس لدى عموم شعوبه مقدّس ديني، في حين أنهم يقدسون قيمة الحريّة الفوضوية، ولذلك قدموها على المقدس الديني. ويجب علينا فهم هذا الأمر جيداً إذا أردنا التفاهم مع الغرب؛ لكي لا يكون نقاشنا معهم مثل نقاش الصُّمّ؛ فنحن نتكلّم بكلام لا يفهمونه، وهم يتكلمون بما لا نفهمه؛ لأنّ منطلق النقاش (وهو القيم) مختلفٌ بيننا تماماً.

وهذا نقصٌ في الخطاب الإسلامي ظهر في أزمة الرسوم الدنماركيّة، ولا بد من معالجته، وإلا فلن نستطيع مخاطبة عقلائهم، ولن نستطيع إقناعهم باستصدار قوانين تجرِّم الإساءة إلى مقدسات المسلمين. إذاً مادمنا مضطرين إلى خطابهم وجعلهم هم من يمنع تلك الإساءات؛ فلابد من أن نفهمهم تماماً، وألاّ نصادم قيمهم من أجل قيمنا.

وفي هذا السياق أودّ من عموم المسلمين من أهل الفكر ورجال القانون أن يطّلعوا على ردّ المدّعي العام الدنماركي على محامي اللجنة العالمية لنصرة خاتم الأنبياء ﷺ؛ في رفضه لقبول الدعوى المقدّمة ضد الصحيفة الدنماركية، وهو منشور في موقع اللجنة باللغتين العربية

والإنجليزية؛ لكي يكون خطوةً أولى لفهمِ القوم وطريقة تناولهم لقيمهم وقيم غيرهم.

الصورة الثالثة لنقص التصور: اعتقاد أنّ ما حدث في الدنمارك شيءٌ جديد، وأن الدنمارك هي أوّل من أساء بالتعدي على مقام النبي ﷺ. وهذا التصوّر في غاية البُعْد عن الصواب، ولذلك فهو في غاية الغرابة! فإن الإساءة إلى النبي ﷺ بدأت من يوم بُعِث ﷺ، كما هو معلوم، ولم تنقطع من حينها إلى اليوم. وبعد انفتاح العالم على بعضه من خلال وسائل الاتصال الإعلاميّة وغيرها؛ أصبحت تلك الإساءات عالميّةً بسبب هذا الحدث الحضاري الهائل، الذي جعل العالم بحق أصغر من القرية الواحدة.

وقد سبق الدنمارك إلى الإساءة بعد الحادي عشر من سبتمبر تصريحاتٌ مشينة ومسيئة لبعض المسؤولين في الولايات المتحدة الأمريكية وغيرها، كانت تلك التصريحات هي الدافع لإنشاء اللجنة العالمية لنصرة خاتم الأنبياء ﷺ. والخلل الذي أدّى إليه هذا التصور الخاطئ تخصيصُ الدنمارك وحدها ببعض جهودنا في استنكار الاعتداءات، وعدم وضعها ضمن صفِّ المعتدين جميعهم. وهذا لن يحّقق الانتصار الذي نرجوه للنبي ﷺ؛ لأننا أغفلنا جميع المعتدين بحجة أن الدنمارك هي أول معتدٍ؛ فلا ذلك الإغفال صحيحٌ لو كانت الدنمارك

فعلاً هي أول معتدٍ؛ ولا كانت هي أوّل معتدٍ أصلاً؛ ولذلك فهذا تَصَرُّفٌ مُجانِبٌ للصواب بمقدّمتيه كلتيهما!

الوجه الثاني: عدم وضوح الهدف أو عدم وجوده أصلاً من تلك الاحتجاجات، سواءً أكانت مظاهرات أو مقاطعة أو غير ذلك.

فقد كانت تلك الاحتجاجات في غالب الأحيان بلا هدف واضح؛ بل ربما كانت مجرّد تفريغ لشُحنة غضب، وانطلاقاً من عاطفة غير موجّهة.

ولا شك أن الغضب لله -تعالى- ولرسوله ﷺ دليلٌ من أدلة الإيمان، كما أنّ العاطفة الدينية مطلوبة أيضاً؛ لكن الغضب إذا لم ينضبط ضرّ وما نفع، ولا يضبطه مجرّد كونه لله؛ بل لا بد من التزامه بأمر الله، وأن يكون له هدف يحقق أمر الله تعالى. وكذلك العاطفة الدينيّة إذا لم يكن لها أهداف كانت مجرّد مشاعر لا تنصر الدين الذي جاشت وتحركت لأجله.

وآثار هذا الخلل واضحة؛ فإن أي عمل لا تكون له أهدافٌ واضحة تماماً لن يحقق شيئاً؛ وكيف يحقق هدفاً وهو لم يَسعَ إليه أصلاً؟! بل أنّى ينتظر تحقُّق الهدف من لم يضع له هدفاً؟!

أمّا إن قيل: قد تحققت كثيرٌ من الأهداف جرّاء تلك الاحتجاجات، فكيف يُدّعى أنها لم تكن ذات هدف؟! فأقول: قد تحقق بعض الأهداف دون قصد. كما أن من تلك الاحتجاجات ما كان (مُهَدَّفاً) بمحاولة بعض أهل العقل والعلم أن يجعلوا له هدفاً.

ولكن المهم: هل كانت تلك الأهداف التي تحققت مقصودة؟

والمهم الآخر: هل فوّتنا أهدافاً أخرى بسبب عدم تهديف تحرُّكاتنا؟

وهنا أود أن أضع قاعدةً لمحاسبة منجزاتنا الإسلامية:

الإنجازات غير المدروسة (مهما عَظُمَت) لا تستحق كل الإشادة؛ لأنها نتجت عن عمل بغير نيّةٍ وقصد؛ ولأنه وصول إلى الصواب لا بجهدنا بل بفضل الله تعالى؛ فالمحمود عليه هو الله وحده. أمّا الإنجاز المدروس (مهما صَغُر) فيستحق الإشادة؛ لأنه نتج عن عمل بنيّة وقصد، ووصولٌ للصواب بعد استفراغ الجهد في الوصول إليه؛ فالمحمود عليها الله وحده أيضاً؛ ولكن لا يُشْكَرُ الله -تعالى- حينها إلا بشكر الناس. فالأول (وهو صاحب الإنجاز غير المدروس) وصل إلى الإنجاز بلا تكليف، بل بمحض الفضل الإلهي. والثاني (وهو صاحب الإنجاز المدروس) وصل إليه وهو تحت طائلة التكليف والمحاسبة؛ فأيّهما أولى بالإشادة، وأيهما المستحق للثواب الأخروي والشكر له في الدنيا؟!

ولهذا الوجه من وجوه الإخفاقات صورٌ عديدة:

الصورة الأولى: أن تكون تلك الاحتجاجاتُ نتيجةَ فورة وغضبٍ فقط، ولا هدف لها ألبتّة. وحينها قد تخرج هذه الفورة عن حدودها، وقد تسيء إلى صورة المسلمين، كما وقع فعلاً. كما أن هذه الفورة سرعان ما تهدأ، ولا يمكن أن تُسْتَثمَر، ولا أن يكون لذلك الغضب طاقةٌ فاعلةٌ لما فيه تحقيق مصالح للأمة.

وكان ينبغي أن يُسارع الدعاة والعلماء والقادة إلى بيان أهداف تلك الاحتجاجات، وإلى استثمار تلك الغضبة في عمل جماعي وبذلٍ بالجُهد والمال، لما يحقق الهدف الذي ينشدونه.

الصورة الثانية: المطالبة بأهداف مستحيلة، أو مُستبعدة الوقوع، وربما كان من المضرّ مجرّد ذكرها وإعلانها.

فمن مُطالبٍ بقتل الرسّامين، أو رئيس تحرير الصحيفة المسيئة! ولا يخفى ما في هذا الطلب من بُعد وإساءة جديدة لصورة المسلمين.

وآخر: جعل هَدَفَه ضمان عدم تكرار الإساءة، غافلاً عن أن الإساءة تحصل وستحصل مادام على وجه الأرض عدو للإسلام. ولذلك أصيب بعضهم بالفشل بسبب تكرار الإساءة؛ لأن هدفه كان الذي بذل جهده له كان أن لا تتكرر الإساءة؛ فلما تكررت شعر بأنه أخفق في تحقيق الهدف. كما أن بعضهم جعل تكرار الإساءة في وجهة نظره بسبب تقصيرٍ في موقفِ بعض علماء المسلمين، وأن تكرار الإساءة ما كان سيحصل لولا اجتهاد أولئك العلماء الذي يراه خاطئاً، وأصبح أكبر دليل على خطأ أولئك العلماء عنده تكرارُ الإساءة؛ فكأنّ رأيه الذي كان يراه هو من الممكن أن يمنع تكرار الإساءة!

وثالث: جعل هدفه أن تركع الحكومة الدنماركية للمسلمين وتلبّي مطالبهم، تلك المطالب التي لم تتحدّد بعد؛ فَمِنْ مطالب بقتل الرسّام، أو بالتعهّد بعدم تكرار الإساءة، أو بالاعتذار الذي يختلفون في صيغته المقبولة.

ولا تدري هل فهم هؤلاء قَدْر ما قدّموه في النصرة، وهل هو على قدر هذا الهدف؟ أم لا يهُمّ أن يفهموا؟! فالمهم فقط أن يحلموا بأهداف ويهم أن لا يكونوا قادرين على تحقيقها!

إنّ تركيعَ حكومة (لفظاً ومضموناً) وإذلالها بالطريقة التي يحلم بها هؤلاء يحتاج هزيمةً عسكريةً ساحقة، وهم يريدون تحقيق هذه الهزيمة بالمظاهرات ومقاطعة بعض الشركات!

الصورة الثالثة: استعجال الوصول إلى الهدف، بغير علم بالطريق الموصِّل إليه؛ وهل هو مما يحتمل هذا الاستعجال أو لا يحتمله. وسبب هذا الاستعجال هو بسبب عدم وضوح معالم الهدف والطرق الموصلة إليه، وإلا لو كان واضحاً لعرفنا ما الذي يحتاجه من الجهد والبذل، والوقت أيضاً!

مثاله: لمّا سعى البعض إلى استصدار أحكام قضائيّة ضد الحكومة أو ضدّ الصحيفة، رأينا من لم يقف به الأمر عند حدّ الاستعجال بسبب تأخر حصول هذا الهدف؛ بل وصل به الأمر إلى درجة أنه يائس من الوصول إلى هذا الهدف ولو بعد حين؛ حتى أصبح يستهجن الحرص في الوصول إليه! وربما شمت بمن حاول ثم أخفق، كما وقع هذا فعلاً.

كما أننا وجدنا من لا يرى السعي إلى استصدار قانون يجرِّم المساس بالمقدسات الإسلامية والإساءة إليها؛ بسبب أن المطالبات القريبة بها

لم تحقق نجاحاً؛ فاستعجاله قَطْفَ الثمرة جعله يترك السعي إلى قطفها في أوانها، ولو بعد حين.

وينسى هؤلاء أن اليهود، أصحاب النفوذ والسيطرة العالميّة، لم يحصلوا على قانون معاداة السامية إلا بعد عشرات السنين، كما أنهم نسوا أيضاً أن السعي إليه (ولو لم يؤتِ ثمرته المقصودة) إلا أنه سيؤدي إلى ثمار أخرى هي ثمار المظاهرات والمقاطعة من الدلالة على الاستنكار والإدانة.

الصورة الرابعة: ضآلة الهدف مع احتمال أن يكون أعظم وأجلّ.

وأعظم هدف هو التعريف بالإسلام وبنبي الإسلام ﷺ، ونشر دعوة الإسلام التي طالما تراخى دونها، بل أهملها، المسلمون؛ فلماذا لا يكون ما وقع دافعاً لتحقيق هذا الهدف العظيم؛ وهو أعظم وجه من وجوه النصرة، وهو الغاية الكبرى من بعثته ﷺ؟

فالاكتفاء بمجرّد الاعتذار، أو حتى معاقبة المسيء، ليس هو هدفنا الأسمى.

إن هدفنا الأسمى هو إخراج الناس من الظلمات إلى النور؛ فلا يصح أن نُفوِّت فرصة هذه اليقظة الإسلامية دون تذكير المسلمين بواجبهم الذي غفلوا عنه حتى نسوه، بل كان الواجب بيان أن هذا هو ما يجب أن ينصروا به النبي ﷺ؛ وهو أوجب ما يجب عليهم تجاه أتباع غير ملة الإسلام، وما شُرِع الجهاد بالنفس والمال إلا لأجلها!

أين الأمة (أمة الثراء المادّي والعقول المبتكرة وأمة التحضّر) من إنتاج إعلامي عالمي، على أرقى المستويات العالمية جاذبيةً وإثارةً، ودقةَ معلومة، للتعريف بالنبي ﷺ؟!

الوجه الثالث: ضعف الجهود في تحقيق الأهداف المطروحة، سواءً أرضيناها أهدافاً أو لم نرضها، ومع ذلك لم تكن الجهود بالمستوى الذي كان ينبغي أن تكون عليه.

ولهذا الوجه صُوَرٌ وأسباب:

وأوّلها: تشتُّتُ الجهود وتبعثرها، وقلّة التنسيق. فكم لجنةٍ أنشئت بعد حادث الدنمارك!

ولا إشكال في الإنشاء، لكن الإشكال في الإنشاء بغير استفادةٍ من الجهود السابقة غالباً. وكأن القضية، في أحيانٍ ليست بالنادرة، منافسةٌ على شرف دنيوي ومنصبٍ يُتَزاحَمُ عليه!

ولا شك أن تقسيم الأدوار مطلوب، وأن التعاون على الهدف الكبير من جهات عدّة محمود. لكن غير المطلوب والمحمود أن يكون الغرضُ الحلولَ محلّ جهة أخرى، أو إسقاط لجنة قائمة لمجرّد أن القيادة أو العضويّة فيها لا تُحسَب على تلك الجهة التي أنتمي إليها!

وهنا يبدو الألم عميقاً: عندما تتوحد الشعوب ويعجزُ بعض إصلاحييِّها أن يتحدوا وأن يستطيعوا الانفكاك من ضيق أفق الجماعة، أو الحزب، أو القيادة، أو الآراء الفكرية التي يتبنونها!

وثانيها: بقاء كثير من جهودنا في حدود ردود الأفعال، لا بناءً على الدراسة المتعمّقة التي تستشرف المستقبل؛ للتوقّع، ووضع الحلول المناسبة، ولسبل الوقاية من الوقوع في المشكلة.

فمثلاً: هل أقمنا دراسات عن المقاطعة من جهة أنواعها (الحكومية والشعبية) وجدواها الاقتصادية؛ هل أقمنا مكاتب لتقويم مقاطعات أي دولة في العالم؟ هل يمكن أن تُقَاطَعَ عند الحاجة إلى إجراء موقف ضدها؟ وهل تُقاطَع كُلّيّاً أم جزئياً؟ وما الغرض من المقاطعة؟ هل هو الإنهاك والإخلال الاقتصادي؟ أم الإثارة الإعلامية للفتِ النظر عالميّاً إلى قضيتنا؟

ومثالاً آخر: هل أقمنا دراسات لمعرفة الخلفيّات العلميّة والثقافيّة والتاريخيّة والحضاريّة والدينيّة لتلك الإساءات، باختلاف جهات صدورها، بكل دقّة؛ لنعرف كيفية مواجهة كل إساءة بما يناسبها بناءً على العلم بدوافعها المختلفة وليس الشك؟

إلى غير ذلك من الدراسات والخطط الوقائية، بدلاً من أن لا تكون جهودنا إلا ردود أفعال. ولا يخفى أن ردود الأفعال ليست في قوة المواقف المدروسة المبنيّة على نظرة مستقبلية.

ثالثها: تأخُّر ردود الأفعال من دون سبب مقنع.

فمثلاً الهجوم على النبي ﷺ بدأ بقوة بعد الحادي عشر من سبتمبر عام (٢٠٠١م)، وعلى أعلى المستويات من بعض رجال الحكومة الأمريكية وغيرهم، وما أقل التحرّكات وردود الأفعال حينها! حتى إذا

ما وقعت إساءة الصحيفة الدنماركية هبَّ الناس هبتهم المحمودة تلك؛ لكن لماذا تأخّرت تلك الهبّة؟!

لا ينبغي أن تكون ردود أفعالنا (وهي مجرّد ردود أفعال) بهذا البُطء، بل لا بد من المبادرة المدروسة ذات الهدف الواضح.

رابعها: السماح لأصحاب الأغراض الشخصيّة والأرباح الدنيوية باستغلال الحدث لصالحهم الدنيء، أو السماح لأصحاب النوايا الحسنة دون عقل أو عدل بممارسة الدور الذي لا يكادون يحسنون غيره؛ وهو المزايدة على الغيرة الدينيّة، والمسابقة غير المنضبطة إلى دعاوى الحميّة الشرعيّة.

فكم من شركة ادُّعِيَ أنها دنماركية وهي ليست كذلك، وخرجت تلك الادعاءات من شركات منافسة أو من أشخاص بغير تبيُّن!

وكم من شركات نُسبت إليها اعتداءات ولم يصح ذلك عنها!

وكم من أقوال نُسبت لأشخاص وكانت نسبتها خطأً، أو فهمت خطأً!

وكم ادّعى أناس من التجار وغيرهم دعماً أو تبرعاً أو وقوفاً مع المقاطعة، وقد لا يكون ذلك كله واقعاً، بل هي مجرّد وسيلة كاذبة رخيصة للدعاية والإعلان!

وكم من شائعة عن رسام أصابته قارعة! أو إهانات أو إساءات تُنشر عبر رسائل الجوال وغيرها! وهي كذب محضٌ، بحجج ومقاصدَ عديدةٍ، الله أعلم بقصد أصحابها وبأغراضهم. يكفي أنها كذبٌ بَحْتٌ، لا يمتّ إلى الواقع بأي صِلة.

خامسها: قصورٌ في الوسائل المتّبعة في تحقيق الأهداف التي وضعناها خلال الأزمة السابقة.

ونبدأ بالحكومات: فمع ما يُذكر ويشكر لكثير من الحكومات الإسلامية؛ حيث سبقت الشعوب إلى معالجة الأزمة، وكان لبعض الحكومات مواقف أكثر صرامة من بعض؛ لكن تفاوت المواقف قوةً وضعفاً، وضعفَ التنسيق بين هذه الدول الإسلامية، جعلت النتائج ليست بالمستوى المطلوب.

وكذلك أداء وسائل الإعلام والفضائيات الإسلامية لم تكن بالمستوى المأمول في تغطية الحدث، ولا في تغطية مواقف الشعوب الإسلامية منه، ولا في إنتاج البرامج المصاحبة له.

ألا يكفي أن مؤتمراً مثل مؤتمر البحرين؛ الذي ضمّ ما يزيد على ثلاثمئة عالم وداعية ومفكر من جميع العالم الإسلامي، لولا تغطية قناة الجزيرة له من خلال البَثِّ المباشر، لما وجد قناةً إسلاميةً تنقله بنحو تلك التغطية! حتى تلك القنوات الإسلامية الصِّرفة التي كنّا ننتظر منها الكثير!

وأما التجار ورجال الأعمال ومديرو الشركات: فمنهم من كانت له مواقف مشرفة ولا شك، ومنهم من لا همّ له إلا الاصطياد في الماء العكر (كما قدمناه) من خلال الشائعات الكاذبة.

ولم يقف قصور أداء أرباب الثروات عند هذا الحدّ، بل تعدّاه إلى أن

بعضهم اقتصر دوره على مقاطعة ما قاطعته الشعوب أصلاً، أما ما لا علم للشعوب به ولا قُدْرَةَ لها على مقاطعته؛ كشركات الشحن مثلاً؛ فلم تدخل عنده ضمن ما يستحق المقاطعة بالبحث عن بديل لتفعيل أثر المقاطعة. كما أن وقوف هذه الفئة في الغالب كان في جانب نصرة الامتناع عن الشراء (المقاطعة) دون نصرة البذل والعطاء لمشاريع النصرة العديدة؛ فقد يقاطع أحدهم؛ لوجود البديل، أو لكسب سمعةٍ حسنةٍ، أو لمقصدٍ طيّب؛ لكنه يشِح عن العطاء في الذب عن رسول الله ﷺ!

هذه أهم إخفاقات تجربتنا السابقة، والتي تقابلها نجاحات عظيمة، وانتصارات حقيقيّة لا تُنكر، لكن تخصُّص المقال في الإخفاقات هو الذي جعلني أقتصر عليها؛ بغرض دراستها من إخواني الحضور من أصحاب العمل في الساحة؛ فما وجدوه إخفاقاً حقاً حاولوا تجاوزه في المستقبل، وما وجدوه بخلاف ذلك عملوا على تحقيقه.

والله من وراء القصد.

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وأصحابه والتابعين، والله أعلم.

مؤتمر تعظيم حرمات الإسلام

تقويم تجربة الشعوب الإسلامية
بعد أزمات التطاول على الثوابت

د. عادل بن علي الشدّي

الأمين العام للبرنامج العالمي للتعريف بنبي الرحمة ﷺ

مُقَدِّمَة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، نبينا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين، أمّا بعد:

فإن المسلمين يتحلّون بعواطف ومشاعر عالية جدّاً نحو مقدّساتهم، وفي مقدمتها: دينهم ونبيّهم وكتابهم. وبغض النظر عن مستوى التديّن والالتزام ما بين سابق بالخيرات، ومقتصد، وظالم لنفسه؛ فإن تلك العاطفة تجيش بمجرّد أن تُمسّ إحدى تلك المقدّسات.

وهذا، في ظاهر الأمر وحقيقته، أمر طيب ومطلوب؛ لكن المحذور يكمن في حالة عدم انضباط تلك العاطفة بحيث تؤدي إلى نتائج غير مرضية، وهذا ما حدث من البعض في واقع الأمر عندما تعرّض رسولنا محمّد ﷺ للاستهزاء والطعن من قِبل بعض وسائل الإعلام الغربية؛ فقد خرج قلة من المسلمين عن النهج الصحيح في الردّ على هذا العدوان.

وفي المقابل، كانت هناك ردود أفعال جيّدة ومنضبطة لم تستجب للاستفزاز المتعسّف بطريقة تؤكّد فكرة العدوّ عن الإسلام ونبيّه وأتباعه، بل سلكت مسلك الحكمة والإيجابية؛ فبيّنت بطلان دعاوى أولئك الشانئين، وذلك عن طريق الحوارات والكتابات، كما سلكت طريق ردّ الظلم بالطرق الموجعة للغربيين الماديين؛ وهو طريق المقاطعة الاقتصادية.

وهكذا، فقد مرّت الأمة الإسلامية -وما تزال- بحالة من العدوان على الثوابت جامحة، تداعت عليها أصوات كثيرة من شعوب غربية

مختلفة! فكانت تجربة جديدة نوعاً ما لسرعة انتشار نبئها، ووصوله إلى القاصي والداني بواسطة تقنية الإعلام المعاصر.

ولمعرفة الحكم الصحيح والتصور الواضح عن هذه التجربة، كان لا بد من تقويمها وتشخيص أعراض المرض، ومظاهر الصحة في أداء المسلمين فيها، لتكون النتائج المستخلصة هي المحدّدة لمنهج المواجهة وإستراتيجيتها؛ لأن الصراع -فيما يبدو- في تصاعد، ووتيرته في ارتفاع، وخاصة أنّ الأمر قد وصل في إحدى مراحله إلى كرسي البابوية وقمة النصرانية، وفي محاضرة يُفترض أن تكون (أكاديمية) تتطلب الكثير من الدقة والتوثيق العلمي الصحيح.

كما وصل إلى كراسي المسؤولية في دول إسلامية تطاول فيها بعض المسؤولين على حجاب المرأة المسلمة، وعدّوه مظهراً من مظاهر التخلّف.

فكان لا بد من وقفة تُدرس فيها هذه الحالات من العدوان على الثوابت، والمنهج الذي يتطلبه الموقف في ردّ هذا العدوان.

وهذا لا يتأتى إلا عن طريق التمحيص والتقويم، وبهذا تبرز أهمية مثل هذه الموضوعات التي تهتم بتقويم تجربة الشعوب الإسلامية عقب أزمات التطاول على ثوابت الأمة ومقدّساتها، وهو ما عُقد هذا المؤتمر لتدارسه وبحثه.

وقبل الخوض في صميم هذا الموضوع، وبعد ملاحظة بعض أوجه تلك التجربة، نخلص إلى أن مثل هذه الحالات المؤذية والمنكرة لا بد فيها من إستراتيجيتين:

الأولى: **الوقاية** منها قبل وقوعها؛ وذلك باتخاذ كافّة السّبل الكفيلة بمنع وقوع مثل تلك المنكرات وأنواع العدوان، وهي سبل كثيرة لولا تفريط المسلمين فيها لما وقع -في الغالب- مثل هذا العدوان بمثل تلك الصّلافة والإصرار.

الثانية: **العلاج** لاستئصال مثل هذه الظواهر العدوانية، وللحدّ من سراية العدوان إلى جميع الثوابت في حال تقاعَسَ المسلمون عن علاج حالة عدوان على ثابت من الثوابت.

وهذا العلاج يكون بعد معرفة الأعراض والأسباب المفضية إليها معرفة دقيقة، تتسم بالشمول والعمق والموضوعية التي تمنع إسناد هذه الحالات إلى نظرية المؤامرة فقط، وعدم النظر إلى عيوب الذات وتقصير المسلمين.

وقد رأيتُ أن أقسّم هذا البحث المختصر إلى مقدّمة، وثلاثة فصول، وخاتمة. وقد اشتمل الفصل الأول على مبحثين رصدتُ فيهما أبرز الإيجابيات والسلبيات التي صاحبت تجربة الشعوب الإسلامية بعد أزمات التطاول على الثوابت.

وحوى الفصل الثاني، الذي جاء في خمسة مباحث، مقترحات عملية لمواجهة أزمات التطاول على الثوابت.

أما الفصل الثالث فقد ركّز على تجربة (البرنامج العالمي للتعريف بنبي الرحمة ﷺ)، ورصد أهدافه، ومناشطه، وإنجازاته في أربعة مباحث.

ولخّصتُ في الخاتمة أبرز نتائج البحث جَرْياً على العادة المتبعة عند الباحثين.

أسأل الله -عزّ وجلّ- أن يجعلنا من أنصار دينه ونبيّه وكتابه الكريم، وأن يثبّتنا على الحق حتى نلقاه غير مبدّلين ولا مغيّرين.

وصلى الله وسلّم وبارك على نبيّنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفصل الأول
تقويم عام لتجربة الشعوب الإسلامية
في أزمة التطاول على الثوابت

المبحث الأول: الإيجابيات:

أولاً: عودة كثير من المسلمين إلى التمسك بدينهم، والاعتزاز بانتمائهم، والمحافظة على هويتهم:

إن أمّة يبلغ تعدادها ملياراً وثلاثمئة مليون نسمة، أي ما يقارب ٢٣٪ من سكان العالم، ويعيش أفرادها في أكثر من ١٢٠ مجتمعاً بشرياً، ويزيد عدد دولهم عن ٥٤ دولة[١]؛ فلا شيء أخطر على أعداء هذه الأمة المسلمة من شعور هؤلاء جميعاً بالانتماء الحقيقي إلى دينهم، والاعتزاز الكبير بنبيهم، والرجوع القوي إلى هويتهم. حتى إن (صموئيل هنتنغتون) عدّ اقتناع المسلمين بتفوق ثقافتهم على الثقافة الغربية، واعتزازهم بها، هو مشكلة الغرب الحقيقية مع العالم الإسلامي[٢].

لكن التّطاول على الثوابت أدّى إلى تحقيق نتيجة عكسية لما يريده المتطاولون؛ فبينما كان هدفهم إضعاف اعتزاز المسلمين برموزهم وزيادة انسلاخهم عن ثوابتهم، وتخويف الغرب من النبي محمّد ﷺ ودينه، فقد أدّى هذا الاستفزاز والاستهداف إلى رجوع الكثيرين من مختلف شرائح المجتمع، ولا سيما رجال الأعمال، ونسبة لا يستهان بها من الشباب الذين

---

(١) العولمة: أرقام وحقائق: لعبد سعيد عبد إسماعيل، دار الأندلس الخضراء، ص١٣٤.

(٢) العولمة الغربية والصحوة الإسلامية: د. عبد الرحمن الزنيدي، دار إشبيليا، الرياض، ص٤٠.

ربما فرّطوا في كثير من الواجبات ووقعوا في كثير من المنكرات، ومع ذلك رأينا كيف علّقوا على سياراتهم عبارات النصرة للنبي ﷺ، وقاطعوا بصدق المنتجات الدنماركية.

ثانياً: شعور الغرب عموماً، والدنمارك على وجه الخصوص، بخطورة التعرّض لثوابت المسلمين بالانتقاص:

وقد تأكّد ذلك من خلال:

أ- المواجهة السريعة لتطاول (حزب الشبيبة الدنماركي) على مقام نبينا محمّد ﷺ برسوم مسيئة، تمّ عرضها على إحدى المحطّات التلفزيونية الدنماركية؛ حيث استنكرها رئيس الوزراء شخصياً وصفها في مقابلة تلفزيونية (٨/ ١٠/ ٢٠٠٦م) بقوله: « أدين بشدة التصرف الصادر عن أعضاء من شبيبة الحزب الدنماركي؛ إنه سلوك مرفوض تماماً من مجموعة صغيرة من الشباب. إن سلوكهم غير اللائق لا يمثل بأي شكل من الأشكال الطريقة التي ينظر بها الشعب الدنماركي للمسلمين والإسلام». وهو ما لم يحدث إبّان أزمة الرسوم المسيئة التي نشرتها صحيفة (يولاند بوستن) قبلها بأشهر، وهذا يدلّ على الثمرة الإيجابية لوقفة المسلمين المستنكرة للرسوم المسيئة.

ب- محاولات الحكومة من خلال بعض وزاراتها وسفرائها احتواء الأزمة واسترضاء الأمة الإسلامية. ومما يذكر في هذا الصدد أن السفير الدنماركي في الرياض سلّم دعوة من حكومة بلاده لرابطة العالم الإسلامي لتشكيل وفد من العلماء والمهتمين لبحث سبل إنهاء الأزمة وإرضاء الشعوب المسلمة، بيد أن السقف المحدود للنتائج المتوقعة حمل الرابطة على تأجيل الزيارة إلى أن تحين الظروف المناسبة.

جـ- محاولات الشركات الدنماركية ورجال الأعمال فيها بذلَ الجهود المتواصلة لحلّ الأزمة وإرضاء الأمة الإسلامية من خلال بيانات الاعتذار، وبيان المواقف من الإسلام ونبينا محمّد ﷺ، وتشكيل الوفود التي تزور الدول الإسلامية وتحاول الوصول إلى حلّ يرضي الأمة الإسلامية.

وهذه الأمور الثلاثة مجتمعة حين تؤخذ في سياقها الإيجابي المتوازن؛ فإنها تدل على إيجابية الموقف الشعبي للأمة الإسلامية وتأثيره في ردع محاولات التطاول التي قد يفكّر بعض الغربيين في الاستمرار فيها.

ثالثاً: استخدام سلاح المقاطعة الاقتصادية:

وهو سلاح فعّال يحتاج إلى حكمة وبُعد نظر، ويحتاج حين استخدامه إلى إرادة وهدف واضح. وقد ثبت استعمال هذا السلاح في حياة النبي ﷺ، وثبتت فعاليته في نصرة الدين وكفّ أذى الكفار والأعداء؛ **ففي قصة الصحابي الجليل ثمامة بن أثال التي أخرجها البخاري ومسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: بعث النبي ﷺ خيلاً قِبَل نجد؛ فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له: ثمامة بن أثال، فربطوه بسارية من سواري المسجد؛ فخرج إليه النبي ﷺ فقال: «ما عندك يا ثمامة؟» فقال: عندي خير يا محمّد، إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت.**

فتُرك حتى كان الغد فقال: « ما عندك يا ثمامة؟ »، فقال: ما قلت لك؛ إن تنعم تنعم على شاكر، فتركه حتى كان بعد الغد. فقال: «ما عندك يا ثمامة؟»، فقال: عندي ما قلت لك. فقال:« أطلقوا ثمامة».

فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل، ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. يا محمّد، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك؛ فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلي. والله ما كان من دين أبغض إلي من دينك؛ فأصبح دينك أحب دين إلي. والله ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك؛ فأصبح بلدك أحب البلاد إلي. وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى؟ فبشره رسول الله ﷺ، وأمره أن يعتمر.

فلما قدم مكة قال له قائل: صبوت؟ قال: لا، ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ﷺ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي ﷺ.

هذه رواية البخاري ومسلم.

وذكر ابن هشام أن ثمامة (خرج إلى اليمامة، فمنعهم أن يحملوا إلى مكة شيئاً؛ فكتبوا إلى رسول الله ﷺ: إنك تأمر بصلة الرحم، وإنك قد قطعت أرحامنا، وقد قتلت الآباء بالسيف، والأبناء بالجوع! فكتب رسول الله ﷺ إليه أن يخلي بينهم وبين الحمل)[1].

هكذا فمن إيجابيات ردّة فعل المسلمين على ما حدث مقاطعة جادة للمنتجات الدنماركية، تأثرت فيها صادراتها إلى منطقة الشرق الأوسط بشكل كبير؛ حيث انخفضت بنسبة ٣٥٪[2]، وهو رقم في عالم الاقتصاد له أهميته.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٦/ ٥٣.

(٢) الصندي تايمز ١٦/ ٩/ ٢٠٠٦م.

رابعاً: زيادة جهود التعريف بالنبي ﷺ:

صحب أزمة التطاول على الثوابت الإسلامية طفرة غير مسبوقة في إنتاج الكتب والترجمات، والنشرات، والمقالات، والبرامج الإسلامية التي تعرّف بنبي الرحمة ﷺ؛ وما اشتملت عليه رسالته من معاني السماحة، والعدل وحبّ الخير للبشرية، والوفاء بالعهود، وحسن الخلق. وتزامن ذلك مع تنظيم العديد من المؤتمرات والندوات والمحاضرات في الغرب خصوصاً والعالم عموماً، وهو أمر لم يكن ليحدث لولا هذا الاستهداف.

وقد نتج عن هذه الجهود إسلام أعداد لا يستهان بها من الغربيين وغيرهم، وتصحيح الصورة المغلوطة عن النبي ﷺ في أذهان أعداد كبيرة من غير المسلمين.

خامساً: الانتقال من دائرة الكلام والشجب إلى دائرة الفعل والحركة:

وهذا تطور فريد حدث عقِب أزمة الرسوم الدنماركية؛ حيث وقف المسلمون وقفة فاجأت الغربيين؛ فخلال العقود الأخيرة لم يزد أكثر المسلمين على الكلام الحماسي ورد الفعل المتهوّر، لكن في هذه التجربة اختلف الأمر وتغير سلوك المسلمين تغيراً نوعياً وإيجابياً؛ فقد هبّ المسلمون كلٌّ بما يستطيعه في مواقف عملية تركّزت في معظمها على الحضّ على نصرة النبي ﷺ على أكثر من صعيد من طرف إعلاميين، وأدباء، وأصحاب منتديات على الشبكة العالمية، ومن عباراتهم في هذا الشأن: **جاهد في الدفاع عن النبي ﷺ ولو بأقلّ القليل، ولا تقف تنظر وتقول: ماذا أفعل؟ حاول إرسال رسالة استنكارية على الذي حدث... شارك معنا في حملة نصرة الحبيب المصطفى ﷺ...**

من الطرائف ذات المغزى في هذا الصدد، أن محافظة (دير الزور) السورية أقامت مسابقة شعرية بعنوان: (**نحري دون نحرك يا رسول الله**)، فكان الفائزَ الأوّلَ في المسابقة شاعرٌ نصرانيٌّ اسمه: جاك صبري الشماس!

سادساً: تأثير موقف المسلمين على أكبر منظمة دولية وهي منظمة الأمم المتحدة:

فقد نشرت (الفايننشيال تايمز)[1] تقريراً حول الرسوم، كتبه (مارك تيرنر) من نيويورك، وأشار إلى أن الجدال حول الرسوم المسيئة انتقل إلى مقر الأمم المتحدة، وأنه بات يعرقل تشكيل مجلس جديد لحقوق الإنسان تابع للمنظمة الدولية.

وجاء في التقرير: إن منظمة المؤتمر الإسلامي طالبت بإضافة فقرات تطالب المجلس الجديد بإدانة كل أشكال التمييز غير المقبول، وزيادة الكراهية الناجمة عن أي عمل ضد الأديان والأنبياء والمعتقدات. وتدعو منظمة المؤتمر الإسلامي إلى إضافة فقرتين لن يكون لهما قوة القانون، وفقرة ثالثة تحظى بقوة القانون.

سابعاً: أن هذه الإساءات لم تصدر عن علماء أو فلاسفة أو أدباء مرموقين، أو حتى عن رجال الدين النصارى، ما عدا ما صدر عن البابا الحالي (بنديكت السادس عشر) الذي بانعزاليته وعدم خوضه غمار تجربة حوار واحدة مع مسلم مثلاً، كما أن استشهاده في محاضرته كان من كلام ملك بيزنطي متغرطس لم ينجُ من غطرسته حتى النصارى.

---

(١) الصادرة يوم ١٠/ ٢/ ٢٠٠٦م.

وما زال مفكّرون من شتى الديانات يحكمون على كلام البابا ويصفونه بـ «الانزلاق الخطير والقاتل»(١).

وفي مقابل هذا، نجد المدح والثناء اللذين ملآ عشرات الصفحات في المؤلفات الغربية والشرقية من عشرات السنين، تثني على نبيّنا محمّد ﷺ، وتظهر إعجابها بل حبّها لهذا الرسول الكريم ﷺ(٢).

مع ملاحظة أن بعض القادة السياسيين في الغرب قد تورطوا في إساءاتٍ للإسلام وأهله مثل وصفهم بالفاشية، أو الدعوة إلى حروب صليبية جديدة، أو الدخول في مقارنات غير منصفة بين الإسلام والنصرانية(٣).

ثامناً: أن مسلمي الغرب هم أكثر من تفاعل مع هذه الحملات الرافضة لهذه الإساءات، رغم خطورة وضعهم هناك في الغرب وحساسيته؛ وهذا شيء يطمئن من حيث بقاء ولاء هؤلاء المسلمين للإسلام ومصادره ورموزه.

---

(١) في برنامج بين السطور في قناة 2M المغربية، جمعت مفكّرين وكتّاباً مسلمين ونصارى ويهوداً.

(٢) كُتب في هذا عشرات الصفحات في الكتب، والمجلات والصحف، ومواقع الإنترنت، منها على سبيل المثال: كتاب: «ربحتُ محمّداً ولم أخسر المسيح» لمؤلفه د. عبد المعطي الدالاتي، وكتاب: «قالوا عن الإسلام» لمؤلفه د. عماد الدين خليل، والموقع الإلكتروني: www.islamtomorrow.com للمسلم الأمريكي المهتدي يوسف إستس... وغيرها.

(٣) انظر تفصيل ذلك في كتاب أسرار الهجوم على الإسلام ونبي الإسلام لكاتب هذا البحث، ص ٧ وما بعدها.

المبحث الثاني: السلبيات:

تلك الآثار الإيجابية تعكّر صفوها بما صاحبها من سلبيات ونقائص لم تخدم الهدف المقدّس من هذه الهبّة الإسلامية العارمة ضد العدوان، ومن تلك السلبيات التي ينبغي أن نعمل على تلافيها ما يلي:

أولاً: غياب المرجعيات الضابطة لتصرفات الشعوب في الأزمات:

إن من أخطر ما يعاني منه المسلمون عموماً، وأهل السنة خصوصاً في العصر الحديث، غياب المرجعية التي يصدر الناس عن رأيها، وتوجِّه مسار الشعوب في الأزمات، وتضمن بإذن الله ترشيد ردّات الفعل وإبقائها متوازنة انطلاقاً من قول الله -تعالى-: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [النساء:٨٣].

وقد اتّضح هذا الأمر جلياً إبّان أزمة التطاول على مقام النبي محمّد ﷺ؛ فلا هيئات كبار العلماء في الدول الإسلامية أخذت زمام المبادرة، ولا جبهة علماء المسلمين التي أُنشئت حديثاً حظيت بالقبول لتكون مرجعاً للشعوب الإسلامية في هذه الأزمة، ولا المنظمات الإسلامية الشعبية - ولا سيما رابطة العالم الإسلامي- أُعطيت دورها الطبيعي لتقوم بواجبها المفترض أن تؤديه في قيادة الشعوب في هذه الأزمة.

فكان من نتيجة ذلك تفاوت ردّات الفعل، وبروز التجاوزات غير المقبولة التي وقعت في بعض الأحيان، وعدم القدرة على قراءة الأحداث المستجدة، واختيار المواقف المناسبة إزاءها. بل لقد أدّى هذا

الواقع إلى استفراد البعض بمواقف ربما أثّرت على تماسك ردّة فعل الأمة؛ نتيجة غياب المرجعية الضابطة لتصرفات الشعوب المسلمة في هذه الأزمة.

ثانياً: تحوّل المقاطعة إلى غاية:

لقد دفع الحماس البعض إلى تحويل المقاطعة الاقتصادية - التي هي وسيلة من عدّة وسائل لنصرة النبي ﷺ، وإنكار التطاول عليه- إلى غاية لا محيد عنها مهما كانت الظروف والمتغيرات، ودون تفريق بين من المنتمين إلى الطرف الآخر؛ إذ المعتذر غير المصرّ، والذي لم يفعل شيئاً ليس كالمسيء، وهذا يؤدي إلى **أمرين**:

أولهما: إشعار الطرف الآخر بأن لا فائدة من محاولات استرضاء المسلمين والاعتذار لهم، بدليل أن الذين اعتذروا لم يستفيدوا شيئاً.

ثانيهما: اتهام المسلمين الذين اجتهدوا في أمر المقاطعة في نياتهم ومواقفهم، وربما الغلظة عليهم! وهو أمر يفرّق الصف في وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى وحدة الكلمة.

وقد لوحظ على قلة ممن دعوا إلى المقاطعة بعض المزالق، ومنها(١):

١- **الغلو والتعدي** على المسلمين أو غيرهم؛ فبعض الخطباء يصرح أو يلمح بأن من اشترى منتجاً دنمركياً فليتهم دينه! مثل هذا الحكم العام باطل ولا يصح إطلاقه. وبعض المتظاهرين في الدول الإسلامية هددوا بقتل الأجانب وهدم الكنائس.

---

(١) عن مقالة بعنوان (أضواء على المقاطعة)، بقلم خالد قحنون، على موقع: islameiat.com.

٢- **توسيع دائرة المواجهة** في الداخل أو في الخارج؛ فبعض المقالات لفتت الأنظار لفتاً ضارّاً في هذه المرحلة؛ فأخذ الكاتب ينبه إلى انحراف بعض المذاهب مطالباً بأن نوسع دائرة المعركة. والحق أن أمثال هذه المقالات تمارس بلا قصد من أصحابها دورَ (المرايا المتقابلة)؛ فتشتت المواجهة في وقت هي أحوج ما تكون فيه إلى التركيز على جهة محددة. وهنا لا أجد أبلغ من التذكير بقوله ﷺ: «**إن المنبَتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى**»، وقول العرب: « ليس الري عن ارتشاف».

ثالثاً: ندرة وجود برامج عملية دائمة لمواجهة التطاول على الرّموز الإسلامية:

غلب الجانب العاطفي على ردّات فعل الشعوب الإسلامية؛ فكان الحماس طاغياً في بدايات الأزمة المتعلقة بالرسوم الكاريكاتورية ثم خفّت وتيرة هذا الحماس تدريجياً. ولا أقصد هنا التقليل من أهمية ردّات الفعل الآنية، أو العاطفة والحماس النابعين من صدق المشاعر الإيمانية، فكل ذلك مطلوب؛ لكن السلبي هو الاقتصار على ذلك وعدم البناء عليه للوصول إلى برامج عملية دائمة يمتدّ أثرها وتستمرّ نشاطاها؛ سعياً إلى التعريف بالإسلام ونبي الإسلام وكتاب الله عزّ وجلّ، والقيم والمبادئ التي اشتملت عليها رسالة النبي ﷺ.

لقد كان من اليسير في فورة الحماس المصاحب لأزمات التطاول تأسيس مجموعة من البرامج والمراكز والمشاريع التي ترصد وتحلّل وتعمل على مواجهة هذا التطاول مستقبلاً بنشاطات وقائية وعلاجية، وكان من اليسير في ذلك الوقت جمع الأموال وحشد الطاقات، وإقناع الحكومات،

ولكن هل كل ذلك متيسر الآن وبمثل ما كان عليه في ذلك الوقت؟

وحين لا يكون لدينا برامج عملية ودائمة فإننا سنخسر كثيراً، ونضطر دائماً إلى القيام بدور مطفئ الحرائق ومواجه الأزمات.

رابعاً: التهور والاندفاع والتصرفات غير المنضبطة:

وقد اشتملت على التخريب والتدمير والحرق لبعض السفارات، ولا سيما السّفارتين الدنماركيتين في دمشق وبيروت. وقد طالبتْ حكومة الدنمارك بتحمل سورية ولبنان مسؤولية إعادة إصلاح المباني.

كما اشتملت تلك التصرفات رفع شعارات التهديد بالذبح والقتل، والتفجير كتفجيرات ٩/ ١١ في نيويورك، و٧/ ٧ في لندن.

وهنا يتعين النظر في مثل هذه التصرفات بمعيارين:

أولهما -وهو أهمهما-: المعيار الشرعي؛ فهل يجوز مثل هذه التصرفات في دين الله؟ أم أنها من قبيل الاعتداء المنهي عنه؟ قال -تعالى-: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المائدة: ٨]، وقال -تعالى-: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ الآية [المائدة: ٢].

وثانيهما: هل هذه التصرفات تحقق المصلحة للإسلام والمسلمين؟ وهل المفاسد المترتبة عليها توازي المصالح التي يظنها البعض متحققة بها؟

من حق العقلاء أن يتساءلوا عن جدوى ردّات الفعل غير المحسوبة التي لا تنكأ عدوّاً ولا تعيد حقّاً، وهي مع هذا تسيء إلى قضايا المسلمين

حين ينجح سفهاء الأعداء في جرّ بعض المسلمين إلى مواجهات لم يختر المسلمون مكانها ولا زمانها ولا طريقتها.

خامساً: التوجّه للداخل ومخاطبة النفس:

لاحظتُ أن كثيراً من الكتب والمقالات والنشرات والمؤتمرات والندوات والبرامج الإعلامية تمّ تنفيذها باللغة العربية، وتمّ توجيه الخطاب فيها للمسلمين، كما تمّ توزيعها وإقامتها في البلاد الإسلامية.

ولستُ هنا أنكر أهمية توعية المسلمين بحقوق النبي ﷺ وخطورة التطاول على ثوابت الإسلام، لكنني أنتقد الاستغراق في مخاطبة الذات والاقتصار على ذلك، واستنزاف أموال الراغبين في نصرة النبي ﷺ ودينه وجهودِ الأفراد والهيئات والجمعيات، مع الشعور بأداء الواجب! فيما يتعطّش العالم ولا سيما الغرب إلى برامج عملية تعرّفهم بنبي الرحمة ﷺ ورسالته.

فمن المؤسف أن معظم هذه الجهود لم تصل إلى غير المسلمين عموماً، والغربيين على وجه الخصوص، بلغاتهم وبأسلوبهم الذي يفهمونه، وبما يعالج المشكلات والتصورات الخاطئة المكرسة في أذهانهم عن الإسلام ونبي الإسلام ﷺ.

سادساً: ضعف التنسيق أو غيابه كليةً بين المؤسسات الإسلامية العلمية والفكرية والدعوية والخيرية، بل قد تصل تلك الحالة من عدم التنسيق إلى حالة من التضارب والتناقض في المواقف.

وقد اتضح ذلك جلياً خلال أزمة الرسوم المسيئة في بعض الصحف الأوروبية؛ فمع أن الكل كان يدعو للتنسيق نظرياً، لكن الواقع أثبت تفرّد

البعض بزيارات ولقاءات ومواقف ومؤتمرات يأخذ من خلالها زمام المبادرة، ويعطي للطرف الآخر رسائل خاطئة عن تلاشي الغضبة الإسلامية وانطفاء جذوتها؛ مما أطال من أَمَدِ المواجهة وزاد في تصلّب بعض الأطراف الفاعلة لا سيما في الحكومة الدنماركية في الأزمة. وقريب من ذلك ما يحدث من تكرار الجهود في طباعة الكتب وترجمتها، وإقامة المؤتمرات والندوات، وبناء المواقع الإلكترونية لجهات عديدة حول موضوع واحد، وربما كان أداء الجميع ضعيفاً ومجهداً ومستنزفاً للأوقات والأموال، مع إمكانية تلافي كثير من ذلك الخلل بإنشاء وحدة للتنسيق بين الجهود المبذولة في هذا الصدد.

غير أن الغلو في هذا الجانب معطِّل للعمل بالكلية؛ فكم من الجهات والأفراد ظلّوا واقفين متفرّجين لا يعملون بانتظار التنسيق! والتوازن هو المطلوب في هذا الأمر؛ فلا بدّ من العمل وبذل الجهد مع السعي إلى التنسيق بين الجهات العاملة.

وفي رأيي أن تصدي بعض مشاهير العلماء والدعاة لأعمال نصرة النبي ﷺ وما يقتضيه ذلك من جهد ضخم ومتابعة دقيقة لقضية على قدر كبير من الأهمية؛ رغم انشغالهم بالعديد من المسؤوليات العلمية والدعوية، وتوليهم لكثير من الأعمال الإعلامية والتعليمية- لهو خطأ وقع وأثّر على مسيرة النصرة العملية للنبي ﷺ ومشاريعها التي يجب الإسراع بإقامتها. وكان منشأ هذا الخطأ هو ضعف التنسيق، وعدم الوصول في الوقت المناسب إلى هؤلاء العلماء والدعاة والمشاهير ذوي الانشغالات المتعددة؛ لعرضِ المشاريع العملية والبرامج الواقعية للتعريف والنصرة عليهم، وإشعارهم

بأن في الأمة من الطاقات المؤهلة والكوادر القادرة من يستطيع أن يكفيهم عناء إضافة هذا العمل المضني إلى أعمالهم، مع بقائهم ضمن المشرفين والمتابعين لهذه البرامج دون دخول في تفاصيل أعمالها.

سابعاً: عدم وجود مؤسسات قانونية إسلامية للدفاع عن قضايا المسلمين في المحافل الدولية:

بالرغم من امتلاء الدول العربية -مثلاً- بأعداد هائلة من النقابات المهنية؛ كنقابة المحامين، والأدباء... وغيرها من النقابات التي عليها مسؤولية عظيمة في تكريس بعض نشاطها لنصرة الإسلام ونبي الإسلام ﷺ.

الفصل الثاني
اقتراحات عملية

لا شكّ أن نجاح أي فكرة نظرية هو في التطبيق العملي لها؛ ولهذا فإننا بالنظر إلى سلبيات موقف المسلمين وإيجابياته من موضوع الهجوم على الثوابت؛ فإننا لا بد أن نخلص إلى خطوات وإجراءات عملية ناجعة تكفل الردّ الملائم على ذلك الهجوم، بما يحقق الاحترام الواجب لثوابتنا ومعتقداتنا.

وحتى يكون تصورنا للخطوات العملية صحيحاً يجب أن ينبثق من واقع الأمة الإسلامية وتجربتها في هذه المحنة العالمية؛ فنضع الحلول والتصورات العملية التي تنفي السلبيات وتبعدها، وتثبّت الإيجابيات وترسّخها بما آتته من ثمار طيبة في تلك التجربة.

فمن الخطوات العملية التي نرى العمل عليها في مثل هذه الحالات ما يلي:

• **المبحث الأوّل: الحاجة إلى برامج دائمة ومستمرّة:**

إنّ ما يقوم به المسلمون في موضوع نصرة النبي ﷺ هو من صميم الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي من صميم وظيفة هذه الأمة المباركة. يقول الله -تعالى-: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال -تعالى-: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤].

فهذه وظيفة دائمة للأمة لا يمكن أن تتخلى عنها، وهي المقوّم الأساسي لخيريتها وتميزها بين الأمم؛ فلا يمكن أن تستبدلها بوظيفة أخرى؛ لأنها بذلك تكون قد فقدت هذه المكانة التي اختارها الله لها. وإن الأمم -في كل زمان- لَتبذلُ الغالي والنفيس لتتبوّأ المكانة المرموقة التي تحقق لها الهيبة والاحترام بين الأمم، ولا تنال ذلك إلا بالمعاناة الشديدة والخسائر الفادحة، ثم سرعان ما تزول تلك الأمة أو تلك. لكن أمّة الإسلام قد منحها الله -عزّ وجلّ- أسباب السيادة والكرامة دون علوّ في الأرض؛ فسادت مدة طويلة من الزّمن، وأعظم تلك الأسباب: كتاب ربها وسنة نبيها.

فالأمة -ممثلة في أولي الأمر فيها: العلماء والحكّام - مطالبة أن تجعل موضوع الذود عن حياض الدين وبيضته، خياراً إستراتيجياً (بلغة العصر) فتربط مصيرها بمصيره؛ فلا تخْلِي بنود برامجها المتنوعة منه.

فالحاجة تكمن في البرامج الدائمة التي لا ترتبط بظرف معيّن، وإن كانت لا تهمل أي ظرف فتحدّد نوعية التعامل معه؛ حيث يعتبر إذ ذاك من النوازل التي تُقدّر بقدرها. ولا يخفى أن ديمومة هذه البرامج تحتاج إلى جهود عظيمة على أكثر من صعيد:

- **صعيد التخطيط**: المناهج، الأهداف، الوسائل.
- **صعيد الكفاءات العلمية والمالية.**
- **صعيد التنفيذ والمتابعة المستمرّة والصارمة.**

وهذا الموضوع مهمّ جدّاً على قدر أهمية غايته والهدف منه، ولذلك أكتفي بهذه الإشارة لعدم تحمل هذه الورقة لتفصيل أكثر، وحتى لا نهمل

بقية المقترحات، على أن يخصّ هذا الموضوع بالدراسات الطويلة والمعمّقة؛ لأنه الأساس في هذا العمل برمّته.

• المبحث الثاني: التعريف بالنبي ﷺ و أهميته في سلّم النصرة:

لا يختلف اثنان في كون الجهل بشخصية النبي محمّد ﷺ هو من أعظم أسباب التطاول عليه[١]، والتاريخ القديم والحديث يؤكّد هذه الحقيقة من زمن النبوة إلى الوقت الحاضر؛ فكم معادٍ للنبي ﷺ بنى موقفه ذاك على ما سمعه من أعداء النبي ﷺ. فلما رآه وسمعه لم يشك لحظة في صدقه وعظمة شخصيته! (فإن الناظر عندما يتحقق من أحواله وصفاته على ما هي عليه -دون تشويه، أو افتراء، أو تزييف- مع تجرّده من الهوى والتعصّب، يقطع بعقله أن من هذا حالُه ووصفُه لا يمكن أن يكون كذّاباً، ويوقن أنه صادق فيما يدّعيه من إرسال الله له، ونزول الوحي عليه)[٢].

وهذه أمثلة على تصديق من رأى النبيَّ ﷺ من أوّل وهلة وبمجرد رؤية نور وجهه الساطع بالحق والحقيقة:

فقد روى الترمذي[٣] أن عبد الله بن سلام -وكان يهودياً- قال:

---

(١) وهذا لا يعني بتاتاً تجاهل عامل الحقد التاريخي الذي شكّل علاقة الغرب المسيحي مع الشرق الإسلامي.

(٢) الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد: للدكتور سعود العريفي، ص ٥٠٥، دار عالم الفوائد، مكة، ط ١، ١٤١٩هـ.

(٣) في سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق، باب رقم ٢، (٤/ ٥٦٢-٥٦٣ برقم ٢٤٨٥)، وقال: حديث صحيح.

«لـمّا قدم رسول الله ﷺ المدينة جئتُ لأنظر إليه؛ فلما استثبتُّ وجهه عرفتُ أن وجهه ليس بوجه كذّاب».

وعن ابن عباس: أن ضمّاداً قدم مكة، وكان من أزد شنوءة وكان يرقي من هذه الريح؛ فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون: إن محمّداً مجنون. فقال: لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي! قال: فلقيه، فقال: يا محمّد، إني أرقي من هذه الريح، وإن الله يشفي على يدي من يشاء، فهل لك؟

فقال رسول الله ﷺ: «**إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمّداً عبده ورسوله. أما بعد.**

قال: فقال: أعد علي كلماتك هؤلاء؛ فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات. قال: فقال: لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء؛ فما سمعت كلمات مثل هؤلاء، ولقد بلغن ناعوس البحر(أي قعره الأقصى). قال: فقال: هاتِ يدك أبايعك على الإسلام! قال: فبايعه. فقال رسول الله ﷺ: **وعلى قومك**؟ قال: وعلى قومي»[(١)]. ومثل هذا قصة إسلام ثمامة بن أثال رضي الله عنه، وهي في الصحيحين.

وقصص المهتدين المعاصرين وغيرهم مليئة بمثل هذا الانبهار والإعجاب بشخصية هذا النبي ﷺ، ولهذا الموضوع مقام آخر كذلك، وإنما هي إشارات تؤيد فكرة أن التعريف بالنبي محمّد ﷺ، نبي الرحمة، هو من

---

(١) أخرجه مسلم، في الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة (٢/ ٥٩٣ برقم ٨٦٨).

أهم المداخل لنصرته، بنصرة دينه ودخول الناس فيه بدل شتمه والاستهزاء به، وهذه حدود مهمتنا نحن المسلمين، والهداية بيد الله -تعالى- وحده.

ومما يؤيّد هذا الموضوع (أي التعريف بالنبي ﷺ) ما جاء في تصريحات بعض الكتّاب الغربيين عقب فتنة الرسوم الدنماركية، ومن ذلك:

- قول جون كايسي في صحيفة (الصندي تلغراف)[١]: «إن الرّسوم الكاريكاتورية الدنماركية، التي سبّبت هذا القدر من الاحتجاجات، ناجمةٌ عن جهل الغرب بالإسلام».

- وأضاف: «مشكلة تلك الرسوم أنها تنمُّ عن الحماقة، كما أنها تقوم على جهل تاريخي، وهي بالتالي تدل على ذوق فظيع».

- وأضاف: «نعلم جميعاً أن الإسلام يأمر بالجهاد، وذلك قد يعني: إما الجهاد الروحي، أو القتال الفعلي من أجل الدين. أما الافتراض، كما افترضت الصحيفة الدنماركية، أن الإسلام هو لذلك دين مكرِّس للإرهاب؛ فهو افتراض يماثل في سخافته افتراض أن المسيحية مكرسة للغزو والقمع والقتل؛ بسبب الحملات الصليبية، ومحاكم التفتيش، وطرد اليهود والمسلمين من إسبانيا (الأندلس)».

- ويقول (روبرت فيسك): «إن أخطر ما في الأمر هو أن تلك الرسوم صورت النبي محمّداً [ﷺ] بصورة العنف على الشكل الذي

(١) الصادرة يوم ٥/ ٢/ ٢٠٠٦م.

يصوَّر به ابن لادن، وأعطت صورة عن الإسلام بأنه دين عنف، والأمر غير ذلك. إلا إذا كنا نريد أن نجعله كذلك؟!»(١).

● **المبحث الثالث: تبنّي إستراتيجية الحوار بين الحضارات:**

أصل تبنّي هذه الإستراتيجية هو قول الله -تعالى-: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾[النحل:١٢٥]، وقوله -تعالى-: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، وقوله -تعالى-: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ [آل عمران: ٦٤].

من أهم الموضوعات التي يجب مناقشتها لدرء العدوان، وذلك بنسف احتجاج المعتدين في الاعتداء على الثوابت، هو (حرية التعبير) في وسائل الإعلام خاصة. وهناك عدّة مداخل لهذا الموضوع بناءً على نوع استقراء للوقائع التاريخية والمنطقية والثقافية، وبتتبّع هذه المداخل سجلتُ ما يلي:

١- ضرورة احترام القرّاء وعدم إيذاء مشاعرهم. و هذا من حق القرّاء؛ فقد جاء في افتتاحية صحيفة (الجارديان)(٢): «إن حرية التعبير لا تعني بأي حال من الأحوال وجوب الإساءة للمشاعر، أو ضرورة تجاهل الحساسيات

---

(١) صحيفة (الإندبندنت) الصادرة يوم ٤/ ٢/ ٢٠٠٦م.

(٢) الصادرة يوم ٤/ ٢/ ٢٠٠٦م.

العقدية. وإذا كان تمسكنا بحرية التعبير يكتسي أهمية محققة؛ فإن وقوفنا ضد العنصرية ينبغي ألا يقل أهمية عنه».

٢- لماذا يقوم الغرب ضدّ تصريحات متطرّفة لـ (أئمة مساجد) مسلمين -نحن لا نقرّها-، ويلزم الصمت أو يؤيّد من يعتدي على الثوابت الإسلامية؟

٣- الإعلام الغربي (الأمريكي والأوروبي) يلتزم عملياً بخطوط حمراء لا يعتدي عليها بدعوى (حرية التعبير) في موضوعات كثيرة، أشهرها: محرقة اليهود في عهد النازية وهو ما يسمى بـ (الهولوكست).

علّق الصحفي (سيمون جينكيز) الكاتب في صحيفة (الصندي تايمز) بضرب مثلٍ بالبريطانيين فقال: «إنه رغم موقفهم الخشن تجاه الدين إلا أنه ما من جريدة يمكن أن تسمح لرسام كاريكاتور بأن يصوّر المسيح [عليه السلام] وهو يقوم بإسقاط قنابل عنقودية، و يسخر من (المحرقة) أو (الهولوكوست)»[1].

٤- إثارة موضوع (حرية التعبير) من طرف كتّاب في صحف ذائعة الصيت، مثل: عنوان: (هذه الرسوم الكاريكاتورية لا تدافع عن حرية التعبير بل تهددها) في صحيفة (الصندي تايمز)[2]، إلى عناوين: (الحرية في الكلام والحرية في إثارة الغضب) في صحيفة (الإندبندنت)، وعنوان: (هذه حماقة وليست صراع حضارات) في (الصندي تلغراف)، وغيرها من الصحف الأخرى. طغى على المقالات المكتوبة الجدل الدائر حول حدود

---

(١) صحيفة (الصندي تايمز) الصادرة يوم ٥/ ٢/ ٢٠٠٦م.

(٢) كلها صادرة يوم ٥/ ٢/ ٢٠٠٦م.

حرية التعبـير؛ وإن كـان من حق شخص أو جهةٍ انتقاص أو احتقار معتقدات أو مقدسات أتباع دينٍ مّا تحت مسوغ حرية التعبير. ورغم إعلان جميع من كتب تلك المقالات التمسك بحرية التعبير، غير أن غالبيتهم انتقدوا إساءة استخدامها على النحو الذي تصرفت به بعض الصحف الأوروبية.

٥- ردّ فعل المسلمين معقول؛ لأن المساس بالقيم مرفوض ولو كانت تلك القيم خاصة بمجتمع واحد فقط.

٦- هل من تعاليم المسيحية الطعن والقدح في الأنبياء والديانات؟ فإن مجلة نرويجية نشرت الرسوم المسيئة وقالت بأنها تتبنى القيم المسيحية! قال الكاتب (أندرياس ويتام سميث) في صحيفة (الإندبندنت)(١): «بالتأكيد، كان يتعين على مجلة تتبنى القيم المسيحية أن تحترم المقدسات بدلاً من الاستهزاء بمؤسس دين رئيسي».

• المبحث الرابع: أخذ زمام المبادرة في مواجهة التطاول والحيلولة دون ركوب موجة الاستنكار من طرف جهات مشبوهة أو ذات أغراض سياسية:

إن التأخر عن استلام زمام المبادرة من طرف القيادات الإسلامية العلمية والفكرية، ممن تثق الأمة في علمهم وخبرتهم وتوازنهم، وقبل ذلك في صدق توجهاتهم لتحقيق مصالح الإسلام والمسلمين... إنَّ حدوث مثل هذا التقصير له عواقبه الوخيمة على تلك المصالح المعتبرة شرعاً ونظراً. والدليل على خطورته واقعُ الأمة وقضاياها المصيرية الدينية والدنيوية؛

---

(١) الصادرة يوم ٦/ ٢/ ٢٠٠٦م.

فتارة تُهاجَم رموز الأمة ومقدساتها، وأخرى أراضيها وحرماتها، وأخرى رجالاتها وقادتها... ونركّز في هذه العجالة على ثلاث جهات هي -حسب التتبع-:

١- الغلاة والمتطرفون في طرحهم الفكريّ، سواءً كانوا من التكفيريين، أو من أهل التخريب والتدمير والاغتيالات.

٢- الحكومات التي لها مصالح سياسية من الموقف.

٣- قيادات الفرق المبتدعة؛ الذين يحسنون استغلال مثل هذه الفرص دون أن يفعلوا شيئاً في الواقع.

• المبحث الخامس: إسناد الدّور الأكبر في مواجهة التطاول إلى المواطنين المسلمين في الغرب:

لقد أثبتت التجربة أن المواطنين المسلمين الأوروبيين خصوصاً، والغربيين عموماً، كانوا حجر الزاوية في أي تحرّك مثمر من التعريف الهادئ والهادف برسالة نبينا محمّد ﷺ؛ ذلك أنهم الأقدر على مخاطبة شركائهم في الوطن، وإقناعهم بحقيقة الإسلام وما اشتملت عليه شخصية محمّد ﷺ من قيم السماحة والرحمة والإحسان إلى الخلق. ومهما أوتي بعض المسلمين العرب من علم وقدرة ولغة ومهارة؛ فإن تأثيرهم وإقناعهم يبقى محدوداً بالمقارنة بالمواطن الأوروبي المسلم؛ فهو الأقدر على بناء جسور الحوار المثمر والتعريف النافع بدينه ونبيّه ﷺ.

ولوضوح الفائدة المترتبة على إسناد الدور الأكبر في نصرة النبي ﷺ إلى المواطنين المسلمين في الغرب وتأثير ذلك؛ فإنني أكتفي بهذه الإشارة الموجزة في هذا السياق.

الفصل الثالث

تجربة عملية:

(البرنامج العالمي للتعريف بنبي الرحمة ﷺ)

نشأ البرنامج العالمي للتعريف بنبي الرحمة ﷺ في أوائل شهر محرم ١٤٢٧هـ تحت إشراف رابطة العالم الإسلامي؛ ولأنه تجربة عملية في سياق الموقف من التطاول على الثوابت؛ فسأقدّم تعريفاً بهذا البرنامج من خلال بيان أهدافه ومناشطه وإنجازاته، وذلك من خلال أربعة مباحث:

المبحث الأول: أهداف البرنامج:

أخذ هذا البرنامج على عاتقه تحقيق جملة من الأهداف القريبة والبعيدة، منها على سبيل المثال:

١- القيام بجزء من حق النبي ﷺ على أمته.

٢- التعريف الفعّال بنبي الرحمة ﷺ في العالم أجمع.

٣- نصرة النبي ﷺ والذبّ عنه، ومواجهة حملات التشكيك والتشويه لشخصيته ﷺ.

٤- تزويد وسائل الإعلام العالمية بمادة علمية ميسرة باللغات المختلفة حول شخصية محمد ﷺ ورسالته.

٥- إتاحة الفرصة لمختلف شرائح المجتمع للمشاركة في شرف نصرة النبي ﷺ.

٦- إبراز جوانب الرحمة والسماحة والعدل والخلق الكريم في شخصية النبي ﷺ.

٧- مساعدة الباحثين عن الحقيقة المتعطشين للهدى، وتزويدهم بما يعرِّفهم بالحق ويوصِّلهم إلى الحقيقة.

٨- التأسيس لمشاريع البدء والمبادرة، وليس الدفاع وردة الفعل.

٩- التنسيق بين الجهود الكريمة المبذولة في هذا المجال محلياً ودولياً.

المبحث الثاني: من مناشط البرنامج العالمي للتعريف بنبي الرّحمة ﷺ

١- إقامة مؤتمر عالمي يعقد في أوروبا حول شخصية نبينا محمد ﷺ، وجوانب الرحمة والسماحة وحب الخير للبشرية التي اتصف بها.

٢- إقامة مسابقة دولية لأفضل كتاب تعريفي بالنبي ﷺ موجه لغير المسلمين.

٣- إنشاء موقع عالمي على الإنترنت للتعريف بنبي الرحمة ﷺ.

٤- إنتاج مجموعة من البرامج الإعلامية وبرامج تقنيات المعلومات حول شخصية النبي محمد ﷺ وأخلاقه ودعوته.

٥- دعم القنوات الفضائية التي تخاطب غير المسلمين.

٦- دعم (اللجنة العالمية لنصرة خاتم الأنبياء) في جهودها الهادفة إلى رصد الإساءات التي يتعرض لها النبي ﷺ على الأصعدة المختلفة، والتنسيق في ذلك مع كبار علماء الأمة وقادة الرأي والفكر فيها.

٧- تأليف وترجمة أفضل الكتب التي تُعرّف بالنبي ﷺ ونشرها بين غير المسلمين.

٨- عمل قاعدة بيانات بأسماء وعناوين مجموعة من المؤهلين للحديث أو الكتابة عن شخصية النبي ﷺ لغير المسلمين، ويتم تزويد وسائل الإعلام العالمية بهذه القائمة، كما يتم تزويد الجهات الإسلامية المشاركة في الدعوة والإرشاد بهذه القائمة.

المبحث الثالث: من إنجازات البرنامج في عامه الأول:

١- **الإعلان عن المسابقة العالمية** للبرنامج العالمي للتعريف بنبي الرحمة، وموضوعها (مظاهر الرحمة للبشر في شخصية محمد ﷺ). وتبلغ جوائزها (٦٠٠,٠٠٠) ستمئة ألف ريال، بتمويل من المؤسسة الخيرية لمعالي السيد حسن عباس شربتلي رحمه الله.

٢- **المشاركة في إنتاج فيلم إعلامي** قصير بعنوان (أنا مريم) بالتعاون مع (اللجنة العالمية لنصرة خاتم الأنبياء).

٣- **إنتاج ١٠ حلقات تلفزيونية** حول تأثير شخصية نبينا محمد ﷺ على بعض من أسلموا حديثاً في أوروبا (باللغتين الألمانية والإنجليزية).

٤- **توقيع عقد إنتاج الموسوعة العالمية** الشاملة عن شخصية النبي محمد ﷺ والتي تشمل:

أ - موسوعة مكتوبة باللغة العربية حول شخصية النبي ﷺ.

ب - إصدار خاص من الموسوعة للطفل (٩ -١٥) سنة.

ج - إصدار إلكتروني من الموسوعة.

د- عرض تقديمي لعناصر محتوى الموسوعة، مناسب للتقديم في الدورات والمحاضرات.

٥- **توقيع عقد بناء وتشغيل الموقع العالمي** للتعريف بنبي الرحمة ﷺ باللغات الإنجليزية والفرنسية والعربية.

٦- **تشكيل ست لجانٍ** رئيسية لإدارة البرنامج ومتابعة أعماله:

أ - لجنة المؤتمرات والندوات والوفود.

ب - لجنة المسابقة العالمية للتعريف بنبي الرحمة ﷺ.

جـ - لجنة البرامج الإعلامية.

د - لجنة الكتب والدراسات.

هـ - لجنة الموقع العالمي على شبكة الإنترنت.

و- لجنة تنمية الموارد المالية والبشرية.

٧- **طباعة وتوزيع الكتب** التالية باللغتين العربية والإنجليزية:

- **هدي محمّد** ﷺ في عباداته ومعاملاته وأخلاقه: للدكتور أحمد المزيد.

- **علاقات الكبار؛ محمد** ﷺ **يقدم أخاه المسيح للبشرية:** للدكتور زين العابدين الركابي.

- **حاجات البشرية في رسالة النبي محمّد** ﷺ: إعداد البرنامج العالمي للتعريف بنبي الرحمة ﷺ.

- وباللغة الإنجليزية، كتاب: (**الرّسول العالمي** The Global Messenger) للكاتبة الأمريكية أم محمّد (Emily B. Assami).

- مطوية مختصرة بعنوان (**١٠ إضاءات حول ما قدّمه النبي محمد** ﷺ **للبشرية**) باللغات (العربية، والإنجليزية، والفرنسية، والألمانية): للدكتور عادل الشدي.

٨- **إقامة مؤتمر عالمي بعنوان** (أثر معرفة النبي ﷺ على العلاقة بين الغرب والعالم الإسلامي) في الفترة من ٤- ٥/ ١١/ ١٤٢٧هـ الموافق ٢٥ - ٢٦/ ١١/ ٢٠٠٦م بقاعة إكسل بلندن.

٩- **إقامة المعرض الأوّل للبرنامج العالمي للتعريف بنبي الرحمة** بالتزامن مع المؤتمر العالمي الذي عقده البرنامج في لندن في الفترة من: ٤-٥/ ١١/ ١٤٢٧هـ الموافق: ٢٥ - ٢٦/ ١١/ ٢٠٠٦م، بقاعة إكسل بلندن.

المبحث الرابع:

مؤتمر (أثر معرفة النبي ﷺ على العلاقة بين الغرب والعالم الإسلامي)

عقد البرنامج العالمي للتعريف بنبي الرحمة ﷺ مؤتمراً صاحبه معرضٌ للكتاب في مدينة لندن عاصمة بريطانيا، في الفترة من: ٤ ـ ٥/ ١١/ ١٤٢٧هـ الموافق: ٢٥ ـ ٢٦/ ١١/ ٢٠٠٦م، وقد شهد حضوراً مكثّفاً تجاوز الثمانين ألف زائر.

وقد اشتمل المؤتمر على ثلاثة محاور تناولت جملة من البحوث والمحاضرات جاءت على النحو التالي:

المحور الأول: الأنبياء مكانتهم وأثرهم في حياة البشرية.

المحور الثاني: أثر معرفة الغربيين للنبي محمد ﷺ في بناء جسور التعايش مع العالم الإسلامي.

المحور الثالث: الإساءة إلى الأنبياء وآثارها على التعايش بين أتباع الأديان.

وقد صدر عن هذا المؤتمر توصيات مهمة، نذكر بعضاً منها:

١- التأكيد على مكانة الأنبياء جميعهم عليهم الصلاة والسلام، ووجوب احترامهم وتقديرهم وعدم التفريق بين أحد منهم، وبيان أن الإساءة إلى أحد منهم هو إساءة لهم جميعاً، ووجوب الوقوف أمام هذه الإساءات واستنكارها، وتبصير الناس بخطئها، وطلب الاعتذار الصريح ممن صدرت منه الإساءة والالتزام بعدم تكرارها.

٢-الدعوة إلى إبراز القيم والمبادئ والأخلاق التي دعا إليها خاتم الأنبياء النبي محمد ﷺ وطبقها في حياته، باعتبار رسالته هي المكملة لرسالات الأنبياء من قبله.

٣- يطلب المؤتمرون من كافة الحكومات، والمؤسسات الدينية، ومؤسسات المجتمع المدني، ووسائل الإعلام والتعبير بكافة أشكالها -الالتزامَ باحترام جميع الأنبياء، وعدم الإساءة إلى ذواتهم أو رسالاتهم.

٤- يدعو المشاركون في المؤتمر الهيئات الدولية المعنية إلى إعلان ميثاق دولي ضد الإساءة إلى الأنبياء واعتبار ذلك أمراً مسيئاً للسلم الدولي والتعايش بين المجتمعات البشرية، يستحق فاعله المحاكمة على أفعاله. ويؤكد على التزام وسائل الإعلام خصوصاً بهذا الميثاق، وتحميل من يخرقه المسؤولية القانونية والأخلاقية عن إساءاته.

٥- يدعو المؤتمر المواطنين الأوربيين المسلمين والجاليات المسلمة في أوروبا إلى بذل المزيد من الجهد المنظم في تعريف المجتمعات التي يعيشون فيها بنبي الرحمة محمد ﷺ وما اتصف به من الرحمة والسماحة وحب الخير للبشر جميعاً، وذلك بالتنسيق مع البرنامج العالمي للتعريف بنبي الرحمة.

٦- يوصي المشاركون في مؤتمر (البرنامج العالمي للتعريف بنبي الرحمة) بإقامة دورات تدريبية، تصاحبها ورش عمل متخصصة لأئمة المساجد ومسؤولي المراكز الإسلامية في أوروبا حول أفضل وسائل التعريف بنبي الرحمة وسبل نشر هديه؛ القائم على الوسطية، والاعتدال، والوفاء بالعهود، واحترام حقوق الآخرين.

٧- يدعو المؤتمرون البرنامج العالمي للتعريف بنبي الرحمة إلى الاستمرار في إقامة المعارض التي تعرّف بالنبي محمد ﷺ، مع مراعاة تنقلها بين دول أوروبا، وذلك بالنظر إلى ما لاحظه المؤتمرون من نجاح كبير للمعرض المصاحب للمؤتمر الذي زاره ما يقارب الثمانين ألف زائر خلال يومين.

٨- يطالب المؤتمر وسائل الإعلام، ولا سيما القنوات الفضائية التي يملكها مسلمون، بإنتاج برامج وثائقية تبين حقيقة رسالة النبي محمد ﷺ وموقفه من القضايا الدولية المعاصرة؛ كالإرهاب، والاعتداء على الآخرين، وحقوق الإنسان عموماً والمرأة خصوصاً.

ملخص البحث

أختم هذه الورقة بتلخيص أهم ما جاء فيها:

لقد مرّت الأمة الإسلامية -وما تزال- بحالة من العدوان على الثوابت جامحة، تداعت عليها أصوات كثيرة من شعوب غربية مختلفة، فكانت تجربة جديدة نوعاً ما لسرعة انتشار نبئها، ووصوله إلى القاصي والداني بواسطة تقنية الإعلام المعاصر.

هذه الحالات المؤذية والمنكرة لا بد فيها من إستراتيجيتين:

الأولى: **الوقاية** منها قبل وقوعها، **والثانية**: **العلاج** لاستئصال مثل هذه الظواهر العدوانية، وللحدّ من سراية العدوان.

وقد كان لموقف الأمة الإسلامية في وجه التطاول على ثوابتها إيجابيات وسلبيات:

الإيجابيات: تمثلت في عودة كثير من المسلمين إلى التمسك بدينهم، والاعتزاز بانتمائهم، والمحافظة على هويتهم، وفي شعور الغرب عموماً والدنمارك على وجه الخصوص بخطورة التعرّض لثوابت المسلمين بالانتقاص، وأن استخدام سلاح المقاطعة الاقتصادية له أثره الفعّال إذا أُحسن استخدامه. كما لوحظ زيادة جهود التعريف بالنبي ﷺ، وأن المسلمين انتقلوا من دائرة الكلام والشجب إلى دائرة الفعل والحركة، وقد أثّر هذا الموقف على أكبر منظمة دولية وهي منظمة الأمم المتحدة. ومما يجعل هذا العدوان متهافتاً هو كونه لم يصدر عن علماء أو فلاسفة أو أدباء مرموقين

بل عن أراذل طبقات المجتمعات الغربية في الغالب الأعم، ويُشكر في هذا المضمار موقف مسلمي الغرب الذين كانوا أكثر من تفاعل مع هذه الحملات.

السلبيات: أخطرها غياب المرجعيات الضابطة لتصرفات الشعوب في مثل هذه الأزمات، وتحوّل المقاطعة إلى غاية لا إستراتيجية لها؛ فبرز فيها مزلقان هما: **الغلو والتعدي**: على المسلمين أو غيرهم، **وتوسيع دائرة المواجهة**: في الداخل أو في الخارج.

من السلبيات أيضاً: عدم وجود برامج عملية دائمة لمواجهة التطاول على الرّموز الإسلامية، وكذلك بروز التهور والاندفاع والتصرفات غير المنضبطة في سلوك فئات من المسلمين، ومنها: التوجّه للداخل ومخاطبة النفس، وضعف التنسيق أو غيابه كليةً بين المؤسسات الإسلامية العلمية والفكرية والدعوية والخيرية، وعدم وجود مؤسسات قانونية إسلامية للدفاع عن قضايا المسلمين في المحافل الدولية.

وكان لا بد بعد تقويم موقف الأمة الإسلامية في أزمة التطاول على الثوابت من تقديم اقتراحات عملية تكرّس فيها الإيجابيات وتجتنب السلبيات، ومن ذلك: الحاجة إلى برامج دائمة ومستمرّة على أكثر من صعيد: **صعيد التخطيط**: المناهج، الأهداف، الوسائل. **وصعيد الكفاءات العلمية والمالية، وصعيد التنفيذ والمتابعة المستمرّة والصارمة.**

ويأتي التعريف بالنبي ﷺ في أولويات سلّم النصرة، وكذلك تبني إستراتيجية الحوار بين الحضارات، وأخذ زمام المبادرة في مواجهة التطاول، والحيلولة دون ركوب موجة الاستنكار من طرف جهات مشبوهة أو ذات أغراض سياسية. وهي ثلاث جهات هي -حسب التتبع-: **أولاً**: الغلاة والمتطرفون في طرحهم الفكري، سواء كانوا من التكفيريين، أو من أهل التخريب والتدمير والاغتيالات. **ثانياً**: الحكومات التي لها مصالح سياسية من الموقف. **ثالثاً**: قيادات الفرق المبتدعة؛ الذين يحسنون استغلال مثل هذه الفرص دون أن يفعلوا شيئاً في الواقع. ومن الخطوات العملية كذلك التي يجب أن تتخذ هو إسناد الدّور الأكبر في مواجهة التطاول إلى المواطنين المسلمين في الغرب لما لذلك من منفعة وتأثير.

من الأمثلة العملية على أوجه النصرة للنبي محمّد ﷺ تجربة (البرنامج العالمي للتعريف بنبي الرحمة ﷺ) الذي يحمل على عاتقه مهمة التعريف بالنبي ﷺ وشخصيته وتعاليمه، وهذا من أعظم أبواب نصرته ﷺ.

مؤتمر تعظيم حرمات الإسلام

مؤفصلمؤسلاع:

واجب الأمة في نصرة دينها ونبيها

دور العلماء والمثقفين في استراتيجية المواجهة

أ. د. ناصر بن سليمان العمر

واجب الأمة في نصرة نبيها محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم

د. سلمان بن فهد العودة

دور الحركات الإسلامية في استراتيجية المواجهة

د. عبد الوهاب الديلمي

دور العلماء والمثقفين

في استراتيجية المواجهة

الشيخ: أ. د. ناصر العمر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه والتابعين، أما بعد:

فإنه لا يخفى على أحد ما وصلت إليه الأمة في هذا الزمان من ضعف وهوانٍ أغرى أعداءها؛ فتكالبوا عليها تكالب الأكلة على قصعتها، مصداقاً لما أخبر به النبي ﷺ في حديث ثوبان حيث قال -عليه السلام-: «**يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟! قال: بل أنتم يومئذٍ كثير؛ ولكنكم غثاء كغثاء السيل! ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله في قلوبكم الوهن. فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت**»(١).

هذا التداعي الواقع في عالم اليوم لم يقتصر على الجانب العسكري بمحاولات اختراق بلاد المسلمين وإخضاعها بقوة السلاح، بل إنه يأخذ شكلاً أشد خطورة وأطول مفعولاً وأعظم ضرراً؛ وهو التهجم والتطاول على دين الأمة ومقدساتها، فتارة بالتشكيك في عقائد وشرائع المسلمين، وتارة بالطعن فيمن نقل لنا هذا الدين من الصحابة والتابعين، ثم أخيراً يبلغ الطعن مداه بالطعن في القرآن الكريم وفي سيد المرسلين صلوات ربي وسلامه عليه إلى يوم الدين.

إن تداعي الجيوش الغازية على الأمة لم ينقطع عبر التاريخ، وقد كانت الحرب سجالاً بين الأمة وأعدائها، والغلبة في أغلب الأحايين من نصيب جند الله الموحدين، وعساكر الإيمان المنصورين، وربما نزلت ببعض الأمة

---

(١) رواه أحمد و أبو داود ، وصححه الألباني بمجموع الطريقين عن ثوبان.

هزائم عسكرية؛ ولكنها كانت دائماً على ثقة بموعود ربها وأن الدائرة ستدور بلاشك على عدوها، وكانت دوماً وأبداً مستعلية بدينها وإيمانها لا ترى في أعدائها -وإن انتصروا في أرض المعركة- إلا علوجاً ليس معهم شيء ينقصها أو تحتاج إليه في دينها أو دنياها، وأن ما معها من كتاب ربها وسنة نبيها هو الحق المبين الذي تفوق به كل العالمين.

فلا تعجب إذاً إذا علمت أن أعظم اجتياح للأمة الإسلامية نجم عنه تأثُّر المحتل التتري بديانة المسلمين فأسلم وادعى الإسلام منهم خلق!

الخطر الحقيقي الذي واجهته الأمة والذي شكل تهديداً فعلياً لوجودها وكيانها، ومن ثمّ كان تمهيداً لكل ما حاق بها من هزائم لاحقة إلى يومنا هذا -جاء متأخراً، ولعل بوداره كانت مصاحبة للحملة الفرنسية على مصر؛ ذلك أن الهزيمة العسكرية أمام الفرنسيين كانت مقترنة أيضاً بهزيمة أخرى نفسية عند طوائف كثيرة من المسلمين لا سيما من لهم تأثير على مصائر الأمة من حكام وأمراء ومتنفذين؛ فللمرة الأولى تنظر فئام من المسلمين إلى عدوهم نظرة انبهار وإكبار، وللمرة الأولى بدأ يدب الشعور في نفوس ضعاف الإيمان بأن للعدو عليهم فضلاً بما يملكه من وسائل وأدوات ومخترعات قصروا عن تحصيلها نتيجةَ أزمان من الجمود الفكري الذي خيّم على حياتهم .

ونتيجة لهذه الهزيمة النفسية كان من السهل على الكثير من أبناء المسلمين أن يقعوا ضحايا للتداعي الآخر الذي أتى به الأعداء وتناول ثوابت الأمة ومقدساتها؛ فوافقت الشبهات التي بثها أعداء الدين من الكفار المتغلبين قلوباً خاوية من اليقين؛ فمادت بها وتمكنت منها حتى

انحرف نفر من المسلمين عن دينهم فلم يبقَ لهم منه إلا اسمه، ثم تحولوا هم كذلك إلى معاول بيد أعداء الأمة يهدمون بها ثوابتها من الداخل .

إنه من الواضح بمكان أن خطورة تداعي الجيوش لا تكاد تقارن بخطورة تداعي المتطاولين المتجرئين؛ فمن يقع ضحية الأول وهو ثابت على دينه يكون قد فاز بالشهادة؛ فهو في أعلى عليّين مع النبيين والصديقين والصالحين، أما من كان ضحية الثاني فإنه يكون قد خسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين .

فاستشعاراً لهذه المخاطر العظام والتحديات الجسام التي تواجه الأمة تداعى الغيورون عليها من أبنائها تداعياً من نوع آخر، يريدون أن يبحثوا لها عن مخرج مما هي فيه من ضعف وهوان لتعود لتستأنف رسالتها التي أناطها الله -عز وجل- بها «... من هداية العباد بإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»[١].

ولا شك أن أول خطوة في الطريق نحو حل أي مشكلة تواجه الفرد أو المجتمع أن يشعر بوجود المشكلة، ولذا فهذا التداعي من الغيورين الذي يدفعهم للبحث عن المخرج هو أول علامات الصحة والحياة في هذه الأمة التي كان يؤمل أعداؤها أن تموت منذ زمن.

بل لا نبالغ إن قلنا: إن مشاعر اليأس من صلاح الحال عند شريحة

---

(١) من خطبة ربعي بن عامر -رضي الله عنه- لرستم قائد الفرس في القادسية، البداية والنهاية لابن كثير ج ٧/ ٤٦.

من شرائح الأمة هو مظهر من مظاهر الحياة والصحة وإن كان من أدناها؛ فهو كالقيح الذي يملؤ الجرح كمظهر من مظاهر استشعار الجسم لوجود الجرح والمرض. لكن أخطر شريحة في الأمة إنما هي الغافلة عن حالها، اللاهية عن مآلها، والتي لا تكاد تتأثر بما حل بها؛ فمثلها كمثل جسم مصاب بالسرطان ولا تظهر على صاحبه أية أعراض إلى أن تظهر عليه أعراض مرض الموت؛ حيث لا سبيل عندها للعلاج أو النجاة.

لقد حدد النبي ﷺ في حديث (تداعي الأمم) المرض الذي بسببه آلت حال الأمة إلى ما آلت إليه، كما أنه -بأبي هو وأمي- قد حدد الشفاء في حديث آخر أشبه ما يكون بالحديث الأول -إذ الداء فيهما واحد- حيث قال «**إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلّط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم**»(١) .

إن هذا الغزو المسلح وهذا التطاول ومحاولات صرف الأمة عن دينها بالشهوات تارة وبالشبهات أخرى.. كل ذلك لا يتم عبثاً ولا هو وليد العصر والساعة؛ إنما هو امتداد للحرب المعلنة منذ اليوم الأول، لا لبعثة النبي -عليه السلام- فحسب بل لاصطفاء بني آدم وتكريم أبيهم -عليه السلام- وإسجاد الملائكة له؛ فهي حرب الحق والباطل، والخير والشر، إنها حرب بين حزب الله المفلحين وحزب الشيطان الخاسرين، ولن تضع الحرب أوزارها إلى قيام الساعة. وإن كان للباطل فيها جولات فإن العاقبة فيها للمؤمنين الذين يعملون الصالحات، وإن

---

(١) رواه أبوداود عن ابن عمر وصححه الألباني.

كانت دولة الباطل والكفر ساعة فدولة الحق والإيمان إلى قيام الساعة.

تاريخ الأنبياء الذي هو تاريخ البشرية الحقيقي خير شاهد على ما نقول؛ فها هو نوح -عليه السلام- أول رسول يرسله الله -عز وجل- بعد ظهور الشرك في بني آدم، يجابه من اليوم الأول من دعوته بالطعن في شخصه الكريم: ﴿وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾ [القمر: ٩]، وفي دعوته: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠]، وفي أتباعه: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

وما كان نوح -عليه السلام- ببدع من الرسل؛ بل إن الله -سبحانه وتعالى- يخبرنا في الكثير من الآيات بأخبار الأنبياء مع أقوامهم وفيها تفصيل لطعون القوم ولردود الأنبياء عليهم، ثم يجمل لنا كل ذلك؛ حيث يسلّي رسوله الكريم ﷺ إذ رماه قومه بالسحر والجنون فيقول: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣]، قال ابن كثير: «أي: لكن هم قوم طغاة، تشابهت قلوبهم؛ فقال متأخرهم كما قال متقدمهم»[١].

فهم لم يتواصوا به ولكن قد تشابهت قلوب الأول والآخر منهم واجتمعت على الطغيان؛ فاجتمعت كلمتهم على تكذيب الرسل والطعن فيهم.

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ج ٧ / ٤٢٥.

وكما أن شريعة الإسلام ونبيه -عليه السلام- ليسا ببدع من الشرائع والأنبياء السابقين الذين تعرضوا للطعن والتطاول والهجوم- فكذلك أعداء الإسلام في هذا العصر ليسوا ببدع من أعدائه الأولين في مكة والمدينة؛ ففي مكة المكرمة تنوعت اتهامات المشركين الباطلة؛ فمنها ما تناول شخص النبي ﷺ لبيان أنه لا يمكن أن يكون رسولاً من عند الله، ومنها ما تناول الحق المبين الذي جاء به للتقليل من شأنه وادعاء بطلانه، ومنها ما تناول شخصه -عليه السلام- بالسخرية والاستهزاء استكباراً وعلواً وإغاظة للمؤمنين.

فمن الأول الذي تناول شخص النبي ﷺ لبيان أنه لا يمكن أن يكون رسولاً:

قولهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]، وقولهم: ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء: ٥] وقولهم: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الإسراء: ٤٧] وقولهم: ﴿هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤] وقولهم: ﴿مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٤] وما نفاه الله من قولهم: ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩]، وهي تُهَم تحمل بذاتها أكبر دليل على بطلانها وكذب دعوى أصحابها؛ لتناقضها واستحالة أن تجتمع في رجل في آنٍ واحد؛ فكيف يكون الرجل ساحراً ومسحوراً في آن؟ وكيف يمكن للمجنون أن يفهم الخطاب حتى يصير معلَّماً؟ أم كيف له أن ينطق بكلام الشعراء والكهان وهو لا يتأتى للمجانين؟

ومن الثاني (الذي يتناول الحق المبين الذي جاء به للتقليل من شأنه وادعاء بطلانه):

قولهم: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ [الأنبياء: ٥]، وقولهم: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]، وقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام :٧].

ولعلمهم في قرارة أنفسهم بتهافت هذه التهم قال مُقدَّمُهم الوليد بن المغيرة: «فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجز ولا بقصيدة مني ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إنّ لِقولِه الذي يقول لَحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يُعلى، وإنه لَيحطم ما تحته!»[1]؛ فلما أبى عليه الكفار إلا أن يطعن بشيء قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر: ٢٥- ٢٦] فتوعده الله بسقر، ثم إنه -سبحانه وتعالى- رد على كل هذه الفرى بآية جامعة فقال:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

ومن الثالث (الذي يتناول شخصه الكريم بالسخرية والاستهزاء استكباراً):

قولهم: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ

---

(١) مستدرك الحاكم، تفسير سورة المدثر.

رَسُولًا ﴾ [الفرقان: ٤١]، وقولهم : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١].

إلى غير ذلك من أنواع الاستهزاء؛ كقولهم: إنه -عليه السلام- أبتر! فردّ الله على جميع مبغضيه والمستهزئين به بالقول؛ فقال -عز من قائل-: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣]، وبجميل الفعل؛ إذ كما قال ابن كثير - رحمه الله -: «أبقى الله ذكره على رؤوس الأشهاد، وأوجب شرعه على رقاب العباد، مستمراً على دوام الآباد، إلى يوم الحشر والمعاد، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم التناد»(١).

وأما في المدينة المنورة فقد انتقل المسلمون من حال الاستضعاف إلى حال التمكين، وصار النبي ﷺ -لا سيما بعد غزوة بدر الكبرى- هو الحاكم المرجوع إليه في الدولة الإسلامية الفتية. وكما بسط سلطانه الروحي على قلوب المؤمنين بسط سلطانه الحسي على كل رعايا الدولة التي لم تخلُ من عدو ظاهر لا يقل عداوة عن مشركي قريش؛ هم يهود المدينة، وعدو باطن هو أخطر أنواع الأعداء؛ ألا وهم المنافقون .

ومع تغير طبيعة العدو وتغير حال المؤمنين تغيرت طبيعة الحرب بين الحق والباطل؛ فما عاد من الممكن المجاهرة بالعداوة والإيذاء دون أن تنال سيوف الله من المعتدين، وصار من المستحيل الطعن في القرآن أو التطاول على مقام النبي -عليه السلام- في العلن سواء بتكذيبه أو الاستهزاء به

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ج ٨ / ٥٠٥.

عليه السلام، لكن المنافقين كانوا مع ذلك يؤذون النبي ﷺ أذية دون التكذيب الصراح أو الاستهزاء البواح؛ وهو من باب الاعتراض على بعض أفعاله عليه السلام. وقد حكى الله -عز وجل- عنهم شيئاً من ذلك؛ كقوله -تعالى-: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة: ٥٨]، وقوله -عز من قائل-: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ [التوبة: ٦١]. أما الطعن في شخصه -عليه السلام- أو في أصحابه فإنما كان يتم في الخفاء. قال مجاهد في تفسير قوله -تعالى-: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ٦٤]، قال: «يقولون القول بينهم، ثم يقولون: عسى الله أن لا يفشي سرنا علينا».

فإذا ما وصل خبر الطعن للنبي -عليه السلام- بإعلام الله -سبحانه وتعالى- له أو بإخبار المؤمنين بعض ما سمعوه من المنافقين -جاؤوا يحلفون الأيمان المغلظة إنهم ما قالوا؛ كما في قول رأس النفاق عبد الله بن أبيّ بن سلول: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]، أو قول الجُلاس بن سويد بن الصامت: «إن كان ما جاء به محمد حقّاً، لنحن أشرُّ من الحُمُر!»(١).

(١) تفسير الطبري: ج ١٤/ ٣٦١.

ففي هذين القولين وما أشبههما، مما جاء أصحابها يحلفون: إنهم ما قالوا، نزل قوله -تعالى-: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤]، أو جاؤوا يعتذرون بأعذار واهية كما اعتذر بعضهم عن قوله يوم تبوك: «ما لقُرَّائنا هؤلاء أرغبُنا بطوناً وأكذبُنا ألسنةً، وأجبَنُنا عند اللقاء!» وآخرون عن قولهم: «يرجو هذا الرجل أن يفتح قصور الشأم وحصونها؟! هيهات هيهات!» فقالوا: «يا نبي الله، إنما كنا نخوض ونلعب! فنزلت: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة: ٦٥]»[(١)].

إنه لمن المدهش أن نرى واقع المسلمين اليوم حيال هذه القضية - أعني التطاول على دين الله وعلى مقدساته - يجمع بين الحالين اللتين كانتا لهم، في مكة قبل الهجرة وفي المدينة المنورة بعدها؛ فحيث كان المسلمون مستضعفين في مكة المكرمة كان التطاول والاستهزاء مستعلناً مستعلياً؛ وحيث صارت لهم القوة والمنعة في المدينة المنورة بعد بدر انكفأ المتطاولون والمستهزئون خشية أن يطالهم العقاب الرادع؛ فعدلوا عن إظهار الكفر إلى النفاق، وعن الطعن في النبي ﷺ جهاراً نهاراً إلى التعريض به وبأصحابه -عليه السلام- في الخفاء.

(١) تفسير الطبري: ج ١٤/ ٣٣٣ ـ ٣٣٤.

واليوم، وعلى الرغم مما بالمسلمين من ضعف ظاهر، وعلى الرغم من انفراط عقد الخلافة الذي كان يجمع شتاتهم ويحفظ كيانهم ويذود عن مقدساتهم- فإن المرء لا تكاد تخطئ عيناه بقاء هذه المعادلة القديمة حيث كان الإسلام متمكناً في النفوس ومهيمناً على المجتمع؛ فإن الباطل لا يجرؤ على المجاهرة بالطعن والتطاول على الأمور الأساسية الكلية لهذا الدين؛ فلا يمكن التعرض لذات الله سبحانه وتعالى، ولا لنبيه الكريم عليه الصلاة والسلام، ولا للقرآن ولا للسنة، ولا لمن نقل القرآن والسنة؛ إنما يتم التعرض لقضايا جزئية، لا بأسلوب الطعن والتطاول المباشر، ولكن بأسلوب التشكيك، أو الدعوة للتنوير والتطوير، أو اللعب على وتر قول ضعيف أو رواية شاذة منكرة أو رواية إسرائيلية، أو الاعتماد على كتب لم يلتزم أصحابها فيها الصحة؛ إنما جمعوا فيها ما وقع لهم من روايات.

في هذه البيئة التي لا يزال فيها الإسلام مهيمناً على النفوس يكون من العسير جداً أن يتطاول الباطل على أسس الدين، وما كان منه كذلك فإنه يكون كمنطاد اختبار لمعرفة حصانة المجتمع والحال التي وصلت إليه، إنه يكون استثناء عن القاعدة كما كان كعب بن الأشرف، ولكن قد كان لكعب بن الأشرف محمدُ بن مسلمة، ولا محمدَ بن مسلمة له اليوم! ردةٌ ولا أبا بكر لها.

وفي المقابل كلما ضعفت هيمنة الإسلام الصحيح على النفوس اشرأبّ الباطل ليكسب أرضاً جديدة فرّط فيها المسلمون؛ فبعد أن كان الحديث يدور حول جزئية كصحة حديث في البخاري -مثلاً- يصبح الكلام حول قيمة البخاري كله، وبعد أن كان الحديث حول عدالة راوٍ

من رواة الصحابة يصبح الحديث حول عدالة الصحابة كلهم، وبعد أن كان الكلام حول مناسبة حكم من الأحكام للعصر الحديث يصبح الكلام حول ضرورة عَرْضِ ما في القرآن على ميزان النقد التحليلي كأي كتاب آخر بنزع القداسة عنه[(١)]، وبعد أن كان الكلام حول بعض أحداث سيرة المصطفى -عليه السلام- يصبح الكلام عن النبي -عليه الصلاة والسلام- كمصلح من المصلحين، أو يتمادى البعض فينبش ما سوده المستشرقون للطعن في نبوته عليه السلام، كقولهم: إن به مساً من جنون أو صرع! قاتلهم الله أنى يؤفكون.

إذاً ما أشبه الليلة بالبارحة! وما أشبه حال المسلمين في بقاع الأرض المختلفة بحالهم في مكة والمدينة، وما أشبه حال أعدائهم بحال أعداء سلفهم الأولين، وصدق الله حيث قال: ﴿أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣].

إن أعداء الأمة الذين أغراهم ضعفها، فتكالبوا عليها بأساطيلهم ورجلهم ووسائل إعلامهم المتنوعة، قد ساهموا في الوقت نفسه فيما وصلت إليه من ضعف؛ فهم أحد أسبابه وأكثر المستفيدين منه في آنٍ معاً؛ فمقارعة هؤلاء الأعداء ومنابذتهم ليست قاصرة على ساحات الوغى وحدها، ولا هي قاصرة على ميدان إقامة الحجة ورد الأباطيل وحده؛ بل الأمر كما قال الله -سبحانه-: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣]، قال ابن كثير -رحمه الله-: «قال ابن عباس: أمره الله -تعالى- بجهاد الكفار بالسيف،

---

(١) من أمثال نصر حامد أبو زيد في عامة كتاباته.

والمنافقين باللسان، وأذهب الرفق عنهم. وقال الضحاك: جاهد الكفار بالسيف، وأغلظ على المنافقين بالكلام؛ وهو مجاهدتهم. وعن مقاتل والربيع مثله. وقال الحسن وقتادة: مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم. وقد يقال: إنه لا منافاة بين هذه الأقوال؛ لأنه تارة يؤاخذهم بهذا، وتارة بهذا بحسب الأحوال، والله أعلم»[١].

وقد بين ﷺ هذا الأمر أحسن بيان كما في حديث أنس: «**جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم**»[٢]، وكما قال عن شِعْرِ ابن رواحة الذي هجا به الكفار: «**فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَكَلامُهُ أَشَدُّ عَلَيْهِمْ مِنْ وَقْعِ النَّبْلِ**»[٣]. لذا فقد قال الطبري -رحمه الله- في مثل قوله -تعالى-: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] وقوله -عز من قائل-: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ﴾[الحج: ٤٠]: «فنصْر الله عبده: معونته إياه، ونصر العبد ربه: جهاده في سبيله لتكون كلمته العليا»[٤]. ولا ينبغي أن يكون نصر العبد ربه قاصراً على الجهاد بالأبدان؛ لأن مفهوم الجهاد أوسع من ذلك بكثير كما بيّن عليه السلام.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، (ج ٤/ ص ١٧٨).

(٢) رواه الإمام أحمد والنسائي، والحاكم في مستدركه وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، و ابن حبان في صحيحه بلفظ: «**بأيديكم و ألسنتكم**».

(٣) سنن النسائي باب استقبال الحج ، و صححه الألباني.

(٤) جامع البيان للطبري، (ج ١٨ / ص ٦٥١).

إن الأمة كلها مدعوة لنصرة الله بالجهاد بالمال والنفس واللسان لتكون كلمة الله هي العليا، الأمة كلها مدعوة للعمل المخلص والجاد للعودة إلى مهمتها الأولى وسيرتها الأولى؛ فالعالِم بعلمه، والطبيب بطبه والمهندس بهندسته، والتاجر بتجارته، والمزارع بزراعته، والعامل بعمله، وكل فرد في موقعه... الجميع مدعو لهذا الجهاد؛ جهاد ينبغي له أن يكون منضبطاً بضوابطه الشرعية؛ فليس الجهاد بأي نوع من أنواعه غاية في حد ذاته، إنما هو وسيلة لتكون كلمة الله العليا. حتى الجهاد بالنفس، الذي هو ذروة سنام الإسلام، ليس هدفاً في حد ذاته، ولو كان كذلك لصحت مقولة بعض الغيورين: إن الأمة يجب عليها أن تجاهد أعداءها ولو فنيت كلها عن بكرة أبيها: برجالها ونسائها، بشيبها وشبابها وأطفالها. ولو كان هذا صحيحاً لصوّب رسول لله ﷺ قول من قال من المؤمنين لجيش مؤتة: «الفُرّار» لكنه -عليه السلام- سماهم الكُرّار، وسمى خالداً، وهو الذي انسحب بهم، سيفاً من سيوف الله(١).

فلئن كان نوع الجهاد، الذي هو ذروة سنام الإسلام، ليس غاية في حد ذاته وليس هو مهمة الأمة الأصلية ولا دورها الرئيس المنوط بها؛ فمن باب أولى ألا يكون الرد على تطاول المتطاولين وإساءة المسيئين كذلك؛ إذ ما كان هذا الرد مهمة الأمة يوماً، إنما انتدب النبي ﷺ لهذه المهمة رجالاً بأعينهم.

(١) غزوات الرسول لابن سعد: ج ١ / ٦٤.

إن مهمة الأمة ودورها الرئيس الذي يجب ألا يغيب عن أبنائها هو عبادة ربها وتعبيد الناس له سبحانه وتعالى، ويكون ذلك بريادة الأمم، وهداية الحيارى والأخذ بأيديهم إلى توحيد الله، تحقيقاً لقوله -تعالى-: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. أما الرد على التطاول والإساءات والشبهات فهو مهمة عارضة لا بد منها في الطريق لتحقيق الهدف الرئيس؛ وهو إعلاء كلمة الله في أرضه وإظهار دينه وتعبيد الناس لربهم، ولن يتم هذا الأمر على الوجه الأكمل إلا إذا كانت الأمة ممكَّنة في الأرض.

ورغم أن الأمة كلها مدعوة لأداء هذه المهمة فإنه -كما في كل دعوة للإصلاح- لا بد من طليعة رائدة تتقدم الصفوف، وترسم لمن خلفها طريق الخلاص. وقد حاولت العديد من الحركات الإصلاحية القيام بهذا الدور الطليعي في واقع المسلمين اليوم؛ غير أن الكثير منها تظن أن طريق الصلاح والإصلاح إنما يكون بمنافسة أعداء الله في كل مجال تفوقوا علينا فيه؛ فالبعض يرى أن وسائل ريادة أعداء الله في عالم اليوم هي وسائل الريادة التي ينبغي لنا أن نسلكها؛ فمن قائل يقول: إن المشاركة السياسية للشعوب في صنع قرارها عبر الانتخابات قد مكنتها من تحقيق أهدافها في الازدهار والتقدم؛ فيجب أن نجعل العمل السياسي هو شغلنا الشاغل كي نصل إلى التمكين عبر صناديق الانتخابات. وآخر يقول: إن تلك الأمم إنما حققت الريادة بتفوقها الاقتصادي في عالم الصناعة والمال والتجارة؛ فلا بد

لنا من حيازة وسائل التفوق الاقتصادي لتعود لنا الريادة. وثالث يقول: بل إن سبيل الخلاص هو حيازة المعارف والعلوم الحديثة فهي أساس كل تقدم وتمكين.

إن كل هذه الوسائل إجمالاً بلا ريب من وسائل العيش الكريم ومن أسباب التفوق في عالم اليوم، ولكنها لا يمكن أن تكون هي وسيلة التمكين الصحيحة لهذه الأمة ما لم تخضع هي في نفسها للشريعة قبل أن تستعمل في بسط سلطان الشريعة. أما إن جردت عن الضوابط الشرعية فليست سبيلاً مرضياً ولن تحقق رقياً حضارياً؛ وهذا ما تثبته سيرة النبي -عليه السلام- وتاريخ المسلمين؛ بل ترده بعض تجارب الواقع كذلك.

يُروى في كتب السير وكتب التفسير أن الكفار في مكة المكرمة عرضوا على النبي ﷺ أن يكون ملكاً عليهم على أن يترك دعوته فأبى. ولِقائل أن يقول: قد كان بإمكانه -عليه السلام- أن يصبح حاكماً عليهم ثم بعد توطيد أركان حكمه يفعل ما يشاء؟! وهذا نوع من أنواع العمل السياسي قد يراه مناسباً من يرى الإصلاح يتمثل بخيار الإصلاح السياسي مجرداً عن ضوابط الشرع؛ فدلّ تركه -عليه السلام- ودل إقرار الله -عز وجل- له على تركه أنه ليس هو الطريق لتحقيق التمكين المنشود دائماً. لكنه قد يكون كذلك إذا انضبط بالضوابط الشرعية من نحو التي تحققت في دولة الإسلام بالمدينة النبوية.

وفي العصر الحديث تجارب متعددة تتفاوت من حيث درجة قربها وبعدها من تحقيق هدفها في التمكين السياسي، لكن نتائجها كلها تؤكد أن هذا ليس هو الطريق. الدعاة يفرحون عندما يرون الشارع يموج

بأعداد ضخمة من المسلمين المؤيدين لمن ينادي بتحكيم الشريعة في المجتمع، أو عندما تصوّت الجماهير للداعين إلى ذلك؛ فيحققون مكاسب في الانتخابات. وهذا بلا شك أمر مفرح؛ لأنه يدل على مدى ارتباط الأمة بأصولها، وأن نداء الإيمان يلقى قبولاً لدى فئات كثيرة في المجتمع، لكن الواقع يشهد أن هذه التحركات الشعبية العاطفية سريعة الانفعال لكنها قصيرة النفس وسريعة الخمود كذلك؛ فهي لا تستطيع الصبر والانتظار وتحمل المشاق في سبيل تحقيق الأهداف، وعند أول ريح وأول اختبار جدي تنحسر هذه التحركات ويبقى السياسيون لوحدهم في الميدان.

بل إن الأمر ليتجاوز ذلك إلى ما هو أعظم منه؛ فيومَ أن تطاول المجرمون على مقام النبوة؛ فصوّروا الصور، ورسموا الرسوم امتلأت شوارع المسلمين بالتظاهرات الغاضبة لنبيها عليه السلام، ثم ما لبثت بعد حين أن هدأت وفترت رغم أن أعداء الله لم يقدموا ما يذكر، بل ربما أحدث بعضهم مزيد طعن وإساءة! وصدق رسول الله ﷺ؛ حيث قال: «**بل أنتم يومئذٍ كثير؛ ولكنكم غثاء كغثاء السيل**»(١)؛ فالغثاء هو الزبد الذي يحمله السيل، وهو يكون من الكثرة بحيث يغطيه، ويكون منتفشاً منتفخاً يحسبه المرء شيئاً وما هو بشيء، إنما هو هواء وخواء، سرعان ما يتلاشى مع توقف السيل.

إننا لا نريد أن يكون الشرع المنزل من رب العباد مشروعاً يتم

(١) رواه الإمام أحمد ٥/ ٢٧٨، وأبو داود ٢/ ٥١٤ (٤٢٩٧)، ورواه غيرهم، وصححه الألباني.

التصويت عليه من قبل العبيد فيكون عرضة لقبولهم وردهم وأمرهم ونهيهم؛ فإن هذا لا يستقيم والغايةَ التي خلق الله لأجلها العباد. وإذا كان المشروع الإصلاحي مؤيَّداً بالوحي فهو خيرة الله -سبحانه وتعالى- لعباده المؤمنين: ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨]. فالمطلوب هو أن تتشبع قلوب المسلمين بهذا المشروع وأن يكون مقوِّمَ حياتهم، ورؤيته قائماً على أرض الواقع هو هدفهم جميعاً. وقد أثبتت التجارب بعد نظر أحد العلماء الربانيين عندما قال له بعضهم: إن الملايين في الشارع يطالبون بتحكيم شرع الله! فقال كلمته المأثورة: فكم عدد المصلين في المساجد في صلاة الفجر؟ إذ قد علم بثاقب بصيرته أن العبرة ليست بالعواطف التي تذبل وتخمد بأسرع مما تشب وتتوقد، العبرة بالثبات والاستقامة، وبأن يصبح هذا الدين متمكناً في القلوب وتصدِّق ذلك الجوارح «**قل: آمنت بالله، ثم استقم**»(١)، فعاد التمكين السياسي أولاً لبناء الفرد.

وأما التمكين الاقتصادي فقد أتى النبي ﷺ المدينةَ والأسواقُ والأموالُ بأيدي اليهود كما هي اليوم؛ فما نازعهم ﷺ شيئاً من ذلك، حتى إنه -عليه السلام- قد مات ودرعه مرهونة عند يهودي! فلو كان هذا هو سبيل التمكين لما فرط فيه ألبتة، بل قد صح عنه -عليه السلام- أنه قال:

---

(١) رواه أحمد ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه.

«**جعل رزقي تحت ظل رمحي**»(١)؛ فدل على أن الرخاء الاقتصادي إنما هو تابع للتمكين في الأرض لا العكس، وهذا بين واضح من تاريخ الفتوح بما لا يحتاج إلى مزيد تدليل عليه.

وأما تحصيل العلوم والمعارف الدنيوية فرغم أن النبي ﷺ قد هيأ أمته منذ رحلة الهجرة للنصر على فارس ثم هيأها بعد ذلك للنصر على الروم، إلا أنه -عليه السلام- لم يشغل أصحابه بمنافسة هاتين الحضارتين فيما بين أيديهما من علوم ومعارف دنيوية، وهذا دليل كذلك على أن هذا ليس هو سبيل التمكين. إن تاريخ الإسلام والمسلمين ليشهد على عكس ما ترجوه دعوات التمكين السياسي والاقتصادي والعلمي؛ تاريخ الإسلام والمسلمين شاهد على أن كل أسباب التمكين هذه لم تكن يوماً من الأيام هي السبب الرئيس لريادة المسلمين وتمكينهم في الأرض ابتداءً، العكس هو الصحيح؛ فإن الأمة ما تقدمت وازدهرت في هذه الميادين إلا نتيجة لتمكّنها في الأرض؛ فعندما بسط الإسلام سلطانه في أرجاء المعمورة، بعد أن فتح البلاد بالسنان وفتح القلوب بالقرآن، أتت الدنيا أبناءه راغمة؛ فقامت لهم في مدة وجيزة حضارة لم يعرف الوجود لها مثيلاً. ولسنا بهذا نقلل من أهمية السبق في تلك المجالات والعمل على تقويتها بل كلها من باب الإعداد المأمور به؛ فقد أرشدت الشريعة إلى أهمية الأخذ بنحو تلك الأسباب، ولكن الإشكال في الأخذ بها مطلقة دون هدف أو باعث مرضٍ، أو أن

(١) رواه أحمد من حديث ابن عمر، وصححه الألباني، وقال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (ج ٤ / ص ٨١) : إسناده صحيح .

تكون غير منضبطة بالشرع؛ مسخَّرة لإعلائه ونشره، منبثِقةً عن مقاصده بالدرجة الأولى.

إن الكثير من الدعوات الإصلاحية في واقعنا المعاصر تغيب عنها هذه الحقيقة المهمة؛ وهي أن صلاح الأمة اليوم منوط بتحقيق ما حققته الأمة في السابق حتى نالت شرف الريادة.

ولعله جدير بالتأمل قول النبي -عليه السلام- عندما وصف الداء: «**حب الدنيا وكراهية الموت**»، لم يقل: إن الدواء هو: «كراهية الدنيا وحب الموت»، وكذلك في حديث (العِيْنَة) الذي مر قبل فإنه -عليه السلام- لم يقل: إن الدواء هو الجهاد، أو ترك الزرع وفك أذناب البقر، أو الانتهاء عن البيوع المحرمة وهي الأدواء التي ذكرها في الحديث؛ بل بيَّن -عليه السلام- أن الدواء يجب أن يكون شاملاً كافياً شافياً؛ فليس سوى الرجوع إلى الدين -كل الدين- بشموله وكماله الذي ما فُرِّطَ فيه من شيء.

وقد وعى سلفنا الصالح هذا الأمر وعياً تاماً، وعلموا أن الريادة والعزة لهذه الأمة ورفعَ الذل عنها لا يكون إلا بالتمسك بدين ربها الذي ارتضاه لها وأنزله لإصلاح شأنها من فوق سبع سموات؛ لذا قال عمر -رضي الله عنه-: «إنا كنا أذل قوم؛ فأعزنا الله بالإسلام؛ فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله»(١).

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

إن الرجوع إلى الدين متحتم على مجموع الأمة؛ حتى يعود لها عزها الضائع ومجدها التليد. وكي ترجع الأمة إلى دينها لا بد لها ممن يصفي لها الدين مما علق به من شوائب ليست منه، ثم لا بد لها ممن يدعوها إلى هذا الدين المصفى الموافق لما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ويقربه إليها؛ فطليعة الأمة هي من تقوم بهذه المهمة الشاقة وتحمل أعباءها؛ ولا يصلح لهذه المهمة إلا علماء هذه الأمة. وإذا قلنا: (علماء الأمة) فإنما نعني بهم من عرف أن الصلاح إنما هو بالسير على ما كان عليه الرعيل الأول في الفهم والعلم والعمل، دون إغفال لتغيير الأدوات بتغير العصر. إننا نعني بهم هؤلاء الربانيين الذين يوقنون بصدق قول مالك -رضي الله عنه- حيث قال: لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها[(١)]؛ فهؤلاء هم ورثة نبيهم -عليه السلام- حقاً وصدقاً؛ فهم من تعقد الآمال عليهم بعد توفيق الله كي يوقظوا الأمة من غفوتها، ويقيلوها من عثرتها، ويأخذوا بيدها إلى ما فيه مرضاة ربها ورفعة شأنها.

ويلحق بالعلماء طلبة العلم، ولا نريد بهم من يسعون للتخصص في العلوم الشرعية والذين سيكونون في يوم من الأيام علماء الأمة فحسب، بل نعدّي معنى طلب العلم ليشملهم ويشمل كل من له علم شرعي يأخذه من العلماء المعتبرين ليكون له نوراً يضيء دربه في تخصصه الدنيوي.

---

(١) ينظر: اقتضاء الصراط المستقيم لشيخ الإسلام: ١/ ٣٦٧.

التحديات التي تواجه الأمة في العصر الحديث

الموضوع عن دور العلماء والمثقفين في استراتيجيات المواجهة. ولأن الحديث عن خطط ثابتة بعيدة موصلة لأهداف كبرى؛ فلن أتحدث عن ظواهر وردود أفعال إزاء أحداث بعينها. ولعله من المناسب أن يتركز الحديث على مكمن الخلل الذي سبّب تلك المظاهر وجرّأ العدو على مقدسات ومقدرات الأمة.

إن التحديات الكبيرة والكثيرة التي تواجهها الأمة في هذا العصر تستلزم من الجميع التعاون على أهداف مشتركة وانتهاج أسلوب العمل القائم على المؤسسات والتكتلات؛ للتغلب على هذه التحديات. أما العمل المنفرد خارج السرب فإنه، وإن كان مهماً وله أثره في محيطه، غير أن تأثيره يبقى في حيّز ضيق، ولا يمكن أن يأتي بحل لأزمات الأمة العامة ما لم تُتح لصاحبه قدرات فائقة. إن التحديات الكبيرة تستوجب أعمالاً كبيرة، وهذا لا يمكن أن يكون للأفراد عادة؛ بل لا بد من توحيد الجهود بالتعاون مع المعنيين، أو بالانتظام في مؤسسات تسعى لمواجهة هذه التحديات، بالإضافة إلى العمل الفردي الذي يظل له مكانه. ولعل من أعظم التحديات التي تواجه المجتمع الإسلامي:

التحدي الأول: الجهل:

إنه مما لا يخفى على كل ذي لب وبصيرة أن الأمة تعاني من نقص في علمائها؛ فكلما مات عالم ترك مكانه ثغرة لا تكاد تجد من يسدها، والنتيجة الطبيعية لذلك أن يقل العلم ويكثر الجهل مصداقاً لقوله

-عليه السلام-: «**إِنَّ اللَّهَ لا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعاً يَنْتَزِعُهُ مِنْ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ؛ حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِماً اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤوساً جُهَّالا؛ فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ؛ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**»(١).

إن حاجة الأمة لعلماء الشريعة أعظم من حاجتها للأطباء والمهندسين؛ إذ جهل الأمة بدينها هو أعظم حاجز يحجزها عن التمكين في الأرض؛ فإن كان جهل الأمة بالعلوم الحديثة يفسد عليها بعض دنياها؛ فإن جهلها بأمور دينها يفسد عليها دنياها وأخراها معاً. فمن أعظم الواجبات على العلماء في هذا العصر نشر العلم الشرعي وإنشاء آليات مستقرة تكفل تخريج العلماء لسد الفراغ الحاصل، وفي سبيل ذلك يمكن عمل الآتي:

أولاً: أن يسعى العلماء عند أهل الحل والعقد وعند أصحاب المال من الفضلاء لتفعيل دور الأوقاف الإسلامية؛ فتوقف الأوقاف على إنشاء معاهد العلم، وكفالة وكفاية طلبة العلم، وهذا الشأن قد كان معهوداً في عصور الإسلام الزاهرة ثم بدأ يندثر إلى أن قصر الأمر على نطاق ضيق.

ثانياً: أن يقوم العلماء باختيار من يتلمّسون فيه النبوغ والصلاح من طلابهم؛ لكفالتهم مادياً عبر الأوقاف؛ وعلمياً بعمل منهج خاص لهؤلاء الطلاب النابغين يهدف إلى تخريج علماء متخصصين في شتى مجالات الشريعة.

ثالثاً: ينبغي أن يعمل العلماء على تشجيع الأسر المسلمة على أن توقف كل أسرة ابناً من أبنائها أو أكثر لطلب العلم الشرعي؛ كما فعلت

---

(١) متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، واللفظ للبخاري.

امرأة عمران حين أوقفت ما في بطنها لعبادة الله: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً ﴾ [آل عمران: ٣٥].

رابعاً: من المهمات التنسيق بين علماء الإسلام ودعاته في كل بلد معنيّ ولو عن طريق إنشاء جمعية أو جمعيات للعلماء، تقوم بالبحث عن الواقع العلمي في هذا البلد لمعرفة العجز في التخصصات الشرعية، وكذلك لمعرفة الوفرة إن وجدت، ومن ثم التنسيق فيما بين العلماء بحيث توضع المناهج الدراسية بما يسد العجز، وبحيث تكمل جهود العلماء بعضها بعضاً؛ منعاً لاستنزاف كل الجهود في باب أو أكثر من أبواب العلم على حساب غيره.

خامساً: ينبغي أن يكون لأهل العلم في بلاد الإسلام المختلفة تواصل فيما بينهم وأئمة كبار يرجعون إليهم وينزلون على حكمهم فيما لا بد من الالتقاء فيه، ولو كان ذلك بنحو الرجوع إلى هيئة أو جمعية عالمية للعلماء تكون مرجعاً للجمعيات العلمية المحلية وللعلماء الناصحين في أصقاع الأرض المختلفة؛ تسهم في التنسيق بينهم على نفس ما في النقطة السابقة، وذلك بعمل تبادل علمي بين الجمعيات وأهل العلم في البلاد المختلفة.

سادساً: وضع خطط لنشر العلوم ورفع منسوب المعرفة لدى الأمة، ومن ذلك مثلاً: الاهتمام بتحقيق التراث وفق خطة مدروسة؛ فلا يكون الهدف هو مجرد إخراج الكتب التي ما زالت مخطوطة في بطون المكتبات حول العالم؛ فليس كل مخطوط يكون نفيساً وجديراً بالإخراج، وما قل وكفى خير مما كثُر وألهى؛ فيركز على الكتب الجامعة التي يغني الواحد

منها عن الكثير مما عداه، مع مراعاة عدم التكرار وأن يتولى أمر التحقيق أشخاص موثوقون.

سابعاً: العمل على نشر العلوم الشرعية في العامة بكافة الوسائل التقليدية والمبتكرة الحديثة؛ ابتداءً من الدروس والكلمات في البيوت والدور والمساجد والمحافل، إلى مبتكرات العصر؛ كالمحطات الإذاعية والقنوات الفضائية ومواقع الإنترنت، بالإضافة إلى نشر كتب تحوي كل ما يحتاج إليه المسلم من علوم في علاقته مع ربه ونفسه، وينبغي أن يكون كل ذلك بأسلوب مبسط يناسب العصر وحال الناس.

أما المثقفون فيبرز دورهم في محاربة الجهل ونشر العلم من واقع كونهم أكثر عدداً من العلماء، ومن واقع تعدد اختصاصاتهم، ومن ثم قوة اندماجهم في المجتمع وتأثيرهم في شرائح وأعداد أكثر بكثير مما هو متاح للعلماء لا سيما في التواصل الشخصي. إن دورهم كبير كواسطة بين العلماء والشريحة الأكبر، وبهم قوام وسائل تبليغ الدعوة لمجتمعاتهم؛ فهم ينهلون من علوم العلماء ليبثوها في الناس، أو ييسروا الآليات والوسائل التي تهيئ للعلماء بث مادة الحياة والشريعة في المجتمع، وكذلك يسجلون احتياجات المجتمع ويرصدون نقاط ضعفه ليضعوها بين أيدي العلماء فيجدوا لها الحلول الشرعية المناسبة؛ فدورهم في نشر العلم ومحاربة الجهل دور مكمل للعلماء وخادم له. ويمكن في هذا المجال رصد ما يلي:

أولاً: الإقبال على تلقي العلم الشرعي من العلماء المعتبرين بتحصيل العلم المتعين على كل مسلم، ثم العلم المتعين على هذا المثقف بخاصة مما له تعلق بتخصصه ومجال عمله.

ثانياً: حث الناس على غشيان مجالس العلم العامة التي تبسط للمسلم تعاليم دينه وتبصره فيه.

ثالثاً: إتقان المثقف عمله في مجال تخصصه؛ ليكون مقصوداً من عامة الناس وموثوقاً به، ولإعطاء صورة إيجابية عن المسلم الذي يحمل هم أمته ويحافظ على أداء واجباته، وهذه دعوة بالمثال والقدوة لنهل العلم الشرعي من العلماء.

رابعاً: توظيف ثقة الناس لدعوتهم إلى الانخراط في مشروع نشر العلم ورفع الجهل عن الأمة؛ وذلك بتشجيع الآباء على أن يوقفوا ابناً أو أكثر لتعلم العلم الشرعي؛ بغية إخراج علماء يحملون هذا الدين لمن بعدهم.

خامساً: توظيف هذه الثقة لدى أهل الصلاح والجاه والمال لدعم المشاريع الوقفية المتخصصة في نشر العلم وكفالة طلابه.

سادساً: نشر الكتب العلمية التي يتم تأليفها بأسلوب مبسط كما مر سابقاً، وعدم الاكتفاء بنشر الكتيبات الدعوية التي تعنى بالجوانب الأخلاقية أو الوعظية.

سابعاً: العمل على ابتكار الوسائل الحديثة الـمُعينة على الدعوة، وتيسير مخترعات العصر وتسخيرها ليستفاد منها في تبليغ العلم.

ثامناً: رؤية ما يمكن عمله في الوسائل العصرية وحذف ما اعتورتها من مخالفات؛ حتى تكون وسائل شرعية نافعة للأمة والمجتمع.

تاسعاً: تبصير أهل العلم بملابسات ما يتعلق بتخصصاتهم؛ حتى يكون حديث المختصين في علم الشريعة عن دراية وبصيرة بالجوانب

الأخرى التي قد تكون مؤثرة في الأحكام، بل قد تكون الأحكام مبنية عليها.

عاشراً: تمثيل الرؤية الإسلامية في المحافل العالمية للمختصين في الشؤون المختلفة، وإبراز الوجه الحسن للضوابط والمحددات الشرعية التي تضعها الشريعة أو ترفعها في ذلك المجال.

التحدي الثاني: الفرقة والاختلاف والتنازع:

إن هذا التحدي لا يقل خطورة عن سابقه؛ فهو كفيل بإعاقة الأمة عن تحقيق التمكين حتى إن كان أفرادها كلهم من العلماء العاملين؛ فكيف والحال كما لا تخفى؟

قال -تعالى-: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقال -عليه السلام-: «**دب إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء؛ هي الحالقة، لا أقول: تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين**»[1].

و يمكن تحديد دور العلماء في التصدي لهذا التحدي بما يلي:

أولاً: توحيد المواقف التي لا بد من توحيدها تجاه بعض القضايا وبالأخص التي يكون النزاع فيها سبب فشل، وذلك بالرجوع إلى المرجعيات الشرعية والعلماء الربانيين، أو الجمعيات والهيئات التي سبق الحديث عنها.

ثانياً: الرجوع إلى أهل الشأن لتحديد الموقف من الفرق والطوائف التي يكون الخلاف معها غير سائغ، والتزام الأعضاء بموقف مرجعيات

(١) صدرُ حديث رواه الترمذي عن الزبير بن العوام ، وحسنه الألباني.

شرعية أو هيئات علمية في ذلك؛ مراعاةً للمصالح العليا للأمة، وإنزالاً لموقفها منزلة موقف الإمام.

ثالثاً: نقل هذا الالتزام إلى طلاب العلم والجمهور؛ كلٍّ بحسب حاله ومدى تعلق الأمر به.

رابعاً: إنشاء لجنة من الحكماء في كل جمعية محلية تكون مكلّفة بحل ما قد يحصل من تنازع بين العلماء داخل البلد الواحد، وكذلك إنشاء لجنة مماثلة لحل ما قد يحصل بين العلماء على المستوى المحلي.

خامساً: بذل كل الجهود الممكنة لحل النزاعات التي قد تنشأ بين حكام البلاد الإسلامية عن طريق لجانٍ عالية ولجانٍ محلية، وتفعيل دور العلماء في مناصحة الحكام لتضييق دائرة الخلاف الذي من شأنه الزيادة في ضعف الأمة.

أما بالنسبة للمثقفين فيكمن دورهم فيما يلي:

أولاً: الالتزام بما يقرره أهل الشأن من العلماء والهيئات العلمية ولا سيما في الشؤون العامة؛ فلا يفتئتوا على أهل التخصص بمسوغ الثقافة العامة، بل عليهم السعي في نشر الوعي بين المسلمين وفقاً لما قرره أهل العلم المعنيون؛ حسماً لمادة الخلاف الذي قد ينجر إليه بعض العامة تعصباً، دون أن يكون له مزيد اطلاع على طبيعة الخلاف وأبعاده.

ثانياً: المتابعة الواعية والمستمرة لواقع المجتمع لرصد حالات المخالفات الشرعية والعمل على إزالتها مباشرة، أو عن طريق الرجوع للعلماء أو المعنيين الذين لا يحيطون بما أحاط به أولئك المثقفون؛ نظراً لمباشرتهم مجالات حياتية مختلفة.

ثالثاً: توعية الجمهور بخطورة كافة أشكال الاختلاف والتفرق وأثره السلبي على مسيرة الأمة نحو التمكين.

رابعاً: تسخر الوسائل العصرية من أجل ذلك بحسب تخصصاتهم؛ فالصحفي يخصص عموده، والإذاعي يبذل كلمته، والفضائي ييسر قناته، والطبيب ينفع بطبه، والمهندس بمبتكراته، والمعلم والمربي يغرس القيم في نفوس طلابه، وكل واحد على ثغر.

التحدي الثالث: تداعي الأعداء:

وهو كما سبق بيانه نوعان: مادي ومعنوي. ومحور كلامنا هنا عن النوع الثاني الذي سبق بيان خطورته؛ وهو المتمثل في التطاول على مقدسات الأمة: إما ببث الشبهات لصد الناس عن دينهم، وإما بالاستهزاء والطعن لإغاظة المؤمنين. والملاحظ أن مهمة بث الشبهات يقوم بها جنباً إلى جنب مع أعداء الخارج قوم من بني جلدتنا؛ مصداقاً لما أخبر به النبي ﷺ: «**دعاة على أبواب جهنم؛ من أجابهم إليها قذفوه فيها. قلت: يا رسول الله، صفهم لنا! قال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا**»[(١)]. وهؤلاء لا يجرؤون على الطعن في الدين مباشرة؛ فهذا متروك لأعداء الله من خارج بلاد المسلمين، وسوف نتناول أمر كل من الشبهات والتطاول لبيان الواجب حيال كل منهما.

واجب العلماء حيال الشبهات المثارة:

أولاً: التعامل مع هذه الشبهات من منطلق القوة والعزة والتحرر من

---

(١) متفق عليه من حديث حذيفة رضي الله عنه.

الهزيمة النفسية؛ فتُقرّرُ أحكام الإسلام بقوة ووضوح، ويُبيّنُ بطلان الباطل وإن ألبس ثوباً حضارياً بجلاء لا غموض فيه. وبحمد الله فإن ديننا كامل بشهادة الله -سبحانه- لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، صالح لكل مكان وآنٍ، وكل من احتج عليه ليبطل بعض ما فيه فحجته داحضة عند ربه؛ فليس مقبولاً بحال أن نرد الشبهات عن الإسلام وكأنه قابع في قفص الاتهام، أو كأن أحكامه متهمة والمنكر والباطل الذي يدين به العدو بريء من التهمة! بل ينبغي السعي إلى ما فوق ذلك.. إلى تجاوز حصر الخطاب في التبرئة والتسويغ، إلى بيان أن تلك الأحكام والتشريعات حق لا بد من التزامه وليس للبشرية صلاح بغيرها، وأن من خالفه فقد جنى على نفسه وعلى الناس كافة، وقد أتى شيئاً إداً ومنكراً ينبغي أن يستره لا أن يتهم ويهاجم. وللأسف بعض الذين دخل قلوبهم شيء يحرص على تبرئة الإسلام بالتنصل من أحكامه والاستحياء من ذكرها بل والإنكار لها، وهذا مسلك يحقق مراد العدو بأيسر سبيل.

ثانياً: عرض الحقائق كاملة على الجمهور كما هي دون مواربة أو تزيين أو تزييف؛ لأن ذلك أدعى لرد الشبهة؛ فعرض بعض الحقائق وإخفاء بعض ليس مقبولاً؛ لا سيما في عصر الفضاء المفتوح؛ إذ سماع بقية الحقيقة من الأعداء يفقد الثقة في كلام الراد على الشبهة ويعطي العدو مصداقية قد يبث بواسطتها مئات الكذبات، إضافة إلى الحقيقة التي أتى بها. ولا شك أن الشُّبَه التي تثار فيها السمج الضعيف وفيها ما يخطف القلوب ويزعزع غير الراسخين، فيها ما هو محض افتراء، وفيها ما بني على أخطاء المسلمين

في تطبيق الشرع على واقعهم. والرد على العدو يتطلب الصراحة والوضوح في التعرض لذلك كله بما يناسب كل مقام.

ثالثاً: تبسيط الردود ومراعاة حال الناس المخاطبين، وعدم نقل الشبهة خارج النطاق المكاني والزماني الذي أثيرت فيه، أو البدء بطرح الشبهات للرد عليها؛ تكثيراً للخير، وتقليلاً للشر، وسداً لأبواب الفتن.

رابعاً: استخدام الوسائل الحديثة؛ كالفضائيات، والشبكة العنكبوتية، والهواتف المتحركة في تبيين زيف الباطل والتوعية ببطلان ما يثار على نطاق واسع.

خامساً: التحذير من رؤوس الضلالة والتشهير بهم جزاءً وفاقاً لما اقترفته أيديهم؛ كي لا ينخدع بهم من لا بصيرة له بحقيقة أمرهم من المسلمين، وبيان أنه ما من باقعة يرمون بها الإسلام ونبيه -عليه السلام- وأهله إلاّ كانوا هم أحق بها.

سادساً: السعي لدى الجهات المعنية لتفعيل الأنظمة التي تنص على عدم التعرض لثوابت الأمة وتعاقب على هذا الجرم، أو السعي لإصدار مثل هذه الأنظمة في حال عدم وجودها.

سابعاً: عقد المناظرات المفتوحة من قبل المتخصصين المتمرسين مع رؤوس الجهل والضلالة ممن يروجون لهذه الشبهات والضلالات، لتزييف دعاواهم وبيان أن كل نقيصة يحاولون إلصاقها بالإسلام هو منها بريء وباطلهم أولى بها؛ فرؤية الباطل يتلجلج أمام الحق من أعظم وسائل دفع شبهه عند العامة، ولا يخفى أن لهذا ضوابط ينبغي أن تُدرَس وملابسات ينبغي أن تُعرَف؛ فلا يُقدَم على نحو هذا العمل بغير

دراسة، وإلاّ فإن مردّه قد يكون سيئاً. والأصل أن حجة الله ظاهرة، وأن الحق أبلج والباطل لجلج، غير أنه ليس كل فرد مؤهل لهذا العمل ولو كان عالماً.

أما المثقفون فإن دورهم لا يكاد يختلف عن دورالعلماء من (أولاً) إلى (سادساً)، بيد أن لهم خصوصيتهم باعتبار تخصصهم، وهذا يفرض عليهم:

١- نوعاً من الخطاب الذي يناسب مجالهم وقد لا يكون معهوداً عند العلماء، بيد أنه لا يكون مستنكراً من قبلهم، وقد يكون منصبًّاً في أحيان كثيرة في إطار المصلحة والدليل العقلي وما يقتضيه تخصص كل واحد منهم.

٢- خطاب شريحة خاصة، قد لا يخلص إليها العلماء، بالخطاب الأقرب إلى فهمها.

أما سابعاً: فليس مطلوباً منهم مناظرة رؤوس الضلالة، ولكن يستعاض عن ذلك بمناقشة مريديهم وناشري شبهاتهم؛ فإن للضلال كذلك مثقفين ناصرين، وساح الشبكة العنكبوتية مليء بالمواقع الحوارية؛ التي كان لكثير منها بفضل الله، أثر كبير في هداية الكثير من الناس إلى دين الحق؛ فهي وسيلة كذلك للذب عن هذا الدين وتفنيد شبهات أعدائه، كما أن ميادين الحياة المختلفة مجال رحيب حقيق بالمثقفين أن يثبتوا للناس فيها جدارة الشرع والدين الإسلامي بالسيادة والريادة فيه.

ويمكن أن يضاف إلى ما سبق بالنسبة للمثقفين:

أولاً: يجب أن يكونوا حلقة وصل بين العلماء والناس؛ فإن الردود على بعض الشبهات قد يخفى وجهها على بعض الناس؛ فلا بد للمثقفين من بيانها لهم، أو عرض الأمر على العلماء لتوضيح الأمر بمزيد بيان.

ثانياً: القيام بأنشطة مكملة لجهود العلماء فارضة لما قرروه في أرض الواقع وذلك من كل بحسبه، وربما كانت ثمّة أمور عامة من نحو حملات جمع التوقيعات وإرسالها إلى الجهات الناشرة للشبهات؛ كي تقوم بنشر الحقائق والتوقف عن نشر الشبهات المستندة إلى الافتراءات والأكاذيب، وأيضاً نشر الردود على الشبهات الأخرى التي يكون مستندها التفسير المنحرف أو الروايات المكذوبة المبثوثة في بعض الكتب.

ثالثاً: القيام برفع الدعاوى على مثيري الشبهات وناشريها إذا كانت الأنظمة المحلية تسمح بذلك.

رابعاً: حث الجماهير على مقاطعة الصحف والمجلات ودور النشر وكافة وسائل الإعلام التي تروج لتلك الشبهات وتمتنع عن التوقف عن ذلك.

ونضرب مثالاً لبعض ما يثار من شبه، وهي شبهة قديمة أعيد تبنّيها على مستوى رفيع في الآونة الأخيرة؛ وهي أن الإسلام قد انتشر بالسيف.

إنْ وقعنا تحت وطأة الهزيمة النفسية فسوف نعد هذه الشبهة تهمة وسبة يجب أن نتبرأ منها، وقد يتهرب البعض بذكر الآيات التي تحض على الصبر على الأذى، وكف اليد عن القتال، وأنه لا إكراه في الدين، ولكم دينكم ولي دين، وأن القتال إنما أذن لمن قوتلوا مظلومين، ثم

يعرج على أحداث التاريخ ليقول: إن المدينة المنورة والكثير من بلاد المشرق وإفريقيا إنما فتحت بالقرآن، ثم يأتي إلى العصر الحديث ليؤكد مقولته بانتشار الإسلام في بلاد الغرب بالدعوة والقرآن...

وهذا الكلام صحيح لا ريب في ذلك ولكنه ليس كل الحقيقة؛ فالحقيقة الكاملة هي أن القتال في الإسلام شرع على ضربين: فقتال لدفع الظلم وصد العدوان؛ وهو قتال الدفع، وقتال لنشر دين الله في الأرض؛ وهو قتال الطلب. وليس المقصود منه إكراه الناس على الدخول في الإسلام؛ فإن هذا ما عرف في تاريخ المسلمين قط، وليس المقصود منه نهب خيرات الشعوب كذلك؛ فهذا مما اعترف المنصفون من أهل الكتاب وغيرهم أنه ما كان همَّ المسلمين ولا ديدنهم، إنما المقصود هو إيصال دين الله للناس في كل مكان وإزاحة كل مانع أو عائق يحول بينهم وبين الدخول فيه.

فالقتال ما كان غايةً في الإسلام قط، بل إن أهل البلاد في كل الفتوحات يخيّرون بين الدخول في الإسلام؛ فيصبح للحال لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، أو دفع الجزية التي يُعفَون في مقابلها من دفع الزكاة الواجبة على المسلمين، وينعمون كذلك بحماية المسلمين لهم مع إعفائهم من القتال في حال تعرضت بلادهم للهجوم من أي عدو كان. فإن أَبوا الإسلام أو الجزية فحينها لم يبقَ إلا السيف لإزالة دولة الكفر وفتح الأبواب لمن شاء من الناس ليدخلوا في دين الله أفواجاً أو ليفرض الحكم الأصلح للبشرية.

أما قول نصف الحقيقة فيجني جناية كبرى على ضعيف العقل من المسلمين؛ إذ هو يعلم تماماً أن كثيراً من البلاد قد فتحت بالسيف، فيجد صاحبَ الشبهة صادقاً فيما يقول ويبدأ في الشك في أمر من يدفع الشبهة بنصف الحقيقة، وهذا فتح لباب شر مستطير، وكما قيل: القلوب ضعيفة والفتن خطافة؛ فما الذي يحوجنا إلى مثل ذلك ويحصرنا في جحر الضب هذا؟

وعلى الطرف المقابل فإن غير المسلمين قد يسمعون هذا الكلام وهم يعرفون خلافه فيكون هذا سبباً في صدهم عن الدخول في الإسلام طالما أن الدعاة إليه لا يقولون الحقيقة، وفي هذا من الشر والفساد ما فيه؛ لذا فإنه لا بد من الوضوح أو الشفافية بلغة العصر. ثم إن الواقع يدل على أن محاولات الخداع التي ينتهجها بعض المدافعين عن الإسلام من منطلق أهوائهم وآرائهم وعقولهم، اللّوّايين لحقائقه، لا تجدي فتيلاً؛ فإن الغرب بمراكز دراساته وبحوثه ومستشرقيه ومستغربيه منا خبير بما عندنا، ولكن الساسة يستفيدون من أمثال هذا المغفل الذي يزعم الدفاع عن الإسلام بكَتْم بعضه وإنكار حدوده ليقرروا للمسلمين أن الإسلام المعتدل هو ذا، وهم يعلمون كما يعلم ذلك المسكين كذبهم وكتمهم للحق.

فالواجب أن لا نخجل من ديننا الذي ما ترك صغيرة ولا كبيرة إلا وله فيها حكم هو خير حكم. وكيف نخجل من ديننا وهو خاتم الأديان والقاضي عليها وليس فيه إلا الحق؟! بل إن سلفنا الصالح ما خجلوا من أي تعليم من تعاليمه مهما ظهر لبعضٍ أنه مخجل؛ ففي حديث سلمان -رضي الله عنه-: «قال بعض اليهود، وهم يستهزئون به: إني لأرى

صاحبكم يعلمكم حتى الخِراءة! قال سلمان: أجل! أمرنا أن لا نستقبل القبلة، ولا نستنجي بأيماننا، ولا نكتفي بدون ثلاثة أحجار ليس فيها رجيع ولا عظم»(١).

قال السندي -رحمه الله-: «والأقرب أنه رد له بأن ما زعمه سبباً للاستهزاء ليس بسبب له، حتى المسلمون يصرحون به عند الأعداء»(٢).

إن الذي يقوم بعرض أنصاف الحقائق على الناس، ظاناً أن هذا أدعى لقبولهم الإسلام والدخول فيه، يجني على الدعوة جناية عظيمة كما سبق، وهو في الوقت نفسه يجني على نفسه أعظم جناية؛ إذ يكون قد أنزلها منزلة ليست لها؛ فليس هو أحب لهداية الناس من الله -سبحانه وتعالى- الذي يفرح بتوبة عبده، ويكون كذلك قد غفل عن كونه وارثاً للنبي ﷺ ومقتفياً في دعوته لأثره، وقد قال له -ربنا عز وجل-: ﴿ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ ﴾ [هود: ١٢]؛ قال السعدي -رحمه الله- في تفسير هذه الآية: «فهل أوردوا عليك حجة لا تستطيع حلها؟ أم قدحوا ببعض ما جئت به قدحاً يؤثر فيه وينقص قدره؛ فيضيق صدرك لذلك؟! أم عليك حسابهم، ومطالب بهدايتهم جبراً؟»(٣).

---

(١) رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن واللفظ لأحمد.

(٢) حاشية السندي على سنن النسائي: ج ١ / ٣٦.

(٣) تفسير السعدي .

واجب العلماء والمثقفين تجاه الطعن والاستهزاء

كما سبق القول فإن طعن الأعداء في المقدسات إنما هو بسبب الضعف الذي تعاني منه الأمة، تماماً كالطعن الذي كان من كفار قريش في مكة يوم كان المسلمون مستضعفين. ولئن كنا قد قدمنا فيما سبق تصوراً لما يجب أن تسلكه الأمة كي تتغلب على ضعفها ومن ثم لا يتجاسر أحد على النيل من مقدساتها؛ فإنه لا بد من اتخاذ خطوات مّا في مواجهة هذه الطعون تكون كفيلة بتقليل ضررها والحد من تكررها قدر الإمكان؛ إذ القضاء عليها بالكلية غير ممكن إلا بتحقق التمكين، فدور العلماء المقترح هنا هو:

أولاً: ضرورة توحيد مواقف العلماء تجاه مثل هذه الأمور وضرورة صدور الهيئات المعنية عن رأي العلماء؛ درءاً لأثر الشقاق؛ فيخرج العلماء للأمة بموقف موحد يبيّن لها ما يجب عليها فعله في ضوء كل أمر مستجد، وفي هذا منع للبلبلة وانقسامِ ردود أفعال الأمة مما يضعف أثرها.

ثانياً: السعي لدى الحكام المسلمين لبذل ما في وسعهم من واقع العلاقات بين الدول؛ للإسهام في العمل على إيقاف الإساءات. وعلى الداعية والعالم والمصلح أن يسعى وليس عليه إدراك النجاح.

ثالثاً: تقدير الأمور بقدرها؛ إذ إن بعض هذه الطعون على شناعته قد يكون منحصراً في نطاق ضيق فيأتي رد الفعل ليتجاوز نطاقه بمراحل، مما قد يشجع الأعداء في غير مكان على تكرار الفعل فتتسع الإساءة بدل أن تخمد.

رابعاً: بث روح الأمل في الأمة بدل روح اليأس، وبيان أن أمثال هذه الطعون قد لحقت بالدعوة في مهدها الأول ثم كانت العاقبة للمتقين. بل إن بعض هذه الطعون مؤشر على قرب الفرج والنصر على الأعداء إن لازمنا أداء ما أوجب الله علينا كما قد تكرر مع أسلافنا؛ لأن الله -عز وجل- يغار على حرماته أن تنتهك، لكنه ابتلاء واختبار منه -سبحانه- لنا ولاستقامتنا.

خامساً: توظيف هذه الطعون في الدعوة إلى الله بين صفوف الكفار الذين قد يحملهم الفضول على الرغبة في التعرف على هذا الدين؛ الذي تدور حوله المعركة بين الطاعنين فيه والذابين عنه.

سادساً: توظيف هذه الطعون في الدعوة إلى الله بين صفوف المسلمين الشاردين عن الجماعة ممن ظلموا أنفسهم، وحَمَلهم ما في قلوبهم من الإيمان -رغم ذلك- على أن هبوا لنصرة دينهم؛ فيؤخذ بأيديهم إلى الطاعة والاستقامة.

سابعاً: الرد على هذه الطعون بالمثل وفق الضوابط الشرعية؛ وذلك بذم الكفر وأهله وبيان عواره، ونشر ذلك بين أظهر الطاعنين مع مراعاة المصالح والمفاسد. ويدل على مشروعية هذا الأمر قول النبي ﷺ لحسان: «**اهجهم -أو هاجهم- وجبريل معك**»[(١)]؛ فأَمَرَه بهجاء قريش لـمّا هجوه عليه السلام. قال الحافظ: «في الحديث جواز سب المشرك جواباً عن سبه للمسلمين، ولا يعارض ذلك مُطلَقُ النهي عن سب المشركين لئلا يسبوا

---

(١) رواه البخاري من حديث البراء ، باب هجاء المشركين، ومسلم في باب فضائل حسان.

المسلمين؛ لأنه محمول على البداءة به، لا على من أجاب منتصراً»[١].

أما المثقفون فعلى عاتقهم كذلك يقع عبء كبير، ولعل مما يسعهم عمله ما يلي:

هذه الأمور مجملة هنا؛ قد يناسب بعضها قطاعاً منهم؛ وبعضها قطاعاً آخر؛ فمنها:

أولاً: نشر ما اتفق عليه العلماء بين الناس على نطاق واسع، وتوعية الجماهير بضرورة الالتزام به وعدم الانسياق وراء ردود أفعال غير مدروسة قد تؤدي إلى إتلاف أرواح وأموال حرمها الله؛ وهو ما قد يضر أكثر مما ينفع. والرجوع إلى أهل العلم الراسخين والمرجعيات المعتبرة من هيئات وأفراد في مشاريعهم وقراراتهم الصادرة عن أنشطة لهم، متعلقةٍ بواقع طعن أو استهزاء.

ثانياً: تبصرة الناس بواقعهم، وأن هذه الانتهاكات لحرمة الأمة هي بسبب تقصيرها في حمل الأمانة التي أوكلها الله بها، وأن التصدي لها لا يكون بالعواطف فحسب؛ بل بالعودة الصادقة إلى الله لاستئناف حياة إسلامية سليمة.

ثالثاً: الاتصال بوسائل الإعلام التي تروِّج لهذه الانتهاكات، وتوظيف حق الرد المكفول فيها؛ لتزييف تلك الطعون وبيان حقيقتها؛ وعرض دين الإسلام كما هو إظهاراً للحق وكبتاً للباطل، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيَّ عن بينة.

---

(١) فتح الباري، ج ١٧/ ٣٤٤، شرح أول حديث في الباب المذكور.

رابعاً: استخدام كافة الوسائل المتاحة من جرائد ومجلات ومواقع على الشبكة العنكبوتية للرد على الافتراءات، وتجلية حقيقة دين الإسلام، كل بحسبه وفي مجال تخصصه وموقعه، وبِلُغته التي يحسن.

خامساً: القيام بحملات لجمع التوقيعات على بيانات إدانة لمثل هذه الطعون التي لا تتوافق مع الأديان أو الأعراف أو الأخلاق، وإرسالها إلى مروجي هذه الطعون وحكوماتهم للضغط من أجل إزالتها والوعد بعدم تكرارها.

سادساً: رفع الدعاوى القضائية على الوسائل التي تقوم بنشر هذه الطعون في بلادها، ومحاولة إلزامها بنشر ما يبيّن كَذِبَ هذه الطعون، والمطالبة بتعويضات باهظة -ينظر في الجهة التي سيُطالب بها من أجلها- لتكون رادعاً لغيرها من الوسائل .

سابعاً: القيام بحملة توعية بين الناس لمقاطعة وسائل الإعلام تلك إن كان لها وجود في بلاد المسلمين.

ثامناً: التواصل مع الشخصيات الفاعلة والمنصفة في بلاد الغرب التي ترفض مثل هذه الأعمال، والتنسيق معها للقيام بحملات مضادة لبيان كذب وزيف هذه الطعون .

وبعد فما سبق كان محاولة لاستعراض أهم التحديات التي تواجه الأمة في العصر الحديث مما له أكبر الأثر على وجودها كأمة لها استقلاليتها وخصوصيتها سواءً في حاضرها أو مستقبلها. وليس معنى الاقتصار على ما ذكر أن باقي التحديات ليست على نفس الدرجة من الأهمية، بل إن منها ما يحتاج إلى ندوة خاصة به لمناقشة آثاره وسبل مواجهته؛

كالغزو العسكري الذي تتعرض له الأمة في مناطق عدة من العالم؛ وهو الأمر الذي يجب أن يكون للعلماء دور حاضر وقائد فيه، وكذلك ما امتلأت به حياة المسلمين من منكرات ومخالفات شرعية هي من أكبر الأسباب المؤدية لما تعاني منه الأمة من ذل وقهر وتسلط الأعداء، إلى غير ذلك من التحديات .

وكذلك كان ما سبق محاولة لرسم تصور عملي لبعض آليات مواجهة التحديات المذكورة، لا سيما من قِبَلِ علماء الأمة الذين هم حصنها الحصين وصمام الأمان بالنسبة لها؛ فالحسن ما رأوه حسناً. ويبقى أن ما في وسع المسلمين كثير، وكل واحد أدرى بموقعه وأعرف بما يمكنه تقديمه، والمهم أن يحمِلَ الهم، وأن يُراجِعَ أهل الفضل والنظر، وأن يبذل ما في وسعه، والله يبارك في الجهود.

و الله المرجو أن يلهمهم الرشد والسداد ليأخذوا بأيدي الأمة إلى ما فيه صلاحها، ثم من ورائهم خيار مثقفي الأمة الذين يحملون همومها وآلامها. وهذه الآليات كلها محل اجتهاد ونظر وقابلة للنقاش والتصويب والإضافة والحذف؛ لاستخلاص الأفضل والأنسب في الوقت الراهن.

ولا يفوتنا قبل الختام أن نؤكد على حقيقة يجب ألا تغيب عن الأذهان؛ وهي أن مواجهة التحديات الطارئة لا يمكن بحال أن تكون لوحدها هي السبيل للرجوع بالأمة إلى سابق عهدها من العزة والتمكين، بل إن السبيل قد حددها النبي ﷺ حيث قال: «**حتى ترجعوا إلى دينكم**» أي: بكل شرائعه وأحكامه كما قال -عز من قائل-:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨].

قال ابن كثير -رحمه الله-: «يقول -تعالى- آمراً عباده المؤمنين به المصدّقين برسوله: أنْ يأخذوا بجميع عُرَى الإسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره، وترك جميع زواجره، ما استطاعوا من ذلك»[١].

هذا والله أعلم وأحكم، وإياه أسأل أن يُبرِم لأمة محمد ﷺ إبرام رشد، يعز به وليه، ويذل به أهل محادته ومعاندته، والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ج ١/ ٥٦٥.

خلاصة

١- الواقع المرير الذي تعيشه الأمة في هذا العصر يستدعي تضافر كل الجهود المخلصة والمنظمة لرفع ما حلّ بها من ضعف وهوان، والعودة بها إلى سابق عزها ومجدها.

٢- السبب الرئيس فيما حل بالأمة من نكبات وويلات هو بعدها عن المنهج الذي ارتضاه لها ربها عز وجل، وهذا أمر ليس بخاضع للاجتهاد؛ لأنه إخبار من لا ينطق عن الهوى.

٣- العلاج لحال الأمة قد وصفه طبيبها عليه السلام؛ فليس خاضعاً للاجتهاد كذلك، وطلبُ العلاج في غير ما وصفه مخالفٌ للشرع والعقل والواقع، وبعثرةٌ للجهود والأوقات بلا طائل معتبر.

٤- الحرب التي يشنها الأعداء على الإسلام والمسلمين ليست وليدة اليوم وليست بالأمر المستغرب، بل هي من سنن الله الكونية التي لا تتبدل ولا تتغير في تدافع الحق والباطل إلى قيام الساعة .

٥- تكالب الأعداء على الأمة سبب من أسباب زيادة ضعفها ووهنها؛ لكنه أثر من آثار بعدها عن منهج ربها الذي هو السبب الحقيقي والرئيس لما هي فيه اليوم من ضعف؛ فمعالجة أسباب زيادة ضعفها وذلها لا يجب أن يلهينا عن معالجة السبب الحقيقي لهذا الضعف .

٦- الأمة تواجه اليوم نوعين من التكالب ونوعين من الأعداء: عدواً خارجياً يتكالب عليها بالعدة والعتاد، وببث الشبه والشهوات في بلاد المسلمين.

وعدواً داخلياً رضي بموافقة العدو الخارجي ببث الشبه والشهوات، ولكل من العدوين ولكل من التداعيين وسائل مواجهة تليق بحاله، ولهما من التكامل ما يتطلب تكامل المسلمين المصلحين الحادبين على الأمة في الداخل والخارج.

٧- التصدي لتكالب الأعداء على الأمة بما يبثونه من شبهات وشهوات واجب على كل أفراد الأمة ولو بالقلب؛ بإنكار ما جاؤوا به، وليس وراء ذلك حبة من خردل من إيمان. لكن العبء الأكبر في هذه المواجهة إنما هو على عاتق العلماء العاملين، والحكام الصادقين، والمثقفين الغيورين على هذه الأمة.

٨- التحديات الرئيسة التي تواجهها الأمة تتمثل في: الجهل بشرع ربها وعدم الالتزام به، والفرقة والاختلاف بين المسلمين، وتكالب الأعداء على الأمة.

٩- مواجهة هذه التحديات لا يتم إلا بعمل دؤوب يتجاوز نطاق الفردية؛ فلا بد مع العمل الفردي من تضافر الجهود وتعاون الحادبين وتداعي المصلحين، ولا بد من عمل مؤسسي منظم؛ فالفردية، وإن أدت شيئاً في المواجهة، غير أن الخلاص العام للأمة لا يمكن أن يكون عبر جهود مبعثرة هنا وهناك لا يجمعها تصور واضح ومحدد.

هذا، وقد كان في ثنايا البحث تفصيل لبعض الخطوات المقترحة في مواجهة هذه التحديات؛ فاللهَ نسأل أن يبرم لهذه الأمة أمر رشد، وأن يبدلها من بعد ضعفها وذلها قوة وعزاً، وهو الأمر الذي لا نشك في أنه

سيكون لإخبار الصادق المصدوق، فجعلنا الله -سبحانه وتعالى- ممن يعملون لتحقق هذا الهدف وممن ينعمون بالعيش في ظله.

هذا والله أعلى وأعلم، ورد العلم إليه أسلم، وصلِّ اللهم على عبدك ونبيك محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

مؤتمر تعظيم حرمات الإسلام

واجب الأمة في نصرة

نبيها محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم

الشيخ الدكتور: سلمان بن فهد العودة

واجب الأمة

في نصرة نبيها محمد صلى الله عليه وآله وسلم

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

الأمة إنما صارت أمة بإيمانها بمحمد ﷺ، وائتلافها على محبته، وتحلّقها حوله، وهو المؤسس والباني والمرشد والهادي والداعي والشفيع -بأبي هو وأمي- وحقٌ على كل فرد في الأمة أن يكون أحبَّ إليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين، وهذه بعض المعالم الرئيسة في نصرته ﷺ.

١- صناعة القدوة والأنموذج:

إن من أعظم أسباب الهجوم على الإسلام وعلى النبي ﷺ هو ما يعمله بعض المسلمين من ممارسات خاطئة ؛ جعلتهم يصدون عن سبيل الله من حيث أرادوا أو لم يريدوا، يستوي في ذلك النموذج الفردي أو الجماعي، أو النمط الذي يكون عليه المسلم ؛ فليس صدفة أن تكون صورة المسلم في كثير من بلاد الغرب صورةً مشوهةً؛ لأن هذا هو الواقع، فكثير من المسلمين في بلاد الغرب من الجاليات الإسلامية والمجموعات الإسلامية لا يتميزون بالخلق الإسلامي الرفيع، ولا بالالتزام الصادق، ولا بالمعنى الإنساني؛ فيهم من يتعاطى انحرافاً

أخلاقياً، أو يقع في المخدرات، وبعضهم يتحايلون على الأنظمة القائمة بطرق ملتوية، وبعضهم من نزلاء السجون.

إن بلداً كالدنمارك، الذي شهد أكثر من إساءة، أكبر نسبة من نزلاء السجون فيه هم من المسلمين! وهذا الكلام نفسه سمعته في بريطانيا وقد كنت في زيارة لها.

وكثير من شباب المسلمين يقعون تحت طائلة هذه المسؤولية، فضلاً عن أن الدول الإسلامية (الحكومات والشعوب الإسلامية) في بلادها ليست على نظام الإسلام الحق؛ في رقيّها، في اعتدالها، في إنصافها، وفي تقدّمها.

ولذلك كان بعض الإخوة يقولون لنا: إننا نريد أن نقول للغربيين: تعالوا يا معشر الغربيين! حلول مشكلاتكم عندنا وفي ديننا. فقلت لهذا الأخ الكريم: سيقول لك الغربيون حينئذٍ: طبقوا أنتم هذه الحلول واعملوا بها حتى نراها عياناً، ثم بعد ذلك تعالوا لتعلّموها لنا!

وهذا كلام منطقي؛ الناس لا يؤمنون -فقط- بالكلام الجميل، وإنما يريدون أن يتحول هذا الكلام إلى واقع وإلى أنموذج عملي.

ونحن أحوج ما نكون إلى صناعة القدوة والأنموذج (الفرد، والمجموعة، والجماعة، والدولة، والشعب، والأمة) وإلا فإن الذي يشهد هو واقع المسلمين على أي مستوى كان.

٢- نشر السنة والسيرة بين الناس:

وهذا واجب مبدئي.

بمعنى أنه ليس مطلوباً أن ننتظر أن تقع إساءة حتى ننتفض ونتحرك بطريقة أو بأخرى، وإنما المطلوب أن نبدأ بواجب الدعوة الذي هو باتفاق العلماء واجب على الأمة، وبنص القرآن الكريم: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ [النحل: ١٢٥]. ويقول -سبحانه-: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾ [الحج: ٦٧]، ويقول ﷺ كما في الصحيح: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً**»، وعند أصحاب السنن واللفظ لأحمد «**نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا ثُمَّ أَدَّاهَا إِلَى مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا...**» إلى غير ذلك من النصوص الصحيحة المتواردة على وجوب القيام بالدعوة إلى الله سبحانه وتعالى.

ومن الدعوة التعريف بشخص النبي الكريم، بمعنى أن الدعوة ليست دائماً أسلوباً تبشيرياً مباشراً، أحياناً التعريف بالتاريخ والتعريف بالسيرة يحتوي على كثير من إزالة اللبس وفتح الأبواب وتسهيل السبل لأن يتعرف الناس على شخص النبي ﷺ.

كثير من الغربيين هم في حاجة إلى ذلك.. لماذا؟ لأن الصورة التي ترتكز في أذهانهم، حتى منا نحن المسلمين، صورة تمثل الجانب الدموي، أو جانب القتل، أو الجانب الشهواني، وليست صورة المسلم

العادي؛ بل حتى لصاحب الرسالة، بأبي هو وأمي عليه الصلاة والسلام.

فما أحوج العالم كله إلى أن يتعرف على حقيقة الرسالة، وحقيقة صاحبها -عليه الصلاة والسلام-! بحيث يكون ثمة سعي لنشر السنة ونشر السيرة في العالم كله، وخاصة في الجوانب الأخلاقية.

النبي ﷺ يقول:«**إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ**». وقال -تعالى-: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

الأخلاق معنى مشترك، يؤمن البشر كلهم بأهميته، فلو تحدثنا للعالم عن الجانب الأخلاقي بالنسبة للرسول ﷺ وأنه إنما بُعث رحمة للعالمين، وذكرنا من سيرته نماذج من رحمته حتى بخصومه وأعدائه: «**اذهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ**» أو حقنه دماء المنافقين في المدينة، أو غير ذلك من المواقف العظيمة، هذا سوف يحدث زلزالاً في عقول الكثير من الغربيين الذين أخذوا صورة نمطية سلبية.

وكذلك فيما يتعلق بالجانب الحقوقي في تعامل النبي ﷺ مع الناس وحلمه وصبره، وما ذكره ﷺ في أن امرأة دخلت الجنة في كلب سقته، أو امرأة دخلت النار في هرة حبستها، أو أن النبي ﷺ ذكر لنا قصة النبي -وكل هذا في الصحيح- الذي عاتبه الله -عز وجل- من فوق سبع سماوات... على ماذا؟ على شعب أباده ؟ لا...! على قرية من النمل

قام بإحراقها؛ لأن نملة واحدة لدغته؛ فأوحى الله إليه: من أجل نملة واحدة أهلكت قرية من النمل تسبح الله تعالى؟

هناك في السنة النبوية والسيرة النبوية شيء كثير جداً من هذا القبيل. لعل من الأشياء الإيجابية أن أقول: إن مجموعة من إخوانكم لديهم مشروعان نوعيان:

الأول: جمع السنة النبوية، أو جمع خلاصة السنة النبوية وأصولها التي تصلح لأن تكون أساساً يطلّع عليه المسلم وغير المسلم، بحيث يكون هناك ترجمة وتوزيع وطبع ونشر لها في كل بلاد العالم.

الثاني: يتعلق بالسيرة النبوية على ذات الأساس، لا يقتصر -فقط- على ذكر الجانب القتالي والمغازي التي اختصرنا فيها السيرة النبوية أحياناً؛ وإنما يذكر السيرة النبوية بكل جوانبها المتعلقة بالعلاقة الزوجية، والعلاقة مع القرابة، وبناء المجتمع، بناء الاقتصاد، بناء العلاقات، الجانب التعبدي... إلى غير ذلك مما ينبغي الاطلاع عليه.

٣- الاتفاق على قدر ضروري يصلح أساساً لدعوة الناس.

ينبغي ألا تكون مهمةُ الدعوة أو البيان أو الغضب لله ورسوله، مهمةً مقصورة على فئة معينة أو جماعة أو أشخاص؛ وإنما نحاول بلورة قدر ضروري يتفق عليه الناس كلهم، وكل مسلم عليه جزء من التبعة، وليس شرط النصرة أن يكون الإنسان مؤمناً كامل الإيمان، أو كامل الاتباع للسنة؛ وإنما يكون هناك قدرة على تفعيل الأمة؛ كلٌّ فيما يقدر

عليه، وكلٌّ فيما يخصه، والغضب للرسول ﷺ لا يكون حكراً على جماعة ولا على فئة ولا على تيار، وإنما كل مسلم يغضب.

وهذا يمكن أن يُفعَّل بشكل جيد، بحيث لا نختصر أو نلغي أو نصادر بعض أفراد الأمة، أو بعض جماعاتها، أو بعض شعوبها لأننا لا نرضى كامل مسيرتهم وخططهم!

ولا نجعل معيار الصدق في النصرة هو ما نفعله نحن أو جماعة منا، بل نتكئ على الأصول الكبار والقضايا الكلية ثم ندع التفاصيل للناس وما اختاروه مما يحقق جانباً من الرسالة ولا يتعارض مع الشريعة؛ لئلا نختلف في الكتاب: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۢ بَعِيدٖ﴾ [سورة البقرة: ١٧٦].

٤- تفنيد الشبهات الواردة:

والتي كثيراً ما يدندنون حولها بالحجة وبالعقل وبالنقل، وهذا لا بد منه؛ هناك شبهات تتكرر دائماً؛ وبالذات فيما يتعلق بموضوع الحرب والقتال والدماء، أو ما يتعلق بجانب المرأة.. لماذا لا يكون هناك جهود واضحة ومخاطبة وتفنيد لهذه الشبه؟

أريد أن أقول بكل وضوح: ليس في ديننا شيء نستحي منه نود أن يظل متوارياً.. لا...؛ لكن هذا يحتاج أيضاً إلى عقول وإدراك وخبرة أناس تعايشوا مع الأمم الغربية، وعرفوا كيف يخاطبون العقل الغربي.

والله -سبحانه وتعالى- يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤].

اللسان هنا يشمل اللغة؛ ولكن يشمل أيضاً مخاطبة العقول والأفهام والأقوام بما يناسبهم.

قبل بضعة أيام زارني وفد من التلفزيون البلجيكي، وأصروا على أن يزوروا موقع (الإسلام اليوم) وذهبت بهم، وعلموا أن الموقع له قسم باللغة الإنجليزية، فقالوا: افتح لنا الموقع الانجليزي! وفتحه لهم الإخوان؛ فجلس أحدهم -وهو كبيرهم وهو متحدث جيد- يقرأ بسرعة، ويتصفح الصفحة الرئيسية؛ فوجد في أثنائها فتوى تتعلق بحد الرجم، ونحن نشرح له عن الموقع، وهذا كذا، وهذا كذا... فتوقف وقال:

ماذا فعل محمد بالمرأة التي جاءت وهي تعترف بالزنا؛ هل قتلها أو ردها إلى أهلها؟! صراحة شعرت أن الأمر يتطلب موقفاً! تمنيت أن يكون الأمر فيه سعة...! فقلت له: بعدما تنتهي من الجولة نجلس ونتحدث. أعاد السؤال مرة أخرى؛ فقلت له: بعدما تنتهي من الجولة نجلس ونتحدث. وطلبت من الإخوة أن يطبعوا له هذه الفتوى. وبعدما جلسنا قلت له، وكنت أدعو الله -سبحانه وتعالى- أن يلهمنا الجواب السديد والقول الرشيد في هذا المقام؛ الذي يتحقق به الدفاع عن النبي ﷺ ونصرته.

فتكلمت عن هذا الجانب بكلام: أن النبي ﷺ طلب شهوداً في حد الزنا ما لم يطلب في غيره يشهدون تفصيل الواقعة. وأن الرجل الذي اعترف للنبي ﷺ صدّ عنه النبي ﷺ مرات ومرات، وهذا الحكم متروك للإمام وليس لأفراد الناس، وأن الإمام هو الذي يقدّر تنفيذه والتحقق منه... وأن هذا الحكم لم يطبّق في التاريخ إلا مرات تعد على أصابع اليد الواحدة؛ لأن المقصود منه الزجر والتهديد. إذ الطريقة التي يتم بها إثبات هذا العمل من خلال الشهود طريقة ربما لا تتحقق في الغالب إلا لإنسان مستهتر بممارسة الفاحشة على قارعة الطريق غير عابئ بالناس. وهذا الحد موجود في الكتب السماوية، وعيسى -عليه السلام- قال: أيكم لم يقترف فليرمِها بحجر! حتى قلت لهم: إننا لا بأس أن نتخلص من ٤ أو ٥ من الناس على مدى قرون في سبيل الحفاظ على عشرات الملايين الذين نرى اليوم أن مرض الإيدز يفتك بهم، وهناك مئات الملايين من المصابين به؛ بسبب الاستهتار والاستخفاف فيما يتعلق بممارسة الشذوذ الجنسي أو العلاقات الجنسية المحرمة.

واستطردت في سياق الحجج والبينات؛ فوجدت وجهه يتهلل، وقال لي في نهاية الحديث: والله إنني أعتقد -وأنا مسيحي- أن لو سألت البابا فلن يستطيع إلا أن يقول هذا الكلام الذي قلتموه.

ليس في ديننا شيء نواريه أو نداريه، ولكن يجب أن يكون لدينا دورات تدريبية، وخبرة، ومعايشة، نتمكن من خلالها أن نعرف كيف

نجيب على هذه الأسئلة، ففينا من يظنون أن الحماسة والشجاعة وعدم المبالاة بالمستمع هو ضمانة الفوز والصمود!

٥- الاعتزاز بالدين والاستمساك به والإمعان في ذلك كلما تعرضت سنته للاستخفاف:

الكثيرون يسألون في بعض الأزمات: كيف نصنع، ما دورنا؟ فأقول لإخواني الشباب: أَنْ تطبق سنة من السنن المهجورة هذا دورك، أن تقرأ كتاباً في السيرة النبوية هذا دورك، أن تحفظ حديثاً نبوياً هذا دورك.

فكلما تعرضت شخصيته ﷺ للإساءة فليكن جوابك مزيداً من الاتباع، مزيداً من الفهم ، مزيداً من الطاعة: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ ﴾ [النور: ٥٤]. أما فكرة أن يفكر الجميع بأن دورهم أن يكونوا على نمط واحد فهذا ليس صحيحاً.

إن مثل هذا التفكير يجعلنا إيجابيين وبنائيين، بدلاً من أن نكون عرضة للاستفزاز وردود الفعل العابرة، وعيوننا تطير في الهواء بدلاً من أن ننظر إلى مواقع أقدامنا.

٦- ضبط ردود الأفعال وإحكامها والامتناع عن الأعمال المرفوضة شرعاً:

لأن هذا من نصرة النبي ﷺ فإن ردود الأفعال تحتاج إلى ضبط؛ وخصوصاً إذا دخل فيها العامة ، وقد يسهل إطلاقها ولكن يصعب ضبطها أو إيقافها، وقد تتعدى حدود الذين أطلقوها.

ضبط الناس أمر صعب كما ثبت بالتجربة، وقد تتحول إلى مشكلة داخلية داخل الصف الإسلامي؛ مثل: أعمال الحرق، وأعمال القتل العشوائي.. إلى غير ذلك. وهذا يجعلني أؤكد على نقطة جرى فيها الحوار في مسألة القتل أو عدم القتل؛ لأن هذه قضية موكولة إلى الإمام وليست موكولة إلى أحد الناس، وربما يكون إطلاق مثل هذه الأشياء مدعاة لبعض الشباب؛ يرون أنه في ظل عدم وجود حكومة تطبّق هذه المعاني أن من حقهم أن يقوموا بذلك، فنكون سبباً في أعمال تدميرية فاسدة، لا تنصر ديناً ولا تصلح دنياً، يقوم بها بعض اليائسين وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

إن من الحكمة النبوية ألا نطلق كلاماً جزافاً لا نقدر عواقبه، ونجرده من شروطه وظروفه ونظن أن هذه هي الجرأة في الحق والوضوح في المعالجة!

٧- موضوع المقاطعة:

والمقاطعة هي واحدة من الوسائل، ولكن ينبغي أن يراعى فيها أمور:

أولاً: الأصل هو جواز التعامل مع أهل الكتاب ومع غير المسلمين. والنبي ﷺ مات ودرعه مرهونة عند يهودي كما في الصحيحين، وأكل من الجبن المجلوب من بلاد النصارى، كما في مسند الإمام أحمد بسند صحيح، وعلي -رضي الله عنه- آجر نفسه من يهودية يسقي لها كل يوم بتمرة، وهو عند أحمد ورواه ابن ماجة مختصراً، إلى غير ذلك.

وذلك من الأشياء المعروفة في الأصل والمتفق عليها من حيث المبدأ. ولذا فالمقاطعة حالة استثنائية يقصد بها الردع والزجر. أحياناً نفرط في استخدامها حتى نقاطع العالم كله؛ بينما نحن أمة متخلفة نستورد كل شيء من أعدائنا؛ حتى أدق التفاصيل في حياتنا أو لباسنا نستوردها. لذلك علينا أن ندرك أننا لا نستطيع أن نقاطع العالم؛ لأننا حينئذٍ سوف نفرض عزلة على أنفسنا؛ وإنما تكون المقاطعة أسلوباً في بعض الحالات، وفي ظرف معين وضمن إطار معتدل، ويجب ألا يتحول الخلاف حول المقاطعة إلى معركة داخلية تشهر فيها السيوف أو الألسن ويترامى فيها المتخاصمون بالتهم.

هناك علماء أفاضل لا يرون المقاطعة أصلاً.. هذا رأيّ ينبغي أن نحترمه وإن لم نتفق معه.

وهناك من يرى المقاطعة؛ لكن يرى استخدامها ضمن آلية وليس بإمعان شديد.

نحن نظن أننا من خلال المقاطعة سوف نسقط دولاً ونسقط حكومات؛ بينما السوق الإسلامي لا يستغرق إلا القليل منها! وربما كنا مبالغين في تخيل قدرتنا بهذا الخصوص!

٨- رعاية المصلحة في التصعيد أو عدمه:

فالتصعيد وتوتير الأجواء ليس هدفاً ولا غاية، وإذا تحقق المراد بدونه فنعما ذلك.

بعض القضايا تحققت فيها المصلحة دون حاجة إلى إعلانها. ولعلي أضرب مثلاً: سمعت اليوم، موضوعاً جرى فيه الحديث البارحة، ولست أعرف كيف جرى الحديث فيه؟ لكن لا بأس أن أُذكّر به تنويراً: سمعت أن صحيفة سعودية إنجليزية نشرت كاريكاتيراً شنيعاً مسيئاً للذات الإلهية، وأرسل لي أحد الشباب هذا الكاريكاتير: فقمت بالاتصال بمدير المؤسسة للتأكد منه، فقال لي: والله ليس عندي خبر! والعدد هذا صدر قبل شهر.. فقال: سأتأكد، ثم رجع إليَّ وقال: نعم! هذا الكلام صحيح، وأنا لم أعلم به. وحلف لي بالله أنه لم يعلم هو ولا الإدارة كلها وقال لي: ما الذي تراه؟

قلت: أولاً: التحقيق مع الذي نشره ومن أذن به؛ اتخاذ إجراءات فصل وتأديب، وإصدار إعلان بالاعتذار.

فاتصل بي بعد ٣ أيام، وقال: إن الذي نشر هذا هو رجل غير مسلم متعاقد معنا، وتم طرده.

الشركة المسؤولة عن هذه الصفحة تم إلغاء العقد معها.

رئيس التحرير، مع العلم بأنه قال: إنه رجل طيب وصالح ومصلٍّ؛ إلا أنه تم فصله.

والإعلان أُرسل لي في صفحة كاملة.

في هذه الحالة رأيت أنه لا داعي للتصعيد؛ لأن الناس حينئذٍ سيدخلون في مشاكل هم في غنى عنها، ولم يكن الهدف توفير مادة جديدة لحوارات الإنترنت، بل معالجة حالة قائمة، وهذا قد حدث فعلاً.

في النهاية: ما المطلوب أكثر من الأمر الذي حصل والذي جرى؟ مع أنه قد يرى البعض أشياء أخرى لكني أعتقد أن من الشفقة على الناس ألا تكثر عليهم مثل هذه الأشياء حتى تستثيرهم وتنغص عليهم عيشهم مع إمكانية توفير الحلول بدون هذا.

٩- تعزيز التعاون بحسب المقام:

مخاطبة الرسميين من الحكام ووزارات الشؤون الإسلامية، فالانتصار لسيدنا محمد ﷺ مهمة مشتركة، وقد تفلح الحكومات أو بعضها في ضغوط أو سحب سفراء أو مخاطبات أو تفتير علاقات مما لا يملكه أفراد ولا جماعات، وقد يفلح الناس عامة فيما لا تستطيعه الحكومات بحكم ارتباطها ومصالحها. وهنا يجب أن يكون الهدف فعلاً هو النصرة، وليس توظيف حدث ما يغضب له الناس لمصالح خاصة تتعلق بطائفة أو مجموعة أو تيار وقد يتضرر به آخرون ممن ينتصر لمحمد ﷺ ويحبه.

١٠- تنويع الأساليب والطرائق بحيث تتكامل ولا تتقاطع:

هناك أناس يقومون بعمل قانوني، بمعنى: محاولة إصدار قوانين دولية تجرِّم العدوان على الإسلام، أو على النبي ﷺ وعلى أنبياء الله ورسله، وهناك مؤتمر يزمع إقامته تقيمه منظمة (النصرة) لدراسة هذا الجانب وتفعيله. وآخرون يقومون بضغوط سياسية.

وفئة ثالثة تحاول أن تمارس نشاطاً معرفياً، ورابعة تقوم بجوانب إعلامية وحوارية..، إلى غير ذلك من التنوع.

إنها جداول وأنهار وطرائق كلها تؤدي إلى الغاية، ولكل قوم منها ما يتفق وقناعاتهم وتخصصاتهم.

إن المشكلة ليست في اختلاف وجهات النظر أو جوانب العمل فيما يمكن أن يعمله الناس؛ المشكلة هي تحوّل وجهات النظر الخاصة، سواء كانت في ذات الموضوع أو في غيره، إلى دين يوالي عليه الإنسان ويعادي، ومفاصلة كل من لا يتفق مع هذه الجزئية، وإلحاق بعض الآراء الخاصة بالقطعيات الدينية، هذا مما ساهم في توسيع الشقة بين المسلمين؛ وحفر للخلاف خنادق وأسساً يصعب معها التقارب حتى بين أبناء المدرسة الواحدة بدلاً من النظر في المشترك، وتحجيم المختلف فيه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦].

والحمد لله رب العالمين.

مؤتمر تعظيم حرمات الإسلام

دور الحركات الإسلامية

في استراتيجية المواجهة

د. عبد الوهاب بن لطف الديلمي

دور الحركات الإسلامية

مدخل

الغرض الذي قامت من أجله الجماعات

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، أما بعد:

فما من جماعة من الجماعات الإسلامية القائمة اليوم إلا وكان غرضها وهمها الأول من نشأتها، وبناء كيانها، وتكاتف أفرادها؛ هو القيام بحق الوراثة النبوية من الدعوة إلى الله عز وجل، ونصرة دينه، وإحياء العلم الشرعي... إن دعوة هذه الجماعات الربانية -كما نحسبها- ما قامت إلا من أجل جمع الشمل، وتوحيد الصف، والعودة بالأمة إلى مصادر قوتها وعزتها؛ المتمثل في هذا الدين الخاتم الذي رضيه الله -عز وجل- لنا، القائم على الوحي الإلهي المعصوم، والمحفوظ بحفظ الله -عز وجل- لكتابه ولسنة رسوله ﷺ، ثم ما أجمع عليه سلف الأمة من الأصحاب والتابعين لهم بإحسان، وإذا كانت هذه أهداف الجماعات الإسلامية كلها، وهي أهداف غاية في النُّبْل والسموِّ والرفعة، أَفَيليق بها أن تعيش في جوٍّ من التباغض والتناحر، وسوء الظن، والقطيعة، وكيْل الاتهامات، وإقامة الولاء والبراء على جزيئات لا تستحق ذلك كله؟!

أليس من أصول أهل السنة والجماعة الحرص على جمع الكلمة، وتوحيد الصفوف، وتآلف القلوب القائم على توحيد الاتباع، وإزالة عوامل النزاع والخلاف بين المسلمين ما أمكن؟

ومتى جازت في شرع الله -سبحانه- الفرقة بين المسلمين المؤدية إلى الفتنة فيما بينهم؟ أليس من الواجب رد المتنازع والمختلف فيه بين المسلمين إلى كتاب الله سبحانه، وإلى سنة رسوله ﷺ، وما كان عليه السلف الصالح؟ أليس الأصل في دين الله -عز وجل- حمل جميع المسلمين على سلامة القصد والمعتقد، وأن يحمل كلامهم على المحمل الحسن ما لم يظهر خلاف ذلك؟

ألم يفرض الإسلام على أتباعه إحياء التناصح مقروناً بالأدب، وحسن العرض، ووضوح الحجة، والخضوع والاستسلام للحق، إغلاقاً لباب الفتنة ومنافذ الشيطان؟

إن الإنصاف والعدل من سمات أهل الحق، الذين يراعون حق الله -عز وجل- وحده، إذا ما تعارض مع حظ النفس، أو الطائفة أو غيرهما، كما أنهم أبعد الناس عن الجور حتى على العدو، كما لا يغمطون حقاً ولا فضلاً لأهله، ومع ذلك فإنهم لا يقدِّسون الأشخاص مهما كنت منزلتهم؛ إذ لا عصمة عندهم إلا لمن عصم الله عز وجل؛ قاعدتهم في ذلك مقولة الإمام مالك -رحمه الله-: «كلٌّ يؤخذ من قوله ويردّ إلا صاحب هذا القبر» وغيرها من المقولات الشبيهة بها، والمنقولة عن أئمة الفقه الإسلامي رحمهم الله. ذلك أن الأصل هو: معرفة الرجال بالحق لا معرفة الحق بالرجال.

إن المطلوب في حق هذه الجماعات -وهي على هذه الكيفية والمكانة السامية التي تبوّأتها- أن تكون على مستوى عالٍ من المحبة والألفة فيما بينها، وأن تترفع عن المهاترات ومظاهر السقوط الذي لا يليق بها، وأن تتذكر

دائماً قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]. وإذا كان الله -عز وجل- قد خاطب بهذه الآية أصحاب رسول الله ﷺ في الدرجة الأولى؛ فإنه كذلك خطاب لجميع المؤمنين إلى يوم القيامة. والمتأمل في الآية يجد أن الله -عز وجل- لم يمتنَّ عليهم بالهداية إلى الإسلام بعد الكفر، ولكنه امتنَّ عليهم بتآلف القلوب بعد عداوتها، ولعل في ذلك إشارة إلى أن الإيمان الذي لا يثمر المحبة الصادقة مدخول! وقد جاء بعد هذه الآية التحذير من التشبه باليهود والنصارى فيما وقعوا فيه من الفرقة والاختلاف، قال -تعالى-: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

خطر فساد ذات البين:

إننا نُذكِّر إخواننا، أبناء الجماعات الإسلامية، ما يبذله أعداء الإسلام من جهود كبيرة قديماً وحديثاً في محاولتهم طمس معالم الدين، والإتيان على قواعده، وهدم معاقله، وصدق الله القائل: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢]. وأقرب طريق للوصول إلى مآربهم هو اختراق الأمة من الداخل، وإذكاء نار الفتنة بإحياء النعرات، وبثِّ الفرقة والاختلاف بين المسلمين، وجعلهم طوائف، وفرقاً، وشيعاً، وأحزاباً. وقد بذلوا -وما يزالون يبذلون-

كل الوسائل لتمزيق الأمة وتشتيتها على مستوى الحكام والشعوب، والجماعات والمذاهب وغيرها؛ حتى لا تقوم للإسلام قائمة؛ ولا تجتمع للمسلمين كلمة؛ وحتى تستباح بيضة الإسلام، ولن يمكنهم الله من مرادهم: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

والكل يعرف ما عمله الأعداء من تقويض دعائم الخلافة الإسلامية، وتقطيع الأمة الإسلامية إلى أوصال ممزقة، وبث الأفكار القومية والوطنية والعنصرية؛ فكانت النتيجة المرة هي ما آلت إليه أحوال الأمة اليومَ على الخارطة السياسية والجغرافية؛ من تمزيق للأمة إلى دويلات ذهبت -بسبب ذلك- ريحها، وفقدت الأمة هيبتها. وما تبع ذلك من استعمار لمعظم العالم الإسلامي ترك آثاراً سيئة في أوضاع الناس الأخلاقية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، وفرض الاحتكام إلى غير شرع الله سبحانه، إلى غير ذلك من المآسي التي ما يزال المسلمون يعيشون معاناتها إلى اليوم، مثل: ظهور التشوهات التي أصابت أحوال الأمة في عقيدتها، وسلوكها، وعبادتها، وعلاقاتها، ومعاملاتها، وبروز سُحُب الجهل التي خيمت على عقولها، وغير ذلك من الأمراض الاجتماعية على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع.

إن الجماعات الإسلامية معدودة في صفوة الأمة بعد أن حملت على عاتقها القيام بالدعوة إلى الله عز وجل، وارتضت لنفسها أن تكون من أصحاب الوراثة النبوية، وصارت في مرتبة القدوة والأسوة لغيرها؛ فكل مواقفها محسوبة على الإسلام. من أجل ذلك فإننا نقول لإخواننا

في الجماعات الإسلامية: احذروا كل سبب يؤدي إلى الصراع فيما بينكم، وأن تكونوا سبباً في الاختراق من عدوكم! ولا يغرنَّكم الانتماء إلى أي جماعة من الجماعات؛ فالجماعات وسائل وليست غايات. وإن المؤسسات قد تنشأ ويقيمها أصحابها من أجل تحقيق أهداف كبيرة ولكنها ما تلبث -أحياناً- أن ينسى أصحابها أهدافهم الجسمية، عندما يخافون على مؤسساتهم من الضياع والاندثار؛ فيتحول الهم -حينئذٍ- إلى الهم على الحفاظ على المؤسسات، وتغيب من الأذهان -أو تضعف- العناية بالأهداف التي ما قامت المؤسسات في الأصل إلا لتكون وسيلة لتحقيقها، ثم ما تلبث هذه المؤسسات أن تنسى، عندما يبالغ المتمون إلى هذه المؤسسات في التعلق بالقائمين عليها وتقديسهم؛ فيصبح التعلق بالأشخاص هو المهم الأول، ويصبح العمل للأهداف في الحدود التي لا تمس بالمؤسسات أو بالأشخاص، ويصبح أمر الأهداف ثانوياً. وهنا يتحول الصراع من صراع بين الحق والباطل إلى صراع بين المؤسسات المتنافسة؛ من أجل الذود عن الأشخاص أو عن المؤسسات، ويضيع كل شيء في غمرة الصراع الداخلي؛ الذي استطاع الأعداء في مثل هذا الجو أن يخطوا خطوات متسارعة لتحقيق أهدافهم من خلاله؛ فقد وُجِدَ في العالم الإسلامي أنظمة سائرة في ركب الأعداء منفِّذةً لمخططاتهم في حَمْلِ معاول الهدم، بما تقوم به من محاولات لتمزيق وتشتيت الصوت الإسلامي، وإقامة مساجد الضِّرار، وجَعْلِ الأبواب مشرعة أمام الفرق الضالة والدعوات الهدامة التي تتقمص الإسلام، وهي تسعى في محاربته والكيد له، على غفلة من الدعاة وأصحاب المبادئ، وانشغالهم بقضايا جانبية.

الإسلام أولاً والجماعات ثانياً:

إن شدة الحرص على الكيان من أن يتعرض -هو أو بعض أفراده لأذى- قد يحمل على التهاون في القيام بواجب الأمر والنهي، والصدع بالحق، مع ما قد يُرى من شيوع المنكرات، بل ربما استحلال بعض المحرمات، التي قد يقنن لها أصحابها، ويحمونها من الاعتداء عليها، ويجعلون الإنكار عليها أو الإقدام على تغييرها جريمة يعاقب عليها القانون، وقد يجاهر بها أحياناً.

الابتلاء سنة إلهية:

وفي هذه الحال ينسى أصحاب هذا الكيان واجبهم في إحياء دين الله، والتصدي للمنكرات. كما ينسون أن من لوازم ذلك التعرض للابتلاءات، وأن تلك سنة إلهية ماضية، تعامل معها من هو خير منهم من الأنبياء والصادقين من أتباعهم. قال -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤].

إن الداء إذا استفحل، وتمكن المرض من الأمة، وكثر الانصراف والإعراض عن دين الله -عز وجل- سيؤدي حتماً إلى عموم الفتنة، وحينئذٍ لا يسلم أحد من شرِّها، لا الفرد ولا الجماعة. وإن الخير كل الخير في القيام بالواجب. قال -تعالى-: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] مع الصبر على ما يصيبهم في سبيل ذلك.

الدعوة إلى الله ـ عز وجل ـ في صفوف المسلمين:

إن من أهم أولويات الجماعات الإسلامية، وهي تريد أن تتصدى لكل ما يسيء إلى الإسلام، أن تقوم بواجب الدعوة إلى الله عز وجل، وإحياء الإيمان في نفوس الناس، والقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإعادة الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين، وتوثيق أواصر المحبة بين المؤمنين، إلى غير ذلك مما يفرضه عليها دينها، مثل: الدعوة إلى ربط الإيمان بآثاره المترتبة عليه؛ من حُسْنِ التعامل بين الأفراد بمراعاة الحقوق الخاصة والعامة، ولزوم الصدق، وتحرّي الحلال في الكسب، وتوقّي المعاصي، وعدم الركون إلى مجرد دعوى الإيمان وسلامة العقيدة؛ الذي قد يجر صاحبه إلى الوازع الإيماني، كما ضعفت عندها الغيرة على دين الله ووجدت تشوهات كبيرة في ممارسة العبادة واختلالات في العقيدة، وبرزت في المجتمعات المسلمة دعوات نشاز تهدف إلى استدراج المسلمين تحت لافتات مصطنعة لتفتنهم عن دينهم.

إن التوجّه إلى التصدي للأعداء الذين يتطاولون على ديننا، دون مراعاة للجوانب الأخرى والعوامل التي أوجدت ثغرات في جسم الأمة المسلمة -يحمل نظرة قاصرة في معالجة الأمور؛ لأن كل هذه الأمور متضافرة آخذ بعضها بحجر بعض؛ لا يتم معالجة بعضها إلا بالاهتمام ببعضها الآخر.

إن الغرض من هذا المدخل إلى الحديث عن واجب الجماعات الإسلامية هو التذكير بهذه الأسس التي لا يتأتّى القيام بالواجب على

الوجه المطلوب مع إغفالها والتغاضي عنها، أو التهاون بشأنها، أو إقصاء بعضها عن سلَّم الأولويات. وإنه لا بد لِنجاح الجماعات فيما تقوم به من جانب الدفاع عن دينها والتصدي في وجه أعدائها- من العودة إليها والتزامها، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. فالواجب إذن في هذه المرحلة العصيبة من حياة المسلمين سلامةُ الصدور، وحسن الظن، وإحياء التناصح، والالتزام بتحكيم الشرع عند كل خلاف، وعدم إقامة الولاء والبراء على أساس جزيئات يمكن إعذار صاحبها فيها، وتوحيد الجهود والمواقف، والتنسيقُ في كل موقف جماعي حتى يصدر الجميع عن رأي موحد، واستعادة ثقة الأمة بدينها وعلمائها، وانتشال الناس من الحيرة التي أوقعهم فيها كثرة الاجتهادات والطعن والتشهير والتشكيك في النوايا والمواقف والاجتهادات، والعمل على إعادة الأمة إلى دين الله على بصيرة ومعرفة وحسن استقامة.

إن تشتيت الجهود، وتباين المواقف، وتبديد الطاقات، والظهور أمام العدو بمظهر المختلفين والمتناحرين - يوهن من عزائم الأمة، ويضعف من تأثير المواقف في نكاية العدو، وقد يستغل العدو هذا الوضع فينفذ منه لتحقيق مآربه.

وما من جماعة إلا وهي واضعة في قائمة أعمالها أولويات ترى أن البدء بها أولى وأهم من غيرها، وقد تختلف النظرة إلى هذه الأولويات من جماعة إلى أخرى. غير أننا نقول لأي جماعة لا تجعل من أولوياتها الدفاع عن دين الله -عز وجل- وعن كتابه ورسوله: إن من واجبكم أنْ تعيدوا النظر في ترتيب هذه الأولويات، وإن أي قضية تشدكم إليها وتصرفكم

عن هذه القضية، ما هي إلا دليل على أنه لم يحالفكم الصواب والتوفيق. وإن مقتضى الغيرة على دين الله -سبحانه- يستوجب المسارعة إلى تبنّي هذه القضية التي تعتبر من أمهات قضايا الساعة؛ نظراً إلى أن الإسلام مستهدف من قبل أعدائه على غفلة من أتباعه، وأن التغاضي عن هذا الأمر سيجرِّئ أعداء الإسلام إلى ما هو أعظم من هذا.

إن الأعداء يستحيل عليهم أن يستهينوا بديننا، أو أن يسيئوا إلى رسولنا ﷺ، أو يعرِّضوا الكتاب العزيز للإهانة، أو يفعلوا غير ذلك، مع تكرار ذلك بين الحين والآخر - لو أنَّ الأمة كانت في مكان ترهب، وذات كيان موحد يحسب لها ألف حساب، غير أن الثغرات كثرت في جسم الأمة مما مكَّن الأعداء من النفوذ منها إلى تحقيق أهدافهم في النيل من ديننا ومقدساتنا. ولذلك كان لزاماً على الجماعات الإسلامية، وهي تتصدى لهذه الهجمة الشرسة على دين الله عز وجل، أن لا يكون عملها بعيداً عن مراعاة واقع الأمة الإسلامية اليوم، وأن توليَ اهتماماً كبيراً لدراسة الأمراض التي استحكمت في الأمة، ومن ثمَّ العمل على معالجتها؛ نظراً لكونها -في نظري- أهم سبب دفع الأعداء إلى مثل هذه المواقف. فلا بد إذاً من استكشاف مكامن الضعف التي أصابت الأمة حتى أوصلتها إلى الشعور بالنقص والتبعية لأعدائها وحاجتها إليه في كل صغيرة وكبيرة؛ حتى آلَ الأمر إلى استنزاف ثرواتها، وتقطيع أوصالها، واحتلال أراضيها، وجعل أسواقها أماكن لاستقبال وتصريف بضائع أعدائها ومنتجاتهم. وحتى صارت حياتها كلها مرهونة بما تجلبه من عدوها فأصبحت بذلك تعيش تحت رحمة عدوها، لا تستطيع الاستقلال بنفسها ولا الاستغناء عن

عدوها؛ بل آلَ الأمر بأصحاب رؤوس الأموال أن يستثمروا جلَّ أموالهم في ديار عدوهم؛ وهم يدركون مدى ما يمكن أن يستفيد عدوهم من هذه الأموال، وأنه يعود من خلال ذلك بالضرر على أمتنا. كل ذلك وغيره مما يمخر في جسم الأمة جرّأ عليها عدوها حتى استضعفها، واستخّف بها، وحمل حكّامها على الاستسلام المطلق لما يريده العدو، ولأكثر مما يريده.

وضع الحكام مع شعوبهم:

من عوامل الهدم في الأمة ما يقوم به الحكام في حق شعوبهم من ممارسة الإذلال، ومصادرة الحريات والحقوق المشروعة، وملاحقة الدعاة، والتضييق على الناس في معاشهم، ومن الإساءة في استخدام وسائل الإعلام في توجيه الأمة، والحرص على تخريج أجيال جاهلة بدينها وواجبها نحو نفسها وأمتها؛ والتي فقدت الجانب التربوي في المدارس والجامعات، وأخمدت جذوة الجهاد في نفوس الأمة، وجففّت منابع الدعوة ومصادر التكافل الاجتماعي، وعُمِل على إشاعة وسائل اللهو واللعب؛ بل رُصدت الجوائز والحوافز للمبدعين في ذلك، وأخذ هذا الجانب مساحة كبيرة في وسائل الإعلام، وصُرِفَ الناس عن اهتماهم بكثير من معالي الأمور، وفُرِض الغلو في تقديس الحكام حتى كاد الولاء أن يتحول من ولاء لله ولرسوله وللمؤمنين إلى ولاء للحكام. وصار النيل من الحكام حتى لو كان بالحق أمراً محظوراً؛ أو كما يقال: خطاً أحمر، ووُلِّيَ على رقاب الناس من ليس أهلاً للولاية؛ حتى تمكنوا من السيطرة على مفاصل الدول، وهُمِّش أصحاب الأمانة والاستقامة والكفاءة،

وأُهمِل جانب الإعداد الذي أمر الله به مادياً ومعنوياً، الأمر الذي لا بد من معالجته للخروج من أزمة الاستضعاف والتبعية اللذين يمارسهما على الأمة أعداؤها، كما أُهمِل جانب إعداد الأمة وتأهيلها للجهاد وحب الاستشهاد حتى يتحقق للأمة ثمرة ذلك: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]... كل هذه الممارسات وأشباهها ولَّدت أزمة علاقات بين الدعاة والحكام؛ حتى اتسعت بمرور الأيام الفجوة التي ولّدت فجوة، وتبينت أساليب الدعاة والحكام في توجيه الأمة؛ إذ انحصر همُّ الحكام في الغالب على شؤون الدنيا مبتورةً عن الاهتمام بشؤون الآخرة؛ بل تقوم بعض مصالح الدنيا أحياناً على حساب الدين إذا فرضنا أن هناك مصالح يمكن أن تتحقق بدون دين. وأصبح العلماء والدعاة في معزل عن كل ما يدور؛ لا يستشارون في أمرٍ ولا يُسمعُ لنصحهم؛ بل لا يسلمون من اللمز والطعن وسوء الظن وكيل الاتهامات الباطنة لهم، وربما شعروا بالغربة في ديارهم؛ حتى أصبحت بضاعتهم كاسدة، لا يملكون ما يملكه أصحاب الدنيا من الوسائل والأساليب التي يرجعون من خلالها بضاعتهم.

إننا نرى الوسائل والأساليب التي تفنن أصحاب الدنيا فيها حتى فتنوا الناس بالمبتكرات الدنيوية، ووسائل الراحة والرفاهية، وأصبحت بسببها بضاعتهم رائجة عند الناس؛ بل ربما لا يسلم بعض الدعاة من الوقوع في شَرَكِ هذه الإغراءات. وصار المفتونون بالدنيا غارقين بكماليات يتسابقون عليها، ويبحثون عن كل جديد من صور متاع الدنيا واللذة الدنيوية؛ مما شغلهم عن كثير من واجباتهم الشرعية، وهذه أيضاً من عوامل الفتنة

في المجتمعات ومن أسباب الانصراف عن الواجبات. بينما نجد الدعوة إلى الله -عز وجل- لم تأخذ حظها من الرواج في نفوس الناس؛ حتى يقبلوا عليها ويتعلقوا بها ويكون لهم بها حب وشغف: ﴿قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء: ٧٧].

الخطوات العملية للقيام بالواجب نحو الأمة:

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: كيف يمكن للجماعات الإسلامية أن تقوم بواجبها في انتشال الأمة من هذا السقوط ومن هذا الوضع المزري؛ وأن تخرج من التقوقع على نفسها والانشغال بأمور جانبية أحياناً والإغراق في الجانب النظري، إلى الالتحام بالأمة وتربيتها تربية عملية بجهود متضافرة وخطة محكمة؛ حتى تعود للأمة ثقتها بدينها وعلمائها ودعاتها؛ خاصةً عندما ترى على أرض الواقع القدوات التي تذكِّر بسلف هذه الأمة من الصحابة وتابعيهم بإحسان؛ بحيث يتجسد الإسلام في سلوكهم وعبادتهم ودعوتهم وتعاملهم مع الناس، وجهادهم وعزوفهم عن الدنيا، وإخلاصهم وصدقهم وسلامة محبة بعضهم لبعض من كل ما يخدشها.. إلى غير ذلك من مقتضيات الربّانية التي هي من لوازم الدعاة المصلحين؟

ثم أنّى للجماعات الإسلامية أن تقوم بمواجهة الذين يغرقون في إيذائنا من خلال الطعن في أقدس شيء عندنا، مع ما يرونه من غلبة الجهل الذي أصاب الأمة، ومن شتاتها وضعفها، وضعف ولائها لدينها، وانغماسها في متاع الدنيا، واللهث وراءه؟ إذ ليس المطلوب من المسلمين اليوم

القيام بمواقف آنية وردود فعل سرعان ما تنتهي وتتلاشى؛ لِكونها قائمة على مجرد عواطف أججها الحب العاطفي لدينها. ثم هي مواقف غير مدروسة - في كثير من الأحيان- ولذلك لا تؤتي ثمارها؛ لأنها عبارة عن نزق وطيش لم تكن ناتجة عن دراسة ووعي، وربما أدت إلى نتائج عكسية يستغلها الذين يتربّصون بالإسلام ويسعون إلى تشويهه. ونحن نخشى إِنْ استمرَّ الأعداء في هذا التطاول الذي يواجهه العامة بردود فعل حماسية آنية من أن ينطفئ هذا الحماس مع مرور الأيام، ويتبلَّد الإحساس؛ خاصةً إذا لم يرَ الناس مواقف من العلماء والدعاة تتكافأ مع الحدث؛ لذا لا بد من الارتقاء بمستوى الوعي عند الأمة من خلال:

١- توعيتها بحقائق الدين؛ حتى يتم الوصول إلى تحصينها في دينها وعقيدتها من كل اختراق ومن كل شبهة وشهوة، وتعريفها أيضاً بالمواقف العملية النافعة في صد العدوان؛ وذلك من خلال الرجوع إلى أهل العلم والرأي وأصحاب التجارب من الدعاة وغيرهم. هذه المواقف التي من شأنها أن تصدَّ الذين يرتعون في حمانا، من الحاقدين والمتربصين والمنساقين وراء تيار الإساءة إلى الإسلام.

٢- توعية الأمة بمكانة الرسول ﷺ عند الله عز وجل، وفضائله، وشمائله، وخصائصه، وفضله على سائر الخلق، وأنه أعلاهم درجة عند الله وأقربهم زلفى، الجامع لمكارم الأخلاق، أكثر الناس خوفاً وخشية وعبادة لربه.

٣- بيان الواجب نحو الرسول ﷺ؛ من تعظيمه، وتوقيره، وكمال محبته، ومتابعته، والاعتصام بسنَّته، والإيمان بعصمته، وكمال صدقه، ووفور عقله ورجحانه، وأدائه لرسالة ربه -تعالى- من البلاغ والبيان المبين.

٤- بيان الواجب نحو سنَّته من العناية بها، والدفاع عنها، ونشرها، والاستمرار في خدمتها، وبيان منزلتها من الكتاب العزيز، والتحذير ممن يقلل من شأنها أو يدعو إلى الاستغناء عنها، وتفنيد الشُّبَهِ التي تقوم عليها كل دعوة باطلة.

٥- بيان حال أهل الكتاب والمنافقين، وما هم عليه من العداوة المتأصلة في نفوسهم للإسلام وأهله وكتابه ونبيه ﷺ، بالاستناد إلى النصوص الشرعية الواردة في ذلك. ونذكر على سبيل المثال مما ورد في ذلك قوله -تعالى-: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨]، ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]. ومما جاء في شأن المنافقين، قوله -تعالى-: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤]،

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ [التوبة:٦١]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦]. إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الواردة في الطائفتين والتي لا تخفى، والتي يجب تعميق معانيها في نفوس المسلمين؛ لتتحقق من خلال ذلك البراءة من أعداء الإسلام، وعدم الاغترار بهم أو الافتتان بهم، ومعرفة ما تكِنُّ صدورهم من الحقد والكراهية والكيد والمكر، التي صارت سجية لهم في تعاملهم مع المسلمين على مدى التاريخ، والتي لم يتغير حتى اليوم؛ فوضع الأقليات المسلمة اليوم في الأكثرية الكافرة خير شاهد على النظرة القاتمة التي ينظر بها الكفار -على اختلاف مشاربهم- إلى المسلمين وشدة كراهيتهم للإسلام وأهله، وأن الحرية في الرأي أو المعتقد أو السلوك التي يتشدقون بها ما هي إلا سراب عند التعامل مع المسلمين!

والذي يعود إلى الكتب والمجلات التي تحدثت عن أوضاع الأقليات المسلمة في الصين أو الهند أو روسيا أو البوسنة، وما واجهه المسلمون من وحشية الصرب، وكذا الحال في سريلانكا وغيرها من بلدان العالم ذات الأقليات المسلمة -لَيجد أنواع الاضطهاد والإبادة والتشريد، ومحاولة طمس الهوية الإسلامية بشتى الوسائل. الأمر الذي ما تزال أيدي المتعطشين إلى دماء وأعراض المسلمين ملطخةً بها حتى اليوم؛ بل لم تطِقْ نفوسهم أن تتحمل رؤية طالبات المدارس المسلمات وهن يرتدين قطعة من القماش

على رؤسهن... هذه الظواهر التي لا تحصر تعطينا صورة واضحة جليّة عن أعدائنا الذين ما نزال نحسن بهم الظن، ونسمع أصواتاً تدافع عنهم وتبرئ ساحتهم، وتسعى إلى التقارب معهم؛ حتى تظهر حسن النوايا عند من يكِنُّ لنا العداء وهو ما يزال يهدم المنازل على أهلها، ويستبيح كل شيء في ديار المسلمين دون خجل ولا حياء، ويفسِّر الإبادات الجماعية للنساء والأطفال والشيوخ على أنه دفاع عن النفس! كما يفسِّر الدفاع عن النفس والعِرْض والأرض بأنه همجية وإرهاب! ويوجد في المسلمين من يدين أي صورة من صور دفاع المسلمين عن أنفسهم، كما أننا لم نسمع ولو مرة واحدة من قساوسة النصارى أو أحبار اليهود من يدين المجازر الوحشية التي يرتكبها غير المسلمين في حق المسلمين.

بيان منهج الإسلام في الإنصاف مع العدو:

إذا كان القرآن الكريم قد فضح انحرافات أهل الكتاب، وتحريفهم وتبديلهم لكتبهم، ومواقفهم من أنبيائهم بل إساءتهم إلى الرب -سبحانه وتعالى- ووصفه بما لا يليق بجلاله وكذا إساءتهم إلى رسول الله ﷺ، وبيان ما هم عليه من الضلال والانحراف- فإنه في كثير من الأحيان لا يعمم الحكم، وذلك كقوله -تعالى-: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٧٨]. وقوله: ﴿لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾ [النساء: ١١٣] وهذا من كمال عدل الله -سبحانه- حتى مع العدو الألَدّ الخصم.

ومن منهج الإسلام في الإنصاف مع العدو وعدم تجاهل جوانب الخير عنده- وهذا شأن الإسلام في عدم تجاوزه حدود الخصومة- أننا نجد القرآن الكريم يمدح العلماء الصالحين من أهل الكتاب الذين عرفوا القرآن حق المعرفة، وآمنوا بأنه منزل من عند الله سبحانه؛ لأنهم أقاموا الكتاب المنزَّل عليهم، وآمنوا بما فيه من بشارات، وذلك في مثل قوله -تعالى-: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩] وقوله -سبحانه-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٨].

كما أثنى -سبحانه- على طائفة منهم لما ينزل بهم من الفرح عند سماع الوحي المنزل على رسول الله ﷺ لكونه مطابقاً للحق الذي بين أيديهم، وذلك في مثل قوله -تعالى-: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ﴾ [الرعد: ٣٦].

لا بد -أيضاً- من بيان أن الإسلام دين الرحمة والسلام، وأصدق شاهد على ذلك أنه لم يُكرِه أحداً من اليهود والنصارى -الذين عاشوا في ظل حكمه قروناً طويلة- على الدخول في الإسلام وعلى ترك دينهم ما داموا مسالمين. ولذلك نجد الإسلام يأمرنا بالبر بأهل الكتاب وغيرهم

ممن يدين بغير ديننا من الذين لم يحاربونا، ولم يعينوا على حربنا؛ فقد جاء في القرآن الكريم قوله -تعالى-: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

وهذا هو شأن الإسلام في العدل في كل الأحوال، ومع كل الناس، وفي ذلك يقول الله -تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

ويقول -عز وجل-: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة: ٢].

كل هذه المواقف المتباينة لا بد من تجليتها وبيان وجه الحق فيها سواء للمسلمين؛ لِيعوا حقيقة العلاقة بين الإسلام وخصومه من أهل الكتاب والمنافقين، وحتى لا يخدعوا بالشائعات المغرضة. وكذا تجلية الحق للذين لم يعرفوا الإسلام على حقيقته ممن يُضلَّل عليهم من عامة أهل الكتاب الذين لم يعرفوا الإسلام إلا من خصومه الذين يشوهونه، ويعرضونه بطريقة مزرية منفِّرة تشمئز منها النفوس.

وعلى مَنْ يعيش من أبناء الجماعات الإسلامية في الأوساط الكافرة أن يُحسِن عرض الإسلام بسلوكه المتميز، الذي يترجم به الإسلام واقعاً

وتطبيقاً أولاً، ثم بالبيان قدر الإمكان، مع توزيع الكتب الإسلامية المترجمة إلى اللغات الأجنبية؛ حتى تتضح الصورة عند عامة أهل الكتاب وغيرهم.

وأخيراً فإننا نقدر جهود الجماعات الإسلامية في خدمة الإسلام في مجالات واسعة وكثيرة، كل حسب اجتهاده وإمكاناته، ونظرته إلى الأولويات في سلم الدعوة إلى الله عز وجل، الأمر الذي لا يمكن إنكاره ولا غمطه، كما تتفاوت نسبها في القضايا ذاتها التي تُواجَه بالاهتمام والإصلاح.

غير أنه لا بد من إعادة النظر في ترتيب الأولويات، بحيث تكون قضايا المواجهة مع الأعداء ومن يحذو حذوهم، خاصة القضايا التي فيها إساءة مباشرة إلى كتاب الله -عز وجل- وإلى رسول الله ﷺ والتشويه المتعمد للإسلام، والجهود التي تبذل لطمس هوية المسلمين في الأقليات المسلمة، أو إبادتهم، أو تهجيرهم، أو العمل على تنصير المسلمين واستغلال الجهل والفقر اللذين يفتكان ببعض المسلمين في بعض بلدان أفريقيا وآسيا وغيرهما..، بحيث تكون كل هذه من القضايا التي يجب أن تأخذ الصدارة في الاهتمام، وأن تأخذ مساحة واسعة من التفكير والعمل الجاد والجهود المتضافرة. وهذا يتطلب إمكانات مادية غير عادية، كما يتطلب تخصيص فريق عمل من أهل الاختصاص، علماً ودراية، واطلاعاً على ما يدور في الساحة، ومواجهة كل الجبهات التي يؤتى الإسلام من قبلها بالأساليب المتنوعة والوسائل المتاحة، وما أكثرها اليوم! على أنه يجب حث أهل السعة في الرزق من أصحاب روؤس الأموال، ممن عندهم غيرة على دينهم، أن يكونوا مسؤولين -كغيرهم- عن هذا الدين أمام الله عز وجل؛ فكل مسلم

على ثغرة؛ فلا يؤتين الإسلام من قبله! إذ لا قِبَلَ للدعاة من أبناء الجماعات الإسلامية بتوفير الإمكانات المادية التي تتطلبها وسائل الدعوة ما لم تتضافر جهود الجميع؛ فهذا التوجه يحتاج إلى استغلال بعض القنوات الفضائية، وإصدار الكتيبات والمجلات والنشرات والأشرطة بأنواعها، وفتح عدد من المواقع في الإنترنت، واستكتاب الكثير من أهل الغيرة، وتخصيص مراكز دعوية، وتفريغ عدد من القادرين على ترجمة الكتب ذات الطابع الذي يفيد نشره في الأوساط غير المسلمة، وترجمة النافع مما يصدر في ديار غير المسلمين. وربما يحتاج الأمر إلى إرسال دعاة ممن يجيدون اللغات الأجنبية إلى ديار غير المسلمين للدعوة والحوار والمناظرة، وتوعية القاطنين من المسلمين في تلك الديار بواجبهم نحو دينهم، إلى جانب الدعوة إلى تقويم سلوكهم وضرورة التزامهم بالإسلام؛ ليكونوا خير سفراء لدينهم وأمتهم إلى غير المسلمين؛ وحتى لا يكون سلوكهم البعيد عن الدين فتنة لغيرهم، أو ثغرة ينفذ منها أعداء الإسلام .

ولا يغيب عن الأذهان أن جهود الدعاة تحتاج إلى نظرة واقعية إلى ما نراه اليوم من كثرة مصادر التلقي بتعدد القنوات، وتصدر الكثير للفتوى بدون أهلية، والتوهين من شأن العلماء؛ مما أحدث فوضى عند كثير من العامة، وأوجد بلبلة وحيرة، وصار كثير من أهل الأهواء يتخيرون من الفتوى ما يتناسب مع أهوائهم ومصالحهم الدنيوية. وحتى يعود الناس إلى مصادر التلقي الشرعية المنضبطة فإن الأمر يحتاج إلى بذل جهود لا يستهان بها.

ولا بد أيضاً من مناصحة ولاة الأمر بالحكمة، وأن يبين لهم واجبهم، وأن حراسة الدين وسياسة الدنيا بالدين، وحسن اختيار الولاة والقضاة، والمحافظة على ديار المسلمين وثغورها، وإحياء الجهاد، وحسن الإعداد، وتجنب موالاة أعداء الإسلام، ونشر الفضيلة، والاهتمام بالتعليم النافع، وإطفاء أي فتنة يراد إيقاظها، ومحاربة مظاهر الفساد، وإقامة الحدود، والمحافظة على ثروات المسلمين وحسن استثمارها فيما يعود بالنفع على المسلمين ويسد حاجة المحتاجين، والعناية بدور العلم وبالمساجد وأئمتها، وإفساح المجال للدعوة والحسبة، وإقامة العدل بين الناس كافة... كل هذه وغيرها من أولويات واجباتهم نحو دينهم وأمتهم التي سيسألهم الله -تعالى- عنها، مع بيان أن الولاية في الإسلام ما شُرعت إلا لمثل هذه المهام الجسام، وأن صلاح الدنيا مرهون بتحقيق هذه الأمور؛ فمصالح الدين والدنيا متشابكة لا ينفصم بعضها عن بعض؛ فمن أراد الدنيا فعليه بالعناية بالدين ليجمع الله -عز وجل- له خيري الدارين كما قال -تعالى-: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقال: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦]، وقال: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

إن مواجهة الأعداء؛ سواء الذين يسيئون إلى الإسلام ويتطاولون على مقدساته وثوابته، أو الذين يعتدون اعتداءً مباشراً على أبنائه وأرضه؛ كل ذلك لا يمكن أن يؤتي ثماره ويحقق مقاصده ما لم تسرِ الدعوة في هذه الخطوط المتوازية مع إصلاح أحوال المسلمين، وتعليمهم وتوعيتهم، والعمل على عودة الوحدة الإيمانية إلى قلوبهم، وحملِهم على القيام بواجبهم نحو دينهم، وكذا توجيه النصح لولاة الأمور حتى يحسنوا استخدام نفوذهم وسلطانهم وإمكاناتهم في خدمة دينهم وأمتهم، ويقوموا بواجبهم الملقى على عواتقهم على الوجه المطلوب. وإذا ما تضافرت الجهود، وانتشر الوعي، وقوي الإيمان، واستقام السلوك، واختفت مظاهر الجريمة والمعاصي في المجتمعات المسلمة، وصلحت العلاقات بين المسلمين وصدقوا في التعامل فيما بينهم، وصلحت العلاقة بين العلماء والدعاة من جانب.. إذا ما تم ذلك فإن الجهود المباركة ستؤتي ثمارها بإذن ربها.

والخلاصة: لا بد من مواجهة مثل هذه المواقف التي تصدر عن الأعداء والمتمثلة في تشويه الإسلام وكتابه ونبيه وأتباعه، وذلك بالتزام المنهج الذي أرشد الله -عز وجل- إليه رسوله ﷺ وأصحابه؛ وهو توجيه وإرشاد للمؤمنين إلى يوم القيامة؛ فالإسلام هو الإسلام، والقرآن هو القرآن، والرسول هو الرسول، والأتباع في كل زمان يمثّلون قافلة واحدة وأمة واحدة، والأعداء هم الأعداء. وقد قال -عز وجل- في بيان المواقف المتاشبهة من أعداء الرسل التي واجهوا بها دعوة الرسل. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ

قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ [البقرة: ١١٨]. وقال -تعالى-: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢- ٥٣]. وقال -تعالى-: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ [الإسراء: ٥٩]. وقال -سبحانه-: ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۚ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٤].

والآيات في هذا كثيرة جداً، وقد جاءت وصية الله -عز وجل- للمؤمنين كيف يواجهون مثل هذا الأذى الذي نالهم من أعدائهم، وهو المنهج الذي لا بد منه للمؤمنين في كل زمان، وفي كل حال؛ فليس هناك أهدى ولا أقوم من إرشاد الله -سبحانه- وتوجيهه لعباده المؤمنين، ومما جاء في ذلك قول الله -تعالى-: ﴿لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

فهذه الآية الكريمة فيها أمور متعددة منها:

١- أن هذا الخطاب فيها لكل المؤمنين.

٢- أن هذا ديدن أهل الكتاب والمشركين في إيذاء المؤمنين، وأنه لن ينقطع في المستقبل ﴿وَلَتَسۡمَعُنَّ...﴾.

٣- بيان حجم الأذى وأنه كثير، مما يدل على كثرة صنوفه والتفنن فيه.
٤- أن هذا الأذى لا يزاوله الأعداء عن طريق الهمس والنجوى، بل هو معلن ليصل إلى مسامع المؤمنين؛ لقصد التمكن من الإيذاء المطلوب الذي يبلغ منتهاه في نفوس المؤمنين.
٥- تضافر وتعاون أهل الكتاب مع المشركين في الوقوف صفاً واحداً ضد المؤمنين. ومن صور الأذى الذي مارسوه في حق المؤمنين ما أخبر الله -عز وجل- عنه بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١].
٦- بيان الأسلوب الذي يواجه به المؤمنون هذا الأذى، وأنه ينحصر في الصبر والتقوى.

أما الصبر فلأنّ المؤمنين لا يفتؤون يواجهون ضروباً كثيرة من الابتلاءات في الأموال والأنفس، كما أن من دأَبِ الأعداء وديدنهم أنهم لا يكفُّون عن إيذاء المؤمنين؛ للعدواة المتأصلة في نفوسهم على المؤمنين، وعلى ذلك فلا ينبغي أن تضيق صدور المؤمنين بما يسمعون؛ لأنه ضرب من الابتلاء. وقد جاءت الوصية من الله -تعالى- لرسوله بذلك في أكثر من موضع؛ كقوله -تعالى-: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقوله: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يونس: ٦٥].

ذلك أن ظهور مثل هذا الأذى والعداوة من أهل المبادئ المناوئة للحق، وكذا أصحاب الشهوات، غيرُ مستغرب؛ بل لا بد أن يضيقوا بالحق وأهله ودعاته؛ ولذلك لا بد أن يكيدوا لهم، وينسجوا حولهم الأباطيل والمطاعن، ويعرِّضوهم للأذى.

وعندما يقابل المؤمنون الأذى بالصبر وكظم الغيظ، وترك الانتقام عندما يستوجب الأمر ذلك وتقتضي المرحلة التعامل بذلك، مع الاستمرار في الدعوة إلى الله -تعالى- بالرفق واللين، والبلاغ المبين، وإقامة الحجج الدامغة -فإن ذلك قد يكون أقرب إلى استمالة المخالف بقبول الحق وحمله على الاستجابة. وقد أوصى الله -عز وجل- بذلك في آيات كثيرة من كتابه العزيز، مثل قوله -تعالى-:

- ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].
- ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤].
- ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].
- ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[الأحقاف: ٣٥].
- ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

وقد أمر الرسول ﷺ بالقتال والغلظة على الأعداء في مواطن أخرى، ومعنى ذلك: أن من الحكمة وضع الأمور في مواضعها الصحيحة؛ مراعاةً للأحوال المختلفة، وهو في كلا الحالين يمتثل أمر ربه سبحانه.

وأما التقوى المأمور بها في الآية فهي العاصم عن الزلل؛ فكثرة المحن والابتلاءات تحتاج إلى تقوى، بالإضافة إلى الصبر الذي هو احتمال المكروه. ومن مقتضيات التقوى الدفاعُ عن الحق، وحماية المجتمع المسلم من أي اختراق يؤدي إلى إفساده، ومقارعة الباطل، وتفنيد الشبهات، ودحض الافتراءات. والخطاب عام لكل مؤمن؛ لأنَّ الكل مستهدف؛ فالمسؤولية ملقاة على عاتق كل مؤمن

والمتأمل في الآية التي تلت هذه، وهي قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

يرى أنها تشير إلى ضرب من الأذى الذي مارسه اليهود ضد رسول الله ﷺ من خلال كتمان الحق الوارد في التوراة؛ ومنه صفات رسول الله ﷺ والبشارة به، واستبدال ذلك بالتُّهم الباطلة، والنقائص التي ألصقوها برسول الله ﷺ.

وأمر آخر.. وهو أن الخطاب في الآية، كما أنه لأهل الكتاب؛ فهو خطاب كذلك للمؤمنين من أتباع محمد ﷺ بأن يصدعوا بالحق ويظهروه، ويدْعوا الناس إليه، ويحذروا من التشبه بأهل الكتاب الذين كتموا وحرّفوا وبدلوا.

الحكمة في التعامل مع الخصوم وغيرهم:

الذي أراه بالنسبة للجماعات الإسلامية أنها ليست صاحبة سلطان ولا قرار، ولا تملك من الإمكانات ما تواجه به الأعداء، وليس عندها من القدرات المادية ما تكافئ قدرات العدو؛ لأن مهمتها ما تزال محصورة في مجرد الدعوة إلى الله عز وجل؛ ولذلك كان لزاماً عليها في كل موقف من المواقف التي تتخذها في الرد على الأعداء فيما يصدر عنهم من الإساءات والإشاعات والشبهات والأباطيل -كان موقفها موقف الدفاع وصد العدوان بالأساليب المتاحة. وكذلك ما تقوم به ابتداء في تصدير الخير للآخر، وإقامة الحجة، وبيان محاسن الإسلام وفضائله، والترغيب في اعتناقه، وفي كلا هاتين الحالتين لا بد أن تراعي هذا الأمر. أعني أنها جماعات مهمتها الدعوة إلى الله -عز وجل- وأن لا يغيب عنها ذلك في غمرة الأحداث، وفوران الغضب، والرغبة في الانتقام من الخصم، والتوجه إلى ردود الفعل غير المتزنة؛ لأن أي موقف يؤدي إلى نتائج عكسية من شأنه أن يخرج بالجماعات عن مهمتها الأولى، وقد يعطي فرصة للآخرين للنيل منها وإخماد دعوتها، إضافة إلى أن الدعوة إلى الله -عز وجل- ليست قاصرة على دعوة طائفة معينة من الناس، بل الواجب حمل الدعوة إلى الناس كافة إلى المسلمين بتصحيح أحوالهم في شؤون دينهم ودنياهم، وإلى غيرهم بجذبهم إلى الإسلام وإقامة الحجة عليهم، لا فرق بين محارب وغير محارب؛ فكم من محارب

تحوّل إلى مُوالٍ ومدافع ومحارب عن الإسلام بعد أن كان محارباً ضده! والأمثلة على ذلك في عصر الرسالة أكثر من أن تحصى.

ولم يكن الرسول ﷺ يتخير بدعوته طائفة دون أخرى؛ إذ لم تكن مواقفُ الأعداء من محاربته، والصد عنه وعن دعوته، واختلاق الإفك في حقه، وتعمّد التشويه مانعةً له من دعوته لهم إلى دين الله عز وجل، وقد كان يقول: «**اللهم أعز الإسلام بأحد العُمرين**» ويقول: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون!**» كان يقول ذلك في أحلك الظروف، وفي ذروة البلاء والمحنة .

إلى جانب ما يجب مراعاته من النظر إلى حال الأمة اليوم من الضعف والشتات، والعجز عن المواجهة، وقلة الناصر والمعين، وعن كونهم لا يملكون إلا الكلمة إن تمكنوا من إعلائها والصدع بها. والدعاة اليوم ليسوا في حاجة إلى أن يُكثِروا على أنفسهم من الأعداء، وفتح الجبهات المتعددة التي لا قِبَلَ لهم بمواجهتها، كما أنهم لا يقدرون على الثبات في وجه العدو، ورحم الله امرأً عرف قدر نفسه!

سائلاً الله -عز وجل- أن يجمع الكلمة، وأن يؤلِّف بين القلوب، وأن يهب الجميع كمال الإخلاص لوجهه، وأن يكلل الأعمال بالنجاح والتوفيق!

والحمد لله رب العالمين.

خلاصة البحث

خلاصة ما تضمّنه البحث تنحصر في النقاط الآتية:

١- على كل جماعة أن تتحمل مسؤوليتها نحو دين الله عز وجل، وأن تدرك أنها لم تقم إلا من أجل أن تضطلع بواجبات جسيمة، وأن تسعى لتحيقيق أهداف مرسومة في خدمة دين الله عز وجل.

٢- ضرورة بناء علاقة متينة بين الجماعات بحيث تكون قائمة على الأخوّة الإيمانية، وعلى التعاون على البر والتقوى، وعلى حسن الظن، وأن تكون مواقفها في القضايا العامة قائمةً على التنسيق والتخطيط المحكم والمدروس بما يكفل تحقيق الأهداف المطلوبة.

٣- القيام بتوعية الأمة بشؤون دينها، وبذل الجهد في حملها على العودة الصادقة إلى دين الله سبحانه وتعالى، وجعلها في حالٍ تدرك معه خطر المؤامرات اليوم على الإسلام والمسلمين؛ حتى تتضافر جهود الأمة كلها في حماية الدين، والذود عن حياضه وعن ثوابت الأمة ومقدساتها، وصيانة الأجيال من الضياع والتيه، وإعادة النظر في بناء الفرد والأسرة، والتحذير من عوامل الهدم والفتنة .

٤- الاهتمام بمناصحة ولاة الأمور بالأساليب النافعة لتعريفهم بواجبهم نحو دين الله عز وجل، ونحوَ من ولاهم الله -عز وجل- أمرهم، وبيان العواقب الوخيمة المترتبة على شيوع الفساد والظلم وموالاة أعداء الله سبحانه، وعدم الاحتكام إلى شرع الله تعالى.. إلى غير ذلك مما يجب أن يكونوا على علم به.

٥- السعي الجاد إلى تحسين العلاقة بين الحكام والعلماء والدعاة إلى الله سبحانه؛ حتى يمكن استثمار الإمكانات المتوفرة عند الجميع في خدمة الإسلام؛ وحتى لا يُترك للأعداء وأصحاب المصالح المادية وذوي الأهواء مجالٌ لإفساد ذات البين وإحداث هُوَّة مفتعلة بين الحكام والدعاة قائمةً على سوء الظن.

٦- أن يكون لقضايا الساعة اهتمام خاص لمواجهة كل جديد فيما يتعلق بالإساءة إلى ديننا في أي شكل من أشكال الإساءة، وأن يتم التعامل مع كل حدث بما يتناسب معه لدفع كل باطل وافتراء وبهتان وبكل الوسائل المتاحة، مقرونةً بكشف ما عند الخصم اليوم من أباطيل وتُرّهات تتصادم مع العقل والفطرة، وما يصنعونه في حق غيرهم من استباحة كل شيء؛ في الوقت الذي يرفعون فيه شعارات جوفاء لا تمت إلى الواقع بصلة .

٧- بيان مواقف المسلمين على مدى التاريخ من أهل الكتاب المسالمين؛ من العدل والإنصاف وحسن التعامل وحماية من يعيش تحت كَنَفِهم والدفاع عنه.

٨- بيان مواقف أهل الكتاب من المسلمين عند تمكُّنهم من الأذى، بل من السيطرة على المسلمين. والتذكير بالمجازر الوحشية التي مارسوها في الحروب التي قامت بينهم وبين المسلمين، والتي أُطلق عليها اسم الحروب الصليبية، ومحاكم التفتيش في الأندلس وغير ذلك

٩- موقف القرآن المنصف من أهل الكتاب؛ فهو في الوقت الذي يكشف فيه عن انحرافاتهم على مدى التاريخ، ومواقفهم مع أنبيائهم ومع خاتم

النبيين -عليهم الصلاة والسلام جميعاً- لا يهمل جانب الإنصاف في الثناء على أهل الإيمان منهم.

١٠- الاهتمام البالغ ببيان مكانة الرسول ﷺ عند الله عز وجل، والواجب له على كل مسلم؛ إيماناً، ومتابعةً، وحباً، ودفاعاً عنه، واستمساكاً بسنته.

التوصيات

بناء على أن الحرب بين الإسلام وخصومه لا تقف عن حد، ولا يحدها زمن معين؛ إذ قضية الصراع بين الحق والباطل سنة قائمة إلى يوم الدين؛ فإنه لا ينبغي أن تكون هناك نظرة قاصرة في قضية المواجهة مع الباطل، أو آنيّة؛ لأن الأعداء لا يمكن أن يكفُّوا عن الكيد والمكر والأذى، وبذل الجهود المتنوعة لحرب الإسلام.

وعلى هذا فلا بد أن تنظر الجماعات الإسلامية إلى القضية نظرة بعيدة المدى، وأن تعمل لمستقبل طويل تسير على منهجه قوافل الدعاة في المستقبل، ومن هذا المنطلق أرى الآتي:

أولاً: أن يتم التشاور الجاد بين قيادات الجماعات الإسلامية فيما يتعلق بالتعاون والتنسيق فيما بينها ، سواءً في هذه القضية -ابنة الساعة- أو في غيرها من القضايا العامة والمصيرية؛ والتي تحتاج إلى تكاتف الجهود، والصدور فيها عن رأي موحَّد وجهود متكاتفة. على أن يبقى لكل جماعة خصوصياتها واهتماماتها في خدمة الإسلام وتحقيق الأهداف التي رسمتها لنفسها؛ ليحصل بذلك كله التكامل في الدعوة إلى الله عز وجل.

ثانياً: إنشاء دور علم في صورة كليات أو جامعات -إن أمكن- في عدد من الأقطار الإسلامية، تُعنى بتخريج الدعاة المؤهلين القادرين على القيام بهذه المهمة الجسيمة عن علم وبصيرة على سنن الهدى. على ألا يلتحق

بها إلا أفراد من أصحاب المواهب المتميزة والنادرة؛ والذين يحملون من الصفات ما تؤهلهم لتحمل هذه المسؤولية ذات الأهمية البالغة، بحيث تكون مهمتها قاصرة على حمل الدعوة إلى الله؛ خاصة فيما يتعلق بالتصدي لأباطيل الأعداء، وحماية الأمة وصيانتها من أي فكر وافد، أو طعون موجهة إلى الإسلام. ويمكن أن يتم وضع منهجها من قِبَل من لهم باعٌ واسع في هذا المجال. على أن يكون من أولويات هذا المنهج العناية بالكتاب والسنة، إلى جانب دراسة كل ما كتبه المستشرقون وكل ما يصدر عنهم من جديد، وعلى أن يتم تعلّم بعض اللغات الأجنبية الحية، بالإضافة إلى كل ما هو ضروري في هذا الصدد. ومن أهم ذلك ربط الإسلام بالواقع المعاصر، والعناية بكل المستجدات، والتأهيل الذي يجعل الداعية قادراً على مواجهة كل جديد.

ثالثاً: إنشاء مراكز دعوية في عدد من الأقطار الإسلامية أيضاً، مزودةً برجال العلم والدعوة ممن لهم خبرة وتجارب في مجال الدعوة إلى الله عز وجل، على أن تكون هذه المراكز مزودة بكل الوسائل المعاصرة الحديثة التي تعين على دقة الإنجاز وسرعته، وتمكّن من القدرة على سرعة الاتصال بالعالم من حولها، وتُدعم أيضاً بمجموعة من الشباب الغيور على دينه؛ ليكونوا عاملاً مساعداً لإنجاز الأعمال المنوطة بهؤلاء العلماء والدعاة، ويُفضَّل أن يكون فيهم من يجيد بعض اللغات الأجنبية، شريطة ألا يُشغَلَ أي من القائمين على هذه المراكز بشيء سوى قضية الدعوة إلى الله سبحانه

وتعالى، مع الأخذ في الاعتبار أهمية إنشاء مكتبة تتناسب مع هذه المهمة الجليلة مع مطبعة مستقلة بكل قُطْر.

رابعاً: وضع نظام داخلي لهذه المراكز، يُراعى فيه خصوصيات كل قُطْرٍ إسلامي في الأمور التي قد لا تكون محل اتفاق والتقاء وتوافق من حيث الوسائل والأساليب الدعوية، ويُقدَّم في كل مركز أهلُ بلده؛ فهم أهل الخصوصية في هذا المجال، وعلى أن تحظى الدعوة في صفوف المسلمين بحظ وافر؛ لإعادة الأمة إلى دينها، وحملها على النهوض بواجبها في الدفاع عنه.

خامساً: تشكيل مجلس أعلى من جميع الجماعات، يضع لنفسه نظاماً داخلياً، تكون من أولويات مهامِّه اللقاء الدوري للتشاور في كل جديد؛ سواء فيما قد يطرأ على بعض أفراد الجماعات مما قد تواجه في الساحة من عقبات، أو ما تتلقاه من صدأ أو إيذاء أو مطاردات أو نحوها؛ أو في كل جديد بالنسبة للتطاول على الإسلام، وما قد يحدث من مواقف معادية من الخصوم. وكذا التشاور في القضايا التي قد تحدث داخل الجماعات نفسها والتي قد تعيق العمل وتكدِّر صفوه، أو تسبب إضعاف العلاقة أو العمل في الساحة.

إضافة إلى أن الاستمرار في الاجتماع والتشاور يفوِّت على الأعداء الوقيعة بين الجماعات، كما يفوّت على الشيطان إحداث سوء الظن المؤدي إلى فساد ذات البين .

سادساً: يسبق كل ذلك مسح ميداني للطاقات المنثورة في العالم الإسلامي -وما أكثرها- وبخاصة داخل الجماعات، على ألا يقتصر القيام بهذه الأعباء على أبناء الجماعات الإسلامية فحسب؛ فربما يكون خارجها من هو أكثر قدرة، وأوفر علماً وفهماً ودراية ممن يُستغنى عنه. والمسؤولية مسؤولية الجميع؛ فخدمة الإسلام ليست قاصرة على فرد أو جماعة، وليس لأحد وصاية على هذا الدين.

سابعاً: لا بد من العناية بدراسة أحوال المسلمين في كل قُطْر، وتحديد مكامن الانحراف والضعف عند كل قُطْر؛ إذ إن وصف الدواء متوقف على تشخيص الداء، مع العناية بالتعرف على جهود العلمانيين، الذين عملوا ويعملون على إقصاء الدين عن كل مناحي الحياة، وتحجيم دور الدعاة إلى الله سبحانه.

ثامناً: تشكيل وفد أو وفود من العلماء لزيارة الحكام، وإطلاعهم على توجه الجماعات في إصلاح الأوضاع، وتربية الأمة، وحماية الدين والقيام بالدعوة إلى الله عز وجل، بما لا يخرج عن منهج الكتاب والسنة، والتصدي لتطاول الأعداء.. إلخ. وطلب إفساح المجال للدعاة للقيام بمهمتهم، والدعم المادي والمعنوي لإنجاح هذه المهام التي تساعد على استقرار الأوضاع؛ وتفوِّت على الأعداء مطامعهم، وتقلل من مظاهر الجريمة في المجتمعات وتخفف على الحكومات عناء ملاحقة ومطاردة المجرمين والمنحرفين، مع العناية بتربية الشباب؛ حتى يكونوا أداة صالحة لخدمة دينهم وأمتهم

تاسعاً: فتح باب الحوار مع الخصوم لإقامة الحجة عليهم، وللتعريف بالإسلام بالطريقة المنصفة التي تظهر حقيقته، وتفنِّد الأباطيل الملصقة به زوراً وبهتاناً، وتكشف للعالم المحجوب عن المعرفة الصحيحة للإسلام حقيقة ما يقوم به الموتورون من إخفاء الصورة المشرقة للإسلام؛ بقصد الصد عن دين الله؛ وغرس العداوة والبغضاء نحو الإسلام وأهله؛ وإيجاد نوع من التوتر والنفور عن الإسلام.

عاشراً: السعي الجاد لمحاولة إصلاح المناهج التعليمية في المدارس والجامعات، وتنقيتها من كل ما يمس العقيدة أو الأخلاق أو التاريخ أو غيرها، بما يضمن تخريج أجيال ذات معرفة صحيحة لدينها، غيورةً عليه، حاملةً للواء الدعوة إلى الله عز وجل، مساعدةً على رفع المعاناة عن أمتها.

حادي عشر: تبنّي طبع ونشر الرسائل العلمية (الدكتوراه والماجستير) ذات الطابع الذي يساعد على إنجاح مهام الجماعات في توجهها. ويمكن القيام باختصار بعضها لتحقيق المطلوب في أيسر وقت، مع تمكين المهتمين من سرعة الاطلاع وفهم المراد منها. وهذه ستعالج كثيراً من قضايا الساعة.

ثاني عشر: توجيه الدارسين في الدراسات العليا بالكتابة في القضايا المعاصرة لمعالجتها من خلال رسائلهم العلمية؛ فإن ذلك يوفر جهداً ووقتاً كبيرين للعاملين في حقل الدعوة إلى الله سبحانه؛ حتى لا تظل الدراسات العليا محصورة في قضايا وموضوعات قد ماتت وانتهت، بعيدة عن واقع الأمة ومعاناتها.

ثالث عشر: توفير الإمكانات المادية لمواجهة الاحتياجات، ويُستنفَر لذلك مَنْ منحهم الله -عز وجل- بسطة في المال، بحيث لا يتم الإقدام على العمل إلا بعد ضمان الاكتفاء الذاتي لسدِّ احتياجات العمل، مع محاولة الاستثمار لما أمكن مما يجمع لهذا العمل؛ كي لا يظل العمل عالةً على الآخرين، مما قد يعرضه للتعثر والذبول.

رابع عشر: لا بد من إقامة مؤتمر شبيه بهذا بين كل فترة وأخرى، لدراسة سَيْرِ الأعمال، ومدى الإنجازات التي تم تحقيقها، ومعرفة العقبات التي تعترض الطريق، والاطلاع على الجوانب الإيجابية والسلبية، وتدارس إمكانية التغلب على الصعوبات، إلى غير ذلك مما يستوجب إقامة مثل هذا اللقاء.

وثائق المؤتمر

أولاً: البيان الختامي لمؤتمر حرمات الإسلام

ثانياً: دعوة للمراجعة

رسالة موجهة إلى قادة الفكر والرأي في الغرب

أولاً : البيان الختامي

لمؤتمر تعظيم حرمات الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين، وسيد البشر أجمعين، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، وبعد:

انتهت بحمد الله في يوم الأربعاء الخامس من شهر الله المحرم لعام ١٤٢٨هـ الموافق للرابع والعشرين من شهر يناير لعام ٢٠٠٧م، فعاليات مؤتمر (تعظيم حرمات الإسلام) المنعقد في الكويت بتنظيم مجلة البيان ومبرة الأعمال الخيرية. حضر المؤتمر جمع من علماء الأمة ودعاتها ومثقفيها، لتداول الآراء حول ظاهرة التطاول على حرمات الإسلام، والبحث عن أسبابها ودوافعها، واقتراح سبل مواجهتها والحد من آثارها. وبهذه المناسبة يتقدم منظمو المؤتمر بالشكر والتقدير لوزارة الأوقاف الكويتية لرعايتها للمؤتمر، ومساندتها لفعالياته، وكذلك نشكر العلماء والدعاة وجمهور المشاركين ممن استجابوا للدعوة إلى هذا المؤتمر، وشاركوا في جلساته.

تناول المؤتمر بالبحث والتمحيص مظاهر الاستهانة بدين الإسلام ورموزه وحرماته من بعض الجهات التي لا تدين بالإسلام وتعاديه، أو تنتسب إليه لكن لا تعظم شعائره، ورأى المشاركون أن ردود أفعال العالم الإسلامي تجاه تلك التصرفات -رغم ما شاب القليل من تلك الردود من العواطف غير المنضبطة بضوابط الشرع- إلا أن مجمل مواقف أبناء الأمة وعلمائها تثبت في كل مرة أنها أمة لا تزال حية الوجدان، يقظة البصيرة أمام ما يحاك ضد دينها وقرآنها ورسولها وشريعتها؛ وإن كانت الظروف

والملابسات وتطور الأحداث لا تسمح لها في كل الأحوال أن تحوِّل احتجاجاتها العارضة إلى سياسة عامة مستمرة ذات تأثير قويٍّ في رد التعدي ومجابهة التحدي.

إن المؤتمر يثمن في هذا السياق الجهود التي تقوم بها المؤسسات الإسلامية في الدفاع عن حرمات الأمة، مثل جهود (اللجنة العالمية لنصرة خاتم البرية ﷺ)، و (البرنامج العالمي للتعريف بنبي الرحمة ﷺ)، ومنظمة النصرة العالمية، وغيرها من المنظمات والمجلات والقنوات الفضائية والمواقع الإلكترونية والمبادرات الشخصية، وهي أكثر من أن تحصى.

ورغم أهمية العديد من المؤتمرات التي عقدت لبحث الإساءات المتكررة، والبيانات التي صدرت في التنديد بالإساءات والمظاهرات التي خرجت للتعبير عن المشاعر، غير أن الأمر لا يزال في حاجة إلى آليات أكثر تأثيراً وأوسع بلاغاً، ولهذا فإن حضور المؤتمر يرون ويوصون بما يلي:

أولاً: حق الأمة الإسلامية في الدفاع عن دينها وحرماتها: يدعم المؤتمر حق جموع الأمة في الدفاع عن عقيدتها وشريعتها بكل السبل المشروعة سياسياً واقتصادياً وثقافياً، ويدعو إلى استثمار عاطفة الجماهير وتوجيهها نحو الوسائل الأرشد، ويحث المسؤولين على التكاتف مع الشعوب الإسلامية في حماية هويتها وحرماتها وقيمها من حالات التجاوز والتطاول على الثوابت داخل ديار المسلمين، والتي تعد إحدى أسباب زيادة جرأة بعض غير المسلمين على حرمات الأمة ورموزها.

ثانياً: التعدي على الحرمات نقطة فاصلة في علاقة الأمة بغيرها: يؤكد المؤتمر أن الاعتداء على الثوابت والشعائر، سواء أكان ذلك من الداخل أم من الخارج، يعتبر اعتداءً على جميع الأمة تجب الحيلولة دونه. كما أن القيام بهذه الواجبات ينبغي أن يكون فرصة للاجتماع والائتلاف على القواسم المشتركة بين الإسلاميين على اختلاف بلدانهم وتوجهاتهم.

ثالثاً: الاعتداء على الإنسان المسلم اعتداء على جموع الأمة: يؤكد المؤتمرون على أن حرمة الإنسان في الإسلام هي من أعظم الحرمات، ولهذا فإن الاعتداء على أرواح وأعراض وأموال المسلمين هو انتهاك لحرمات الشريعة وحدودها، (والمسلمون يسعى بذمتهم أدناهم)، لذا يطالبون لأجل ذلك بالكف عن الاستهانة بالدم المسلم من المعتدين ومن يساندونهم.

رابعاً: التحرك العملي البناء لحماية حرمات الأمة: مع ما يركز عليه المؤتمر من التأكيد على رفض كل أنواع الإعتداء تجاه عقيدة المسلمين وشريعتهم، فإنه يوصي بتحويل ذلك الرفض النظري إلى تحرك عملي جاد ومستمر على المستويات الرسمية والشعبية، لإظهار أن الأمة الإسلامية لا تقبل المساس بمقدساتها وحرماتها. كما يرى المؤتمر أن تفعيل جهود المقاطعة الدبلوماسية والاقتصادية والثقافية للجهات المصرة على مواقفها العدائية هو أحد السبل الناجعة في العلاج.

خامساً: أهمية تضافر الجهود الإعلامية والفكرية والثقافية للتأكيد على مكانة الأنبياء: ينظر المؤتمرون بقلق بالغ لظاهرة انتشار الاستهزاء

بأنبياء الله -صلوات الله عليهم- في وسائل الإعلام الغربية تحديداً، ومن خلال العديد من المواقع الإلكترونية الغربية، ومن خلال الكثير من الأعمال الفكرية والفنية والثقافية في الحياة الغربية المعاصرة. وصَاحَبَ ذلك تزايد الظاهرة نفسها في بعض المنتديات الفكرية العربية ومن خلال عدد من وسائل الإعلام العربية أيضاً. لذا يوصي المؤتمر أن تتضافر الجهود من أجل الحفاظ على منزلة ومكانة الأنبياء، ولِسَنِّ الأنظمة الدولية التي ترعى حرمتهم وتصونها من العبث الفكري والإعلامي والثقافي، وأن تكون الأمة الإسلامية في طليعة المطالبين بذلك.

سادساً: إنشاء ودعم مراكز الدراسات المتخصصة في دراسات الاستشراق والغرب: يرى المؤتمر أن الأمة الإسلامية تعاني من ندرة المراكز الفكرية المتخصصة في التعرف على الفكر الغربي، القادرة على التصدي للمواقف الفكرية والإعلامية والثقافية الغربية التي تنال من حرمات الأمة، أو تعتدي على شعائرها ورموزها. لذا يوصي المؤتمر أن تعنى الأمة في المرحلة القادمة بإنشاء العديد من المراكز الفكرية والإعلامية المتخصصة في فهم الغرب، وفي توجيه دفة التعامل مع الفكر الغربي ومع المواقف الإعلامية الغربية التي تؤثر على الأمة الإسلامية سلباً أو إيجاباً. كما يرى المؤتمر أهمية إيجاد فريق عمل فكري يوصف أفراده بالعلم الشرعي والاطلاع الفكري على الغرب وامتداداته في بلاد المسلمين لإدارة هذه المواجهة الفكرية بكفاءة.

سابعاً: إصدار دراسات متخصصة في استراتيجيات الأمة في تحجيم الإساءات الموجهة ضد دينها وحرماتها: إن قسماً كبيراً من أسباب قلة

تأثير مواقفنا المعارضة لتلك التصرفات المعادية، يعود إلى نوع من القصور يشوب فهم دوافع المعتدين والمتجرئين على ديننا وثوابتنا، وهو ما يؤدي إلى بعض التضارب والتناقض في المواقف. لذا يوصي المؤتمر باعتبار ما طرح في فعالياته من أفكار ورؤىً وتصورات منطلقاً لمزيد من التعمق في دراسة تلك الظاهرة ودوافعها وأبعادها، على أن تتحول فيما بعد إلى دراسات شاملة تكشف جوانب الموضوع، وتطرح استراتيجيات التعامل معه.

ثامناً: أهمية تفاعل الحكومات والمؤسسات الرسمية مع بقية الأمة: يطالب المؤتمر الحكومات العربية والإسلامية، والهيئات والفعاليات السياسية والدبلوماسية، اتخاذ مواقف أصح وأصرح للتعبير عن دين الأمة وهويتها؛ إذ لا يعقل أن تكون كثير من ردود الأفعال الرسمية تجاه التدخل في تفاصيل الشؤون الداخلية أهمَّ وأكبرَ من اقتحام واستباحة حرمات الأمة كلها من أطراف خارجية أو داخلية. والمؤتمر يعُدُّ عدم التفاعل الرسمي من البعض في مواجهة تكرار هذه الإساءات لأمتنا نوعاً من الإخلال بأمانة المسؤولية وتكاليف النيابة عن الأمة.

تاسعاً: ضرورة تأكيد مناهج الدراسة في العالم الإسلامي على تعظيم الحرمات، واحترام الأنبياء، والاقتداء بالصحابة رضوان الله عليهم أجمعين: يتقدم المؤتمر بدعوة إلى وزارات التربية والتعليم في العالم الإسلامي، وإلى القائمين على مسيرة تطوير مناهج التعليم في الأمة الإسلامية للتأكيد على تعظيم الشعائر والأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- والصحابة -رضي الله

تعالى عنهم- من خلال البرامج التعليمية التي تربي الأجيال الناشئة من الأمة على تعظيم حرمات الإسلام.

عاشراً: دعوة وسائل الإعلام في الدول العربية والإسلامية إلى تعظيم حرمات الإسلام والمسلمين، وعدم استفزاز عموم الأمة بالتطاول على الثوابت: ينكر المؤتمر على بعض وسائل الإعلام في الدول العربية والإسلامية انسياقها مع الحملات المغرضة في التهجم على حرمات الإسلام وشعائره ورموزه، ويوصي بالمواجهة الرسمية والشعبية الحاسمة لهذه الحملات، ومنع استمرارها بالطرق الشرعية الممكنة. كما يوصي المؤتمر القائمين على وسائل الإعلام العربي والإسلامي أن يكونوا درعاً للأمة في صد الحملات الخارجية، وأن لا يتحول البعض منهم إلى سلاح ضد الأمة بدلاً من أن يكون سلاحاً لها، ويشكر المؤتمر الأخوة التجار الذين تفاعلوا مع جلسات المؤتمر وتكفلوا بإنشاء قناة فضائية خاصة بتعظيم حرمات الإسلام.

حادي عشر: إنشاء لجنة إسلامية قانونية للدفاع عن الحرمات الإسلامية: يوصي المؤتمر بتكوين لجنة قانونية متخصصة تسعى إلى ضمان عدم التعدي على الحرمات الإسلامية، وتجريم الإساءة إلى ثوابت الدين، والملاحقة القضائية والقانونية للمتجاوزين من غير المسلمين أو من المتسبين إلى الإسلام، وتحميلهم المسؤولية الشرعية، والتنسيق مع اللجان الأهلية والحكومية العاملة في المجال نفسه من أجل توحيد الجهود وتعزيزها. وقد بادر بعض

القانونيين في كلية الحقوق في الكويت بتقديم مشروع متكامل في هذا الصدد.

ثاني عشر: **التركيز على الجهود الدعوية الرامية إلى تعريف الغربيين بالإسلام**: يؤكد المؤتمر على أهمية الجهود الدعوية في الدفاع عن حرمات الأمة عن طريق تعريف الغربيين بالإسلام من خلال البرامج الإعلامية والفكرية الموجهة، والقنوات الفضائية المتخصصة في مخاطبة الغرب، والتركيز على مخاطبتهم بالأساليب الدعوية المناسبة للشخصية الغربية.

ثالث عشر: **أهمية دور الجاليات الإسلامية في الغرب**: يوصي المؤتمر بالاستفادة من الجاليات المسلمة في الغرب كخط دفاع أول في مواجهة ظاهرة التطاول، كما يدعو المؤتمر إلى دعم الجاليات والتواصل معها والحرص على وحدة كلمتها وتنسيق جهودها، ودعوتها إلى التركيز على نشر الإسلام بصورته المشرقة.

رابع عشر: **الاهتمام بجوانب الآداب والفنون لمواجهة ظاهرة التطاول على حرمات الإسلام**: يرى المؤتمر أن ظاهرة التطاول على الإسلام وحرماته قد استغلت بعض مجالات الآداب والفنون، وأن التصدي لها يقتضي تشجيع العاملين في المجالات الأدبية والفنية في العالم الإسلامي لتوظيف تلك المجالات واستخدمها في الدفاع عن الإسلام وتعظيم حرماته وشعائره.

خامس عشر: مطالبة المنصفين من عقلاء الغرب بالإعلان عن مواقفهم: يطالب المؤتمر قادة الرأي وصناع القرار في الغرب بتحري الموضوعية والإنصاف فيما يتعلق بقضايا العالم الإسلامي الحضارية، ويرى المؤتمر أن تخلُّف العقلاء من قادة الفكر والرأي في الغرب عن ذلك قد يعد تأييداً لمواقف المعتدين. وقد تم تشكيل لجنة من بعض حضور المؤتمر لإعداد رسالتين: الأولى: موجهة إلى قادة الغرب ومفكريه، أعدت مسودتها الأولى بعنوان:(موقفنا من تجاوزاتكم)، ولا زالت في مرحلة الصياغة، والثانية: موجهة إلى بابا الفاتيكان لرد افتراءاته الأخيرة.

سادس عشر: أهمية عقد ورش عمل حول التوصيات، وتحويل نتائج المؤتمر إلى خطط وبرامج عملية: يوصي المؤتمر بالتنسيق والتكامل بين المؤسسات الإسـلامية العاملة في هذا الشأن، ويعتزم منظمو المؤتمر -بإذن الله- عقد ورش عمل لتحويل التوصيات الخاصة بالمؤتمر إلى برامج عملية تساهم في الحد من هذه الظاهرة، وتتكامل مع قرارات وتوصيات المؤتمرات الإسلامية السابقة.

سابع عشر: تكوين لجنة خاصة لمتابعة توصيات المؤتمر من اللجان المنظمة.

ختاماً: يحث المؤتمر العلماء والمصلحين على تربية أبناء الأمة على التفاؤل والإيجابية، والاعتزاز بالهوية، وتعظيم النصوص الشرعية والوقوف عند حدودها.

ونسأل الله -عز وجل- أن يعز دينه وينصر أولياءه، ويبارك في هذا الجمع المبارك.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

ثانياً: دعوة للمراجعة

رسالة موجهة إلى قادة الفكر والرأي في الغرب(*)

(*) ترجمت هذه الرسالة إلى اثنتي عشرة لغة، ولمزيد من المعلومات الدخول إلى موقع الرسالة على الشبكة العنكبوتية:
http://www.alettertothewest.com/ar

مُقَدِّمَة

باسم الله الإله الواحد، الذي لا إله إلا هو، ولا معبود بحق سواه، رب الأنبياء: إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد خاتم النبيين (صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً)، كتبت هذه الرسالة من قبل لفيف من العلماء والمثقفين المسلمين، اجتمعوا لبحث تطور العلاقة مع الغرب، والأسلوب الأمثل والأعقل للتعامل مع تنامي ظاهرة التعدي على حرمات الإسلام ومقدسات المسلمين، من قبل أشخاص ومؤسسات وهيئات رسمية ودينية وإعلامية في الغرب. ونحن الموقعين نوجه هذه الرسالة إلى المفكرين والمثقفين وصناع القرار في الغرب، وإلى الزعامات الدينية والشعبية، بشأن تلك الظاهرة، ولهم نقول:

عندما يكثر ويتكرر التعدي على رموز وحرمات أمة ما من قبل جماعات من أمم أخرى، فلا بد أن تنشأ ردود أفعال، وترد العديد من الأسئلة حول أسباب هذا التعدي والظروف التي تسهم في استمراره، غير أن الخيار الأنسب لمصلحة البشرية جمعاء هو أن يتوقف الظلم والعدوان؛ فليس هناك أمة على وجه الأرض تعاني الآن من الاحتلال والقهر والظلم من بعض القوى الغربية قدْرَ ما تعانيه الأمة الإسلامية، وليست هناك شعوب أو أمم في عالم اليوم تعاني من الاستهزاء والاستهانة بحُرُماتها ودينها قدر ما تعاني منه هذه الأمة؛ حتى أصبحت هذه الظاهرة تمثل تحدياً وتعدياً غير مقبول على أمة ذات رسالة سماوية وتاريخ عريق وحضارة أصيلة يمثل أهلها اليوم أكثر من ربع سكان العالم. من أجل

ذلك رأينا أن نلفت الأنظار إلى موقفنا من تلك الظاهرة، حتى يُتدارَك الخطأ ويُصحَّح المسار.

علاقاتنا الحالية:

ندرك أن الموقف الغربي بالعموم منذ أول احتكاك له بالإسلام لم يكن موقفاً إيجابياً لاعتبارات متعددة، من أهمها: أن الأوروبيين لم يتعاملوا مع الإسلام بصفة مباشرة، وظل عامل التوجس والخوف ملازماً لهم، وتحوَّل الأوربيون المشتّتون لصناعة تكتل ديني نصراني ضد الإسلام، ومن ثم تحول الإسلام في ذلك الوقت إلى عدو خارجي يمكن أن يجمع أوروبا بعد أن كانت شتاتاً يقتل بعضهم بعضاً. نحن على يقين أن التعميمات تؤدي إلى الكثير من الأخطاء في الحكم، وندرك أيضاً أن أوروبا وأمريكا قد حاولتا خلال القرون الماضية التخلص من بعض ما شاب الحضارة الغربية من عيوب ونقائص في مجال التعامل مع المخالفين، لكن السنوات الأخيرة نسفت تلك المحاولات، ولهذا نؤكد أننا نعني بالغرب هنا عموم المجتمع الغربي، وليس فقط القوى المعادية للإسلام، ونخاطب في رسالتنا المنصفين أيضاً، وندرك أن الغرب ليس كله سواء.

من صور التعدي:

إننا ننبه قادة الفكر والرأي في الغرب إلى خطورة هذه الظاهرة المتزايدة والمتعددة؛ فلا يعقل ولا يقبل أن نشهد في أقل من ثلاثة أعوام حملات تعدٍّ على حرماتنا، تبدأ من التعدي على كتاب ربنا المعظم

(القرآن الكريم) بتأليف ونشر وتوزيع كتاب بديل يسخر فيه من ديننا؛ عقيدةً وشريعةً وأخلاقاً وتاريخاً. ثم تبدأ بعد ذلك حملة مغرضة ومسفة، ضد شخص نبينا المصطفى ﷺ تنعته بأبشع الصفات، وتصوره رسماً بأكثر الرسومات سخرية واستهزاءً؛ حيث بدأ ذلك من خلال صحف بالدانمارك، ليتكرر في بلدان أوروبية عديدة، إما بالمشاركة أو بالتأييد. ثم تطور الأمر إلى وضع أسوأ بكثير، عندما وصف بابا الفاتيكان الإسلام والقرآن والنـبي محمداً ﷺ في خطاب علني بصفات أقل ما يقال فيها: إنها جائرة.

لم تغفل الأمة الإسلامية أيضاً عن متابعة صور الاستفزاز المتكرر بإهانة القرآن الكريم على أيدي الجنود الأمريكيين في معسكرات الاعتقال في (أبو غريب) بالعراق و(جوانتنامو) في كوبا؛ حيث اقترنت إهانة الإنسان مع إهانة القرآن. وبمزيد من الدهشة والتعجب يراقب المسلمون حملة التعدي على الحريات الشخصية للمسلمين المواطنين منهم والمقيمين في كبرى عواصم البلدان الغربية. كما لا ننسى التذكير بالاعتداءات على المساجد التي تتكرر في العراق وأفغانستان الواقعتين تحت الاحتلال، بالنسف المباشر أحياناً، وبالاقتحام بحجة البحث عن مسلحين وقتلهم وقتل الناس داخلها أحياناً أخرى.

وهناك نظرة من الكراهية تظهر بشكل متكرر من خلال أقوال الكثير من القادة والسياسيين، ومن خلال كتابات بعض المفكرين، وكذلك من خلال بعض المنتجات الإعلامية المتعددة من أفلام ومسلسلات وقصص درجت على وصم الإسلام والمسلمين بالنقائص والعنف والإرهاب.

إن سكوت أغلبية قادة الفكر والرأي عن استنكار تكرار هذه الظواهر في بلادكم يجعلنا في حيرة من اختيار الخندق الذي نضعكم فيه: هل هو خندق الحريات وحقوق الإنسان واحترام الآخرين، أم خندق كبت حرياتهم ومصادرة هوياتهم؟ إننا نتساءل: هل أنتم مع التطاول وازدراء الأنبياء باسم حرية الرأي، أم مع الحرية ضد ظاهرة المصادرة؟

الهجوم على نبي الإسلام (عليه الصلاة والسلام):

رغم أن بعض الحضارات حاربت المسلمين، غير أنّ معظم تلك الحضارات لم تحتفظ بتراث من الكراهية تجاه نبي الإسلام مثلما احتفظت به دويلات أوروبا وكنائسها. إن العداء النصراني للإسلام ولنبي الإسلام خارج أوروبا الغربية لم يتحول إلى كراهية تاريخية يجري الاحتفاء بها وتأكيدها في المناسبات الدينية وعلى حوائط الكنائس والأديرة كما حدث في أوروبا الغربية، وهي ظاهرة تستحق التوقف عندها، ووضع السبل الكفيلة بالحد من آثارها.

إننا نسأل هنا: لماذا يسعى البعض في الغرب إلى هدم كل القدوات التاريخية والمعاصرة؟ إن الذي يعيش بلا قدوة.. هو بلا مستقبل. وأمة بلا تاريخ هي بناء بلا أساس؛ فهل على هذا الأساس تتركز الإساءة إلى نبينا؟ إننا على يقين أن التيار المادي الانحلالي في الغرب يريد للبشرية بوجه عام وللمسلمين بوجه خاص التخلص من النماذج الإنسانية المضيئة، وليس الهجوم على أخيار الأمة من الأنبياء وأتباعهم إلا حلقة في مسلسل التخلص من القدوات التاريخية. سيظهر في مقابل ذلك

حرص الأمة الإسلامية على عدم التنازل مطلقاً عن الدفاع عن نبيها وعن سائر النبيين؛ فهذه نقطة فاصلة لا نسمح بتجاوزها مهما كانت المسوِّغات المتعلقة بما يسمى بحرية الفكر والرأي. إن العالم الإسلامي لا يمكن أن يتقبل رغماً عنه نتائج الحرية الفكرية في الغرب، كما أن الغرب لا يجب أن يتحمل نتائج بعض الحريات الإنسانية الأخرى في الشرق. إننا ندعو إلى وقفة جادة من المفكرين الغربيين للتعامل مع هذه الظاهرة، ونحن نتوقع من المفكر الغربي أن يكون حريصاً على مكتسبات حضارة الغرب، وليس عن حق الغرب - فيما يزعم البعض- في سباب الآخرين والاستهزاء بهم وبخاصة الأنبياء.

الاعتداء على المسجد الأقصى (مسجد كل الأنبياء):

إن من التعدي على حرمات ومقدسات الأمة الإسلامية احتلال المسجد الأقصى وتكرار الاعتداءات عليه، والتي تجري بمساندة أو سكوت معظم الحكومات الغربية وتأييد بعض التيارات الدينية الغربية، لقد لفت نظرنا أن الفيتو الأمريكي أصبح لا يستخدم غالباً في أروقة الأمم المتحدة إلا للدفاع عن الاعتداءات الصهيونية المتكررة على أرض فلسطين المحتلة وإلا لحماية السيطرة اليهودية على المسجد الأقصى الذي لن تتنازل عنه الأمة الإسلامية مطلقاً. ونكرر تساؤلنا لقادة الفكر والرأي في الغرب: أين مواقفكم في مواجهة الظلم الحاصل على مقدسات المسلمين في فلسطين، وعلى الشعب الفلسطيني الذي يحرم من أبسط حقوقه؟

نحن نراقب التناقض الصارخ بين دعوة الغرب للمسلمين بتبني النموذج الغربي للديمقراطية، بينما تحارب الحكومات الغربية نفسُها ما أسفرت عنه الانتخابات المعبرة عن اختيار الفلسطينيين لحكومتهم. إن سكوت المفكرين والمثقفين الغربيين عن التجاوزات بحق الإنسانية والمقدسات في فلسطين يمثل وصمة عار على جبين دعاة الحرية والديمقراطية في العالم أجمع. ولهذا ندعوكم إلى إزالة هذه الوصمة بالانضمام إلى الكثير من المنصفين من مفكري العالم ومثقفيه ممن يدافعون عن حقوق الأمم والشعوب في استعادة مقدساتها وأراضيها المحتلة، واستعادة حقها في اختيار من يمثلها ويدير شؤونها السياسية والاجتماعية، وحقوقها في الكرامة الإنسانية ومقاومة الظلم والاحتلال والتصدي للقهر والإذلال بكل الوسائل المشروعة.

الاستهزاء بالحجاب الإسلامي:

إن الحرية الشخصية مكفولة في الديمقراطيات الغربية، كما ينادي الغرب في أدبياته الفكرية والاجتماعية، ومن ثم فإن من حق المرأة -ديمقراطياً- ألا تمنع من حريتها الشخصية في أن تلبس ما تشاء مما لا يخالف القواعد الأخلاقية أو القيم العامة للمجتمعات. لكن العالم الإسلامي فوجئ بتزايد حملة الهجوم والاستهزاء بالحجاب الإسلامي في الغرب، وهو ما يناقض المبادئ الديمقراطية التي يجري الترويج لها في العالم الإسلامي. ولم تتحرك جمعيات الحركة النسوية العالمية للدفاع عن حقوق المرأة المسلمة؛ فهل حرية العري مقبولة ويدافع عنها، وحرية الاحتشام تحارب وتتهم؟!

إن حقوق الإنسان في الغرب تكفل حق الحفاظ على الهوية، بل وحمايتها وليس الهجوم عليها؛ فكيف يقبل الغرب أن يهاجم حق مواطنيه من المسلمين في اختيار ما يناسبهم من الملبس؟ وأين الغرب من إرثه الفكري والديني والاجتماعي؟ فقد كانت المرأة الغربية المتحلية بالأخلاق - ولا زالت - تلبس الملابس المحتشمة التي تقترب كثيراً من الحجاب الإسلامي، كما في حال الراهبات ونساء الريف؛ فهل إذا تخلى الغرب عن هذا التاريخ، يعني أن على دول العالم أن تحذو حذوه؟ إننا نرفض أن تحارب الفضيلة في عالم اليوم، ولا نرى أن هذا يجب أن يكون ثمناً أو نتاجاً للتمدن والتطور؟ فهل المشكلة أن الحجاب قد أصبح رمزاً للفضيلة التي تحارَب في عالم الغرب اليوم؟

إن القوانين والتشريعات المقيدة لحق المرأة المسلمة في ارتداء الحجاب الإسلامي -كما نشهد الآن- يُسَن في عدد من دول أوروبا بهدف قمع حرية الفكر والملبس للمرأة المسلمة في الغرب؛ فهل هذا بسبب العداء للإسلام الذي تظهره التطورات الأخيرة المتلاحقة لدى البعض، أم بسبب العداء للفضيلة من أنصار التيارات التحررية، أم لإرضاء أمزجة وأهواء دعاة الانحلال الخلقي والاجتماعي؟ أسئلة نرى أن على قادة الفكر والرأي في الغرب أن يواجهوا تساؤلات العالم الإسلامي بشأنها، وأن يواجهوا أيضاً ما تشير إليه هذه الظاهرة من ازدواجية في معايير الحياة الفكرية في الغرب.

حرب الأفكار:

لقد وُصِم الإسلام بالعديد من الاتهامات في الأعوام الأخيرة على يد نخبة من المفكرين والشخصيات الدينية والسياسية في الغرب؛ وقد تراوحت هذه الاتهامات بين ادعاء أن الإسلام لم ينتشر إلا بالإكراه بالسيف، وأنه لا مكان للعقل في الفكر الإسلامي، وأنه دين الإرهاب والتخلف..، ونحو ذلك من الاتهامات الباطلة. وليس هدف هذه الرسالة أن تقدم تفصيلاً لدحض هذه الاتهامات، ولكننا فقط نشير إلى أنها اتهامات تتنافى مع منطق البحث العلمي والجدال العقلي، وتتماشى مع منظومة (حرب الأفكار) التي دعت إليها بعض المؤسسات المتنفذة في أمريكا بغرض تغيير الإسلام.

نقر أن الإسلام انتشر من خلال الجهاد في سبيل الله ومن خلال الدعوة السلمية أيضاً؛ فجميع الحضارات احتاجت دائماً إلى القوة للدفاع عن مكتسباتها ومبادئها، ويشهد على ذلك أن منطق الحرب العادلة (Just war) هو ما استقرت عليه الكنيسة الأوربية، وكذلك التيار العلماني الغربي من أجل حماية المكتسبات الحضارية الغربية.. فلِمَ الإنكار على الإسلام؟ وأنتم تقرؤون التاريخ وتعلمون أن إندونيسيا وماليزيا والفلبين وغيرها من بلاد آسيا وإفريقيا، لم تصلها جيوش عسكرية؛ فكيف دخل ملايين البشر هؤلاء في الإسلام؟! بل إن السؤال الذي يفرض نفسه في عالم اليوم هو: لماذا يستمر الإسلام في الانتشار في مختلف أنحاء العالم عموماً وفي الغرب بشكل خاص، رغم عدم استخدام أي قوة؛ بل بتأثيره الذاتي، وتجاوب الفطرة معه؟

أما الحديث عن دور العقل في حضارة الإسلام والحضارات الأخرى؛ فلا بد أن نمهد له بأن نقول: إن المؤرخين يُجمِعون على أن تاريخ الغرب حافل بإهدار العقل أو عبادته، أي الانتقال من نقيض إلى نقيض آخر، في الوقت الذي عرف فيه العالم الإسلامي بالاعتدال في استخدام العقل، وتوظيفه بالشكل الصحيح لخدمة الإنسان والبشرية. ونتساءل: لماذا يحاول بعض رموز التيار الديني في الغرب الهجوم على دور العقل في الإسلام؟ هل هذا لإخفاء النقص عندهم، أم للتقرب من التيار العلماني في مواجهة الإسلام؟

إننا ندعو رجال الكنيسة خصوصاً إلى مراجعة معتقداتهم مراجعة عقلية وعلى رأسها عقيدة الألوهية، وعندها سيدركون حجم التناقضات العقلية المذهلة فيها. وربما كان تسلط رجال الكنيسة وعداؤهم للعلم والعقل سبباً رئيساً للثورة عليهم، ودافعاً لموجة الإلحاد المادية التي اجتاحت بلادهم.

أما ما شاع في الغرب من اتهام للأمة الإسلامية وللدين الإسلامي بما اصطلح الغرب على تسميته بـ (الإرهاب)، فهي تهمة ظالمة لا أساس لها في تاريخ وواقع هذه الأمة التي عُرِفت أنها أمة الرحمة والإحسان. نحن نطلب من قادة الفكر والرأي في الغرب أن يبادروا بالتحرر من عقدة الحَيْف القديمة الموروثة من الحروب التي سماها الغرب نفسه (صليبية) والتي كانت تعد حرباً إرهابية بامتياز. أما من يتهمنا اليوم بالإرهاب فهو ذاته الذي تسبب بالأمس واليوم في معظم فظائع وكوارث القتل والحروب والتي حصدت عشرات الملايين من البشر في

عالمنا المعاصر، وبخاصة في الحربين العالميتين اللتين لا دخل للمسلمين في إشعالهما.

إن المفكرين في العالم الإسلامي يلاحظون التحول من بعض المعادين في الغرب من الهجوم على المسلمين إلى الهجوم على الإسلام نفسه، ومن السعي إلى تغيير المسلمين.. إلى السعي لتغيير الإسلام. ونقول لهم: ليس الإسلام بحاجة إلى بروتستانتية تحريفية معاصرة؛ لأن الإسلام عُرِف أنه دين التجديد، وهو ينتشر دون الحاجة لأن يتغير.. فلماذا تطالبون بتغييره؟ لقد بلغ الغرور ببعض المفكرين وصناع القرار في الغرب -ما نرى ونلاحظ- إلى الحد الذي جعلهم يدعون إلى إجراء إصلاحات عقدية وفكرية في دين لا يكادون يعرفون عنه شيئاً إلا أنه مخالف لما اتفقت عليه النصرانية المعاصرة؛ التي امتزجت بالليبرالية الغربية ليكوِّنا معاً ديناً آخر يعتقد أصحابه أن على كل مخالف له أن يغير من مواقفه لكي يتماشى مع ذلك الدين الجديد.

إننا على يقين أن ديننا الذي سيبقى دون تحريف؛ يمكنه أن يعالج ويصلح مشكلات الحضارة الغربية، ولذلك يسعى البعض في الغرب للتخلص من الإسلام بشكله النقي، ونعتقد أن بقاء الإسلام نقياً يهدم أسطورة نهاية التاريخ لدى البعض.

نحن نرفض وبشدة محاولة قمع حق أمتنا في أن تتبنى المنطق الفكري الخاص بها، ونؤكد في الوقت ذاته على أننا نهتم بالتعرف على حضارات غيرنا والاستفادة من النافع منها، مع التأكيد على أن الفكر الغربي في مجال

العقائد والتشريعات والأخلاق والقيم ليس عالمياً وليس مقدساً، ولن تجدي محاولة جعله كذلك. إن عموم المجتمعات الإسلامية قد بدأت تعتقد أن هجوم بعض الغربيين على الإسلام باسم حرب الأفكار إنما يعكس فزع هؤلاء من الرسالة الحضارية للإسلام، التي تقف بلا شك ضد الهيمنة الغربية.

إن ما درجتم على تسميته بـ (حرب الأفكار) هو خيار لا نوافق عليه، لكننا لن نتخلف عن التصدي لما يؤذي مشاعرنا؛ فساحة الحرب في مجال الأفكار هي ساحة أمتنا، ونحن فرسان ميدانها، ليس بالضرورة لتميُّز مفكرينا أو صناع القرار في عالمنا، ولكن بما عندنا من يقين وثقة لا تهتز في أصولنا وثوابتنا، وقناعتنا الراسخة بالقدرة على إظهار، بل وتصحيح، ما لدى حضارة الغرب من تناقضات حادة في ميادين الاعتقاد والفكر والمبادئ.

كيف نفسر الهجوم على حرماتنا؟

يظهر لنا من خلال الخطاب الرسمي لبعض قادة الغرب، ومن خلال الطروحات الشفوية أو المكتوبة التي تعبر عن التيارات الفكرية السائدة في الحياة الغربية اليوم، أن الهجوم على العالم الإسلامي ليس حدثاً فردياً أو رد فعل على موقف معين؛ إنه يبدو كمخطط تم إعداده بعناية لتقزيم الأمة الإسلامية في عالم اليوم؛ وهذا ما يفسر استخدام الرئيس الأمريكي (جورج بوش) لعبارة (الحرب الصليبية) في وصف حربه المفتوحة على ما يسمى بـ (الإرهاب) في العراق وأفغانستان وغيرهما، ويفسر كذلك عبارات

رئيس وزراء إيطاليا السابق سيلفيو بيرلسكوني واتهاماته الجائرة للإسلام، واعتباره ديناً متخلفاً، متنكراً لعطائه عبر التاريخ الطويل. وقد تكررت مثل تلك التصريحات على لسان المستشار الألماني السابق الذي ذكر أنه لن يسمح للإسلام بتهديد الحضارة الأوربية.

وهنا يتبادر للذهن سؤال مُلِّح، وهو: ما الغرض الحقيقي من هذا الهجوم بصوره المتعددة؟ إن كان التفسير هو حرية الرأي في نقد الأديان المخالفة؛ فنحن لا نرى في الأدبيات الغربية المعاصرة هجوماً على المعتقدات الأخرى كالهندوسية واليهودية والبوذية وغيرها؟ وإنما رأينا الهجوم على الإسلام وحده مما يبطل تلك الدعوى. كما نتساءل: هل ما حدث أخيراً من أحداث سياسية هو سبب تلك الحملة؟ إننا لا نوافق على مثل هذا الادعاء؛ لأن الهجوم على الإسلام قد سبق الأحداث الأخيرة التي اتهمت فيها قلة من المسلمين بالاعتداء.

إن هناك كثيراً من المفكرين والقادة المسلمين يرون أن الهجمة الحالية على الحرمات والشعائر الإسلامية إنما جاءت نتيجة لإدراك بعض القادة والمفكرين في الغرب أن العالم الإسلامي يستعيد نهضته، ويصحو من غفوته لاستئناف رسالته في إصلاح البشرية وإسعادها، وأنه قد أصبح يمثل منافساً حقيقياً في المجالات الفكرية والحضارية.

إننا ننظر باهتمام إلى تقرير منظمة التسامح الديني بكندا، الذي يقدر عدد المسلمين عام ٢٠٠٣م بحوالي ١,٢٢٦ مليار بما يمثل حوالي ١٩٪ من إجمالي سكان العالم في ذلك الوقت، ويؤكد أيضاً أن الإسلام هو

الدين الوحيد الذي تنمو نسبة معتنقيه بينما تتراجع نسبة معتنقي الأديان الكبرى الأخرى، كما توقعت تلك المنظمة أيضاً أن يكون الإسلام هو الدين الأول في العالم قبل عام ٢٠٢٣م؛ فهل هذه الإحصاءات الأخيرة هي الدافع في عودة نزعة الخوف من العالم الإسلامي لدى بعض القادة والمفكرين في الغرب؟ إنه سؤال نوجهه إليكم.

إننا نتأكد من ازدواجية المعايير عندما نرى استمرار القادة والمفكرين في الغرب في التأكيد على القيم الغربية المتمثلة في دعم الحريات الشخصية والنهج الديمقراطي، في الوقت الذي نشهد فيه تنامي قمع حريات المسلمين في بلادكم والضيق من مظاهر الالتزام بالإسلام في حياة المسلمين اليومية، والتحريض على الإضرار بهم في ديارهم، واستمرار محاولات السيطرة والهيمنة الاستعمارية على العالم الإسلامي.

إننا نلاحظ أيضاً انتقال الأجواء المعبرة عن العداء مؤخراً من بعض قادة الغرب إلى بعض الشعوب؛ بفعل الإعلام والسياسات العدوانية التي تُبرَّر ثقافياً وفكرياً. ونحن ندرك أن الإعلام الغربي ليس منفصلاً عن السياسات بل يتبادل الأدوار مع صناع القرار.

وقد نتج عن ذلك التحريض الإعلامي ما هو أخطر منه، وهو صد الشعوب عن قبول الهداية الربانية. ومن اللافت للنظر أيضاً أن ينجرَّ التيار الديني في الغرب إلى المشاركة بقوة في هذه الحملة؛ إما بتعمد إخفاء حقيقة الإسلام، أو بمحاولة تشويهه وتنفير الناس عنه، أو بإخفاء البشارات القطعية الدالة على نبوة محمد ﷺ في العهدين القديم والجديد.

وهناك ظاهرة أخرى وهي الهجوم الإعلامي والسياسي في الغرب على الكتابات الغربية التي تظهر أحياناً وتنصف المسلمين لكنها تُهاجَم بعنف وضراوة، مما يؤكد أن في الغرب قوى تجد من مصلحتها ألا ترى الشعوب الغربية إلا صورة قاتمة وظالمة عن أمة الإسلام، وعن دين الإسلام.

في الختام:

إننا نؤكد على أهمية الحوار بين الثقافات بضوابطه وأصوله للوصول إلى الحقيقة، ومن ثم إلى الحد من ظواهر الاعتداء بغير الحق. ونؤكد أيضاً على أن التواصل بين الحضارات في عالم اليوم ممكن، بشرط تحقيق العدل والإنصاف.

إن حضارة الغرب اليوم ليست إلا نتاجاً لتراكم حضارات العالم وإبداعه المدني والعمراني، غير أن الغرب يريد احتكار خلاصتها لنفسه ولمن يدور في فلكه، ويصر على حرمان العالم الإسلامي من أسباب التقدم التقني المادي، حتى يظل مشغولاً في صراعاته وخلافاته التي ظل الغرب يثيرها ويؤججها.

إن تعثُّر مسيرة التحديث والتنمية والإبداع عندنا لأسباب عديدة، لأمرٌ يختلف عمّا كانت عليه الحضارة الإسلامية طوال تاريخها، ولكن هذا التعثر لا يعني أننا أمم متخلفة حضارياً وقيمياً، بل إننا نملك ثروة من القيم والمثل ومصادر الهداية والنور، لا يمكن أن نفرط فيها أو نتنازل عن أمانة الدعوة إليها بين البشر.

ندعوكم إلى مراجعة مواقف الاستعلاء الحضاري على الآخرين، ونلح على قادة الرأي والفكر فيكم أن يلتزموا الحياد الموضوعي والموقف النزيه من الإسلام وقيمه العظيمة وعطائه الخيِّر للإنسانية عبر العصور.

قد لا يكون واقع عالمنا الإسلامي متميزاً، ولكن أسس الإسلام العقدية والتشريعية والحضارية والأخلاقية هي متميزة بالتأكيد، وصالحة لكل زمان ومكان. وإذا كنا نرى أن عالم الغرب قد حقق الإبداع المادي، فإن أسسه الحضارية على ما هي عليه الآن غير مفيدة للبشر على المدى الطويل. نحن نؤكد لكم أن عيوب واقعنا لا تشتت رؤيتنا عن أهمية حضارتنا وديننا للبشرية. ولذلك نخاطبكم يا قادة الرأي ويا صناع القرار، ونخاطب من خلالكم الأغلبية الصامتة من الشعوب، ونخاطب أيضاً أولئك المتورطين في حملات العدوان على حرماتنا ومقدساتنا ومقدراتنا ونطالب الجميع بالأمور الآتية:

أولاً: كُفُّوا أيديكم عن ظلمنا وعن التدخل في شؤوننا والتعدي على حرماتنا ومقدساتنا؛ إذ إن تلك التعديات سوف تأتي بآثار عكسية لا تخدم مصالحكم الاقتصادية التي لا غنى لكم عنها في بلادنا، والتي لن تتحقق إلا في ظل العدل والإنصاف.

ثانياً: ندعوكم أن تتعاونوا معنا لكي تُرفَع الأقلام، وتصمت المنابر الإعلامية والثقافية التي تتطاول على المقدسات وتحديداً على قرآننا وشخص نبينا؛ حيث إن البديل في حال الإصرار على استمرار ذلك

التطاول هو أن تلجأ الأمة الإسلامية إلى استعمال حقها المشروع في مقاومة كل ألوان الهيمنة الثقافية والحضارية والسياسية والعسكرية مع الغرب.

ثالثاً: نرى أن تخصصوا -بدلاً من حملات البحث والتخطيط الهادف لاحتوائنا والهيمنة علينا ثقافيّاً واقتصاديّاً وسياسيّاً وعسكريّاً- جزءاً من الجهد الفكري والعلمي للبحث عن الحقيقة فيما يتعلق بالأزمة الحضارية المتفاقمة بيننا وبينكم، وفيما يتعلق بجوهر رسالة نبينا محمد ﷺ، وندعوكم إلى فتح الصدور والعقول لفهم، أو تفهم عالمية إسلامنا وحقائق ديننا وقيمنا، قبل الهجوم عليها والصد عنها.

رابعاً: نشير إلى أهمية أن يهتم المفكرون والقادة في الغرب بإصلاح شؤونهم قبل التدخل في شؤون دول وحضارات العالم الأخرى؛ فالغرب يحتاج حقاً إلى مشروع إصلاح جذري، وهو أولى من مشاريع الإصلاح التي يراد فرضها على عالمنا الإسلامي. ونحن موقنون بأن مجتمعات الغرب ودوله مقبلة على هاوية سحيقة من التفكك والانهيار والإفلاس الحضاري إذا استمر قادته في مسلك تصدير المفاسد والمظالم إلى العالم؛ حيث سترتد هذه المساوئ كلها سهاماً في نحور مصدِّريها ومروِّجيها. إننا في هذه الرسالة ندعو قادة الفكر والرأي في البلاد الغربية إلى تبني مشروع (إصلاح الغرب) بهدف العودة لقيم الإيمان الحقة التي جاء بها الرسل، وبهدف احترام هؤلاء الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ومناصرة الأبرياء وكف الظلم والأذى في العالم أجمع وليس في الغرب فقط. إننا ندعو مفكري الغرب وقادته أن يتبنوا -بل دعوات الإصلاح في العالم الإسلامي أو الشرق الأوسط الكبير كما يسمونه- إصلاحَ مجتمعاتهم فيما يتعلق بقيم الأسرة

والزواج والفضيلة، وأن يُحمَى الفرد من إرهاب الشركات وسلطة الرأسمالية، وأن يُعاد احترام وتقدير القيم الاجتماعية في مقابل قيم السلعة والسوق، وأن ينضم إلى الجهود العالمية في مقاومة تهميش الفقراء، وإعادة الفضيلة إلى التعليم. إنه مشروع آن أوانه لإنقاذ الغرب من سيطرة قلة لا دينية تسعى إلى هدم كل المعايير والقيم الأخلاقية في عالم اليوم.

خامساً: يجب على الغرب أن يعتذر عن إساءاته المتكررة للإسلام، وأن يعتذر أيضاً عن الكثير من الجرائم التي ارتكبت باسمه ضد المسلمين إبان الاستعمار وقبله وبعده، ويجب أن يتفهم طرق إدارة القوة في عالم من التعددية الفكرية والثقافية.

أما رسالتنا إلى من يصرُّون على العداء لأمتنا فهي أن الإسلام لم يتوقف انتشاره عندما هوجم في أي من العصور السابقة، وكذلك لن يتوقف في العصر الحالي ولا في ما بعده من عصور حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وإن الأمة المسلمة لها قدرة فريدة على استعادة النهوض الحضاري بعد الكبوات كما تشهد بذلك حقب التاريخ.

ودور أمتنا لن يتركز فقط في الدفاع عن حرماتها ودينها، بل سيركز أيضاً على فضح مخططات خصوم الإنسانية، وستعرف الشعوب الغربية أن ما يقوم به المعادون للأمة الإسلامية في الغرب يضر بالعالم الغربي أكثر بكثير مما يضر الأمة المسلمة، ويفقد الغرب فائدة التعامل مع أكثر من مليار وربع المليار من البشر يمثلون قوة استهلاكية كبرى في العالم، وتجمع بلدانهم الإسلامية رصيداً ضخماً من كافة الثروات الطبيعية

اللازمة لدفع عجلة التقدم والتمدن، ويحملون على عاتقهم النصيب الأكبر من إمكانية الحفاظ على العدل والإنصاف.

إن الانفتاح على ما عند الغرب من تقدم تقني نافع للبشرية لا يعني ولا يقتضي أن نقايض قيمنا بالاندماج القسري في ثقافته؛ فنحن نعارض الولاء الأعمى للغرب أو لغيره. وإن كنا في الوقت نفسه لا نمانع من الاستفادة من إبداعه التقني والصناعي وتبادل المنافع معه.

إننا ندعو قادة الفكر والرأي في الغرب إلى التعرف الحقيقي على دين الإسلام وعلى الأمة الإسلامية، وحافزنا في ذلك ودليلنا إليه هو الأمر الرباني الذي ورد في كتاب الله -القرآن الكريم- ونجده أفضل ما نختم به رسالتنا إليكم؛ يقول الله -تعالى-: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٦٤].

الفهرس

المقدمة	٥
الورقة الافتتاحية: تعظيم حرمات الله: د. عبد الرحمن بن صالح المحمود	٩
الفصل الأول: إرث الصراع التاريخي والتفوق العنصري	٢٥
مواجهة الرسالة الخاتمة بالرسالات المنسوخة: د.عبد الحي يوسف	٢٧
الاستعمار الحديث، فهم طبيعة العداء وخلفياته: د. همام سعيد	٥٣
المواجهات مع أهل الكتاب في عصر الرسالة وعصور الصحابة رضي الله عنهم والتابعين: أ.د.سليمان بن حمد العودة	٧٧
الفصل الثاني: النظريات الغربية الحديثة وأثرها في تغذية الصراع	١٩
عناصر الشرك والاستكبار والفحش في القيم الغربية: أ. د. جعفر شيخ إدريس	١١١
كتاب نهاية التاريخ وخاتم البشر، دراسة وتحليل: د. سامي محمد صالح الدلال	١٣٥
الفصل الثالث: من مظاهر التطاول الغربي على الثوابت الإسلامية	٢٧
التطاول الغربي على الثوابت: د. محمد يسري	٢٩
الطعن في القرآن الكريم: د.عبد المحسن بن زبن المطيري	٢٣٥

الفصل الرابع: بين حملات التنصير والدعوة إلى الحوار والتقارب	٣٥
الحملات التنصيرية في العالم الإسلامي، أهدافها وبرامجها، (خاصة العالم العربي: السودان ومصر والعراق والجزائر، نماذج): مهدي رزق الله أحمد	٣٧
تقويم تجربة الحوار بين المسلمين والنصارى وضوابط ذلك في ظل حملات التنصير والدعوة إلى الحوار والتقارب: د. أحمد بن عبد الرحمن القاضي	٣٨
الاستشراق المعاصر وأثره في ظاهرة التطاول على الإسلام: د. مازن مطبقاني	٤٣١
الفصل الخامس: دور أهل الأهواء في التطاول	٤٧
رد التطاول على الصحابة الكرام رضي الله عنهم: د. عبد الستار فتح الله سعيد	٤٩
تطاول المنافقين على الثوابت: د. سعيد بن ناصر الغامدي	٥٣
الفصل السادس: تقويم تجربة الأمة بعد أزمات التطاول على الثوابت	٥٧١
دور الحكومات والمؤسسات وتقويم تجربتها بعد أزمات التطاول على الثوابت: رائد حليحل	٥٧
وجْهُ الإخفاقات في المواقف القريبة للأمة في تعظيمها للحرمات: د. الشريف حاتم بن عارف العوني	٦٠١

تقويم تجربة الشعوب الإسلامية بعد أزمات التطاول على الثوابت: د. عادل بن علي الشدّي	٦٥
الفصل السابع: واجب الأمة في نصرة دينها ونبيها	٦٧
دور العلماء والمثقفين في استراتيجية المواجهة: الشيخ: أ. د. ناصر العمر	٦٩
واجب الأمة في نصرة نبيها محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم: الشيخ الدكتور سلمان بن فهد العودة	٧٢
دور الحركات الإسلامية في استراتيجية المواجهة: د. عبد الوهاب بن لطف الديلمي	٧٣
وثائق المؤتمر	٧٣
أولاً: البيان الختامي لمؤتمر تعظيم حرمات الإسلام	٧٥
ثانياً: دعوة للمراجعة! (رسالة موجهة إلى قادة الفكر والرأي في الغرب)	٧٨٧
الفهرس	٨٠٧